



عبد الرحمن بشكيري

المؤلفات النثرية الكاملة



المجلد الثاني

تحرير وتقديم

د. أحمد إبراهيم الهواري



mohamed khatab



mohamed khatab



mohamed khatab



mohamed khatab



mohamed khatab



mohamed khatab



mohamed khatab



mohamed khatab



mohamed khatab

المجلس الأعلى للثقافة

عبد الرحمن شكرى

المؤلفات النثرية الكاملة

المجلد الثانى

لمحات من سيرة أدبية

١ - خيول الشوق*

١- رأى فى الشعر الحديث *

بعد تركى المكتب بدأت أتعلم اللغة العربية فى مدرسة بور سعيد الابتدائية سنة ١٨٩٥ على الطريقة القديمة أى طريقة حفظ الإعراب قبل دراسة قواعد النحو واللغة وكان ذلك بالسنة الأولى الابتدائية فكان الشيخ مصطفى رحمة الله عليه يلى على التلميذ بيتاً من الشعر فيكتبه التلميذ الصغير على السبورة ثم يعرّيه الشيخ ويحفظنا إعرابه بالعصا . ونحن لانفهم معنى ذلك الإعراب لأننا ما كنا درسنا قواعد النحو وأرجو أن لاتكون قد خانتنى الذاكرة فى هذا الأمر فإننى أريد الإنصاف ولكن الذى أذكره أن هذه كانت طريقته وكان الشيخ يفرى بالأبيات التى تكثر فيها المحسنات البديعية من جناس وغيره . وقد كادت هذه الطريقة تبغض إلى اللغة العربية وهى على أى حال قد بَغُضَتْ إلى كتب النحو وطريقة الجناس . إلا أن تحفيظنا الشعر فى الصغر جعلنا نحب الاطلاع عليه . وقد وجدت فى مكتبة أبى كتاب الوسيلة الأدبية للشيخ المرصفى الكبير وكان فى الجزء الثانى من كتاب الوسيلة مجموعة صالحة من شعر الشعراء الذين احتذى البارودى طريقته فى قصائد مختلفة مثل الحسن بن هانى والشريف الرضى وغيرهما . وقد أفادنى الشيخ المرصفى الكبير لحسن اختياره وسلامة ذوقه وموازنته بين الشعراء وسعة اطلاعه وعلو ذهنه عن التعصب لشاعر واحد أو طريقة واحدة مهما تكن جليلة . فإذا كنت مديناً لأحد فأنا مدين للشيخ المرصفى الكبير بما أفادنى فى كتاب الوسيلة الأدبية ومدين للشعراء الذين اختارهم . وكنت أقدم من الشعراء المعاصرين البارودى بسبب هذا الكتاب . ولم أكن قد قرأت فى ذلك العهد شعر شوقى أو حافظ أو خليل مطران ولم أكن قد سمعت ببعضهم فإننى ما كنت أقرأ الجرائد أو المجلات . وكان اطلاعى على شعراء الوسيلة الأدبية بين سنة ١٨٩٥ و ١٩٠٠ ثم انتقلت إلى مدرسة رأس التين الثانوية وكان أستاذنا فى اللغة العربية الشيخ عبد الحكيم حسن الاختيار والشرح ولا أزال أذكر شرحه لأبيات شعر المعرى يصف فيها غديراً وهى قوله :

تَظُنُّ به ذُوبَ اللَّجَيْنِ فان بدت	له الشمس أجرت فوقه ذوب عسجد
تببت النجوم الزُّهُرُ فى حجراته	شوارع مثل اللؤلؤ المتبسّد

فَأُطْمَعْنَ فِي أَشْبَاحِهِنَّ سَوَاقِطًا عَلَى الْمَسَاءِ حَتَّى كَذَنْ يُلْقَطْنَ بِالْيَدِ
فَمَدَّتْ إِلَى مِثْلِ السَّمَاءِ رِقَابَهَا وَعَبَتْ قَلِيلًا بَيْنَ نَسْرِ وَفَرْقَدِ

ويعنى بالضمير فى مَدَّتْ ، الإبل فى القافلة ويعنى بمثل السماء الغدير الذى انطبعت فيه صورة النجوم من نسر وفرقد والتى شبهها فى البيت الثانى باللؤلؤ فى الغدير ووصف الغدير بأنه إذا سطع عليه القمر ليلاً وسطعت النجوم كان كذوب الفضة وبالنهار إذا سطعت عليه الشمس كان كذوب الذهب. وهذا الاختيار الحسن جعلنى أغرى بأحسن ما فى الشعر العربى. وكان أستاذنا فى اللغة الانكليزية المستر ستيفنز لا يقتصر على الكتب المقررة بل كان يشجعنا على قراءة كتب أدب اللغة الانكليزية فى طبعة سهلة رخيصة وكان يجمع منا نقوداً ويشتريها لنا فأطلعنا على مجموعة صالحة من الكتب التى كان قد سهل طبعها للتلاميذ المستر ستيد صاحب مجلة المجلات الانكليزية . ولم يقتصر على الأدب بل كان يشجعنا على اقتناء نسخ رخيصة جداً ومتقنة من الصور الفنية . وأظن أن المستر ستيد كان أيضاً صاحب هذا المشروع . وما يدل على تأثرى بالبارودى أنى رثيته عند موته بقصيدة طبعها خليل بك مطران فى مجموعة مراثى البارودى ولا أذكرها الآن ، ولكن لا أحسب أنها كانت ذات قيمة . وقد زاد اطلاعى على الأدبين العربى والانكليزى فى مدرسة المعلمين العليا وكانت الوزارة قد وزعت علينا كتاب الذخيرة الذهبية فى الشعر الانكليزى وكتباً أخرى وكتاب الذخيرة يدل على حسن اختيار وسعة إطلاع وهذه هى الكتب التى تأثرت بها فى نشأتى الأولى وقد اطلعت المرحوم حافظ بك ابراهيم على قصائد من قصائد الجزء الأول من ديوانى فى حفل حضره ففطن إلى أنى أحتذى شعراء الصنعة العباسية ، كما فى قصيدة البيت الآتى :

عمى الدجى عن مطلع الفجر فى ليلسة كسريرة الدهر
وفى هذا البيت احتذاء لقول ابن المعتز :

يا ليلة نسى الزمان بها أحداثه كوني بلا فجر
وفى البيت :

لاتلح مشتاقاً على شجن إن الشباب مطية العذر

احتذاء لقول الحسن بن هانئ : (إن الشباب مطية الجهل) .

والقصيدة (أتنكر أشواقى وأنت : ليلها) فيها احتذاء ظاهر لقصيدة الشاعر الذى يقول (وأنت ولا من عليك حبيبها) وقصيدة (راحة الهوى تعب) فيها احتذاء لقول الحسن ابن هانئ (حامل الهوى تعب) وقصيدة :

وزاولتُ السباق بها فلما

سبقتُ البرقَ جاريتُ المراداً

بلغت بها المدى فلو استزادت

فيها احتذاء لقول المعري :

وكم من طالب أمدى سيلقى

دوين مكانى السبع الشداداً

لى الشرف الذى يطأ الثرى

والبيت :

أيهذا الغريب بالبلد النازح

ماذا دهاك عند الغروب

فيه احتذاء لقول الشاعر، ولعله العباس بن الأحنف

با رحمة للغريب بالبلد النازح

ماذا بنفسه صنعاً

ولو أن الوزن مختلف . وقصيدة

فكأنهن أزاهر منثورة

نثر المبشر غرة الخبر الندى

فى بعض أساليبها محاولة احتذاء مسلم فى قوله (عاصى الشباب فراح غير مُقنّد)

والبيت :

ذكرتُ به ليلاً كأن نجومه

ثقوب نرى منها الصباح المسترا

فى احتذاء لقول ابن المعتز (ثقوب نرى منها الصباح وأنقاباً) وقصيدة:

شكوتُ إليه ذلتى فتحكما

وأرسلت دمعى شافعا فتبرما

وقال له الواشون أنت وصلته

بيعتك طيفاً فى الكرى فتظلما

وخبر أنى سوف أخلص نظرة

إليه فأضحى بالحياء ملثماً

فيها احتذاء ومعارضة لقول أبى تمام

تلقاه طيفى فى الكرى فتجنباً

وقبّلت يوماً ظله فتغضباً

وخبر أنى قد مررتُ ببابه

لأخلص منه نظرة فتحبباً

وقصيدة :

وكيف ألوم الدهر فيما يربنى وأحسن شئى فى الزمان عيوبه

فى بعضها احتذاء لقصيدة للشريف ، معارضة لها وهى التى يقول فيها :

وإنى لعرفان الزمان وغدره أبیت ومالى فكرة فى خطوبه

ولم يعب حافظ ابراهيم هذا الاحتذاء وهذه المعارضة بل أثنى عليهما وقال : إنهما يتجيان من رطانة الفرجة وعلى مر الزمن قللت من هذا الاحتذاء الظاهر وبقيت فى ذهنى نصيحة حافظ وأثر الشعر العربى المختار المتنوع الذى احتذيته وفى هذا الجزء الأول أثر أيضاً لما اطلعت عليه من الشعر الانكليزى مثل قصيدة (تحية للشمس عند شروقها) وقصيدة (حنين الغريب عند غروب الشمس) وقصيدة (رثاء الحب) وكان احتذائى للشعر الانكليزى فى توليد الموضوعات الجديدة لا فى أساليبها . وبعد انتهائى من مدرسة المعلمين سافرت فى بعثة إلى انكلترا سنة ١٩٠٩ أى قبل الحرب العظمى بنحو خمس سنوات وطبعت الجزء الثانى بعد عودتى ولاتغلب عليه نزعة التشاؤم ولانزعة المذهب الطبيعى ولم أفهم تمام الفهم ما يعنى الكاتب بالمذهب الطبيعى . ففى الديوان قصائد ونظرات فى حياة الأمم وفى الإيمان والقضاء وفى الحياة والعبادة وفى القلق الذى هو مصدر الرقى وفى الجمال والعبادة وصلتهما وفى ضحكات الأطفال وفى وصف البحر وفى معان لا يدركها التعبير وفى لسان الغيب وفى الشاعر وصورة الكمال وفى عيون الندى وفى الإنسان والزمن وفى ابتسامات وفى الحسن والآمال النبيلة وفجر الشباب والإيمان بالحياة إلخ . ولا يقول إن التشاؤم يغلب عليه إلا من لم يتح له الاطلاع عليه أو من يتعمد التضليل . وفى الديوان أثر دراسة شعراء مختلفى النزعة . فلا يستطيع مطلع أن يقول إنه تغلب عليه نزعة شاعر واحد أو مذهب واحد فان كان فيه تشاؤم وحزن ففئة أمل وسرور وما يصدق على هذا الجزء يصدق على غيره . ومن المشاهد أن الشاعرين الانكليزيين اللذين تأثرت بهما فى أول الأمر كانا يميرون وشلى وأعجبت ببيرون لقوة شعره وشلى لطموحه إلى المثل العليا وهما من شعراء المذهب الخيالى لا المذهب الطبيعى ولولا أن التبسط فى الشرح يأخذ من المجلة مكاناً لتبسطنا .

* * *

كان هذا الشرح التاريخى ضرورة كى أستخلص منه نصيحة للشبان وهى أن لا يقصروا إطلاعهم على شاعر أو على عصر من عصور الأدب دون عصر وأن يكون أساس اطلاعهم الأدب العربى وأما الأدب الأوروبى فهو لنا فى المنزلة الثانية ولا يكون الاطلاع عليه مفيداً إلا

بعد دراسة الأدب العربى فى العصور المختلفة وينبغى أن لا يفتروا بالنظريات التى يذكرها نقاد يكتبون مقالات مطولة من غير إيراد الشواهد العديدة والأمثلة من شعر ونثر ومن غير نظر إلى جوانب الموضوع ، وينبغى أن لا يخدعهم قول من يريد تلقيح اللغة العربية بأساليب افرنجية إلا ما كان يمكن قوله على سبيل الاستعارات والتشبيهات بحسب أصول اللغة ولو لم يطلع قائله على الشعر الأوروبى . ولا أن يخدعهم قول من يفضل جمال الدين بن نباتة المصرى على عبد العزيز بن نباتة السعدي على ضالة الأول وعظم مرتبة الثانى لأن الأول كان مصرياً ولغته أسهل وأقرب إلى لغة الكلام فهذا ليس أجل شئ فى الشعر وتعمد جعل لغة الشعر قريبة من لغة الكلام لا يأتى بالسهل الممتنع وإلا ما سمي محتجاً فهو محتج لأنه بعيد عن ركاكة وغشائية وفتور من يحاكي لغة الكلام ، وأرجو أن لاتخدعهم أيضاً الأزياء التى تذيع فى الشعر أو النثر ثم لاتلبث أن تنطوى وتزول كما تنطوى الأزياء وربما خلفت قوة الشاعر الممتاز الذى يكتب على منهج تلك الأزياء والعادات المؤقتة قصيدة أو قصيدتين فيهما ثمرة وفكرة وروح من العبقريّة والخلود ولكن أكثر شعر هذه العادات المؤقتة يكنس كما تكنس بقايا الطعام. ومن هذه العادات والأزياء التى ينادى بها مذهب الرمزية فكل شاعر يستخدم الرموز ولكن ليس كل شاعر بشاعر رمزي ولا بد أن يذكر الشبان أن الشعر صنعة وأن النثر صنعة وليس معنى هذا القول أنهم ينبغى أن يشقلوا قولهم بالأساليب حتى يصبح قولهم كالكابوس فإن الصنعة شئ والتصنع والتكلف أمران آخران ولا يعرف الفرق إلا بالاطلاع على العصور المختلفة كى لا يعيش الواحد منهم عالة على شاعر واحد قديم أو حديث مهما يكن كثير الأناقة ولا يفرنهم قول من يريد أن يبشر كالمبشر الدينى ببعض الآراء العلمية الحديثة من غير أن تحولها كيمياء النفوس وصنعتها من صيغة العلم إلى صيغة الفن ومن غير أن تختمر فى وجدان الفنان ومن غير أن يميّط ذوقه عنها غشاء المغالاة وقلة الاتزان فى المناداة بها فإن تعصب الشاعر شلى لأرائه المخالفة للأديان يقل من قيمة فنه وصنعتة حتى لدى من لا يؤمنون بالأديان وإنما تقل مرتبة شعره عند هؤلاء لا من أجل غيرتهم على الأديان بل من أجل أن بعض التعصب ضد الأديان يفقد الشاعر اتزانه وقدراته الفنية وذوقه . وكذلك كل تعصب لرأى سياسى أو اقتصادى قد يفقد الشاعر بصيرته النفسية وذوقه ويقلل من قيمة شعره فالذوق الفنى والبصيرة النفسية المتزنة لازمان حتى للشاعر الذى يريد أن يعبر عن شكوك نفسه. وكذلك أحذر الشبان مما يسمى بالشعر الحر ويعنى به أصحابه قصيدة تكتب أشطرها وأبياتها على بحور عروضية مختلفة وهذا الشعر يذكرنى قصة ملك زنجى من أواسط افريقيا ومن رعايا الدولة البريطانية

زار لندن عاصمة انكلترا : نظمت له وزارة الخارجية حفلة موسيقية ، وبعد توقيع الأدوار طلب الملك الزنجي أن يعاد توقيع الدور الأول فوقه العازفون فقال : ليس هذا بالدور الأول فأعادوا توقيع كل الأدوار وهو يقول ليس بالدور الأول وأخيراً سكت الموسيقيون للاستراحة وجعل كل منهم يصلح آله الموسيقية وهو فى أثناء إصلاحها يُخرج منها صوتاً يختلف عن أصوات الآلات الأخرى فصاح الزنجي ها هو الدور الأول .

والشعر الحر المختلف الأوزان فى قصيدة واحدة قصيرة وفى البيت الواحد إنما هو من قبيل هذا الدور الأول. وقد بلغ من استهتار بعض الأفاضل أنهم يسخرون بمن يتذوق العبارات كما يتذوق الشارب شرابه من اللذة . وربما كان فعلهم هذا من قبيل رد الفعل بسبب مغالاة بعض الشعراء فى إثقال شعرهم بكابوس من الأساليب العربية الصحيحة التى ليس تحتها طائل والتى يهيلونها حتى تصبح أكواماً تخفى تحتها غثاثة المعنى ونضوب العاطفة . وأنا لست ممن يطرى طريقة هؤلاء ولا طريقة الساخرين الذين يتجاهلون أن الشعر صنعة وإنما يدفعهم إلى هذا التجاهل خوفهم من كابوس التصنع .

لقد نشرت فى المقطم والمقتطف والرسالة قصائد عديدة فى المقتطف نشرت قصائد موضوعاتها النشوء والارتقاء والحق والحسن وقيد الماضى وحواء الخالدة وحالتان للنفس ونشرت فى المقطم قصيدة إلى المجهول والخلق العظيم ونشرت فى الرسالة قصائد فى موضوعات مختلفة وهى مختلفة لاختلاف جوانب الثقافة الفكرية والنفسية التى أنشدها . وبالرغم من إجلالى لخليل بك مطران والدكتور أبى شادى أقول إنها ليس فيها احتذاء لطريقة خليل بك ولا تقارب من طريقة أبى شادى فى الذوق . وإهدائى نسخة من ديوان الشريف الرضى للأستاذ المازنى سنة ١٩٠٦ يدل على مذهبي فى الشعر وإن كنت لا أتفانى فى أساليب الشريف ولا أرفض ما عده من شعراء عصره أو العصور الأخرى. أما التقارب بينى وبين الأستاذ العقاد فى الثقافة الشعرية فسببه اطلاعى على ثقافة واحدة كما أوضحت . وقد فسر بعض الأدباء شيئاً من قولى على غير ما أردت فقصيدة (بين الحب والبغض) فى الجزء الثالث وهى القصيدة التى ألقى عنها الأستاذ المازنى محاضرة كما ذكر لى فى خطاب إنما هى دراسة نفسية أغرت بها أبيات لجميل بن معمر الشاعر العربى يقول فيها (رمى الله فى عيني بثينة بالقذى) وقصيدة (ليتنى كنت إلهاً) فى الجزء الثانى أغرى بنظمها الاطلاع على الحرافات الإغريقية والتأثر بقدوة هينى الشاعر الألمانى، وهى ليس فيها تمجيد لعمل ذلك الإنسان

الراغب فى صلاح الكون لأنه لم يصلحه وفيها تمجيد للفنون ومسراتها ولكن صرف النفس عن الأحاسيس الأخرى غير الفنية مضرة كما وصف فى هذه القصيدة وكما وصف تيسون الشاعر الانكليزى فى قصيدة (قصر الفن) . وكذلك يأبى بعض الأفاضل إلا أن يسئ تفسير قصيدة (حلم بالبعث) وهى سخر بعيوب النفس الإنسانية من تقاتل وتهافت ولمثل هؤلاء الأفاضل أقول اقرأوا قصيدة (صوت الله) و (الملك الثائر) و (الأرواح الطليقة) و (سجن الفضيلة) و (زورة الملائكة) و (المثل الأعلى) و (صلاة مؤمن) و (الكونان) و (الأمل) . والظاهر أن القارئ لا يأخذ من قول القائل إلا ما يشاء لغرض فى نفسه ثم يفسره بما تشاء أهواؤه وإلا ما ترك قارئ قصيدة (الباحث) وغيرها من القصائد التى تدل على طموح إلى المثل العليا وعلى أمل فى الحياة والإنسان ولما تغابى أحد عن أن الامتنعاض والسخر قد يكونان مظهرًا من مظاهر الأمل والرجاء ولما ترك القارئ قصائد عديدة فى مذاهب جريئة أو بروننج الثقافية وتشبث بقصائد فيها وصف خفيف لمقايح النفس الإنسانية على طريقة سوينبورن .

* * *

هذا ولست ممن يدعى لنفسه العصمة من خطأ اللفظ أو العقل أو النفس ولو أنى طبعت شعري لحذفت منه أشياء لا قيمة لها ، أو يُساء بها الظن على نحو ما أوضحت فى هذا المقال . ولعل من قام الفائدة والحجة أن نذكر شواهد أخرى من الجزء الأول للدلالة على ما كان من احتذائي العباسيين فى صناعتهم وإبطال زعم الناقد الفاضل فى الجزء الأول قصيدة عنوانها (شكوى) منها :

ومُطْلَب بالعتب هجرى لم أزل	أداريه حتى عارضته مذاهبه
يعالج منى باسم الثغر راضياً	وأخبر غيراً أنكرته معائبه
أجود بنفسى فى هواه سماحة	ويبخل بالنزر الذى أنا طالبه
وما كل أمر تستقيم صدوره	لمن لم يرضه تستقيم عواقبه
روكل بهى الإعراض حتى ألفت	وما كل صافى الوجه تصفر مشاريه
وليل كإغضاء الحليم ادرعته	لأقضى أو تتجاف عني غياهبه

وفى هذه القصيدة احتذاء لقصيدة لبشار على الوزن والقافية والروى ، وفيها دعوة أيضاً إلى التسامح فى الإخاء . وهى التى يقول فيها :

إذا كنت فى كل الأمور معاتبياً صديقك لم تلق الذى لاتعاتبسه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت وأى الناس تصفو مشاربته

* * *

ولعل ناقدًا يقول : كيف يتفق الاحتذاء وإرضاء مطالب النفس . وهذا الناقد يفوته أن الاحتذاء شئ والنقل والأخذ بالنص أو شبه النص شئ آخر . والأخير هو الذى لايرضى مطالب النفس والوجدان . وفى قصيدة (خداع الغواني) فى الجزء الأول وصف للطبيعة منه :

نسمات الريح تخفق كالعتب برفق فعل اللبيب الخبير
فهى تغدو ما بين غصن نصير فاتن حسنه وغصن نصير
كالرسول الأديب بين محب وحبيب أو كالحكيم السفير
بعقد الصلح فى أناة كما يعقد رب النهى قضاء الأمور
وضياء الشمس المنيرة كالبشر إذا ما احتواه وجه البشير
وهناك الطير المفرد كالش لاعر يتلو حمد الزمان النصير
نعمات لم يحوها المطرب البار إلا دعوى نفاق وزور

إلخ . وهى احتذاء لقصيدة المعرى التى يقول فيها :

فهى تختال فى زرجدة خض راء تغدى بلؤلؤ منشور
وغدت كل ربة تشتهى الرق ص شوب من النبات قصير

وفى القصيدة بعض قوافى المعرى فدعوى نفاق وزور من قول المعرى (دعوى شقاق وزور) وتشبيه النسيم بالعتب فيه التفات إلى قول جحظة (عتاب بين جحظة والزمان) . ومن فكاهات النقد أن ناقدًا انتقد فى قصيدة رثاء مصطفى باشا كامل قولى (والمنى دانية والمجد عالى) وقال هذه عبارة تعوزها الفخامة. قلت : هى من قول شاعر الفخامة، الشريف الرضى: (فالبنى وافية والمجد عالى) فى قصيدة له فى الرثاء . وزعم ناقد آخر أن عبارة (الأمم المعسول) إنكليزية قلت : هى من قول أبى تمام :

كانت لكم أخلاقه معسولة فتركتموها وهى ملح علقم

وقد استخدمها الباحثون وغيره أكثر من مرة ، فى وصف الآمال والأحلام والأيام والليالى
إلخ وفى الجزء الأول قطعة عنوانها (غلالة الصهباء) منها:

فتعشى الحياء فى الخد حتى حَبَّيْتُه غلالة الصهباء

والمراد احمرار كاحمرار الخمر . وهذا احتذاء لغلالة خمر فى قول أبى تمام

خدش الماء جلده الرطب حتى خلته لابسا غلالة خمر

* * *

هذه الشواهد تدل على منشأ ثقافتى فى الأدب العربى كما أن قصيدة (بيرون) شاعر
المذهب الخيالى فى الجزء الأول ، تدل على منشأ ثقافتى فى الأدب الانكليزى ، وهى التى قلت
فيها :

تقول قولاً فنذرى الدمع من شجن كأن قلبك مدلول على العبر

ألبسته من سواد الحزن ضافية فخلتها من سواد القلب والبصر

ورثائى البارودى فيه دلالة أخرى كما ذكرت . ولحافظ ابراهيم فضل على الأدب العصرى،
حتى أن شوقى بك نفسه فى أول أمره لم يكن يتذوق الأساليب ويتوخى الأناقة ، حتى خشى
على شهرته من نبرغ حافظ واشتهاره بتذوق الأساليب فجاراه شوقى وجاراه مطران . وقد أثبت
معرفتى بأقوال جويتى الألمانية وقدوته ما بدأت معرفتى بسعة اطلاع الشيخ المصطفى الكبير
فى كتاب (الوسيلة الأدبية) من توخى الثقافة المتعددة الجوانب وهذا موضوع يستلزم مقالاً
آخر لإثباته بالشواهد والأدلة وسأكتبه .

فصل ثان من نشأتى الأدبية

٢- الشعر والثقافة *

قد أوضحت فى المقال الأول مصادر الثقافة التى تأثرتها فى الجزء الأول من ديوانى من عربية وأوربية والأحوال التى جعلتنى أتأثرها وأوضحت أثر احتذائى بشار بن برد والحسن بن هانى ومسلم بن الوليد والعباس بن الأحنف وأبا تمام وابن المعتز والشريف الرضى والمعرى وغيرهم ولم أذكر المتنبى فى المقالة ولو أن أثره كان كبيراً من الناحية الفكرية لا من ناحية الأسلوب لأن الذين يفضلون فى أثناء احتذاء الأساليب والصنعة البيانية هم الذين ذكرتهم قبل وذكرت شواهد هذا الاحتذاء والتأثر ومهما تكن عيوب الاحتذاء فإنه أفادنى ومنعنى عند اطلاعى على الشعر الأوربى من الاندفاع وراء الأوهام والمغالاة والتجارب العقيدة ولا سيما أن هذا الاطلاع وهذا الاحتذاء للشعر العباسى العالى فى كتاب الوسيلة الأدبية وغيره من الكتب كانا فى سن مبكرة جداً وابتدأ من السنة الأولى الابتدائية وكانت وقتئذ تعادل فى السن والمعارف السنة الثالثة الآن وربما كان من الفائدة أنى تأثرت بشعر التنميق والصنعة العباسية قبل أن أتأثر بشعر العاطفة العذرى الذى هو أقدم منه زمنًا ولو أن الصنعة العباسية فى بعضها عبث فى العاطفة ولم أتأثر بشعر الشعراء العذريين من شعراء العرب إلا بعد عودتى من انكلترا فى الجزء الثالث وما بعده .

ولعل اطلاعى على نسيب كتاب (الذخيرة الذهبية) فى الشعر الانكليزى ونسب بيرون وشلى قلل من مغالاتى فى عبث نسب الصنعة العباسية وأكسبنى شيئاً من العاطفة الفنية وكنت فى ذلك الوقت لا أستطيع أن أنقد بيرون ولا أن أفهم عيوبه ولا أن أعرف أن النفوس التى يصفها متقاربة محدودة الصفات عقيمة فى بعض أعمالها وأحاسيسها وإنما راقنى منه ما رأيته من قوة شعره واندفاعه اندفاع السيل الأتى وثورته على الأكاذيب . وقد علمنى بيرون نشدان الحرية وإن كنت لا أنتصر لها على طريقة السياسى وإنما على طريقة الفنان كما فى قصيدة (الحرية) و (العصر الذهبى) وغيرهما وقد كنت أحب شلى أيضاً ولم أكن أستطيع أن أنقده فى ذلك الوقت وأن أفهم أن خياله فى بعض الأحيان يحلق فى السحاب بعيداً عن

حقائق الحياة ولا أن تعصبه ضد الأديان مما أخل باتزانه الفنى وإنما كان يعجبني منه طموحه إلى المثل العليا وحب الحرية وكرهه النفاق وكانت تعجبني بعض تشبيهاته الرائعة السائغة فى كل لغة ونسيبه الرقيق الذى لم يشغله بالخيال المتكاثف كما كان يفعل أحياناً وقد بقى معى من الثقافة الشعرية الأوروبية أثر بيرون وشلى حتى بعد عرفانى حدود ونقائص شعرهما . ولعل أعظم مورد لثقافتى الأوروبية كان سفرى فى البعثة العلمية إلى انكلترة سنة ١٩٠٩ وهذا المورد كثير الجداول والعيون فمنه الثقافة التى أدى إليها اختلاف مظاهر الطبيعة فى انكلترة عنها فى مصر والثقافة التى دعت إليها دراستى جويتى الحكيم الألمانى ودراستى المعجبين به أمثال كارليل وإمرسون والثقافة التى كنت أدرسها فى جامعة شفيلد فى التاريخ والجغرافية والاقتصاد السياسى وعلم السياسة والنظريات السياسية ونظم الحكم والثقافة التى سهلها وجودى فى انكلترة وهى ثقافة دراسة الشعراء الذين كانوا فى ذلك الوقت يعتبرون الشعراء الحديثى العهد مثل سوينبورن وروزيتى واوسكار وايلد وغيرهم وأمثالهم عن ترجم بعض شعرهم إلى الإنكليزية أمثال بودلير والثقافة التى مكنتى منها علمى بطبعات مختلفة فى انكلترة لمصادر الثقافة المختلفة وسهولة الحصول على كتب منها إما بالشراء وإما بالاستعارة من المكتبات مثل طبعة بوهن وكان بها جميع مؤلفات جويتى مترجمة إلى الإنكليزية ومؤلفات هينى الشاعر الألمانى المناسب الساخر وغيره من أدباء الألمان وفلاسفتهم أمثال شوبنهاور وكان بها أكثر كتب الأدب والفلسفة الإغريقية القديمة مترجمة ومثل طبعة فريمان وهى معروفة أفادت كثيراً من المطلعين وبها مصادر متعددة للثقافة الانكليزية وثقافات اللغات الأخرى منقولة إلى الإنكليزية ولاسيما أكابر شعراء الإغريق القدماء ومنها طبعة كانتربورى وكانت بها مجموعة صالحة من شعر شعراء الانكليز والأهم المختلفة مترجمة أيضاً وطبعة سكوت وكانت أيضاً من أكثر الطبعات تنوعاً وطبعة روتلج على اختلاف أقسامها وطبعة لين التى بها جميع مؤلفات أناتول فرانس مترجمة إلى الإنكليزية وطبعات أخرى عديدة لا داعى لمصرها وهذه الطبعات قلما كنا نعثر بمؤلفات كثيرة منها فى ذلك العهد فى مصر وإذا عثرنا فلم نعثر بالكثرة التى وحدناها فى انكلترا وبالأثمان الرخيصة التى كانت سائدة فى ذلك الوقت وهذه الثقافات كلها لم تنسنى الأدب العربى والثقافة العربية لأنى أخذت كتبى معى وكنت أدمن قراءتها: فأما الثقافة الأولى وهى ثقافة تعدد مناظر الطبيعة وتنوعها فى انكلترا فقد كان لها أثر عظيم فى نفسى حتى فى أثناء سفرى إلى مستقر إقامتى وأنا أنظر من نافذة القطار ولا أزال أذكر ملاحظتى لاختلاف تلك المناظر التى رأيتها من نافذة القطار عن المناظر التى كنت أراها من

نافذة القطار في مصر. ففي مصر ترى الأرض سهلاً كأنما صنعها مهندس بالمسطرة على ورقة وعلى مستوى واحد وفي انكلترا ترى القطعة الصغيرة من الأرض تتفاوت في الارتفاع والمظهر تفاوتاً عجيباً وقد بقى أثر تعدد مناظر الطبيعة في نفسى حتى بعد عودتى من انكلترا وفي انكلترا رأيت الوديان الصغيرة التى تحوطها الجبال ورأيت التلال والجبال مكسوة بالأشجار ومغطاة بالجليد أو بدقيق الثلج شتاء ورأيت بقايا الغابات الكبيرة القديمة ولهذه البقايا أثر في النفس لا يقل عن أثر الغابات الكبيرة القديمة ورأيت المياه المنحدرة من تلال وكان أثرها في النفس لا يقل عن أثر المساقط المائية العالمية الكبيرة لدى من كان صاحب خيال وإحساس ورأيت دقيق الثلج يكسو الشوارع والبيوت ويجعل النهار المشمس كالليل المقمر فزاد معنى قول أبى تمام وضوحاً في نفسى وإن كان أبو تمام يشير إلى الزهر لا إلى دقيق الثلج وهو قوله :

تربا نهاراً مشمساً قد زانهُ نور الربى فكأنما هو مقمر

وقد زادتني مشاهدة تلك المناظر المتعددة قدرة على الوصف حتى على وصف المناظر غير الانكليزية سواء في ذلك الشعر الذى كتبتة في انكلترا أو بعد عودتى فنظمت قصيدة في وصف الغابة ومظاهرها وأصواتها المختلفة وأثرها في النفس واقتداء بناة الكنائس الكبيرة (الكاتيدرائية) في القرون الوسطى بمناظرها في فن بناء الأعمدة والسقف على فط البناء القوطى المعروف ، وقارنت بين حياة الناس فيها قديماً وبين حياتهم في المدن الكبيرة الحديثة وبقاء شريعة الغابة في النفوس ومنها :

لبث الناس فيك دهرأ فناجا	هم سرار الفنون بالإيحاء
حين شادواللدين بيعة إيما	ن تبست كالغابة اللفاء
وارتضيت الأمان من بعد ذعر	لم يزل في (المدينة) السماء ^(١)
غابة شادها ابن آدم نزلا	دوحها من قصورها الزهراء
ومخوف من الفجاسة فيها	كمخوف في الغابة القتماء
واحتيال ليقنص الرزق والصـ	يد مواء في مكرة كسواء
وأفاع ففى دورها وقروود	ووحوش من ناسها بالعراء
فكان الأقوام لم يخرجوا منـ	ك ولا زال عهدك المتنائى

(١) ارتضيت الأمان أى أنها كانت آمنة معدة للنزهة واللهو .

سنة قد سننتها فى نفوس إن دعتها كانت جواب النداء

ووصفت المسقط المائى فى قصيدة (الشلال) ومنها :

يا أخا الصمت فى الجلالة والرو	ع وصنو النكباء والهوجاء
أحسب الخلد مثل مائك ينهما	ر ونفسى فى مائه كالهباء
ليت أن الحياة مثلك تعسدر	لا تراخى مثل الجياد البطاء
إن للعيش كدرة تذر النفس	حس ركوداً كآسن فى نهاء ^(١)
فأعنى على الأواسن من نفسى	بفيض ينهار مثل البناء
ولعل الحياة كالماء تجرى	بين هذا الثرى وبين السماء
لك فى النفس نشوة مثلما استش	رف راء من شاهقات العلاء

وقد وصفت منظر دقيق الثلج الذى أذكرنى قول أبى تمام فى قصيدة الشتاء فى انكلترا

ومنها :

نشر الضرب على البسيطة حلة	بيضاء تمحو غبرة الفبراء
يسمى على وضوح النهار كأنما	يسرى الفتى فى ليلة قمرأ
فكأن نور البدر ما حلى الشرى	برواء تلك الحلة البيضاء
وإذا استراح لمصر من لونه	راء ترى الأحلام عين الرائي
إلخ الخ ومنها فى وصف المواقد فى البيوت :	
وإذا المواقد فى البيوت تضاحكت	من شدة الإيقاد والإذكاء
خلت الربيع سعى إليك بحفله	والنار زهر الجنة النيعاء
يذكرى الوجوه لهيبها فكأنما	جمران يشتعلان فى الظلماء

وراعتنى الأعاصير شتاء فقلت قصيدة الريح ومنها :

يا ربح هيجت قلباً شجوه وارى كما تهيجين عود الغاب بالنار

(١) النهاء بكسر التون الغدران .

يا ربح أى زئير فيك يفرعنى كما يروع زئير الفاتك الضارى
يا ربح أى أنسين حين سامعه فهل يليت بفقد الصحب والجار
يا ربح مالك بين الخلق موحشة مثل الغريب غريب الأهل والدار
أم أنت ثكلى أصاب الموت واحدها تظل تبغى يد الأقدار بالشار

وهكذا تستمر القصيدة فى وصف مظاهر الرياح من خير وشر وآثارهما المختلفة فى النفوس، إلى أن قلت :

يا ليت أن جناحا منك يسعدنى كما أطير إلى أفنان أشجار
فأنشد الشعر كالغريد فى فنن وتحملين أغاريدى وأشعارى
يا ليت نفسى ربح لفع لافحها يظهر الكون من شر وأشرار

إلخ . فهل هذا التجديد قد أسر بالأسلوب وقطع صلتنا بما تأثرناه فى الجزء الأول من الصناعة كما أثبتنا فى المقالة السابقة ؟ وحملنى ركوب البحر فى تلك السفرة على قول قصائد فى وصف البحر ومظاهره المختلفة وما يثير فى النفس من خواطر وأحاسيس فمنها :

ألا ليتنى لج كلجك زاخر أعب كما تهوى النهى والبصائر
فكم عبت النفس اللجوج وحاولت كبعض سطاك الآبيات النوافر^(١)
وأخفت من الدر النفوس ومن حلى كما اختبأت فيك الهى والذخائر
كأن بها أفقا كأفقك نائياً ومن دونه كل المدى يتقاصر
أطرب من لجن الخريز كأنه خواطر تتلوها عليك السرائر
كما طرب النشوان من لحن صوته فبحاشت لديك الراقصات الزواجر
وإلا فما للموج فى البحر راقصاً دعاه عذارى البحر شاد وشاعر

رمتها :

(١) سطاك جمع سطرة كريمة ورعى وأمثالها وهى كثيرة الورد فى شعر الشعراء بالرغم من إنكار بعض الأفاضل لها .

فبينما يريق الضوء فوقك ماءً وتجري عليك الريح وهي خواطر
 ويتلو عليك الصائدون غناءهم يرجعه لحن من الماء مائس
 ويسمعك الملاح من شجو قلبه أحاديث قد تآقت لهن الحرائر
 إذ الجو جهم والرياح كتسائب وإذا أنت مقبوح السريرة غادر

وهي قصائد كثيرة المعاني والنواحي وقد راقنتي أيضاً في تلك السفرة تنوع الفصول واختلافها ومباهج مظاهرها فنظمت قصيدة سميتها أولاً الصيف ثم سميتها الفصول لأنها تصف الفصول كلها وهي طويلة وفيها أوصاف متنوعة للأرض والسماء والأزهار وأحاسيس الإنسان في الفصول المختلفة ومنها في وصف الربيع :

أهواك يا روح الربيع فهينى جسماً كجسم الغيد في لآله (١)
 ثم ارقصى بين الخمائيل في الضحى رقص المدل بحسنه وبهائه
 فلعل في قبلات تفرك برء ما أعيا الأنام بحكمه وقضائه
 أرد الخلود بضمه وبقبلته تروى ظماء الحسن من لمبائه

وراقنتي الأزهار وكانت في البلدة التي كانت مستقر دراستي حديقة خاصة بها ولكن أحسنها حدائق كيو التي قال فيها الفريد نوس أنشودته العذبة السهلة. وقد قلت قصائد في وصف الأزهار منها في وصف الزهرة عابدة الشمس :

تديرين نحو الشمس وجهاً كأنما ترين بوجه الشمس ما كتب الدهر
 وصفراء من نسل المجوس كأنها تعالج أمراً لا يعالج الزهر
 تهم إلى وجه السماء كأنما لها في صميم الأرض من جذرها أسر
 كما يشرب النسر هيض جناحه مقيم على الغبراء الحافظ طير

وقد راقنتي ابتسامات الوجوه في الحياة الاجتماعية التي كان يزينها الحسان من النساء في تلك الأرض القاصية كما راقنتي ابتسامات الزهور فقلت القصيدة التي منها :

(١) هذا الوصف فيه التفات إلى وصف أبي تمام والبحترى للربيع .

وميض ابتسامات يضىء جوانحي ويجلو ظلام الهم واليأس من صدرى
 إذا ابتسمت ضاء بعينى ابتسامها كما ضاء وجه البدر فى صفحة البحر
 يكاد يضىء الغيب فى مستقرة وميض ابتسام فعله صادق السحر
 وأسمع فى نفسى أغاريد جمّة يهيج صداها فى الجوانح والصدر
 كان بها من صادح الطير شادياً يغرد فى روض من الحب والشعر
 وإنى لكالبذر الدفين ولحظها غداء كلحظ الشمس للزهر والبذر.. إلخ

ولا يتسع المجال لذكر جميع قصائد الوصف التى حركت المناظر المختلفة الجديدة أحاسيسها فى نفسى وهذه المناظر مع ذلك لها قيمة عالية لا محلية وقد اكتسبت شيئاً من الشغف بالوصف والقدرة عليه . فوصفت كثيراً من المناظر والآثار المصرية كما فى قصيدة أبى الهول ومنها :

كأنما فى طى الحافظه ذكرى لعهد الزمن الأول
 كأنه فى صمته حارس يحرس باب القدر المقفل
 يا عجباً أبصرت ما قد مضى ونظرات منك لم تقتل
 أبصرت أكل الدهر أبناء ألم ترع من ذلك المأكّل

إلخ وهذه القصيدة نشرت فى المجلات وفى الديوان السادس قبل نشر قصيدة شوقى بك. ومن الوصف أيضاً قصيدة هرم خوفو ومنها :

فوقك أرواح عصور خلت كديمية سوداء لسم تحسم^(١)
 هدت بد الدهر مشيد البنى وهو إذا أمك كالأجنم
 با علم الدنيا الذى قد غدا عجيبه الغائس والمتهم
 علت بك الأرض كمن قد علا برأسه الكبير فلم يهضم
 رفعت رأساً منك ما طاله رأس البناء الشامخ الأقوم
 كأنما كل النبى سجداً من هيئة المملك الأعظم
 كم دولة قد ضاع سلطانها ودولة الأهرام لم تهرم

(١) هذا فيه التفات إلى قول نابليون لجنوده قبل معركة امبابية (أرواح العصور الماضية تطل عليكم من قمم الأهرام)

إلى أن قلت :

والنفس تبغى أن ترى كنهها مجسماً فى صنعها الأعظم
ومن قصائد الوصف قصيدة الصحراء وقد أتيت لى فرص لرؤيتها فى الفيوم وقنا وبها
وصف مشاهدتها المختلفة ومنها فى وصف الصحراء بعد السوم .

وكم حار ركب من فجاءة صحوة كما راع مرأى الحسن والعري سالب
إذ الجو كالبلور أخلص لونه وصب عليه من سناء الشمس ساكب
كذلك غب الغيث ريعان بهجة كأن طسلاً قطره وهو صائب
تفجر ينبوع من النور غامر كما غمر الأرض المياه السراب
ضياء ترى المألوف من كل منظر به فإذا المألوف منه الغرائب
وما فرحة الولهان عاد حبيب بأصدق منه فرحة وهو آيب
وقصيدة (ليلة حوراء) ومنها :

رق الظلام بليلىة حوراء كالطرق الكحيل
سحر العميون كسحرها بين الشواهد والشكول
وأخرها :

يا ليل بل يا سحر بل يا حلم ليتك لا تسزل
وقصيدة الجبل ومنها :

توحدت كالرهبان يارب راهب رأى عصمة الأطواد طهر السرائر
تطل على السهل الفسيح كأنما تفكر فى عيش القرى والعمائر
وأنت بناء الله لم يكن مثله قدير ولم تعبث به يد جائر
ومعتصم فى معقل منك مانع كما اعتصم الملاح بين الجزائر
وأبناءؤك الغر الذين تعلموا بعز الحمى أن لا يدينوا لقاهر
فيا ملكا برد الجليد كساؤه ومن فوقه تاج النجوم الزواهر
تشاهد جيلا بعد جيل كأنما تمر بك الأجيال مر العساكر .. إلخ

وقصيدة (على بحر مويس شتاء) وقصيدة (نحو الفجر) ومنها :

تبيت طوال الليل تعبد فى دير	كأن النجوم الغائيات ترهبت
تفهم معنى اللفظ فى صفحة السفر	أقلب طرفى بينها متفهما
جميل المحيا حوله هالة الحبر	كأن الدجى دير به البدر راهب
فقد خلته من هدأة النوم فى أسر	أيحلم هذا الدوح فى سحر ضوئه
رأيت صباحاً يصبغ الثبت بالتبر	ولما تقضى الليل والحجاب جناحه

إلخ إلخ . وهى قصيدة غنية بالأوصاف وقصيدة (عيون الندى) ومنها :

بطل على العشاق منك ويشرف	عيون الندى كونى على الزهر إنه
بأحسن فى لألئها حين تعطف	فليس عيون الغيد أشعلها الصبى

إلخ وقصيدة (سحر الربيع) ومنها :

أتعرف أنفاس النسيم المعطر وبهجة أزهار الربيع المبكر

وابتداء القصيدة بالتساؤل والاستفهام الوجدانى معروف وله أثر فى الشعر العربى كقول الشاعر (أتعرف رسم الدار من أم معبد) وهذا مثل قول جوىتى فى مطلع أنشودته العذبة فى وصف محاسن إيطاليا (أتعرف الأرض التى تنبت شجر الليمون) ومن أثر اكتساب القدرة على الوصف أيضاً قصيدة (يوم مطير) وقصيدة (الليل) وقصيدة (ابتسامات) وقصيدة (فجر الشباب) و(بقطة فى الفجر) ولا داعى لإحصاء كل القصائد التى من هذا النوع فهى كثيرة .

فالمصدر الأول للثقافة كان الحياة الجديدة ومشاهدها الاجتماعية والطبيعية والفنية فكم كنا نظل صامتين فى الحدائق العامة بعد عزف الموسيقى ونحس ما وصفته فى قصيدة (السكون بعد النغم) التى نشرت فى المقتطف .

(٢) أما المصدر الثانى للثقافة فكان دراستى جوىتى وقد نقلت مؤلفاته إلى الإنجليزية فى طبعة برهن واستدرجنى إلى دراسته أولاً مدح كارليل وإمرسون له وثانياً وجود مؤلفاته فى الطبعة التى اشتريتها منها كتباً تاريخية للدراسة فى الجامعة وقد أعجبني من جوىتى شغفه بالثقافة أكثر من إعجابي بمؤلفاته نفسها وإن كان بعضها جليلاً ومن الكلمات الماثورة عنه (ادرس نفسك) وقد قالها قبله كثيرون فقالها اسكندر بوب فى شعره ولكن جوىتى نظم هذه الدراسة وكان من مبادئه أن يحاول المرء أن يستفيد فائدة ثقافية من كل شىء وأمر ومن كل إنسان يقابله ومن كل مذهب فكرى أو مذهب فى الإحساس حتى مالا يلائم طبعه وهذا هو فى

الحقيقة مغزى قصته (ولهلم مايستر) وهذا هو سبب اختلاف نواحي الثقافة فى شعري ذلك الاختلاف الذى غر بعض الأفاضل أو مكن بعضهم من نقد قصائد فى وصف بعض جوانب النفس كالبعوض فى قصيدة (الحب والبعوض) التى احتذيت فيها (جميل بن معمر) .

وقد ظهر أثر ثقافة جويتى ومذهبه فى قصائد عديدة مثل قصيدة (التجدد فى حياة الأمم) ومنها فى مذهب التجدد بالثقافة :-

حياة الناس إما ماء نهر	فيصلحه التدفق والمسير
وإما ماء أجنة كثير	قذاه ويأجن الماء الطهور
ومثل قصيدة (الإيمان والقضاء) ومنها :	

سكنات الإيمان برء من الحسز	ن وماوى لهارب من قضاء
يلج النفس بالثبات وبالعز	م ويطوى جوانب الضراء
ومثل قصيدة (الحياة والعبادة) ومنها :	

أكذب الدين ماينيم قوى النف	س كما يخرس الرياح الركود
إنما الدين أن يجد مجد	أعمل السعى أو يجيد مجيد
وقصيدة (القلق والغفلة) ومنها :	

إن عتبا على القضاء سفاه	غاب عنه مطالع النعماء
وقصيدة (الحياة والعمل) ومنها :	

والعيش سر أنت باحثه	فعمى تجوب مجاهل السبل
والنجع لبس بخير مكتسب	كم فحجة شر من الفشل

وقصيدة (الباحث) الطويلة وهى تقديس لبحث الثقافة والعمل فى الحياة ، وهى من أثر جويتى من الناحية الثقافية ، ومن أثر شيلى من ناحية الطموح إلى المثل العليا ومنها :

أنشد الحق بالتقلب فى العي	ش وأبغى سريرة الأشياء
---------------------------	-----------------------

والإنسان الخيالى الموصوف فى القصيدة بأنه قد خلّده البحث فيه التفات أيضاً إلى فكرة اليهودى التائه المحروم من الموت عقاباً . ومن القصائد التى دعت إليها الثقافة أيضاً قصيدة (الأمل) الطويلة و(المجاهد الجريح) و(الإنسان والكون) و(الإنسان والزمن) التى مطلعها :

حيوان مهذب	أم آله معذب
------------	-------------

وقصيدة (قوة الفكر) وقد نشرت الأخيرة فى المقطم ولعل قصيدة (الأمل) من أحسن ما كتبت من الشعر .

(٣) والمصدر الثالث لثقافتى الجديدة كان المصدر الجامعى وكنا ندرس التاريخ والجغرافية والاقتصاد والنظريات السياسية ونظم الحكم وقد درست فيما درست تاريخ الإغريق والرومان وآدابهم وحياتهم وتاريخ فنونهم فى طبعة بوهن وغيرها وكان لهذه الدراسة أثر فيما قلت شعراً ونثراً . فمن قصائد هذه الثقافة قصيدة (الجمال والعبادة) وفيها وصف عبادة الإغريق القدماء للجمال فى مظاهره المختلفة مما أدى إلى تخليف آثار جميلة من المعابد والتماثيل ومن هذه القصيدة :

كم أمة أحكمت بالحسن دولتها	فخلفته وأودى مجدها الفانى
تلك التماثيل أم هذى المعابد أم	تلك الفنون عليها خير عنوان
يارب مرأى لنا منها ورب منى	فيها وحسن قديم العهد (يونانى)
لم يحبس المرء عن آماله فسر	منها ولم يثنه عن عزمه ثانى
لم يزر بالحق حب الحسن بينهم	فالحق والحسن إن فكرت سيان ^(١)

ومن مظاهر هذه الثقافة قصيدة (أم إسبرطية) قتلت ابنها لجبنه عن الدفاع عن إسبرطة وطنه وقصيدة (الحسن والآمال النبيلة) وفيها تتمنى النفس تصويراً مثلها العليا فى شكل تماثيل كتماثيل الإغريق القدماء . وقصيدة (إيكاروس) العبد الرومانى فى وصف أثر معاملة الرومان للعبيد فى النفوس وقد كان لدراسة الفنون الإغريقية وعبادتهم^(٢) للجمال أثر فى النفس جعلنى أعد الجمال ثقافة وأن أفهم قول الأديب ولعله رتشارد ستيل : (إن رؤيتها كانت ثقافة سخية) ومن أثر دراسة خرافات الإغريق قصيدة (ليتنى كنت إلهاً) والذي يقرأ القصيدة يرى فيها أثر لوسيان الساخر الإغريق (طبعة بوهن) كما يرى فيها أثر هينى الساخر الألمانى ولكن الذى يقصر معناها على أثر الخرافات الإغريقية ولوسيان وهينى يخطئ خطأ كبيراً فإن مغزاها الحقيقى بالرغم من إطراء الفنون هو مغزى قصيدة (قصر الفن) للشاعر الانكليزى تنسيون والمغزى هو أن قصر أحاسيس النفس على لذات الفنون قد يجلب الضرر والفساد كما

(١) هذا البيت فى الشطر الثانى منه معنى قول الشاعر كيتس الانكليزى .

(٢) لم يكن المثقفون من الإغريق يعبدون التماثيل والمراد بعبادتهم للجمال شدة الإعجاب بالفنون

يقرأ فى الجزء الأخير من القصيدة . ومن أثر دراسة تاريخ الفنون الاغريقية أيضا قصيدة
(الحياة والفنون) ومنها :

من علم المرء فى بدايته	صنع مفيد الآلات والقضب
من علم المرء أن يقيم على ال	أرض بيوتاً مرفوعة الطنب
من علم المرء أن ينال من ال	حزمار والصنج لذة الطرب
يحكى بها ضربه مغازله ال	عاشق لبناً وسورة الغضب
يحكى بها الجد إذ يجد به ال	دهر وطوراً كرقصة اللعيب
من علم المرء أن يخط على ال	قرطاس لوناً من أعجب العجب
يحكى به الضوء والدياجير وال	أجسام من ناضر ومن شحوب
كأنما يقبس الضياء من ال	شمس ويأتى بظلمة السحب

إلخ إلخ - ومن أثر دراسة الخرافات الإغريقية أيضاً قصيدة (نرجس) وهى أنشودة فى
موضوع يشبه قصة نرسييس المعروفة فى خرافات الإغريق بعد تخوير فى المعنى ومنها :

نرجس أنت الحسن يا نرجس	تشتاقك الأبصار والأنفس
تحنو على الغدران مستأنسا	يا زهرة فى روضها تفسرس
تبصر وجه الحسن فى مثلها	بحسنه كل امرئ يأنس
حتى إذا البدر بدا ضوء	يزينه فى ثوبه الخندس
أفتت فى جسم كجسم الدمى	يلتذ منه الشم والملمس
كالدّر من أصدافه خارجاً	والدر فى أصدافه يحسرس
نرجس أنت الحسن يا نرجس	يقبس منك الطرف ما يقبس

إلخ إلخ

(٤) و (٥) والمصدران الرابع والخامس من مصادر ثقافتى الجديدة كانا فى دراسة آداب
اللغات الأوربية الحديثة انكليزية أو منقولة إلى اللغة الانكليزية . فمنها دراسة الأدباء
الساخرين أمثال هينى وفولتير وسويقت وأناتول فرانس وأخيراً سمرست موام . ومنها دراسة
الأدباء الذين اشتهروا بتحليل النفس إما فى قصص طويلة أو قصيرة مثل دكنز وذاكرى
وتولستوى وتور جنيف ودستوففسكى وميرجكوفسكى ومثل بالزاك وفلوبيرت وموباسان

وبروست وكونراد وغيرهم . وأصحاب النظرات فى كلمات موجزة مثل لارشفو كولد ولابروير . وأنا مدين لهؤلاء ولكثيرين غيرهم ولا أستطيع إحصاء كل أثر لهم لأن أكثر تأثرى بهم كان عن غير قصد ، ولكنى أذكر على سبيل الأمثلة أن قصيدة (الحق والحسن) التى نشرت فى المقتطف كانت تعبيراً عن الصراع العنيف الذى قاساه تولستوى بين نشدان الجمال الفنى والحقيقة الروحية والذى دعاه إلى رفض كثير من مظاهر الفنون والآداب فى كتاب (الفن) الذى ألفه . وقصيدة (حواء الخالدة) التى نشرت فى المقتطف أيضاً بعثنى إلى نظمها إعجابى بوصف جوزيف كونراد لسحر امرأة فى قصته (السهم الذهبى) وفيها يتخيل أنها جمعت فى شخصها سحر النساء جميعاً قديماً وحديثاً . وقصيدة (عجز التجارب) التى نشرت فى الرسالة مؤسسة على فكرة عرضت لبروست ولغيره من القصصيين وهى أن الخبرة والعرفان اللذين يكتسبان بالتجارب قلما يتغلبان على طباع الإنسان . وقلما ترى قصيدة ليس فيها أثر لأكثر من مفكر . فقصيدة (قيد الماضى) التى نشرت فى المقتطف أيضاً بها بواعث من أدباء عديدين فالمطلع وهو :

أخذنا عن الماضى قليلاً من النهى وأكثر ما نلنا الهواجس فى النفس

مؤسس على مبدأ من مبادئ فلسفة الفيلسوف بيرجسون الفرنسى والبيت الثانى والثالث الرابع تلخيص لصفات النفوس التى وصفها الكاتب فردريك بروكوش^(١) فى قصة السبعة الذين هربوا والبيت :

بناء المعالى كان بالشر قائماً وما طربوا إلا إلى نغم النحس

دعت إليه دواع عديدة فمنها ما كان من قراءة قول محمد بن هانى لأندلسى .

ولم يتجمع لامرء كان قبله بناء المعالى واجتناب المآثم

ومنها ما كان من أثر قراءة قصة (الدير) لأناطول فرانس وفيها يصف إنساناً ذهب إلى الدير وتجنب حتى قول الخير وعمل الخير لأنه وجد أنهما كثيراً ما يبعثان الناس إلى عمل الشر . ومن فكاهات أناطول فرانس أنه قال لذلك الإنسان ساخراً (لكن ألا تخشى أن يتخذ الناس انقطاعك عن الأقوال والأعمال (حتى ما كان منها خيراً) عقيدة يقتتلون بسببها فيرتكبون الشر الذى حاولت أن لا يرتكبه أحد بسبب فعلك أو قولك) . ومن دواعى نظم البيت أيضاً وصف الدكتور هافيلوك ايلس فى كتاب (رقصة الحياة) لما يخالط معالى

(١) فى القصص الروسية أيضاً نفوس تشبه هذه النفوس . والظاهر أن بروكوش متأثر بدراسة الأدب الروسى أو مزاجه مثل مزاج الكتاب الروس .

الحضارات ومجدها من شرور ودعا إليه أيضاً وصف جورج مور في كتابه (اعترافات شاب) كيف أن جلائل الأعمال الفنية قد مكن من صنعها ارتكاب الشرور في الحضارات المختلفة .
والبيت الأخير مثلاً وهو :

يقولون إن الحق في النفس قوة وأقوى من الحق الجهالة في النفس

قد بعث على نظمه قول شيلر الشاعر الألماني ويعنى آلهة خرافات الإغريق : (عبثاً تحاول الآلهة أن تقضى على قوة الجهل والغباء) .

قد كان من أثر دراسة أدباء السخر أو التحليل نظم قصائد في السخر والتحليل منها (سعار الغرور) و(حلم بالبعث)^(١) و(خسارة التعاسة) و(سجن الفضيلة) و(قرء النهى) و(جد أم لعب) و(اختفاء الحق) و(وصف الطباع) و(مظاهر الصداقة والعدواة) و(النجاح) و(آلة الضمير) و(درع الحياة) و(صديق البلاء) و(مرآة الضمائر) و(صلع الدهر) و(أقوام بادوا) و(عبيد الحياة) إلخ إلخ .

وقد بقى معى أثر بيرون وشلى فقصيدة (الزوج الفادرة) هى (ميلو درامة أو درامة) على نبط قصص بيرون و(لسان الغيب) و(الشاعر صورة الكمال) من أثر شلى . وقد غالى بعض الكتاب فى أثر من سموهم الشعراء الطبيعيين وكانوا يرفضون الطبيعة ويريدون تحميلها بالفنون فهى تسمية غير صحيحة . وأعنى أثر سوينبورن وبودليير وروزيتى وأوسكار وايلد وأمثالهم . وقد كان يكون غريباً بعد ما شرحت من أسباب تنوع جوانب الثقافة فى شعرى أن لا يكون لهؤلاء أثر ولكن قصيدة (بين الحب والبغض) لم تكن من أثر سوينبورن بل هى دراسة سيكولوجية دعا إليها قول جميل بن معمر (رمى الله فى عينى بشينة بالقلدى) وقصيدة (سلوان الجنون) هى أيضاً سيكولوجية دعت إليها أبيات فى كتاب (مصارع العشاق) تبدأ بكلمة (عمى) كما فى قصيدتى وقصيدة (الأزاهير السود) ليست من أثر دراسة (أزاهير الشر) لبودليير ولكنها أنشودة قيلت على لسان التعساء وما بها من التشبيهات والاستعارات لها أشباه ونظائر فى الشعر العربى .

وقصيدة (الأزاهير السود) قد عدها ناقد من الطريقة الرمزية وهى ليست كذلك وإذا كان بها أثر لبودليير فليس من العقل أن يحتكر بودليير وصف الشقاء . ولا أنكر أن فى بعض شعر

(١) أوضحنا أن القصد من قصيدة (حلم بالبعث) نسبة ما كانوا عليه فى الحياة من التكالب والتزامم والتقاتل إليهم فهى سخر بعيوب الإنسانية .

بودلير قوة عظيمة وخيالا قويا ولكنه محدود الثقافة متشابه النتائج ولا يصف إلا جانباً واحداً من جوانب الحياة والنفوس وقد منعنى من أن أتوغل فى هذه المذاهب أو أن أقصر قولى عليها أولاً تأثرى بمبدأ الثقافة العامة فى قولى جويتى وقدرته وثانياً اطلعنى على نقد ماكس نورداو لهذه المذاهب ومن أجل ذلك قلما أعرض فى قصيدة جانباً من الأحاسيس أو المشهد إلا وأعرض ماهر ضده طلباً للاتزان الفكرى وفى قصيدة (النساء فى الحياة والموت) أبيات فى وصف مقابح الموت ربما كانت شبيهة بمذهب سوينبورن أو بودلير ولكن بها عكس ذلك فى مثل هذه الأبيات :

بعد أن كن للميون جلاءً	فاتتات بأعين وخدود
مائلات وجه الحياة ضياءً	عابثات بمسعدات الجودود
هز منها الهوى ثمار صباها	هزة الريح زهرة الأملود

وأما قصيدة (صوت الموتى) فهى وصف لأثر قطعة موسيقية فى هذا المعنى . وفى قصيدة (الملك الثائر) بعد أقوال الملك فى ثورته أورد ما يجعل النفس تطمئن إلى الحياة للاتزان الفنى كما ذكرت وكما فى قصيدة (سر الحياة) و(بين الحب والبغض) .

(٦) والمصدر السادس وهو الأول الذى بدأت به المقال السابق والأخير الذى أختتم به هذا المقال هو ثقافة الأدب العربى والشعر العربى . ومن اطلع على مقالاتى فى نقد شعراء العرب والشعر العربى يعرف أنى لم أقصر فى اجتباء هذه الثقافة التى بدأتها وأنا تلميذ بالمدرسة الابتدائية ولن انتهى منها فى الحياة . وقد ذكرت شواهد عديدة من شعرى تدل على أن اطلعنى على الأدب الأوروبى لم يصرفنى عن الأسلوب والشعر العربى . وفى كل عام أكتب مجموعة جديدة من الشعر العربى . وقد كنت جمعت من شعر العذريين وغيرهم بعد عودتى من انكلترا مجموعة سميتها ذخيرة الذهب فى المنتخب من شعر العرب وكانت تغلب عليها النزعة العذرية وهى سبب ظهور تلك النزعة فى الجزء الثالث من شعرى . ولم أستطع أن أحصى فى هذا المقال كل من تأثرتهم من الشعراء والكتاب والقصصيين والمفكرين والفلاسفة والنقاد من عرب وإفرنج وإذا كنت قد عبرت عن جانب التشاؤم فقد عبرت عن جانب التفاؤل فى قصائد عديدة . وكان بعض التشاؤم استحثاثاً للهمم كما فى قصيدة (شهداء الإنسانية) التى أتخيل فيها شهداء الإنسانية على باب الحياة يتساءلون هل ضحوا بحياتهم وسعادتهم عبثاً أم تحققت أحلامهم وزالت الشقاوة والشر والظلم . وفى قصيدة (الموت) جعلت الموت نفسه مظهراً من مظاهر الأمل وباعثاً له وفى قصيدة الأمل الطويلة وصفت آثاره فى النفس والحياة ومظاهره المختلفة وجعلت حتى إخلاقه سعادة وهى التى مطلعها :

(ألا عِدِّ وأُخْلِف أنت بالوعد مانع)

ولا يوضح الفرق بين مذهبي في الثقافة الشعرية ومذهب بودلير شيء أكثر من مقابلة قطعة له قصيرة عنوانها الثائر (في كتاب أغاني أوربا) طبعة كانتربوري بقصيدة لى طويلة عنوانها (الملك الثائر) فقطعة بودلير فكرة واحدة - وكثيراً ما يكون بودلير من أصحاب الفكرة الواحدة الملحة المتغلبة على النفس - وهى أن إنساناً أبى أن يحب التعساء والتعاسة فجاء ملك وأمسك برقبتة من الخلف وأراد أن يرغمه بالقوة على أن يحب التعاسة فضرب الرجل الأرض بقدمه وقال لا أفعل ذلك مادمت حياً . فإذا وجد قارئ أكثر من هذا المعنى فى قطعة بودلير فليذكره . أما قصيدتى (الملك الثائر) فهى قصة ملك أخذته الشفقة على الإنسانية فأبى عيشة النعيم الأبدى والسعادة الخالدة وكمال الملائكة وهبط إلى الأرض كى يرد الناس عن شرهم وليجلب لهم السعادة وليزيل عنهم النحس فاضطهدوه وصلبوه وهتف هائف من السماء بحكمة الله فى استخراج الخير والرحمة والفضائل كلها من الشر الذى يقع فى الحياة وهذا الختام فى القصيدة مظهر من مظاهر الاتزان الفنى الذى أشرت إليه وقلت إننى التمسته بالثقافة فى الشعر وربما كان من تمام الدلالة على تلك الثقافة أن أخصص مقالاً لما عالجه من صنوف النسيب والتشبيب ومصادر الثقافة فيهما .

٣- المثل العليا فى الشعر *

كان من خصائص نهضة الإحياء التى حدثت فى أوربا بعد العصور الوسطى البحث والتقصى والطموح إلى العرفان واختبار الحياة فى حالاتها المختلفة وكشف خباياها وقد ظهر أثر ذلك فى الشعر وفى آداب عصر الإحياء على وجه التعميم وقد ازدهر هذا العصر فى عهد الملكة اليصابات فى انكلترا وظهر أكبر شاعر عرف ببحث النفوس ووصف أحاسيسها وخواطرها على طريقة شعر القصص التمثيلية وأعنى به شكسبير ويصح أن يسمى هذا العصر العصر الرومانتيكى الأول فقد قضى على التزام محاكاة المذهب الكلاسيكى^(١) القديم فى القبول التافه وكانت تلك المحاكاة قد قضت على روح المذهب الكلاسيكى الحقيقى بمغالاتها فى اتباع ظواهر الأمور دون حقيقتها وكان فى بعض حرية آداب الرينيسانس (عصر الإحياء) شطط فى أصول الفن فلما جاء عصر النقد الفنى وخدمت جذوة عصر الإحياء عادت النفوس إلى محاكاة طريقة الأقدمين الكلاسيكية فى عهد راسين وكورنى وأشباههما وذاعت هذه الطريقة فى القرن الثامن عشر وهو عصر النقد والمنطق والأناقة الشكلية بين رواد الفنون إلا أن نهضة القرن التاسع عشر فى أوربا أوجدت حرية وروحاً هما شبيهتان بالحرية والروح اللتين كانتا فى الآداب فى عصر الرينيسانس عصر الإحياء والتجديد الأول فذاع المذهب الرومانتيكى فى آداب اللغات وتشعب شعباً كثيرة . وكان من خصائصه أيضاً البحث والتقصى واختبار الحياة وكشف خباياها والطموح إلى العرفان وهذه هى المثل العليا فى ذلك المذهب الرومانتيكى . وقد كان فاوست بطل قصة جويتى فى العصر الرومانتيكى الثانى هو بطل قصة فاوست تأليف مارلر الشاعر الإنكليزى المعاصر لشكسبير . ولم يأت هذا الاتفاق عفواً ، بل كان اتفاقاً بين العصرين فى المثل العليا وأعنى بها الرغبة فى كشف خبايا الحياة واختبار أسرارها والطموح إلى العرفان ومصادر القرة فيها ، وكلا الشاعرين يعترف بما فى هذه المثل العليا من خطر قد يؤدى إلى شر كما ظهر فى حياة فاوست بطل القصة ولكن هذا لا يمنع من عد هذه المثل العليا أيضاً منبع الخير ووسائل الرقى فى الحياة . وقد كان الطموح إلى العرفان والقوة وكشف خبايا

(*) مجلة المقتطف : أغسطس ١٩٣٩ م ، ص ٢٨٤ وما يلى .

(١) كان بجانب احتذاء ومحاكاة المذهب الكلاسيكى فى أواخر القرون الوسطى مذهب شعراء الرومانس والتروبادور وهنا كان فى الحقيقة مبشراً مبكراً جاء يبشر بنهضة الإحياء .

الحياة ومعالجة أسرارها المثل الأعلى أيضاً في كل حضارة قديمة أو حديثة . ولولا ذلك ما قامت الحضارة في عهد قوتها وعهد ازدهارها في حياة البابليين أو المصريين أو الإغريق أو الرومان أو الفرس أو العرب . وظنى أن اتفاق روح أدب جويتى وببيرون في هذه الأمور كان سبباً من الأسباب التى قربت بين الشاعرين وأدت إلى العطف والتراسل على اختلاف طريقتيهما وثقافتيهما في أمور أخرى فإن أدب جويتى يعبر عن هذا الطموح إلى القوة والعرفان في فاوست كما يعبر عنهما في ولهم ما يستر بمعالجة الحياة ومزاولتها والتثقف بما في هذه المزاولة من ثقافة . وببيرون أيضاً يعبر عن تلك الروح الشائرة الطامحة إلى القوة والعرفان وإلى كشف خبايا الحياة بمزاولتها والتقلب في وجوهها وليست رحلات تشايلد هارولد ودون جوان واختبارهما للحياة في أحوال مختلفة وإبائهما الاستقرار على حالة واحدة إلا مظهر تلك الروح التى انبثت في أوربا جميعها في القرن التاسع عشر. ولعل هذا هو السبب في ولوع غير الإنكليز من الأوربيين بشعر بيرون أكثر من ولوعهم بشعر غيره من الشعراء الإنكليز وهذه الروح شائعة في شعره كله فهى في قصة كين ومانفرد وورنز ومازيا وغيرها . وقد عبر شلى أيضاً عن هذه الروح التى كانت أساس صداقتيهما ، عبر عنها في قصة (هروميث الطليق) و(الاستور) وغيرهما وقد استشهد العلامة وإيتهد في كتابه (العلم في العالم الحديث) بقطعة من شعر شلى للدلالة على أنه كان مولعاً بتقصى حقائق العرفان بالرغم من أسلوبه الخيالى . وهذه المثل العليا كانت شائعة أيضاً في شعر تينيسون وبروننج وفي قصص إبسن السكندناوى أو قل هى أساس الآداب الأوربية الحديثة بالرغم من اختلاف مظاهر مذاهبها حتى أن الرمزية في أول أمرها قبل أن تطلب الرموز لذاتها ولذة التأمل فيها كانت تستخدم لتوضيح هذه المثل العليا فإبسن في قصة (براند) يرمز إلى نشدان المثل العليا والطموح إليها بتسلى براند للجبل وحشه القوم على التسلى . وشلى في قصيدة (الاستور) يرمز بركوب الاستور البحر وانطلاقه فيه إلى الرغبة في كشف خبايا الحياة والكون وكشف المجهول من أسرارهما وقبلهما كان جويتى أيضاً يستخدم الرمزية على الطريقة المسماة (الليجورى) .

وقد تأثرت عند دراسة هؤلاء الأدباء والشعراء بهذه الروح وأعنى روح الطموح إلى العرفان وكشف خبايا الحياة والتمست معيناً على ذلك في كل ناحية من نواحي الآداب المتمسته في وصف شكسبير وبروننج للنفوس ، وفي وصف النفوس والحياة في قصص كبار القصصيين ، وفي كلمات المفكرين في كلمات قصيرة ، كما التمسته في الخيال الرومانتيكى الطليق الذى يعبر عن هذه الروح على الطريقة الخيالية الرومانتيكية . وهذا هو السبب في أن جانباً من قولى يمثل الخيال وجانباً آخر يمثل التحليل النفسى ومظاهر النفوس في الحياة لا على طريقة

اميل زولا والمذهب الطبيعى فليس فى اميل زولا تحليل للنفس ولا خبرة بحكمتها وفلسفتها بل على طريقة شكسبير وبرونج فى الشعراء ودكنز وثاكرى ويلزك واناتول فرانس وفلوير وموباسان وتلستوى وترجنيف وغيرهم . وقد ظهر الجانب الأول أى جانب الخيال الرومانتيكى الذى يصف الطموح النفسانى فى قصائد عديدة ، منها قصائد الباحث ، والأبد فى ساعة ، والكونين ، وأبناء الشمال ، وشهداء الإنسانية ، والعصر الذهبى والمثل الأعلى ، وإلى المجهول ، ومصارع النجباء ، والبطل المنتظر ، وثورة النفس ، وجهاد المصلحين ، وصيحة المصلح وسنة العيش وغيرها . فمن قصيدة الأبد فى ساعة :

آه من لى بساعة أتقصى	كل معنى فيها وكل بيان
ساعة أجمع الحياة رحيقاً	ثم أظنى لسؤر ما فى الدنان
ساعة أجتنى الوجود وما كا	ن وما قد يكون فى الأكوان

ومنها :

أنا فيها كالعيش والموت والدهر	ر وحكمى وحكمها بيان
أنا فيها أقوى من العيش والمو	ت وأقوى من محكم الإيمان
أحمل النفس فى يدى مثلما يد	لف فى الحرب فارسُ بستان

ومن قصيدة بين الثرى والثرى :

كأننا قد قطعنا الدهر نهباً	من الآباد للأزل القديسم
وحولنا العوالم كأس لب	حسوناها ولم تك من كروم
ولم نعبأ بما تخفى الليالى	ولم نخش المنية فى الهجوم
وأسلمنا الزمان نعيم عيش	ولم نحذر مقاضاة الغريم
وكنا فى ائتلاف الشمل نحكى	نظام الشهب والدر التنظيم

وقصيدة شهداء الإنسانية وموضوعها أن شهداء الحياة والعلم والإصلاح يزدحمون على باب الحياة ويسألون كل هالك هل تحقق الخير الذى بذلوا حياتهم من أجله فتدركه الحيرة أيكذب كى يدخل على قلوبهم الاطمئنان ، أم يصدق فيقبعهم فى آمالهم أم يغريهم بالصبر الطويل كصبر الأحياء ، أم يغريهم بالعودة إن استطاعوا إلى كفاح الحياة . ومنها :

فيا عيش الورى ماذا تراه يقول لهم إذا ألفى مقسالا

ومنها : -

يقول لهم إذا استطعتم فعودوا
وكم من نعمة لولا شقاء
فكم خير الأوائل من شقاء
ومن قصيدة النشوء والارتقاء :-

بعقل يبلغ الشمس
وجدت لكل ما كان
كانك خالق الخلق
ومفترت الرياح مطر
وقد أعليت عمراناً
وأقصى الكون عرفاناً
من الأكوان ميزاناً
من أكواناً وأزماناً
ية والبرق فرساناً
وقد قدست أدياناً

إلى :-

وفقت الطير والحسنان
وزنت الذرة الصغرى
لعيشك كي يكون العبد
آثاماً وأشجاناً
وما أعددت ميزاناً
ش إسعاداً وإحساناً

وقصيدة العصر الذهبي وقد أولع الناس من قديم الزمن بالفكير في عصر الإنسانية السعيد
عصر الخير العميم الشامل فبعضهم كان ينشده في الزمن القديم ويبكى انقضاءه وبعضهم
ينشده في المستقبل من العصور . وكثيراً ما استخدم أهل الحرص شعاره لنيل أطماعهم واقتياد
الناس بذلك الشعار . وكثيراً ما علق الناس بكماله حتى إذا تحكموا ساروا على نهج الطغاة
وهو مثل عال لا تحلو الحياة إلا به ومنها :

عصر السلام تحية وسلام
من كل عصر في نسيجك لحمة
خلعت عليك رجاها الأقوام
الأجل صنعك تدلف الأعوام

ومنها :

تتغير المثل التي شأقتهم
حسب الورى من حسن عهدك قدوة
تتبدل الآمال والأحلام
علياء ما إن شأنها استبها
تتباين الأرواح والأفهام
ما فاتهم طب الطبيب وإنما

ومنها :

وإذا العبيد تحكموا في فتنة ساروا على نهج الظلوم وضاموا
أترى العبيد ببايل وبطيبة أغرتهم بكمالك الآلام
لو أنهم ملكوا لعافوا مسلكتاً يدنى إليك وطاشت الأحلام

وقصيدة قوة الفكر في تقديسها وقد قيلت على لسان حالها . ومنها :-

ألوى برب الفكر عن ذويه وأذهل العازم عن أخيه
طوراً وطوراً راحة وسلماً أجبر عظماً وأهبط عظماً

ومنها :

ورب غر كان عبد عمره زودته من خيريه وشيره
كان صغيراً ففدا عظيماً كان يرى عيش النهى أليماً
رفعتَه عن لذة وألم فصار ناراً أضرمت في علم
مشهوراً بين الأنام معلماً مبغضاً طوراً وطوراً مكرماً

ومنها :

كم حقبة قد اختمرت فيها وكان طعمي قبلها كريها
أقوى على الأيام والدهور كما صفت عتيقة الخمور
والناس قد غرهم خمودي وهم على غرتهم وقودي

وقصيدة (الشباب) توضح أن مستقبل الإنسانية رهن بظموح الشباب إلى المثل العليا وبأن
يحاول أن يقهر طاغوت الأمور وجبروتها وأن :

يستنقذ الأزمان من عبث الوري ويظهر الأحشاء من أضغان
ويذل طاغوت الأمور فيحتذى شرع الحياة شريعة الرحمن

وقصيدة (نحو الفجر) وقد جعل الفجر في آخرها رمزاً لآمال الإنسانية :

وأملتُ للدنيا صباحاً مؤجلاً سيكشف عنها ظلمة الضيم والشر
فكل صباح رمزه ومثاله ووعد به يحدو إلى الزمن النضر

نُسْرُ بنعماء وإن لم تكن لنا وننشده فيما يكون من الدهر

وقصيدة (الباحث) أو الباحث الأزلي تعبر عن هذه الروح روح الطموح إلى العرفان وكشف
خبايا الحياة والشيخ الخالد فيها رمز إلى روح الإنسانية التي تختبر الحياة دهوراً بعد دهر وحالاً
بعد حال ومنها :

همت يوماً من قرنتي أنشد الحد	بق لعلنى أراه فى الدهماء
كلما لاح شامخ قلت إن الحد	بق يغدو من خلفه بازائى
ورعيتُ الظلماء على أراه	خارجاً من سرائر الظلماء
وجزعت الصحراء أرجو لقاء	منه يرجى فى وحشة الصحراء
ولكم غصت فى العباب عليه	إنما الدر منه فى الأحشاء
وأثرت الأصداء أبغى جواباً	لسؤالى فى منطق الأصدا
وسألت الرياح عنه فصمت	عن دعائى فلا تحجب دعائى
وسألت السماء تبرز وجهاً	منه يبهى فى الأفق جم الضياء
وأعارتنى الطيور جناحاً	أرئجى منه لقبة فى الفضاء
طالما خاب ناشد الحق لك	من رجائى كما عهدت رجائى
قد يجىء الصباح منه بوجه	طالما كان مضمرأ فى الخلفاء
أو تبين الأحلام منه ضياء	فى سماء الآمال مثل ذكاء

إلى :

أنشد الحق بالتقلب فى العبد حش وأبغى سريرة الأشياء

وقصيدة (المثل الأعلى) تصف ذلك الطموح بخيره وشره فإنه قد يكون سراباً خداعاً وقد
يكون ماءً .

طوراً كما رقص السراب وتارة يُشْفَى به من غلة وأوام
وقد تسوق الرغبة فى تحقيقه إلى الآثام :

ولطالما خاض الفتى من أجله كيما يكون زواجر الآثام
أقسى القساة من استبد به الحجا فسَهَا عن العبرات والآلام

وفى بعض الأحايين يمنع الولوع بخياله من معرفة الحياة واختبارها ومعالجتها فيصير قذى
فى العين واختلالاً فى العزم وسقماً فى رأى والنفس :

ولقد يعود قذى يصيب به العمى فينال من عزم ومن إقدام
كالنار يهلك حرها وضياؤها يُعشى وفيها من هدى وقوام
فإن نبذ مثل الكمال العليا يؤدي أيضاً إلى الشر :

والمرء إن نبذ الكمال وهديه شقّ العصا وأحل كل حرام
ورأى الأنام فريسة مذخورة لموفق فى شره عزام
وخيال المثل الأعلى من العقل ، والعقل حقيقة الحقائق :

ما فى الوجود حقيقة غير النهى فاطمح بنفسك للذرى والهام
أتنازل أوهام الحقائق قانعاً وتعاف خير حقائق الأحلام
والعيش إن لم تبغ له عظمة فالعيش حلم طوارق الأعوام
ولا تعظم النفس إلا بالمثل العليا :

والنفس إما شئت كانت عالما يسع الدنى فى طوله المترامى
ولا يستطيع المرء أن يرفض المثل العليا لأنه يعرف حدود رقى الإنسانية فى المستقبل :

لو كنت تعرف قدر مقبل علمها أو جهلها لكشفت كل قسام
والمرء يضممر للبعيد مهابة فإذا دنا ألفاء حفظ طغام

وهى قصيدة طويلة ينظر فيها إلى نشدان المثل العليا نظرات مختلفة متعددة كهذه النظرات
وأمثالها . وقصيدة (إلى المجهول) تصف طموح النفس إلى كشف خبايا الحياة ومغاليق الأمور
فهى أيضاً تمثل الروح الحديثة فى الأدب ومنها :

قد ثار تائر نفس عزّ مطلبها وطار طائر لب فى مراقبه
كالنسر لا حاجب للشمس يردعه ولا الصواعق والأرواح تثنيه
وأنت كالليل والأنهام حائرة مثل العيون علاها منك داجيه
ليل مهيب كموج البحر حنديه تكاد تسمع منه صوت طاميه

وقصيدة (ثورة النفس) تعبر أيضاً عن هذه الروح . ومنها :

وياحسن مأتملى الخيالات إنها
 تريدن أن الجسم يغدر كأنما
 ومن قصيدة (الشاعر وصورة الكمال) :

صورة حسن صاغها لبه
 يمد نحو النجم كفاً له
 وحدها فى الحسن حد الكمال
 ويحسب النجم قريب المنال

ومن قصيدة (جهاد المصلحين) :

خليلى هذا الكون من أولياته
 وكم من نفوس ساميات أذلها
 ترى دنس الأشياء رؤية ألف
 يرى أن خير الكون ما هو كائن
 ويحسب أن الشر ضرورة لازب
 ويصبح فى مجرى الحوادث ريشة
 ويطفىء نور النفس حتى كأنما
 أصلحه فى العاملين طيب
 فعادت بأدناس الحياة تطيب
 يرى أن أحلام النفوس لغروب
 ووحى النفوس الساميات مريب
 وأن أساليب الحياة ضروب
 تجوب به الأيام حيث تجوب
 دواعى النفوس الساميات عيوب

وقصيدة (الكونان) فى وصف الطموح إلى حياة أرقى من الحياة وعيش أرقى من العيش :

خارجاً منه مثلهما
 تُخْرِجُ اللَّيْلَةَ الضُّحَى

فروح السمت والتقصى والطموح إلى كشف مغاليق الحياة والخلقة وإلى المثل العليا للحياة
 هى الروح الغالبة على المذهب الرومانتيكى وهى الروح التى تأثرتها وتأثرت بها وهى شائعة
 بمقادير مختلفة فى أكثر منظمته .

٤- ذكريات سنى التعليم *

(١١)

دخلت مدرسة المعلمين كطالب سنة ١٩٠٦ وطلبت الإحالة على المعاش سنة ١٩٣٨ وكانت مدة اشتغالى بالتعليم كطالب ومدرس وناظر ومفتش اثنتين وثلاثين سنة وهى ليست بالزمن القليل . وربما كان منصب الناظر أشق مناصب التعليم التى وليتها بالرغم من وجاهة مظهره . وقد كنت ناظراً لخمس مدارس ثانوية وقبلها لثلاث مدارس ابتدائية ، وكانت مدة نظارتى للمدارس الثانوية تسع سنوات وللمدارس الابتدائية ثلاثاً أى كانت نظارتى للمدارس اثنتى عشرة سنة ، وهى أيضاً ليست بالزمن القليل . وقد لبثت فى نظارة المدارس الثانوية فى عهود وزارات وأحزاب مختلفة ، وفى عهد كانت المدارس الثانوية فيه مضطربة جد الاضطراب بسبب قلة الاستقرار السياسى . وأعترف أن بقائى فى نظارة المدارس تلك المدة الطويلة لم يكن بحسن لباقة فى معايشة آباء الطلبة ومخالطتهم واكتساب معونتهم ، فإن ميلى الطبيعى إلى الوحدة منع من ذلك حتى أساء أناس فهم هذا الميل إلى الوحدة وعدوه تكبراً وهو ضعف فى الهنية يتطلب الراحة بالانقطاع عن الحديث وعن تكاليف المجالس وأعنى ماتكلفه من تعب . ولم يكن بقائى فى النظارة بسبب مكر ودهاء وخلافة تحبب الناظر إلى تلاميذه لأن المكر إذا تكلفه الإنسان يتعبه ويكلفه جهداً ربما كان لا طاقة له به ، وإنما كان بقائى بها أولاً لأننى أثرت تصريف الأمور بنفسى بدل الرجوع إلى الوزارة فى أمور كثيرة وبدل خلق مشكلات لها ، ولاتكره الوزارة أمراً قدر كرهها أن يرجع إليها فى أمر كان لا يستطيع الناظر ألا يكبر أمره حتى يصير لا مناص من الرجوع إليها فيه ، وثانياً لأننى أتخذت فى خطط التعليم ما اتخذه نابليون فى خطط حروبه إذ كان يعبىء أكثر قوته لمواجهة موطن الضعف فى العدو فيهزمه ، وكذلك كنت أنا والأساتذة نعبد عنايةنا وجهدنا لمعالجة التلاميذ الضعاف ولمعالجة أماكن الصعوبة فى المناهج وأماكن الخطأ والضعف فى التلاميذ الضعاف ، وهذه خطة تحتاج إلى تفصيل ولكنها الخطة الوحيدة التى يستطيع بها جعل نسبة النجاح فى الامتحانات حسنة مرتفعة ، وقد اسقطنا فى الواقع أن نجعل بهذه الخطة نسبة النجاح حسنة ، وهذا كان يسر بعض رؤسائنا عند ظهور النتائج .

(*) الرسالة : ٢٤ يوليو ١٩٣٩ ، ص ١٤٤٤ ومايلى .

ومنصب ناظر مدرسة من المدارس الثانوية المصرية منصب كانت تحوطه العداوات . فإذا أراد أن يهيب أسباب النظام قيل متشدد مرهق مجرم ، وإذا تسهل وترك الأمور تجري في مجاريها قيل ضعيف كسول ، وإذا كان بين بين اتهم تارة بالإرهاق والإجرام ، وتارة بالضعف والكسل ، واتهم علاوة على ذلك بالتذبذب . وقد خرجنا والحمد لله من هذا المنصب ومن غيره من المناصب وليس في ملف خدمتنا مؤاخذة ولا سؤال ولا تحقيق في مؤاخذة ، ولم تكن هناك حتى ولا مخاطبة شفوية في أمر مؤاخذة مالية أو أدبية أو علمية أو خلقية إلا مؤاخذة على رفع صوتنا في حضرة على بك حافظ رحمه الله أيام كنت مدرساً وهو ناظر ، وهذا أمر ربما استثار تعجب الأساتذة المدرسين في هذا الجيل .

وقد كانت خطتي في معاملة الأساتذة المدرسين على العموم خطة معاوية في قوله "لو كانت بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت إذا أرخوا شددت وإذا شدوا أرخيت" وربما أفادني ميلي الغالب إلى الوحدة من ناحية وإن أضرب بي من ناحية أخرى ، فإن أضرب بي من ناحية جهلى بما يدبر في الخفاء ومن ناحية إساءة بعضهم فهم ذلك الميل إلى الوحدة وعده تكبراً ، فقد أفادني من ناحية أخرى إذ لم يخلق أسباب الانقسام والتحزب والمشاحنة بين الموظفين بمناصرة بعضهم على بعض وكانت خطتي نحو الطلبة إعزاز الطالب الكريم الأخلاق واحترامه إذا كان ممن لا يطفئه الإعزاز والاحترام ، وإفهام المقصر أو الخارج على النظام أن العقاب ضرورة لا إهانة فيها وأن الشهامة تقتضى أن يرحب مستحق العقاب بالعقاب . وقد حاول بعضهم أن يذيع في مدرسة أنى أتشدد تشدداً مسيئاً في معاملة الموظفين فلم يفلح بالرغم من الإلحاح في هذا المسعى لأن هذا المسعى كان مهزلة حقيرة ، ولا يقبل الموظفون في هذا الجيل إساءة في المعاملة لا إلى الحد الذي حدده هذا المسعى ولا إلى أقل منه . وكبار رجال الوزارة يعلمون أنه ليس في استطاعتي أن أفعل ذلك حتى لو حدثتني نفسى بإساءة معاملة أحد . ولكنه مسعى يدل القارىء على المتاعب التى يتعرض لها حتى أقل النظر طلباً للمتاعب وأبعدهم عن مظانها . وقد حاول أيضاً أصحاب ذلك المسعى إفهام الطلبة أنى أتشدد تشدداً مرهقاً للطلبة ، وهم يعرفون أنى قلما كنت أوقع إلا العقوبات المدرسية المفروضة ولم أكن أوقعها إلا بمقدار ما يستقيم معه التدريس . وقد كنت أتعجب من الخبث والشر في نفوس أصحاب ذلك المسعى ، ولكن مما هون الأمر على أن بعض الطلبة الذين كنت أضطر إلى معالجتهم بشدة كانوا بعد نجاحهم وتخرجهم يرسلون إلى الخطابات ينسبون فيها نجاحهم إلى ما عالجتهم به أو كانوا يفعلون ذلك إذا قابلتهم بعد تخرجهم . وقد علّمتُ آلافاً من التلاميذ بمدارس الإسكندرية ودمهور والمنصورة والزقازيق والقاهرة وحلوان والفيوم الأميرية . وكثير منهم قد صادفوا نجاحاً

كبيراً فى حياتهم بعد أيام التلمذة ، وهم يعرفون أن الخشونة والعجرفة والقسوة أبعد الطباع عن طبعى ويعرفون أنى كنت أعامل أكثرهم معاملة الأخ الكبير للأخ الصغير . وقد كنا نتبع خطة التعبئة لمعالجة الضعف فى جميع سننى الدراسة لا فى السنة الأخيرة وحدها ، ومن أجل ذلك كانت تأتى نتائج امتحانات النقل للفرقة حسنة مرضية فى جمعتها إلا ما شذ بسبب ضعف شديد فى فرقة أو فصل وعجز فى الأستاذ عن معالجته مما يحدث مثله فى جميع المدارس . والوزارة إنما تأخذ بمتوسط نسبة النجاح للمدرسة كلها ، وتنظر فى أسباب تخلف الفرقة الواحدة أو الفصل الواحد . ولا أذكر أن الوزارة أخذتنا حتى ولا مرة واحدة بسبب تلك النتائج . وما يؤسف له أن بعض كبار آباء التلاميذ كانوا إذا رسب ابن أحدهم فقد حقداً شديداً ، ولا أعرف إذا كانت هذه الصفة لاتزال فى الآباء . ولو أنهم سألوا الوزارة عن مستوى النتائج لأراحوا أنفسهم وأراحوا النظام من عواقب حقدهم الذى لا يتفق وتربيتهم العالية ومنزلتهم الكبيرة . والمدرسة دنيا مصغرة : ففيها العالم والجاهل والذكى والفبى والوديع والشرس الطباع والكريم والحقود ، والذى يغلب على طبعه الخير ، والآخر الذى يغلب على طبعه الخبث والشر وحب الأذى . ولا يستطيع أستاذ مدرس ولا ناظر أن يعجن جبلة هؤلاء وأن يجعلهم كلهم على طبيعة واحدة من العلم والذكاء والكرم وسمو الشائل ، ولا أن ينال إخوانهم وإنصافهم جميعاً . ومهنة المدرس والناظر من أشق المهن ، ولا يهون متاعب التعليم غير إنصاف الوزارة من ناحية ، وإنصاف الآباء من ناحية أخرى وحسن مؤازرتهم : وهذا الإنصاف لا يغنى عنه لإنجاح التعليم تغيير الوسائل والأنظمة . ولسنا نقول هذا القول لأننا نطلب أو نرجى نفعاً فقد انتهت حياتنا العملية وانتهت مطامعنا وآمالنا إلى غير عودة ، ولكننا نقوله ونحن نعلم أن المعلم والناظر يعملان فى سداجه الشباب أو عادات الشباب والمشيب حتى وإن لم يجدا عطفاً من بعض الآباء أو من الوزارة ؛ ولكن صعب على النفس ألا تجد ما يعينها على تحمل مشقة التعليم ، واستخراج حلاوته ، والتعليم شيق حلو إذا انتظمت أموره ، وامتنعت عنه الأحقاد ، والمعاناة على كل أمر تافه . ولا أذكر أنى تأثرت مرة من حسن عطف ومودة قدر تأثرى عندما نقلت من نظارة مدرسة المنصورة ، وجاء تلاميذ لتوديعى ، ووقف باقى الطلبة فى الفناء يحيوننى وأنا فى القطار ، وقد دمعت أعين بعض الطلبة المودعين ولم أكن أتعمد اللين معهم ، ولا التراخى ، حتى أنال عطفهم ! ولم يكتفوا بذلك بل أظهروا وقاء عندما صاروا إلى المدرسة الثانوية بالمنصورة ، وجاء إليهم تلاميذى من مدرسة الزقازيق الثانوية لمباراتهم ، وقد جعلنى وفائهم هذا أندم على أنى لم أكن أكثر ليناً فى معاملتهم ، وإن كنت لم أنقطع عن مشاركتهم فى سرورهم ومباستطتهم والعمل على راحتهم ولإنجاحهم ، وتعهدهم مرضاهم ، والسهر على صحتهم إذ لم تكن شدتى قسوة بل رحمة .

٥- ذكريات سننى التعليم * الامتحانات والنتائج

(٢)

عندما يعلل كاتب سوء نتائج الامتحان ينسبه إما إلى ضعف الطلبة وإما إلى المناهج أو نظم الامتحان وإما إلى المدرسين وإما إلى غير ذلك من الأسباب ، ولكنهم ينسون أمورا هامة قلما يذكرونها فيأتى التعليل ناقصاً . وهذا هو سبب تكرار مأساة سوء النتائج سنة بعد سنة بالرغم من استقرار حالة الطلبة نسبيا الآن عما كانت عليه أثناء الإضرابات المستمرة والأزمات السياسية الحادة ، وبالرغم من تخفيف المناهج وتبسيطها ، وبالرغم من تسهيل نظم الامتحان إما بجعل الامتحان فى مواد أقل أو مواد سنين أقل . وقل عدد تلاميذ الفصول فى المدارس الأميرية ذات الحجرات الكبيرة ، وخفض عدد الحصص التى يدرسها الأستاذ المدرس فى مواد المنهج ذاته - وإن كان قد وكل إليه عمل آخر فى النشاط المدرسى - فكان ينبغى أن تتحسن نتيجة الامتحانات تحسناً كبيراً لو كانت هذه الأمور وحدها سبب حسن النتيجة .

والحقيقة أن هناك أسباباً لم ينظر إليها . ولم تكن النتائج الحسنة التى حصلنا عليها بسبب إرهاق الطلبة فى العمل ، بل كنا بالعكس نحاول منع الطلبة من إرهاق أنفسهم بالعمل ليلاً ونهاراً فى الشهر الأخير ومنعهم من إتلاف صحتهم من غير فائدة بهذه العادة العقيمة ؛ أما التشدد فى نتائج النقل فلا يعطلها أبضاً ، إذ كنا نحصل على مثل هذه النتائج فى مدارس لم نباشر امتحان النقل فيها أو فى فرق كانت نسب النجاح فى امتحان النقل فيها حسنة مرتفعة؛ فالتشدد فى امتحان النقل وحده لا يعطلها إذاً . ومجهود المدرس أو مادته لا تعطل وحدها حسن النتيجة ، فقد تكون مادة المدرس كأحسن ما تكون المادة ومجهوده أكبر مجهود ، وتأتى النتيجة سيئة نسبياً . وقد شاهدنا ذلك فى نتائج أساتذة من أحسن المدرسين عملاً ومادة ، بينما كانت نتائج مدرسين آخرين فى فصول أخرى هى عماد نتيجة المدرسة الحسنة الطيبة مع أنهم لا يمتازون عن إخوانهم فى المادة ولا فى الشرح والتفسير وإن كان تفسيرهم أقرب إلى المحاضرة منه إلى التدريس ؛ وهذا خطأ .

والعامل الأول فى تحسين نتائج الامتحان فى رأى هو أن تخلص المدرسة التلاميذ الضعاف فى كل فصل بالرجوع إلى درجات امتحان النقل فى كل مادة وأن يوجه إليهم الأستاذ المدرس

جهده أثناء التدريس والشرح ، وفى الاختبارات الشفوية فى أول كل حصة وفى توزيع الأسئلة أثناء خطوات التدريس للتأكد من التفاتهم وفهمهم ومذاكرتهم وبالاختصار يكون أكثر التدريس للضعاف أثناء الحصص . قد يقال إن الطالب الذكى المجتهد أولى بالرعاية والتشجيع كى يزيد علماً وثقافة . وهذه فكرة مخطئة إذ أن المدرس غير مطالب بتخريج نوابغ قليلين ، وأكثر النوابغ يستطيعون التبوغ بقليل من التفات المدرس وعنايته ولكنه مطالب برفع مستوى الضعاف ومن أجلهم أنشئت المدارس لأن حاجتهم إلى المرشد أعظم من حاجة النوابغ ، ولا يصح أن يستزيد الطالب النابغة من العلم على حساب إخوانه الضعفاء أو الأقل ذكاءً ويستطيع الأستاذ إذا سبق النوابغ إخوانهم فى الفهم والاستيعاب أن يعطيهم عملاً خاصاً فى أثناء الحصة أو خارجها إذا خشى الملل من جانبهم ، إذا سار على قدر فهم الضعفاء واستيعابهم ، ويستطيع أن يبادر الأذكيا من حين لآخر بالسؤال للتأكد من أن سيره مع الضعفاء لم يثبط همّة الأذكيا ولم يصرفهم عن الدرس ولا سيما الأذكيا الذين يعتمدون على ذكائهم فى التحصيل فى الشهر الأخير من العام الدراسى ، على أن تتبع الأستاذ للخطأ والصعوبة فى أذهان الضعفاء مما يزيد النابغة معرفة لما يواجهه الذهن الإنسانى من الخطأ والصعوبة وإن كانت الصعوبة فى ذهنه أقل ، إذ لا شك فى أن بعض الأذكيا قد يكتفون بنصف فهم بينما لا يدعى الضعيف الفهم إذا لم يستكملّه إلا حياء وخجلاً من الظهور بمظهر ربما ظن غباوة يضحك منها إخوانه الأذكيا وهو أمر ينبغى ألا يسمح به . ولا فائدة مطلقاً من تقديم الأستاذ المدرس تقارير لناظر المدرسة يومية أو أسبوعية عن المقصرين فى الاستذكار إلا إذا عمل على اتباع هذه الطريقة اتباعاً تاماً دائماً أى طريقة مناقشة الضعفاء أثناء الشرح للتأكد من التفاتهم ومتابعتهم إياباً وفهمهم . وإذا كان فى التدريس بطل بسبب هذه الطريقة استطاع الأستاذ أن يتلافى هذا البطء بوسائل أخرى ، ويحسن بالوزارة أن تشجعه بوسائل العطف والقدر والمكافأة بهما إذا اضطرته هذه الخطة إلى الزيادة فى عمله إلى تضحية وقته الخاص .

أما العامل الثانى فى تحسين النتائج فهو أن يتعرف الأستاذ أماكن الصعوبة فى المنهج ذاته والأغلاط والأخطاء الشائعة بين الطلبة عموماً سواء أكان الخطأ فى اللغات أو فى المواد الأخرى وأن يخصصها بشرح أوفى وقارين أكثر وأن يعاود الرجوع بها حتى يقتلعها من أذهان الطلبة اقتلاعاً ليس أساسه القهر وإنما أساسه الفهم . وكنا نحصى الأغلاط الشائعة بين الطلبة المصريين فى اللغة الإنجليزية ونطبعها لهم ونعمل على استئصالها . فالعامل الأول هو التوجه بالتدريس إلى الضعفاء والسير معهم والعامل الثانى إحصاء الأغلاط الشائعة وأوجه الصعوبة وتلافيها .

أما العامل الثالث فهو أن الطلبة يؤجلون الاستذكار إلى آخر السنة وقد لا يكون التأجيل ناشئاً عن الكسل والبلادة بل قد يكون عن حسن نية لأن سبب هذا التأجيل فكرة سيكولوجية مخطئة فهم يحسبون أنهم إذا استذكروا شيئاً في أول السنة ثم نسوه لم يستفيدوا من ذلك الاستذكار بسبب النسيان ، وقليل من علم النفس يبرهن على خطأ هذه الفكرة إذ أنه يثبت أن صورة الأمر المنسى راسبة في أعماق الذهن والوعي الباطن وأنه لايسهل استخراج المعقولات من أعماق الذهن عند مايشاء صاحبه تذكرها في أى وقت إلا إذا انطبعت الصورة في الذهن مرة بعد أخرى وفي كل مرة يعقب الاستذكار النسيان حتى يأتى على صاحب الذهن وقت لاينسى بعد الحفظ ، ولو فهم الطلبة هذه الحقيقة النفسية لاستطاعوا أن يفهموا السبب في أن الواحد منهم قد يجيد مذاكرة الدروس في الشهر الأخير من السنة فقط حتى إذا سأله فيها أجاب إجابة جيدة فإذا دخل الامتحان نسيها ولم يستطيع الإجابة فإذا ركب أقسم أنه استذكرها جيداً وأنه سىء الحظ . نعم إنه استذكرها جيداً قبيل الامتحان ولكن ينهض أن يفهم أن محاولته تجنب النسيان في أثناء السنة بتجنب المذاكرة طول السنة هو الذى يوقعه في النسيان أثناء الامتحان مهما أجاد المذاكرة آخر السنة ، وأن نسيانه أثناء الامتحان بعض المعقولات أو كلها أكبر دليل على انطباع المعقولات في الذهن انطباعاً لا تُنسى معه عند الحاجة يستلزم طبع صورتها في الذهن مرة بعد أخرى في أوقات مختلفة . ومن الصعب أن يدرك الطلبة هذه الحقيقة كل الإدراك أو إذا أدركوها صعب عليهم التخلص من عادة تأجيل المذاكرة للشهر الأخير اعتماداً على احتمال النجاح بالرغم من هذا القانون السيكولوجى . وهذا مع أن إرهاق أنفسهم بالمذاكرة ليلاً ونهاراً في الشهر الأخير يتلف صحتهم وإذا تلفت الصحة تأثر العقل ولو تأثراً مؤقتاً وصار أقل استعداداً للإجابة أثناء الامتحان . وحسن نتيجة المدرسة في الامتحان يتوقف على الوسائل التى تتخذها لمنع تأجيل الاستيعاب إلى الشهر الأخير .

والأساتذة المدرسون يجدون مقاومة كبيرة في حمل الطلبة على الاستذكار من أول السنة ، كما يجدون مقاومة إذا اتبعوا عامل النجاح الأول والتفتوا للطلبة الضعاف في كل حصة ، ففي الحالة الأولى يعد الطلبة مطالبتهم بالاستيعاب والمذاكرة من أول السنة تعنتاً وظلماً ومطالبة بعمل ضائع لا محالة في نظرهم لأن نسيانهم محقق بعد أول استذكار ، وقد يكرهون المدرس أو الناظر إذا حاول حملهم على خطة العمل من أول السنة ويعدون خطته ووسائله في حملهم تقصداً ومضايقة لامبرر لهما وشدة غير معقولة . وفي حالة الالتفات للطلبة الضعاف في كل حصة يعد الطلبة الضعاف . هذا الالتفات الدائم إليهم تقصداً مكروهاً ومضايقة وإهانة لظهور عجزهم أمام إخوانهم .

والآباء وأولياء أمور الطلبة لا يدركون مقدار ما يلاقيه الناظر وما يلاقيه المدرسون من عناء للتغلب على ميول الطلبة وأفكارهم المخطئة من الوجهة السيكولوجية أى اعتقادهم أن العمل من أول السنة عمل ضائع لأنه يؤدي إلى النسيان واعتقاد الضعاف فى المواد أن الالتفات لهم فى كل حصة تقصد يراد به إهانتهم . وهذا هو السبب فى أن أولياء أمور الطلبة قد يشكون فى نية الناظر أو المدرس أو على الأقل لا يحاولون معاونتهم فتى أحياناً أحد الآباء يقول إن الناظر أو المدرس يتقصد إهني ، وقد يبلغ هذا الأمر حالة يشارك الأب فيها ابنه فى كره الناظر أو المدرس . وهذه المقاومة من الآباء والأبناء تشتد إذا كانت هناك عوامل خارجية أو داخلية فى المدرسة تزيد سوء الفهم وتشجع الطلبة أو أولياء أمورهم على كره الوسائل التى يتخذها الناظر أو المدرس ومعاداتها . وهى على أى حال مقاومة كبيرة ، وتزيد إذا اضطر الناظر إلى رفض طالب أو إذا طلب المدرس من الناظر رفض طالب رفضاً مؤقتاً لأن بعض الطلبة قد يحرج المدرس إحراجاً كبيراً إذا حاول اتباع هذه الخطط والعوامل التى شرحناها . وينسى بعض آباء الطلبة أن حضور الطالب طول العام من غير رفض أيام قد يجعله حاضراً كفائز ولا ينتفع بحضوره وأن تضحية أيام فى الرفض قد يزيد ذهنه واستعداده حضوراً فى الأيام الأخرى . ومن أجل هذه المقاومة قد يزهّد الناظر أو المدرس فى اتباع هذه الخطط التى شرحناها رغبة فى تسهيل سير الأمور ومنعاً للمشكلات ، أو إذا اتبعت هذه الخطط قد تتبع اتباعاً محدوداً حسب الظروف وبقدر الاستطاعة . وهذا يقلل بلا شك من حسن نتيجة الامتحان . والمدرسة معدورة مادامت هذه المقاومة موجودة ولا يستفيد الناظر ولا المدرس من اتباع خطط قد تجلب له عداوة شديدة وأحقاداً ربما تخطت منطقة المدرسة إلى الوزارة نفسها . والوزارة أيضاً لها بعض العدا فإنها إذا ناصرت الناظر سنة قد لا تستطيع مناصرته دائماً . فالكاتب الذى يكتب فى الجرائد ويطلب نتائج حسنة ينبغى أن يدرك المقاومة التى تمنع من الحصول على نتائج حسنة.

بقي أن ننفذ بعض الأخطاء الشائعة فى التعليم والتى قد تؤدى إلى رسوب الطلبة : فمن هذه الأخطاء مغالاة بعض أساتذة اللغة الفرنسية فى نظرية الشرح باللغة الفرنسية وحدها للطلبة المبتدئين الذين قد يستمرون شهراً غير فاهمين لأن التفسير يحتاج إلى تفسير . نعم إنه مبدأ حميد على شرط أن يكون الشرح مفهوماً ، أما إذا كان التفسير الفرنسى مجهول الكلمات غير مفهوم فالواجب استخدام أية وسيلة لإفهام الطلبة سواء أكانت بالإشارة إلى الأشياء أو فى المعقولات غير المادية باستعمال اللغة الإنجليزية أو العربية . ومن الخطأ فى تدريس اللغة الإنجليزية أن يقال للطالب هذا خطأ وصوابه كذا ، ويكتفى بذلك فهذه طريقة

التدريس للشبان الإنجليز الذين يسمعون الصواب كثيراً . فلا بد من أن يكون الأستاذ مدرس اللغة الإنجليزية خبيراً بفقه اللغة وقواعدها ، ولا حرج عليه مطلقاً في شرح القاعدة أو الاصطلاح إلا إذا كان الاصطلاح غير مبني على قاعدة ، ولكن أكثر أخطاء الطلبة المصريين في اللغة الإنجليزية ترجع إما إلى الخطأ في قواعد اللغة ، وإما إلى احتذاء الأساليب العربية ، وقواعد اللغة العربية ، وهذه الأخطاء يمكن شرح سبب وقوع الطالب في الخطأ فيها ، ومثل ذلك أن الصفة تجمع في اللغة العربية ، ولا تجمع في اللغة الإنجليزية ؛ فإذا فهم الطالب القاعدة وسبب الخطأ أمكن تجنبه . أما أن يقال له لا تقل كذا بل قل كيت وكيت لأن الأول خطأ فهذا شبيه في تدريس حل أسئلة الرياضة والعلوم بقول الأستاذ هذا الحل خطأ من غير تفسير سبب الخطأ ، وهو تفسير يجب أن يتعهد به كل طالب في كل سؤال أو تمرين وإلا بقي الخطأ في ذهنه بالرغم من معرفة حل الأستاذ للمسألة . وهذا التعهد ببيان سبب الخطأ في كل تمرين يحتاج إلى وقت ولكنه السبيل الوحيد للنجاح . وقد رأيت بعض الأساتذة الإنجليز يفضلون محاولة الطالب الأسلوب الأدبي العالي في الإنشاء بالرغم من تخلل الأغلاط الأولية له ؛ وهذا يرجع إلى عدم التوطئة للأسلوب الأدبي يشرح الأغلاط الأولية الشائعة واستئصالها بكل وسيلة لأنها تعطى فكرة سيئة عن الطالب تؤدي إلى رسوبه في الامتحان مهما حاول المصحح إنصافه في استعماله بعض الجمل العالية .

٦- التفاؤل والتشاؤم فى الشعر *

إذا درس الإنسان فى التاريخ اندثار الحضارات والأمم وتمكنت تلك الدراسة من نفسه لا يروعه زوال عمل عمره كما كان يروعه لو لم تتمكن ذكرى مشاهد ذلك الاتدثار من نفسه ، ومن أجل ذلك كنت قد طبت نفساً عما بذلت من جهد وعمل فى الأدب وفى غير الأدب . لكن بعض الأفاضل لا يكتفون منى بذلك بل يريدون أن يغالوا فى انتقاص ما قدمت من عمل ، وبعضهم لا يكتفى بانتقاص عملى وبأبى إلا أن يتخطاه إلى . وليسوا كلهم من هذا القبيل ، فبعضهم أو أكثر يستهويه غيره فيتكلم أو يبدأ فى منطقته وتفكيره من العام إلى الخاص فيضع رأياً نظرياً أولاً ثم يلتبس الشواهد ويقسر الأمور على أن تكون أدلة لرأيه ، وكان الأليق به أن يتقصى معرفة الأمور أولاً ويستخلص من شواهداها الشاملة الكاملة رأياً . لكن حضرات الأفاضل النقاد كثيراً ما يخادعون أنفسهم ويظهرون الغيرة على رأى حياً فى الرأى لا حياً للحق والصواب .

والذى يريد أن يضع رأياً ثابتاً عاماً ، إن كان فى هذا الوجود أمر ثابت لا يتغير ، ينبغي له أن يفنى جزءاً كبيراً من عمره للتقصى والبحث والإلمام بكل ناحية من نواحي الموضوع حتى لا يكون حكمه مخطئاً . والأساتذة الأفاضل الشبان يحسبون أنهم قد قتلوا الموضوع بحثاً وأن إدراكهم له أكثر من إدراك الشيوخ ؛ فهم إذا تكلموا عن التفاؤل والتشاؤم فى قول ناثر أو شاعر لم يميزوا بين أثر الحالات العارضة الزائلة ، وبين نظره إلى مستقبل الإنسانية ؛ ولم يفرقوا بين التشاؤم الذى هو تثبيط وبين التشاؤم الذى هو استحثاث للهم ؛ ويحسبون أن كل وصف للشقاء تشاؤم كأنهم لا يعرفون أن الغفلة عنه والتفاؤل بها هو تشاؤم أحر من التشاؤم ، ويخلطون بين ماتظهره الدراسات النفسية السيكلوجية من حقائق مرة وبين التشاؤم ، كأنهم يريدون أن يبقى الناس على جهلهم بنفوسهم ، وهذا هو التشاؤم حقاً ؛ وإنما يكون التفاؤل أن تعرف النفس نفسها ، وأن يكون لهذه الدراسة والمعرفة أثر فى صلاحها ورقبها ؛ وهم أيضاً لا يميزون بين ما قد يدعو إليه شعر العاطفة والدراسة النفسية من وصف حالات النفوس على اختلاف تلك الحالات من حسنة وكريهة ، ولا دعوة للتثبيط بل دعوة إلى أن يكون الشعر شعراً

(*) الرسالة : أ مايو ١٩٣٩ ، ص ٨٥١ ومايلي .

حيًا لا أدباً ميتاً متكلفاً للتفاؤل ومكفناً به . ولا يميز هؤلاء الأفاضل بين يأس العجز والقنوط والتراخي ، ولا بين يأس الاستيسال الذي هو قوة تفوق أمل أحلام المخدرات وأمانى ذوات الخمار . والذي يدعو إلى التشاؤم حقاً هو أن تنشر في الرسالة قصيدة (العصر الذهبي) التي نظمت لتمجيد جهود الإنسانية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، ومحاولتها تحقيق ذلك العصر الذهبي الذي تحلم به ؛ وقصيدة (نحو الفجر) التي جعل الفجر في آخرها رمزاً لفجر مستقبل للإنسانية ؛ وقصيدة : (شهداء الإنسانية) التي تدعو إلى نصره من ضحوا بحياتهم وسعادتهم في خدمتها ، وإنما يكون الانتصار لهم بالانتصار للمثل العليا التي ضحوا بحياتهم وسعادتهم لتحقيقها ؛ وقصيدة (الشباب) التي تعبر عن أمل الإنسانية في جهود الشباب وآماله وأحلامه ؛ وقصيدة (الباحث) الذي خلده البحث والأمل ، والذي ينشر للإنسانية الحق والرقي ؛ وقصيدة (إلى المجهول) التي تدعو إلى تقصى أسرار الحياة والخلقة ؛ أقول بما يدعو إلى التشاؤم حقاً أن يأتي إلى قراء الرسالة كاتب يقول : إنى أدعو إلى التشاؤم بعد ما نشرت فيها . وليست هذه كل قصائد الأمل ؛ فقد نشر فيها أيضاً قصيدة : (الأمل) الطويلة في وصف آثار الأمل في الحياة . وقصيدة : (النجاح) و (فن الحياة) تقديساً لمسرات الفنون والحياة وجعلها فناً في جميع مظاهرها ، وقصيدة (سر الحياة) وفي آخرها إظهار عبث الشكوى منها ، وأن الشكوى ليست مؤسسة على حقيقة ثابتة ، بل على حالة نفسية . ونشر لي في الرسالة في وصف محاسن مشاهد الكون والحياة : (بللة حوراء) و (بين الجمال والجلال) و (الفصول) و (سحر الطبيعة) و (على بحر موسى) و (الصحراء) .. الخ . وما يدعو إلى التشاؤم حقاً أن يكتب الأديب الفاضل في المقتطف لقراء المقتطف : أنى أدعو إلى التشاؤم وقد نشر لي فيها : (بين الحق والحسن) وهي وصف للصراع النفسى بين نشدان الجمال وطلب الحقيقة ؛ وفي آخرها ذكر أن طلب الحقيقة في الحياة والحياة نفسها لا يدرمان إلا مع نشدان الجمال فيها . ونشر لي فيها أيضاً قصيدة (قيد الماضي) وهي دعوة للإنسانية أن تأخذ من الماضي عظاته ، وألا تتقيد بطباع الأثرة والأحقاد التي خلفتها الدهور الطويلة . ونشر لي فيها قصيدة : (النشوء والارتقاء) وهي دعوة لمساعدة هذه السنة في الأمور النفسية والخلقية كما سرت وتسرى في الأمور العقلية . ونشر لي فيها أيضاً قصيدة "أمنيتان للنفس" وفي الأمنية الثانية أى طلب القوة كل أمل ولذة في الحياة . ونشر في المقطم قصيدة (الأبد في ساعة) وهي دعوة إلى استرسال النفس في مطالبها غير المحدودة . لقد كنت أفهم قول الدكتور أدهم لو نقد مانشر لي قائلاً إنه دعوة إلى التفاؤل بولغ فيها وغولى بها ؛ وقديماً قد ميزت بين أمل وأمل ويأس ويأس ، فقلت في الجزء الثانى : إن أمل الغفلة والأثرة وقلة الاهتمام بشؤون الإنسانية هو أمل مخضب بالدم :

هل ينفعني ذلك الـ أمل المخضب بالدم

يدحسو شقاء الأبرياء وينثنى لم يكلسم

وميزت بين يأس الكسل والعجز والحمول ويأس السخط والمساورة :

وفي اليأس يأس يبعث المرء بعثة إلى الغاية القصوى من السعى والجد

وقلت إن الخير أغلب على الإنسان :

صرح الخير والأذى فيه والخير أغلب

فإلى العجم نسبة وإلى الله ينسب

وقلت إن الأمل والعمل من صفات العظمة :

أعظم الناس في اللاواء كم صبروا إن العظيم عظيم السعى والأمل

وقلت إن الأمل هو حسن الحياة :

كان حياة المرء حسناء أرمـل إذا قبل ساءت حالها طاب حالها

لها شافع يدعو إلى الحزن حكمه وآخر يخشى أن يزول جمالها

وقلت إن ألم النفس قد يكون حلية لها :

ألم تر أن القرط ليس بحليـة على الأذن حتى تؤلم الأذن بالشقب

وإن الآمال النبيلة هي دواء الشر والشقاء ومبعث إلى الرقى :

آمال تنبهي الفتى شقاوته وتعدم الشر أي إعدام

نسمو بنفس المحب عن دنس فيها ولسؤم جم وأوغـم

وفي قصيدة أخرى :

رقى الوجود بعيش الصالحين له من ليس يدركهم عجز ولا كـلـل

إن الحياة جهاد لا خفاء به فليس يفلح إلا الأغلب البطل

وفي أخرى :

وعش مع هذا الكون كونا عظـما وكُن في قواه بين ناهٍ وأمـر

وفي أخرى :

فإنى رأيت النفس كالأفق بهوها
تسير بها الآمال سير الكواكب
وفى قصيدة (المجاهد الجريح) :

ولا أشتكى أتى جرعت مريها
فأجرع منه الخلو والمر إفا
فشارب من يهوى الحياة براد
يراد يعيش نحن فيه نقاد
سوى أن عيش المرء بالشك فاسد
وأن يقبنا فى الحياة رشاد

وعلى ذكر (المجاهد الجريح) أقول : إن أكثر عنوانات قصائدى يدل على الدعوة إلى الأمل
كما يتضح من ذكر ما ذكرت من القصائد ومالم أذكر كالإيمان والقضاء والحياة والعمل والعظيم
والبطل وقوة الفكر والكونان^(١) وعلاله العيش والمثل الأعلى وخلود التجارب والملا الأعلى
وزورة الملائكة .

وفى قصيدة (الحياة والحق) :

لولا فروض العيش لم أعبأ له
إن التجارب كالأزاهر جملة
يا قلب لا يغنيك ذعرك للأسى
وفى (العيش والرجاء) :

لو أدرك الإنسان آماله
ولم يعد يعرف ما يتغنى
لكان أشق الناس فى عيشه
لا عيش إلا بطلاب المنى
وفى قصيدة (مرحباً بالأقدار) :

أدر على كؤوس العيش قاطبة
سعدو تحس وإهوان وإكرام

إلى :

هذى مرارة كأس لذ شاربها
خمارها فهو عبّاس وبسام

(١) وهى أمل فى أن تخرج من الحياة حياة أرقى ومن العيش عيش أرقى وفيها :

تخرج الليلة الضحى

خارج منه مثلما

وفى خلود التجارب :

وما العيش إلا حكمة وتهادن
وتخلط حلواً فى الحياة يحنظل
وقد صبح أن الجد يلهى عن الأسى

وفى قصيدة المثل الأعلى :

والعيش إن لم تبغ له عظمة
والنفس إما شئت كانت عالماً

وفى قصيدة الملاء الأعلى :

مرحباً بالملاء الأعلى السدى
أسعدونى أقتبس من نوركم
ظهرت نفسى فى أضوائكم
وشممت الخلد من أنفاسكم
وأرى فى النفس رسماً منكم
وعبيراً كشذى الأزهار إن

وفى الملك الشاعر :

والشر والخير لا يرفقى افتراقهما .
حتى العقول وحتى الفضل أجمعه

وحتى فى قصيدة الموت جعل الموت باعثاً للأمل :

رهيبات أن يسلو عن العيش جازع
وحتى يموت الحب والذكور والمنسى
وحتى يموت الموت لولاه ما بكسى

فتخلط مجهولاً لديه بمعلوم
وتأخذ من عيش حميد ومذموم
وإن كان جداً لا يجىء بمغفوم

فالعيش حلم طوارق الأعصوم
يسع الدنى فى طوله المترامى

شرفت دارى منه والفناء
بلغت النفس ورياً للظماء
ملما تظهر أجسام بماء
نفس يشفى من الداء العليا
مثل رسم النجم فى متن النهاء (١)
خلقت فى الأتف ذكرى كالذماء (٢)

فأرفض إذا استطعت نعمائى ولذاتى
ولذة النفس فى بذل المسروقات

من العيش حتى يصبح العيش ماضياً
وتتلو نواعى الشائقات المناعيا
حريص على دنياه يخشى المرازيا

(١) النهاء بالكسر جمع نهى وهو الغدير .

(٢) الذماء بقية الروح .

وفى قصيدة (طيرة الفرخ) :

فَسَلَّ قَلْبُ الشَّهِيدِ عَنِ الْبَلَايَا يُخَيِّرُكَ الشَّهِيدُ عَنِ الْخَبَرِ

وفى قصيدة (الشجرة والغراب) :

إِذَا أَنْتَ مَازَقْتَ مِنْ ضَرْهَا أَتَعْرِفُ مَا الْخَيْرُ مِنْ شَرْهَا
وفى الصبر صبر يريك الدنى كأنك رفعت عن أمرها

وفى قصيدة (إصبر) :

اصبر لعل النحاس فى لونه إذا دجا ظل لدانى النعيم
لعل دمع منك لم تَحْتَسِبْ ينبت زهرا فى البيان العقيم
لعل دمع النحاس در له بَسْلَكَ فى عقد الرخاء النظيم
كم خيبة تعقد عزم الفتى للنهر لولا الصخر خطو السقيم

وفى (علالة العيش) :

وَإِنْ ضِيَاءُ الْعَيْشِ يَزْهَوُ رَوَاؤُهُ لِأَنْ حَاطَهُ بَيْنَ الْأَنَامِ ظَلَامُ

وأما وصف محاسن الكون والطبيعة ، ففيه قصائد كثيرة مثل (سحر الربيع) و(خميلة الحب) و(الفصول) و(ليلة حوراء) الخ .

ولو أن الأستاذ الفاضل تقصى كل ما كتبت من نثر وشعر لعلم أن ثقافتى غير مقصورة على مذهب واحد ، ولا أحتذى احتذاء أعمى ، وإنه حتى القصائد التى بها وصف الشقاء أو مقابح النفس أو الموت أكثرها به أيضاً وصف محاسن الحياة . وإذا كنت قد أخطأت الذوق الفنى الصحيح فى دراسة نفسية فهذا من خطأ المبتدئ المغالى الذى أراد أن يقلب الأدب من صناعة فحسب إلى دراسات سيكولوجية ربما لا يعجب بها الأستاذ ؛ وربما كان من الخطأ عملها والأستاذ أوسع ثقافة من ألا يرى تعدد مذاهب الثقافة فى قولى حتى يقصره على مذهب واحد شأن الذى لم يطلع عليه . وإذا لم يكتف الناقد الفاضل بهذه الشواهد والقصائد العديدة ذكرنا له غيرها ، وليس أربنا تخليد قولنا ، فقد رضينا باندثاره لو رضى أمثال الناقد الفاضل . وقد كنا هجرنا الكتابة والنشر من سنة ١٩١٨ إلى سنة ١٩٣٥ وما عدنا إلا بسبب التحرش من ناحية ، والتأنيب من ناحية أخرى.

٧- التفاؤل والتشاؤم أيضاً*

إذا كان لقائل قولان : قول ينم عن تفاؤل ، وآخر ينم عن تشاؤم ، فليس من إخلاص الناقد للأدب أو للإنسانية أو للقائل أن يشير إلى اليأس في بعض قوله وألا يذيع الأمل في بعضه حتى ولو كان الأمل في الأقل من قوليه ؛ فإذا كان الأمل في أكثر القولين أو إذا تعادلا كان إخلاص الناقد أقل . ومعاذ الله أن أقول إن الدكتور أدهم غير مخلص للأدب ، وإنما يجرىء البعد عن الإخلاص من الإسراع في النقد من غير تدبر لهذه الحقائق أو من قلة التقصى والبحث التي هي صفة عامة في الناس تظهر في أحكامهم على أكثر الأمور . والناس في ذلك سواسية لا فرق بين عادل وظالم ، ورفيق غير رقيق ، وعاقل وغير عاقل . وإنى أحمل لكم الأديب الفاضل على هذه الصفة العامة في الإنسان وأقول إنه إذا كان لقائل قولان ، وكان أحسن قوليه في التفاؤل فمن الواجب إذاعة هذا القول ولا سيما أنه ليس تفاؤله بالقليل المنزور . ولا نحسب أن منصفاً يقول إن مذكرنا من الشواهد ليس من أحسن ما قلت ؛ وسواء أكان في نفسه حسناً إذا قورن بقول غيري أم غير حسن ، فهو إذا قورن بما وصفه الناقد بالتشاؤم في قوله أجود وأحسن وأليق بأن يذاع إذا كانت هناك ضرورة للإذاعة والنشر والنقد ، ولم ير الناقد أن من الخير اندثاره كله بما فيه من جيد وردى ، ومن تفاؤل وتشاؤم . وفي قولي من الردى ما أسلفت لنشره .

ولم أذكر جميع الشواهد والقصائد التي تثبت ما فصلته في مقالتي السابق ، فلي قصيدة (مصارع النجباء) أيضاً أمل وتفاؤل وطموح ومنها :

هبة من النجباء والشهداء	إن الحياة جمالها وبهاها
بقى الورى كالترسة الغبراء	لولا طماع الحالمين وهمهم
سامى المثال كمنزل الجوزاء	الحالمون بكل مجد خالد
والعقل أعظم هادم بناء	الشائدون الهادمون ذوو النهى
ن المرسلون بأية غبراء	الخائفون المهلكون الشارعو

(*) الرسالة : ٨ مايو ١٩٣٩ ، ص ٩٠٣ ، ومايلي .

(*) ذوات الخمار في المقال السابق صحته ذوى أى الذين أصابهم خمار الخمر .

وأرجوزة (قوة الفكر) وقد نشرت في المقطم وفي الجزء الخامس تدعو إلى تقديس مظاهر
فيحياتهم وفعالهم ودماؤهم مثل الهدى وكواكب الإسراء

الفكر في الحياة والتفاؤل حتى بالخطوب التي يسببها الفكر ومنها :

إن الخطوب سنة التجسد فلا ترغ من سهمها المسدد
وأول الفكر الكبير خطب ثم بطل خير يرب

وقصيدة (عبث الشكوى) في عنوانها ما يدل عليها . وقصيدة (أبناء الشمال) تدعو إلى
السعى والعمل والأمل ومنها :

هم لداعى السعى والآ مسال عُمال عجـال
تعرف البيداء مسعا هم وتنبئك الجبال

وقصيدة (صوت الله) تدعو إلى الاطمئنان إلى إرادة الله في الحياة وإلى الالتجاء إليه
ومنها :

وإنما نفس الفتى معبد يضيئها الله بنور عميم

وقصيدة (جهاد المصلحين) تصف ما يعترض الناس عامة من ترك آمال الإصلاح ومساعدة
وتدعو إلى التشبث بها ومنها :

ترى دنس الأشياء رؤية آلف يرى أن أحلام النفوس لغوب
يظن جهاد المرء في العيش ضلة وأن مساعى المصلحين تخيب
يرى أن خير الكون ما هو كائن ووحى النفوس الساميات مُرب
ويحسب أن الشر ضريبة لازب وأن أساليب الحياة ضروب
ويصبح في مجرى الحوادث ريشة تجوب به الأيام حيث تجوب
ويطفىء نور النفس حتى كأنما دواعى النفوس الساميات عيوب
فلا تعجب إن الشرور كثيرة ولكن بأس العاملين عجيب

وقصيدة (سنة العيش) تصف أمل المصلحين في أن تلطف طباع الحرص والشر في النفس
وتصف كيف أن فشل المصلحين ينبغي ألا يعوق عن الأمل ومنها :

طبع قديم سينضو المرء خلعتة مثل الأديم نضته صمة الصمم^(١)

(١) الصمة الحية : أى يخلع المرء طباع الحرص كما تخلع الحية جلدها .

لا بد من فشل من بعده فشل حتى يفيق سواد الناس من صمم
 لا يسعد الناس من الحرص سنتهم حتى يظهر داء الحرص بالندم
 وقصيدة (البطل المنتظر) تصف صلاح أمور الناس وتصف تفاؤلهم وأملهم وعملهم بعد
 الركود واليأس ومنها :

تمر دهور والحياة كأجن إلى أن يحل الغيث حبة مائة
 أمر وقدا كان وهو ظهور فيتسع منه جدول وغدير
 كذلك حال الناس فالتاس آجن مريـر وماء النابغين غير
 وبارقة تجلو الظلام وصاعق يشب لهيباً والأنام قشور
 فيضطرم القلب الذي كان خامداً ويصبح روض النفس وهو نضير
 وتعظم نفس المرء حتى كأنها عوالم فيها الكائنات تدور
 وقصيدة (الإيمان والقضاء) تصف أثر الإيمان في بعث القوة والأمل في النفس ومنها :
 كنف مانع وظل ظليل وشراب يشفى أوام الظماء
 وهناك مقطوعات كثيرة مثل :

كل ما في الوجود مما يرسق الـ لدمع أو يستميج شجر الرحيم
 كل شر مهما تعاظم لوقيـس بشأن الوجود غير عظيم
 فليست للتفاؤل عقيدة أعظم مما في هذين البيتين . وقصيدة :
 (الحياة والفنون) كلها تفاؤل بجمال الفنون في الحياة ووصف لجمال كل فن من الفنون
 الجميلة والفنون النافعة وأولها :

جملك الله يا حياة كما جعل وجه السماء بالشهب
 والدعوة إلى بلوغ النفس غايتها بالطموح منتشرة في أكثر القصائد كما في قصيدة (غل
 السرائر) ومنها :

وإن رضاء النفس ما ينبغي لها وليس رضاء النفس ما هو كائن وفي قصيدة أخرى :
 والندب يحمل بين جنبه الدنى روح الغريب وراحة المألوف
 إن الذي درس الزمان وفعله لأجل من حدث الزمان الموفى

ويشيم أسرار الحياة بحكمة تعدى على المجهول والمعروف
وفى قصيدة (العظيم) وصف لاستنباط فضائل النفس من تجارب الحياة حتى تجارب الشر
والشقاء ومنها .

وفضائل ليست لغير مجرب إن التجارب حجة الرجحان
وأجل خير النفس بعد بلاتها قالعيش حرب فضيلة الغفلان
وفى قصيدة (الشمطاء الفتية) وصف للرجاء الذى هو عبادة واللاعتماد الذى تزيده
الأرزاء .

نصب خالد وأعظم منه اعتقاد تزيده الأرزاء
ورجاء هو العبادة والإيم إن درع يرتد عنه الفناء
وقصيدة (العدل والكسب) تصف كيف أن الأمل والصبر أعظم حتى من العدل :
فطوبى لمظلوم رأى العدل معوزاً قضى أن فوق العدل صبر المحارب
وفى (حقوق الفرائض) تقديم للفروض على الحقوق ، وماتستلزمه الفروض من أمل وعمل :
لن يبلغ المرء العلى بحقوقه إلا إذا بلغ العلى بحقوقها
وقصيدة (البطل) تصف ما يكون من أثر الأمل والعمل فى مجرى الحوادث والأقدار
ومنها :

ترمى الحوادث بالظلال أمامها فتري خطى الأمر الذى هو آتى
ياراكب الأيام تجرى تحته مأمونة الخطرات والعداوات
إن المقادر تنحيك لأنها رُبضتْ لديك بحكمة وحصاة
كالخيل تعرف رائضاً ومذلاً عند اعتقاد المرح والصهوات

وهذه الشواهد كلها شواهد جديدة لم نشر إليها فى المقال السابق . ولو شاء الناقد الفاضل
الزيادة زدناه ولكننا نختم هذ المقال بالأبيات الآتية أولاً فى وصف أمل النفس فى أن تتغلب
جهود الشباب على طاغوت الحياة وهنا غاية التفاؤل .

ويُذْكَ طاغوت الأمور فتغتندى شرع الحياة شريعة الرحمن

وثانياً فى وصف تفاؤل النفس واعتقادها فجراً للإنسانية مستقبلاً :

وأملتَ للدنيا صباحاً مؤجلاً سيكشف عنها ظيمة الضميم والشر
فكل صباح رمزه ومثاله ووعده به يجدو إلى الزمن النضر
نُسِرَ بنُعماء وإن لم تكن لنا وتنشده فيما يكون من الدهر

وثالثاً في وصف الاستبشار بقبول الشقاء لتحقيق سعادة الإنسانية المقبلة :

أبفدح أن تقاسوا العيش نحساً لئسعدَ بعدكم صباحاً وآلاً
وكم من نعمة لولا شقاء قديماً لم تكن إلا وآلاً
فكم حَسِرَ الأوائل من شفاء فنلنا من شقائهم نوالاً

ورابعاً في أن السعادة واللذة شعور لا يستقيم إلا إذا شعر المرء بالألم :

لا يطعم السعد الشهى وشهده من لا ترود فزاده الآلام

وإذا أراد الأستاذ الفاضل زيادة من شعر التفاؤل فإنه يجده كما في قصيدة (حياة جديدة) ومنها :

تلك قلوب كأنها قبس يضىء دجن القضاء والغيب
قد آمنت بالعلاء واعتقدت كما يقنأ الإله فى الحجب
ودعاً فى قصيدة الباحث :

عشت دهرى بالبعث والأمل المله وولولاء لم أرح بالنجاء
من سهام المنون إن صروف الـ دهر فيننا كثيرة الإصماء
أنشد الحق بالثقلب فى العيـ ش وأبغى سريرة الأشياء

وقد قلنا قديماً إن فى النفس البشرية قوة تستطيع أن تحول التشاؤم إلى غرض من أغراض التفاؤل ، وإلى قوة من قوى الاستبسال فى طلب الأمل (إنما اليأس سبيل للمنى) ونعود فنقول إنه ليس من الإخلاص للأدب أو الأديب و الإنسانية ترك أحسن ما فى قول القائل . وهذا قول لانعت به الناقد الفاضل .

٨- عود إلى التفاؤل والتشاؤم *

قلت إن الشاعر أو الناثر لا يحكم عليه ولا يقال إنه متفائل أو متشائم بما يقوله في حالات نفسه العارضة المتغيرة ، لأن كل نفس تفيض بالسرور والأمل تارة ، وتنقبض بالحزن تارة ، والنفس التي لا تستطيع إلا السرور في موطن الحزن إنما هي كالأبله الذي لا يستطيع إلا الضحك ، وحالة هذا ليست فضيلة ولا قوة .

وقد يتأجر بعض تجار الأدب باسم التفاؤل ، وإنما تفاؤلهم سلعة مغشوشة وعملة زائفة يريدون أن يربحوا بها الحمد والثناء ، وأن يغفروا بها الناس ؛ وهذا التفاؤل أيضا ليس فضيلة في النفس ، بل هو نقبض الفضيلة ، وإنما يحكم على القائل بما يقوله في وصف أمله في الحياة ، وحثه إلى المثل العليا ، وما يقوله في تمجيد جهود الناس فيها كما في قصيدة : (أبناء الشمال) أو (شهداء الإنسانية) أو (إلى المجهول) أو (الباحث) أو (قوة الفكر) أو (العصر الذهبي) أو (الحق والحسن) أو (النشوة والارتقاء) .

ويحكم عليه أيضاً حكماً صادقاً إذا نظر الناقد فيما قاله القائل في وصف محاسن الحياة والأرض والكون ، فإذا استطاع أن يجعل الحياة بقدرة فنه على وصف آيات الكون والطبيعة ، لم يستطع الناقد أن يقول إن التشاؤم غالب عليه ، ولا أدري كيف يستطيع ناقد أن يقول هذا القول إذا قرأ لي وصف محاسن (الصحراء) .. حتى الصحراء تجدد فيها النفس ، وفي مظاهرها المختلفة محاسن .. وقصيدة (البحر) وقد نشرت في الرسالة أيضاً وفيها وصف تلون البحر وتغير مناظره ووصف جزره :

ومن جُزر مثل الجنان مضيئة كأن جهاتها الصائلات الدوائر
ووصف (عيون التدي) :

فليس عيون الغيد أشعلها الصبي بأحسن في لألتها حين تعطف
ووصف الربيع في قصيدة (الفصول) :

أهسواك ياروح الربيع فهبثي جسماً كجسم الغيد في لألته

ووصف النهر المترقق فى قصيدة (على بحر موبس) :

عهدته فى صيفه لؤلؤاً لسو أن لؤلؤ سيللا يسيل

ووصف مناظر الغابة وأصواتها التى تحكى جميع شجون النفس فى قصيدة : (الغابة) .
أما وصف : (شريعة الغابة) من فتك فى آخر القصيدة ، فهذا ليس من التشاؤم . بل هو تحليل لصفات النفوس يدل عليه تقاتل الأحاد والأمم فى العالم ، ويعترف بصدقه كل إنسان ماعدا الإنسان الذى لا يستطيع إلا الضحك دائماً ، وماعدا الإنسان الذى يتخذ الباطل فى وصف النفس تجارة ربح ويسمبها التفاؤل . ووصف مظاهر الضوء ومباهجه ومحاسنه فى قصيدة : (الضوء) دليل آخر على التفاؤل الصحيح غير المزيف :

أو مثل فجر الآمال إن لها فجراً وليلاً يضاء بالذكر
كانك أنت سلكم لعلا النفس لآية العُمر
تُخال من رقة المراسم مع نى لا يراه البصير بالبصر

والساخر الذى يستطيع بالرغم من سخره أن يقول كما قلت فى قصيدة (سور العيش) :

والسخرة مرآة إبليس التى نصبت إن تُبصر الحق فيها عاد كذابا

فيجعل السخر مرآة الباطل ومرآة إبليس فى بعض الأحايين لا يكون التشاؤم غالباً عليه ،
والذى يستطيع أن يصف سحر : (ضحكات الأطفال) كما استطعت فى قلبه نور الأمل لأن
الأطفال هم أمل الحياة :

ضحكة منك صوتها صوت تغريد يد العصافير تستلين القلوبا
ضحكة ردت المشيب شبابا وأماتت من الوجوه الشحوبا
ضحكات كأنها كلمات الـ له تمحور مائماً وذنوباً

إلى آخر القصيدة . وقد قلت فى وصف أثر مظاهر الجمال فى قصيدة (قبس الحسن) :

يا شمس حسن حياتنا ثمر ينضج فى ضوء حسنك الثمر

على أن الحسن فى الأحياء والأشياء ذوق ورمز ومعنى واصطلاح تخلقه النفوس . ومن أجل
ذلك كانت سعادة المرء فى نفسه كما قلت فى قصيدة : (طائر السعادة) :

ومن لم يجد فى نفسه ذخر عيشه فليس له بين الأنعام نصير

وكره الإنسان للعيش هو من حبه للعيش كما فى هذه القصيدة أيضاً :

قلى العيش حب العيش قد شط رغه كما يبغض المهجور وهو أسير
 كمن يبغض الحسناء يقلى دلالها وفى الصدر منه لوعة وزفير
 وقلت فى وصف أثر النفس فى النفس فى قصيدة : (النعمان ويوم يؤسه) وكيف أن الوفاء
 فى أحد الناس جعله يلقى يوم يؤسه ويقول :
 ألا عللاسى يا خليلسى أنتمما على العيش بالإحسان والصدق والندى
 وأعترف حتى فى قصيدة : (ثورة النفس) بما فى النفس البشرية من حسن :
 تريد أن الجسم يغدو كأنما يضىء به منك الضياء المحجب
 وفى جمال فجر النهار وفجر العمر من قصيدة (فجر الشباب) :
 وكان للفجر قلب خافق أبداً من الحياة ووجه كله لطف
 وفى إضاءة الحياة بالجد والعمل والأمل فى قصيدة (العظيم فى قوله) :
 رأيت حياة المرء فى نفع قومه ولا خير فى كنز إذا كان خافياً
 وما نُصب المصباح إلا لضوئه وإن كان فى أحشائه الدهن فانياً
 وفى حب الشعراء للحياة من قصيدة (الشاعر وجمال الحياة) :
 نحن كالنحل لانهب من الزهر من سوى كل غضة مطلولة
 وفى وصف محاسن الأرض والطبيعة :
 وكأننا نسبح الإله جنانها شرك النهى وحبالة الأفواء
 وفى أشد القصائد حزناً كما فى قصيدة (بين الحياة والموت) وهى من شعر الحالات العارضا
 أقول فى وصف العيش :
 ولكنه كالحمر تحلو لشارب وإن سلبت منه النهى والسرائر
 وفى النسب اعتراف قصيدة بجمال الحياة بالرغم من مرارة تجاربها :
 وأنت جميل كالحياة مُحبَّبٌ وإن كنت مثل العيش التجارب
 وفى قصيدة (حكمة التجارب) قلت فى عزاء التجارب :
 خذ بنصحى فقد حييت كثيراً ولو أنى لم أمض عمراً طويلاً
 عشت فى كل ساعة أبد الدهر وعالجت نضرة وذبولاً

ورمتنى الحياة بالخلو والم
ر فطوراً رغداً وطوراً ويسلا
ورفعت الستار عن خدعة العي
ش وقهقهت وانتحيت عريلا
وصحبت الحياة فى حالتها
وخبرت القنوط والتأملا
إلى أن قلت :

ورأينا الحياة من كل وجه
وعشقنا كمالها المستحيلا
ورجعنا إلى الحقائق حتى
لم نعد نطلب المحال بديلا

فهذا ليس من التشاؤم بل هو ما يناله المرء من حكمة الحياة وهو لم يمنع من وصف آمال
الإنسانية كما فى القصائد التى ذكرت فى أول المقال . وقصيدة (الحسن مرآة الطبيعة) على
ما بها من ذكر الموت فى آخرها جمعت مظاهر الحسن ومنها :

أنت مرآة مايجىء به الكو
ن من الحسن بكرة وأصيلا
فأرى فى الصباح منك ضياء
وأرى فى المساء منك ذبولا
وأرى منك فى الخريف شبيها
ثمراً بانعاً وزهراً جميلاً

وما أذكر الموت فى آخرها إلا أنه يدعو إلى محاسن الحياة والتزود منها . وقد وصفت أثر
تفاعل الكون والنفس فى قصيدة (الشعر والطبيعة) ومنها :

إذا غنت الأطياف فى الأيك صدحا
تغنت لأشجان الفواد طيور
وللريح هبات وللنفس مثلها
تُغنى رُخاءً فيهما ودُّسور
نرى فى سماء النفس ما فى سمائنا
ونبصر فيها البدر وهو منير
إذا كنت فى روض فقلبي طائر
يُغنى على أفئانه ويطيـر
وإن كنت فوق البحر فالقلب موجة
تسرب فى أمواجه وتسير
وإن كنت فوق الشم فالقلب نسر
وللنسر فى شم الجبال وكـور

وقى قصيدة (الشاعر المحتضر) يتعلل بأنه قبل موته جَمَل الحياة بفنه :

وَجَمَلْتُ الحياة بنظم شعسر
شبيه الضوء فى الأفق الأغـسر

وقد جعلنا مثل هذا القول علالة لأن بين الأدباء من يتعلل به وإن كنا لسنا فى حاجة إلى
مثل هذه العلالة ولا نأسى لضياح عمل عمر بأكمله .

وفى قصيدة (خواطر الحياة) أثناء التألم أستطيع أن أقول :

والسخط غريبال جَاهِدِ قَصْدَ الـ سِيلِ كَأَنَّ الْأَتْسَى مَسْرُودُ
أى أن حوادث الدهر لا تدفع بالسخط والحزن كما أن السيل لا يُرَدُّ بغريبال .

وفى قصيدة (كعبة النفس) جعلت الرجاء من الإيمان والعبادة :

أيا كعبة الآمال ذات المحارم مكانك من قلبى كمحراب صائم

فلا تأخذونى بالرجاء فإنمسا رجائى إيمان النفسوس الحوائم

وفى قصيدة (بيت اليأس) جعلت الحزن ترياقاً يقي من الحزن كما أن القليل من السم قد يقي من السم :

كشارب السم كى بصادى مَنْ عَلَّهُ سَمُهُ صَرِيحاً

ورددت هذا المعنى فى قصيدة (عدوى الحياة) وذكرت أن مصل الجراثيم وقاية منها :

كما يتداوى بِمَصْلٍ عَلِيلٌ وفى المصلِ من بعض مآثره (١)

وفى (عصير الحياة) جعلت لذتها وأنغام فنونها من آلام تجاربها :

أسعى على ساعات عمرى واطنا كالكرم بعصره الجناة فيخمر

وأحبلها نغماً يروق سماعه وأعيدها شعراً يلذ وُسْكِرُ

وقلت إن دجن السماء مثل حزن النفس قد يكون لذة وذلك فى قصيدة (يوم مطير) فانظر كيف تستخرج النفس اللذة والأمل من الحزن والسحاب :

ثقل على القلب البهيج عبوسه ولكنه قد يسحر القلب كارُسه

كذلك بعض الحزن للنفس شائقا تعاقره فى نشوة وتقارُسه

وهل تفاؤل أعظم من تفاؤلى فى البيت الآتى من قصيدة (عجائب الحياة) :

وأبغى صلاح الكون والناس مثلما مضى فى بناءٍ عامِلٍ وأجبيسر

وقد جعلت حتى تعلل المتعلل بذكر الموت مظهراً من مظاهر حب الحياة :

وما عََلَّتْ نفس الفتى بِمَنِيَسَةٍ ستطوى هموم العيش طى الدساكر

سوى رغبة فى العيش يرهب صرفه فيعدو على البؤس يذكرى الغواير

والتلذذ بوصف مظاهر الأمل وأحاسيسه فى قصيدة (السكون بعد النغم) يدل على التفاؤل ومنها فى وصف الإحساس بالسكون بعد النغم :

كسكوت اللهيب فوجىء بالبش	برى ويخشى من حسنها أن تخيبا
أوسكوت الشباب فى حُلُم الآ	مال من قبل أن تعاني المشيبا
أو سكوت الأم الرعوم حنانا	وابنها نائم وقتنه الخطوبا
حلمت حلمها بما سوف يسعى	فى مساعيه جيئة وذهوبا
من ثمار الحياة تختار أحلا	ها له نعمة وسعدا وطيبا

وقد جعلت الأمل بهجة العمران فى قصيدة (الأمل) :

أيا بهجة العمران لولاك لم يكن فلا شيد البانى ولو كد كادح
وهى قصيدة طويلة كلها فى مباحج الأمل ولذاته ومحاسنه ، وأحاسيسه وفى قصيدة
(شهداء الإنسانية) جعلت النعمة فى الحياة مستخرجة من الشقاء .

وكم من نعمة لولا شقاء	قديماً لم تكن إلا وبالا
فكم خير الأوائىل من شقاء	فنلنا من شقائهم نسوالا

وقد ذكرنا فى هذه المقالات وغيرها أسماء قصائد عديدة جداً لا هى من شعر التشاؤم ، ولا من المذهب الطبيعى الإنجليزى ، والشعر العربى ليس فى حاجة إلى مذاهب أو مسميات جديدة. وإذا لم يكتف حضرة الناقد الفاضل بهذه القصائد والشواهد ذكرنا له غيرها ونعتقد أنه حسن النية فى قوله ، فعسى أن تكون عقيدتنا فيه صواباً . ونكرر للأستاذ الدكتور أننا طينا نفساً عما قدمنا من عمل ، ولا يهمنا أفنى أم بقى ، ولكن الذى يهمنا ألا يتخذ وسيلة للنيل منا حتى ولو كان ذلك عن حسن نية .

٩- حول اعتزال عبد الرحمن شكرى الحياة الأدبية

لا استاذ ولا تلميذ **

اطلعت على ما كتبه الأستاذ (خلدون) بشأن كتاب (رسائل النقد)*** وقد ذكر الاستاذ (خلدون) أنه إذا صح ما فى الكتاب ! تكون منزلتى من الأستاذ العقاد والاستاذ المازنى كمنزلة (عريف القرية) من تلاميذه الذين يبرزونه فضلا وعلمًا ، ويفوقونه دراية وحكمة ، وكنت أود أن أكون عريف القرية المفضل ، الذى علم هذين الأستاذين ، كى اكتسب شيئا من الخلد ، بسبب خلود اسميهما ، ولكنى لم يكن لى حتى هذا الفضل . وإهدائى إلى صديقى الأستاذ المازنى الكتب أو إعارتى إياه بعضها ، لا يعد تعليماً أما الأستاذ العقاد فلم أعرفه إلا بعد أن أتم دراسته للأدب ، ولم أكن أقابله كثيراً ، لأنى كنت فى الإسكندرية ، وكان هو فى القاهرة ، وكانت المكاتبة بيننا نادرة . وإذا كان فى دواوينه الأخيرة أو التى قبلها ، ما يشبه قولى ، فسبب التشابه فى القولين ، تشابه الثقافة وأسلوب التفكير والشعور فى موضوعات خاصة .

على أن الأدباء الذين احترفوا الصحافة ، وخاضوا معاركها وقرسوا بأساليب النزال فى وطيسها ، قوم متعبون من أجل ولوعهم بالمعارك الصحفية . ونحن المعلمون لا ينقصنا التلاميذ المتعبون حتى نتخطفهم من بين الأدباء الذين احترفوا الصحافة . وقد تنحيت عن الاشتغال بالأدب نحو سبعة عشر عاماً من غير قاهر يقهرنى ، وإنما تنحيت زهداً فى أن أكيد وأن أكاد فليس من المعقول ، أن أتى بعد أن فترت فورة الشباب ، فأغرى الكتاب بالأستاذ العقاد والأستاذ المازنى . وأنا لا أتكسب بالكتابة ، ولم أحترف الأدب والصحافة ، ولا أعد نفسى أديباً إذا عد الأساتذة المحترفون .

عبد الرحمن شكرى

* العنوان من عندى "المحرر" .

** الأهرام ، ١٢ سبتمبر ١٩٣٤ ، ص ٧ .

*** المؤلف د. رمزي مفتاح "المحرر" .

١٠- الشهرة والخلود*

اطلعت على مانشرة (ن.ش) خاصا بكتاب "رسائل النقد". وقد ذكر فيه أنقطاعى عن النشر، وأن أحد الأفاضل قال "من هو فلان" عندما ذكر اسمى .

وأود أن يثق الأستاذ أن الانقطاع عن النشر ، قد يكسب المرء منزلة أدبية لا تكون له إذا نشر . فالتناس مجبولون على الخلاف ، إذا ادعى إنسان الأدب أنكره عليه ، وإذا أنكر على نفسه أدب النشر والشعر ، نسبوه إليه وأعنتوه كى ينثر ويشعر وادعوا أنه كافر بنعمة اعترافهم بفضله ، وأن سكوته خيانة لهم وخذلان . فهو ملوم إذا نشر ، وملوم إذا لم ينشر . ولا ملجأ له من اللوم فى الحالتين . فإذا نشر كان قوله مبذولا ، والقول المبذول محلول . وإذا سكت ومنع عنهم قوله كان قوله على حد قول الشاعر "أحب شىء الى الانسان ما منعنا" إلا أنه فى حالة سكوته يكتسب فضلا ونسب إليه مقدرة ، وتقدره طائفة من الخواص ، وتخفى عيوب نشره وشعره اللذين لم ينشرهما ويتجنب أن يكون كصاحب الشهرة الذى يشبه الحيوان المعروض على الجمهور فى قفص . هذا يقدم له مدحا لا يناسبه وذاك يحاكى صوته ، وثالث يطلب منه ما ليس فى طبعه .

فلعلك بعد ذلك ترى أن مزايا الامتناع عن النشر ترجح مزايا النشر ، أما الكتاب الذى ذكرتموه فصاحبه لا يعرف تاريخ الأدب الحديث ، ولا العوامل الظاهرة والخفية التى أثرت فيه وكان أكثر قوله استنتاجا ؛ والاستنتاج قد يخطئ وقد يصيب . ويخطئ من يظن أنى أغريت كاتبه بكتابته فإن صاحب هذا الظن لو عرك الحياة وعركته وكبر وضعف ، ورأى مرور الأمور وتحول الأشياء أو زوالها لفترت فورة شبابه وتغير نظره إلى الأمور ، وصار لا يرى لشيء مهما جل قيمة ذاتية دائمة بل يرى أن قيمة جلال الأمور قيمة نسبية مؤقتة فيأسف لتعاضد الناس على غير طائل ويزداد أسفه لتجدد هذا التعاضد والتنابد، جيلا بعد جيل ولايستفيد الجيل اللاحق بتجارب الجيل السابق ، لأن الشبان فى نشوة حياتهم يؤمنون بالمرثيات ويشعرون كأنها خالدة لا تتحول ولا تتبدل ، ويؤمنون بالنضال على أمور يعتقدون أنها غاية الغايات ،

حتى إذا كبروا وتحول هذه الامور أو زوالها أو تجددها ، جيلا بعد جيل حتى يغطي الجديد منها على القديم ، أيقنوا أن قيمتها ليست خالدة ذاتية ، بل نسبية مؤقتة فيتبدل تنازلهم أسفا ورحمة .

وهذا التبدل في نظرهم إلى الأمور وفي شعورهم بالأسف والرحمة بدل التنازل لا يكون بالاعتناع الفكري وحده ، وإنما يكون بأن يعرك الإنسان الحياة ، وأن تعركه الحياة حتى يرى التوثب إلى الشهرة والخلود الأدبي من جدة الشباب وغرارته وانخداعه بالمرئيات . ولكن الشبان يحكمون على الشيوخ بما يحسون فينسبون إلى الشيوخ ، مثل تنازلهم وكيدهم وانخداعهم بالأمور . ومن الشيوخ من هم كالشبان في هذه الأمور ، فيزيد اقتناع الشبان بصواب حكمهم من أجل ذلك . ولكنى قد صرت في منزله أحس فيها مرور الأشياء وتحولها وتجددها جيلا بعد جيل حتى يغطي الجديد منها على القديم ، ومن أجل ذلك ، صرت لا أرى لشيء مهما جَلَّ قيمة ذاتية دائمة ، بل أرى أن قيمته قيمة نسبية مؤقتة. ومن كان كذلك ؛ لا يغرى بالتنافس في الشهرة والتطلع إلى الخلود الأدبي ، ويرى معركة الحياة أو يود أن يراها كأنها معركة هادئة ساكنة في رسم فنان كبير .

عبد الرحمن شكرى

١١- شئون وشجون *

تلقيت من الأستاذ الجليل (عبد الرحمن شكرى) الكلمة الملهمة النبيلة الآتية :

ويعد فقد منعنى أسباب من قراءة (البلاغ) بضعة أيام ، ولقد كانت دهشتى عظيمة اليوم عندما قرأت لأحد الأدباء كلمة ينظر فيها إلى إحدى نظراتك ، وقد تعجبت من حدة لهجتك فى الإشارة إلى ولم أعهد هذه الحدة فى نظراتك ، ولم أفهم سببها فإن كان سببها ماكتبه بعض الأدباء يدعى فيه أنى أحقر محترفى الأدب والكتابة ، فقد كان قولى واضحا لا يحتاج إلى بيان ، ولا يستدعى هذا الادعاء ، فقد أردت أن أنفى عن نفسى أسباب العداء ، كالعداء الذى قد يحدث بين ذوى الحرفة الواحدة ، سواء أكانت الأدب أم الطب أم المحاماة أم التعليم إلخ فإن المنافسة قد تؤدى إلى العداء ، وهذه حقيقة لا غبار عليها . وأما إذا كانت حدة لهجتك من أجل تنصلى من الخصومات الأدبية ، فلا يعادى المرء ولا يخاصم لتنصله من العداء والخصام ، وأما إذا كانت حدة لهجتك لزهدى فى الاشتغال بالأدب ، فهذه مسألة شخصية لا يعادى عليها أى إنسان . وأما إذا كانت حدة لهجتك من أجل قول سمعته من جليل نبيل فى نظرك ، فإن أكبر درس تعلمه الحياة للمفكر فيها أن لا يعادى أحداً من أجل قول إنسان ، مهما كان جليلاً نبيلاً ، فإن الجلال والنبيل لا يمنعان الشوائب النفسية ، لأنهما أمران نسيان . وليس هناك جلال ولا نبيل مطلق خالص من الشوائب . وإذا كنت لم تصل إلى هذا رأى فستصل إليه يوماً ما وإننى آسف لأنى لم أر كلمتك حتى أفهم ما قصدت ، وحتى أفهم سبب حديثك . إننى لا يلسوئنى أن تقول : إننى لا أستحق أن أحيا حياة أدبية لأنى لا أعتز بقدره فى الادب أو ثقة بقدره .

وإنما الذى يسوئنى أن أكسب عداوة أديب فاضل ، أجله فيما أقرأ له من غير سبب للعداء . ولعل أكبر أسباب زهدى فى الأدب أنى لا أدعى لنفسى قدرة وتبريزاً فيه ، وعلى أى حال فهذه مسألة شخصية لا تستحق العداء يا أستاذ .

وتفضلوا بقبول عظيم احترامى

المخلص

عبد الرحمن شكرى

هذه كلمة الأستاذ الجليل عبد الرحمن شكرى ، وأجدنى - للمرة الأولى - حائراً فى الرد ، والواقع أن ليس لهذه الحدة سبب مما أشار إليه الأستاذ الكامل ، فليس لى شأن بمحترفى الأدب والأدباء لأننى ما ادعيت يوماً أننى أديب أو متأدب ، وليس لى شأن كذلك بتنصله من الخصومات الأدبية ، وزهده بالاشتغال بالأدب فتلك مسائل خاصة تتصل به نفسه . ولست مدفوعاً إلى ما كتبت بدافع قول (جليل نبيل) لأننى لا أدفع إلى ما أكتب فيه من أحد ، ومن الحق أن أقول : إننى ماسمعت من أصدقاء الأستاذ إلا الحمد له والإعجاب به والثناء عليه . ولكنى كتبت ما كتبت عندما رأيت أنه هو يحتد فى مطاردة أصدقائه الذين يحاولون أن يظفروا للشعر المصرى من وراء ظهوره فوزاً جديداً . ولئن كان الأستاذ مصراً على أنه ما يزال زاهداً فى الادب ، وأنه بعيد عنه فقد جاوز القصد ، وأنه بما يسر أن أصدقاء الأستاذ الذين حاولوا عودته إلى حياة الأدب ليربحوا نضوج عقله واكتمال شاعريته قد وفقوا أيما توفيق . بدليل أن الأستاذ أصبح يكتب فى الصحف ويعنى بما يقال عنه ، وإنى أعينه أن يقول باهتمامه عن الادب مع وضوح هذا النشاط الأدبى فيه . وأعينه أن يكون كذلك الرجل الذى ينزع سعته ويشمر عن ساعديه ليلاكم من يدعى أنه يتعصب لرأى من الآراء !

ومع هذا فلئن رأى الأستاذ أننى كنت محتداً فى الحديث عنه فهذا أنذا أعترف له بخطئى وليتقبل منى أجزل الشكر وأطيب الثناء على حسن أدبه وفضله ونباله قصدى .

محمد على غريب

١٢- شؤون وشجون ... *

هذه هي الكلمة الثالثة التي تفضل الاستاذ عبد الرحمن شكرى بتوجيهها إلى ، وقد رأيت أن أعنى بهذه الكلمة عناية خاصة ، لما حوت من جليل الأفكار وطريف الآراء .

حضرة الأستاذ الجليل

تحية واحتراما وأشكرك على كلمتك الطيبة في النظرات ، وإذا كانت قد بدرت منى كلمة إيضاح فهي لم تكن بسبب أصدقائي الذين يريدون منى أن أكتب وأن أنشر . ولو كانت فإنى لى بعض العذر لأنهم لا يقدرّون أموراً كثيرة منها اعتلال الصحة وانقطاع الإنتاج وضياع المملكة، وهي وغيرها من الأمور تأتي وتذهب أو تصرف كالأموال والمكاسب ولا يقدرّون ما يعمل به المرء في مزاولة مهنته الخاصة من العمل المتعب الذي لا يترك للمرء نشوة ونشاطاً ، ولا يعترفون أن لمهنة المرء في الحياة والمطالبها وأحكامها وبيئتها، حقاً مقدماً يؤديه قبل أن يؤدي حق الكتابة . ولا يعرفون ماهي تلك المطالب والأحكام ولأى أمر صارت فريضة ، وكيف أنها قد تناقض مطالب القريض والكتابة وكل ما يحتجون به ذكر رسالة الادب والتذكير بها وبعض المذكورين إما ذو مهنة لا تمنع منعاً باتاً من مزاولة الادب ، وإما ممن لا مهنة لهم إلا الكتابة فلا يكون إشتغالهم بها تفريطاً في مطالب الحياة . وأكثرهم عل ونهل من الصحة أو الشباب ، أو لم يبلغ تلك الحالة النفسية التي يرى فيها مرور الأمور وتحولها وتجديدها جيلاً بعد جيل فيغرى بالتفكير والنظر في أقوال القائلين أكثر مما يغرى بالقول . وتكون لذته في القراءة أكثر من لذته في الكتابة وهذه سنة للطبيعة يريد أصدقاؤنا لها تبديلاً وكثير من الناس هنا لا يزال ينكر على من يشتغل بالأدب القدرة على أن يجمع بين حرية القول وبين ضبط النفس أو بين الخيال وبين التقيد بالحقائق ومن أجل ذلك كان فرضاً على من شغل ببعض المهن أن يتخلى عن الأدب والكتابة على مقدرة منه فكيف إذا كان قد فقد أكثر المقدرة أو النشاط لها أو الفراغ الذي يتطلبه المرء دائماً للتهيؤ لها ، ويكون التخلي عن الأدب أشبه بالضرورة منه بالفرض لمن شغل ببعض المهن ، لأن التقاتل على المعقولات والأخيلة قد يربو على التقاتل على العمارات والضياع . وأصحاب بعض المهن لا بد أن يكونوا بعيدين عن هذا التقاتل والتحاسد (ولا مناص منهما إذا اشتغلوا بالأدب) وجهودهم مخصصة لمزاولة أمور أخرى ومناهضتها ولأعمال غير هذه الأعمال وأن لم يكن عداء من جانبهم إذ اشتغلوا بالأدب ، فقد يكون العداء من

جانب غيرهم فلا يفوزون بطائل لا فى مهنتهم ولا فى الكتابة والأدب . وهذه حقائق لا يصل إليها المرء بالتفكير وحده مهما كان عاقلا ولا ينفىها نكراته لها من أجل أنه لم يزاوِل الأمور ولم يبِل الأحوال التى تدرك فيها هذه الحقائق . وأرجو أن تثق يا أستاذ أن الأدب والكتابة لا يخسران خسارة كبيرة دائمة بتخلى إنسان واحد عنهما .

وتفضلوا بقبول عظيم الاحترام

المخلص

عبد الرحمن شكرى

وليسمع لى الأستاذ النبيل أن أتحدث عن جانب من هذه الكلمة السديدة ، فالأستاذ حين يريد أن يثبت عزوفه عن الأدب وصناعته وحياته ، لا يترث قليلا أمام الحقيقة الواضحة التى تقفز من خلال نشاطه الأدبى المبارك ، فهو اليوم يعنى بكل ما يتصل من البحوث وإن كانت عنايته تنصرف إلى محاولة إقناع الذين يتحدثون عنه أنه أنصرف عن الأدب وأنه يرجوهم أن يكفوا عن التعرض لاسمه .

هذه العناية هى إحدى المسائل التى تحجب إلى أصدقاء الأستاذ الجليل أن يحتفلوا بأدبه وفضله وأن يروا من الخسارة للأدب عكوف رجل مثله على غير ما ألفوه منه من جهاد أدبى فى صدد حياته .

والواقع أننى أحب الإعراب عن خواطرى فى هذا الموضوع ، ولكننى أقول إن الأستاذ الجليل حين يقف نفسه موقف الكأثر للأدب الزاهد فيه ، لا يقوى على مصانعة هذا الدافع القوى الذى دفعه فى مؤتلف شبابه إلى مزاوله الأدب ، فما تزال جرثومته حية وسوف تظل إلى الأبد .

ولست أحب أن أتحدث على الأسباب الكثيرة التى تلتطف الأستاذ فبسطها فى كلمته ، ولكننى أقول إن رجلا كالأستاذ عبد الرحمن شكرى كانت له رسالة فى الأدب قام بأدائها ثم أدركته شؤون فتوقف .. وها هو يعود الى واجبه رويدا رويدا ، وإنى أنزه الأستاذ النبيل أن يضع الأدب فى كفة ، ومطالب الحياة فى كفة ، وأن يزن بينهما بنفس الميزان الذى يستخدمه البائع الساذج الذى يزن بقطعة من الحديد حفنة من التراب .

وهؤلاء الذين جاهدوا فى سبيل الأدب عن عقيدة - والأستاذ واحد منهم - لم يصرفهم عنه عيش ولا ما إليه من أسباب . أما أن الأدب لن يخسر إذا تنحى واحد عنه فهذا تواضع شريف لا أكثر . ولن يذهب أدباؤنا جميعا يقتدون بهذا الواحد الذى تنحى فسوف لا يبقى للأدب إلا أصحاب المكتبات !

محمد على غريب

١٣- رسالة الأدب والشباب *

لا شك عندى أن أول من جعل للأدب رسالة ، كان شابا يحمى الحياة على حالاتها ، ويلتذ أساليب النزاع فيها والكفاح من أجل طبيعتها سواء أكانت وسائلها وضيفة أم كانت نبيلة فقد يكون اليافع أسمى أو أخط فى وسائله قتاله على الحياة من الشيوخ ، ولكنه عظيم الأمل والإيمان فيؤمن بالحياة ومستقبل الناس فيها ، بالرغم من مكارهها . لأنه مشغول بالمعركة والصيال فيها ، عن التفكير فى مظاهرها وخوافيها ، ومثله مثل الجندى الذى تدركه نشوة القتال حتى لا يفكر فى قسوته وجرائمه ، فلا تكون أمامه إلا صورة المجد الذى ينشده فى الحرب ، حتى لقد تغيب صورة المجد عمن تدركه نشوة القتال . ولا يحط من شأن تلك الرسالة التى يؤمن بها اليافع أنها قد تخفى عنه فى نشوة الحياة كما تخفى صورة المجد عن الجندى فى نشوة القتال . فتترى الأول يمضى فى لذاته ومطالبه ، وكأنه فى نظرة مشغول عنها بتلك الرسالة التى تحدثه بها نفسه ، وليس هذا من النفاق ، أو قل ليس هذا من نفاق المسن الذى ينافق وهو يعرف أنه ينافق .

ثم إذا صح أن اليافع يفرط فى مطالب الحياة من أجل تلك الرسالة ، فلذاته وسعادته فى ذلك التفريط ، كالزاهد الذى يرى لذته فى زهده ، واليافع إذا قال : إنه ينشد سعادة الناس بما يشدو به لإدخال السرور على نفسه كان صادقا لأن معنى رسالة الأدب أن تظهر الإنسانية وتحلوا أن يرفع الإنسان عن إنسانيته . ولكن الذى لا يغتفره اليافع لمن قارب الخمسين أن ليس بين جنبيه نفس ، كالتى لليافع وهو فى هذا غير منصف فإنه يريد مالا يراه ، يريد أن يغير سنن الله وأن يوقف دورة الفلك ومساءة الزمان ، وأن يغنى الفناء ويتحول التحول ، ويتغير التغير .

قد يكون للمسن إيمان برسالة الأدب أو برسالة أعم ، وهى رسالة الإنسان فى الحياة . ولكن إيمانه لن يكون كافيا كإيمان اليافع بتلك الرسالة ، لأن غشاوة الأمور التى تكون على بصر الصبا تزول ، فلا تخلفها إلا غشاوة الضعف والسن والكبر .

وإنما مثل تلك الغشاوة ، مثل قطعة الزجاج الملونة التى يضعها الطفل أمام بصره فيرى الدنيا ملونة باللون الذى أعجبه فى الزجاج . فإذا كبر المرء ورأى أن الأمور قد تبدلت فى نظره تصنع وتكلف رأى الشباب فى الجهر دون السر ، إما لكى ينعم بمغالطة نفسه ، وإما لكى ينعم بمغالطة الناس ، وإما بكليهما ، وإما خشية أن يعدى نظره نظر الشباب ، ولكنه لن يقدر أن يميّط عن نفسه تجارب الحياة والفكر فيها وفى تاريخ الناس ، وما تخلفه التجارب ويخلفه التفكير من أثر قد يبقى ، وقد لا يبقى على رسالة الأدب والكتابة والقريض ، ولكنه على أى حال ، يجعل إحساس المرء لها غير إحساسه القديم . فكل من يطول به العمر لابد أن تنجلي عن نفسه ، نشوة الجهاد فى الحياة ، وإن استمر فى الجهاد . وهو إذا انجلت عن نفسه نشوة الجهاد ، كان كأنما يفيق من حلم كما يفيق الميت من حلم الحياة ، وإذا أمكن إدراك هذا التصور فيرى وكأنه يرى لأول مرة نقائص النفس البشرية التى لم تقض عليها رسالة النبوة ولا رسالة الأدب على اختلاف مرتبتيهما فى عهد التاريخ القديم . واليافع إذا عرضت عليه النفس ربما خدع بها ، كالطفل الذى تعرض عليه الجانب السليم من التفاحة فيخفى عنه الجانب المعطوب لاستدارتها ، وكذلك اليافع قد يجد بعض النفوس لأنه يرى الجانب الصحيح منها ويغيب عنه الجانب المعطوب ، أما المسن فإنه يعرف ماخلف الجانب السليم ، والمسن يرى فى كتب الأوائل ، وهو مغرى بالعبر ، من الحكم والفضائل النبيلة والعادات الحسنة ما يخفض غلواء زهوه بعصره فيرى أن النفس البشرية من قديم الزمن ، كان فيها الخير والشر والفضل والنقص ، وإن اختلفت مظاهرها . ولو صبح أن النفس البشرية ، هى اليوم أسمى وأنبىل منها قديما ، فالفرق بين عهديها لا يوازي ماينبغى أن يكون من أثر الانبياء والمصلحين . وكأنما كان ماعملوا كى لاتسوء النفس إن لم تتحسن وتتحول تحولا كبيرا . كل هذه الأمور لا يراها اليافع أو يراها ويقلل من أثرها عند مايدعو إلى رسالة الأدب فلا يرى أنه مدفوع إلى تلك الرسالة وأنها لذته وسعادته ، وأنه قد لايفرط فى شيء من أجلها ويحسب أنه يفرط فى كل ماعداها وإنما وهمه من غرارة الصبا وأن الذى يطول به العهد ويدور به الفلك دورته تترك التجارب والأيام أثرها فى نفسه وتبيد نشوته وتزيل عن عينه غشاوة الأمور ، وتبصره بحقيقة النفس والحياة وخباياهما ، وما يزحف فى أركانها المظلمة من الزواحف وتقرب له بين عهد النفس القديم وعهدها الحديث وقيس أثر جهود المصلحين ، والأدباء بميزان غير الميزان الذى كان يقيس به الأمور فى شبابه .

فالشاب هو أحق الناس بأداء رسالة الأدب ، وهو بظل يؤديها حتى تؤثر دورة الزمان فى نفسه ، فإذا كبر وتحولت رسالة الأدب تفكيراً تشوبه شوائب الكبر والسن ، كان خيرا لرسالة

الأدب ولنفسه أن لا يتصنعها وخيراً أن يرسل نفسه على سجيته في تتبع الأمور وفحصها وبحثها في رفق وسكون ثم يقول للشبان لاتهملوا فوز الفائزين تشبهاً بفوز جديد ، اذا كان الناس لم ينتفعوا بالافتخار كله بالفوز الذي تم .

إن للأدب والفنون نفعين نفعاً تؤدي به تلك الرسالة ونفعاً هي به لذة خالصة. والناس قديماً وحديثاً ينشدون النفع الثاني أكثر من نشدانهم النفع الأول ، حتى في الأدب الذي يشمل النفعين وحتى في القول الذي يرجى منه النفع الأول وهذا أكبر فوز لفن الأدب على رسالته لأن الفن عند الناس لذة مرغوب فيها أما الرسالة فأثرها تغيير مرهوب بضايق ، وقد بلغ من فوز لذة الفن على رسالته أن بعض القراء الذين يجدون رسالة الأدب ، إنما يجدون لذة الأدب بقلوبهم ، ورسالته بأفواههم وما ذلك إلا لأن الأحياء ينشدون في الفن ما يجمل الحياة ، ويحبها إليهم ، على مكارهها وأرجاسها ، كالذي يحاول أن يزيل عن جسمه الأقدار فيصب العطر على ثيابه بدل أن يصب الماء على جسمه ، فالأحياء أيضاً يصبون عطر الأدب والفنون على نفوسهم وحياتهم ، بدل أن يطهروها بما يطهرها من رسالة ومن أجل ذلك ، كان شذا عطر الأدب فائحاً والدنيا والنفوس على حالها ، وإذا تحسنت قليلاً لم تتحسن كثيراً .

والشبان هم أقدر الناس على أن يمنعوا تحويل رسالة الأدب كى عطر وشذا يخفى أرجاس الحياة والنفوس بدل أن تكون رسالة تطهر النفوس ، وتجمل الحياة تجميلاً صحيحاً وذلك لأنهم أقوى الأحياء عزمًا إذا عزموا .

لقد خطرت لي هذه الخواطر عندما قرأت نظرة الاستاذ غريب التي ذكرني فيها برسالة الأدب .

١٤- مادة جديدة لدراسة عبد الرحمن شكرى *

مقدمة

تكاد الدراسات التى كتبت عن عبد الرحمن شكرى ، تقتصر على آثاره التى ظهرت فى المرحلة الاولى من حياته الادبية ، تلك المرحلة التى انتهت بتصدع مدرسة المذهب الجديد ، عقب القطيعة التى حدثت بين المازنى وشكرى . وهذه المادة تضم دواوينه السبعة وكتبه النثرية: "الاعتراف" و "الثمرات" و "حديث ابليس"^(١) على ان نتاج شكرى الادبى لا يقتصر على ذلك اذ نشر فى المقتطف والهلال والرسالة والثقافة فى العقدين الرابع والخامس عدداً كبيراً من المقالات والقصائد يكاد يضاهاى نتاجه الأول ، ويفرقه من حيث الكم والكيف .

ولست الآن بسبيل عرض هذا النتائج الغفل ، فان له مرضعاً غير هذا الموضع . ولكننى آثرت أن أنوه به فى هذه المقدمة ليكون ، بالإضافة إلى النصوص التى سننشرها فيما يلى ، عوناً للدارسين على تتبع نتاجه وتقويم أحكامه السابقة على ضوئه .

تفضل الدكتور فؤاد صروف عقب وفاة شكرى سنة ١٩٥٨ ، وأطلعنى على عدد من الرسائل الأدبية كان شكرى قد وجهها إليه أثناء اضطلاع برئاسة تحرير المقتطف ، ورجاه أن يحتفظ بها لنفسه ولا ينشرها على القراء . والرسائل كلها صادرة عن ٧ شارع إفريقيا ببورسعيد .

أما الآن وقد أصبح شكرى وتراثه ملكاً للبحث والباحثين فإننا نستطيع روحه العذب ونفسه الكريمة، التى أعطت فى هذه الحياة أكثر مما اخذت ، وقوبلت بالجحود والنكران لقاء ما قدمت . فى نشر هذه الرسائل ، لعلها تغدو مادة جديدة للدارسين ، توضح رأياً أو تصحح حكماً .

محمد يوسف نجم

(*) الأبحاث : السنة ١٣ ح ٢ يونيو حزيران ١٩٦٠ ، ص ٢٢٠ وما يلى .

(١) نشر ديوانه الاول سنة ١٩٠٩ والثانى ١٩١٣ والثالث ١٩١٥ والرابع والخامس ١٩١٦ والسادس ١٩١٨ والسابع ١٩١٩ . ونشرت كتبه النثرية سنة ١٩١٦ . ونشر كتابه "الصحائف" ١٩١٨ "المحرر" .

١٣ يناير ١٩٤٣

نحية واحتراما ،

تشرفت بورود خطابكم أما سؤالك عما أصنع فلعلك تعرف لعبة الورق (ورق الكتشينة) المسماة لعبة Patience والتي يستطيع الانسان أن يلعبها وحده وأنا لا أعرف ألعاب الورق ولكن لعبة الفكر والنثر والشعر أصبحت عندى مثل لعبة Patience هذه أى أنى لعب لعبة الفكر والنثر والشعر وحدى فأفكر وأكتب ثم أمزق ما اكتب ثم تستعيد الذاكرة بعضه وتنسى بعضه مثل ذلك أنى كتبت شواهد نفسية (ميكولوجية) كثيرة فبلغ حجم الكتاب الصغير بعد قراءة كثيرة وتفكير ثم مزقت أوراقها وفى بعض الأحيان أندم على ذلك وفى بعض الأحيان لا اندم فالكون عظيم والحياة غنية والفكر أشبه بالشر الذى يتطاير من العجلة المولدة للكهرباء فى المعمل اذا اقترب منها أصبح فهل يصح الندم على هذا الشر المتطاير الذى يفنى . وأرجو ان لا يسوءك قولى لعبة الفكر فهذا تعبير لم ابتدعه بل له مثيل فى الإنكليزية حيث يقولون the play of thought and feeling وقد يذكرون هذه الجملة فى اثناء مدح كتاب او مقالة . وكنت قد كتبت قصيدة فى موضوع (شكسبير) وأخرى فى موضوع (الأندلس) وهما اللذان اقترحتهما^(١) محطة الإذاعة فى انكلترا ولم أرسل القصيدتين (طبعاً) .

أما نشر ما أكتب فلو كنت تعرف الوسائل الذى يتخذها العداء المنظم لمنى من النشر لعرفت انه امر مستحيل وهو شئ يدعو إلى الحيرة والتعجب لأن غيرى أكثر جرأة فى الفكر وفى بعض ما يكتبون على أن صحتى وحالتى المادية لاتسمحان لى أن امثل دور دون كيشوت Don Quixote وأما قولك ان معرفتك الحق تجعلك تتحمل عدا من يجهلونه فقد ذكرنى ما قرأته فى كتاب This Human Nature طبعة The Thinkers Library لشارلس دوف لقد أثبت من تاريخ الأفكار البشرية أن الفكرة سواء اكانت حقاً أم باطلاً أم كان جزء منها حقاً وجزء باطلاً اذا اعتقد الناس صوابها قد تنفعهم ويعيشون بها ولاغرو فى قوله هذا فان النقود المزيفة اذا لم يظن الناس الى انها مزيفة قد تنفعهم ويستطيعون أن يتعاملوا بها وان يفتنوا بها وان يعيشوا بها وكذلك الافكار - صدقنى اذا قلت لك إن اشتغالى بالتعليم والكتابة والتفكير جعلنى اميل إلى تصديق رأى شارلس دوف وقد قرأت فى الكتب أن بعض زنوج أواسط افريقيا يفضلون النقود النحاسية المثقوبة القليلة القيمة على النقود الذهبية ويتعاملون بها ويغتنون وكذلك الافكار فإذا صح هذا القول ما الذى يبقى لك من معين فى نشدان الحق

(١) إشارة إلى المسابقة الشعرية التى اعلنت عنها الإذاعة البريطانية سنة ١٩٤١ (م)

على عداء من يجهله ولا داعى لأن أقول لك مقال بونتس بيلاتس (ما هو الحق؟) أى الحق المطلق . يخيل لى أن العقل البشرى هو شبيه (بالمطيب) فى الأفراح وليالى الغناء وهو الذى يشيد بمدح المغنى ويدعو الناس إلى سماعه والمغنى هو الغرائز والمبول النفسية خذ مثلاً (بينى وبينك) مقال العالم الكبير مشرفة بك فى العدد الأخير من المقتطف^(١) وهو عالم عالمى شهد له العلماء فى أوروبا وروح هذا المقال يختلف عن روح بعض ما قرأت له فى المقتطف وتراه يجد الجامعات القديمة التى سبقت نهضة إحياء العلوم ويسقط من حسابه الأسباب العديدة التى أدت إلى تلك النهضة ويجعل تلك الجامعات أهم سبب أدى إليها ويقول إنها جمعت بين النظام والحرية الفكرية . أما أنها كانت عاملاً فى تهيئة العقل الاوروبى فهو أمر لا ينكره مؤرخ وأما أنها جمعت بين النظام والحرية الفكرية فمسألة فيها نظر ولا أستطيع أن أتصور أن مشرفة بك يجهل نظام التعليم السكولاستيكي وحدوده وروحه قيوده وكيف كانت تلك الجامعات فى بعض الأحيان عوناً للاضطهاد والعذاب ولا بد ان هناك عوامل نفسية (سيكولوجية) دعت مشرفة بك الى قول ما قال - أو لعلها عوامل اجتماعية استدرجته من حيث لا يشعر . نعم كان للطلبة والأساتذة ميزة الكليرجى The Benefit of Clergy فى المحاكمة القضائية فأكسبتهم حرية فى غير أمور الفكر وهذه الحرية كانت تؤدى فى بعض الاحيان الى الفوضى التى يخشى منها مشرفة بك من غير أن تفيد الفكر - ومشرفة بك على حق فى خوفه على الفكر من الفوضى كما هو على حق فى خوفه عليه من الاستعباد . أما جعله تلك الجامعة القديمة مثلاً يقتدى به فى النظام والحرية فهو آخر شيء كنت أتوقع قراءته فى مقال لهذا العالم العالمى الكبير ومع ذلك فالناس يستطيعون أيضاً أن يعيشوا بهذا المثل كما عاشوا به قديماً . أليس مقال مشرفة بك ومشرفة بك مفخرة مصر فى العالم ، مما يدعو الى أن نقول مع بنطس بيلاتس (ما هو الحق؟) - النهاية - اعفى من النشر وربما استطعت أن ارسل إليك قصيدة (شكسبير) هدية شخصية لغير النشر .

وتفضلوا ياسيدى الأستاذ بقبول تحية واحترام ..

المخلص

عبد الرحمن شكرى

يومى فى النشر قد انتهى ولكل انسان يومه وحتى الحيوانات لكل حيوان يومه أو كمال قال

Charles Kingsley "And every dog his day"

(١) كان العالم المصرى الكبير الدكتور على مصطفى مشرفة قد نشر فى المقتطف (يناير ١٩٤٣) مقالاً

بعنوان "الحياة العلمية فى مصر بعد ربيع قرن" (م) .

١٦ يناير ١٩٤٣

محبة واحتراماً ،

وبعد فأرجو أن لا تكون قد رأيت أنى أردت نقص قيمة العقل والتفكير فى خطابى السابق فانى اعرف قدرهما فى الحياة وانما أردت ذكر ماهر مشاهد مألوف فى حياة الناس وتاريخهم . وأما اقتباسى عبارة لعبة الفكر من الانكليزية فانت تعرف أنهم قوم لعبهم جد اذا كان جد بعض الناس لعباً وهم يجلون اللعب حتى أنهم يسمون العدل fair play والعدل أمر لا يسمو عليه شئ . وأما أنى أنكرت ان يكون نظام التفكير السكولاستيكى فى الجامعات السابقة لنهضة احياء العلوم أهم أسباب تلك النهضة فذلك لانه قد ظهر قبل هذه الحرب القائمة كتاب يعز عليهم ان تكون امم غرب اوروىا (وهى على ماهى عليه من الرفعة والقوة فى الفكر والعمل) مدينة لسبب خارج عنها فى اذكاء شعلة النهضة فيها فقررروا نظرية وهى أن العقل الاوروى فى غرب أوروىا نمواً متصلاً أدى الى نهضة احياء العلوم وتارة ينقصون من اثر كتب الاغريق وتارة من اثر الحضارة العربية ثم لكى ينقصوا من اثر الحضارة العربية يقصرون أثرها على احط مظاهر النظام السكولوستيكى . أما أن العقل الاوروى قد نمواً متصلاً أدى الى النهضة فهو أمر لا ريب فيه بدليل استعداده لقبول الآراء الجديدة ولكن هذا لا يثبت ان المؤثرات كلها أو أهمها كانت مؤثرات داخلية فى غرب أوروىا كما لا يثبت ان الجامعات القديمة كانت السبب فى تلك النهضة وانما هى مغالطة ، منطقية مألوفة ، واعتقادى ان هذه نعمة جنسية تشبه المغالاة فى نعمة الجنس النوردى التى ينتقدها الكتاب الآن . والحقيقة أن المؤرخين الذين يعتقد برأيهم اكثر اتزاناً فهم لا ينكرون اثر التعليم فى مدارس الاديرة فى غرب أوروىا ولا اثر تشجيع أمراء وأشراف الاقطاع فى قلاعهم للادباء والقصصيين والشعراء والمنشدين ولا ينكرون فضل الجامعات القديمة فى تعويد العقول على اصول علم المنطق الصحيح ولا ينكرون أن العقل الاوروى نمواً متصلاً فى غرب أوروىا ولا ينكرون أن بعض كتّاب ذلك العهد فى منطقهم كانوا أكثر مداداً وصحة حتى من بعض كتّاب النهضة ومن اتى بعدهم فى المنطق وحتى من كثير من أهل العصر الحديث . ولكن الذى جعل منطقهم قليل القيمة حدود وقيود الفكر فيما قبل النهضة وهذا أمر مشاهد فى الحياة عامة فإن صاحب اكبر عقل بين الناس واكثرهم تعوداً على أصول المنطق الصحيحة اذا قيد عقله فى دائرة لا يتعدها لم يفده كبر عقله ولا أصول منطقهم . وهؤلاء المؤرخون المتصفون لا ينكرون أيضاً أن نهضة احياء

التفكير والعلوم ما كان يمكن أن تكون الا بعد أن توافرت أسباب ثلاثة . نحو اللغات الحديثة وحلولها محل اللاتينية فى الادب والتأليف بعد ان كانت اللاتينية هى أداة التعليم فى الجامعات القديمة ونحو اللغات الحديثة سهّل الفهم والتفاهم ونشر الفكر . ثم إدخال صناعة الورق . ثم ادخال الطباعة . ولكنهم مع ذلك لا ينكرون أيضاً اثر الحروب الصليبية الفكرية والاجتماعية والاقتصادية فى تهيئة السبيل للنهضة . ولا ينكرون أثر المؤثرات التى أدت الى نمو المدن التجارية وازجدت الثروة والفراغ وهما شرطان لانتشار الآداب والفنون والتفكير ولا ينكرون اثر المتجولين امثال ماركو بولو فى توسيع آفاق ذهن الأوروبي ولا ينكرون أن هذه النهضة لم تكن حادثاً مباغتاً بل حركة متصلة كحركة النهر الكبير الذى تردفه نهيرات كثيرة متعددة ولا ينكرون ان الروح الفكرية أثناء النهضة وبعدها كانت اكثر حرية واكثر اتساعاً مما كانت عليه فى الجامعات القديمة قبلها واذا لم يكن هذا انقلاباً او ثورة فكرية فماذا يكون ؟ والروحان مختلفان ولا ينكرون ان فضل العرب ليس مقصوراً على اثرهم فى الكتب التى ترجمت الى اللاتينية وكانت تستعمل فى التعليم الجامعى القديم بل يشمل جميع مظاهر الحضارة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والأدبية فى الشرق وفى صقلية والاندلس ولا ينكرون اثر انتقال كتب الاغريق وادبائهم الى ايطاليا ثم الغرب . واعتقادى أن قصر اسباب تلك النهضة على سبب او سببين هو تسهيل غريزى فى الطبيعة الانسانية وميل طبيعى فى النفس الإنسانية له أمثلة وشواهد عديدة فى الحياة اليومية وهو من اهم اسباب سوء التفاهم بين الناس والمأ بتخذ هنا مظهر التدقيق الفكرى والمفاضلة العلمية والبحث والتعميق فى اقوال الكتاب القريبى العهد الذين أشار إليهم مشرفة بك وهو أجل منهم فكراً وعلماً ويكفى أن أقول ان كبار المفكرين فى الكون امثال مشرفة بك ما كان يمكنهم أن يعيشوا فى الجامعات القديمة السابقة للنهضة ، وفى عهد نظام الفكر السكولاستيكي ولا مؤاخذة من الاطالة .

وأرجو أن تقبلوا ياسيدى الأستاذ عظيم الاحترام .

من المخلص

عبد الرحمن شكرى

١٧ يناير سنة ١٩٤٣

محبة واحتراماً ،

ان انكار مشرفة بك تسمية الروح الفكرية الجديدة التى ظهرت أثناء نهضة إحياء العلوم بثورة فكرية يذكرنى قول شكسبير (إذا سميت الوردة باسم آخر لم تقل من شذاها) والظاهر أن الذى جعل مشرفة بك ينكر هذا الاسم ما قد يكون فى معانيه من التطرف والفوضى ومع ذلك فقد كان فى بعض مظاهر تلك النهضة تطرف وفوضى وليس معنى الثورة الفكرية مقصوداً على تلك المظاهر ثم قد يكون قد دعاه الى ذلك الانكار ظهور مفكرين احراراً قبلها فى جامعات التعليم السكولاستيكي نتعجب كل التعجب من جرأتهم ونتعجب من تطرفهم فكأنما كانت الجراءة الفكرية متصلة اثناء النهضة بما قبلها ولكن جعل هؤلاء المفكرين عنواناً للتعليم الجامعى السكولاستيكي مغالطة منطقية مألوفة لان الامر الشاذ المخالف للروح السائدة لا يكون دليلاً على تلك الروح ومتى عرفنا السبب فى جرأتهم الفكرية بطل التعجب فانهم كانوا يحتالون احتيالاً - يشعرون به أنه احتيال او لا يشعرون - فيقولون ان الحق حقان حق فى اللاهوت المسيحى (وقد كانت اكثر تلك الجامعات فى نشأتها ملحقة بالكنائس) وحق فى التفكير والفلسفة . وإن ما قد يكون حقاً فى اللاهوت قد لا يكون حقاً فى التفكير والفلسفة والعكس بالعكس . وقد فطنت جامعة باريس الى خطورة هذه الفكرة وهذا الاحتيال فقصت ببطلانها ورفضها وقضت بالزندقة على من يعتنقها ولا تنسى ان ابيلارد Abelard وهو اول مفكر نشأت حول تعليمه جامعة باريس نفسها قد اضطر أن يخضع وأن يعترف بأنه على ضلال فيما علمه ، أما أن جامعة باريس كانت تقول باستقلال السلطة المدنية فذلك لإسباب شخصية ولتكتسب مكانة وحقوقاً ومع ذلك فان مناصرة جامعة باريس للسلطة المدنية بهذه الفكرة لم تزد على أن هيأت الطريق لتأسيس الكنيسة الجاليكية الفرنسية التى كان لها شبه استقلال ذاتى داخل الكنيسة الكاثوليكية . ولا داعى لأن نطيل فى التفرقة بين روح التعليم (السكولاستيكي) الجامعى وبين روح التعليم (الهيومانيزى) وكيف أن الثانى فى أثناء النهضة ساعد فى فك بعض القيود التى كانت تقيد التعليم الاول وهذا امر معروف وإذا فان كتب الاغريق كان لها اثر لا ينكر فى النهضة . أما أن أثر العرب كان غير مقصور على بعض الكتب التى ترجمت مغلوطة او غير مغلوطة الى اللاتينية من العربية فى عهد التعليم السكولاستيكي الجامعى وانه كان يشمل جميع مظاهر الحضارة الاقتصادية والاجتماعية

والفكرية والأدبية فمهما أنكره بعض المؤرخين فهو أمر يتفق وحقائق التاريخ وشواهد وما يقابله من تأثير الحضارات الأخرى بعضها في بعض . ولم تكن المؤثرات الاقتصادية والصناعية والاجتماعية في الحضارة العربية بأقل أثراً في نهضة الإحياء من الكتب العربية التي ترجمت إلى اللاتينية سواء المغلوطه وغير المغلوطه ، وغير حقيقى أن جميع المؤرخين الحديثى العهد قد تركوا فكرة اثر الكتب الاغريقية او اثر الحضارة العربية عامة وان كان بعض المتحذلقين منهم قد فعل شيئاً من ذلك ، اما تشبيه النهضة بنهر ترفده روافد كثيرة وان حركته حركة متصلة فهذا لا يمنع ان نسمى الروح الجديدة التى ظهرت فى عهد احياء العلوم بانقلاب فكرى او ثورة فكرية واقرب مثل الينا مثل النيل الابيض والنيل الازرق عند ملتقاهما فالنيل الابيض يأتى بطيئاً قليل الغرين قد اسقط اكثره من أجل بطئه ثم يلتقى به النيل الأزرق وهو وفى وقت الفيضان غزير الماء سريع الحركة كثير الغرين المخصب فتغير مظاهر النيل وهذا التعبير أشبه الأشياء بذلك التبدل فى الروح والفكر اثناء نهضة احياء العلوم فى اوربا .

هذا ماتوصل اليه علمى وربما كنت رث الافكار old-fashioned .

وتفضلوا بقبول عظيم الاحترام ،

المخلص

عيد الرحمن شكرى

١٨ يناير ١٩٤٣

محبة واحتراماً ،

ويقول بعض من يريد أن ينقص من أثر الكتب الإغريقية في نهضة أحياء العلوم ان سقوط القسطنطينية جاء بعد ابتداء عهد النهضة وهذا صحيح ولكن اثر الكتب الاغريقية لم يكن مقصوراً على الكتب التي جاءت من القسطنطينية بعد سقوطها وانما يرد ذكر القسطنطينية على سبيل الاختصار لهذا العامل والرمز له والحقيقة أن الكتب الأغريقية والأدباء الاغريق كانوا يرحلون الى ايطاليا من عهد استيلاء الأتراك على الدولة البيزنطية عامة وقد استولوا على كثير منها قبل استيلائهم على القسطنطينية كما أن البندقية ، وغيرها من المدن التجارية كانت لها املاك او محطات تجارية في تلك الدولة وعلى اتصال بالاغريق وادبائهم قبل سقوط القسطنطينية بل كانت في ايطاليا من قديم العهد كتب اغريقية مهمة في مكاتب الاديرة وكان بعض العلماء في غرب اوربا قبل النهضة يعرفون الاغريقية وعندهم بعض كتبها ولكن الاقبال على تلك الكتب لم يعم الا بعد ان قلت روح التنكشف وحلت محلها روح الاقبال على مباهج الحياة والحرية الفكرية فجعل الناس يبحثون عن تلك الكتب القديمة التي تعبر عن الروح الجديدة روح الاقبال على مباهج الحياة والانصراف عن التزهّد والتنكشف والتزمت كانت لها اسباب عديدة منها رد الفعل الذي يحدث دائماً عند التصادى في امر فينصرف الناس الى نقيضه ومنها تضائل رادع الكنيسة واغتناؤها وانصراف زعمائها الى تلك المباهج ومنها نمو المدن التجارية وازدياد الثروة والفراغ ومنها التأثير بما كان في الحضارة العربية من مباهج الحياة ولو لم توجد هذه الروح الجديدة لما اهتم الناس بالكتب الاغريقية وبالبعث عنها ولما تأثروا بها فالروح سابقة ولكن التأثير الفكرى ثابت وهذا التأثير زاد هذا الميل الروحي الجديد وسقوط القسطنطينية اذا كان مرحلة سبقتها مراحل كثيرة من اثر الكتب الاغريقية في غرب اوربا وانما ذكر سقوطها بالنص لازدياد ورود تلك الكتب والأدباء في قاعدة الدولة البيزنطية .

وبعض الكتاب الذين يريدون قصر اثر العرب على الكتب اللاتينية المنقولة خطأ عن العربية واصلها اغريقى ينصون على ان تلك الكتب قد روجعت وصححت على الاصل الاغريقى عندما اقبل الناس على قراءة الكتب الاغريقية وتعلم لغتها فائر الكتب الاغريقية اذا لا شك فيه سواء اكان في تصحيح اصول كتب المنطق التي كانت تستعمل في التعليم السكولاستيكي

القديم ام كان فى دراسة كتب الادب والفكر الإغريقية التى أوجدت التعليم الهيومانيزى الحديث فى ذلك الوقت .

وتفضلوا بقبول تحيتى واحترام ،

المخلص

عبد الرحمن شكرى

لا ادرى والله السبب الذى جعلنى أهتم بهذا الموضوع اهتماماً دعائى إلى الإطالة فى الكتابة فيه إليك إلا ان يكون نوعاً من الـ Quixotism ولكن أظن أنى لن أعود إلى هذا التطفل الفكرى .

٢٥ يناير ١٩٤٣

محبة احتراماً ،

ها هي قصيدة (شكسبير) وهي لعبة من لعب الشعر أرسلها اليك للاطلاع بها اذا شئت لا للنشر . فانى من عهد طويل ممنوع من النشر وقد وجدت فى الانقطاع عن النشر راحة وكما ذكرت لك لا يستطيع الكاتب التحدى بالنشر الا اذا كانت عنده صحة (او كنز فى اعصابه يغنى عن الصحة وقد يكون عند المرء قوة سرية فى اعصابه وهو ضعيف) أو أن يكون عنده مال والمال منعة وعزة فى المعاملات اليومية حتى فى التافه منها فالصحة أو القوة فى الاعصاب معقل منيع والثروة معقل منيع وهذا ايضاً اذا لم تكن هناك رغبة كبيرة فى منعه من النشر . بقى هناك أمر المسألة الفكرية التى استدرجنا اليه الحديث فى خطابكم . واعنى مسألة الانقلاب أو الثورة الفكرية هل كانت موجودة فى نهضة احياء العلوم فى اوربا ام كانت غير موجودة وقد قلت أن النمو المتصل فى الفكر لا يمنع من وجودها بل قد يسببها ونستطيع أن نقول اكثر من ذلك نستطيع أن نقول ان كل انقلاب أو ثورة فكرية كبيرة فى التاريخ كانت مصحوبة باتصال فى الاتجاه الفكرى . خذ مثل الثورة الفرنسية فقد اثبت ده تو كفيل ان اصلاحات الثورة الفرنسية كانت تتمة لما صنعه ملوك الفالوا والبوربون قبلها فملوك فالوا والبوربون وحدوا فرنسا سياسياً ثم جاءت الثورة ووحدتها فى القوانين والشرائع والنظم الإدارية وملوك البوربون قضوا على مميزات الاشراف السياسية ثم جاءت الثورة فقضت على مميزات الاقتصادية والقضائية وملوك البوربون عملوا على تقوية السلطة المركزية فى باريس ثم جاءت الثورة فى عهد المتطرفين فعملت على ذلك ونظم هذه المركزية بعد الثورة نابليون وملوك البوربون عملوا على مد حدود فرنسا إلى نهر الرين وجبال الالب والبرانيس وجاء الثوار فقرروا نظرية الحدود الطبيعية لها وحاولوا تحقيقها . فالاتصال الفكرى موجود والاتجاه ملحوظ لكن هذا لا يمنع من انه قد حدث بلا شك انقلاب فكرى او ثورة كبيرة . ويمكننا ان نقول ايضاً انه اذا لم يوجد هذا الاتصال الفكرى استحال او تضاعلت الثورة الفكرية . ثم هل كانت الثورة الفكرية سبباً او نتيجة لنهضة احياء العلوم فى اوربا . أظن أنها كانت سبباً ونتيجة مادام هذا النمو ملحوظاً فى الفكر وهذا الاتصال موجوداً . ومثل ذلك ان آراء الثورة الفرنسية كانت موجودة قبلها وشاعت حتى بين الطبقات التى كانت تناوى الثورة العداء مثل كبار رجال الاشراف والكنيسة اى كانت اشبه (بمودة) (fashion) وشيوعها هكذا كان عاملاً هاماً على نجاح الثورة الفرنسية التى ادت الى انقلاب كبير ويمكن تطبيق هذه النظرية على كل انقلاب

واذا اخذنا فكرة كروية الأرض وجدنا أنها كانت معروفة عند الاغريق القدماء . وقاس احدهم الدرجة من درجات العرض على سطح الكرة وأخذ العرب هذه الفكرة عنهم ولا أظن ان غرب أوروبا كان يخلو في عهد من عهود من أناس يرون هذه الفكرة وبث العلماء لها واثبات المستكشفون امثال ماجلان قول العلماء اوجد ثورة فكرية كبيرة . فالاتصال والنمو الفكري كان موجوداً والانقلاب والثورة الفكرية أمر ملحوظ وكان هذا سبباً ونتيجة معاً كما ظهر من انتشار آراء الثورة الفرنسية قبلها .

محبة واحتراماً ،،

المخلص

عبد الرحمن شكرى

شكسبير

"يا معتق الارواح ما اعتقتها

(من القصيدة)

جمعت على تعظيمك الاقوام وتقاربت في مجدك الارحام
 ما مر من عام ينوء بحمله الا وأعلت شأنك الاعوام
 وحببت مفتاح المسرة والأسى والهول يعجز وصفه الافحام^(١)
 دنيا من القول المبين كأنما دنيا الحقائق بعدها أوهام
 فوصفت فيه أعالياً وأسافلاً شغلت نهاك اخامص والهام
 وملكك أجناد الخيال تقودها للحق فهي نظائسر خدام
 جواب آفاق القريض وبحره فيه السرائر درة تستام
 مثلت امامك باملك امرها كهل وطفل سيد وغللام
 وسللت من قبح الحياة جمالها سحر القريض على الحياة وسام
 فجمعت بين جميله وجليله وتقاربت في بعدها الأنفاسام
 زدت الزهور نضارة وعلا على مرأى العظيم بوصفك الاعظام
 وأعدت ماطوت الدهور كأنما لم تغبر الأزمان والأقوام
 كالضوء في الأفق البعيد يصونها من بعد ما عبثت بها الأيام
 بل بذ منه صيانة في موجهه قلم لديك مرجب قلام
 جحدوك علماً كي تزداد فطانة عنتا وانت الباحث المقسدام
 ما شأن قولك انه متردد في السمع يؤلف وقعه ويسرام
 من جدّة أبدية ما ان لها نقص ففيض مياها فعمام
 لقحت عقول من مقالبك رعبا جهلتك انك لا قسح قوام
 كحبيب متك الزهر تخلصب ميسما وكأن سعى لقاحها استكتام

(١) معنى هذا البيت لتوماس جراى الشاعر الانجليزى .

أعنتت ارواح الورى من جهلها
 يامعتق الأرواح ما اعتفتها
 عظمت حياة أن يراض معبرها
 والنسل يكثُر والحياة حريسة
 والناس كالقول المعاد كأنما
 والخلق عدوى لا الفهم بآمن
 طبع الأوائل فى الأواخر حاكم
 والحمد للمنصور حول ركابه
 كم ظافر بالحمد لولا لوجه
 والنفس تنسى ما ترى نسيانه
 عبأت مائمه لكاهل غيرها
 والنفس تكره حين تظلم ان ترى
 والحق ما تهوى فيمزان له
 والمحض مردود إذا ما لم يكن
 والدرهم المغشوش يغنى غنية
 ورسالة القول المبين علالة
 ورأى حجاك من الحياة تمرداً
 بالسحر قد بدأ الاتام حياتهم
 شفق الأصيل وفى مقالك مثله

بامورى والجاهل الأثم
 من طبعها وقضاؤه مقحام
 أر أن يحدد سرادها ونظام
 تحبى الحياة إذا أباد حمام*
 عود الأمور فريضة وقسوام
 من حولها كلا ولا السلام
 مهما استمر وقدوة وامام
 تعنو القلوب وتخضع الأفهام
 لم يعد وصف فعالة الاجرام
 زينا لها فبيانه إعجاب
 ومننت وما تعتاقها الأثم
 من عذبتة وما له لوام
 فى فئسها حب لها وغرام
 شغف يعز نضاره وهيام
 ان لم يمز العير فى الفهام
 أمل يعيش به الورى وحسام
 سحر اخیال خطاهه والجمام
 ويحتت ثم سكتة وهو خنام^(١)
 للسحر فى وهجانه إفحام^(٢)

(*) هنا اشارة الى حقيقة يعرفها من يدرس التاريخ الطبيعى والتاريخ البشرى فهى تصدق فى حياة الاسماك والحيوان والانسان .

(١) الاشارة هنا الى استخدام شكسبير سحر بروسبيرو فى قصة (العاصفة) لحل معضلات الحياة وهذه القصة هى آخر ما الفه من القصص .

(٢) المراد جمال التوهج فى شفق الأصيل الذى يفحم الناظر من اثره فى النفس .

٢٨ يناير ١٩٤٣

تحية واحتراماً ..

وسبب آخر ياسيدى الأستاذ يمنعنى من النشر. إن ضعف الذاكرة والانصراف عن القراءة قد أفقدانى ما كان عندى من المحصول اللغوى القليل (والنحوى والصرفى أيضاً) فأصبحت أتوجس من الزلل وأرى فى كل كلمة أكتبها خطأ وأصبحت أخشى (حنابلة) اللغة والنحو .
وربما كنت على حق فى هذه الخشية فقد تذكرت بعد ارسالى لكم قصيدة شكسبير انى اوردت فيها الفعل علا لازماً وهو يتعدى بنفسه فى البيت (زدت الزهور نضارة وعلا ..) .
فكتبته ثانية هكذا

زدت الزهور نضارة ويزيد من عظم العظم بوصفك الاعظام

والله اعلم اذا كان هنالك أمر آخر

وقد سقط بيت من القصيدة او على الأصح أنى تذكرت بيتاً آخر منها إذ كنت اتلفتها ثم استعدت نحو نصلها بالذاكرة والبيت هو :

ان عز ثار من عزيز واطر قهر البرىء وحافت الآلام

وهو بعد البيت (والنفس تأبى حين تظلم ان ترى)

والجزء الذى نسيت من القصيدة على اى حال اكثره ليس فى شكسبير بل استطراد وتأمل فى الحياة والنفوس .

وترى ياسيدى الأستاذ أنى حتى ولو لم تكن عندى الأعذار التى ذكرتها قد صنت المقتطف عن الوقوع فى الخطأ بنشر شيء قد يكون به مأخذ لغوى .

(رصدنى - انى آسف لأنى لم أستطع أن أترك البيت كما هو باستخدام علا لازمة ومن يدري - ربما يأتى يوم يظهر فيه مفت كبير يقول باجازتها قرب الله عهده) . وعلى اى حال فانى لا أدعى الشعر ولا النثر ولا التفكير ولا ما ينبغى لها كلها . وانما هى عندى لعب .

ارجو أن لا اكون قد اوهمتك انى استخف عند ذكر قول بونتس بايلات (ما هو الحق) بالمسيح عليه السلام . وانما هى كلمة مغرية عند البحث فى تعريف الحق . واستعمالها هنا لا صلة له بالاصل . وهاهى لعبة اخرى اسمها (حلم بالاندلس)

وتفضلوا بقبول تحيتى واحترامى ..

المخلص

عبد الرحمن شكرى

حلم بالاندلس

في أزهى عصوره (ولكل حضارة جانب مضيء وجانب مظلم)

جنة لم يظفر الدهر لها	بشيل جنسة الأندلس
اذ دجت اقطار اوروا بدت	في ظلام الدهر مثل القيس
أهلها الفرّ الألى قد ملكوا	بالنهر منهم عنان الشمس
ووعوا ماتذخر الأيام من	ثمر اللب وغرس المدرس
فطسروا نبع عمار فانض	غامر كالنبع المنبجس
لم يهابوا بهجة الدنيا ولا	جسروا الظهر قرين الدنس
مزجت بالعدل فيهم رحمة	رحمة العدل جبال الأنفس
وحنوا من كل امر أريا	زهرة الدنيا وصفو القس
نقل الافرنج عنهم مجدهم	وعمارا فوق خير الأسس
نهضة (الإحياء) لولا صحف	صنعوا ضاقت على الملتبس ^(١)
فجدة الفارس فيهم شيمة	حين ينسى الويل عهد النحس
عمروا الأرض وأجروا ماها	وزها كالسحر نبت اليبس *
جعلوا للفكر فيهم موطناً	موطن الفضل الشهيّ الأنس ^(٢)
لم يكن مصرعهم من لينهم	لا ولا من لذة لم تحبس
كم لهم من موقف في بلدة	بعد أخرى موقفاً لم يوكس ^(٣)
دبت الفرقة فيهم كاللظى	يتعالى في الهشيم اليبس ** ^(٤)
صيرت بهجة أيام لهم	ماتما *** من بعد حسن العرس ^(٥)

(١) الإشارة الى صناعة الورق ونهضة إحياء العلوم في أوروبا .

(٢) الانس كالانس .

(٣) أي لم ينقص نصيبهم من الشجاعة .

(٤) الإشارة الى انقسامهم .

(٥) أي كأن الأيام نساء تنوح عليهم .

(*) في حاشية الأصل (اليبس) : الأرض اليابسة . (م)

(**) في حاشية الأصل : (اليبس) : اليابس (صفة) . (م)

(***) في حاشية الأصل : الماتم النساء في المناحة . (م)

وإذا شمل أناس لم يكن
 قاتلوا قوماً بقوم منهم
 ذبلت زهرة عهد مثلما
 وكذا الزهر حياة فعمات
 تبهش النفس إلى عهدك يا
 كنت أوحى من خيال طارق
 لو معا ذكراك ماح لحاء
 ناقصاً من كل أمر بهج
 راجعاً بالناس عما اصحلوا
 كنت حلماً بحياة للورى
 ما بهذا العيش حلم دائم
 كل دهر صائغ صاغ الورى
 معقلاً هاتوا على المفترس
 عن قلوب نفسرت لم تملس
 يذبل الورد وزهر النرجس
 فحياة فسى بذور المفرس
 حلم الأيام بالاتدلس^(١)
 فى الكرى أو قبلة المختلس^(٢)
 من كنوز الدهر حسن المنفس^(٣)
 فى الدنى أو شيمه فى الأنفس
 كرجوع السقم للمنتكس
 تبتغى غرض جماع النحس
 كل حلم كامتداد النفس
 هل ضروب السبك سلوى المفلس^(٤)

اول مارس ١٩٤٤

تهية واحتراماً ..

وبعد فقد غمرتنا أياديك بهدايا المقتطف فهل تسمح لى أن أقدم هذه القصيدة للنظر لا
 للنشر فالظاهر أنه يجوز لكل انسان فى هذا البلدان يكتب فى اى موضوع . يجوز لكل انسان
 من المدير والوزير إلى البلطجى وسائق الحمير .. يجوز لكل انسان إلا انا . حتى ان ذكر اسمى
 فى مقال يثير أضغان بعض الناس . وقد كان أخرى بالأستاذ عبد الغنى حسن ان يغفل ذكرى

(١) تبهش : ترتاح قال البحتري :

تبهش النفس إلى زور الكرى ومتاع النفس فى زور الأرق .

(٢) أوحى : أسرع

(٣) المنفس : النفيس

(٤) ضروب : اصناف

فى مقال وصف الطبيعة^(١) وأن ينسى حنين الغريب عند غروب الشمس بعد أن نسى ونسى القراء - الفصول - ليلة حوراء - والغابة - والضوء - والجبل - والصحراء - والليل - والريح - ونحو الفجر - وبقطة فى الفجر - وعلى بحر موسى - والشلال - والشتاء فى المجلترا - وغيرها مما أذكر ولا أذكر ولا أعددها اعتزازاً بها وإنما عددها حجة لاغفال الباقي مما ذكر فقد أصبحت لا اهتم لشعر أو نثر أقوله ولا لى رغبة فى مباراة أحد وهذه القصيدة المرسلة هى الثالثة من قصائد المباريات فى الراديو^(٢) لم يطلع عليها أحد - أقول الثالثة أى بعد شكسبير والأندلس - ولولا أن المقتطف يحفزنا لما اطلع عليها أحد - ما رأى الاستاذ فارس^(٣) بشر فى قول العباس بن الاحنف .

احرم (منكم) بما أقول وقد نال به العاشقون من عشقوا
صرت كأنى ذبالة نصبت تضىء للناس وهى تحترق

الظاهر أنه استعمل حرم لازمة فان صح قوله جاز فيها التعدى واللزوم مثل منع وجبا . وما رأى الاستاذ لجيب شاهين فى قول المتنبي فى القصيدة التى مطلعها (لا خيل عندك تهديها ولا مال) .

فان تكن محكمات الشكل تمنعنى ظهور جرى فلى فيهن تصهال
الظاهر أن الأستاذ الأسمر لم يبتدع كلمة تصهال - فى كتب اللغة ورد فى تفسير الآية عن السائل والمحروم أى المحروم من الرزق ولو استحال اللزوم لقليل المحروم الرزق - وأما التعدى فقد ورد أيضاً كما فى قول البحتري (.. فلا تحرمنى فرحة البأس) الخ الخ .

(١) إشارة إلى مقال كان الاستاذ محمد عبد الغنى حسن نشره فى مجلة الرسالة ع ٥٥٤ (٤ فبراير ١٩٤٤) بعنوان "الطبيعة توحى والشاعر ينطق". (م)

(٢) إشارة الى المسابقة الشعرية التى اعلنت عنها هيئة الاذاعة البريطانية فى مجلة المستمع العربى ع ١٩٤٣ (يناير ١٩٤٣). (م)

(٣) إشارة الى نقد الدكتور بشر فارس للعقاد فى استعماله حرم لازمة (المقتطف ، عدد فبراير ١٩٤٤ ص ١٩٥). (م)

هذا وارجو ان تسمحوا لى ان اختتم هذا المقال فقد اصبحت اعد الكتابة فى الشعر شؤما
يجلب الحزن والتعس والندم - ومن يدري - ربما كان ذلك من سنن الطبيعة التى سيظهرها
ويثبتها علماء امريكا فى معاملهم فى المستقبل .

وتفضلوا بقبول فحيمة واحترام ..

المخلص

عبد الرحمن شكرى

نهضة الشباب

مهدة الى الشبان الذين يجاهدون فى سبيل الانسانية المعذبة .

ملأوا الدهر كفاحاً وطلاباً	واستطابوا العيش سلماً وغلاباً
وقضوه فوق هامات الدنسى*	لم يربهم من حياة مسا ارباً
بالشهى العذب من حلم الصبا	يحتسون العيش صاباً ورضاباً ^(١)
كل دهر ممرع من سعيهم	قبله قد كان قفراً وبها
عزمات جدد العيش بها	كل دهر ردها غراً صلاباً
واذا ما ارشدوا كانوا عمارة	واذا ما ضلوا كانوا خراباً
ولقد يركب منهم غاشم	مركب النصر فيعلون الركاباً
آية الآيات من عزمهم	للصبا تسعى اذا ما الدهر شاباً
كم نسور موشك مصرعها	ماعدت اعمارها قاباً وقاباً ^(٢)
وعيون خدمت فى خفية	ورأت فى الذم والموت الثواباً ^(٣)
ودليل فى حشا المقذوف لا	يرتجى منه نجاة واياباً ^(٤)
وقصير العمر حلو عيشه	ورطيب العود جسماً واهاباً
ما ارتوى من بهجة العيش ولا	قرأ الدهر سطوراً وكتاباً
ووحيد الام ترجو عرسه	عوده لو ان عرس الموت آبا
ما ازدهاه عبث العيش ولا	قطع العمر مقبلاً وكذاباً

(١) المراد رضاب العمل .

(٢) المراد بالنسور الطيارون .

(٣) والعيون والجواسيس والمراد بهم الذين يعملون لخدمة انهم خفية .

(٤) ودليل فى حشا المقذوف جندى يقود المقذوف وهو فى باطنه .

(*) فى حاشية الاصل (الدنى) : جميع دنيا . (م)

ودع الآمال يحلوا قطفها
 ذائداً عن قومسه فى غمرة
 ترك العيش لشيخ يفن
 يا ولادة الحق يا شيعته
 لا يضع مصرع اخدان سدى
 الدنى ترقب ما اعدتم
 وتحلوا لغز عيش مورد
 يسأل العابر ان يفصح ع
 صحة الفطرة فى عهد الصبا
 اربعى الطبع فى عهد الصبا
 فوق ايمانكم بالعيش قد
 وينصير منكم شاء العلى
 فاذنوا للحق ان ناداكم
 يفرق الطاغوت من عزمتكم
 حققوا للناس آمالا لهم
 فصلوا خيراً وشرأ لهمما
 وافطروا للحق بئراً علىه
 واحتسى ماء الردى مرا وصاها
 يرتضى الموت ولو كان عذابا
 وجبا الحق حياة وشبابا
 نعم صحب الحق ان كنتم صحابا
 فيظل الشر فى العيش سراها
 عليكم ان تعتقوا منها الرقابا (١)
 من تغابى عن معانيه التباها (٢)
 ما يعنى هل تحيرون خطاها (٣)
 ربما كانت سؤالا وجوابا
 جاء بالحق اذا ما القلب حاها
 وطد ابانى بناء وقهاها
 وجلا عن دهره ظلماً وحابا (٤)
 واحذروا فى دعوة النفس الخلابا
 ويرد العيش عدلا مستطابا
 كل دهر قد بغاها ثم خابا
 عقدة تبدى التواء وانقلابا
 يغمر العيش انهماراً وانسكابا (٥)

(١) اى تعتق رقابها من شرور انفسها .

(٢) التباها الهلاك .

(٣) فى هذا البيت والذى قبله تشبيه للعيش يا بى الهول - الحى سفنكس SPHINX واسارة إلى قصة قديمة يحكى فيها أن سفنكس ابا الهول الحى كان يسأل المارة عن الفاز الحياه فمن لم يجب اهلكه . هل تحيرون خطاها اى هل تستطيعون .

(٤) الحاب الاثم .

(٥) قطر البثر شقها وفى البيت اسارة الى اسطورة قديمة يحكى فيها ان الحق يعيش فى قاع بئر .

زوال البهاء

كم أسينا على زوال بهاء كان أنساً وكان للنفس أهلاً
 ووددناه خالداً ليس يفنى هل ترى الزهر في الخدائق حولاً
 فأسينا والكون يكسى وينضو حللاً من مفاتن تتجلى
 حلة بعد حلة تتردى وفناء يعود محبى ووصلاً
 وجعلنا الحياة ثقلًا وما كان نت بروق البهاء حملاً وثقلاً
 وروينا بالذكر غلة نفس ليس تروى وإن أفاض وعلاً
 عبق الذكر بالجمال فكسان الـ خفح منه كالغيث طلا وريلاً
 مثل ما تنثر القماقم عطراً عابقاً بالشذا به منهللاً
 فذكرنا مباحجاً ريماً رت خفاناً كالطيف حين اضمحلاً
 وذكرنا مفاتنا ريماً رت سراعاً كالظل حين استقلاً
 أعجمت في حياتها ثم عادت بعده بالبيان فصلاً ففصلاً
 فهي تبدى معنى وتكتم معنى وأبى الحب أن يرى الحسن سهلاً
 حسرة للبيان لعد فناء الـ حسن هلا كانا قريناً ومثلاً
 فرددنا الزمان وقفاً على ما أسر القلب بانشلاف وغسلاً
 نبتغى وقفة الزمان وفيها يدرك الموت ما استحب وجلاً
 وقفة لا حياة فيها ولا حسـ من ونبتغى منها سخاء ونيلاً
 ثم قلنا والقلب حيران آس ريماً خال أنه قد تصلى
 بهجة العيش أن يكون قصيراً يرخص العيش حيث ران وظلاً
 بهجة العيش في زوال بهاء ملأ النفس طرفه ثم ولى
 بهجة الحسن أن يقيم قليلاً لو يدوم البهاء هان وقلاً
 لو يدوم البهاء ما حن طرف واشتهى القلب شكله وتملى

وإذا خافت النفوس على فا ن تحلى وكان أعنى وأغلى
تتعزيز وما نريد التعزى وفهمنا والجهل أشهى وأحلا
عبثاً تهتدى العقول وما الحك هم سوى للطباع قولاً وذهلاً
فرجعنا إلى الأسى والتعنى يجلوان الحياة فرعاً وأمسلاً
ووددنا لو أن كل بهاء خالد فى الدهور نوراً وظلاً
ووددنا لو أن كل مراد دائم فى الحياة لوناً وشكلاً
وأسينا على زوال بهاء كان أنسا وكان للنفس اهلاً

تحية واحتراماً

وبعد فقد قلت لك أن المقتطف بحفزنا الى التفكير والقول والكتابة إليك وقد أرسلت اليك قصيدة (نهضة الشباب) للنظر وهذه قصيدة أخرى عاطفية كما يقولون وشبه فلسفية شبه سيكولوجية .

وقد ذكرت للأستاذ عبد الغنى حسن علاوة على ما ذكرت أمس قصائد البحر - ويوم مطير - وحديقة الصيف والحديقة أننا انغمرنا فى الطبيعة كما يقول أستاذنا ولكن الظاهر أننا انغمرنا كما قال الشاعر :

أنا انغمرنا انغماراً لامثيل له وقد خرجنا بجلد غير مبلول
أى لم يفدنا الاتغمار اجادة فى القول

وتفضلوا بقبول تحيتى واحترامى ..

المخلص

عبد الرحمن شكرى

٢ مارس ١٩٤٤

محبة واحتراماً

وبعد فهذه الثالثة الأثافي كما يقولون أي قصيدة ثالثة ، بعد - نهضة الشباب - .

وزوال البهاء - وعنوانها صوت

وصحة البيت (عبثاً تهتدى العقول الخ من قصيدة زوال البهاء)

عبثاً تهتدى العقول وما الحكيم لغير الطبائع قبولاً وفعلاً

ثم انى إنما أردت أن أشير فى البيت الآتى من قصيدة نهضة الشباب)

وتخلصوا لغز عيش مسورد من تغابى عن معانيه التبابا

الى قول هـ.جـ. ولز . ان الانسان Homo Sapiem قد يزول كما زالت الحيوانات القديمة

بسبب اختلال عيشه اذا لم يستطع أن ينظمه وهذا هو التباب او الهلاك المقصود .

إنى كلما رأيت الأغلاط التى يستخرجها كل اديب من قول كل اديب فى كل مجلة وجريدة

ازداد شكاً فى فائدة النشر وفى كل ما أكتب ومن أجل ذلك ستكون هذه القصيدة آخر قصيدة

ارسلها اليك للنظر (رأفة ورحمة) .

وتفضلوا بقبول تحيتى واحترامى ..

المخلص

عبد الرحمن شكرى

صوت

صوتك صوت السلام تألفه الـ	انفس بعد الكفاح والظفر
صوتك صوت الربيع يبعث فى الـ	روض حياة الطيور والزهر
صوتك صوت الحياة ظافرة	لاهية بالورى مدى العصر
كأنه لحسن مطرب عجب	يطرب سمعا فى هدأة السحر
يسحر سحر الصدى الخلوب إذا	ردده الريف فى سنا القمر
من عالم الغيب خيل حيث دنـا	من عالم الفانيات والصور
ذاك البعيد القريب مصدره	وهو البعيد القريب فى الأثر
تأخذ منه الأسماع أهونه	وبعده مايجل مسن وطر
كالعين دعجاء فى مفاتها	غور كغور البحار والدرر
تأخذ منها الابصار أقربها	وأنفس الحسن أبعد الذخر
حسن فحسن تظل تلحظه	بالنفس لا باللحاظ والنظر
صوتك صوت الطيور فى فلق الـ	فجر نشاوى من غير ما سكر
كأنه من لغى النفوس إذا	شاقت بلا منطق ولا وتر

العدد الرابع من مجلة المنسيات

محبة واحتراماً

عزُ على أن أتذكر أغلاطاً فيما كتبت ثم لا أصححها فالظاهر أن محبى تكتب بالألف كما

فى بعض كتب اللغة واحلى بالياء ، وكان ينبغى ان اقول إلا إياى بدل إلا انا - ولكن But

What do you expect ? جهل وضعف ذاكرة وتهدم وشيخوخة . وقد اذكرتنى هذه الأغلاط

بقصة انجليزية قصيرة فقد قيل ان محامياً اعترض على قاض أبدي رأيه فى المحكمة التى

يرأسها فقال له القاضى (إذا كان لايعجبك رأى المحكمه حول القضية الى محكمة (Court of

(Errors) وهى المحكمة التى تصحح أغلاط الأحكام فما كان من المحامى إلا أن قل If this court is not a court of errors I do not know where to find it. ومن الغريب ان القاضى لم يأمر بتفريعه أو حبسه لإهانة المحكمة أما القصيدة المكتوبة خلف هذا فهى رابعة الاثافى إن كانت للاثافى رابعة .

وتفضلوا بقبول تحيتى واحترامى ،

المخلص

عبد الرحمن شكرى

٦ مارس سنة ١٩٤٤

تذكرت من قصائد الطبيعة قصائد أخرى منها - عيون الندى - وعابدة الشمس - وكؤوس من النور - والصدى - مرأى الجلال وذكرى الجمال فأرجو من أستاذنا عبد الغنى حسن ان يتركنا فقد خرجنا (ناشفين) بعد الانغمار أو الغمرة والحمد لله أولاً واخيراً ولا يحمد على مكروه سواه .

صورة

صورة قد جمعت يا عجباً حركات الحى فى ذاك السكون

صورة ناطقة صامتة	كهدوء النفس فى عز اليقين
ريقين الحسن ينفى كل ما	شاب حسنا من غشاوات الظنون
يهرم الحى وتبقى أبدا	فى الشباب الغض والحسن المكين
وجماد لا يعسى لکنه	فتنة الإحياء بالسحر المبين
صورة قد جمعت يا عجباً	حركات الحى فى ذاك السكون
وابتساماً دائماً لکنه	أبد الدهر جديد لا يهون
تفقد البسمة سحراً غيسرها	وترى مملولة حين تریسن
وهى تزداد بهاء وفتونا	يخلب اللب ويستهوى العيسون
صورة فى الطرس أم طيف بدا	أم هى الروح بدت للناظرین

أم هي المرأة تجلو مهجته
 صورة شمسية لكنها
 يعجز المفتن عن آياتها
 بحسب الرائي كأن الكون قد
 نال منه وجباه ضعف ما
 فهي زهر وهي نور وهي ظل
 هيبت للكون آيات الدنى
 لو رآه ناظر لم يحتسب
 عظمت في صفوها عن أن تبين
 بذّ فيها الحسن آيات القنون
 جامعاً ما شاء من صنع يزين
 نال منه حسنهما كل قنون
 نال منه أنه غير غيبين
 وهي دوح وهي طير في وكون
 فرأى في الكون سحراً لا يكون
 حسنهما كأساً دهاقاً بالعينون

(وصف القصيدة على وزنها)

وكلام فارغ لكنه معجب في السمع فياض الرنين

شفق الغروب

شفق الغروب وانسه
 يكسر السماء مباهج الـ
 فكان باب الجناس
 هامت به مهج النورى
 كالطفل ينشد سلماً
 أرخت ستائر حسنهما
 أم أنها الملك المحـ
 خشموا لعز الملك أم
 سحر تحن له القلوب
 أنماط من حسن عجيب
 ن وخلفه أمل وطيب
 كالطير من ظمأ تلـوب *
 يفضى إلى ذاك اللهب
 حناء من حذر الرقيب
 يجب في تحجبه رهيب
 بهروا بإيوان مهيب

* في حاشية الاصل : تلوب تحوم على الماء وتدور حوله . (م)

والحسن معبوء صبيـب
رفها ويجهلها الأريب
رتك المنيرة أم غسروب
واعز رأيا للقلـوب

صبت عجائب لونها
وعوالم للسحر يعـ
أذكاء * فجرك أم ظهـ
أشهى وأحلى بهجة

ر به سفائمه تفيـب
شوقاً تفيض به الجنـوب
أفـق كما حن الغريب
ما يحمل الصدر الرحـيب
نهـج ولا درب قريـب
لاحت على شفق الغـروب
م كأنه نور يـذوب
مـكن لا قـتيل ولا حـريب
رد الكهول عن المشـيب
أم أنه ورد يصـوب

شفق على أفق البـحا
وكأنما قد حملت
شوقاً إلى وهـج على
أسفائنا قد حملت
باب الجنان أـمالـه
الأـمـهـج فـتـنـة
قد ذهب البحر الخـضـ
وتوهـج كـدم ولسـ
كدم النبيل بنـشـوة
من منبع الذهب استقـى

ر وحلية الكلا العـشـيب
بجناح ذي الريش الخـضـيب
خ وراحة القلب المـجـيب
ه به وبالدغش العـقـيب*

نار وتبر في الخـديـ
وعلى الخـمائل هـابـط
وهـدوء ذي السـمع المـصـيب
وعنـاق أرض والسـمـا

* في الحاشية : ذكاء الشمس . (م)

* في حاشية الاصل (العقيب) : الظلمة المعاقبة له . (م)

وعلى السوائم وحشة • من غير مكروب كئيب
 وكان سراً لاح خد ف بهائه وبه ويغيب
 أبهى بهائك حين رو ع الحسن روق لا يرب
 روح لمهلك كل يو م لا يقيم ولا يسووب
 والحسن أكثر ما بدا نى حين يؤذن بالمغيب

نحية واحتراماً

وبعد فهذه قصيدة فى وصف شفق الغروب صنعتها اكراماً وهدية لأستاذنا عبد الغنى حسن
 فاذا شاء عدها من أدب الدردشة وإذا شاء عدها انغماراً فى الطبيعة وإذا شاء عدها بين بين
 وهذا بالرغم من أن أستاذنا على الجارم بك قد قسم الشعر فقال :

نفحة علوية أو هلدر ليس فيه ما يسمي بين بين

وقد أرسلتها للنظر كي أتلّف أصلها وأتخلص من شؤمها واضع عبء بقائها أو فنائها
 عليك

وتفضلوا بقبول إجلال المخلص ..

عبد الرحمن شكرى

٤٤/٣/١٦

٤٤/٣/١٧

استنوقت الطير والله يا أستاذنا وصارت تلوب كالإبل أو كالناس وصحة البيت (والنفس
 من ظماً تلوب) .

أما الأغلاط الباقية فقد نسيتها إذ نسيت القصيدة كلها

المخلص

عبد الرحمن شكرى

قد أقسمت (I don't think) أن لا أكتب هراء كهذا نشرأ كان أو شعراً وكل ما يمكن أن
أكتبه الآن من هذا القبيل على تقدير سر (SO) Colloquially هذا ويجوز استعمال تلوب
على سبيل الاستعارة في شعر الدردشة كما قال الشاعر :

لدى شرعة قد حلأ الركب طيرها تحوم على أرجائها وتلسوب

٢- قصص عبد الرحمن شكري(*)

* العنوان من عندي « المحرر » .

١ - قصة مصرية فى اعترافات سميحة *

سبلى

إننى أكتب إليك وأنا فى غرفة ضيقة فى عيادة أحد الأطباء الذى كان له الضلع الأكبر فى هذه المأساة التى أسردها عليك فأذكر وأنا بجواره ذكريات حبى القديم الذى انتهى على هذه الصورة القاسية .

يا ألهى !!

ثلاث سنوات انقضت على هذا الحب ومع ذلك فلا أزال أذكر صورته متتابعة (كفيلم) سينمائى يعرض درامة حبه عن حياة امرأة تعسه فقدت كل شىء ، يمكن أن تعتز به .

كان ذلك فى أحد أيام فبراير من عام ١٩٣٥ عندما كنت إحدى تلميذات (المدرسة السنية) وبالرغم من أننى كنت أمتاز بشىء من الجمال الرائع الذى تطمع فيه كل شابة فى مثل سنى فإننى لم أكن اعترف بالحب لأن قلبى لم يكن وقتئذ قد خفق به بالرغم من أننى كنت قد درجت إلى السابعة عشر وتصادف أن كنت عائدة إلى منزلى بعد انصرافى من المدرسة فى ذلك اليوم فلفت نظرى شاب . أصارحك الحق أننى ارتجفت عندما لمحته يطيل النظر إلى فى صمت كأنه يحاول أن يلتهمنى بعينه ، كان شابا رفيع القامة ظل يتبعنى فى صمت وسكون بينما أسرعت إلى منزلى الذى ماكدت أصل إليه حتى القيت بكراساتى وكتبى ثم هرولت إلى (الهلكون) ولست أدري بالضبط ما الذى حدا بى إلى الاسراع لأطل عليه فوجدته واقفا فى ركن الشارع وهو يشخص إلى المنزل فلما لمحنى رفع يديه فى حركة سريعة كأنه يحينى ثم ابتسم قبل أن يعود ودهشت عندما رأيت نفسى أفكر فيه . أفكر فيه . بل قد يدهشك أن تعلم أننى كنت أسرع بين لحظة وأخرى للوقوف فى (الهلكون) ثم أبحث بنظري عنه فى الشارع حتى ضاق بى الوقت عندما أخذت الشمس تحتضر وتنحدر إلى الغروب .. وعبثا حاولت النوم فى تلك الليلة إذ لاحقتنى صورته وداخلتنى نوبة حنين لشيء غامض لم أكن أعرفه وغمرتنى سعادة لم أكن أعهدا فقد بدأت فى تلك الليلة أفكر فى رجل !

* مجلة الـ ٢٠ قصة : ٢٢ يناير ١٩٣٨ ، ص ١١٣ ومايلى

وتكرر لقاءنا وكنت كلما رأيتك أشعر بارتجاف ينساب بين أعصابي بل كان يخيل الى أحيانا أنه يحاول أن يقول شيئاً ولكن كان التردد يمنعه عن ذلك الى ان كانت احدى الامسيات عندها دعيت الى حفلة زفاف احدى صديقاتي وهناك التقيت فجأة بهذا الذى كان ضمن المدعوين !! وظل كلانا يختلس النظر الى الآخر حتى دعت احدى صديقاتي ليعزف لهما على (البيانو) وتردد قليلا . ثم تقدم فى خطى متثاقلة وبدأت أصابعه تلعب . وأدهشنى ان أسمع يعزف (تالنجو سميحة) .

وتساءلت هل يقصد باختياره لهذا (التالنجو) أن يظهر لى معرفته باسمى فاراد قبل ان ترتعش شفتاه بندائه . أن ترتعش أصابعه به وهو يعزفه على نغمات الموسيقى التى قد تعبر عن شيء مما يخالج نفسه .

وقلكنى شعور غريب وأنا اطليل النظر إلى أصابعه وهى تلعب فى خفة خاطفة على (أصابع) البيانو حتى انتهى من العزف فقابله الجميع بالتصفيق الحاد . وأحست بزهو هائل ينساب فى نفسى عندما رأيتهم يصفقون له .. له هو الذى اختار هذا (التالنجو) المقترن باسمى .. وقلكنى شيء من الدهول لم أفق منه إلا على صوت احدى الصديقات تنادىنى ليعزف لهما على البيانو .. وقلكنى حيرة شديدة واضطراب هائل ولم أدر إلا وأنا جالسة أمام البيانو بينما أخذت أصابعى تعزف نفس التالنجو الذى عزفه هذا الشاب منذ لحظة وعم المدعوين سكون شامل وهم ينصتون إلى عندما كان (تالنجو سميحة) تردده أصدا الصالة التى تجمعهم .. واختلست نظرة خاطفة اليه وأدهشنى أن أرى ابتسامة عريضة ترسم على شفتيه وهو يطيل النظر الى وما كدت انتهى من العزف حتى دوى فى جوانب الصالة تصفيق حاد وكان أكثر المصفيقين هذا الشاب الذى اخترق صفوفهم وتقدم نحوى ثم همس فى أذنى .

— تعرفى انك ضربتى التالنجو أحسن منى

فتلفت حولى ونظرت اليه ثم أجبتة باضطراب - لا ازاي ؟ مين بقول كده ؟؟

- على العموم انا اللى يهمنى أنك انت اللى تكونى لمحبتى أكثر منى ولكن لو كانت

واحدة ثانيه كنت زعلت قوى

. - ليه ؟

- كده

ولم أشعر إلا ونحن جالسين على (دكة) متوارية خلف جذع شجرة كبيرة فى حديقة المنزل . وانقضت فترة طويلة لم تنفرج اثناها شفتانا عن كلمة ما ومد يده فأمسك بيدي ثم ضغط عليها . وتلاشى أملى من كل شيء فى العالم وحدثت فى عينيه وأدنييت فمى من فمه ورننت

فى الفضاء قبلة تتم بعدها فى هدوء .

- انا بحبك ياسميحه ..

فقلت فى صوت متهدج - بتحبنى صحيح ياصلاح

فاتسعت حدقتا عينيه وأجاب

- لسه مش عارفه ان كنت بحبك والا لا ؟

انظر ياسيدى الى أى حد تطور حبنا بل اننى كنت لا أطيق النوم الا اذا تحدثت اليه فكنت
اغتلس لحظة قصيره وفى غفلة من عائلتى أتصل به بالتليفون فأسأله عما يفعل وأين قضى
ليلته وكيف صرف يومه ؟؟ بل كنت أحيانا أسأله عن نوع الطعام الذى تناوله .

إلى ان كان يوم هائل .. إننى ابكى ياسيدى كلما تذكرته ومع ذلك فها أنذى أشعر بشىء
من الراحة يختلج نفسى كلما رسم قلمى هذه الخطوط المرتعشة لتخرج لك صورة صادقة منه .
كتناقد اتفقنا على اللقاء فى شارع منتزة الجزيرة حيث اعتدنا اللقاء أخيرا لنجلس تحت سقف
بعض الأغصان المجدولة فى (الكشك) القائم على الجانب الايسر للشارع والذى بطل على
النيل المار بجواره . وبكرت بالذهاب . وأخذ الوقت يمر فى ببطء وتشاقل ولكنه لم يأت .
وأخذت الافكار تضطرب فى رأسى بل طفقت أسأئل نفسى عن سبب هذا التأخير حتى
أحسست كان رأسى تكاد تنفجر وضافت الدنيا أمامى عندما خطر لى أنه اراد أن يسخر بهى .
وهممت بالعودة إلى المنزل ولكنى لمحتة مقبلا من بعيد . وما كاد يقف أمامى حتى صحت -
انت اتأخرت كده ليه ؟

وجذبنى من يدى لندخل (الكشك) المجدول وتهالك على مقعده الخشبي وأرسل زفرة طويلة
ثم أجاب

- انا آسف ياسميحة علشان كان عندى مشوار بعيد

وأخرج منديله ليجفف به العرق المتساقط على وجهه وفجأة أرسلت صرخة داوية . فقد
لمحت بقعا حمراء فى المندبل ماكدت أتبينها حتى عرفت أنها آثار ظاهرة لشفاة مخضبة
(بالروج) كما تبينت على صدره شعرات شقراء متناثرة فاعتقدت حينئذ أنه يخوننى . وأخذت
ارتعش كورقة الشجر التى تعصف بها ريح قوية فى ليلة من ليالى الشتاء ثم صحت اسأله

- انت جاي مينى دلوقت ؟

- جاي مينى ؟ بقولك كنت فى مشوار بعيد

وتلكنى غيظ حاد فصحت فى ثورة

- بقى ما كنتش مع واحد غيرى يا خاين ؟ أنا عرفت كل حاجة

ثم بكيت وارقيت على أرض (الكشك) المجدول وأخذ صدرى يرتفع وينخفض فى اضطراب ظاهر وعندما رأى صلاح ماحل بى حاول اقناعى بإخلاصه وأنه تعمد أن يصبغ منديله "بالروح" وينثر بعض الشعرات النسائية على صدره ليمتحن حبى ؟ ولكنى لم أصدق بل نهضت بسرعة واستدعيت احدى (عربات الاجرة) فأقلتنى الى منزلى .

ومنذ تلك اللحظة لم أعد أراه وكان كلما حاول أن يتصل بى ليرضىنى أعرض عنه بل كثيرا ما كنت أبكى عندما أذكر هذا الحب الذى اجتاح حياتى وتطور أخيرا الى هذه النهاية القاسية وكان كلما حاول أن يحدثنى فى التليفون أقذف بالسماعة فى وجهه لانتى أصبحت لا أطيق سماع صوته . بل أذكر اننى لم أنم تلك الليلة التى افترقنا فيها الا بعد أن أشعلت النار فى رسائله وصوره التى كنت احتفظ بها حتى استحالت الى رماد وكنت أدقق النظر فى النار وهى تلتهم صورته فتحرق رأسه وتمتد الى عينيه ثم شفتيه اللتين التصقتا بشفتى لتزيل كل اثر فيهما لهذا الحب ؟ الى ان احترقت جميعها فرميت بها فى ارض الغرفة ووقفت فوقها كما يقف الجندى على أشلاء عدو مقاتل . ومرت سنوات لم أعد اذكر فيها شيئا عنه فقد الهانى عن ذكره تعرفى إلى اشخاص آخرين غيره . واعذرنى ياسيدى اذا كنت معك صريحة الى هذا الحد لأننى اعتقدت أن خير ما افعله لانساء هو العبث بقلب كل رجل القاء فى طريقى وكان آخر من تعرفت بهم مهندس شاب التحق حديثا باحدى المصالح الحكومية وأردت أن أمثل معه نفس الدور الذى أصبحت أمثله مع غيره بمن عرفتهم ولكنه خذلى وعبث بى ثم أبحر الى اوربا .

الى أن كان امس .. إذ حمل الى الراديو صوت (التانجو) الذى سمعته على البيانو فى تلك الليلة عندما التقيت بصلاح لأول مرة واحسست بلذة شاملة وأنا استمع اليه ثم مالبت جسدى ان ارتعش فقد خيل الى اننى انصت الى اسطورة طاهرة لا يحق لجسدى الملوث ان يذكرها .

وذكرت صلاح !! ولم أشعر الا وأنا اطرق باب (عبادته) التى افتتحها بعد تخرجه فى الكلية باحد شوارع القاهرة . وأنكرنى عند ماوقفت أمامه فى غرفته الخاصة وأصبحت غريبة عليه . ولم أقو على الاحتمال فتهاكت على أحد المقاعد بينما صرخ صلاح .

- سميحة - !!

وأمسك بظهر كرسيه خشية السقوط على الأرض وتساعد الدم الى وجهه فصبغه صبغة

حمرء قائمة ثم تتم

- إيه اللي جابك دلوقت ياسميحه ؟

وحاولت أن اجيبه ولكنى عجزت فقد احتبس صوتى وأخذت أبكى بكاء حادا .

وظل ممسكا بكرسيه وهو فاغر فاه بينما كان يتحتم بين لحظة وأخرى .

- إيه الى جابك دلوقت ياسميحه .. كنت فين المده دى كلها ؟

وعندما شعرت بأننى لن أقوى على الحديث أخذت أقول فى صوت مختنق بالدموع

- شايف ياصلاح سميحة بتاعة زمان -- أنا باقولك سميحه بتاعة زمان علشان هى

دلوقت بقت واحده ثانيه . اتغيرت خالص . وكل حاجه فيها اتغيرت كمان . حياتها . قلبها . شرفها .

ثم سكت برهة كأننى استعيد قوتى على متابعة الحديث ثم قلت

- انت السبب .. ما كنتش قبل ما اعرفك اعرف رجاله .. ولكن لما عرفتك ابتديت احب

وأعشق .. حبيتك وأخلصت لك ولكن للأسف لقبتك بتخونى و.. فقاطعها .

- انت لغاية اللحظة دى معتقده انى كنت بخونك بالعكس أنا لغاية دلوقت ماحبتش حد

غيرك .. وكنت اعتقد ان ضافرك اللى يطيره المقص برقية أحسن بنت فى الدنيا .. دى كانت

مداعبه بسيطه تعمدها علشان أشوفك بتحببى والا لا .. ولكن يؤلمنى ياسميحة انك

قابلتها بالجده .

- ماعلينا .. أنا دلوقت امام امر واقع أنا جيتلك ذليلة برجليه لغاية بيتك علشان

تنتشلنى من الوسط اللى حايلعنى .. أهلى حايتبروا منى .. حايطردونى .. ومش لاقيه باب

غير بابك .. برضه قلبى بيقولى انك بتحببى .. اتجوزنى ياصلاح

فقال بتأثر - آسف ياسميحه .. جيتى متأخرة لأنى خطبت بنت عمى من خمس شهور فانت

ودخلتى الجمعة الجايه .

وأظلمت الحياة امامى ولكنى لم ألث ان صحت وأنا أتقدم نحوه

- صلاح .. حرام عليك تسيبنى أتلطم كده ؟ أنا جيت لك بنفسى واعترفت لك بكل حاجه .

وظل صلاح ساكنا ومرت برهة قصيرة قطعها صلاح قائلا

- طيب سيبنى اليرمين دول لما أفكر فى حل للموقف وانتى تقدرى تاخدى أوده فى العيادة .

لغاية ما أشوف آخرتها .

هذه قصتي سردها عليك وأنا لا أدري الى أية نهاية تنتظرنى ولست أدري ماتخبئه لى
الاقدار ..

اننى مسكينة اليس كذلك ياسيدى !

حدائق القبة فى ٥ يناير سنة ١٩٣٨ . سميع

* * *

وصلتنى هذه الرسالة التى تتحدث عن قصة حب إحدى القارئات فذكرتنى بصديقى الدكتور
صلاح رشدى الذى اعتاد فى الايام الأخيرة الجلوس معنا فى أحد الاركان البعيدة من مقهى
(بول نور) فأوقفتنى على سر عميق من أسرار الخاصة ولم أجد أمامى غير الذهاب اليه فى
عيادته لابحث معه عن حل قد ينتشل سميحة من وهدة السقوط التى تقدم عليها إذا رفض
الزواج منها وبينما هو يدلى الى بآرائه إذ دخل علينا أحد أصدقائه قدمه الى باسم احمد
رضوان المهندس فانتقل حديثنا الى بحث بعض المواضيع المختلفة ارتفعت اثناءها أصواتنا
ونحن نتبادل الآراء وفجأة فتح الباب فى عنف ثم دلفت منه سميحة وهى تصيح فى ثورة
شديدة .

- انت جيت ياندل .. عرفت حسك يامجرم . ثم سقطت على الأرض واستولت على دهشة
عميقة عندما رأيت الدم يسيل منها بينما هرول اليها صلاح الذى نقلها الى غرفتها وخيل الى
أننى فى كهف مهجور ملئ بشياطين تهمس ألحانا كريهة . ثم عاد صلاح وهو يهز رأسه
قائلا.

- خلاص . نهب أحمد يقول - ايد ياصلاح

فأجابه - خلاص الجنين مات من تأثير الرجة الشديدة

وزادت دهشتى عندما سمعت أحمد يسرد علينا قصته معترفا بأنه هو الذى أشارت اليه
فى رسالتها فأحبها إلى أن مهد لها طريق السقوط وتظاهر أمامها بالسفر الى أوروبا . وفجأة
وقف أمامنا وهو يقول وقد حنقته العبرات .

- يلا بنا ياصلاح

- على فين ؟

وجذبنا مهرولا داخل العيادة حيث وقف بجانب الفراش الذى تمددت عليه سميحة وانحنى
عليها يقبلها وهو يقول

- سميحة . اغفرى لى . ضميرى ببيانى وحا يفضل كده لغاية ما تسامحنى . خلاص
ياسميحه حانتجوز بعض واسعدك وتسعدينى وفتحت سميحه عينيهما وأشارت اليه بالاعتراب
منها ثم أخذت رأسه بين يديها وتمتت - سامحتك .

ولم ينقض ذلك اليوم الا وكان صديقى صلاح قد اتفق مع أحمد رضوان المهندس الشاب كى
يتزوج من سميحة وأن تكون ليلة زفافهما واحدة ..

٢- هل أحب ؟ *

ريرى

كل شىء حول هادىء ساكن إلا قلبى الذى ازداد وجيبه منذ لقيتك الليلة مصادفة أثناء دخولى السينما .. لم أكن أظن أننى سأراك بعد أن قضيت الأيام الاخيرة ابحث عنك . نعم عنك انت يارىرى دون أن تشعرى حتى وكنت أمعن النظر فى وجه كل امرأة تصادفنى ثم لا ألبث أن أرد النظر خائبا عندما أراها امرأة أخرى غيرك أننى أذكر وأنا أكتب اليك هذا على ضوء المصباح الأزرق الخافت كل شىء حدث الليلة .. لقد لمحتك فجأة فى نفس الصف الذى اخترت مقعدى ودهشت عندما أيقنت انك تفضلين الصف الخلفى كما أفضل أنا اختيار مقعدى فيه لأقنع بالوحدة بعيدا عن النور الكثير الذى يعمر باقى صالة العرض . وظللت برهة اختلس النظر اليك واعجبني أن اراك الأخرى تختلسين النظر إلى كان كل منا يعرف الآخر بعد أن تلاقينا لأول مرة فى حديقة (لامور) عندما صاح زميلى - الذى لاح لى أنه يعرفك - يقدم كل منا للآخر - حضرته زميلنا مدحت شوقى برضه زينا من اللى بيكتبوا روايات وقصص . وحضرتها الأنسة دريه اسماعيل واحدة غاويه تقرا فى المجلة اللى بتكتب فيها .

ومنذ تلك اللحظة لم أعد أراكى ومع ذلك كانت ذكراك تلاحقنى دائما ولم أشعر الا وأنا أكتب لك .. نعم لك انت يارىرى القصة التى نشرتها أخيرا وتعمدت ان اطلق اسمك على بطلتها .

وحاولت ان اراكى وكان قلبى يحدثنى دائما اننى سأراكى واعذرى لى صراحتى اذا قلت لك اننى لم اعرف سر اهتمامى بك الى ان كانت الليلة عندما تقابلنا للمرة الثانية . اصارحك يارىرى اننى ارتجفت بل لا انسى الابتسامة الخفيفة التى مورت على شفتيك وانت تنظرين الى خلصة حتى لا يراك باقى أفراد (العائلة) الذين كانوا يزاملونك الليلة وابتسمت انا الآخر ولم أشعر الا وانا اهم واقفا ثم أجلس وأتف ثانية ثم أجلس كأننى فقدت السيطرة على اعصابى .. حتى اطفىء النور وعم الصالة - ظلام عميق شامل . وبدأ الفيلم الذى كانت تعرضه (الدار) .. وكان (حلم الشباب) فجلست محدقا لأقف على الاحلام التى تداعب الشباب . الشباب الذى هو .. المرأة والحب !! وخيل الى أن أصرخ عندما ذكرت انك الاخرى تشاهدين هذا الحلم !!

شاب يقود سيارته بين المروج والأشجار الباسقة وهو يتغنى بأغنية حبيبة وقد انسابت به السيارة فى طرق مختلفة كأنه طير يبحث عن اليقته فى مرج من مروج الجنة .. وأرسلت صرخة خافتة عندما رأيته يشبهنى .. ألم أكن قبل الليلة أشد منه حيرة وأنا أبحث .. عنك !!

وفجأة ظهرت حبيبته المنشودة . فهرولت تجرى اليه لتشاركه (حلم الشباب) وغابا فى قبلة طويلة وشعرت (بلسانى) وهو يتحسس شفتى كأن فيهما نارا اشعلتها شفتاك !! ورأيتنى أضمر ذراعى كأننى احتويتك بينهما لأضملك الى صدرى .. وظللت انا الآخر احلم .. حتى اضيئت الانوار ثانية وجاء (الأتراك) !!

ورأيتك تهمين بمغادرة الصالة ورأيتنى انا الآخر أهم واقفا لأتبعك وعندما خرجت الى (البوفيه) تلفت حولى ولكنى لم اجدك فوقفت واجما وقد اعترتنى فترة من الدهول وفجأة سمعت صوتا خافتا بهمس .

- مدحت شوقى اللى بيكتب فى مجلة القصة موجود هنا فى الصالة فدرت حولى فوجدتك تتحدثين مع فتاة لم ارها من قبل فتقدمت منكما فى خطى متشاقلة ولم اشعر الا وانت تضعين يدك فى يدي ثم (اقرص) عليها . ووقفت لحظة متجردا عن شعورى وخيل الى انى بطل "حلم الشباب" الذى عثر أخيرا على حبيبته بعد ان قضى فترة طويلة يبحث عنها .

وعندما عدت ثانية لمشاهدة باقى "البرنامج" لم اكن فى هذه المرة اشخص الى (الشاشة) ولكن كنت امعن النظر فى الظلام واشخص بعينى نحو !! فكانت عيناك تتراعى لى بالرغم من حلوكة الظلام وبشعان اشعة ساحرة وعندما انتهى الفيلم وبدأت الجموع تغادر الصالة ظللت واقفا فى مقعدى كما رأيته انت الاخرى تظلين واقفة فى مقعدك بينما جلس زملاؤك فى مقاعدهم وطلق كل منا ينظر الى الآخر وبين اللحظة الاخرى كنت تشيحين بوجهك فى ابتسامة سريعة حتى رأيت احدى قريباتك تهم واقفة لمغادرة الصالة فتبعتموها .. وغادرت أنا الآخر الصالة من الباب الآخر ووقفت بعيدا أرقبك وأدهشنى ان اراك توزعين النظر حولك كأنك تبحثين عن شخص معين الى أن عثرت عيناك بعينى فابتسمت .. والآن هل أجسر على أن أهمس فى أذنك ياربرى . انك تحبينى كما أحبك .. !! أننى واثق !!!

وافترقنا !! وعاد كل منا الى منزله وهامى ذى ذكرى الليلة تداعبنى بل إننى الآن أرمى القلم وأضم يدي التى لمست يدك و (اقرص) عليها كما (قرصت) على يدك .. ثم ارفعها الى شفتى فأقبلها ..

وهكذا سأظل ياريرى أعيش فى تلك الليلة حتى .. القاك

الاستاذ مدحت

لم أكن أظن فى يوم ما أن أكتب لرجل ولذا اجتاحتنى عاصفة شديدة من التردد عندما تناولت القلم لا كتب لك .

لقد تناولت رسالتك التى تصورين فيها ذكرى ليلتنا الغابرة . أصارحك الحق أننى طفقت أقرأها وأكرر تلاوتها حتى تدفقت على رأسى شتى الذكريات وتجردت من كل احساس آخر غير الشعور بجو تلك الليلة الذى بدأ غريباً لانه كان بجمعى وإياك لقد قرأت لك كل ما كتبت وكنت أشعر بإحساس غريب يتدفق على وأنا أقرأ وظلمت هكذا أعيش فى جو هذه القصص بل كثيراً ما كنت أجلس منفرداً فى أقصى غرفتى ثم أغمض عيني وأنا ممسكة بقصصك لأحاول أن أرسم صورته هذا الشخص الذى يكتبها .. الى أن جاء اليوم الذى لقيتك فيه ودهشت عندما وجدت لك صورة واحدة من الشخص الذى كونت فى مخيلتى .. شاب طويل القامة قمحى اللون ترتكن على أنفه نظارة تتحرك خلفها عيناه الصغيرتين . وخيل الى أنشد أنا صديقان وأن علاقتنا تعود الى أيام بل سنين طويلة انقضت . وعندما عدت الى منزلى فى ذلك اليوم أخذت أعيد قراءة قصصك بل كنت أعرضها على صديقاتى لأسمع منهن رأيهن فيك . وكم كنت أشعر بزهو هائل يجتاح نفسى العطشى اليك عندما اسمع منهن عبارات الاطراء والثناء عليك .

إلى أن حلت الليلة التى تقابلنا فيها مصادفة فى السينما .. لقد قضيت ليلة ساهرة بعد عودتى وأخذ ظلك يداعب عيني ثم تراءى لى (حلم الشباب) الذى عرض الليلة على شاشة السينما وخيل الى أننى وأنت بطلاه فأغمضت عيني لأحلم وظلمت هكذا أحلم إلى أن انبثق نور الفجر .

ولكن هل لى أن أسألك .. لمن كنت تكتب تلك القصص ؟

وكم امرأة صادفتها فى حياتك فأوحى اليك بها ؟

اننى انتظر الإجابة

دريد

"ريرى

تسأليننى يارىرى لمن كنت أكتب قصصى ؟ وكم امرأة صادفتها فى حياتى فأوحى إلى بها ؟ لقد أعجبتنى فىك صراحتك التى حدث بك لأن تسأليننى عن سر أعده من أعماق أسرار نفسى ومع ذلك أراتى أضحك بل كان ضحكى يتزايد كلما أعدت تلاوة هذا السؤال .

اننى معك إذ قلت أن لكل فنان وحي يوحى إليه فنه ولا سيما الكاتب القصصى الذى لابد أن تكون المرأة هى ذلك الوحي .

لقد اجتاحتنى من قبل عوامل كثيرة لم تلبث أن غربت عن سماء حياتى وتركتنى محطما وظللت هكذا أعيش على أنقاض ذلك الحطام حتى لقيتك وحينئذ انتعش قلبى كما تنتعش زهرة ذابلة سقطت عليها قطرة من الندى فنفتت فيها الحياة أو كما ينفخ اسرافيل فى الصور فينبعث الانسان من مرقد .. وهكذا بدأت أعيد كيانى وأجمع اشلائى من اجلك .. من اجلك انت يارىرى .

هل تذكرين قصتى التى كتبتها "قلب يموت" إنها نفثة من روحى الحزينة خففت شيئا مما يلاقيه هذا القلب الميت أوه !! لا أريد أن تعيدى إلى ذكرى الماضى بل أريدك أنت .. أريد أن ألقاك يادريه ."

ملحت



"دريه

اننى وأنا أكتب اليك هذا لا أكاد اصدق نفسى بل إننى أتساءل هل كانت دريه معى ؟ ولكن الذكريات السريعة التى تجيش فى صدرى تؤكد لى حقيقة ذلك !! اننى أذكر عندما كنت أسير فى شارع الهامى باشا بالحلمية كل شىء !!

لم أكن أظن اننى سأراك ولكن لمحتك فجأة من نافذة أحد المنازل القائمة على جانبي الشارع بشوبك المنزلى وكدت أصبح عندما رأيتك ولكنى أطرقت إلى الأرض ورأيتك فجأة تشيرين بيدك إشارة فهمت منها أنك ستلحقين بى ودخلتى .. بينما ظللت واقفا وكان الظلام قد بدأ يخيم على الشارع ولم تبق غير (الفوانيس) القائمة تداعب بنورها الخافت هذا الظلام المغير وتقارمه كما يقاوم جيش ضعيف هجوم جيش معاد وعدت بعد قليل وأمكننى أن ألمحك

فى ثوب آخر وأشرت إلى ثانية كأنك تقولين لى - سأتبعك وأخذت أسير إلى أن كدت أطوى الشارع فدرت حولى ولمحتك مقبلة .. وعندما بعدنا عن الشارع تقابلنا لنسير معا .

وحملتنا سيارة من سيارات الأجرة إلى شارع منتزه الجزيرة ثم هبطنا منها لنسير .. ومرت برهة طريفة لم نتحدث خلالها بل كانت يدانا متشابكتان .. وفجأة وجدتك تقولين .

- بلمتلك ماحبتش حد فى حياتك؟

وارتجفت عندما سمعت منك هذا السؤال ولكنى اجبت

- أنا مش قلت لك فى الجواب اللى بعته لك أنى عرفت واحد فبلك وبعدين انتهيت منها.

فتوقفت قليلا عن المسير ثم نظرت إلى قبل أن تقولى

- انتهيت منها يعنى ايه ؟

فقلت متوسلا

- أرجوكى يادريه ..

- لا . لازم اعرف

- وايه اللى يهمك ؟

وخيل إلى أننى جرحت كبريا مك وبأن الألم فى عينيك فسكت ولكن سمعتك تقولين .

- تحب نرجع نروح؟

- ليه ؟

- اصلى تعبانة

- لا . انت مش تعبانة .. انت عاوزة تعرفى حكايتى . حاقولها لك ..

ركنا قد اقتربنا من مكان بعيد فى نفس الشارع فانهدرنا اليه لنجلس .. وبدأت احدثك

- الحكاية تتلخص فى أن واحد عرفتنى وعرفتها لما كنت فى طنطا . وبعدين اجوزت

مسأله بسيطه خالص

فرفعت الى رأسك ثم قلت

- يعنى ماحبتهاش ؟

- يمكن اكدب عليك لو قلت انى ماحبتهاش .. كانت معرفة تطورت الى حب زى مايقولوا
وبعدين تركتها . لما اجوزت راجل عجوز ومن يومها ما أعرفش عنها حاجه وخلص نسيتهها ..
نسيتهها خلاص

- ولكن ماحبتهاش؟

- صحيح أنا معاكى يادريه يمكن أكون حبيتهها ولكنها خانتنى ثم صمت قليلا وأرسلت
زفرة طويلة قبل أن اقول

- ياسلام .. تعرفى صحيح انا زعلت عليها لما اجوزت .. وزعلت قوى . وكنت بابص
لنناديل الفرع بتاعها واننى باصص لها مبخلق كانى بأكلمها .. وبقيت اسمع صوت العوالم
وكان يتها لى انه ندب .. ولكن كل شىء انتهى يادريه .

ونظرت اليك نظرة عميقة قابلتها بمثلها ثم هزرت رأسك قائلة

- البت دى اللى بتقول عليها قريبتى

فنظرت اليك نظرة طويلة وتقلصت تقاسيم وجهى ثم قلت

- قريبتك ؟

- ايوه قريبتى : وبالأماره اسمها بسيمه

وتوقفت قليلا ثم استطردت حديثك

- واظن القصة اللى كتبتهها وسميتها (لا.. لن احب) كانت عليها .. ماأحاولش انك
تكذب على . انا عارفه كل حاجه .. كانت بسيمه عندنا السنه اللى فاتت وكانت بتكلمنى
عليك كتير . وشفت جواباتك وصورتك وكنت لما اقرأ قصصك مش مصدقة انك انت اللى
بتقول عليك لغاية ماشوفتك وبعدين أدبك اعترفت بنفسك وعادت الى ذكرى الماضى غير أننى
حاولت أن أطرد هذه الخواطر التى جاشت فى صدرى بعد أن سمعت منك قصتى .. قصة قلبى
الذى أدماه غرام قديم فأوحى الى أن اكتب "لا.. لن أحب" ونظرت اليك ثانية نظرة عميقة ثم
رفعت يدى ووضعته على رأسك الصغير فصحت بذعر .

- مدحت !!

- دريه !!

- مش خلاص بتقول لا .. لن أحب

- صحيح قلت كده .. ولكن دلوقت باسألك .. هل أحب ؟

ومرت برهة شملنا فيها سكون عميق وفجأة رأيتك تهمين واقفة وأنت تقولين - ياللابنا
يامدحت

- على فين ؟

- نروح

- ليه مانت قاعده ؟

وقبل أن أسمع منك إجابة احتويتك بين ذراعى وهويت عليك أقبلك وشعرت حينئذ أن
شفتى وهما تلمسان وجهك قد ألهبتهما نارا مستعرة فظهرتهما من كل شىء فيهما وقضت
على أى أثر لأية امرأة غيرك ورنوت إلى بعينيك ثم قلت .

- أنت عملت إيه ؟

- قبلتك

- يافضيحتى .. وتقبلنى برضه

- فيها إيه قومى بينا

وتناسينا كل حولنا من عالم وبدأنا نعيش فى قبلاتنا المتبادلة ثم القيت برأسك على كتفى
فى حنان وادع بينما لففت ذراعى حول خصرك كأننى أخشى عليك من السقوط وخيل إلى
أننى آدم الذى عثر على حواء وهما يسيران فى مرج من مروج الجنة المقدسة .

وعندما افترقنا ليعود كل الى بيته تمتمت فى صوت خافت

- هل تحب ؟

فابتسمت ضاحكا

- أسألى نفسك

واحتويتك ثانية وغبنا لحظة أخرى لنعيش فى جو من أحلام الشباب .

وعندما وقفت أودعك لنفترق وشعرت بلوعة حادة وتمنيت لوجمعنا وكر هادىء فى أحد
أطراف القاهرة أهىء لك فيه جنة ترتع فى مروجها بعيدا عن هذا العالم الصاخب ولم أشعر إلا
وأنا أقول

- امتى ربنا يجمعنا مع بعض

فعلت شفتيك الرقيقتين ابتسامة هادئة ثم تنهدت فى زفرة حارة ولم تجيبى بل سرت فى خطى متثاقلة نحو منزلك بينما ظللت واقفا فى نهاية الشارع أرقبك حتى غبت وعندما عدت إلى منزلى لم أكن أذكر شيئا من هذا العالم غيرك حق أننى لازلت استمع صدى صوتك يتردد بين جوانب غرفتى "هل تحب؟" وأنت تنظرين الى فى سكون .

أننى أحبك يادوية .. نعم لقد بدأت أحب ولم يعد هناك وقت آخر لا سائل نفسى .. هل أحب ؟

نعم أحبك أنت وإن لم تصدقبنى سلى قلبك فعنده الجواب .

مدحت

* * *

مدحت

اكتب إليك هذا بعد أن استعدت قراءة رسالتك الاخيرة مرات عديدة فتمكنت أن المس بعض الالم الذى يحز قلبك بعد ان فشل فى تجرته الاولى . ومع ذلك اشعر بالحنين اليك لانى المس فى نفسى حبا امتزج بها اثر ماتغذت به نفسك الحزينة التى كانت ترسل نفثاتها بين لحظة واخرى لتخرجها قصصاً .

أننى أحبك ! واغفر لى صراحتى لأننى لم اطلق ان اكبت هذه العاطفة القوية فى نفسى الشابة التى أصبحت تتنسم مع النسيم أريج حبك . وهذا الماضى .. الماضى الذى تحدثت عنه فى رسالتك . لقد غفرته لك بل اعتقد أنه كان برق أضاء لحظة ثم انطفأ . فكتب لقلبك أنشد ألا يسعد بالحب أما اليوم فيعود برق آخر أشد وهجا لبيض لك حياتك ويسعد قلبك بحب جديد .

أسائل نفسى بامدحت .. هل أحب ؟ - بعد أن وجدت فى وجهك الناحل وعينيك الفائرتين الحلم الذى أنشده . الحلم الذى طالما داعب عيني وأنا مستلقية على فراشى فى الليل .

أوه ! يامدحت .. إننى أذكر بعض الليالى التى طالما عصفت فيها برأسى بعض هذه الأحلام فكنت أهب من فراشى وعلى ضوء المصباح الخافت المعلق بالشارع بجانب غرفتى استعيد قراءة قصصك ثم أرسل بصرى فى هذا الظلام الذى يكون جائما فوق صدر الشارع على أتبين منه بطل هذه الأحلام . إلى أن تقابلنا فظننت أننى أحلم . ولكن لشد مدهشت عندما وجدت أخيراً أننى عثرت على رجلي . الذى كنت أحلم به .

كنت أمر اليوم أمام فاترينه (ريفولى) فلفتت نظرى زجاجة عطر جديد نقشت عليها حروف بارزة تحمل أسم هذا العطر (احلام الشباب) Reve de Jeunesse. ولم أشعر إلا وأنا ادخل لشرائها وأخذت اتلفت حولى واعتقدت اننى لابد واجدتك بعد أن تلاقينا فى الليلة التى شاهدنا فيها الفيلم الذى يحمل هذا الاسم . ولكنى لم أجذك .

اننى وأنا أكتب اليك هذا أنظر إلى زجاجة هذا العطر فأرى وجهك مرتسما عليها .

يا إلهى !! لقد سرقت قوتى يامدحت فلم أعد أقوى على حمل القلم . اننى القيه بجانبى ثم أهول إلى زجاجة هذا العطر فأرفعها الى شفتى وأقبلها . ثم أضمها إلى صدرى . بل أننى أسكبها الآن على يدى لأدفن وجهى بينهما واستنشق عبير هذا العطر بقوة فأشم فيه حرارة أنفاسك ثم أشعر كأننى بدأت استعيد شيئا من قوتى .

مدحت ! أما أنا فهل أحب ؟ لا أدرى .

٣- النموذج *

لم تكذ تنقضى بضعة شهور على التحاقها بكلية الآداب حتى بات جميع الطلبة يتحدثون عنها ويتهايمسون كلما رأوها داخلية من باب الكلية أو صاعدة الدرج المؤدى الى قاعة المحاضرات وهي تشير مطرقة الرأس في وحدة صامتة وقد تأبطت حقيبة كراساتها واسترسل شعرها الذهبي على كتفها في قوضى فاتنة وبان وجهها الندى الصبوح فدل على سر عميق من أسرار الجمال :

واختطت هذا الوجه شفتان قرمزيان تتناديان بعاطفة كلما ارتعشتا لينساب من بينهما صوت صاحبته في رقة وعذوبة .

وأكثرت المجلات العربية ، التي أفردت أبوابا خاصة لطلبة المدارس ، من الحديث عنها حتى نشرت أحداها صورتها وكتبت أعلاها "معبودة الطلبة" فزاد اهتمام الطلبة بها وأخذ كل منهم يتسابق الى التقرب اليها ولكنها كانت تعرض عنهم في كبرياء ظاهر .

وعلى هذا النمط سارت حياة درية شاكرا عند التحاقها في أحد الأعوام السابقة بكلية الآداب واتخذت هذا الصمت وتلك الوحدة رائدا دائما غير انه كانت هناك عين ترقبها .. عين مافتئت منذرأتها في اللحظة الأولى أن ولعت بها وعبدتها وأحببتها حبا ملك على صاحبها مشاعره وحواسه فقد أحبها زميلها الشاب عبد الرحمن حمدي حبا كاد يتطرق الى نوع من الجنون ولكنه لم يجرؤ في يوم ما أن يتقدم اليها ليبشها غرامه وحبه بل كان يقنع برؤيتها في الكلية .

و ذات امسية تملكك عبد الرحمن أفكار غريبة اخذت تتضارب في رأسه بعد عودته الى غرفته الخاصة في منزل أسرته في أقصى الجزيرة بعد ان رأى درية مصادفة اثناء سيره على شاطئ النيل .. كانت ممددة على حافة النهر في مكان متوار بعيد وقد أمسكت بيدها كتابا تقرأ فيه .

وما كاد عبد الرحمن يلمحها حتى خفق قلبه وازداد وجيبه ورأى الا يعكر عليها هذا الجو الهاديء فأخذ يتلفت حوله ليبحث عن مكان يختبئ فيه ليرقبها منه ولكن لفتة مفاجئة منها

جعلتها تلمحه وهو واقف مضطرب ، هي الأخرى واقفة وجمعت أطراف ثوبها ومرت أمامه دون أن تثبت بكلمة بل أرمأت له برأسها الصغير كأنها تحييه ثم سارت فى طريقها لتعود الى القاهرة .

وظلت هذه الافكار تعصف برأس عبد الرحمن وهو جالس على مكتبه الصغير بعد أن أضاء المصباح الازرق فأضفى على الغرفة حوا سحرىا وكان عبد الرحمن معروف بين زملائه بالشاعر العاطفى لانه كثيرا ما جادت قريحته ببعض المقطوعات الشعرية . ورأى عبد الرحمن نفسه يفكر فى ان يكتب اليها وارتعدت نفسه عندما جال بفكرة هذا الخاطر لأنه لم ينس مرورها من أمامه منذ ساعات ولم يحظ منها بغير ايماء بطيئة وأخذ هذا الخاطر يتضاعف فى رأسه حتى رأى يده تمتد الى القلم ليكتب . ولكن تملكته حيرة شديدة ، غير أنه بدأ يكتب أخيرا أغنية فرنسية كان مطلعها .

أمنحيني قلبك .

ولو لحظة واحدة

لاعزف له لحن غرامى

وهبَّ عبد الرحمن واقفا وهو ممسك بالورقة الزرقاء التى خط عليها كلمات مقطوعته الجديدة وبدأ يقرأها فى صوت خافت وهو يهتز كأنه يحدث دريه . وساءل نفسه . هل يرسل بها اليها ؟ وبعد تردد طويل كتب فى وسط ورقة زرقاء هاتين الكلمتين فقط "أمنحيني قلبك" ثم عطر الرسالة بعطر الهيليوتروب ووضعها فى مظروفها الذى كتب عليه عنوان دريه وهبط الدرج ثم ذهب ليضعها فى صندوق البريد .

ومرت على هذه الامسية بضعة شهور إلى أن كانت احدى الليالى التى أقامت فيها كلية الآداب احدى الحفلات التى تعود طلبتها اقامتها أثناء العام الدراسى . وفى تلك الليلة حضرت درية لأول مرة منذ التحاقها بالكلية وجلست فى الصف الأمامى وهى تقرأ البرنامج الخاص بها وبدأت الحفلة وقفز فجأة الى خشبة المسرح التقليدى الصغير طالب ليقدم عبد الرحمن حمدى وهو يقول . "يسر كلية الآداب ان تقدم الطالب الشاعر عبد الرحمن حمدى ليلقى قطعة من الشعر الفرنسى ومن تأليفه"

وظهر عبد الرحمن واقفا على خشبة المسرح فاستقبله الطلبة والمدعوون بالتصفيق الحاد ومرت فترة عم الصالة فيها سكون عميق وبدأ يقول فى صوت خافت .

امتنحيني قلبك

ولو لحظة واحدة

لا عزف له لحن غرامى

وما كادت درية تسمع كلمات الاغنية حتى رفعت رأسها لترى هذا الشاب الواقف أمامها واعترتها دهشة حادة عندما تبينت أنه الشاب الذى رآته على الشاطئ، فى ذلك اليوم الغابر وارتجف قلبها . وللمرة الاولى تشعر بهذه الرجفة التى انساب اثرها فى أعصابها فجعلتها تتجرده من كل شيء إلا ذكرى ذلك اللقاء الغابر .. وتلك الرسالة الزرقاء التى وصلتها فى صبيحة اليوم التالى تحمل رأس هذه المقطوعة فتركت فى نفسها أثرا غريبا .

ولشد ما كانت دهشتها عندما تبينت أن كاتب هذه الرسالة هو ذلك الشاب الواقف على خشبة المسرح وهو يرسل بمقطوعته فى حركات عصبية وينظر بين لحظة وأخرى اليها ..

لأعزف له اللحن غرامى

تحت اغصان السوسن واليزفون

فيرقص له قلبى رقصات الحب

وأضمك الى صدرى

لأسمعك دقات قلبى

دعيني احبك

ودوت الصالة بالتصفيق الحاد وبعبارات الإطراء والإعجاب تطلب فى الحاح دائم اعادة انشاد الاغنية ولم تشعر درية الا وأصابعها تمتد الى حقيبتها لتتحسس الرسالة الزرقاء التى كانت محتفظة بها . وشعرت بارتياح هائل عندما لمستها أطراف اصابعها فأحست فى تلك اللحظة بالحنين الى قراءتها لتعمن النظر فى هذا الخط الرفيع الذى رسمته أصابع عبد الرحمن فكونت رسالة حبه .

واعتقدت حينئذ أن هذا الشاب يحبها فوضع لها هى دون غيرها هذه الأغنية الفرنسية ولم تنتظر درية البقاء الى نهاية الحفل بل نهضت مسرعة واستقلت سيارتها فأخذت تنساب فوق الطريق فى حركات ثملة وهى منحدره الى الشاطئ، وفى المكان الذى لقيت فيه عبد الرحمن فى المرة الاولى أوقفت سيارتها ثم غادرتها لتجلس على حافة الشاطئ، وحيدة وكان الظلام

يشمل المكان والصحراء تجثم ببعدة منها وهب نسيم بارد لفح وجهها ثم جلست تطيل الفكر مستعرضه ما حدث فى تلك الليلة .. وأخرجت رسالته الزرقاء وبرزت على سطحها الكلمتان "امنحني قلبك" اللتين أرسل بهما عبد الرحمن وانبعث منهما نور مشرق بالرغم من حلوكة المكان والسكون الموحش الكثيب الذى يسود كل شىء حولها . وبينما هى ممسكة بالرسالة فى يدها وتمعن النظر اليها على ضوء مصباح سيارتها وتردد الانشودة التى سمعتها الليلة من عبد الرحمن ظهر أمامها شخص ما كادت تتبينه حتى صرخت صرخة داوية . فقد كان هو نفس الشاب الذى لاتزال رسالته تقلبها بين يديها وتمعن النظر الى محتوياتها . وارتعشت درية حتى كادت ساقاها لاتقويان على حملها ویدرت منها صرخة خافتة .

وتقدم منها عبد الرحمن فى خطى وثيدة وظل واقفا أمامها ينظر اليها فى صمت دائم وهى تنظر اليه فى صمت وسكون ومرت عليهما فترة ليست بالقصيرة فتمتمت درية بعدها تقول .

- مين انت ؟

فأجاب عبد الرحمن وهو يختلس النظر الى الرسالة التى تقلصت عليها .

- صاحب هذه الرسالة

- يخيّل إلى أنك مارد هارب من الجحيم أو ميت مبعوث من القبر

فقهقه عبد الرحمن ثم أجاب

- لقد تشبعتك بعد خروجك من الصلاة فبعثت من قبر الحياة لأحيا فى جنة الحب

- هب ؟

- نعم ياسيدتى .. هبك انت

وحاولت درية القفز الى سيارتها لتعود هاربة ولكن كانت يدها أسرع منها فقبض على

كتفها فى رفق وصاح

- لم تحاولين الهرب ومنذ لحظة كنت تفكرين فى

وحاولت التخلص منه ولكنها لم تفلح بل كان عبد الرحمن يردد

- محال ياملاكى أن اتركك هكذا تفيرين من أمامى سريعا .. انتى أريد إن أجشوا أمامك

لأردد أسطورة غرامنا

- غرامنا ؟

- نعم غرامنا . فأنت الاخرى تحبيننى

وسارا معا ثم أشار عبد الرحمن بأصابعه الى الصحراء البعيدة التى هى بمعبدة عنهما ..
تحت هذا الظلام الحالك وقال

- لكم أودأن نعيش معافى خيمة وسط هذا العالم الصاخب

- هذه خيالات

- لا يادرية

وارتجفت درية لدى سماعها صوته وهو يناديها للمرة الأولى باسمها وهى التى لم تتعود من
قبل أن تسمع اسمها تلفظه شفتا رجل لأنها كانت تحاول الابتعاد عن الجو الذى تلمس فيه أى
شاب ثم عاد عبد الرحمن يقول

- ألا تشعرين يادرية بلذة الحياة اذ استبدلتى هذه الثياب بشياب البدو الرحل وتجهزين لى
ولك عشاءنا من لبن الناقة والتمر فنجلس معا لنلتهمه تحت سقف خيمتنا ثم نسير قليلا
لنتوغل فى جوف الصحراء تحت ضوء القمر .

- انك خيالى النزعة

- لا بل قلبى الشاب فى حاجة الى قلبك ليكونا قصة حب

- هذه فلسفة

- بل الحب

- أى حب ؟

- الحب الذى بدأ قلبك يشعر به

- محال ؟

- وغدا .. بل الليلة ستعود اليك ذكرى هذا الحب

تم سحب يده من يدها وتوقف قليلا ثم قال

سأملكث هنا قليلا أما أنت فلك أن تعودى الى بيتك أو تمكثين ثم بدأ ينشد

امنحيني قلبك
ولو لحظة واحدة
لأسمعة لحن غرامى

وماكادت درية تسمعة ينشد هذه الاغنية ثانية حتى توقفت وأخذت ترمقه بعينيها بينما
كان لا يزال يردد

وأضعك الى صدرى
لأسمعك دقات قلبى المضطرب
وتهوى على تقبلينى كما اقبلك
امنحيني قلبك

وكان يمشى جيئة وذهابا وهو يوالى فيها نشر أنشودته وعند مارآها لا تزال واقفة تقدم منها
ثم قال - ألا زلت واقفة ؟ ولكنها لم تحب فقد كانت حرارة الدموع المتساقطة على عينيها
تلهب وجهها الصغير وما كاد عبد الرحمن يتبين ذلك حتى صاح.

- باللهوى ؟ إنك تبكين وللمرة الأولى أجابت درية

- نعم اهكى من أجلك

فشهق عبد الرحمن قائلا

- من أجلى

- نعم - كم أنا سعيد . لقد بدأتى تبكين من أجلى .. لقد بدأ قلبك يشعر بنفس

الاحساس الذى يشعر به قلبى .. فقد بدأتى تحبين

وضمها الى صدره وفى نشوة استمتاعه بهذا النصر الذى حازه قبلها قبلة ملتهبة فتم بعدها

- ما أسعدنى يا معبودتى

فارتعشت شفتاها فى صوت خافت

- وما أسعدنى يا ملاكى

ومرت على تلك الليلة ثلاث سنوات تزوج بعدها الشاعر الشاب عبد الرحمن حمدي من درية شاكر بعد أن جاز امتحان اللسانس وخطبها من أهلها وهي لم تحصل على اللسانس بعد وبدا معا يعيشان عيشة غريبة لأنه كان يرى في درية إلهاء الذي توحى إليه قصائده وشعره بعد أن اتفقت معه إحدى المجلات الفرنسية التي تصدر في القاهرة على أن يقوم بالإشراف على تحرير الصفحة الأدبية فيها وطارت شهرته عندما نشر أشعار "امنحني قلبك" فاشترتها إحدى الفرق الفرنسية التي ترحل إلى القاهرة لتحيي بعض حفلات على مسرح الاوبرا ولحنتها لتغنيها مغنية الفرقة وتجاوبت أنحاء مصر شهرة هذا الشاعر فجعلت الآباء والشعراء يقيمون حفلا تكريميا له .

تحول البيت الذي يضم هذين الزوجين إلى وكر شاعري وكان عبد الرحمن يدعو في بعض الليالي كثيرا من أصدقائه الفنانين ليقضوا ليالي يتحدثون فيها عن مدى تقدم الفن في مصر. وفي إحدى تلك الليالي تقابلت درية مع الممثل الشاب فتحي الغمرى الذي كان يعتزم أن يفتتح معرضا يعرض فيه بعض تماثيله

وأخذ فتحي يتردد على بيت صديقه عبد الرحمن فكانت تقابله درية ويقضيا معا ليالي كثيرة . واسترعت درية بعض النظرات العميقة التي يوجهها إليها فتحي .. كانت كلها نظرات شرهة نهمة

إلى أن كانت إحدى الليالي عندما جاء فتحي لبيت عبد الرحمن كعادته . ولم يكن عبد الرحمن موجودا فوجد درية بمفردها وتهلل وجهه عندما كان يخطو إلى غرفة الصالون . ومرت بهمة قصيرة عليهما وهما جلوس .. تم تحرك فتحي في مقعده قليلا قبل أن يقول

ليست أقدر على تصوير السعادة التي المسها بجوارك

واعترت درية دهشة حادة ثم هبت واقفة وبان الغضب في عينيها وصاحت

- أجننت يا هذا

- ولم ؟

- لأنك تهذى

وملكت فتحي أزمة نفسية فشارت عواطفه وطفنت عليه .. كان يحب درية زوجة صديقه ولكنه كان يكبت هذا الحب في نفسه ولا يحاول اظهاره غير انه في تلك اللحظة تجرد عن كل إحساس آخر فتقدم نحوها وهو يجثو على ركبتيه ثم قال .

- اننى احبك واغترف لى ياسيدتى صراحتى .
- ولكها لم تجبه فلما استقام امامها قرأ آيات الغيظ فى عينيها فهز رأسه ثانية وهو يقول .
- انك لاتشعرين بالالم الذى يحز فى قلبى .. اننى اعبدك حتى أرى أن أجعل من ذرات
قلبى عقدا لوليا يحوطك
- انك تحلم
- لقد وهبتنى هذا الحلم
- يالك من شيطان
- قد أكون شيطانا فى نظرك .. أوه! كم اسكرتنى عيناك حتى خلدتهما فى صورة رائعة
- ماذا تقول ؟
- لقد اتخذت منك نموذجا لتمثالى الذى سأفتتح به معرضى .. دعى هذا ودعينا نشرب
وارتعدت درية عندما تبينت خطورة الموقف التى هى مقبلة عليه لقد أصبحت نموذجا لتمثال
جديد كما كانت بالامس وحيا لقصائد زوجها فثارت ثائرتها وصاحت
- مجرم !!
- دعينى احبك ياسيدتى ولنشرب معا نخب الحب
- فصرخت درية
- انك تتغالى .. إننى أمقتك ولا أحب أن اراك . اخرج يارجل أخرج وإلا ناديت من يقوى
على طردك
- انك تهيننى
- نعم ايها الشيطان النذل
- فقهقه فتحنى وصاح بصوت مرتجف
- لايهمنى الآن شيئا بعد ان اقتبست تقاطيع جسدك فى تمثالى الجديد واننى ادعوك بعد
باكر لحضور حفل الافتتاح .
- وتحرك نحو الباب كأنه يغادر المسكن بينما صاحت
- نذل شرير

ودقت الساعة دقتها السابعة من مساء تلك الليلة عندما جلست درية تفكر .. إن عليها ان تؤدي عملا لتنقذ سمعتها بعد أن قام فتحى بأخذها كنموذج لتمثاله الذى سيفتح به متحفه بعد يوم واحد . وتبينت هول الفاجعة التى تنتظرها إذا ما اكتشف زوجها ذلك فيعتقد أنها كانت تخونه مع فتحى وسيطرق اليه الظن انها كانت تنتهز فرصة غيابه عن بيته فتذهب الى فتحى فى "الاستديو" لينحت لها هذا التمثال وتضاربت الأفكار فى رأسها وعصفت بها حتى كادت تفجرها وتلكها شعور حاد وهبت واقفة ثم هرولت ترتدى ملابسها وسارت فى خطوات وثيدة نحو الباب ففتحته برفق وسارت خارجه .

وعندما تقدمت نحو (استديو) فتحى وجدت حارسا زنجيا صغيرا بجوار بابه فسألته عن سيده فأخبرها أنه لم يعد الى الاستديو بعد ولكنها دست فى يده قطعة فضية ثم أخبرته انها على موعد مع سيده فسمح لها بالدخول وكان الظلام مخيما على جوانب الاستديو فما كادت تضىء النور حتى بدرت منها صرخة خافتة عندما وجدت تمثالها المرمى واقفا وسط الاستديو فكان صورة أخرى منها . وتفرست فيه قليلا ثم ردت النظر الى جسدها الذى اتخذته فتحى نموذجا لهذا التمثال الذى ينتظر ان يبنى عليه مجده . ودون ان تدري ركلت هذا التمثال بقدمها ركلة قوية فسقط على الأرض مهشما وتناثرت أجزاؤه قطعا .. ثم خرجت من الاستديو بعد أن اطمأنت نفسها الى انها قد حطمت الاثر الذى يشوه سمعتها والذى قد يكون السبب فى حطام حياتها .

وفى تلك الليلة جلست درية بجوار زوجها عبد الرحمن يستمعان الى الراديو الذى كان يذيع احدى حفلات الاربرا . وفجأة صاح المذيع يقدم مغنية فرنسية ارتفع صوتها ينشد

امنحيني قلبك

ولو لحظة واحدة

لأعزف له لحن غرامى

فنظرت الى زوجها فى اعجاب بينما كانت تداعب خيالها ذكريات النموذج الذى حطمه

فى تلك الليلة

٤- جريمة أم قصاص

هذه قصة للكاتب القصصى الشهير جوزيف كونراد وهو بولونى الأصل المجلىزى الشقافة وبعد من كبار القصصين الإنجليز . ويريد أن يظهر فى هذه القصة كيف أن سوء الظن إذا استشرى واستفحل قد يملك ضمير المرء حتى يحكم بالظن من غير دليل ثم يعاقب بالظن .

كان (س) ريان سفينة حربية وكان طويل القامة وقوراً جاداً صريحاً يكره النفاق والغش ، وقد انتهز فرصة إجازة قصيرة فزار حبيبته وجعل يبثها حبه . وكانت مستلقية على مقعد وهو راكع بجانبها وقد أسلمت إليه يدها فجعل يقبلها وكأنما منعها التعب من تحريكها ولأمر ما اضطربت أحاسيسها واختلطت فى صدرها حتى اهتزت من تنفسها أنفاساً عميقة . ولكنها قالت بصوت يكاد لا يختلف عن صوتها المألوف - قصّ على قصة - وقد أخفى الظلام دهشة جلسها واهتمامه إذا ذكرته نفسه إنه حدثها قبل قولها هذا حديث حبه وهو أغلا ما يحدث به رجل امرأة ولم يحدثها به لأول مرة فقال - قصة ؟ "نعم لم لا؟" قالت ذلك بلهجة دلال امتعاض المرأة التى ترى أن رغبتها نافذة كشرعية القانون ومن الصعب تجنبها أو اغفائها . فردد قولها لم لا ؟ بلهجة الساخر ، وكان متغاضباً من خروجها من حديث الحب بسهولة كما تخلع المرأة ثوباً أنيقاً . قالت وكان صوتها يهتز فى نبراته اهتزاز جناح الفراشة فى الضوء "إنك قبل هذه الحرب كنت تقص قصصك وأحاديثك الشائقة . فأين هى ولم تغيرت؟ " ولكن العالم الآن يقاسى ويلات الحرب والحرب تغير أحوال النفوس - قالت قصّ إذاً قصة عالم آخر - قال إذا كنت تعنين عالم الآخرة فلا يستطيع أن يقص عليك قصته إلا من رحل إلى ذلك العالم ثم عاد منه - قالت - لا أعنى الآخرة وإنما أعنى عالماً آخر فى هذا الوجود - قال سأعود بعد قليل من اجازتى إلى عملى راجبى - كأنه بهذا القول يعاتبها لقطع حديث الحب . قالت دعنا من ذكر الواجب فإنه قد يكون فى هذه الأيام أمراً شنيعاً مادامت الحرب قائمة - قال إنك تقولين ذلك إذ تظنين أن الواجب أمر محدود . كلا إن فى الواجب ما لا حد له من الغفران .. ألا ترين ذلك؟؟ قال هذا القول وهو ينظر إليها بحدة مدققاً النظر - ثم صمت قليلاً وعاد فقال سأحدثك بقصة ريان سفينة حربية فهى قصة من قصص عالم البحار وهى قصة حياة وموت - قالت كما فى هذا العالم ؟ قال ماذا تتوقعين عندما يرسل إنسان من طينة هذا الخلق المعذب

كى يبحث ؟ وماذا كان يجد غير ذلك عندما يبحث ؟ وكيف تستطيعين أن تفهمي ؟ قال ذلك وكان يعالج مرارة الألم . ولكنها قالت - هلى هى قصة فكاهة ؟ قال ستكون قصة نفسى وربما كانت قصة فكاهة ولكنها فكاهة قاسية مؤلمة بالرغم من أن مدافع السفينة الحربية لم تطلق بل ظلت صامتة كالمنظار المكبر . ولا يفين عنك إنها قصة مضحك فى هزله وجده وفى سلمه وحره . وكانت الحرب قائمة فوق الأرض وتحتها وعلى البحار وتحت البحار وفى الهواء . فهو عالم غير حكيم . إلا أن بعض الكياسة لم يخل منها جماعة من التجار فى الأهم المحايدة . وكان لابد من مراقبتهم مراقبة دقيقة فأرسلت الحكومة ريان السفينة الحربية لمراقبتهم حين شاع أن بعضهم باقى بخزانات طاقية ملؤها الوقود المائل فى بقاع معينة كى تلتقطها غواصات الأعداء . وتتمكن بهذه الوسيلة من البقاء بعيدة عن قواعدها ومن إغراق سفننا الحربية والتجارية بمن فيها من محاربين أو مدنيين من رجال ونساء وأطفال . وبما كان يدهش له ريان السفينة الحربية أن سطح البحر قلما كان يتغير عن حالاته وفى وقت السلم . فكان من الصعب أن يعتقد الرائي أن فى قاع البحر كميناً مخبأ معد لهلاكه حتى يرى سفينة تصاب أمامه وتغرق قبل أن تعرف ما حدث لها . ثم ينطوى عليها سطح البحر كأن لم يحدث شيء . عندئذ يوقن أنه سيهلك يوماً ما كما هلك أهل تلك السفينة وسيغرق كما غرقوا وربما كان ذلك مباغتة وهو آمن . ،عندما يوقن بذلك ربما يحسد جنود يمسحون العرق والدم من وجوههم عند نهاية المعركة ويرون أشلاء الذين هلكوا ويرون الأرض الممزقة كأنها تتألم وتدمى - نعم إنها وحشية ولكنها وحشية صريحة . أما البحر فانه يدعى أن الدنيا بخير وهى ليست بخير - إذ أنه ينطوى فى أعماقه آثار الجرائم التى تهترم على سطحه . قالت "آه .. انى أعرف انك موسوم بالصراحة وصدق السريرة والغضب للحق .. ان الغضب للحق عقيدتك " فنظر إليها بقلق وقال "أليست هى عقيدتك أنت أيضاً ؟ ألسنا شريكين ؟ ثم عاد الى قصته فقال ان الليل صريع فى اخفائه للأشياء فى عرض البحار وكأن الليل نفاق صديق قديم قد عرفت نفاقه وألفته واسترحت إليه ، أما الضباب فانه يخفى ولا يريح ويغش وكأنه لا يغش . ففى يوم من أيام الضباب كانت السفينة الحربية تسير قرب شاطئ صخرى كثير الاخطار بسبب الصخور التى تغمرها المياه وإذا خف الضباب لاح الساحل كأنما رسم بالحبر الأسود على ورق رمادى اللون - قال مساعد الريان الحربى انى أرى شيئاً طاقياً على سطح الماء وعندما اقتربت السفينة منه رأوا أنه برمبل أو خزان وربما كان من تلك الخزانات الطاقية التى يلقيها بعض التجار الجشعين المحايدين تلتقطها غواصات الأعداء فتأخذ ما بها من الوقود السائل . هكذا شاع الخبر وان لم يقم على صحته دليل إلا اذا كان مارآه ريان السفينة الحربية ومساعدته دليلاً . قال يحدث نفسه ولكن

لماذا لم تلتقط السفينة التجارية الخزان بعد تفريغه ، فأجابته نفسه قائلة لعل ربانها رأى ضرورة فى الاختفاء قبل التمكن من التقاطه . فبدأ الظن يتحول يقيناً فى نفسه وشعر باشمزاز من خيانة بعض المحابدين وغدرهم . فقالت حبيبته الذى يحدثها انى أستطيع أن أفهم اشمئزازك . قال نعم فان الغش والخيانة لا يجوزان فى الحب والحرب لأن الحب والحرب داعيان يدعوان النفس الى المثل العليا ، ومن الجائز أن يسفلا عنها بدعوى ضرورة النصر فيها - قال واستمرت السفينة فى مسيرها فازدادت كثافة الضباب وانقطعت الأصوات أو خفتت لأن الضباب يجعل الأصوات تتضاءل أو تنقطع ولم يستطع إنسان فى السفينة الحربية رؤية إنسان آخر . وكان صوت وقع أقدام الملاحين كأنه وقع أقدام أرواح وأشباح . وكان الربان الحرى قد درس هذا الشاطىء وعرف أن أمامه خليجاً فرأى أن يرسو بسفينته فى ذلك الخليج حتى يتجلى الضباب وعندما استقرت السفينة فى الخليج كان الضباب كثيفاً حتى أنه منع الأعين من رؤية الشاطىء إلا أن صوت الأمواج وهى تصدم ذلك الشاطىء كان يصل إلى السفينة الحربية كأنه من عالم آخر غريب على قربه منها . وبعد قليل خف الضباب من ناحية مدخل الخليج فهمس مساعدته فى أذنه قائلاً إنى أرى سفينة قرب مدخل الخليج ، فدقق الربان النظر فرآها وقال من غرائب حسن الحظ أن سفينتنا لم تصطدم بها أثناء دخولنا . وكان يظنها فى بدء الأمر من السفن التى تتاجر بنقل البضائع من ثغر إلى ثغر على ذلك الساحل ، إلا أن شكاً بدأ يتردد فى ذهنه وفى ذهن الضابط المساعد الذى قال اننا دخلنا الخليج من غير ضجة ولكن ربانها لا بد أن يكون قد أحس بدخولنا ومع ذلك فإنه لم يندلنا بوجوده كى نتخذ الحذر لمنع الاصطدام . وكأنه هو ورجاله كانوا صامتين من الخوف ، قال الربان الحرى نعم يجهل لى أن الأمر كما تقول وزاد شكه فى أمر السفينة التجارية فأرسل اليها ضابطاً ينظر فى أمرها ويمنعها من الخروج فذهب الضابط ثم عاد وسأله رئيسه قائلاً هل هى من سفن هذا الساحل ؟ قال لا ياسيدى إنها سفينة غربية ضل صاحبها الطريق بسبب الضباب واختلال آلاتها فلدجات الى هذا الخليج خشية أن تهشم على الصخور فى أثناء سيرها . وقد أصلح رجالها آلاتها وهى مهيأة مستعدة للسير ، لكن ربانها لا يجرا على الرحيل إذ أنه يجهل الاتجاه الذى ينبغى أن يتجه إليه فى سير السفينة فالتفت رئيسه الى مساعدته وقال لقد كنت مصيباً إذ قلت أن رجالها كانوا صامتين من الخوف كى لاتعرف وجودهم . لكن مساعدته بدأ يشك فى شكه فقال إن الضباب ياسيدى يحجب الأصوات ويطمسها حتى الأصوات التى فى سفينتنا نكاد لانسمعها . ولعل الضباب الذى منعنا من رؤية السفينة التجارية فى أثناء دخولنا منع ربانها من رؤية سفينتنا . ثم ماذا كان مراده من إخفاء وجوده ؟ قال رئيسه كى يهرب فلا ننظر فى

أمره . قال المساعد ولماذا لم يفعل ؟ لماذا لم يهرب إنه لو حرك سفينته ربما سمعنا صوتاً خافتاً في الضباب ولكن الضباب كان يحجب السفينة في طرفة عين فلا نعرف أين ذهبت . وعاد الضابط الذى نظر فى أمرها لإتمام حديثه . فقال إن أوراقها مستوفاة لا عيب فيها وبضائعها ليست من البضائع المحرمة فى الحرب وهى ذاهبة إلى ثغر إنجليزى ولم أجد فيها مدعاة لسوء الظن ورجالها ليس عليهم مظهر ريبة ورياتها من أهل شمال أوربا . والظاهر إنه كان قد احتسى خمرأ وبدأ يفيق من خمارها وقد أخبرته أنى لا آذن له بالرحيل . فقال إنه لايجرأ على أن يحرك سفينته من مكانها فى هذا الضباب سواء أذنت له بالرحيل أم لم آذن - ولكن رئيسه لم يستطع قهر شكه وقال أليس من الجائز أن تكون هذه السفينة هى السفينة التى تمون غواصات الأعداء بالوقود السائل فى خزانات طافية كالحزان الذى رأيناه . قال مساعده إنك لاتستطيع إثبات ذلك ياسيدى ، والظاهر من تقرير الضابط الذى نظر فى أمرها إنه لاتوجد مدعاة للريبة . قال الريان الحربى سأذهب اليها وأستطلع أمرها بنفسى . وحب الاستطلاع هو مدعاة الكره أو الحب ، فما الذى كان يأمل أن يجد فيها ؟ انه كان يتلمس الشبهات ويأمل أن يجد فيها مايسوغ شكه حتى يصير دليلاً . ولعله كان يأمل أن يرى أو يشم أو يذوق دلائل الغدر والخيانة أو أن يوحى اليه فيها إيعاء يحول شكه الى يقين فيستطيع أن يعمل عملاً حاسماً وأن يوقع قصاصاً صارماً عادلاً . ذهب الريان الحربى الى السفينة التجارية فقابلها صاحبها . وكان رجلاً ضخماً الجسم كث اللحية وكان واضعاً يديه فى ثيابه كأنما كان يخشى أن يقبض عليهما أحد أو هكذا خيّل للقائد الحربى فان الشك إذا ساور النفس اتخذت له من كل أمر دليلاً وإن كان ليس بدليل . وكان صاحب السفينة التجارية يتمايل فى مشيته فهل كان تمايله من الخوف إذ أن خيانة المحايدين بتموينه غواصات الأعداء عقابها الموت ؟ أم كان تمايله من بقايا أثر الخمر التى ظهرت رائحتها لمن قاربه ؟ وفتح باب حجرتة وأسند ظهره إلى جدار الحجرة قليلاً كأن به دواراً من الخوف أو هكذا خيّل للقائد الحربى ولكنه مالبت أن تبعه الى داخل الحجرة وأثار المصباح الكهربائى ثم أعاد يديه بسرعة إلى ثيابه كأنما خشى أن يقبض عليهما عدو وألقى بنفسه على مقعد قائلاً "ها أنا ذا" ولاح عليه كأنما أدهشه صوته أو هكذا خيّل للريان الحربى الذى كان ينظر إليه كأنما يريد بتظراته أن يصل الى أعماق نفسه فيعرف أسرارها . ثم قال صاحب السفينة أريد أن أقول لك ياسيدى أنى لا أعرف أين أنا فقد لزمت الضباب أسبوعاً وكسر جهاز السفينة وكان يتكلم بسرعة كأنما يريد أن يقنع الريان الحربى بالرغم منه أو هكذا خيّل للريان الحربى ، ومع ذلك فقد كان فى حديثه فترات سكوت قصيرة كل فترة هى بضع ثوان . وقد خيّل للريان الحربى أن تلك الفترات من فترات السكوت كانت

من خشية الزلل فى قص قصة ملفقة ولو أنه لم يلح على وجه صاحب السفينة شىء من هذا الشعور وخيل للريان الحربى أن القصة مرتبة ترتيباً قلمياً يبلغه صدق الحديث : ولكن ربما كان هذا الظن من شكه الذى لم يستطع مغالبتة ، بل كان فى أثناء حديث صاحب السفينة يحدث نفسه حديثاً آخر عن جشع بعض المحايدىين وقومينهم غواصات الأعداء فكأنهم هم الذين أغرقوا ضحاياها . حدث نفسه هذا الحديث كى لا يقتنع وكى لا يخدعه حديث صاحب السفينة وكى يشعل نار البغض فى قلبه . قال صاحب السفينة إن هذا الضباب يملأ النفس قلقاً فانى لا أكسب إلا الكفاف من رزق أسرتى وأشار الى صورهم المعلقة على الجدار .

قال القائد الحربى : ولكن هذه الحرب ستغنيك وتغنى أسرتك . قال صاحب السفينة إذا لم تتهشم السفينة وأخسرها . ولكن لماذا تفضب ياسيدى إذا درت الحرب على التجار أرباحاً . إننا لم نشعل نار الحرب ولو قعدنا وامتنعنا عن العمل للكسب ما انتقع العالم . قال الريان الحربى لقد أوضحت لى كيف صرت الى هذا المكان ووصلت الى هذا الساحل ودفتر سجل سير السفينة يؤيد ما تقول . ولكن من المستطاع تلفيق هذا السجل فأطرق صاحب السفينة ثم رفع رأسه بعد قليل ونظر الى الريان الحربى قائلاً ولكن هل تسيء بى الظن ؟ لأى أمر ياسيدى ؟ لماذا تتهمنى ؟ أن بضائع سفينتى لنفر انجليزى قال ذلك بصوت خيل للريان الحربى أنه متغير من الخوف كأن به بحه من القلق ولكن الريان الحربى كان يسائل نفسه لماذا لم يندرنا بوجوده عندما دخلت الخليج . ولماذا كان جهاز سفينته مهيئاً للسير ؟ أليس ذلك دليلاً على أنه هو الذى يمون غواصات الأعداء ؟ ثم خرج الريان الحربى واستعرض الملاحين وسألهم أسئلة فلم يستطع من اجاباتهم أن يثبت كذب صاحب السفينة . فقال لاشك إنه وعدهم أجراً كبيراً ومكافأة خاصة ثم هم لا يخشون منا شيئاً ماداموا لا يبوحدون بشىء . لم يظفر الريان الحربى بأى دليل يثبت سوء ظنه ويسوغ شكه ، ولكنه رأى أنه يحدث نفسه كأن أمر غدر هذا التاجر المحايد وخيانتته لقانون الحياد أمر ثابت لاشك فيه . وعاد إلى الحجرة فتلقاء صاحب السفينة وعلى وجهه دهشة فنظر إليه الريان الحربى وقال : يخيل لى ان دهشته مصطنعة مبالغ فيها فهى ليست دهشة طبيعية بل هو يتكلف الدهشة كى يقيم الدليل على براءته . فشرع باشمئزاز من غدر الناس ونفاقهم وقال فى نفسه : لاشك ان كل الناس من آكلى اللحوم البشرية . أليس المال الذى يكسبه التاجر من قموين الغواصات ويشترى به قوته وهو من لحم الضحايا الذين تفرقهم تلك الغواصات ؟ فكأنه يأكل من لحم الضحايا . ثم نظر إلى التاجر صاحب السفينة التجارية وقال له محتعناً ومختبراً ألم تر شيئاً طافياً على وجه الماء ؟ قال التاجر : قلت لك ياسيدى ان الضباب كان يلازمنا فلم نستطع أن نرى شيئاً . قال الريان الحربى ولكننا استطعنا

ان نرى خزاناً من وقود سائل طافياً على وجه الماء وكان الضباب يخف فى بعض الأحيان ، ثم أخبره بما استنتجه من تموين بعض التجار المحايدین لغواصات الأعداء فوقف صاحب السفينة كأنه قد صعق وألقى صعوبة فى التنفس ثم تكلف ابتسامة حائرة مرتبكة لامعنى لها ، فاتخذها الريان الحربى دليلاً آخر على انه مجرم . وقال ان المحايدین الذين يرتكبون هذا الجرم خليقون بعقوبة أشد من عقوبة الشنق .

فقال صاحب السفينة وهو متعجل فى قوله نعم . نعم . نعم . ثم فكر قليلاً وقال ربما . ربما .

قال الريان الحربى وهو محقق مغیظ ربما انهم خليقون بعقوبة أشد من الشنق .

قال صاحب السفينة بهدوء نعم ولكن المغرى لهم أولى بالعقاب ياسيدى . المغرى الذى يأتى بصرة ملؤها الذهب الى رجل فقير لا يجد قوت عياله إلا بشق النفس فيفكر فى تعاسة ذويه وفى الذهب الذى أمامه وأنا لا أذكر هذا عن نفسى فانك قد لاتدرك ياسيدى انى على ضخامة جسمى ليست لى الأعصاب السليمة القوية التى تدفع لى الى المغامرة فأكتفى بالرزق القليل المكفول اذ لا أستطيع المخاطرة ؟ ولكن الرجل الفقير الذى يستطيع المخاطرة لا يتخيل مايجل بركاب السفن التى تغرقها الغواصات لأنها مناظر لايشهدها ، فهو لا يرى الا الذهب وشقاء أسرته التى يسعى لكسب قوتها فيرضى أن يموت الغواصات بالوقود السائل خلصة ويوهم نفسه انه لم يشترك فى اغراق أناس . ولا أعنى نفسى ياسيدى فأنا رجل لاقدرة له على المغامرة ولو غامرت مثل هذه المغامرة لأصابنى الجنون من القلق وخوف العاقبة أو لحاولت إغراق قلقي باحتساء الخمر ليلاً ونهاراً . فمن أية ناحية نظرت الى هذه المغامرة أرى الوبال والخراب .

قال الريان الحربى وقد اقترب وجهه من وجهه بل الموت لا الخراب وحده !

قال صاحب السفينة هذه مسألة لاتهمنى ياسيدى

قال الريان الحربى ومع ذلك فلايد أن ترحل من هنا الآن قال صاحب السفينة فى هذا الضباب ؟ قال نعم . لايد أن ترحل فى هذا الضباب الآن ، قال صاحب السفينة : ولكنى لا أعرف أين أنا ولا أدرى كيف أقود السفينة فى اتجاه ينجىها من الصخور المغورة . قال الريان الحربى ساخراً : آه انك لاتدرى ؟ إذا سأدلك على الاتجاه الذى تسلكه بسفينتك ثم ذكر له اتجاهها باصطلاح السفن فى البحار فتردد صاحب السفينة وقال أمن الحتم أن أرحل فى هذا

الضياب ؟ قال الريان الحربي نعم من الحتم وإلا .. وإلا فقال صاحب السفينة لاداعي للتهديد ياسيدي سأرحل كما تريد .. ثم رحل بسفينته .

والتفت الريان الحربي الى حبيبته التي كان يحدثها حديث القصة واقترب منها قائلاً : أتعرفين إلى أى شيء كان يؤدي ذلك الاتجاه الذي دله عليه الريان الحربي ؟ انه كان يؤدي الى ضخور مغمورة لاتنجو منها سفينة ترتطم بها وقد اصطدمت بها السفينة وغرقت وغرق كل من كان بها . وهذا دليل على أن ريانها لم يكن كاذباً في قوله انه يجهل أين هو فانه لو كان يعرف ، ما سار في الاتجاه الذي دله عليه الريان الحربي . نعم لقد كان صادقاً ولكن صدقه لا يدل على براءته - قال الريان الحربي ذلك بقلق وهو يحاول أن يقتنع نفسه أن لا داعي للقلق .

ثم ترك الريان الحربي دعوى نسبة حادث القصة الى رجل آخر وقال نعم أنا الذي وجهته الى تلك الصخور المغمورة وكنت أظن أن ذلك امتحاناً له واختباراً اختبر به صدق نفسه وبراءته . ولكن الآن لا أدري أكان ذلك اختباراً صحيحاً أم أنى دفعته هو ومن معه الى الهلاك بالتهديد . وعندما أفكر في احتمال براءتهم يخيل لى أنى أرى جثثهم في قاع البحر تاكل منها الأسماك . نعم لا أدري أكنت قاضياً وقع جزء عادلاً صارماً ، أم كنت أثيماً ارتكب جرماً كبيراً ؟

لمدت حبيبته يدها الى ذراعه وقالت .. مسكين .. مسكين يالنعاستك أيها المسكين ؟ فسحب الريان الحربي ذراعه وقبل يد حبيبته منصرفاً - وقال لا أدري أكنت قاضياً أم مجرماً . لا أدري ولن أدري . وسأعيش ماعشت في هذه الحيرة .

٥- الخلاق المجنون

قصة مجهولة للشاعر عبيد الرحمن شكرى "١٨٨٦-١٩٥٨"

رغم ان قصة " الخلاق المجنون" تعتبر من التراث المصرى المعاصر والقريب ، حيث انها صدرت عام ١٩١٩ عن " المطبعة المصرية ، بوكالة السنانية ، بالاسكندرية" ، الا أن أحدا من النقاد لم يكتب عنها ، ، وأصبحت مجهولة تماما ، لا توجد منها نسخة واحدة فى دار الكتب المصرية بالقاهرة .

وهذا هو الناقد الكبير المرحوم محمد مندور فى كتابه " الشعر المصرى بعد شوقى" الصادر عن نهضة مصر. " الطبعة الاولى بدون تاريخ" يقول عنها : "قصة لشكرى لم نعتز عليها" (ص ٩٨).

ولعل الشاعر عبيد الرحمن شكرى قد طبع هذه القصة طبعة محدودة لم تصل إلا إلى عدد محدود من أصدقائه وقرائه بالاسكندرية ، وبقي مؤرخو الأدب يتحدثون عنها - كنص مفقود لا يعرفون ماهيته وجنسه الادبى مما جعل الباحث اليهودى يعقوب لنداو فى دراسته (عن المسرح والسينما عند العرب) "التي ترجمها الدكتور احمد المغازى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٧٢" يضع هذه القصة ضمن ثبته للمسرحيات العربية المؤلفة تحت رقم ٤٥١ (أنظر صفحة ٤٠٨) .

والنص يقع فى ١٤ صفحة من القطع الصغير (المطبعة المصرية بوكالة السنانية ، اسكندرية) عام ١٩١٩ ، وتبدأ القصة من منتصف الصفحة الثالثة ، وتنتهى فى منتصف الصفحة الرابعة عشرة .

وهذا نصها :

(حسين على محمد)

المساء ٦ ديسمبر ١٩٧٥

حدثني صديقي أ.بك.ع. القاضى قال : لقد استرعى فكرى فعل هذا القاتل ، وجعلت ابحث عن الدافع الذى دفعه الى اجترام جرمه فلا أجده ، وكنت مولعا بأبحاث علم النفس ، ومن أجل ذلك استأذنت فى اختبار هذا الرجل واستكشاف أمره فاجبت الى ذلك ، فاحضر الرجل أمامى وأمام صديقى م.بك.ن. النائب ، فاخذنا تلافقه حتى أنس بنا ، فقال لا اكنتمكما انى دهشت من ملاطفتكما اياى وقلت : ان هذه الملاطفة ليست الا الحاجة فى أنفسهما لانى لم ار لمحة من العطف فى اوجه الناس من يوم حدوث ذلك الحادث ، حتى ان اكثرهم كانوا ينظرون الى نظر الخوف والمقت ، وكانت نظراتهم توهمنى أن يدى لا تزال ملطخة بالدماء مع انها لم تكن كذلك . ولكن الذى يأتى جريمة القتل يرى فى كل ما يقع عليه نظره شيئا من حمرة الدم. هذا ليس بخيال . بل هو حقيقة لاشك فيها . ولكنى بالرغم من انكارى لملاطفتكما ، لم أزر فيها لان بى حاجة ، بل بى ظمأ شديدا الى ملاطفة الناس وعطفهم . آه لو علمتما مقدار حاجة المجرم الى تلك الملاطفة ، وأعنى الملاطفة الصادقة التى تخرج من قلب طاهر يرى . نعم ان فقدان المجرم لتلك الملاطفة زمنا طويلا قد يقتل ظمأه إليها فلا يعود يرغب فيها ، بل يكرهها أشد الكره ، كما ان بعض الناس يكرهون كل شىء يعلمون أنهم لن ينالوه ، وكذلك الحيوانات ومنها الثعلب الذى ذم عنقود العنب لأنه حاول مرارا أن يناله فعجز عن ذلك .

أنا أمامكما الآن متهم بالقتل ، ومن أجل ذلك أجد فى نظركما إلى شيئا من الكره والاشمئزاز ، لا تبهذا فى انكار ذلك ، فإنكما مهما حاولتما ملاطفتى لاتقدرا أن تتخلصا من الطبيعة الإنسانية ، كما أنى انا أيضا لا اقدر أن أتخلص من طبيعة القاتل الذى يرى ما فى نظرة الناس اليه من الخوف والمقت مهما كان خافيا عن غيره .

لاشك انكما صرتم تسمعا لان عن الدافع الذى دفعنى الى ما اجترمت ولكن عبثا حاولت ذلك ، فانهم صاروا يسخرون منى ويحسبون أنى أريد ان أتخلص من العقبات ، ومن أجل ذلك يزعمون أنى اقص عليهم الاكاذيب حتى صرت لا ابالى بما يقولون . فبعضهم يقول انى مجنون ، وبعضهم يقول انى محتال كاذب ، وكلاهما واهم ..

وانى مخبركما عن اول هذا الامر .. فقد كانت دكانتى مرتاد الظرفاء الادباء ، وكان يجلس الى كثير من الزباين ، فتحدث وتتذاكر القصص ، وفى يوم من الايام بينما كان فئة من الشبان جالسين يتحدثون وانا ازول مهنتى وأحلق عارض أحدهم ، قال شاب منهم مازحا : ان كل حلاق به شىء من الجنون ، وانى ما جلست الى أحدهم ليحلق ذقنى الا خفت أن يذبحنى. وما يمنعه من ذلك ؟ انا تحت يده لا حول لى ولا قوة .

فضحكنا من ذلك ضحكا شديدا ، ثم قال آخر : هنا شيء لا يعد في المستحيل اذا كان الخلاق ذا خيال وفكر ، وخطر بباله ان يذبح أحد زبائنه ، فانه قد يدفعه ذلك الخاطر الى ذبحه وهو يحاول ان لا يفعل .. قانى قرأت في بعض الكتب أن رجلا أطل يوما من نافذة بيته وكان بيتا عاليا ، فلما أطل على الشارع قال : مسكين من يقع من نافذة بيت مرتفع ، فانه لاريب مهشوم مقتول ، ثم أخرج رأسه وكتفه من النافذة وجعل ينظر الى مسقط نظره في الطريق فقال: ولكن كيف يشعر الانسان أثناء سقوطه من النافذة الى الطريق ؟ كيف يشعر ؟ هذا ما أريد ان أعرف : كيف يشعر ؟ ثم جعل يردد : كيف اشعر ؟ حتى تخيل ذلك الشعور ، ووجدلذة في تخيله ، وقال : من يمنعني من السقوط من النافذة لو حدثتني نفسي أن أرمى بنفسي منها ، وأنا قادر على فعل ذلك ؟ ولكنى لا اريد أن أفعل . ثم أحس بخوف ، فخاف أن يرمى بنفسه من النافذة بالرغم من ارادته . أى خاف أن تكبر لذته في تخيل شعور من بهوى من النافذة ، حتى تصير دافعا يدفعه الى أن يرمى بنفسه منها كي يشعر ذلك الشعور ، ارتياحا عيما* . ومازال ارتياحه يعظم ، ورغبته في رمي نفسه تعظم حتى دفع بنفسه الى النافذة ، فهوى منها فمات .. فقال احد الجالسين : وانا قد قرأت مثل هذه القصة . قرأت ان أحد الناس أتى جريمة القتل ، ولم يعلم أحد انه القاتل ، حتى مضى زمن على جريمته . وبينما هو في الطريق شعر أنه في أمان ، وانه لن يعرف أحد انه المجرم الا اذا هو اعترف بذلك ، فضحك من هذا الخاطر ، وقال : ولكن من يظن انى اعترف ؟ ثم جعل يكرر كلمة : اعترف ؟ لا أظن ذلك ممكنا ، وهو يضحك ضحكا شديدا . ثم ارتاع من ضحكه .. ووقف باهتمام عاودته السكينة . فسار في طريقه ، ولم يلبث الا قليلا حتى عاوده ذلك الخاطر ، فقال : ولكن من يدرينى ؟ ربما اعترفت وانا أحارب ان لا افعل ! ربما دفعنى دافع شديد أعجز عن مغالته وغلبه فان في النفس الانسانية دوافع كثيرة لا يملك لها المرء دفعا . نحن عبيد الدوافع ، ان الدوافع تدفع المرء الى كل شيء حميدا كان أو مرذولا . فما المانع من وجود دافع يدفع المجرم ان يعترف بجرمه ؟ فلما تأمل هذه الفكرة ارتاح حذرا ان تكون حقيقة ، وخاف خوفا شديدا ، ومازال الخوف يزداد حتى ولد فيه ذلك الدافع الغريب الى الصباح في الطريق معلنا جرمته للمارة ، فهم ان يقول بملء فيه: انا قاتل فلان ، ولكنه أطبق شفتيه وحز عليها بأسنانه كي لا تفلت منه كلمة ، ولكن هذا الدافع الى الاعتراف صار يجتهد في فتح فمه ، فصارت شفته ترتعش ، فبكى بكاء مرا حينما وجد أن فمه ينفتح شيئا فشيئا وانه لا بد معترف !! فجعل

يصرخ ويعول ويجرى فى الطريق كى يمنع نفسه من الاعتراف والناس تجرى من ورائه ، وتعجب من عويله وجريه ، وما زال كذلك حتى تعب وكل ، ولكن ذلك الدافع الى الاعتراف صار يقوى فيه ، فسقط بين الناس وهو يقول : انا قاتل فلان . ثم اغمى عليه .

فلما انتهى صاحبنا من قصته . قال آخر : هذا شىء ممكن ، فانى قرأت قصة أخرى من قبيل ذلك ، وهى أن احد الناس مر بمستشفى المجاذيب يوما ، فقال : لاحول ولا قوة الا بالله ، ما ذنب هؤلاء المساكين ان يعاقبوا بالجنون فى الحياة ، وما اهون الانسان واحقره ! ان اقل حادث قد يؤدى به الى الجنون : سقطه من عربة ، او عشرة فى سير ، او خوف من الظلام ، أو رؤية شىء يحسبه عفريتاً ، أو دخول لص عليه بالليل وهو آمن ، أو ضياع ماله فجاءه ، أو خيانة زوجته التى كان يأتمنها ، أو صدمة حديد تهز رأسه . ثم قال : ان كل انسان عرضة للجنون ، ثم قال : انا قد يحدث لى حادث الآن يودى بعقلي ، فارتاع من هذه الفكرة حتى خاف من ذهاب عقله خوفا شديداً . وما زال هذا الخوف يشتد به ، فاجتهد الا يفكر فى هذا الامر ، وان ينفى عن ذهنه هذا الخاطر ، وهو كلما اجتهد فى نفسه رجع اليه ، فقال : ان عجزى عن منع هذا الخاطر من ذهنى لدليل على أن به استعدادا للجنون : ثم جعل يستعرض ماضى أعماله فقال : فى يوم كذا جعلت ارقص فى غرفتى وأنا خال ، هذا دليل آخر على أن به استعدادا للجنون ، ثم قال : وفى يوم كذا وقفت امام المرأة ، وجعلت أنظر فيها ، تارة اعبس وتارة اضحك ، فهذا أيضا دليل على أن به استعدادا للجنون . ثم قال : وايضا فى ليلة كذا نظرت الى المرأة فخنقت خوفا شديدا ، وهذا أيضا دليل على أن به استعدادا للجنون ، وما زال يستعرض أعماله ، ويجمع الأدلة على استعداده للجنون حتى بهت ، وفى تلك البهته ذهب عقله .

فلما انتهى المحدث من تلك القصة ، قال آخر من الجالسين وهو صاحبنا الذى ذبحته : وما يدرينا ؟ ربما كان المعلم حلاقنا عنده هو ايضا استعدادا للجنون ! فضحك الحاضرون ، ولكنى لم أضحك ، بل بدأت استشعر الخوف ، وجعلت أسن الموسيقى سنا شديدا وأنا عابس . فقال لى : احذر يا معلم ان تحدث نفسك بذبح أحدنا ، فانك لاتقدر ان تمنع نفسك عن ذبحه .

فقلت وأنا مغيظ أحسن ألما فى رأسى : انى اذا حدثت نفسى بذلك فلا أحدثها الا بذبحك ، فضحك الحاضرون .. فجرحتة جرحا خفيفا . فقال يظهر انك بدأت تشعر بدافع شديد الى ذبحى ، والا فما بالك لاتحترس !!

فى تلك الساعة صرت أشعر بدافع شديد يدفعنى الى ذبحه ، وأنا تارة أضحك من ذلك خلدى واجتهد فى نفيه عنى ، وتارة أرى اشتداده وعجزى عن مقاومته فارتاع .

ولكن الأبله كان جالسا أمامي لا يعرف شيئا عما كان يدور في خلدي ويتردد في نفسه ،
فقلت له : أأصدقك ؟ .

قال : أصدقني .

قلت : إنني أشعر بدافع يدفعني الى ذبحك ، واجتهد أن اقاومه واغالبه فلا أقدر ، فتهقه
ضاحكا وقال : أتحسب أنني أنزعج من كلامك أنت ؟ انما تريد ان تدخل على قلبي الخوف ،
وانت انما تفرح بهذا الكلام ، فإن هذا الدافع ليس بما يتنها لكل فرد .

قلت : لا والله لا أمزح .

قال : انت اجبن من ان تهم بقتلى ، فانه لو لم يكن عندك من الروادع غير العقاب لكفى .

قلت : أتريد أن اريك شجاعتي ؟

قال : افعل .

ومد الى عنقه ، فجعلت اقرب الى رقبته الموسى وهو يبتسم ، ولكنها صارت ابتسامة
كاذبة ، يظهر الخوف من اثنائها ، الا انه مازال يظهر شجاعة . فضغطت بالموسى على عنقه
ضغطا خفيفا فارتاع وقال : اترك هذا المزاح الثقيل ، فضحكت ضحكة كبيرة . ثم ذبحته .

٣- فى المرأة (*)

« تأملات عبد الرحمن شكرى فى الطبيعة البشرية والحضارة »

١ - إجلال العظيم *

حلاوة الجديد - الحق والباطل - وسائل العرفان ومناهجه - الريح المادى - البحث والإحساس - إجلال العظيم - معانى العظمة - سلطان الإجلال - وظيفة العظماء - معرفة العظيم .

كلما بلغ الإنسان مبلغاً من العلم ، زعم أنه وصل الى الصميم من دائرة العرفان ، حتى إذا جاوزه البحث إلى ما هو ألتصق بالحقيقة منه زعم فى الثانية ما زعم فى الأولى ولا يزال يأخذ الجديد من الأمر مأخذ الأشرف ، لأنه لما تكون له مهابة فى النفس وحلاوة تعلو به عن حقيقة قدره . ولئن تكثرت بما انتهينا إليه وانتهى إلينا من صنوف العلم وأهوايه ، فلا نزال نخبط منه فى طريق عذراء ونركب مركباً غير ذلول .

فاسأل النابغة القدير والحكيم الأديب ، عن مبلغ علمه وما وصل إليه من الحقائق ، ثم اعرضها على غيرها تر أن منها ما يكذب بعضه بعضاً فتكاد تحسب أن الحق موصول بضده ومردود إليه ، وأنه يخلف كما تخلف الفرائز ، وتكاد تحسب أن الحق فى الشرق غيره فى الغرب وأنه فى الشمال غيره فى الجنوب .

انظر إلى مسألة من تلك المسائل التى لا كها البحث ثم نبذها على غير جدوى اللهم إلا صيحات تتبعها نزعات ونزعات ترددها أفواه الباحثين وقلوبهم ، تجد أنها قد مضى عليها الدهر وتوارثها الأيام وتلقفتها العلماء ، وهم مختلفون فى أنحائها كما كانوا والزمان على غير هذا الوضع .

ثم دع هذه وانظر إلى أخرى استقر الباحثون فى أصولها وأخلوها مأخذ الحقيقة ، وعاشوا بها زماناً حتى كان أناس غيرهم فوجدوا فيها من الباطل ما لم يجدوه الأولون .

وانظر إلى أخرى كانت حقاً معظماً عند قوم فصارت باطلاً مخدولاً عند آخرين ، ثم عادت كما كانت فى أول أمرها تجد ما يمكن الشك من قلب الباحث ويضع أمر هذا الوجود موضع الريبة ، لولا أننا نتهم أنفسنا بالتشيع إلى ما تنبجج به من مذهب العلم ووسائل العرفان ،

ووسائط التهذيب لأن الفساد يكمن فى خلالها ثم يسطو على رأى فيجعل السقيم صحيحاً والصحيح سقيماً .

ولا أجد أحسن من أن أذكر كلمة للأستاذ هازليت وهى "إن الأشياء التى تعرض على الصغير فى معهد العلم مما يراد به نجاحه لا تتطلب أعمال تلك القوى التى هى من عقله بمكانة علياء وإن أعظم ما يتطلبه اكتساب تلك المعانى هو نوع من الذاكرة . وليس الحميد منها ولكن ذاك الذى يجعلها حشواً فى عقله" . انتهى كلام الأستاذ هازليت .

وقد أصبح العالم بين الناس من لم ينته إليه من العرفان إلا ما كان بعيداً عن الحياة وأحوالها نائياً عن الصدور ما تحتويه من عواطف وآمال وأغراض .

على أننا لو أنصفنا أنفسنا لعلمنا أن الإدراك لم يقع على كثير مما نزع أننا ندركه وأنه موصول بما يملأ الحياة من التجارب .

ولو أننا تعرفنا الصواب من حيث ينبغى ذلك لحمدنا مغبة البحث بعد هذه الأجيال الطوال ، ولكن صرف الناس عن ذلك أنهم أخذوا المادة مأخذ العنصر الأشرف ، فصاروا يتعرفون حالاتها ، وسبب ذلك أنهم خرجوا إلى الوجود وهم يجهلون فلفتت أبصارهم المادة ومناظر أعضائها فاختطفت بهجتها النواظر ، واجتذبت القلوب فكانوا كلما بحثوا عن شىء أو نظروا إلى أمر اتبعوا خواطرهم ماوراء ذلك من الريح المادى والفائدة التى زعموا أنها تكفل بتهذيب حياتهم وتنظيمها .

ولكن للبحث طريقاً أشرف غاية ، وهو أن ينظر المفكر إلى ماوراء ذلك من الصلة التى تجعل بينه وبين الخلق الحميد سبباً يكون مصدره الفن ولا يصح ذلك إلا اذا نظرنا نظراً صادقاً فى تاريخ النفس وأحوالها وأطوارها وما يصدر عنها من الإحساسات التى تملأ صحيفة العمر أقوالاً وأعمالاً ثم تأخذ من هذه ما يكفل بتهذيب نظام الحياة .

فمن تلك العواطف التى يجب أن نعرف تأثيرها فى الحياة ونتتفع بذلك ، عاطفة إجلال العظيم التى تكفل بتهذيب نظام الحكومة ، ونظام الأهل ونظام الصداقة ونظام الحب ، ونظام العلم ، ونظام العمل ، وغيرها مما يتشعب منها ويتصل بها .

ونذكر الآن معانى تلك العاطفة وهيئتها التى تتلبس بها ومنازلها من النفس ، وما أخذها من القلب ، فإن لها من اللباس وهى فى صدر الشاعر ، غير ما لها وهى فى صدر الحكيم . لأن كل واحد ينظر إليها ومن وراء ذلك شىء يعين وجهة النظر .

إن حب الحسن الطيب آخذ من قلب الشاعر مأخذاً بليغاً ، لأنه مختزج بيقينه والنابعة الحكيم لا يرى اليقين إلا فيما كان مصدره الرغبة فى الحق والعالم المهذب لا يرى استقامة إلا بما كان مرجعه إلى توفير الحميد من الخلق ، والجليل من الأمر . فإذا أخرجنا هذه المعانى عن أزيائها ، ازددنا يقيناً فى أن إجلال العظيم ، جماع تلك المعانى ، لأن الحب والإجلال ، والرغبة والتوقير ، هى المعانى التى تضرها مراتب العبادة ولكن العظمة والحق والحسن أشياء مقرونة فى قرن ، فإذا نظرنا إلى الوجود ، علمنا أن كل أجزائه أزياء لتلك القوى الخفية التى ملوها الحق والحسن والعظمة والتى لا تشعر بها إلا من حيث اتصالها بالحواس أو الإحساسات .

بين الأمر الحسن الجليل وبين القلب صلة أصلها تلك النعمة التى يحدثها وقوع القلب على ذلك الأمر ؛ وهذه الصلة تختلف باختلاف العوامل التى تدفع القلب إليه .

وليست تلك الصلة إلا ذلك الشعور الذى يدعونه حباً أو توفيراً أو إجلالاً أو عبادة ، وإنما هذه المعانى مراتب من مراتبه ، تختلف باختلاف العوامل التى تقبل بالقلب إلى الأمر الجليل فإذا كانت الصلة شريفة السبب عالية النسب ، كان ذلك الشعور خليقاً أن يدعى بما هو أكثر دلالة على الفناء فى شخص المعبود .

وليس شئ أكثر تمهيداً وأعظم تبيناً لما يستبد به ذلك الشعور ، من التسلط على أحوال الحياة من معرفة كنهه ومعناه . ولقد بسطنا ذلك رغبة فى الإيضاح فعسى أن يكون من وراء ذلك ما يلتمس به الفهم ونذكر الآن ماله من القدرة على تهذيب نظام الحكومة ، وهو رأس النظامات التى تعيش بها ، فإذا دخل عليه الفساد تسرب إلى غيره مما هو موصول به .

الحاكم بين الإطلاق والتقييد فإذا كان حراً فى تدبير شؤون من وليهم لم يأمنوا أن تكون أهواؤه * يتقحم الفساد منها على المصالح والمرافق وإذا كان مقيداً أدرك المعجز عن تدبير ما وكل إليه تدبيره ولا زال الناس فى حاجة إلى من يرشدهم إلى رأى رجيح فى حكومتهم فكان للعلامة بوباس رأى فى ذلك ، وكان الأستاذ كارلايل وقع على الصواب فى ساعة من ساعات الإلهام فقال :

"إن تاريخ مامهده المرء من المسالك وما ذلله من الأمور هو تاريخ العظماء الذين عملوا فى ذلك لأنهم كانوا القادة والقادة التى احتذاها الناس ، والخالفين لما أجهد العامة أنفسهم فى عمله أو الحصول عليه ، فإن كل مانراه سهل المأخذ قريبه هو تحقيق ولباس لتلك الأفكار

والمعانى التى سكنت فى صدور الفحول الذين بعثوا فى هذه الحياة " وقد رأى كارلايل أن الأمة لا تستقيم إلا إذا ساسها العظماء فكان أحسن ماتصح به الناس أن يعرفوا العظيم من الحقير ، لأننا إذا وكلنا إلى العظماء أمورنا أمنا منهم أهواهم إلا قليلاً ، ثم حمدنا منهم القدرة على تهذيب الشؤون ، وحفظ الحقوق . ولكن الصعوبة بمكان ليس بعده مكان أن نعرف العظيم من الحقير ، لأن وسائلنا فى تعرف ذلك تقتصر عن بلوغ ذلك المبلغ ، ولأن العظيم قد يخرج إلينا فى زى الحقير ، والحقير فى زى العظيم ، فلا نعرف بأيهما نثق .

والأصل فى ذلك أن النفاق قد يخفى معانى الحقارة فى نفس الحقير ، وأن الريبة من جانب المنافق إذا عضدها الحياء أو الترفع من جانب العظيم ، غطت على حسناته وأسندت إليه من السيئات ما يلبسه زى الحقارة .

هذا أصل من أصول التباس العظمة بالحقارة ، وله أصل آخر ، وهو أن العظيم قد بلغ من الذكاء وسلامة الغريزة ، وبلاغة الرأي مبلغاً يجعل فاصلاً بليفاً بينه وبين الناس . وقد كان الاستاذ بترارك يأسف لحاله فى قوله إن طبيعته جعلته مغايراً لمن حوله . هذا ما يعينه الاستاذ هازليت من قوله "إن أعظم ما يسىء المرء من كونه أوسع علماً وأبعد نظراً من الناس ، لأنهم لا يفهمون قوله " ولقد بحث الله فى الحياة من العظماء من تلقاهم الناس بالإعراض والتحقير ، ولا أرى داعياً لذلك إلا أن الجهل يحدث الشك ، وهذا يسمت على الخوف الذى يحرك البغضاء .

على أننا لا نزال نرجو أن يكون رائد يهد سبيل معرفة الفضل من المفضول ، لأنه لا يستقيم نظام إلا بقدر نصيبه منها ، ولأن النظام هو مراتب يعمرها الناس بعضها ، موقوف على بعض . فإذا كان فى إحداها من ليس منها تسرب إلى جميعها الفساد .

هذا ولا أعنى بإجلال العظيم ذلك الاتقياد الذى يقتل العزة والإباء فى نفس المفضول ، والذي ينزع منه الاعتماد على نفسه فيقيد عقله بقيد ضيق ليس فيه مجال لأفكاره .

٢- مقالة فى الفصول

(فصل فى الطفولة)*

إن المرء إذا جعل يتذكر أيام طفولته ، أحس بلذة مثل لذة الرجل عند رؤية طفله . نعم إننا ننظر فى أعماق السنين إلى ذلك الطفل الذى كناه فى طفولتنا ، فنحنو عليه ونقبله بالذكرى وهو لدينا مثل ولیدنا رضيع . ولقد يجول بخاطر المرء أن ذلك الطفل الصغير الذى كناه ، ليس بذلك الرجل الكبير ، الذى يحنو عليه ، الذى يعبت بالذكرى ويكشف عن الطفولة حجاباً مثل ثياب الحسان . فإن أكثر المرء مكتسب من الأيام والحوادث . ومن أجل ذلك يعد ذلك الطفل جزءاً صغيراً منه ولو فطن المرء إلى تقبله فى أطوار عمره لرأى أنه ينتقل من حياة إلى حياة . وأنه ليخلق كل يوم حياة ويلبس أخرى كما يخلق ثوباً خلقاً وكما يلبس ثوباً جديداً .

لست أعجب من شيء عجيب من أنى لا أزال أذكر حوادث من حوادث الطفولة ، وإن المرء ليزهى بالمقدرة على ذلك التذكر ، كأنه قد سلب جزءاً من الخلد . ولقد تمر بالمرء ساعات يتوق فيها إلى طفولته ، ويناجى شخصه الصغيرة قائلاً : -

يا بنى قد جعلت بينى وبينك الأيام سداً فنحن لانلتقى ، حتى يلتقى الأزل والأبد . أمد يدي إليك كما يمد الأعمى يده إلى قائده ، وأقول لك أين أنت ؟

(فصل يحتوى على جملة واحدة)

الطفولة هى الشباب معكوساً ، واقفاً على يافوخه ، مثل البهلوان (يافوخه هى نافوخه بلغة العامة) .

(فصل النقط)

قد أعجبتنى هذه الجملة فرأيت أن أجعلها فصلاً وحدها ، وأن أجعل باقى الفصل أصفاراً . ولعل القارىء يعثر بعد ذلك بفصل كله نقط يارعى الله النقط ، إن لها سكونا مثل سكون الحليم ، وتحت ذلك السكون حركة ، وطى ذلك السكون كلاماً بليغاً . فإذا أراد المرء أن يعبر عن حالات النفس ، لجأ إلى النقط فرأى فيها بلاغة لم يرها فى الحروف . وخلق بنا أن

نجل النقط لأن الأبد كما قال أرسطا ليس نقطة سائرة قد تجيء في غير مكانها فتقبح ، أعنى إذا أتت في عين الحبيب أو خد المجدور . النقط هي أول ما خلق الله فإنه جل شأنه ، قد خلقها قبل أن يخلق السماء والأرض ، وقبل أن يخلق آدم وحواء ، وبعد أن خلق الصفر ، جعل يده ويمطه ويزيده طولا وعرضا وعمقا ، حتى صار هذا الوجود الذى نعيش فيه ، وهذه الأجسام وهذه الأرواح . أليس ينبغى لنا أيها القارىء بعد أن ذكرنا فضل النقط ، أن نجعل بين فصول هذا المقال فصلا كله فقط ..

ولقد خشينا أن يسقط على القارىء ، تبين الحكمة البلغية التى ترقص فى ثياب هذا المزمع العرييد ، فرأينا أن نلقتنه إلى ماتحت فصل النقط من الحكم العميقة ، والسخر والفكاهة الكامنة فى قول الكاتب إن الصغير أول مخلوقات الله وإنه جعل ينمو ويكبر حتى صار هذا الكون ، وهذه المخلوقات ، وهذه الأفهام وهذه العقول .. اللهم ارزقنى أصفارا على يمينى أى على يمين الواحد ، لا على يسارى واعطنا من لدنك خانات .

وبعد فقد زعم أمرسون أن الوجود كله دوائر ، فإذا صح زعمه ، كان الوجود كله نقط ، لأن الدائرة نقطة كبيرة واسعة . الوجود كله نقط ، ولكنها نقط سوداء فى صحيفة بيضاء ، وإذا شئت قلت إن الوجود نقطة فى الفضاء .

(فصل فى الانكماش)

لقد أذكرنى فصل النقط صفة هى تكاد تجعلنى من عجائب المخلوقات ، وخوارق العادات ، وهى أنى لا أكون إلا إذا كنت وحيداً . وسبب ذلك ، أنى أنكمش إذا حضرت مجالس الناس ، كما ينكمش الصوف فى طشت الغسيل ، ولولا قول العلماء إن المادة لاتنفى لانكمشت حتى صرت نقطة . وإذا استمر انكماشى بعد ذلك ، خفيت عن الأبصار ، لأن النقطة إذا انكمشت فثيت . وقد قال العلماء . إن المادة لاتنفى . وفى هذا القول عزاء لى لأنى أعلم أنى مهما انكمشت فى مجالس الناس ، لم اكن أقل من نقطة من العقل ، فى نقطة من المادة وهذا أيضا من فضل النقط وإذا شئت أن تعرف ثقل الأشياء ، فاعلم أن الثقل نقطة مكبرة مذكوكة ، وهذا أيضا من فضل النقط ، فإنه لولاها لثفت أجسامنا ، وصارت حياتنا من خفة أجسامنا طيرانا مستمرا فى السماء فى خط مستقيم ، أوله فى الأرض وآخره معقود بحدود الأثير وعلى هذا الخط المستقيم ، نكتب فصلا فى الخطوط .

(فصل فى الخطوط)

وينبغى قبل أن أكتب فصل الخطوط ، أن أذهب الفزع عن نفوس قراء هذا المقال من التلاميذ ، وأن أسكن من روعهم ، وأن أثبت من جأشهم ، فقد يحسبون أنى أعنى بالخطوط ، خطوط الطول والعرض ، فيخطئون فيما يزعمون .

سألنى أديب عن أجل خط سمعت به ، فقلت خط الرسام إذا رسم حدود الحسان ، أو خط قوس قزح ، أو خط الصراط المستقيم ، أو الخط الفاصل بين ما كان وما يكون ، أو الخط الفاصل بين الهجر والوصل . ترى أيها القارىء الفطن (لاتزأخذنى فى اتهامى إياك بالفطنة) إن فى الحياة خطوطاً أجل من خطوط الطول والعرض . وينبغى لك إذا أردت أن تدرس هذه الخطوط أن تكون جريئاً عليها فاحذر أن تحبب أمامها ، أو ن تقيد كل همتك بدرس خط واحد منها .

فينبغى لك إذا أردت أن تدرس خط الرسام ، إذا رسم حدود الحسان ، وخط قوس قزح ، أن تفهم سر الضوء وأن تتوق إلى معانقته ، وأن تغازله بلحظك وروحك . لأن الفرق بين الضوء واللون ، مثل الفرق بين الإيمان والأمن الأول سبب والثانى نتيجة .. ليستنى أمد يدي إلى السماء فاخطف بها الضوء وأخط به على القرطاس خدودا ، مثل حدود الحسان ، وعيونا مثل عيون الملاح ، وشفاهها مثل شفاههن تلك العيون التى تضىء وجه النهار ، وتلك الحدود التى قملأ وجه الحياة ضياءً .

وينبغى لك إذا أردت أن تدرس الخط الفاصل بين المعلوم والمجهول أن تكون جريئاً على النظامات ، جريئاً على العادات ، جريئاً على الباطل ، جريئاً على الحق . واليانع إذا استيقظت آماله فى صلاح الكون ، وفتح الشباب بنات ذهنه ، وأبواب نفسه ، كان بحيث ينبغى أن يكون من الجرأة ، حتى إذا غلبه سلطان العادة ، جرى فى تيارها مجرى القصبه فى تيار الماء .

إن الإنسان مغرى بتفهم هذه الخطوط ، لأن طبيعه يفره بفتح المغلق من الألغاز ، وعلى ذكر الألغاز نكتب فصلاً فى النساء .

(فصل فى النساء)

إن أغمض الألغاز ثلاثة لغز الحياة ولغز الموت ولغز النساء ولكن استبداد الرجال بأمرهن وشدة رغبتهم فيهن قد جعلهن لغزاً والنساء لسن كالعادات كلما قدمت صقلت . وهن لسن كالخمر المعتقة كلما قدمت رقت وهن لسن كالخطب كلما طال هان (هن لسن كالخطب من هذا الوجه فقط) ولكنهن كالنكتة كلما قدمت .. (وهذا من فضل النقط أيضاً) استغفر الله إنما النساء أيتها القارئات مثل الأديان ، تصلح لكل زمان ومكان ، لا يزرى بهن قول فيلسوف يزعم أن لكل زمان ديناً ، وأن لكل مكان عقيدة ، فهن لا يزرى بهن أنهن قد صرن مثل خمرة شرقى التى يقول فيها :-

طال عليها التدم فهي وجود عسدم

إنى أرى فى جمالهن معنى من معانى الخلد ، وصفة من صفات الأبد . ومن أجل ذلك ؛
كن أقرب إلى الله من الرجال ، وكأنى بالمصور بن المسيحيين قد فطنوا إلى ذلك ، فوضعوا
على أجسام الملائكة الذكور رءوس النساء ، مع أننا لم نقرأ فى كتاب من الكتب المنزلة أن
هناك ملائكة إناثا ، اللهم إلا إذا عددنا ديوان شوقى من الكتب المنزلة فإنه يقول :-

صونى جمالك عنا إننا بشر

من التراب وهذا الحسن روحانى

أو قابتفى فلكا تأوينه ملكا

لم يتخذ شركا فى العالم الفانى

٣- الحجاب والسفور *

كل نظام إذا أبغضه الناس في أول أمره ، وطده الاحتياج ، بالرغم من مبغضيه . وكل عادة كانت في أول أمرها مبغوضة إنما سنتها الحاجة إليها والعادة وإن قدمت حتى أضلنا أولها في مجاهل الماضي ، فأولها بدعة غشيها الغاشون ، رغبة في سداد ثغرة وإصلاح ثلثة ، وما زال الدهر وما يزال الدهر يصقلها ، حتى تصير سنة . هذا سبيل الطبيعة في تقويم ما اعوج ، وتهذيب ما فسد . ولو كشف لك الغيب لعلمت أن عاداتنا التي نجلها والتي هي أعز علينا من نفوسنا لم يرغب فيها الناس في أول أمرها حتى دفعهم الاحتياج إليها ، والإحتياج سائق عنيف ، فليست الموجة الهوجاء إذا قذفت بالغريق ، وليست الريح العاتية إذا عصفت بالهباء ، بأعظم سلطاناً من الحاجة . فالحاجة تبعث الرغبة في القلوب ، وتعتادها بها ، والرغبة تشعل الذهن ، وتعمل العزم والسعى في استخراج ما تستجده الحاجة .

مضى زمن طويل لم ينكر نفع الحجاب فيه أحد ، فلا عرو ، إذا كان الحجاب رأس نظام الأسرة ، فلو أمر الناس أمر في ذلك الزمن برفع الحجاب ، لكان رفع الحجاب مضراً لأن الناس لم تعرف وجه نفعه . كان الرجل يتزوج المرأة وهو لا يعرف من أمرها غير ماتطير به الإشاعة وترفعه إليه السنة نسوة أسرته ، وكان يرى في ذلك بلاغاً لأنه لم يرد منها صديقاً صادقاً أو أنيساً عاقلاً ، وإنما أراد منها مثيراً لشهوته ومطمئناً لها ولكن التهذيب يسمو بصاحبه حتى يرى أن جمال الروح ، يكسب جمال الجسم بها .

وصحة النفس صحة أبداً للحسن والحسن نهلة الظامى

إن الذين ينكرون مضار السفور يجهلون منافع ذلك السفور . كل نظام فيه خير وشر فالحجاب فيه خير وفيه شر ؛ وكذلك السفور ، ولكن النظام لا يكون أحسن من أخيه إلا إذا كان خيره أحسن من خير أخيه وشره أقل من شره الحجاب ستر لمن أراد مراقبة الرذيلة من النساء وهو أيضاً جاعلهن ضحايا العزم لأن ضالكة العزم سببها بعد المرء عن الفتنة ، وهو غير محجوب عنها ، ولا يمكن حجب النساء عن الفتنة . أليس الراهب في دير بعيداً عن الفتنة ؟

أخرج هذا الراهب من ديره ، وضعه فى مدينة كبيرة فإتاك واجده هناك ، ضئيل العزم ، قليل العفة فالعفة فى مجاهدة الفتن .

كل نظام فى أول أمره كثير الشر ، والسبب فى ذلك أن الناس لم تهباً له تمام التهيؤ ، وهم لا يتهيأون له تمام التهيؤ إلا بمزاولته ، والتلبس به ، فإذا رفع الحجاب كان رفعه مُضراً حتى إذا تهيأت له الناس ، صغر شره وكبر خيره وإنما تهيب الناس من رفع الحجاب ، هو عرفانهم أن ضرره واقع على أول من يرفعه ، لأن ضرره فى أوله ، فهم لا يريدون أن يضحوا أنفسهم فى سبيل نفع أمتهم ، هذا إذا فرضنا أن فى رفع الحجاب تضحية لأنفسهم .

فالحجاب لا يرفعه الكاتبون ، وإنما ترفعه الحاجة الى سفور النساء ، فإذا لم تكن هناك حاجة الى سفور النساء بقى الحجاب مسدولاً عليهن وهذه الحاجة إلى سفور النساء يجلبها تطلب المرء عرفان أخلاق خطيبته قبل الزواج . وقد بدأت تظهر رغبة الفتيان والفتيات فى معرفة أخلاق زوجاتهم وأزواجهن ، قبل الزواج وهذا لا يتم إلا بمعاشرة الرجال النساء .

يبين الحب فى الشباب كما يبين الزهر فى الربيع ينظر الشاب فى أعماق نفسه ، فيرى هناك صورة من صور الكمال ، كلها ملاحاة فهى جمال فى الخلق ، جمال فى الخلقة . ويتلفت حوله ليرى بين الفتيات ذات الصورة التى نسجها الخيال والفكر ، فى صفحات نفسه ولكن بينه وبينها الحجاب ، ودونهما رادع من مخافة رأى الجمهور فينقلب ذلك الحب المقهور ، وتلك الرغبة المكتومة سما يجول فى أنحاء قلبه يفسد ضميره ويميت آماله . وإذا فسد الضمير ، لم يبال المرء أى مورد ورد وأى مسلك سلك ، لأنه يريد أن يفرق ذلك اليأس الذى يأكل قلبه ، فى البغاء والفسق ، ولكن البغاء ليس بمميت يأسه من الحياة ، حتى يسلب منه عواطفه إلى الشرف ودوافعه إلى الفضيلة . فالشهوة المحبوسة أكثر ضرراً من الشهوة المطلقة ، فهى كالبخار إذا حبسته زدته قوة ، فكانت صولته وهو محبوس أشد من صولته وهو مطلق .. إن جهل الآباء هذه الحقيقة مجلبة للشر فهم يريدون أن يجعلوا شهوة أبنائهم إلى ملاذ الحياة شهوة محبوسة فتجول فى أجسامهم مجال السم ، ويسرى سلطانها إلى النفس فيسم أخلاقهم وعواطفهم . هذه حقيقة كبيرة ، ولكن الناس يهابون أن يذكروها لأنهم يخافون أن يفسروا سنن الطبيعة وأن ينظروا فى أعماق النفس ، فإنهم إذا فعلوا ذلك رأوا أن حاجة الجسم فى أكثر الأحيان موصولة بحاجة النفس . ومن أجل ذلك ترى أن الحب المادى يكون فى أكثر الأحيان موصولاً بالحب الروحى ، والحب هو حاجة الشباب . هذه سنة الطبيعة . إذا أردت أن تقتل ذلك الحب ، قتلت فى قتله جلال الزواج وشرفه . فالحب بين الفتيان والفتيات شىء طبيعى لا عيب

فيه ، بل هو دعامة الزواج وأساس العمران . فينبغي لنا أن نفهم الفتیان والفتيات أن الحب الذى فيه حاجة الجسم ، وحاجة الروح موصولين ، هو شىء جليل ليس فيه عار ، بل إن فيه شيئاً من معنى العبادة أليس خير العبادة أن يمهّد المرء دعائم العمران والزواج أكبر دعائمه ، كما أن الحب أكبر دعائم الزواج .

إذا صح ذلك كان الحجاب ضرراً كبيراً ، لأنه يهدم أكبر دعائم العمران فإنك إذا جعلت معاشرة الفتیان للفتيات حراماً صار الحب حراماً . كيف يثق الزوج من أن قلبه سيعلق تلك التى ينظر إليها من وراء الحجاب كما ينظر إلى الصغيره عزيزه ، أو خضره الشريفه ، من وراء شباك صندوق العجب .

إن سفور النساء عندنا يكون أقل ضرراً منه عند الأوربيين ، لسهولة الطلاق عندنا وصعوبته عندهم . ولا تحسب أن سفور النساء يذيع الطلاق ، فإن سبب كثرة المطلقات عندنا ، هو تحجب النساء وتحريم مجالس الرجال عليهن فإن الرجل يتزوج المرأة وهو لا يعرف أخلاقها التى تشرحها العشرة وطول المجالسة ، ويخفيها الحجاب عنه . وإن جهل الرجال أخلاق نسائهم ، وجهل النساء أخلاق رجالهن ، قبل الزواج والاجتماع على غير حب ، يمهّد دواعى الطلاق ويذيع الخلاف بين الرجال ونسائهم . والحجاب أيضاً هو سبب تعدد الزوجات ، فإن المرء إذا رأى أنه لا يحب زوجته الأولى تزوج ثالثة فثالثة فرابعة إلخ . كأن هذا الزواج تجرّية ، أو كأنه لعب الميسر ، وكأن النساء أوراق يانصيب يشتريها المرء وهو يأمل أن تكون الورقة الرابعة .

إن النبى صلى الله عليه وسلم قد أباح للمسلم أن يتزوج أكثر من واحدة ، لسبب كانت حياة العرب رهينة به ، فإن العرب فى الجاهلية كانت قبائل متفرقة لا يستقر بينها سلم ، فكان المرء لا يأمن من الموت أن يأتيه فى يومه قبل غده ، كثر العداء بين هذه القبائل حتى كادت لاتكون رجال .

إذا افترقوا عن وقعة جمعهم

لاخرى دماء ما يطل نجيعها

تذم الفتاة الرود شيمة بعلمها

إذا بات دون الثار وهو ضجيعها

حمية شعب جاهلى وعزة

كلبة أعيال الرجال خضوعها

وفرسان هيجاء تجيش صدورها

بأحقادها حتى تضيق دروعها

ولكن النبى لم يرد أن تكون تلك الإباحة سنة تبقى بعد ذهاب الداء الذى كانت دواءه ،
فإنه قيدها بقيد يكاد يجعلها غير إباحة ، وذلك القيد هو تمام العدل بين الأزواج .

٤ - طرف فلسفية

أحلام اليقظة *

(وهى أحلام خيالية فلسفية يشوبها شيء من المزح)

أسافل النفس وأعاليتها

ذهبت مرة فى المساء إلى شاطئ البحر لأروح عن نفسى من الهم الذى يعتور المرء ، من التفكير فى أساليب الحياة ، وما يأتبه الناس من شر . ثم اضطجعت على الأرض ، وجعلت أردد ألقى بين السماء والأرض ، فصغرت لدى حياة الناس من عظم ما بين السماء والبحر وبينما أسخر ضلة من طبيعة الانسان وما تغرى الناس به من غدر ولؤم ودناءة وكذب وقتل وخيانة ؛ وقع بصرى على ملك من النور كله جمال ، فى يده مرآة ثم رأيت قد اقترب منى ووضع المرآة أمامى ثم قال : انظر فى هذه المرآة ، فنظرت فرأيت جنياً ملأ ما بين السماء والأرض ، له رجلان مثلى رجلى حيوان مفترس ، لهما كساء من الشعر ، وباقيه ملك كريم ، فنظرت إلى قدميه فرأيت أظفاراً مثل أنياب الفيلة ، ورأيت الدود والبق والعقارب فوق قدميه ، فأغمضت عيني من قبح ذلك المنظر ، ثم سمعت صوت الملك صاحب المرآة يقول : ارفع بصرك وانظر إلى وجه هذا الجنى فرفعت بصرى ونظرت فى وجهه ، فرأيت وجهها ينبعث منه النور كله حنان ورفق وعينين لحظاتهمما كلها ذكاء وجيئة لو صور الحق لكان جبين هذا الجنى جبينه ، ورأساً مكللاً بالأزهار ونظرت إلى صدره فرأيت نبيلاً جليلاً ، فخفق قلبى طرباً به جمال هذا المنظر وجلاله ، ثم نظرت إلى يديه ، فرأيتهما مثل يدي القرد فعجبت كيف يقرن ذلك الجمال الجرم بذلك القبح الجرم ؟ فقال الملك صاحب المرآة إن صورة هذا الجنى تمثل النفس الإنسانية ، فإن هذا الجنى رأسه فى السماء ورجله فى الأرض ، وكذلك النفس ، فإذا نظرت إلى النفس ، رأيت أعاليتها كلها جلال وجمال ، وأسافلها مثل بشر كله حشرات ، وهذا الجنى له يدان مثل يدي الحيوان ، وإنما هذا مثل العمل ، فإن الغريزة تحث المرء إلى العمل من خير وشر لأن العمل مقياس الحياة ، وميزان البقاء ، فإذا أردت أن تعيش عليل النفس ، سقيم الأمل ، ضئيل الهمة ، فانظر فى أسافل هذا الجنى ، وردد لحظاتك فى الدود والبق والعقارب ، التى فوق قدميه فإن هذه أسافل النفس . ويكون مثلك مثل من يريد أن يستحم فيرى غديراً صافياً

طاهر الماء ، فيعدل عنه إلى الماء الآخر في المستنقع الموبى . لم لا ترفع بصرك إلى أعالي النفس من لحظ كله ذكاء وجبين كله جلال ، ووجه كله ضياء ، فلما قال الملك قولته هذه رفعت بصرى إليه فرأيتته قد خفى عنى ، فرجعت إلى بيتى ، وفككت عنى حبائل البأس ، وقلت خاب من نظر فى أسافل النفس ، ورجع بصره خامئاً عن أعاليها .

الخير والشر

ذهبت مرة إلى مدينة من مدن القدماء ، لم يبق منها إلا أطلال ونوى وأحجار فجعلت أنظر إلى تلك الأطلال كأنى أنظر إلى قبور السنين الخوالى . وغربت الشمس ، ثم رأيت النجوم فى السماء كأنها أطلال الفردوس ، فرأيت فى السماء أطلالاً وفى الأرض أطلالاً . وقد خيل لى أن هذه الأرض ، قبر والناس أموات ، والسماء سقف ذلك القبر ، والنجوم أزهار وضعت عليه ، كما توضع الأزهار فوق القبور ، فاستلقيت على الأرض ، وجعلت أنظر إلى النجوم نظرة هوجاء ، ثم رأيت فى السماء جنين : جنياً تتطاير من عينيه النار ، وجنيا ينبعث من عينيه النور . الأول له أذنان مثل أذن الحمار ، والثانى له أذنان مثل أذن الإنسان . ووضع أحدهما أصبعاً تحتى ، ووضع الآخر أصبعاً فوقى ، ورفعانى بين أصبعيهما حتى وضعانى على فلك من الأفلاك . ورأيت الأرض مثل كرة القدم فى الحجم ، ثم قال الجنى الذى ينبعث من عينيه النور ، وأشار إلى صاحبه هذا إبليس لا يغرنك منه أن أذنيه مثل أذن الحمار ، فإنه على ذلك كثير الدهاء ، كثير الذكاء ولكن لو لم يكن بينه وبين الحمار شبه مافضل الشر على الخير ، فضحك إبليس وقال : لاتضع الوقت فى المزاح ، ثم التفت إلى وأشار إلى صاحبه ، وقال : هذا صاحب الخير ، وأنا صاحب الشر وهذه الكرة التى أخرجناك منها هى كرة نلعب بها فيما غلبنى وإما غلبته عليها . قلت . ومن الحكم بينكما ؟ قال الله يحكم بيننا ثم جعلنا بلعبان بالكرة الأرضية ، هذا يضربها برجله من ناحية ، وذاك يضربها من ناحية أخرى . ثم نظرت إلى صاحب الخير ، فرأيتته يكبر فى حجم جسمه ، ورأيت صاحب الشر يصغر . فسألت صاحب الخير فى ذلك فقال : أنا دائماً أكبر ، لأنه لانه لانه للخير . وإبليس يصغر دائماً ولكنه لا يقنى أبداً ، لأنه لانه لانه للشر فإنه كلما قنى منه شىء ، ظهر شىء جديد . ثم نظرت حولى ، فرأيت أطلالاً ونوى ، ورأيت أنى مستلق على الأرض ، فقلت لنفسى : أكبر ظنى أنى كنت أحلم .

(عظيم الوجود)

رأيت فى الحلم أنى كنت نائماً على الأرض ، فى بستان أنيق ، وجعلت أنظر إلى السماء والظلام حولى ، فرأيت عينين كبيرتين ، تطلان من السماء ، كل واحدة منهما فى حجم القمر ،

ولكنهما كانتا مثل أعين الناس فى الشكل ، ورأيت النار تنقذ فيهما ، كأن فى كل عين منهما جحيما ، ثم رأيت يداً كبيرة مدت من السماء إلى الأرض ، ورفعتنى حتى صارت الأرض فى عيني مثل النملة ، وصارت الشمس مثل التفاحة ، والكواكب حولها كالنمل ، فتملكنى الرعب ، حتى صرت من شدة الرعب لا أحس به . ثم نظرت الى ما فوقى ، فرأيت كواكب وشموساً كالكواكب والشمس التى يراها الناس . رأيت كل هذا وأنا فى يد ذلك الجنى ، ثم رأيت عينيه فى سمائى والنار تتطاير منهما ، فصحت : من أنت أيها المخلوق العظيم ، فضحك ضحكا كاد يصم أذنى ، ضحكا صوته مثل صوت تصادم الكواكب ، وتكسر الأفلاك . ثم قال : أنا روح الأبد أنحسب أيها المخلوق الحقير ، أن هذا الوجود إنما خلق لأجلك ؟ أتتيس قدرة الله بما أودع فيك من المقدرة ؟ انظر أيها المغرور : ثم رفع صوته وأمر الأفلاك من نهجوم وشموس ، أن تتصادم فتصادمت وتكسرت ثم غابت أشلاؤها فى الفضاء . قلت : هل فنى الوجود . فضحك ضحكا عاليا ، ثم قال : أنظر أيها المغرور ، ثم رفع يده فرفعنى فى يده فرأيت أفلاكا غير الأفلاك التى رأيتها قبل . ثم أمرها أن تتصدع فتصادمت وتصدعت وغابت أشلاؤها فى الفضاء . ثم رفع يده فرفعنى فى يده فرأيت أفلاكا غير الأفلاك التى رأيتها قبل . وهكذا يأمر الأفلاك فتصدع ، ثم يرينى غيرها حتى كدت أموت من جلالة ذلك وهوله . ثم رفع صوته وقال : إتنى ليعجبنى غرور الإنسان فإن الغرور نتيجة من نتائج الطموح ، والطموح دليل على الحياة ، وآلة من آلات النبوغ . يا ابن آدم أنت جزء حقير من الوجود ، فكيف يفهم الجزء الحقير الشئ الكامل ؟ إن ضماثر الأفراد ، ثقوب يطلون منها على الله ، ويناجونه بها ، ولكن مثلهم فى تلك المناجاة ، مثل جماعة من العمى ، لمس أحدهم خرطوم الفيل فقال : الفيل مثل الثعبان ، ثم لمس أحدهم ذيله فقال : الفيل مثل الخيل الطويل : ولمس أحدهم رجله فقال : الفيل مثل الدعامة المستديرة . والناس لا يرون الله إلا كما ترى النور من ثقب صغير . فكل عقيدة من عقائد الناس > مكحلة لأختها . ثم قال : اذهب إلى مكانك من الأرض ولا تنس عظم الوجود فإن إحساسك بعظمه فريضة عليك .

٥- العلوم والآداب

النقد الاجتماعي *

إن الأمة في عصور قوتها ، مثل الأفراد في منى نجاحهم في الحياة ، تحكم على الأعمال بنتائجها لا بالدوافع التي دفعت إليها . ولأجل ذلك ، تجد أفراد الأمة القوية يقدسون النجاح تقديساً كبيراً ، وهذا أثر من آثار عبادة القوة لأن العمل إذا كانت نتيجته النجاح ، كان محبباً إلى الناس ، وإذا كانت نتيجته الفشل ، كان مبغضاً إليهم . ولا أظن أنهم مخطئون في ذلك . نعم ينبغي للمرء أن يذكر دائماً أن الدوافع المختلفة التي تدفع إلى الأعمال توجد اختلافاً في قيمة الأعمال ، ولكن الذي يعين قيمة العمل ، هو النجاح ولا أعنى به ذلك النجاح السريع الذي يعقبه الفشل الطويل ، المبني على أساس من الغش والكذب ، وإنما أعنى ذلك النجاح الذي يتخذ له الأفراد والجماعات عدته ، والمبني على أساس صحيح من القوة .

فإذا نظرت إلى الأمم في حين ضعفها ، وجدتها تحكم على الأعمال بالدوافع التي سعت إليها لا بنتائجها . وهذا ولا شك إحساس بالعجز ، لأن الأفراد إذا خافوا أن يحكموا على أعمالهم بنتائجها ، كانت ثقتهم في أنفسهم قليلة ، كأنهم لا يستحقون أن تكون نتائج أعمالهم النجاح ولأجل ذلك تجد^(١) أفراد الأمة الضعيفة يكادون يضعون الفشل في المطلب الجليل خصوصاً إذا كان نصيبهم ؛ لأن كل إنسان يجل النجاح ويقدسه ، إذا كان النجاح نصيبه . ولكن سواء كان النجاح نصيب المفكر ، أم كان نصيبه الفشل ، ينبغي له أن يتذكر دائماً أن قيمة النجاح الصحيح أكبر قيمة في الحياة لأنه مبني على قوانين وقوى ، مثل القوانين والقوى التي بنى عليها هذا الوجود .

العامة يكثر من ترديد هذه الكلمة (الأعمال بالنيات) وهذه حقيقة ، ولكنهم يخطئون فهمها ، ويخطئون في استعمالها . فليس معناها النية التي دفعت إلى العمل هي وحدها التي تعين قيمته ، وليس معناها أن هذه النية أهم من العزيمة والصبر والجلد ، والعلم والخبرة والدهاء ، والاعتماد على النفس ، وغيرها من القوى التي اشتركت في تحقيق النجاح واستجلابه .

* المزيد : أول يوليو ١٩١٤ ، ص ٤ .

(١) عبارة مطبوعة في الأصل .

ومن الغريب أن بعض المفكرين ، يتابعون العامة في الحكم على الأعمال بالدوافع التي دفعت إليها لا بنتائجها والسبب في ذلك ، إما أنهم يخطئون معنى النجاح الصحيح ، وما يستلزمه من القوى الكثيرة وإما أنهم يرون أن بعض العاملين ينجحون بالرغم من كونهم أهملوا بعض الفضائل المدنية . نعم إن هذه الفضائل تردع عوامل الاعتداء التي في صدر الإنسان وتعدده لأن يتبع سنن الجماعات ونظاماتها ، ولكن الذي نسيه هؤلاء المفكرون ؛ أن النجاح أساسه القوة ، والقوة مصادرها كثيرة ، من فضائل شخصية أو مدنية . والنجاح يتطلب قوى وملكات وفضائل خاصة ولا يستقيم لأحد إلا بها .

إن أفراد الأمة القوية يتعلقون بوسائل النجاح ، ولا يحجمون عن العمل خشية الفشل . أما أفراد الأمة الضعيفة فإنهم يحجمون عن العمل خشية الفشل ، لأنهم لا يتعلقون بوسائل النجاح فيكون خوفهم من الفشل داعية الفشل . ويرجع ذلك كله إلى إهمال وسائل النجاح^(١) وينجح الرجل الضئيل . ولكن هذا العظيم على عظمته ، نسي حقيقة كبيرة وهي أن الإنسان لابد أن يؤهل نفسه للنجاح في الحياة ، كي ينتفع بمواهبه وينفع بها غيره . وقد تهنى على المرء تربته ، فإنها قد تعدده للفشل في الحياة ، خصوصا إذا كانت في نفسه صفات من الصفات التي تجعله مجاهد مستحيلا ، مثل ضعف ثقته بنفسه وتوكله على غيره . والحياة المفرط الذي هو في الحقيقة دليل من دلائل الضعف . وقد يتساءل العاجز عن الصفات والقوى التي يستجلب بها النجاح ، هل هي أجل ما يطمح إليه الإنسان ، وأشرف ما تتصف به النفوس أم هناك فضائل وقوى أعظم منها وأجل ؟ ولو بحث هذا السائل لوجد أن الصفات والقوى والملكات التي نجدها في نفوس الناجحين ونعدها ثمينة ، نادرة مثل الذكاء ، أو قوة المنطق والتفكير ورقة الشعور وجلال العواطف ، هي رخيصة جداً في نفوس العاجزين ، أهل الفشل . وهذا ليس بغريب ، فإن المفكر الذي جرع كأس التجارب ، يجد أن الكلمات والقوى النادرة لا قيمة لها في نفسها ، بل قيمتها في استخراجها واستعمالها وما ينشأ عنها من المؤثرات . كما أن الجواهر الكريمة أو المعادن النفيسة ، لا قيمة لها مادامت في بطن الأرض ، بل قيمتها إذا استخرجت وصادفت رغبة فيها أما إذا لم يوجد من يرغب فيها فلم تكن لها قيمة ، فلا ينبغي للمرء أن يحتقر تلك الملكات التي تعد ربا للنجاح في الحياة ، فإن ذمها إياها ، وهو لا يملكها يكون مثل دم عنقود العنب لأنه لم تصل إليه يده . ثم إن النجاح في الحياة يختلف مظاهره ، فقد يفشل المرء فيما يرضاه الناس له من الحياة وينجح فيما يرضاه لنفسه ، إلا أن نجاح المرء في الحياة يقاس بمقدار قواه سواء كانت مادية أو عقلية أو روحية .

(١) عبارة مطبوعة في الاصل .

يحسب بعض الناس أن فى تقديس النجاح ظلما وقسوة وغينا ، ولكنك لا تجد أحدا يقول بذلك إلا إذا خشى الفشل أما إذا كان من الرجال الذين لا يطفئهم النجاح ولا يكرثهم الفشل ، فإنه يجد من ثقته بنفسه ويعمله ما يعينه على استجلاب النجاح^(١) وحمل ، الفشل ولأجل ذلك تجد الأمم التى تقدر النجاح أكثر جرأة من الأمم الضعيفة التى تخشى أن تحكم على أعمالها بنتائجها ، لا بالدوافع التى دفعت إليها . غير أنه قد يخشى على الأمة الضعيفة ، إذا جعل أفرادها يقدسون النجاح أن يتعلقوا بمظاهر النجاح الكاذب . وهذا يتعلق بمظاهر النجاح دون النجاح ، ليس دليلا على القوة بل على الضعف . غير أن هذا التظاهر بالنجاح الكاذب ، يكون فى الجماعات التى تحكم على الأفعال بالدوافع التى دفعت إليها كما يكون فى الجماعات التى تحكم على الأفعال بنتائجها . غير أن الجماعات التى تقدر النجاح ، تعلمها تقديس النجاح التمييز بين النجاح الصحيح الذى يتخذ له المرء عدته من القوى المختلفة . وبين النجاح الكاذب الذى ليس له نفع ولا بقاء .

إن أجل ما يمتاز به الجماعات الغربية على الجماعات الشرقية ، أن الأمم الغربية أكثر تقديسا للنجاح . وهذا جعلهم أكثر تعلقا بالفضائل الشخصية ، مثل الاعتماد على النفس ، والعزيمة والصبر والشجاعة ، وغيرها من الفضائل الشخصية التى هى أهم من الفضائل المدنية والتى هى وسائل النجاح وعدته .

خليق بنا أن نعرف بالأثر الذى للدوافع والنيات فى تمييز الأعمال . ولكن ينبغى أن نذكر أن القضاء والمقادير لا يههما الدوافع ولا تعترف بها ، بل يههما النتائج وتعترف بها ، نحن نغايير المقادير وتختلف عنها فى شيء ، وهو أن النيات والدوافع تهمننا فنبغى أن لا نغالط أنفسنا ، ونخفى عنها قيمتها ولكن ينبغى أيضا أن لا نغالط أنفسنا ونخفى عنها ، أن النتائج قيمتها هى القيمة الكبرى . وإذا كانت المقادير والوجود كله يقدر النجاح فى كل مظهر من مظاهر الحياة ، فلم لا نقدر النجاح فى حياتنا وأعمالنا .

٦- قطعة من كتاب

رسائل الحب (١)*

مقدمة :

ان العواطف لا الآراء هي القوة المحركة في الحياة ومن أجل ذلك ينبغي أن لا يكون أدب اللغة ألفاظاً ميتة بل ينبغي أن يكون كالكهرباء يسرى في النفوس فيزيدها قوة .

ان أدب الامة في دور قوتها يظهر لك صفات القوة التي في عواطف نفوس أفرادها ولكن أدب الامة في دور ضعفها ألفاظ ميتة وتصنع فاطر ومن أجل ذلك كنا أحوج الناس إلى أدب يزيل عن نفوسنا ما يعلوها من صدا الدهور ويقوى عواطفها هذا الذي دعاني الى تأليف كتاب رسائل الحب وشرح عاطفته .

(رسائل الحب)

لقد رأيتك أمس أول رؤية فصرت أعتقد أن المعجز غير مستحيل الوجود لأني ما كنت أعتقد وجود مثل جمالك ولا مثل ما أحس به من الحب ، لقد كان لي عيناان فصار لي بعد رؤيتك ألف عين وكان لي قلب فصار لي ألف قلب وكان لي سمع فصار لي ألف سمع .

اني أسمع نبضات قلبي وكنت لا أكاد أحسها قبل رؤيتك وصرت أحس الدم يتدفق في عروقي وأسمع له خريراً وصرت أجد في الهواء الذي أنشقه حرارة الحب ، آه أنت جميل مثل النجوم الزاهرة والأزهار الناضرة أنت جميل مثل ضوء القمر على صفحة الماء ، جميل مثل الفجر جميل مثل الشمس جميل مثل النسيم جميل مثل الغدير بل أنت أجمل من هذه الاشياء لأنك جمعت في شخصك جمال الشمس والقمر والماء والفجر والنهار فأنت عنوان جمال الطبيعة وأيتها الكبرى . وما يدريك لعل هذه الكواكب المضيئة انما تضيء كي ترى فيها لمحة من جمالك وهذه الازهار انما تنضركي تعرف فيها طريقة من حسنك وهذا النسيم انما يرق كي ترى فيه شيئاً من رقتك وهذه الطبيعة انما خلقت كي تكون مرآتك .

(١) لم يطبع هذا الكتاب بعد

* البيان : ديسمبر ١٩١٥ ، ص ١٧٦ ومايلي

انى أحبك فى كل دقيقة من حياتى وفى كل نبضة من نبضات قلبى وفى كل نظرة من نظراتى وفى كل كلمة من كلماتى وفى كل حركة من حركاتى ، أنا تمثال حبك تقرأ فيه آية الحب والولاء والشقاء واللذة والألم .

أنت كالزهر جميل وأخشى ان تقتلك لفحة من لفحات حبى فإن حبى مثل ريح السوء التى تذبل الازهار وتذهب بنضارتها ، لا تخف يا حبيبى فإننى أستزيد بهذا القول من رحمتك واشفاقك واضحك فإن الحياة نكتة باردة غثة قبيحة جميلة يضحك المرء من بردوتها وغشائتها ، اضحك فإن فى ضحكك ألحانا وأنغاما ، انى أسمع فى كل ضحكك نغمة تهتزل أوتار القلب فأسمع فيه تغريد العصافير وأنغام العود والمزمار وغيرها من آلات الطرب ، انى أتمنى ان أنشئ من أنغام ضحكك أنغاماً تفوق أنغام بيتهوفن وفردى ووجنر .

لقد كنت أستمع وحى الشعر من الهواء والماء والضياء وغير ذلك من مظاهر الطبيعة ولكنى صرت أستمع من حبك الذى صار لى بمكان الهواء والماء والضياء فهو الهواء الذى أنشقه والماء الذى أروى به ظمأى والضياء الذى يملأ عينى ، ان حبك هو عندى حجر الفيلسوف الذى مامس معدنا خسيسا الا جعله نفيسا وكذلك حبك مامس نفسا خسيصة الا جعلها نبيلة ، ان حبك ليريق ضياء على ظلمات عبثى وظلمات نفسى كما يريق القمر ضوءه على الماء فيضيء ذلك النور أمواج العواطف التى تتضارب فى صدرى ، ان حبك يسرى فى مسرى الكهرباء فى الأجسام ، ان حبك هو العين التى أبصر بها واليد التى أبطش بها والسلاح الذى أصول به والعزيمة التى أناهض بها الأمور ، آه ما أتعس الحياة لولا الجنون . جنون اللذة والألم . جنون الحب والبغض جنون العواطف والمطامع جنون الأمل واليأس والشبات والجبن والهزل ، يا حبيبى أنت سبب من أسباب الجنون ، ان الله لم يخلقك عبثا ، ان الله خلقك كى يزين بك الحياة ويجعلك سبباً من الأسباب التى تثير العواطف وتستفز المطامع وتبعث الجنون وتوحى بالشعر ، ان حبك قد علمنى الرحمة ولكنه علمنى أيضا القسوة وقد علمنى الشجاعة ولكنه علمنى الجبن وعلمنى الأمل ولكنه أيضاً قد علمنى اليأس وقد بلغ بى جنون اللذة ولكنه بلغ بى جنون الألم ، انك لا يمكنك أن تعرف مقدار جمالك لأن ذهنك لا يقدر أن يحيط به كما أن البصر لا يمكنه ان يرى من أول الفضاء الى آخره ، انك لو عرفت مقدار جمالك لأصابك الجنون وسكرت منه وقمت ترقص سكرًا وجنونا ، أنت جمعت فى شخصك بين جمال السماء والأرض وجمال الجنة والنار وجمال الحياة والموت وجمال الخير والشر وجمال الصحة والسقم وجمال الصباح والمساء وجمال الليل والنهار ، أنت جمعت فى شخصك بين جمال الملائكة وجمال الا بالسة بين

الجمال الالهى المقدس والجمال الذى يحرك الشهوات ، أنت جمعت فى شخصك بين جمال الاطفال والفتيان والفتيات والرجال والنساء ، أنت جمعت فى شخصك بين جمال البرق فى السحاب وجمال المصباح بين الاشجار وجمال النجم فى السماء وجمال الحريق الهائل والشرارة الصغيرة وجمال الفكر وجمال العاطفة وجمال التقوى والورع وجمال الخلاعة ، أنت جمعت فى شخصك جمال الاشكال كلها والمطاعم اللذيذة والأشربة الحلوة المسكرة وجمال الفواكه وجمال الازهار وجمال الاشعار والآداب وجمال سائر الفنون الجميلة ، أنت جمعت فى شخصك طرفة من كل شىء جميل ، سمعته أو قرأته أو رأيته أو فكرت فيه أو هفا إليه قلبى وتبضت له أوتاره فأنت تارة مثل الربيع عليل النسيم كثير التفريد وتارة مثل الصيف المكسال ذى اللفحات والحر الذى يغلى له الدم فى العروق ، ومن أجل ذلك أشعر بحبك كما أشعر بالصيف، وتارة أنت مثل الحريف الكثير الثمار ، ولكنك أحياناً كالشتاء بارد القلب من عواطف الحنان والرحمة والحب ، أنت كالسراب فالسراب جميل مثلك مطمح مثلك ولكنه مثلك يغر ويخدع .

سأوحى الى البلابل بأشعارى وأرسل الطيور المفردة الى نافذة غرفتك فى الليالى القمرية التى تروق فيها الأحلام فتمتزج فى روحك أحلام الصيف التى تراها فى نومك أو يقظتك بأشعارى التى هى مثل أحلام الصيف وأناشيد البلابل التى هى مثل أشعارى وأشعة القمر الفضية التى تشبه أناشيد البلابل ولكن خيرا من ذلك كله سحر جمالك الذى هو أجل من أشعار الغزل والنسب وأحلام الصيف وأناشيد البلابل وأشعة القمر الفضية فاذا كرنى فى أحلامك فانى ليس لى نصيب من يقظتك وأرسل إلى فى تلك الاحلام شعاعاً من أشعة نور وجهك كى تضىء ظلمات نفسى وظلمات عيشى واذا قرأت فى شعرى شيئاً يسرك فاعلم انه مستمد من جمالك واذا رأيت فيه مالا يسرك فاعلم انه من نظم تلك الساعات من عمرى التى لم تضئها شعاعاً من أشعة نور وجهك فان نفسى فى تلك الساعات كظلمات فوقها ظلمات تجرى فى سمائها السحب التى تحمل الويل والدمار ومن تحتها ليج متلاطم كله أشلاء ورمم وبين السحب . والليج رياح هوج تعوى عواء الشكلى المجنونة وأكثر حياتى مثل هذه العاصفة لولا ما يضيئها أحياناً من أشعة نور وجهك ما يتاح لها أحياناً من السكينة الكاذبة الخادعة التى هى أشبه الأشياء بالسكون والكاذب الذى يأتى قبل العاصفة وينذر بها .

انظر الى النجوم فانى أنظر اليها عسى أن تلتقى روحانا هناك فى لحظة من تلك اللحظات البطيئة التى نرسلها اليها ، انى أحب النجوم وأحب الليل وسكونه وجلاله ، انى أحب أن أقف وحدى أنا والليل فأحس كأن الليل مخلوق حزين كبير الروح واسعها عظيم القلب وانما سكون

الليل واطراقه اطراق المفكر الذى ينظر فى الكون وأحواله وما يعتوره من التفسير ، أيتها
 النجوم أما يعتورك حزن أو ملال ، ياعيون الليل أما أن الليل أن يفيق من حزنه وتفكيره
 واطراقه ، أيتها العيون النعسانة أنت تطلين من سمالك علينا فتقع لحظاتك على مانعائيه من
 الآلام والجرائم والمصائب ، أيتها العيون أبريقك بريق القسوة والغلظة أم بريق الحزن والرحمة؟
 وأنت ماذا يهمك يا حبيبى من بريق النجوم وسواد الليل أنت آخر الفجر الباسم والعصافير
 المفردة والضياء والازهار فانتبهز فرصة جمالك وامرح فان الدنيا جميلة بك ولا تفكر الا فى
 جمال الحياة فان من كان يضىء لنا الحياة بجمالها خليك أن تكون الحياة فى عينه جميلة .

٧- عبقرية الفنون *

لا أذكر أكان جيتى الالماني او كرليل أول من عَرَفَ العبقرية بأنها اهتمام المرء لفنه وكده فيه اهتماماً وكداً لاحد لهما ، ولعل الثاني قد نقل هذا التعريف عن الأول . ولكننا نرى أن بين المشتغلين بالفنون من يقضى حياته لإحياء فنه فلا يكون فى فنه شىء من دلائل العبقرية ، وقد يقضى أناس ليلهم ونهارهم يحاولون أن يضرموا فى أنفسهم نارها فلا يظهر فيما يُذكرون من الفن بصيص العبقرية . واكثر من هذا أن أمثال هؤلاء قد لا يستطيعون ان يصنعوا فناً جميلاً لا عبقرية فيه . ففى هذه الحال لا يدركون فناً ولا يصيبون عبقرية حتى ولو كان اهتمامهم وكدهم لاحد لهما ، وبعض هؤلاء يقضون حياتهم فى عبث الفن ، فإذا رأيت تعيهم عجبت من تعب ونصب وأمل وعزم وإيمان وصبر ، وحسبت أن الذى ابتعث كل هذه الصفات فن خالد فلا ترى فيما يعبثون به من الجد أو ما يجدون به من العبث شيئاً خالداً . وليس أدعى إلى التأسف عليه والإشفاق به من يقضى حياته فى لغو الفن مؤمناً بأن العبقرية هى الاهتمام والكد اللذان لاحد لهما .

والعبرى يبعثه الشغف الى الاطلاع كما يبعثه الشغف الى الانتاج فهو يربح نفسه فى الحالتين حتى لا يكاد يحس كده واهتمامه اذا كان فى اطلاعه أو انتاجه كد ، وهو قلما يأخذ بأسباب فنه أو يزاوله الا بباعث خفى من نفسه كانه غريب عنه لا سلطان له عليه . وقد تتخلل فترات الاطلاع والأخذ بأسباب الفن ومزاولته والانتاج فيه ، فترات اخرى طويلة من فترات الركود تكون روحه فيها اشبه بالارض التى أعفيت من الزراعة لتستريح وتستعيد صفات الإنتاج .

ومن العبقرين من يحمل عبقريته كما يحمل المخاطر روحه على طرف سنانه أو رمحه يرمى بها كل مرمى وكأنه لا يرى لها قيمة .

وبعضهم كان يتأمل عبقريته كما يتأمل غيرها من أمور الحياة ويعلى او يخفض من شأنها كما يعلى او يخفض من شأن الحياة فى احوال نفسه المختلفة . وكأن لديه فى نفسه ما هو أعز من كل ذلك . فتعريف العبقرية انها اهتمام وكد لاحد لهما تعريف باطل لأن الكد ليس

بالصفة الخاصة بالعقريين أو العامة فيهم جميعاً . ولو أنه قيل إن الفنان هو الذى يرى ان للفن فرضاً يؤديه من كد واهتمام لاحد لهما لحسن المعنى . والعبقرية والفن كالدائرتين اللتين تشتركان فى شطر منهما وتختلفان فى شطرين .

مزاج العقري

ويقولون إن العبقرية مزاج منحرف عن الأمزجة المعتدلة وبالعقريون فى وصف هذا الانحراف ويقتصرونه على أهل العبقرية . والحذر فرض عند تدبر هذه المبالغة إذ الناس يتهمون بالشذوذ والانحراف كل من ظهر عليهم فى قول أو فكر أو فعل ويحسبون صنفاً خاصاً من اصناف الخليقة كل من غايرهم فى العقل وخالفهم فى القول والرأى .

وهذا الحسبان قد وقع فيه العلماء عند نظرهم فى حياة أهل العبقرية الذين يؤدون زكاة شهرتهم وظهورهم بالنظر الثاقب والرأى الجديد أضعافاً مضاعفة من آلامهم . ويقولون ان العبقرية ان تقوى ملكة من ملكات العقل وأن تضعف أخرى فينبغ الرجل من اجل اختلال التوازن بين ملكات عقله . ولكن ينبغى ألا ننسى ان انحراف المزاج والشذوذ فى الفكر أو الخلق أو العادة وأن اختلاف ملكات العقل فى النور أمور شائعة بين ذوى العبقرية ومن لا عبقرية لهم وهى توجد بمقادير متفاوتة فى العقريين قدر تفاوتها فى غيرهم وتختلف اسبابها فى أهل العبقرية كما تختلف فى غيرهم بين اثر الوراثة وأثر البيئة والحياة . فالنقاد يخطئون لمحاولتهم فصل ذوى العبقرية عن الناس فى تدبر صفاتهم إذا الحقيقة ان ذوى العبقرية يشبهون الناس فى اكثر محامدهم ونقائصهم وان المزاج المعتدل النظرى يكاد يشذ عنه كل انسان فى صفة أو صفات من تلك الصفات التى ذكرها النقاد وعدوها من خصائص المزاج المنحرف . وأهل العبقرية كما أنهم يشبهون الناس فى اكثر صفاتهم يختلف كل منهم عن الآخر فمنهم العاقل ومنهم شبه المجنون ومنهم المتزن وغير المتزن والقوى والضعيف والخير والشرير وإذا شئت فقل أن هذه الصفات تختلف فيهم مقاديرها كما تختلف فى الناس عامة فلا غرو اذا كانت الصفة المميّزة لهم وهى جدة الصنع والنظر توجد فى الناس ايضاً بمقادير مختلفة فى اطار مختلفة إلا انها جدة مصحوبة بشيء من صدق النظر والجمال ويعظم هذا الشيء كلما عظمت العبقرية .

نظر العقري الى نفسه

ولقد كان بعض ذوى العبقرية شديدي الإيمان بأنفسهم وغير هؤلاء على النقيض يزدرون ما يجيدون طموحاً الى مالم يصنعوا ويطلبون فوق كل إجادة . إجادة وطائفة منهم تتردد بين

الثقة والشك فتنتابها دورة أشبه بالدورة التى تنتاب أنفس بعض الناس من زهد وتكشف تارة ومن تمتع بالحياة تارة أخرى . ومن يريد ان يقصر العبقرية على طائفة دون طائفة يصنع صنيع الذى يحكم على العبقرين بغير ما يحكم به على الناس كما اوضحنا .

والحقيقة ان العبقرين فى نظرهم الى ملكاتهم كالناس ، فمنهم من يغالى بها ومنهم من لا يغالى ومنهم من كان الشك ينتابه فى كثير من أمور الحياة ومنهم من بلغ به إعظامه لعبقريته ما هو شبيه بداء العظمة ومنهم من كان يدفع بعظمته مكاييد الناس ومنهم من تعاطى العظمة لعرفانه أن الناس قلما يثقون إلا بمن يثق بنفسه ويعظمها وانهم تبهرهم مظاهر الايمان بالنفس حتى يعبدوا صاحبها كما حدث فى عصور التاريخ أو يتخذوه وسيلة الى الله أو يعتقدوا فيه العبقرية .

والعبقرى مثل غير العبقرى ليس بمعصوم من الخطأ فى نظره الى ملكاته كما انه ليس بمعصوم من الخطأ فى تفضيل صنع على صنع وهو قد يخطئ ، حيث لا يخطئ الفنان لأن هذا يتبع السبيل الموطأ والعبقرى بجنتاب الطرق غير الممهودة فيختط خطة وهذا عذر قد يلجأ اليه من لا يجيد إجادة الفنان ولا إجادة العبقرى بل يخطئ ، ويحيل خطاه على عبقرية موهومة .

العبقرية والاحتراف

ومن الناس من يريد أن يرغم الفنان على أن يجعل فنه حرفة يرتزق منها ومنهم من ينكر عليه ذلك والاحتراف واقع حتى ممن لا يرتزقون من فنهم وانما مما يكسبهم الفن من الجاه والأصدقاء ومعاونة أهل الرئاسة أو مما يكسبهم من الشهرة التى يستعينون بها فى جلب الرزق من حرفة أخرى مقاربة أو مباحدة لفنهم ولكن بعض الناس يريدون من الفنان أن يحترف فنه احترافاً مباشراً متصلاً بفنه حتى ولو ألقى به فى الطريق وشرده تشريداً ويطيلون فى الكلام المفخم المأخوذ عن صغار الفنانين الباريسيين الذين كانوا يقضون أوقاتهم فى احتساء الالبست وفى الطرقات والمقاهى ويقولون انهم يكتسبون خبرة بأمثال هذه الحياة . ومن الغريب أن أناساً آخرين يأخذون عليه الاحتراف ويعيبونه به ! وليس الاحتراف أو تقيضه من دلائل العبقرية . وسواء احترف المرء فنه أو لم يحترفه فهو فى الحالتين اذا عاش من أجل فنه كان خيراً ممن يموت من أجله لأنه يزاوله ويحييه . وأما الآخر فيموت فنه يموت . والتفكير السليم والخبرة بالحياة والناس والطبيعة لا تأتى فقط من طريق يشرده المرء نفسه فيه اختياراً .

ومن الغريب ان أناساً يلومون المحترف على احترافه وهم لا يلومون الطبيب أو المعلم أو المحامى ويقولون : ان الفنان المحترف قد يضطره احترافه الى ان يصنع ما لا يرضى عبقريته

وهذا أمر ليس بالمحتوم ولو حدث شيء منه لكان الفنان في هذه الحالة معطياً ما لقيصر لقيصر وما لله لله ولا يمنع هذا من إرضاء عبقريته أيضاً إلا إذا شغل احترافه كل حياته . وعلى أى حال لا أظن أنه يشغل بما يرضى عبقريته أقل ممن يحترف غير فنه وسيبقى ماهو جدير بالخلود بما أَرْضَى به عبقريته من الفن العالى وقد بهىء له احترافه الفن قرصاً لاتتھياً إلا به . ولن يحترف فنه على أى طرق الاحتراف سواء الاحتراف الواضح القريب والاحتراف غير القريب الذى وصفناه مزید كبيرة لانه يكتسب الخبرة والدربة والحنكة والاطلاع اكثر ممن يحترف غير فنه وإن كان للأخير فى بعض الاحايين نظرات جديدة كنظرات من يتبعد عن المنظر الحسن من مناظر الطبيعة كى يرى مالا يراه القريب . والمحترف فى أكثر الاحايين أكثر انتاجاً وإجادة لانه أكثر مزاولة لفنه . واعنى المحترف العبقرى فليس كل المحترفين من ذوى العبقرية وليس العبقرى مدفوعاً إلى الاحتراف لا محالة ، وإنما هى أحوال الحياة وقد يتفرغ المرء لفنه اذا احترف غيره فلا يصرف فرص مزاولة فنه فى البحث عن الرزق . ولكن لما كان الفنان قد تنتابه عوارض بقطة الوعى الباطنى ليلا فإن الأرق بضنيه اذا لم تتح له فرصة الراحة نهارة .

هالى أم محلى

الفن العالى يصلح لكل مكان فان العقول والنفوس لا تختلف فى جوهرها وان اختلفت فى أذواقها وهذا الاختلاف لابد من مراعاته عند النقل . واذا لم تكن فى الفن فكرة عالمية ، لم يكن فيه شعور عام انقلب الى ملح ونكات محلية والأعيب لفظية أو معنوية تروج فى مكان دون مكان وقد يكون فنها جميلاً مليحاً ولكن مكانته دون مكانة الفن العالمى . والفن العالمى قد يكون مقروناً بثقافة عالية وقد لا يكون مقروناً إلا بثقافة تنشأ عن مزاولة الفن والتمرس به دهرأ حتى تسقط عنه أخطاؤه التى تنبؤ عن أصول الفن الصحيح .

فالفن العالمى قد يكون آية فى البساطة والسهولة وقد يكون مقروناً بالثقافة الكثيرة والسهولة والبساطة لا ينفيان الثقافة على أى حال .

والثقافة نوعان ثقافة العلم والفكر وثقافة التشذيب والتهديب والمزاولة والخبرة . ولكننا نستنكر أن يقهر الفنان ثقافته كى يروج فنه بين من لاثقافة لهم إلا أن يكون فى قهر بعض ثقافته داع الى إعظام فنه وكماله وإتمام قوته وخلاص له من الشذوذ الرخيص الفاتر المخل . ولكن هذا قهر ثقافة بثقافة فنية أعظم قيمة وليس من قبيل قهر الثقافة من أجل إخراج فن للعامة . ولو حاز هذا الأمر فى صنع لما جاز فى كل اعمال الفنان .

وليس الفن الجميل العالى فى مقدور كل انسان فى كل وقت حتى يقهره على مالا تشاء
 العبقرية والثقافة والوعى الفطن . والفنان الكبير له اثران : اثر فيمن يستطيع أن يدرك كل
 مرامى فنه واثر فى الآخرين الذين يتأثرون من يستطيع ادراك كل مرامى فنه أو بعضها . فالفنان
 الكبير أشبه باثر الحجر يرمى به فى الماء فيصنع فيه دوائر متعددة تعظم وتتسع حتى
 يشمل أثر الحجر سطحاً واسعاً من الماء بعد أن كان أثر وقعه فيما حوله من الماء وهذا ايضا اثر
 الفنان فى شعبه . ومن أجل ذلك كان أكثر عظماء الفنانين عالميين لأنهم انما يعبرون عن جوهر
 العقل البشرى والنفس البشرية أينما كانت وعن الطبيعة فى مظاهرها التى يشترك فى
 استجالاتها كل انسان ويلتذ جمالها كل ذى لب مهما اختلفت مظاهر جمالها .

٨- تركة التاريخ *

فى نفوس الشعوب الضعيفة

تختلف الأخلاق باختلاف الأمم الى حد كبير وليس معنى هذا أن أمة تخلو أفرادها من صفة حميدة أو ذميمة فكل الصفات حميدها أو ذميمةا فى كل نفس وفى كل أمة وإنما تختلف مقادير تمكن الصفات من النفوس . والحكم على اخلاق نفس أو أمة إنما يكون بحسب ما فيها من الصفة سواء كانت حميدة أو ذميمة فإذا كانت الصفة ضعيفة لم تكن مما توصم أو توصم به وإذا كانت شديدة كانت من خصائصها . والتاريخ هو مجموع العوامل التى أثرت فى نفوس الأفراد والأمم من عوامل جغرافية واجتماعية وغيرها وهو يدلنا على ما تتصف به النفوس وما يغلب عليها من الخصال ومالا يغلب عليها . فعند دراسة التاريخ لابد من دراسة مؤثرات الجغرافية البشرية اذ لكل بيئة خصال واخلاق مرجعها الى طبيعتها فترى البدو على خصال غير خصال الحضرة وترى سكان الجبال موسومين بخصال يرجع اثرها الى طبيعة ارضهم ومناخهم وخصالاتهم . فالشجاعة والكرم والجند والصدق والثبات واضدادها يمكن ردها الى البيئات التى تنبت فيها كما ينبت النبات ويمكن تمييز البيئات تنشأ فيها . ويستطاع معرفة مدى اثر البيئة فى حياة القوم الاجتماعية ثم ان حياة القوم الاجتماعية هى مجموعة مؤثرات منها ما يزيد او ينقص من أثر المؤثرات الجغرافية . وقد ينتقل قوم من مكان الى مكان مغاير للاول فتختلف صفاتهم النفسية بمرور الأزمان أو قد يختلف بعضها وضوحاً وشدة وثباتاً أو ضعفاً وانحلالاً وقد تغلب على نفوس القوم صفات من مكانهم الجديد وهى قد كانت أقل وضوحاً فى مكانهم القديم وقد يكتسبون فى مكانهم الجديد أنواعاً أخرى من الصفات والقوانين والشرائع وأنظمة الحكم لها آثار فى الحياة الاجتماعية بعيدة المدى طويلة العمر باقية على التاريخ فتندمى فى النفوس صفات القوة أو صفات الضعف وهى وليدة المؤثرات الجغرافية الى حد كبير اذ تختلف النظم والشرائع والقوانين كاختلاف البيئات الجغرافية ولكن اختلاط تلك البيئات واتصال شعوبها يؤدى الى انتقال القوانين والنظم من مكان الى مكان على مرور الأزمان إلا أن انتقالها أسرع من انتقال الاخلاق والصفات من النفوس . فالنظم والقوانين تنتقل بالهجرة أو الغزو أو المصاهرة أو التعلم أو المحاكاة . وقد تترك المؤثرات الاجتماعية أثرها حتى بعد زوالها

فتبقى الآثار أجيالاً فى بعض الاحايين وقد يزول بعضها ويبقى البعض أو قد تبقى كلها معدلة محورة .

واذا نظرت الى شعب درج فى عصور التاريخ المختلفة على العزة والمنعة والقدرة وجدت فيه صفات تختلف عن صفات الشعب الذى درج فى عصور التاريخ على ضد تلك الحالات . وقد تتبدل عزة الشعب الاول وتزول فتبقى فيه صفات العزة عهداً طويلاً وقد تتبدل حالة الشعب بأن تزول ذلته كما تزول شرائعه القديمة فتبقى فيه صفات نشأت من العصور القديمة فتظهر فى نفوس آحاده صفات وضیعة حتى ولو ظهر الشعب بمظهر العزة والنهوض . لأن الحكم يكون بالصفات المتأصلة فى النفوس ومظاهرها فى حياة الناس ويكون الحكم على مثل هذا الشعب لامحالة برد هذه الصفات الى مسبباتها القديمة . ولا مناص من ذلك ولا يمكنه أن يخفيها عن أحد أو أن يرغم احداً على القول بذهابها الا اذا استطاع ان يتخلص منها وصحت عزيمته على ذلك واتخذ العدة للنجاة منها . اما ادعاء العزة والظهور بمظهرها والغضب من وصف مظهر منه بما يحسب أنه قد خفى فلا يزيد إلا تمادياً فى صفاته القديمة واعتزازاً بها وهو يحسب أن انكارها خلاص منها كما يحسب الكاذب أن انكار كذبه يجعله صادقاً فى حين تكون صفاته القديمة كالطابع أو الختم لا مفر له منه . وكل ما يمكن أن يقال فيه انه شعب تبدلت أحواله فظن انه قد تخلص من آثارها أو هو يغالط نفسه من العجز ويحسب ان فى مغالطة النفس تخلصاً منها لعجزه عن الأخذ بأسباب التخلص . وحسبانه هذا قد يكون اما من الجهل بشؤون الحياة والعالم والتاريخ وأما لانه يعتز بمخلفات وضیعة يفتتها فى الظاهر ولكنه يعتز بها لانها صارت نفسه ومن الذى لا يعتز بنفسه ولا بطلبها بطلاء العزة ولا يتخذ من صفات الذلة قوة وعضداً وهى قوة وعضد كما سنوضح الا انها قوة تمنع الضعيف من الفناء ولكنها لاتنهض به فخصال الذلة انما نشأت كى تقى الدليل من شر سطوات القوى ولكنها لم تنشأ كى تنهض به الى مرتبة الثانى . وهذه الخصال هى الحسد والمكر والكذب والخنا والتعاون على الدس والغيبة والتهميمة والرياء والبذاءة والقسوة والنفاق والغش . وسنوضح لماذا نشأت هذه الصفات فى الأذلاء كى تقيهم سطوات المقتدر واذا اجتمع فى وسط من الأوساط أثر هذه الصفات التاريخى وأثرها الناشئ من ضرورتها بسبب ازدحام السكان وما يكون بسبب ازدحام السكان من التقاتل على الرزق كانت هذه الخصال فى أشد حالاتها وأرذل درجاتها وأحط بميزاتها وظواهرها وقد نشأت هذه الخصال من سنة الاستعاضة فى الطبيعة وهى سنة عامة فى الطبيعة التى تعوض على المرء صفة بدل التى يفقدها فاذا فقد القدرة عوضته هذه الصفات كى يدرك بها القدرة ويحمى نفسه . وانما مثلها مثل الجرائم التى تنشأ فى الجسم كى تحارب الجرائم الاخرى الساطية عليه التى

تريد أن تغتاله . والطبيعة تعوض الحيوان عما يفقده فالاعشى يعوض عن بصره خيالاً واحساساً لما حوله وكذلك النفوس المستضعفة تعوض على مرور الزمن من المكر والكذب والحسد والنفاق والبذاعة ماتصوّل به اذا صالت وماتدرا به القدرة وهذه صفات مشاهدة في الشعوب الضعيفة التي تعاني أثر العصور القديمة وقد ينتهى أجل الذلة التي سببت هذه الخصال فلا تزول بزوالها لأن هذه الصفات تكون قد أصبحت طباعاً موروثه جيلاً بعد جيل وقد تكون مقطوعة الصلة بالضرورة التي دعت اليها في أوساط الأذلاء عندما كانت هذه الصفات قائمة مقام القدرة . أما القدرة نفسها فتشاهد مصحوبة بضد هذه الصفات لأن المقتدر في غنى عنها فالأذل في حاجة الى الكذب كي يخفى به عيوبه وكي يحط به من قدر منافسية في الحياة . اما المقتدر ففي قدرته حماية تسهل عليه الاعتراف بالخطأ اذا أخطأ وفيها أنفة تأبى إلا ان تنافس الاجادة بالاجادة وتأبى إلا ان تناضل القوة بالقوة لا بالكذب والمكر والدس والغيبة والنميمة والحسد واللؤم وغيرها من الصفات التي يلجأ اليها العاجز بحكم نفسه او بحكم ماضيه وماضى قومه او حاضره . فهذا لاحياة له إلا بان يناضل بأمثال هذه الصفات وهذا أمر بدهى . ولاشك ان هذه الصفات هي درع العاجز وسلاحه في معترك الحياة وتكون عوضاً له من القدرة . وسنة الاستعاضة هذه في الطبيعة ليست مشاهدة في حياة الانسان فحسب بل في حياة الحيوان والنبات ايضاً وقد تنتهى الذلة التي سببتها فتبقى صفاتها وهذا هو ما يضل الباحث اذا يرى عند غير الذليل كذباً وحسداً ومكراً وخداعاً ونميمة وغيبة وقسوة وغشاً فيراها عند العزيز وعند المقتدر او عند من يظهر بمظاهر العزة والقدرة فيضل عن سبب نشأتها وعن حقيقة استفعالها في نفوس الأذلاء وظهورها فيهم أكثر من ظهورها في نفوس الأعزة المقتدرين وتستفيض كتب القصص والتاريخ التي تدل على استفعال هذه الصفات في نفوس الأرقاء ايام كان الرق شائعاً . فالكذب والغيبة والنميمة والدسائس صفات نقرأ لها نواذر كثيرة في حياة الأرقاء وقد شوهدت غلبتها في الامم الذليلة بحكم ماضيها او حاضرها وفي الاوساط التي تعثر بها الذلة بسبب التقاتل على الحياة الناشئ من كثرة السكان وازدحامهم وشوهدت اضداد هذه الصفات في اضداد هذه البيئات واذا انتقل انسان من بيئة ماضيها اعتراه الذلة إلى بيئة أعز أحسن أن أحاد البيئة الاعز أسرع إلى تصديق محدثهم من أحاد البيئة الأذل لأن الرجل في الثانية تعود أن يكذب وأن يسمع الكذب فهو لايسرع إلى تصديق محدثه إلا لهوى في النفس أو إذا ادعى التصديق وهو مكذب . ومن أجل ذلك يدعى الرجل في البيئة الأذل أنه أذكى من الرجل في البيئة الاخرى لانه يفتن الى خداع المخادع ويسىء الظن بالقول والعمل حتى ولو كانا صالحين . بينما قد ينخدع الرجل في البيئة الاعز

لانه لا يفترض الكذب فى الناس قدر افتراض الاول وهذا هو السبب الذى جعل آحاد البيئة التى تذيب فيها صفات الذلة يدعون الذكاء النادر لأهمهم وقد يدعون القدرة والعزة لان الكذب والحسد والنميمة والغيبة والمكر تقوم القدرة فى حياة العاجز بحسب سنة الاستعاضة فى الطبيعة التى وصفناها .

وقديماً قال مؤلف الخرافة القديمة عن آلهة الخرافات (عبثاً تحاول الآلهة ان تتغلب على قوة الجهل والغباء) فجعل للجهل والغباء قوة وكأنه قد فطن الى سنة الاستعاضة الطبيعية التى وصفناها . وما يصدق فى حياة الانسان يصدق فى حياة الحيوان أيضاً لان الحاجة واحدة فالتغلب اضعف من الاسد وهو أيضاً أكثر مكرأ ودهاء وكذبا . وبذاءة اللسان النما نشأت فى أول الامر لتحمى الضعيف من سطوات القوى وتشمل البذاءة اللعنات المخيفة والدعوات المفزعة وهجر القول وكلها أشياء قد يتجنبها المقتدر ويزهد فى أن يناضلها وهو لا يزهد فى أن يناضل القدرة بالقدرة . ويعرف ذلك الأذل فيحتمى بها . ولا تزال البذاءة أقرب إلى السنة الأذلاء والارقاء وذوى العاهات . والمرأة اذا فقدت حياءها كانت أبرع فى الشتائم من الرجل وأسرع اليها منه . ثم تدرج الناس إلى استخدام البذاءة فى غير ذلك خصوصاً فى الأوساط التى يشتد فيها التناحر على المعاش او على الظهور فى الحياة ولكنها فى أولها ناشئة من سنة الاستعاضة الطبيعية واجتماع هذه الصفات كلها واستفعالها فى شعب قد يحرمه السعى لتمكين اضدادها من صفات القوة فى نفسه اعتزازاً بصفات الذلة لما قد يظهر فيها من الذكاء الرخيص كما أوضحنا ولانها استعويض بها عن القدرة فظن انها قدرة وقوة وعلى قدر تمادى المجتمع فى صفات الذلة هذه يكون بعده عن مراقى الرقى والنهوض مهما فاخر بالنهوض لان صفاته هى صفات التخاذل والأثرة والغش التى تحبط الأعمال العامة وتمنع من الثقة المتبادلة بين آحاده . ولا يفتن القوم إلى أن صفات الذلة هذه وان كانت قد حالت بينهم وبين الفناء لاتصلح للنهوض فهى أداة بقاء لا أداة ارتقاء وهى إذا التبست عليه واختلطت بأضدادها كانت كما يختلط الأمر على الإنسان فلا يميز بين الوقاحة الناشئة من فقدان الحياء وبين الشجاعة المصحوبة بالحياء والأولى من صفات الأذلاء بالرغم من مظاهرها وهى أشد ماتكون فى الرقيق اذا تحكم وفى المرأة اذا بذلت فإذا تدبرنا كل هذه الأمور علمنا ان تركة التاريخ فى النفوس كثيراً ماتكون تركة مثقلة بالديون .

إذا نظرنا فى تاريخ مصر القديمة ونقوشها التى تصف أخلاقها رأينا النقوش فى اواخر الامبراطورية الحديثة تصف صفات الضعف التى ذكرناها وتندد بها وتلوم عليها واذا راجعنا

تاريخ الدولة البيزنطية الاغريقية الرومانية رأينا فرقاً كبيراً بين الرومان في اول نشأتهم عندما كانت صفات القوة النفسية ظاهرة موصوفة مأثورة عنهم مذكورة في كتب تاريخهم وبين الرومان والاغريق في أواخر عهدهم عندما صاروا الى صفات الضعف النفسى من مكر وكذب وكيد ونحاسد وتخاذل وتنابد وغيبة ونجاسة وغش ونعنى ان هذه الصفات صارت أوضح اثرأ في حياتهم وتاريخهم وقد كانت ولاشك موجودة من قديم الزمن شأنها في كل زمن ومكان ولكنها نمت وكان نموها كى تكون كدرع يتقى بهاء الضعيف القوى شأن نموها دائماً في النظم الفاسدة والأوساط المختلفة على أن نمو هذه الصفات وتكاثرها كان له اثر كبير في زوال هذه الأمم وفنائها فهذه الصفات المنحطة هي أداة بقاء الى حد ما ولكنها اذا تكاثرت أضعفت جسم الامة وأدت الى زوالها .

٩- عظمة الهجرة *

يتخذ الناس من غير الحوادث مثلاً للكمال فى الخلق وشعاراً يذكر بما ينبغى أن يسلكوه وما يجب التنزه عنه من عمل أو قول ، ويكون لهم كالألواء يجمعون أمرهم حوله ، وكالحكمة يسترشدون بهداها ورشدها ، وكالحدا للركب يعينهم فى قافلة الحياة وكالرمز يرجعون الى مدلوله فى كل أمر حازب ، وكالعماد يعتمدون على قوته وعونه ، وكالامام يأتون به .

وقد لا يستطيع المرء فى كل حال من أحوال الحياة ألا يزايل شعاره ، فقد تخونه نفسه أو تخونه الحوادث فيسلك مسلكاً لا يشاكل شعاره ، ولكن المرء بخير إذا لم يمزق شعاره بأساً من أجل عجز عارض لا يلبث أن يزول ؛ والمرء بخير أيضاً مهما تعددت سقطاته عن شعاره ومثله مادام له مثل يأتى به فى فعله وقوله ؛ وإذا كان اتباعه له فى القول أكثر من اتباعه له فى الفعل ، فهذا أيضاً خير من ألا يكون له مثل يقده ، وله فى نفسه أثر قل أو كثير .

وفى الهجرة النبوية لنا مثل وشعار ورمز إذا اعتبرنا بأسبابها وحوادثها ؛ وهو رمز ذو معنيين : معنى فيما ينبغى أن نتجنبه من مشابهة المشركين فى اضطهاد الحق والعقيدة النفسية والفكرة التى تنبعث منها ، ومعنى فيما ينبغى أن نتخلق به من الاتعناء بالنبي صلى الله عليه وسلم فى أباته مزايلة الحق وصونه ، وفى نصرته بالرغم من اضطهاد وضيق ، وفى الاعتماد على الله فى الشدة .

ولكل من المعنيين فى الحياة شواهد وأمثلة وأمور تستدعى ذكرى الهجرة النبوية وذكرى حوادثها الجليلة .

ولو استطعنا أن نذكرها فى كل أمر من أمور الحياة كان ذكرها خيراً من ذكرها فى تاريخ واحد معين ، على ما فى ذكرها فى هذا التاريخ الواحد المعين من خير وفضل وحمد أى الناس لا يضطهد الحق فى أمور كثيرة من الأمور اليومية إذا كان فى اضطهاده إياه كسباً ورزقاً ، أو ثناء وحمداً ، أو راحة ودعة ، أو أرضاء عزيز ، أو زلفى لدى كبير مسيطر محكم عليه ؛ وحتى عند تخيل نيل الكسب غير المحقق نيله ، وعند الأمل فى الزلفى التى قد تخيب ، يضطهد الناس الحق فى أمور الحياة وروحهم روح المشركين ولفظهم لفظ المؤمنين . ثم هم قد يعدمون حتى لفظ المؤمنين فلا يكون لهم من الايمان إلا اسمه هؤلاء لم يتعظوا بعظة الهجرة ،

ولم يتنزهوا عن الروح التي اضطهد المشركون بها النبي صلى الله عليه وسلم . وأمثال هؤلاء لا ينتفعون بأحياء ذكرى الهجرة النبوية مهما اشتغلت أبدانهم بأحيائهم من غير أن تشتغل قلوبهم بعظمتها ، ومن غير أن تتنزه نفوسهم عن مشابهة المشركين في اضطهاد الحق .

يقول المسيحيون : إن كل من يضطهد الحق في أمر من أمور الحياة يضطهد عيسى عليه السلام ، ويعين أعداءه عليه ، ويعادى روح الحق الذي جاء به ؛ ونحن نقول مثل هذا القول عند ذكرى الهجرة النبوية وهي ذكرى اضطهاد المشركين للحق الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ، فكل من يضطهد الحق في أمر من أمور الحياة يضطهد روح الحق الذي جاء به النبي الكريم سواء أكان اضطهاد الحق في أمر من أمور الحياة طمعاً في مغنم أو في دعة أو صداقة أو زلفى .

وخير شعائر الدين ومواسمه وأعياده وذكره وتواريخه الجليلة مثل تاريخ الهجرة هو في أن تحول بين المرء وبين عاداته في قلب الفروض الخلقية إلى مسميات بحسب ترددتها على لسانه عقيدة وإيماناً ، وما هو بإيمان إذا كان لا يعتديها ، وإذا كان يشارك المشركين ويشابههم في اضطهاد الحق طمعاً في مغنم أو دعة أو صداقة أو زلفى ، فيعادى الصديق في القول والعمل والعدل فيهما أيضاً ، ويعادى الوفاء ومكارم الأخلاق ، وهو إذا عادها كان معادياً للحق الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا هو المعنى الأول الذي نعتبر به في أحياء ذكرى الهجرة النبوية ؛ والمعنى الثاني متصل به وهو قوة وعماد نصر ، وهو الاعتماد على الله كما في الآية الكريمة التي وردت في حديث الهجرة : (إن الله معنا) .

كنت في بعض الأحيان أزور صديقاً لى من عاداته إذا اتخذ شعاراً أن يكتبه في لوح كبير ويضعه أمامه ويذكر نفسه به ، وكنت أرى على جدران منزله هذه الآية الكريمة مكتوبة بخط جميل في لوح كبير ، وكان كلما دهمه أمر وكرثه خطب وأحس أنه لا يكاد يقوى على احتمالها ينظر إلى هذه الآية الكريمة فيقوى بها على المصائب ، وكانت له عوناً كبيراً في الحياة ؛ وهذا من فضل أحياء ذكرى الهجرة النبوية ، ومن فضل الاهتمام بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وطوبى لمن يستطيع مهما نالت منه المصائب أن يقول : (إن الله معنا) ، وطوبى لمن روض نفسه على الحق والعدل والصدق في القول والعمل ، وتنزه عن روح الاشرار ومعناه كما يتنزه عن لفظه واسمه ، وجعل عظام الهجرة شعاراً له في كل أمر من أمور الحياة ؛ بل طوبى للإنسانية لو أن كل إنسان أخذ بروح من تلك العظام ولم يجعل الغيرة على الحق والعدل حبال كسب لاحقيقة لها في نفسه ، ولم يجعل الفروض الخلقية مسميات يتباهى بترديدها .

لقد حدثت نفسي فقلت ماذا كان يكون لو أن النبي صلى الله عليه وسلم قد رجع الى هذه الحياة الدنيا كي يرى روح الحق الذي جاء به ، ولكي يقيم الحجة على الناس . هب أنه لم يذكر لهم اسمه وشاء أن يعرف كيف يلتقون الحق في شخصه من غير أن يعرفهم بنفسه . إنهم كانوا يرون رجلاً دأبه الحق والصدق والقصد والعدل في القول والعمل ، وأنهم كانوا يرون رجلاً يطلب منهم كل هذه الصفات في أمور حياتهم وهو مطلب يثقل على نفوس الناس ، وهم دنيويون يريدون من الصفات ما شابهها في المظهر وخالفها في الحقيقة ، ويريدون المكسب والجاء من أي وجه وبأية وسيلة ، فماذا كانوا يصنعون لو أنهم لم يعرفوا أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي يريد منهم روح الحق . أكبر الظن أن مأساة اضطهاد الأولين له كانت تتجدد ، وأكبر الظن أننا كنا نرى هجرة ثانية مثل الهجرة الأولى ، ولكنها ليست هجرة على التخصيص من مكة إلى يثرب .

١٠ - حيل الضمير *

الضمير عند بعض الناس ترس الخائف الذي يحتذى بمجته ، وهو عند غيرهم سلاح الصائل ، وعند آخرين آلة نصب واحتيال ، وعند غيرهم بمنزلة الثياب الجدد التي يلبسونها أيام الأعياد والمواسم والصلوات ويخزنونها في الأيام الأخرى وهو تارة كالمصباح المنير . وترى كثيراً من الناس يكثرون من ذكر ضمايرهم أو يفعلون ما هو أدهى من ذلك فيكثرون من ذكر العدل والحق ، وهي لقيعات بطريها كل منهم ويود أن يضعها في قم غيره ، وهي أحمال وأثقال يمدحون الاضطلاع بها وكل يود أن يضعها على كتف غيره أو على عنقه ، وما ذلك إلا لأن الناس ينشدون السعادة ، والسعادة لا تكون إلا إذا اصطلاح شر الحياة وضمير الانسان ، وإذا اصطلاح المثل الأعلى ومثل الحياة الدنيا ، وقد يكون فكر المرء وقوله خيراً من خلقه وفعله ، لأن أعمال المرء رهينة بإحساسه لا بفكره وقوله ، وقد يكون فكره نبيلاً وقوله جليلاً ولكن إحساسه يدفعه إلى سبيل غير سبيل هذا النبل والجلال في القول والفكر .

ولما كانت الرذيلة أخرج الأشياء إلى مظاهر الفضيلة عم الكذب والرياء بين الناس انتفاعاً بمظاهر الفضيلة وحقيقة الرذيلة من كسب أو متعة . وهذه المظاهر تجوز على الناس ويعسبون بها فضيلة أو هم يدعون الاتخاداع لها رغبة في التقرب إلى صاحبها والانتفاع برضائه عن اتخادعهم بظواهر نفسه ، وهذا منشأ انقلاب أوضاع الحياة ، وهم يطلبون منه أن يدعى الاتخاداع بظواهر نفوسهم كما ادعوا الاتخاداع بظواهر نفسه ، والمسألة كلها مسألة كسب يتبادل فيتعاونون على الحياة بتزكية كل منهم الآخر .

وللضمير وسائل أخرى لتزكية النفس كأن يخلق صاحبه عيوب نفسه على غيره ، ويلج في معاداته كي يبرىء نفسه فتكون لجأته في خلق عيوبه على غيره دليلاً على عيوبه كما تكون لجأته الأجرب في الحكم دليلاً على موضع الجرب منه في نظر الطبيب .

وكثيراً ما يتمحل الضمير الأعذار من أجل رغبة صاحبه في الأذى ولذته في الإساءة إلى الناس ، وعوامل الشر في نفس المسيء قد لا تكون في حاجة لمسوغ يثيرها ولكنها تكون في حاجة إلى فرصة تستخدمها حتى ولو لم يكن لها مسوغ ، فان مسوغ الإساءة في كثير من الأحيان في نفس المسيء لا في عمل من أسىء إليه لأن كثيراً من النفوس بها شهوة إلى

الأذى إذا أرضتها أحست راحة وسعادة في إرضائها ، غير أن بعض شهوات الأذى لا يرضيها إلا ما أرضى نفوس قدماء الرومان عند رؤية الوحوش تفتك بالأجسام ، وبعض شهوات الأذى تكتفى بالغيبة والنميمة والكذب ، وعواقب هذه قد لا تقل عن عواقب تلك جرماً وجناية وإن كان صاحبها لا ينعت بالمجرم الجانى وإن كان ضميرها أهناً الضمائر بالاً وأرواحها خاطراً .

والضمير كثيراً ما يكون في الحياة كالسفينة الصغيرة في البحر المحيط الذي حاجته الأعاصير فقد لا تفرق السفينة كما لا يفرق الضمير ولكنها تضطر أن تسير في مهب الأعصار كما يسير الضمير في مهب أعاصير الميول النفسية وما تقتضيه من كذب ونفاق .

والكسب والجاه والصدقة والغرور هي العقاقير التي تخدر الضمائر بها ، وهي البلمس الذي تداوى به آثار وخزائنها ، وهي المادة اللزجة التي تطلّي بها الضمائر كي يصطاد بها أصحابها طيور السعادة واللذات والمكاسب كما تطلّي الغصون بتلك المادة اللزجة التي تلتصق بها العصافير على غصون الأشجار ثم يأتي الصائد فيجمعها أو هي المادة اللزجة الأخرى التي يطرد بها الذباب اللاذع المسمى بخواطر التأنيب والوخزات .

ومن أجل ذلك كثيراً ما ترى ضمير المرء عوناً للجانى الذي يرجى نفعه أو جاهد أو وده أو يرجى منه أرضاء غرور صاحب الضمير المناصر له . والناس في سرائرهم يعرفون أن ضمائرهم ليست دائماً مصباح الهداية الذي يدعونه ، والإنسان يتجنب فحص نفسه والبحث عنها ، وإذا كلف أو دفع إلى ذلك حاول التخلص من فحص نفسه فيقلب فحصها إلى حديث فيحدث نفسه أو يتحدث ويمنبها أو تقيده ، ثم يعود فيقول إنه فحص نفسه وهو قلما يفعل ذلك إلا إذا دهمته مصيبة تجعله يشك في نفسه فيفحصها فإذا لم تدهمه مصيبة تجنب فحص نفسه إلا إذا كان مريضاً بداء الخوض في النفس وفحصها وقد يكون مريضاً إذا استفحل وعم وتطلب منه كل وقته ، ولكن مرض البحث في النفس هذا مرض نادر في الناس وأكثرهم لا يبلغ به البحث في نفسه منزلة صغيرة أو كبيرة ولو أن هذا البحث في النفس أصبح عادة لقل شرهم من غير أن يمنعهم بحثهم من الأقدام في الحياة إلا إذا استفحل وهو قلما يستفحل فيدعوهم استفحاله إلى الشك والتردد والإحجام واتهام النفس في كل أمر .

ولولا أن الناس يعلمون عن عيوب ضمائرهم وضمائر الناس الشيء الكثير الذي يحاولون إخفاءه ماكثر سوء ظنهم بالنفس الانسانية ، ومن العجيب أنهم يحاولون جعل حسن الظن بالنفس الانسانية مبدأ عاماً وهم في سريرتهم يسيئون الظن بكل نفس من نفوس الناس ، وهذا الاختلاف بين المبادئ النظرية والمعتقدات العملية أمر تشوق دراسته ، والقصد من تلك

المبادئ النظرية حمل الناس عليها للاحتجاج بها لأن كل إنسان يود أن يحسن غيره به الظن وأن يسيء هو الظن بغيره ، ومن عجائب الضمائر أنها قد تغرى أصحابها بأن يعتقدوا إذا حلت بأعدائهم مصيبة أن المصيبة حلت بهم لأنهم أعداؤهم .

والخبرة بالضمائر ينبغي أن تحذر المرء إذا رأى متخاصمين فلا يقول إن أحدهما فاضل ذو حق والآخر ناقص ذو باطل ، وقد يكون الأكثر حقاً هو الأكثر حظاً من الفضيلة ، أو بالعكس قد يكون الأكثر حظاً هو أقلهما حظاً من الفضيلة ، وقد يكون المناصر للحق والفضيلة بشعوره وعواطفه وبيانه هو أقلهما حظاً من الفضيلة ، ولكن النفوس قلما تتقصى كل هذه الأمور ولا أهون عندها من أن تحكم بغير علم وأن تورط ضمائرها فيما حكمت بغير علم ، ومع هذا التورط فإن الناس قد يعرفون أن جليسهم غدار مفتارى بلدىء اللسان فلا يمنعونهم يقينهم وعرفانهم من مؤاخاته ، وتتغابى ضمائرهم وتتعامى عن عيوبه وعن شره وقبح نفسه مادام مرجو النفع ، فضمائرهم تتورط فى الحكم بغير علم وتمتنع عن الحكم على علم .

وفى الخليقة صنف آخر من الضمائر تكون أسقاماً عند أصحابها وتعظم عيوبهم فى أعينهم ، وهذا مرض نادر مثل مرض إيفال المرء فى فحص نفسه .

وضمير صاحب الشعور النبيل له أن يطالب بالألّا يعاقب على نبل شعوره ولكن ليس له أن يطلب جزاء أو شكوراً إذا كان جزاؤه فى نبل شعوره وإذا كانت مسرته فيه وشقاؤه فى غيره .

١١- عصور الركود

وعصور التغير فى حياة الامم *

تظل الأمم راكدة فى عصور من عصور حياتها ولها فى عهد ركودها فضائل ونقائص ، ثم يجرى عصر التغير وقد يكون تغيراً يسبق نهضة ولكنه عصر اضطراب على أى حال ، ويكون مصحوباً بتفكك القيود الفكرية والخلقية والأدبية لدخول مقاييس فكرية وخلقية جديدة ناشئة من اجتهاد آراء جديدة ، وتكون الأمة فى تلك الحالة أشبه بالماء الذى أثار إعصار مافى قاعه من أوشاب فيبدو الماء عكراً .

وكذلك الأمة تبدو حياتها الخلقية والادبية معتكرة فى عصر التغير ، وأخوف ما يخاف هذا الاعتكار على أمة إذا لم يكن قد دخلها أثناء عصر ركودها وقبل عصر التغير ، عناصر جديدة مقوية لم تأخذ منها طباعٌ وهن نفوس العناصر القديمة كلٌّ مأخذ ، فيخشى فى هذه الحالة أن تصير نهضتها نهضة مفتعلة محدودة . وقد تكون فيها مظاهر جليلة فلا يمنع ذلك من اندثارها ، كما حدث لنهضة الأسرة السادسة والعشرين فى تاريخ مصر القديم وكما حدث لنهضة (نبرهلتزم) فى أواخر عهد الحضارة الاغريقية ومثل نهضة الدولة البيزنطية فى أواخر العهد الرومانى الإغريقى . أما إذا كانت الأمة قد دخلتها عناصر جديدة قوية فان ما يصيبها من الاعتكار بالاضطراب لا يخاف منه كل الخوف ، بل يكون مصيره الاستقرار . ومثل ذلك الأمم الاوربية فى عصر نهضة احياء العلوم فإن مداخل غرب اوربا من الآراء الجديدة أوجد انقلاباً واضطراباً كبيراً فى حياتها الفكرية والخلقية والفنية . ولكن امم غرب اوربا كانت قد أعيد تكوينها بسبب العناصر التوتونية التى دخلتها ولم تكن تلك العناصر قد أوهنتها طباع الوهن الفكرى والخلقى التى انتابت الدولة الرومانية فى أواخر أيامها من أجل ذلك أمكنها أن تصمد لذلك الاضطراب الخلقى والفكرى حتى استقر .

ولكن هب أن هذا الاضطراب قد حدث قبل دخول التوتون أو هب أنه جاء متأخراً بعد أن ضعفت العناصر التوتونية وتشبعت بطباع الوهن الخلقى والنفسى الذى انتاب الرومان فى آخر حياتهم ، ماذا كان يكون أثر الاضطراب الخلقى ؟ إنه كان يكون عاملاً على الفناء لاندثاراً بالرقى . انه كان يكون أشبه بالنبيذ يعطى للشيخ الهرم وهو يحتضر كى يقويه ويطيل حياته

فلا يزيد إلا آلاما واحتضاراً . لأن الأمة إذا تقلبت عليها العصور وهي مختلة النظم تمكنت منها عوامل الضعف النفسى وأنهكتها حتى تكره النظر إلى نفسها فى مرآة العقل وتصير مثل الرجل من العامة الذى يفضل أن ينتظر القضاء على أن يتعاطى الدواء .

ولعل القارىء قد وجد بين العامة من يسىء الظن بالطب والأطباء ومن يرى الصحة والشفاء فى تجاهل الداء . فإذا أضفت الى هذا الضعف النفسى الذى يكون من تركة التاريخ والذى شرحناه فى مقال سابق ، اقول إذا أضفت إليه ما يحدث من الاضطراب الخلقى الناشئ من عصر تغير تحتبى فيه آراء جديدة وحياة جديدة وتتفكك فيه الروادع الخلقية القديمة كانت الفوضى الخلقية اعظم . فإذا أضفت الى هذين العاملين عاملاً ثالثاً وهو تقليل الضغط وازدياد الحرية وما يأتى مع الحرية الجديدة عادة من شطط فى الخلق والفكر كان الاضطراب الخلقى أهول . فإذا أضفت إلى هذه العوامل الثلاثة عاملاً رابعاً وهو ازدهام السكان والتقاتل على المعاش بسببه وما ينشأ عن استئثار القتال من استباحة الرذائل والشرور كانت الفوضى الخلقية اتم وأحط لاجتماع هذه الأسباب الأربعة .

ولاستطاع مداواة تلك الفوضى الخلقية الا بعد تقصى الداء والنظر فى أعراضه ورغبة المريض فى الطب . أما اذا إختبأ المريض تحت لحافه وقال انه معافى فإنه لا يستطيع أن يصرف المحسوسات بانكارها .

وقد تكون مداواة هذه الحالة غير مستطاعة لتمكن صفات الأثرة والتخاؤل والتعاضى وغيرها من مخلفات التاريخ فى النفوس الضعيفة ، ولأن هذه العيوب النفسية تظهر بمظهر القوة كما أوضحنا فى مقالة تركة التاريخ . وأنها كما ذكرنا قوة ولدتها سنة الاستعاضة فى الطبيعة تلك السنة التى تجعل من كيد الأضعف ومكره واحتياله وكذبه قوة كما قوت الشعب بهذه الصفات .

وكثيراً ما يكون تقدم النهضة الفكرية والفنية فى هذه الاوساط أشبه بتقدم المرء فى حارات القاهرة القديمة المسدودة التى لا منفذ لها . ولعل اكبر عوامل الخيبة هو عدم المبالاة بتلك الحال وقد تنعدم المبالاة فى الأمور الفكرية والفنية كما تنعدم المبالاة عند مشاهدى حوادث الإجرام من قتل أو سرقة أو قذف أو وشاية فى امثال هذه الاوساط التى يتهرب الناس فيها من المبالاة أو يعينون الجانى حتى يصير هو المبجل المعظم المهيب المقصود بالمدح المنعوت بالفضائل فتقلب الأوضاع وتعمم الفوضى الخلقية ويصبح المجال مجال الاحتيال والخداع والرياء وتتغلب هذه الصفات على النفوس وتأخذ منها كل مأخذ حتى تصير كالمجدار الذى يسد الحارة التى لا منفذ لها فتعوق تقدم كل نهضة فكرية أو فنية .

ويلتجىء الناس فى هذه الاوساط الى الرياء إما لضرورة كسب الرزق ومجاراة البيئة وإما لإخفاء عجزهم عن إصلاح تلك المأساة الخلقية ولظنهم أن إخفاءها يقلل من أثرها فى حياة الأفراد والامم . والتهرب من مواجهة الحقائق إنما هو تهرب من وسائل العلاج وهو كهروب السجين الذى الف السجن عن يريد اطلاق سراحه . وهؤلاء المتهربون جميعاً يكيدون لانفسهم ويجنون على ذريتهم لان هذا الاضطراب الخلقى وهذا الانقلاب فى الأوضاع سواء أكان قائماً فى عصر الركود أو ناشئاً بسبب عصر تغير ، أو أنه كان فى عصر ركود ثم زاده عصر التغير حدة ، أو أنه زاد حدة على حدة بسبب اجتماع العوامل الأربعة التى ذكرناها - إذا ترك ولم يعالج كان داء عضالاً أقل آثاره أنه يجعل حياة الناس أشبه بالحارة المسدودة تعوق تقدم النهضة الفكرية والفنية الا الى مسافة محدودة واعظم شروره أنه يكون كالجراثيم التى تعمل خفية فى جسم المريض الذى أريد إخفاء صيانة له .

ومن الحكمة أن لاترك عوامل الانحلال يعتز بها لظهورها بمظهر القوة حتى تصير الحال الى ما وصفنا فى حياة الناس قديماً وحديثاً .

وقد يختلط الاضطراب الخلقى وانقلاب مقاييسه اذا كان من مخلفات عصور التأخر وإذا كان فى عصر تغير ولكن التاريخ يميز بينهما فتى فى أواخر عهد الدولة الرومانية مثل هذا الانقلاب فى المقاييس وتى انقلاباً فى المقاييس فى عهد نهضة إحياء العلوم ولكن شتان بين الظاهرتين وشتان بين العهد الرومانى الأخير وبين عصر النهضة فقد كان فى العهد الأول مجانة فكرية وخلقية وصفة سطحية فى مظاهر الفنون والفكر .

أما فى عصر نهضة إحياء العلوم فكان الاضطراب الخلقى ناشئاً من تفكك عرى روادع الكنيسة وذهاب ماسنته من التثقف فكان شبيهاً برد الفعل عندما انتشرت دراسة الآداب الإغريقية القديمة وأطلعت لأهل غرب أوروبا مظاهر الجمال الفكرى والنفسى فى المعقولات والفنون وكل حرية يصحبها شىء من الشطط ، وهذا الشطط كان فيضاً للفكر والنفس والقوة الحيوية طغى على شاطئ نهر الحياة .

وكان الرومان فى أواخر عهدهم قد تبدلت أوضاع نفوسهم لأسباب منها فساد النظم الاجتماعية وما كان له من أثر فى النفوس وكان الاضطراب الخلقى وانقلاب أوضاعه دليلاً على نضوب حيويتهم أما فى عصر النهضة ، فإن أمم غرب أوروبا كانت قد دخلتها قبل ذلك عناصر جديدة نشطة لم تصادف من الحوادث الاجتماعية ما يقتل حيويتها واستفادت هذه

العناصر من حضارة الرومان ثم جاء عصر النهضة وجاءت معه حرية يصحبها شطط فكان هذا الشطط أبعد ظاهرة عما كان عليه الرومان في أواخر عهدهم .

على أن الآثام التي كانت في عهد نهضة الإحياء كان أكثرها محصوراً في طبقة خاصة من المترفين والأمراء ولا أحسب أن آثام الأشراف في قلاعهم في العصور الوسطى كانت أهون من آثام عهد الإحياء .

وقد كان عصر نهضة الإحياء عصر إيمان بالحياة ومطالب الحياة من فكر وبحث وكشف وفنون وإصلاح . فإذا وجدت في أمة اضطراباً خلقياً وأردت أن تعرف إلى أي مدى يرجع هذا الاضطراب إلى تغير يسبق نهوضاً وإلى أي مدى هو من مخلفات عصر التأخر فانظر هل تجد إلى جانب الاضطراب الخلقى إيماناً بمطالب الحياة من فكر وبحث وأدب وكشف وفنون وهل اهتمام القوم بهذه المطالب اهتمام إجلال متين وشعور عظيم أم أنه انشغال بها واهتمام بها مصحوب بالصفة السطحية في الفكر والشعور ووراء هذا الاهتمام الظاهر السطحي عدم مبالاة بالحق في كل مظهر من مظاهره النفسية والأدبية والفكرية والفنية ووراء أيضاً الصفات التي تعوق تقدم النهضة فيها بما قد ذكرنا في مقالة "تركة التاريخ" وهي صفات توجد في كل عصر وإنما العبرة بغلبتها . ويقدر تمكنها من النفوس تكون العوائق التي تعوق الحياة الفكرية والنفسية في العلوم والفنون حتى لقد تصير تلك الحياة أشبه بالحارة المسدودة التي لا منفذ لها تسلكها إلى مدى معين ولكن لا تنفذ منها ولا بد أن ترجع القهقري فيها . وتكون تلك الصفات إذا أخذت على النفوس كل مأخذ أشبه بذلك الجدار الذي يسد الطريق وقد يغمر المرء ما يجده من مظاهر الحركة والجلبة في تلك الحارة التي لا تنفذ لها كما يغمر مظاهر الانشغال بالأمور الفكرية والفنية في الارسطات التي تشتد فيها الصفات التي شرحت في مقالة "تركة التاريخ" .

١٢- الشباب والمشيب كالمطرقة والسندان *

كان لعدد "الشباب" الممتاز الذي صدر أول إبريل أثر حسن في الأوساط العلمية والأدبية ، وقد صادف نشاطاً وإقبالاً بين الشباب والشيخ ، فبعث إلينا الأستاذ الكبير عبد الرحمن شكرى على أثر اطلاعه على هذا العدد بهذه الكلمة الممتعة التي شبه فيها الشباب بالمطرقة والمشيب بالسندان ، وأوضح هذه الفكرة التي ترمى إلى تعاون القوتين : قوة الشباب ، وقوة الشيخوخة في بناء المجتمع وقيام الحضارات .

"محرم الهلال"

من التشبيهات لبيان ما بين الشباب التعاون وصلاته ، أن بمنزلة العقل الذي يفكر ، القلب الذي يشعر أو لا أفضل هذا التشبيه في تعيين الأفكار سواء وعقل المشيب لا يختلف في تجاربه فحسب ، وهي مؤسسة على إحساس سابق ، بل يختلف عن عقل الشباب أيضاً من أجل أن إحساس الأشيب يصبح مختلفاً عن إحساس الشاب والمرء مسوق بإحساسه الحاضر أكثر مما هو مسوق بفكره أو خبرته المؤسسة على إحساس سابق . فآثر المشيب في الشباب يكون من طريق إحساس الأشيب على الأقل قدر ما يكون من طريق تفكيره ، وتفكيره متأثر بإحساسه . ومن أجل ذلك كان الأشيب الخبير بالأمور إذا أراد أن يزين أمراً للشباب زينه له بما يرضى شعوره وإن كان الأشيب يعرض الأمر على نفسه عرضاً آخر لاختلاف إحساس الشباب والمشيب في الأمر .

ولكن هناك تشبيهاً آخر يجمع بين صفة التعاون بين المشيب والشباب وبين صفة المقابلة والاختلاف ، وهو أن يشبه الشباب بالمطرقة والمشيب بالسندان . والأمر الذي يراد تدبيره وتشكيله بينهما كالقطعة من الحديد توضع بين المطرقة والسندان . فقوة الشباب قوة المطرقة الوثابة التي وراءها قوة العضد المفتول واليد المرنة والنشاط . وقوة المشيب هي قوة السندان في رسوخه وارتكازه على الأرض .

على أن كل تشبيه له وجه أو أوجه من النقص وإلا ما كان يعد تشبيهاً ، لأن التشبيه إنما هو قائل في أمر واحد أو أمور محدودة . وقد ينتقد هذا التشبيه من أجل أن قوة الحداد وفكرهما وراء قوة المطرقة ، كأنما يجعلان الفكر وراء قوة الشباب وحدها ، ولم ينظر إلى موقع

العاطفة بين قوتى المشيب والشباب . ولكن يصح أن يرد هذا النقد بأن فكر الحداد يستخدم المطرقة والسندان معا ، فلكل منهما نصيب منه كما أن لكل من المشيب والشباب نصيبا من الفكر تختلف مقتضياته فى الحالتين .

ويرد نقد إهمال العاطفة عند الاستشهاد بالتشبيه ، فيقال : إن الحداد يستخدم قطعة المعدن المنصهرة على السندان أو يصهر المطرقة اذا اقتضى عمله ذلك ، فلكل منهما نصيب من الحرارة والتفكير منه وإن اختلف مظهر كل منهما فى الحالتين . وكذلك للشباب والمشيب نصيب من الإحساس والتفكير وإن اختلف مظهر كل منهما . وينبغى عند تدبر هذا التشبيه أن لا ننظر إلى التقاء المطرقة والسندان كأنه التقاء نضال وعداء ، ولا إلى وقعات المطرقة على السندان كأنها ضربات قتال ، بل ينبغى أن ننظر إلى التقائهما وهو مظهر تعاون وإلى وقعات المطرقة على السندان كأنها مصافحة التعاون فى العمل ، فإن المطرقة لم تلتق بالسندان كى ترققه أو تهشمه أو تنال منه حتى يعد التقاؤهما كأنما هو التقاء عداء ، بل تلتقى به كى يتعاونا فى تشكيلها قطعة الحديد التى بينهما كما أن تعاون الشباب والمشيب يشكل الأمور التى يتعاونان فى تشكيلها من أمور الحضارة والعمران . وإذا لم يكن السندان هوت المطرقة إلى الأرض . وإذا وضعت الحديد على غير السندان لم تتمكن المطرقة منها تماما فتخطىء فى تشكيلها وربما افلكت منها وطاربت بعيدة عنها . وكذلك الحال فى أمر تشكيل الشباب لأمر الحضارة فإذا لم يشكلها على قوة المشيب الراسخة طاشت أعماله وطاحت أمور الحضارة والعمران منه . والحداد هو العامل المشترك كما يقولون وهو مثل العوامل الاجتماعية التى تستخدم قوتى الشباب والمشيب معا بطريقتين مختلفتين . ويمكن تتبع هذا التشبيه الى مدى أبعد فنقول : إن المطرقة وهى متحركة مطيحة لأجزاء من المعدن قد تكون آلة إسراف وتبذير إذا أسىء استعمالها ، وهى تراد للتشكيل والتدوير ، أما السندان فهو لا يطيح شيئا من المعدن بل يصونه ويحتفظ به لوقت الحاجة .

ومثل هذا مشاهد بين الشباب والمشيب . فالمشيب يقدم للشباب الثروة المادية والفكرية التى جمعها وهو يعيها ويصونها فيأتى الشباب ، فإذا أن يستخدمها استخدما حسنا وإما أن يبذرهما ويتلفها . والحضارات العمرانية لاتقوم فحسب على صيانة الثروة المادية والفكرية كما يصونها المشيب بل تقوم أيضاً على تصريفها وتوزيعها واستخدامها استخدما حسناً كما يصرفها الشباب إذا أصاب أو كما تفعل الريح عندما تنقل البذر إلى مكان لاتبات فيه فيصبح كثير النبات ، أو كما فعلت طرق النقل والمواصلات قديماً وحديثاً من نشر للحضارات والأفكار

أو كما يفعل تصريف الأموال في الأسواق من ترويج التجارة ، فإذا كان في الأسواق عامل جمع وصيانة للأموال من غير عامل تصريفها ركزت التجارة ، وكذلك الحضارات والنهضات الفكرية إذا بطل فيها التصريف والتوزيع ركزت ، ولكن التصريف والتوزيع يستدعي الجمع والوعى والصيانة للثروة المادية والفكرية كما يفعل المشيب ، وهذا دليل قاطع على أنه لابقاء للحضارة ولا ازدهار لها إذا لم تتعاون قوة المشيب وهي قوة الجمع والوعى والصيانة وقوة الشباب وهي قوة التصريف والتجديد والاستعمال .

وفي الشباب صفة الاجتماع والمعاشرة أكثر مما في المشيب الذي يبدأ يتطلب العزلة أو تتطلبه هي قهراً ، والشباب أخف وأسرع فكراً وعملاً ، ومن أجل هذا كله تتحكم في صفات الشباب سرعة عدوى الخلق وهي قد تدفعه إلى ما ليس في طبعه ولا في خلقه المعتاد وقد تظهره بمظهر يعد غريباً في نظر من يعرفه . وهذه الصفات تشبه (صفات الجمهور) أي الصفات التي تنشأ أو تقوى في أفراد الجمهور عندما يتكون (الجمهور) فتتشكل طباع أفرادها شكلاً جديداً وتقوى فيها صفات لم تكن معهودة فيها من قبل أو كانت خافية . والجماهير من الشبان أسرع في هذا التغير وأبعد مدى من الجماهير من المشيب لهذه الأسباب . ولكنك إذا بحثت حتى في هذه الناحية من نواحي الشباب وجدت للمشيب أثراً في إنماء هذه الظاهرة من حيث أثره في إحساس الشباب وفكره . وقد يكون عمل المشيب هنا خافياً كعمل الكهربائي الخافية . وقد يكون واضحاً مادياً كما تؤثر أحماض البطارية الكهربائية أو أجزاء البطارية الأخرى في إحداث التيار الكهربائي .

فترى أن من الصواب ألا يفضل المشيب ولا الشباب في قيام الحضارات لأنها لا تقوم إلا بهما معاً .

١٣ - عالم الإيحاء *

إذا مُجِّد المنطق أمام الانسان فى الحياة نشأ على احترام المنطق إلى حد كبير ، حتى ليعد العقل كأنه طاحونة منطق ، وحتى يظن أن وسائل التأثير مقصورة على مقتضيات المنطق وأن لا إقناع إلا الإقناع المنطقى ، ويخفى عنه أثر الإيحاء الذى يتخذ قوى النفس وميولها ونزعاتها وعواطفها وإحساسها وسائل يستخدمها بطرق تعجز أحياناً تتبع المنطق وتقصيه . وإذا اعتقد الإنسان أن الحياة مؤسسة على أسس من المنطق فحسب ، وفاجأته بعكس هذا الاعتقاد إذا اختبرها ، صعب وقع تلك الخبرة فى نفسه . فإن تجارب المرء فى الحياة تعلمه أن الحياة ليست مؤسسة على الإقناع المنطقى فحسب ، وإن المنطق نفسه يستخدم لكل غرض حتى غرض الإيحاء ، وإن المنطق خليق أن يشبه بالخدام الذى يعمل فى بعض البيوت فيغسل أماكن دورات المياه تارة ، وتارة يطهى ويقدم الطعام للأسرة والزوار . والحقيقة هى أن للإيحاء أثراً كبيراً فى الحياة حتى إنه ليسيطر على المنطق فى بعض الأحيان ويستخدمه لأغراضه ، وفى بعض الأحيان يغرى المرء بعكس ما يغرى به الإقناع المنطقى .

وقد يعتمد المرء على مقتضيات المنطق لنيل العدل بين الناس فى الحياة أو ما يراه عدلاً ؛ فإذا لم ينله انهيارت دنياه ودهش إذا لم يكن عالماً أن وراء حياة المنطق حياة أخرى تدين للإيحاء ، وأن عليه أن يحدد موقفه فى عالم الإيحاء هذا ، وأن يتخذ عدته له وأن يبحث مخبأته وأسراره ، فإن قيمة الناس والقضايا فى ذلك العالم ليست إلا بقدر ماتستطيع أن تستخدمه من وسائل الإيحاء ومؤثراته ، ولا يخلو أحد فى الحياة من الخضوع لعوامل الإيحاء والتأثر بها سواء فى ذلك التاجر والموظف .

يحكى أن أشعب الثقفى قد أولع الغلمان بمعاكسته يوماً فقال لهم ليصرفهم عنه ؛ إن فى شارع كيت وكيت أفراح عرس تنشر فيها الدنانير على الجمهور ؛ فصدق الغلمان قوله وتركوه وجروا إلى المكان الذى وصفه فى قوله ، فلما رأى أشعب تصديق الغلمان أغراء ذلك وجرى خلفهم إلى المكان الذى وصفه فى قصته التى لفقها كى يصرف الغلمان عنه . والناس فى الحياة على شاكلة أشعب فيما يشيعون من الخير والشر عن أنفسهم أو عن غيرهم ، يقولون مالىس بحق ثم يصدقونه إذا رأوا تصديق الناس له ، وهذا بسبب تأثير الإيحاء فى أنفسهم

ولا يستطيع المرء أن يفهم الناس إلا إذا فهم هذا الإيحاء ، وإلا إذا فهم أن النفس قد تجمع بين التقيضين فى وقت واحد ، فتجمع مثلاً بين أثر الإيحاء وبين الدليل المنطقى الذى ينقضه .

خذ مثلاً آخر : يقول لك على إن أحمد قد هجاك ، وأنت تعرف أن علياً كاذب فيما نقل عن أحمد ، ولكن من المستطاع أن تجمع فى نفسك بين تكذيب على وبين الامتناع من أحمد الذى تعرف براءته ، والامتناع من هذا من أثر الإيحاء .

والإنسان يستطيع أن ينقل الكلام المحكى من عالم المنقول إلى عالم المدرك بالحس بسبب أثر الإيحاء أيضاً ، حتى إنه لو قيل لجماعة إن انساناً ينظر إليهم شزراً لم تعدم بينهم من يرى ذلك أو يظن أنه يرى ذلك وإن لم يحدث ؛ وبعض الناس أكثر تأثراً بالإيحاء من غيرهم . وقد حكى أن بعض فقراء الهنود يرمون بحبل إلى السماء فيظل ممدواً حتى يستطيع غلام أن يصعد الى طرفه الأعلى ؛ وفسر بعض الكتاب هذه القصة بأنها من أثر الإيحاء فى نفوس بعض النظارة ، وبسبب أن المرء ينقل الكلام المنقول المحكى إلى عالم حسه فتنشأ دعوى المشاهدة . وهذه الصفة فى الإنسان كثيراً ماتخذعه ويخدع بها غيره من الناس فى أمور كثيرة من أمور الحياة . وقد ينخدع بها ويصدقها وهو يعرف أنها وهم ؛ وقد يجمع بين تصديقها وتكذيبها فى نفسه فى وقت واحد .

ويعتقد كثيرون أن الإيحاء يؤثر فى الحيوان أثره فى الإنسان . ومن المشاهد أن إحساسات الانسان من ذعر أو حب أو فرح أو خوف قد تنتقل إلى الكلاب مثلاً عن طريق الإيحاء . وقد بالغ بعض الناس فادعى أن أثر الإيحاء قد ينتقل إلى الجماد أيضاً . وعلل إسقاط كهنة زنوج أواسط أفريقية الأمطار بهذا الأثر . والعلم لله فى هذا الأمر .

وترى الجهال فى الحياة يستخدمون وسائل الإيحاء لمنفعة النفس أو منفعة الصديق ومضرة العدو بطرق منظمة تحسبها نتيجة دراسة الإيحاء والبحث فى علم النفس ، وماهى بنتيجة دراسة وعلم ، ولكنها السليقة التى تبصر الإنسان بوسائل الإيحاء . ولو علم الصائلون بإيحاءهم المقتدرون به ، الجالبون لأنفسهم ولأودائهم به الخير أن بين العامة من لا يقل قدرة عن الخاصة فى استخدام الإيحاء ما افتخروا بمهارتهم فى استخدام وسائل الإيحاء ولاعدوها من دلائل العقل والحكمة ، ولاحسبوا أنهم فازوا فى الحياة بهمها . ولو علم العقلاء الحكماء أن وسائل الإيحاء أقرب إلى النجاح من وسائل العقل ، وأن الإيحاء يستمد من السليقة ما غالوا بعقلهم وحكمتهم كل المغالاة ، ولا حزنوا إذا أبصروا انخدال وسائل العقل وانهزامها أمام وسائل الإيحاء .

والتأثر بالإيحاء من صفات القطعان ، سواء القطعان البهيمية والقطعان البشرية ؛ فإذا أحدثت بهيمة فى قطع صوتاً أو اتخذت طريقاً تابعتها بهائم القطيع . وهذا هو ما يحدث أيضاً فى القطيع الإنسانى بسبب أثر الإيحاء والمحاكاة التى هى من أثر الإيحاء . والقطيع البشرى أكثر تأثراً به بسبب إحساسه وخياله الناميين . والإيحاء قد يكون فى النوم أو فى اليقظة ، وكثيراً ما كان يعتمد السحرة على الإيحاء وأثره فى النفس ، وتأثير الجسم بما تعتقده النفس .

وقد تتذبذب وتتحول نفوس الناس ساعة بعد ساعة ، أو يوماً بعد يوم تذبذباً لا حد له فى الأمور اليومية والإحساسات المتغيرة العارضة بسبب اختلاف أنواع الإيحاء ومرامييه ، حتى يشبه تذبذبهم تذبذب السراب أو ذرات الهباء فى أشعة الشمس ، ولكنهم لا تأخذهم الدهشة من أنفسهم لأنهم لا يفكرون فى أنفسهم ولسرعة التذبذب كما لا تحس دورة الأرض ، ولأنهم ثابتون على بعض عقائد ومبادئ عامة لا مناص لهم من الثبات عليها فتلهيهم عن تذبذبهم المستمر بسبب اختلاف نزعات الإيحاء ، والتذبذب النفسانى ينشأ عنه تذبذب جسمانى لاختلاف حركات الوجه والجسم حسب الأهواء والميول والنزعات النفسية . والبيع يشبه الاحتيال من ناحية الاعتماد على الإيحاء إلى حد كبير ، وإن اختلفا فيما عدا ذلك ويسمى الناس وسائل البيع التى تعتمد على الإيحاء الطريقة الأمريكية فى البيع ، والطريقة الأمريكية فى الاحتيال والنصب ، وهى طريقة شائعة فى النفوس عامة وفى كل أمر من أمور الحياة من تجارة أو مهنة أو صداقة أو محبة أو عدواة ، وإنما تختلف باختلاف النفوس ولا تمنع من اقترانها بنصيب من الفضيلة أو الصدق أو النزاهة أيضاً ، لأن النفس تجمع بين النقيضين . ويستخدم الإيحاء كثيراً فى الإعلانات عن العقاقير والكتب والمؤلفات وغيرها .

وما يزيد الإيحاء قوة أن المتأثر به الذى نقل أثر الإيحاء إلى عالم حسه ومشاهداته كما أوضحنا يصبح شاهداً يستشهد به صاحب الإيحاء كأن شهادته ليست نتيجة أثر إيحاءه ، إذ المتأثر بالإيحاء بعد أن ينقله إلى عالم حسه ويدعى أنه من أثر مشاهدته ومن أثر اقتناع حواسه يتأى بنفسه ويترفع عن أن يكون ذنباً لصاحب الإيحاء تابعاً له ، فيدعى الاستقلال فى الرأى والمشاهدة ، حتى لقد يخدع صاحب الإيحاء ، فيتأثر به صاحب الإيحاء ، ويتناسى أن رأيه من أثر إيحاءه .

وقد أتقنت وسائل الإيحاء للإعلان عن ممثلى وممثلات الصور المتحركة ، كما أتقنت وسائل الإيحاء عندما تنشر دولة الدعوة العالمية ضد دولة تعاديهها أو تحاربها .

والإيحاء قد يطرد في شكل سلسلة من الحلقات من إنسان إلى ثان ثم إلى ثالث ورابع الخ، حتى يختفى مصدر الإيحاء وأوله ومنشؤه . وإذا كان إيحاء المرء لغيره سهلاً ميسوراً في إيحاؤه لنفسه أسهل وأيسر ، لأنه أملك لها ؛ وقد يفتن إلى أن إيحاءه لنفسه مغالطة ، ولكنه يقدس تلك المغالطة كما يقدسها لو كانت من أثر المنطق والإقناع المنطقي ، بل قد يقدسها أكثر من تقديس ذلك الإقناع ، فتري أن وراء هذا العالم المادي الظاهر ، وراء ما يبحث به الباحث من منطق يوجد عالم آخر حقيق أن يسمى عالم الإيحاء .

امتزاج الأحاسيس *

قال المتنبي :

والذل يظهر في الدليل مودة وأود منه لمن يود الأرقم

وأحسب أن المتنبي إنما أراد أن يصف الدليل المداجي الذي يظهر المودة ويخفي الضغينة والعداء ، فيتودد ويتذلل حتى ينال من خصمه . وهذه صفة شائعة في ذوى الكيد والمكر والدهاء . ولكن هناك صفة أخرى في النفس الانسانية تشبه هذه الصفة بعض الشبه ، وهي صفة المحبة والمودة التي يحسها الخائف إحساساً حقيقياً لا مداجاة فيه إذا عجز عن يخاف منه وألف الخوف فأزالت ألفة الخوف غلواءه ، وأزالت الرغبة في التخلص منه ، وأبعدت هي والعجز أمل الانتقام من أجله ، فتحول إرادة المحافظة على الحياة ذلك الخوف المألوف محبة أو مودة تحاول بها نيل الزلفى لدى الإنسان المخوف من طريق الإحساس الصادق بالمحبة أو المودة ، وتحاول أن تسلب بها من قدرة المخوف حمة البغض وسم الضغينة ، لأن إرادة المحافظة على الحياة تعلم أن مودة الرياء ومحبة النفاق قد لا تقنع ، وقد تنكشف ويشف ثوب الرياء عما تحته فينال الخائف المرائى شراً إذا انكشفت مداجاته وعرفت مدهنته ، ومن أجل ذلك تبالغ إرادة المحافظة على الحياة في الحيلة والحذر ، فتحول الخوف من الإنسان المخوف إلى حب له أو مودة كى تقنعه وتتقى برادر شره ، وهي أيضاً تحاول أن تقنع بتلك المودة نفس من يحسها ، وتفهمها أن لا داعى لليأس من الحياة كى لا يرهقها الخوف واليأس ؛ وهذا أمر مشاهد إذا قرأ الانسان سفر الحياة وتقصى البحث في تكوين النفوس .

وهذه المحبة قد تزول وقد تبقى بعد زوال أسباب الخوف ، وقد تقوى أو اصرها بعد الرهبة ولاسيما إذا حلت الرغبة مكان الرهبة ، ووجدت النفس منفعة دنيوية أو نفسية لها عند من زالت أسباب الخوف منه ؛ وقد تنقلب تلك المحبة إذا زالت أسباب الخوف مقتناً ورغبة في الانتقام ، فيحسبها الباحث أنها لم تكن إلا مداينة ونفاقاً ، وهي قد تكون ذلك ، وقد تكون كما شرحنا محض المودة والشعور الصادق بها ، لأن إحساسات النفس تمتزج وتتحول وتتشكل أشكالاً وتتلون ألواناً في السرائر ، فكأن في النفس البشرية الكيمياء الذى حاول الكيميائيون

فى القرون الوسطى معرفته كى يتمكنوا من تحويل معدن إلى معدن ، فهذا التحول الذى وصفناه من كيمياء النفوس فى معامل السريرة الخفية .

وكما أن امتزاج الخوف والمحبة يشاهد فى الأضداد البعداء من قوى مسيطر وضعيف دليل ، إذا تهيأت للأول أسباب القوة من جاه أو مال أو صحة ، وخذلت الأسباب الدليل الضعيف وقهرته على أن يعتمد على صاحب المال أو الجاه ، فذلك الامتزاج يشاهد أيضاً فى نفوس الأصدقاء والأوداء والأحباء والأقرباء . فكم من امرأة تحب زوجها حباً صادقاً أساسه الخوف منه ؛ وكم من رجل يحب زوجته حباً صادقاً يخالطه الخوف ؛ وكم من قريب يود قريباً ، وصديق يود صديقاً ودا تمازجه الرهبة أو الخشية .

وإذا تقصينا البحث وجدنا ما هو أعجب من ذلك ، فقد يمتزج البغض والحب فى النفوس ، فقد يبلغ العاشق منزلة من العشق تشرف على البغض والمقت لمن يعشق ، وقد تتذبذب نفس العاشق بين الحب والبغض أو قد تجمعهما فى وقت واحد ، فهى تارة تريد الخير لمن تحب ، وتارة تريد الشر ، وتارة تجمع بين إرادة الخير وإرادة الشر - ويمتزج الإخاء والجفاء فى نفوس الأصحاب ، ويمتزج الاحترام والاحتقار فى نفوس الجلساء والمتعاشرين ، كما يمتزج الحب والبغض فى نفوس العشاق ، أو كما يمتزج الخوف والود فى نفوس الضعفاء ، فترى الصاحب أو المجلس يبالغ تارة فى إخائه لصاحبه وجليسه ومعاشره ويكثر من إكرامه وإجلاله ، وتارة يظهر له الجفاء وقلة الاكتراث أو العبث به أو الخط منه ، وتارة يجمع فى مجلسه بين النقيضين .

وكل إنسان يشتكى هذه الصفة فى النفوس ، ولكل إنسان نصيب منها قل أو كثر وإفما يفتن إلى ما فى نفوس الناس ولا يفتن إلى نصيب نفسه منها . وينقسم الناس فى تدبر هذه الصفات ثلاثة أقسام : أناس يأبون الرضاء بها فيعتزلون الناس ما استطاعوا إلى العزلة سبيلاً ؛ وأناس ينقدونها ويودون لو تكون النفوس على حال واحدة ولكنهم يعرفون استحالة هذه الودادة فيقنعون بما هو مستطاع من النفس والحياة ، وأناس لا يرون إعنات أنفسهم بالسخط على هذه الصفات النفسية ، ومنهم من يرى فى تلون نفوس الناس وتقلبها وجمعها بين النقيضين رحمة أو تفكهة أو إراحة وترفيها ، ويمقتون من لا يعاشرهم على هذه الخلال ، وربما كان فى قولهم شيء من الحق والصواب ، وربما كنا نزهد فى الحياة لو كانت نفوس الناس على حال واحدة لا تتغير ، فإن الحال التى لا تتغير مدعاة السأم والملل كسأم الذى يعيش فى مكان قفر موحش لا يرى منه إلا مظهراً واحداً لا يتغير فى أرضه أو سمائه .

ولعل من أشد العقوبات وأقساها أن يحكم على إنسان ألا يأكل طول حياته غير السكر ، فهو قد يشتهي في أول الأمر ، فإذا طال به العهد اعتراه السأم والملل ؛ وكذلك ربما كان الجفاء مدعاة إلى التمتع بالإخاء ، وقلة الاكتراث مدعاة إلى التنعم بالإكرام ، والبغض حافزا إلى استمرار الحب ، كما أن اللذة لا يحسها إلا من يستطيع الإحساس بالألم . وهذه فلسفة لاشك فيها ، ولكن الكثير من أمزجة النفوس تأبأها ، إما لأنها مرهقة الحس فلا تنسيها اللذة الألم والأخاء الجفاء ، وإما لأنها إذا أحست ألماً أو عانت جفاء أو قاست عداء لا تطمئن إلى زواله ، وقد تستبطن زواله فيدركها اليأس والحزن .

والحزن من تقلب النفوس وتلونها واختلافها نفساً عن نفس وحالا عن حال كثيراً ما يدرك الشاب القليل الخبرة بالحياة والنفس الانسانية ، فهو لغرارته يحسب أن الحياة على مثل واحد يرتضيه ، وأن النفس على خلة واحدة يحمدها ، فإذا فطن إلى تقلب النفوس وتذبذبها وقلة استقرارها وجمعها بين الأضداد ، وإذا راعه كل ذلك بسبب غدر صديق أو جفاء جليس أو عبت عشير أو شر رفيق أو كيد أليف أو بغض حبيب كاد ينفطر قلبه أو كادت تنهار دنياء ، ولكن أكثر الشبان يستطيعون إذا طال بهم العمر ومد لهم فيه أن يوفقوا بين الحياة وبين مثلهم الأعلى ، أو تطفئ الحياة وما تدعو إليه على مثلهم الأعلى فتتمحوه ويصير كل منهم في مودته مثل مقياس الحرارة (الترمومتر) ، فتارة ترتفع مودته إلى درجة الغليان ، وتارة تنخفض إلى ما هو تحت الصفر من درجات البرودة وقس على المودة غيرها من الإحساسات .

وإنما تصلح الحياة وترقى وتبلغ إذا لم يحج تذبذب النفوس المثل العليا منها . وخير خطة للمرء ألا يحزنه تقلب النفوس واختلاط خلال النفس ، وألا يدع هذه الاختلاط والتذبذب يطغيان على كل شعور نبيل ، فيجمع بين الاطمئنان ونشدان المثل العليا إذا استطاع ذلك .

١٥ - المغالطة

فى الوسائل والغايات *

كل انسان ظالم فى أمر واحد أو أكثر من أمر واحد من أمور الحياة ، فإن المرء قد تميل به رغائب نفسه وحاجاتها وشعورها حتى يحسب غايته الدنيئة ، ومقصده الوضيع ، ورغبته الخسيسة ، غاية عالية ، ومقصداً نبيلاً ، ورغبة شريفة ؛ وأساسها لو فطن له الفرور والاعجاب بالنفس ، أو محاولة اخفاء نقائصها ، أو محاولة كسب الجاه ، أو المنفعة من حساب غيره ؛ ومتى تهيأ له قبول الغاية الدنيئة ، كأنها غاية نبيلة سهل عليه أن يغالط نفسه مغالطة أخرى ، فيزعم أن الغاية النبيلة تزكى الوسطة الدنيئة . ولا تجد بين الناس من لا يغالط نفسه هذه المغالطة أيضاً فى أمر واحد أو أكثر من أمور الحياة .

وهذه المغالطة المزدوجة تجعل المرء يزكى الوسطة الدنيئة بالغاية الدنيئة ، لأنه أولاً غالط نفسه فحسب الغاية الدنيئة غير دنيئة ، ثم غالط نفسه وحسب هذه الغاية تبرر الوسطة الدنيئة ؛ وقد يغالط المرء نفسه مغالطة ثالثة ، فحسب الوسطة الدنيئة نبيلة ، وهذا من قهبل الاحتياط إذا لم يستطع أن يزكى عمله لدى الناس بمبدأ تبرير الوسطة بالغاية .

وهذه المغالطات الثلاث تصل بالمرء إلى حالة نفسية يرى فيها أنه يحاول بلوغ الغاية النبيلة بالوسيلة النبيلة ، وهو إنما يحاول بلوغ الغاية الدنيئة بالوسيلة الدنيئة . وقلما يظن الناس إلى هذه المغالطات فى أنفسهم ، وقد يعمون عنها فى نفوس معاشرهم ، فالمرء قد يكون مدفوعاً فى سلوكه بما ركب فى نفسه من طبائع الشر ، أو لأنه يبنى نفسه أن فى قوله أو عمله منفعة لنفسه ، أو لأنه يرى فيها إعلاء لنفسه أو لرغبته فى الظهور بمظهر الفيرة على الخير والحق ومظهر كره الباطل والشر أو لسبب آخر من أسباب عديدة متنوعة ، ولكنه لا يزال يروض نفسه حتى يصرفها عن الأسباب الحقيقية وحتى تعتقد نبل غايتها ومقصدها . وأن مطلبها الحق أو الفضيلة أو الخير أو الدين ، وقلما تجد فى الناس من يعجز عن أن يقتنع نفسه أنه إنما يعادى أو يصادق من أجل هذه المطالب النبيلة الشريفة ، فإذا اقتنعت سهل عليها أن تتخذ الوسائل الدنيئة لمحاربة من ترى فى معارضة ظاهرة انتصار منها لهذه المطالب ، فتتخذ من وسائلها النميمة والكذب واستثارة الأحقاد بالنميمة والغيبة والكذب ، وكل هذه وسائل دنيئة ،

وتحويل النفس على المبدأ المعروف الذى يقول أصحابه إن الغاية تبرر الوسطة ، فتكون النفس قد خطت خطوتين فى المغالطة والإيهام : الأولى تحويلها الغاية الدنيئة إلى غاية نبيلة ، وهذه خطوة خطتها كى تخطو الخطوة الثانية وهى اعتناق مذهب المبررين للوسطة بنبل الغاية ، ولو أصبح هذا المذهب عقيدة عامة مقدسة لاتهارت أركان الديانات وتفككت عن النفوس عرى الفضائل وانحلت قيودها وتسفلت النفوس ، ولكن النفوس تأخذ بهذا المبدأ عملياً وفى خفية أو تبثه بطريق الإيهام وهو من أسباب تحول النفوس عن الخير والفضيلة حتى على خفاء العمل به والاحتياط لتزكيتة بوسائل النفوس الجشعة المتعطشة للمكاسب كما هى نفوس أكثر الناس فى أحوال كثيرة .

وأحسب أنه لولا المغالطة الأولى أى الوهم الذى يقلب الغاية الوضيعة ويجعلها غاية شريفة لما كثر أخذ الناس بالمبدأ الذى يبرر الوسطة بالغاية النبيلة ، إذ أن تلك المغالطة الأولى هى الأساس الذى يبنى عليه هذا المبدأ فى كثير من الأحوال والذى يبيع للناس كل وسائل الشر فيواقعونها وهم يحسبون أنهم على خير وإلى خير وفضل .

وإذا تتبعنا غايات الناس فى مساعيهم المختلفة وجدت أن كلا منهم مهما سفلت غايته يزكياها ويرفع من شأنها ويلبسها لباس الفضيلة أمام نفسه وأمام الناس ، وهو يفعل ذلك إذا كانت غايته وضيعة أكثر مما يفعل إذا كانت غايته رفيعة ، لأن الغاية الرفيعة ليست فى حاجة إلى كل هذا الجهد ، وعلى قدر شعور المرء بحقارة غايته تكون رغبته فى مغالطة نفسه ، وعلى قدر تسفل تلك الغاية يكون غيظه وحنقه ممن يطلعه أو يطلع الناس على حقيقة غايته وأسبابه التى يخفيها . ومن العجيب أنه يحاول أن يستفيد أيضاً من هذا الغيظ الذى سببه الأنانية فيظهره بمظهر الغضب للحق أو الفضل أو الخير أو الدين ولا يزال بنفسه حتى يقنعها أن غيظها ليس غيظ الأنانى المحقق الذى اطلع أو كاد أن يطلع أو يخشى أن يطلع الناس على دناية غاياته أو وسائله فيوهمها أنه غيظ مقدس نبيل وغضب شريف ، وهى إذا اقتنعت واعتقدت ذلك سهل عليها اقناع الناس بما اقتنعت به من باطل ، وهنا منشأوهم كبير يقع فيه الناس ، فإنهم إذا أبصروا إنساناً عظيم التأثير فى الناس تعديهم شدة اعتقاده واقتناعه حكموا أنه على حق ، ولا سيما إذا كان الحاكم هذا الحكم قليل الخبرة بالنفس الانسانية ، فإذا زادت خبرته بالنفس علم أن شدة اعتقاد الإنسان وعظم اقتناعه وما ينشأ عنهما من عدوى تؤدي إلى شدة اعتقاد الناس وعظم اقتناعهم لا يدل على أن هذا الإنسان على حق فيما يعتقد وفيما أعدى الناس اقتناعه به ، ولكنها سنة مألوفة لدى الباحث فى النفس وهى أن الاحساس

الشديد ينتقل كالعدوى لشدته وكذلك الاقتناع العظيم ينتقل من نفس إلى نفس كالعدوى لعظمه لا لصوابه .

ولما كان الاقتناع المؤسس على الحقد أو الأثانية شديداً لأنه مؤسس على إحساس شديد وهو الحقد أو الأثانية سهل انتقاله إلى نفوس الناس شأن كل اقتناع مؤسس على إحساس شيء شديد آخر ، وأحسب أن الناس معذورون بعض العذر في هذه المغالطات النفسية وفي بعض هذا الغيظ والحنق إذا كشف كاشف من تسفل غاياتهم أو وسائلهم لأنه إذا أتيح لأكثر الناس فهم حقارة غاياتهم ووسائلهم والتأثر بهذا الفهم والتألم من أجل تلك الحقارة ضاعت ثقتهم بأنفسهم وضاعت ثقة الناس بهم واعتراهم الضعف في معالجة أمور الحياة ومعالجة مطالبهم فيها ولا مرأ أن بعض هذه النتائج محمود إذا بلغت بهم منزلة القصد والعدل والحق ولم تنحدر بهم إلى منزلة الضعف والعجز ولم تنل من عزائمهم كل منال ، ولكن الناس يعرفون أن نفوسهم قلما تنتقل من إحساس إلى إحساس إلا من نقبض إلى نقبض مثل رصاص الساعة فمن فعل إلى رد فعل ، ومن رأى إلى نقبضه ومن شعور إلى عكسه فتغيرهم النفسى يختلف عن تغير أمور الطبيعة . ومن أجل ذلك ترى أن الناس في حياتهم وتاريخهم يسبقون سنة التغير في الطبيعة فيحدث رد فعل ورجعة في أمورهم كي يرجعوا إلى ما يناسب تغير أمور الطبيعة ، وهذا هو سبب كثرة ما يشاهد من فترات الرجعة ورد الفعل في تاريخ البشر وفي حياتهم .

وهذه الطفرة في إحساس النفس مشاهدة بصفة خاصة في العامة والصغار والجهلة والقليلي المدنية أكثر من مشاهدة الباحث لها في الخاصة والكبار والمتعلمين والكثيري المدنية . ومن أجل تردد النفس بين الإحساس ونقبضه يخشى الناس على عزيمتهم في الحياء ويخشون النتائج التي يأتى بها إطلاعهم على حقيقة غاياتهم ووسائلهم ويخشون أن يعرفوا ضعفها بعد اعتقادهم نبيلها فهذا أمر يفاجئهم مفاجأة قد تحدث هزة في النفس وهذه الخشية تزيد غيظهم وحنقهم فيدفعون بالغیظ ذعرهم من أن تتأى بهم ضعة غاياتهم عن عزائم النجاح ومساغیه ، وهم يخشون الفشل والضيعة ، وماقد يكون فيهما من الدال أو فقدان وسائل الحياة نفسها ؛ ولا شيء يدعو إلى القسوة مثل ذعر المرء إذا خشى أن يفقد وسائل الحياة على اختلاف منافعها بفقد اعتقاده نبيل غاياته ووسائله حتى ولو كان فقد وسائل الحياة من أجل ذلك بعيد الاحتمال .

ولكن كثيراً ما يحصن المرء ضعة غاياته ووسائله بما يعتقد الناس فيه وما يعتقد هو في نفسه من الفضل والجاء والنبيل والصدق ، ولا تخلو نفس من شيء من هذه الصفات قل أو كثر ،

وكلما كثر نصيب المرء من هذه الصفات كثرت حصانة غاياته ووسائله ، ومن أجل ذلك ترى الرجل الذى يعتقد الناس فيه هذه الصفات أقدر على مغالطة الناس ومغالطة نفسه فتسهل هذه المغالطة بما له عند نفسه وعند الناس من ثقة بنصيبه من هذه الصفات ، وهذا الرجل أشد خطراً على الحق والخير إذا غالط نفسه أو غالط الناس لأنه يسهل تصديقه والاقتداء به ولا يحسب أحد أن له غاية حقيرة أو وسيلة دنيئة بجانب ما فى نفسه من صفات الفضل والصدق والحق أو بجانب ما اكتسب من جاه وثقة .

وكما أنه يسهل أن تحول الغاية الدنيئة غاية رفيعة نبيلة وأن تعتقد أن تلك الغاية العلى صارت لنبيلة فى نظرها تبرر الوسطة الوضيعة يسهل أيضاً أن تستغنى النفس عن الخطوة الثانية وهى تبرير الوسطة الوضيعة أو تحويلها إلى واسطة نبيلة وإبرازها للناس كأنها واسطة شريفة سامية بدل تبريرها بالغاية والمقصد ، وهذا من شدة احتياط النفس عند من قد يرفض ذلك التبرير ويأبى تلك التزكية ، ونظرة من الباحث المتقصى وسائل الناس تدل على أنهم يتعامون عن ضعة رسائلهم ويغالون فى إبرازها فى حلة الوسائل السامية وإنما الخلاف بينهم فى تزكية كل منهم وسائله واتهام وسائل غيره . وقد يعرض للباحث سؤالان هما هل يتاح للإنسان عصر يكثر فيه من بحث نفسه وتقصى حقائقها ؟ وهل يرفع هذا التقصى من نفس الإنسان ؟ ؟ أحسب أن هذا لا يكون مادام ذعره خشية فقدانه وسائل الحياة على اختلاف أنواعها واقعاً محذوراً .

١٦- الصفات المحسودة *

قال شوينهور : إن حسد المرء للشئ يكون على قدر يأسده من نيل مثله ؛ وهذا اليأس أساسى من أسباب الحسد ، فقد يُحسَدُ صاحب الضياع والعمارات والسيارات ، ولكن حاسده قلما يقصده بحسد كحسده لصاحب العقل الرجيع الأصيل الذى يستمد من العبقرية الموروثة صفاتها . فالأول قد يحسد فى فترات غير متصلة ، لأن الحاسد يرجو أن ينال الخير على يديه مما لديه ، أو يرجو الخير من جاهه ووساطته لدى من تنفع شفاعته عنده . فالخير يرجى فى التحبيب إلى الغنى والخضوع له والمهابة عند طلعتة ؛ وهذه أمور قد تكون ظواهر تستر حسدا ، ولكن المرء إذا روض نفسه عليها واعتادها عاد بعضها حقيقة فى نفسه يخالطها أو لا يخالطها النفاق . ربما يعين فى تحويلها إلى حقيقة أن المرء مأخوذ بوسائل الحياة ، منهموم بها من مال وعقار وجاه ، فهو يعدها أسباب الحياة الأولية أكثر مما يعد العبقرية من أسباب الحياة ؛ ولا يجل الناس عقلاً بلا مال قدر ما يجلون مالا بلا عقل . فالموهوبات المادية لا يحسدها المرء قدر حسد الموهوبات العقلية ، لأنه يرجو الخير عند الأولى بالتحبيب إلى صاحبها ، ولأنه يهابها ، والهيبة والاجلال تتغلب على الحسد للمرء المهيب . أما الثانية فإذا كانت استعداداً موروثاً من صفات العبقرية لا يجلبه التعليم ولا تخلقه التربية ، لم يكن للمحرور أمل فى نيلها ؛ وهذا اليأس منها منشأ الغيظ والمقت والحقد والحسد ولعل النفس تزكى نفسها بأن المرء المحسود لم ينل الاستعداد الموروث بجد واجتهاد وعمل فهو لا فضل له فيه ، وهذه مغالطة ، فإن الاجتهاد والجهد والعمل صفات منشؤها استعداد موروث آخر .

ولا يحسد المرء المال الموروث قدر حسده العقل الموروث ، لأن المال الموروث يوجد مثله فى السوق ، وقد ينال الصعلوك مثله وأكثر منه فيغنى بعد فقر . فالأمل فى كسبه موجود دائماً حتى وإن بعدت وسائل نيله ؛ وإذا وجد الأمل لطف من عدواء الحسد . أما الاستعداد العقلى الموروث فلا يناله أحد بالاجتهاد والعمل كما ينال العلم المكتسب الذى هو شئ آخر ، فليس عند المحرور أمل فى نيل صفات العبقرية الموروثة مهما كان أمله عظيماً فى نيل العلم المكتسب ، فتراه يحسد على الاستعداد العقلى الموروث أكثر من حسده على الضياع والعقار ، وأكثر من حسده على العلم المكتسب ؛ وهو لا يحسد على الضياع والعقار والمال إلا إذا يئس

من بلوغ الخير عند صاحبها ، أو إذا يئس من بلوغ مثلها بالجهد والاجتهاد ، أو بالنصب والاحتياال ؛ وهو لا يحسد على العلم المكتسب إلا إذا حرم صفات الجلد والمثابرة والقدرة التي ينال بها العلم المكتسب . فاليأس هو أساس الغيظ والحقد والحسد فى كل حالة من الحالات الثلاث .

ومما يحير الألباب أن ترى إنساناً فقيراً لاحول له يحسد على صفات العبقريّة التي هي فيه أو التي يحسبها الحاسد من صفاته أكثر من حسد الحاسد للغنى صاحب المال والجاء ، فيحار الباحث المفكر فى تعليل هذا التفاوت فى الحسد ؛ وكان المعقول فى رأيه أن يكون مقدار الحسد على عكس ما يرى لأن الناس تتقاتل على الذهب والفضة ، ولكن إذا عرف الباحث ما ذكر من نشأة الحسد وسببه زالت حيرته وزال عجبه .

ولعل لهذا الانقلاب فى مقادير الحسد الذى يقصد به صاحب المال وصاحب العقل الموروث سبباً آخر ، وهو أن وسائل القهر والدفاع والانتقام متوفرة عند صاحب المال وهي أمور يخشاها الحاسد ، والخوف منها يُلطف من غلواء حسده لصاحب المال والجاء خشية أن يصيبه من قدرة الغنى أو صاحب الجاء ومن انتقامه وبطشه ما يؤذيه فيردعه الجبن عن الحسد . فترى أن الرهبة من وسائل البطش عند صاحب المال والجاء تعمل أيضاً عمل الرغبة فى الاستفادة من التحبيب إليه ، وكلتاها تضعف الحسد فى نفس المحسود .

ومظاهر العقل المكتسب لا ينالها من حسد الحاسد قدر ما ينال مظاهر العقل الموروث ، فالعلم الذى ينال بالاجتهاد هو من مظاهر العقل المكتسب الذى يستطيع كل مثابر أن يناله ، أما العبقريّة فى شتى مظاهرها فلا ينالها المحروم بالجهد والاجتهاد ، ويأسه منها واقع لا محالة ؛ وهذا اليأس هو منشأ غيظ المحروم منها ومنشأ حسده ، ولا يردعه عن كيد الحسد خوف البطش ، لأن العبقري قلما تتوافر لديه أسباب البطش توافرها عند صاحب الجاء والمال . فالجبن الذى يحذر الحاسد من بطش المحسود إذا كان ذا مال وجاء يتطلب فى نفس المحسود ما يزيكه وما يداوى ألمه وما يغالط النفس عنه كى لاتعثر بها الذلّة والاحتقار من أجله بأن يتحول الجبن استطلاّة وكيداً لصاحب العبقريّة الذى فقد وسائل البطش أو لمن خيلت فيه صفات العبقريّة .

ومن أجل ذلك ترى أن المرء قد يؤلف كتاباً فى الجبر أو الحساب أو الهندسة أو غيرها من العلوم فيروج ويقرأ فى شتى المدارس وينشر مؤلفه منه طبعة بعد طبعة حتى يشرى بسببه

ويقتنى العقار والضياء ويحصل من أجله على مال كثير فلا يصيبه من حسد الحساد قدر ما يصيب فقيراً من ذوى الفنون أو الفكر الأصيل إذا لمحت فيه مظاهر العبقرية أو خيلت فيه لأن العبقرية استعداد موروث لا أمل للمحروم فى نيله ، واليأس منشأ الغيظ والحسد .

أما صاحب العلم المكتسب الذى يؤلف كتاباً يفتنى من أجله فقدوته قدرة مكتسبة يستطيع كل انسان أن ينال مثلها إذا انصرف إلى وسائل نيلها وخصص نفسه لها ، فلا يأس يدعو إلى الغيظ والحسد الشديد ؛ وإن كان يصيب صاحب العلم المكتسب حسد عليه فحسد الكسول الذى يستطيع بلوغ العلم المكتسب ولا يتخذ العدة لبلوغه ، وهذا حسد كسول مثل صاحبه الحسود . وإذا كان ذا نقص عقلى يمنع من بلوغ العلم المكتسب فالحسد فى هذه الحالة على العقل الموروث الذى نقص حظه منه .

وعلى هذا القياس ترى فى الفنون أستاذ الصنعة الذى حرم العبقرية واكتسب الصنعة بالجد والاجتهاد ، لا يحسد قدر ما يحسد الفنان الذى يرى الناس فيه مظاهر العبقرية ؛ فترى الأول ذا جاه وأصدقاء ومال ولا يحسد على كل هذه النعم قدر ما يحسد الثانى . ومما يزيد الخلق والحقد على ذوى العبقرية فى شتى مظاهرها العلمية والفنية أنهم أناس ذوو نظرات جديدة خاصة ، والناس من أجل كسلهم الفكرى ومن أجل خوفهم من الجديد المجهول غير المؤلف يرون صلاح الحياة وضمانها فى الاستمسك بالمألوف ، حتى ترغمهم العدوى شيئاً فشيئاً على الأخذ بما لم يكن مألوفاً لديهم . ومما يزيد فى خوفهم شطط أهل الشطط ؛ وهذه الأسباب إذا عللت جانباً من جوانب الخلق والحقد فإنها لم تعلل كل جانب ، ولم تعلل الحسد الذى ينشأ من الرغبة فى شىء حال اليأس دونه . وكثيراً ما يختفى الحسد وراء ستار فيحسب شيئاً آخر غير الحسد . وكثيراً ما يحسب فضيلة من الفضائل لأنه يستتر بستار الفضائل ويتخذ لباسها لباساً كى يخفى قبح نفسه ، وكى يكون أبلغ فى الكيد لأنه يبيع كل صنعة . والحسد ليس من صفات المحرومين وحدهم ، فإن من الموهوبين من هو شديد الحسد . ومنشأ الحسد فى الموهوبين الرغبة فى التفرد بكل إجابة . والعبقرى الموهوب قد يحسد إذا يتيسر من حيازة شىء جليل أصيل وإن كان عنده مثله . فالرغبة فى حيازة كل فضل ، واليأس من تحقيق تلك الرغبة ، وينشأ الحسد فى صدره كما ينشأ فى صدر المحروم .

وقلما يحسد أشباه العامة ذا العبقرية قدر حسد العلماء أو المتعلمين أو الحفاظ المجتهدين له ، فمن أخذ بنصيب من العلم قل أو كثر أحس فقده العقل الموروث إذا كان قد حرم صفاته فييأس منها مهما غالط نفسه وادعأها لها . فالمغالطة والخلق الناشئ من اليأس قد يتفق

وجودهما في وقت واحد . والعامّة إذا أبغضوا ذوى العبقريّة كان بغضهم بسبب جلب العبقريين لغير المألوف من المعاني في بعض الأحيان وسبب قلة فهم العامّة ، وما ينشأ عنها من الغيظ والخوف والملق ، فيستثمر المحسود المتعلم هذه الصفات فيهم كوسائل لاشباع حسده ؛ وقد يستثمرها كي يصرف نفوسهم عن أن يحسدوه على جاه أو مال أو كي يزكى نفسه بمعاونتهم فيما يحس من ضعف وجبن نشأ من اليأس والعجز عن الأمر المحسود الذي لا يستطيع نبيله لأنه استعداد موروث .

١٧- من مسرات الحياة *

قال ابن خفاجة الأندلسي الشاعر :

وَشَانُ مِثْلِي أَنْ يَرَى خَالِيَا بِنَفْسِهِ يَبْحَثُ عَنْ نَفْسِهِ

وكننت كلما قرأت هذا البيت أعجب كيف لم ينظم قائله شعراً كثيراً في بحث ميول النفس وأحاسيسها وتعليلها وتحليلها ، وقد ذكر في بيته هذا أن من شأنه أن يخلو بنفسه يبحث عن نفسه . ومن كان هذا شأنه فَحَصَّ النفس الإنسانية على اختلاف تربتها ، وهذا عمل العمر وأكثر من العمر ؛ وهو أيضاً لذة متجددة ، وإن أدى البحث إلى ما يؤدي إليه بحث قاع الجب أو قاع البحر وما فيه من درر ولؤلؤ ومرجان وغابات بحرية وأعشاب وأحياء تقتتل ويفنى بعضها في بعض ووحوش بحرية غريبة مجهولة ، وجيف ورمم ، وكنوز ثمينة في بقايا السفن الغائرة ؛ فهكذا قاع النفس أيضاً لدى من يسبر غورها ويغوص في أعماقها . وسطح النفس أيضاً مثل سطح البحر ، لج وخرير ، وشمس تتلألأ أشعتها ، ونسيم عليل ، ومنظر بهيج هادي ، أو عواصف وأعاصير ، ومرأى رائع جليل . وإذا كانت بعض مظاهر النفس تبحث الرهبة ، فإن بعض بواطنها أدعى إلى الرهبة ، ولكن من الرهبة ما يتصعب المسرة ، كالرهبة التي يحسها المرء وهو يستطلع الأمر الغريب الرائع المخوف المجهول ؛ ومن أجل ما تستصعب من المسرة نشأ حب الاستطلاع لما يستدعي المخاطرة من مستطلعه .

ولعل ابن خفاجة في بحثه النفس كان ينظر إليها نظرة المستريح في ظل الشجرة يلمح فيها حوله وكأنه لا يفكر ، فإن في مثل حالة هذا المستريح تفكيراً كلاً تفكير ، وبحثاً كلاً بحث ، فهو تفكير يقنع فيه المرفه نفسه بالنظر إلى المراتب واللوانها وأجزائها من غير أن يُعْنَى نفسه بالبحث عن سرها خشية أن تضيق لذة الراحة والدعة ؛ فشأنه شأن المسبحور لاهلاك له ، وفكره أيضاً لاهلاك له ، ويخيل إليه في مثل هذه الحال كأن الدهر قد أوقف دورته واستراح ، وكأنما يخشى أن يفك عنه الحراك سحر التأمل ولذته المطلقة التي لا تتقيد بتقصي الأسرار والمسببات ، ولا هي مثل لذة المخاطر الذي يرى في مشقة استطلاع الغريب المخوف ممرة كما أوضحنا .

على أن من الميسور أن ندرك ابن خفاجة في حالة أخرى من حالات بحث النفس ، وهي الحالة التي يغوص المفكر على العويص الغائر من أسرارها ، ويحس لذة في غوصه قلاً جوانب

نفسه حتى تشغله عن لذة التعبير عما يراه فى بحثه تعبيراً فنياً ، فإنى لا أحسب ابن خفاجة رأى أن تتبع حركات النفس وخطراتها وأحاسيسها فى شعره غير لائق بشعره إذ أى شىء ألصق بالقريض من النفس وأحوالها وميولها وخطراتها ، فالشعر هو لغة النفس وموسيقاها ، ومقر كنوزها وحكمتها وأسرارها .

ولكن للبحث فى النفس مسرات مختلفة ، قد تفترق وقد يتصل بعضها وينال فى وقت واحد ، فمسرة فيما يجلبه التعبير الفنى عن أحاسيس النفس من ارتياح الفنان الصانع فى صنعه ، ومسرة أخرى فيما تجلبه مشاهدة أطوار النفس والتأمل فى أحوالها من الارتياح كارتياح مشاهد القصة التمثيلية فى تتبع روعة فن القصة كما يبرزه الممثل .

وهذا الارتياح غير ارتياح المسحور المأخوذ بما يراه من المنظر الطبيعى أو الصورة الفنية النادرة ، وارتياح المسحور هذا هو أيضاً مسرة أخرى فى التأمل فى النفس البشرية .

ولكل مسرة من هذه المسرات الثلاث قيمة فى الحياة ، وكل منها تعين المرء على تحمل متاعب الحياة وآلامها ، بل إنها لتعين اليأس بما فيها من لذة فن البحث والتقصى على تحمل ما يحس من يأس من النفس البشرية إذا لم يستطع غير اليأس منها . وكل إنسان له نصيب من هذه المسرات الثلاث ، فكل فنان ، وكل إنسان يعبر عما يراه فى أعماق النفس تعبيراً فنياً ، إما فى ثناء ما يسلى به نفسه فى خلوته من الأغاني والأنشيد ، وإما فيما يفوه به من الأمثال العامية أو غير العامية ، وإما فى آهاته وأناته وأمانيه ، وإما فى ثناء قصصه ونكاته وفكاهاته ، وفى مجالسه ومبازله ، وفيما يقول فى سخطه وحزنه وسروره ، أو فى نشره وشعره إن كان ناثراً أو شاعراً ، أو فى أدوات الفنون الأخرى من نحت أو تصوير أو موسيقى .

وكما أن كل إنسان ينال نصيباً من لذة الفنان المعبر عن النفس تعبيراً فنياً ، فكل إنسان ينال أيضاً نصيباً من مسرة المشاهد لقصة الحياة والنفس التى تمثل أمامه ، وكل نفس تحاول أن تحول كل ما يمر بها من الحوادث إلى قصة وفن وإن لم يظن أكثر الناس إلى هذه المحاولة فى أنفسهم . وكما اضطر الإنسان إلى الخروج عن نشوة التأمل المشاهد لفن قصة الحياة والنزول إلى ميدان الألم الممض والأحزان ، أدى واجبه من ألم الحياة وأحزانها مما لامر منه ، ورجع بأسرع ما يستطيع إلى موقف المعبر عن الحياة والنفس ، أو إلى موقف المشاهد لقصتها ، حتى إنه ليحاول أو يحاول أن يحول آلامه وأحزانه إلى قصة وفن وإن لم يشعر بتلك المحاولة من نفسه ، لأنها فى كثير من الأحوال محاولة طبيعية لاتعمد فيها ولا تصنع ، وإن كانت أحياناً تستلزم عملاً ظاهراً يلفت المرء إلى مجراها من نفسه كما يكون شأنها عند الفنانين .

وإذا لم يستطع المرء أن يسرع فى التنقل من موقف المؤدى واجبه المفروض من آلام الحياة وأحزانها إلى مواقفه الأخرى التى ذكرت حاول أن يجمع بين الأمرين فى وقت واحد بأن يقف من آلامه التى يعايتها موقف الممثل من آلام الشخص الذى يمثل فى القصة ، فيجمع الإنسان وقتئذ فى نفسه نفسين ، كما يجمع الممثل بين نفسه ونفس من يمثل ، سواء أكان هاملت أو الملك لير أو عطيل الخ .

وترى المرء وهو فى هذه الحال وفى دموع حزنه معنى آخر مع ما فيها من معنى الحزن والألم . وإذا لم تستطع النفس أن تقف موقف الممثل من آلامها وشجونها التجأت إلى موقف المسحور المأخوذ بصور الحياة ومناظر النفس سواء أكانت بهجة أو غير بهجة ، وقل إنها تسحر بها فى بعض الحالات كما تسحر بمناظر الجلال والروعة من مناظر الطبيعة الهائلة . وهذا أيضاً تحول من النفس والتجاء طبيعى لاتعمد فيه فهو قلما يحس ، وكلما كان نصيب المرء أوفر من ملكات التحول والالتجاء ، أو قل التهرب والنجاة من حوادث الحياة ، كانت سيطرته على آلام الحياة أعظم ، لأن هذا التحول إنما هو وسيلة من وسائل مكافحة آلام الحياة لايحتاج المرء اليها إلا بعد الوسائل الأخرى .

ومن المشاهد أن النفوس عند وقوفها موقف الممثل من آلامها وحوادث أيامها تختلف فى منحائها ، فنفس يكون موقفها أشبه بموقف ممثل الجذ ، ونفس موقفها أشبه بموقف ممثل الهزل ، والأولى قلما يفتن الناس إلى موقفها التمثيلى ، والثانية قد يفتن الناس إلى موقفها التمثيلى لبعده ما بين حقيقة حالها وهزلها . ولعل فطنة الناس إلى موقفها التمثيلى تكون فى الحالتين بمقدار قلة اتقانها لدورها أكثر مما يكون لممثل موقفها إلى الجذ أو الهزل ؛ والمرء فى هذا الموقف النفسانى التمثيلى هو باحث متفهم لدوره دارس له كما يتفهم الممثل دوره ويدرسه حتى ولو كان ممن يجيدون التمثيل بالسليقة من غير طول عناء فى التفهم والدرس ؛ ومسرته إذن متصلة بمسرات البحث فى النفس والحياة .

ولعل قائل يقول إن بحث النفس بحث معاد مملول يجلب السأم ، وإن النفس كالتاريخ الذى يعيد نفسه ؛ لكن النفس إذا أعادت تاريخاً من تواريخها لم تعد بالنص ، وقد يأتى التاريخ مع الأسباب والمسببات بالأسباب ، وهذا ليس بالأمر الهين ولا هو بالأمر المعاد المملول ، ثم إن تحت ما هو معاد مملول من أطوار النفس وأسبابها أسباباً أخرى لا يصل إليها التقصى ، وأعماقاً يعجز الغائص عن سبر غورها وفيها مجال واسع لحب الاستطلاع الغريب حتى يأتى الموت

فيسدل ستاره على لعب الحياة المقدس إلا إذا مل المرء البحث من اليأس والعجز عن بلوغ غور النفس لا من العرفان .

والإنسان في رحلة الحياة كالمسافر الجواب للأقطار ! وترى بين ذوى الأسفار من يتعجب من كل أمر ، ومن يضحك من كل شيء ؛ ومنهم من يتأفف من كل أمر ، ومن يسخر من كل شيء ؛ ومنهم من يتحمل أشد مشقة من شغفه باستطلاع الغريب أثناء أسفاره . والناس أيضاً في رحلة الحياة الدنيا يختلفون في أهوائهم ؛ ومنهم من يتحمل أيضاً أشد مشقة وأمض ألم من شغفه باستطلاع الغريب مما تأتي به الأيام والليالي أو ما يراه في بحث النفوس البشرية . ومن ذوى الأسفار في أقطار الأرض من يحكم على قوم بحالة واحدة رآها في أحدهم ، شأنه شأن الإنسان في رحاب الحياة الدنيا يحكم على النفوس بحالة واحدة يحولها إلى قاعدة ونظرية عامة . وذو الأسفار في الأقطار كالإنسان في رحلة الحياة قد يتعجب ويستغرب الطبيعي المألوف من عادات الناس أو أحوال نفوسهم وأخلاقهم لأن الإنسان ذو خيال يتوقع به أن يرى الناس على ما يورد من أخلاقهم وعاداتهم وعلى ما يسره ويرضيه . وينفعه منها ، فإذا اطلع على المألوف مما لا يورد منها فاجأه مفاجأة غير المألوف ، وهذا من أثر أنانيته التي تغالط نفسه مغالطات مختلفة ، فمرة تغالطه حتى يتوقع من أخلاق الناس الحسن النافع له ، ومرة تغالطه حتى يتوقع السيء الذي يتباهى بالخلو منه ، وقد لا يكون ذلك الحسن ولا ذلك السيء من خصال أو عادات الذين ينعتهم ، ولكنه يرجو النفع لنفسه في الحالين إما بتوقع الحسن منهم كي يستفيد ، وإما بتوقع السيء كي يعلو بمنزلة نفسه عنهم ، فليس كل بحث في النفس مصيباً ، فالتناس في بحث النفوس كالعميان في القصة وقد تلمسوا الفيل من نواح وأطراف مختلفة ، فقال أحدهم وقد لمس ساقه إن الفيل كالدعامة المستديرة ؛ وقال آخر وقد لمس سنده إنه كالعصا الغليظة ؛ وقال ثالث وقد لمس أذنه إنه كالمروحة ؛ وأدى بهم الغيظ والغضب لما حسبوه حقاً إلى التقاتل كما يتقاتل الناس غضباً لما يحسبونه حقاً في الحياة . ولعل للذة المفاجأة المتجددة والتي تنفي الملل عن الإنسان تعوضه من ألم الحسرة ، على أن الحياة والنفوس لا تأتي له بكل ما يرتضى ويشاء .

١٨ - بين تليستوى وماكس نوردو*

قرأت تليستوى قبل أن أقرأ نقد ماركس نوردو لأرائه . وكنت أشك فيما شك الناقد الألماني ، ولكنى عندما قرأت نقده لتليستوى لم يقنعنى تعليله ، أو على الأقل رأيت أنه لم يتتبع كل احتمال يمكن أن تصير إليه النفس الحائرة فى بحث معضلات الحياة ، ولم يقف كل موقف من الجائز أن تقفه فى أثناء بحثها ؛ فكان تعليله لما ينتقد من الآراء بالشذوذ الجثمانى فى صاحب رأى ، ولم يدر أن كل إنسان شاذ وأن كل مفكر مصحوب بشىء من الشذوذ الجثمانى ، وأن الشذوذ الجثمانى قد يكون فى غير المفكر أكثر منه فى المفكر ، وأن الإنسان حيوان شاذ ، وأن رأى الذى ينقده قد يكون قد دخل عليه الخطأ بسبب رفض صاحبه خطأ آخر فى أثناء بحثه الحياة واختيار مسالك رأى فيها . ولو أن ماركس نوردو قد فسر سبب رفض تليستوى لنقيض ما رأى من الآراء لكان قد وصف رحلة نفس تليستوى فى عالم الإحساس والوجدان ، ولكان قد وصف رحلة فكره فى عالم الأفكار ، ولكان قد وصف من تلك المسالك ما هو كالتيه ذى الطرق المتشعبة وما يحسبه ماركس نوردو طريقاً مُعبداً بالخرسان والقطران والأسفلت .

خذ مثلاً تليستوى فى الامتناع عن الإجرام حتى قتل المجرم للدفاع عن النفس أو عن طفل برى ، فهو يقول لك انصح المجرم وعظه والتجىء إلى جانب الخير من نفسه وحاول أن تمنعه من ارتكاب جريمة القتل ، ولكن احذر أن يكون منعك إياه عن الجريمة بأن تأتى أنت جريمة كأن تقتله ؛ فإذا رأيت مجرماً يريد أن يقتل طفلاً فضع نفسك بينه وبين الطفل وعظه . ولكن لاتقتله لأنه يريد أن يقتلك أو أن يقتل إنساناً آخر حتى ولو كنت قادراً على قتله .

ياخذ ماركس نوردو هذا رأى فيفنده ويسخر به ويهزأ منه . وله أن يفنده وأن يظهر مواطن الضعف فيه ، وله أن يسخر منه ماشاء أن يسخر ، وله أن يقول إن هذا رأى يؤدى إلى موت الأبرار وتحكم الأشرار . إذا أخذ به بعض الناس ولن يأخذ به كل الناس إلا إذا انمحن الشر من النفس الإنسانية فلا يكون إذن للرأى معنى ولا ضرورة ، وإذا مات الأبرار الأخيار بسبب أخذهم بهذا رأى وتحكم الأشرار رجعت الحالة إلى ما كانت عليه قبل الشروع فى تحقيق هذا رأى وانعدم هذا رأى من عالم الأفكار والأحياء . فإذا قال ماركس نوردو كل هذا كان مصيباً فى قوله ، وإن كنا لانقطع بحدود فجاءات النفس البشرية وحدود عدوى المحاكاة كمحاكاة

الاتقطاع المطلق عن الشر . ولعل تلستوى قد قدر كل ما قدره ماكس نوردو من شر يعود به الاتقطاع عن الشر حتى في الدفاع عن الخير أو عن النفس أو عن الأحياء ، ولكن لعله كان يؤمن بالنفس البشرية أكثر من إيمان ماكس نوردو بها فقدراً أيضاً ذبوع الأخذ برأيه وانتشار عدوى محاكاة الاتقطاع عن الشر حتى تعم الناس قاطبة بعد ويل يكون للبادئين بالأخذ به ، والبادئون دائماً ضحية في كل رأى ومذهب . ولعله قدر أيضاً أنه لو أخطأ في إيمانه بالنفس الانسانية فإن الويل والضرر للذين يكونان نتيجة الأخذ برأيه مقبولان في سبيل تجربة قد تعود على الانسان بالخير الآجل إن لم يكن عاجلاً ؛ ولعله قدر أيضاً أن المرء قد لا يأخذ برأى الاتقطاع عن الشر المطلق دائماً ، ولكن هذا الرأى قد يبعد به عن الشر أحياناً أو قد يقلل من غلواء شره كما قللت روادع المسيحية من قسوة من اعتنقها من التبتوتون الذين غزوا الدولة الرومانية وإن لم تقض على قسوتهم كل القضاء . ولم يكن تلستوى أول من فكر هذا الفكر ، فانه فكر تلتجىء إليه النفس الإنسانية المعذبة كلما حاولت التهدى إلى وسيلة تخلصها من شرور الحياة كما فعل البوذيون قديماً عندما دهمتهم قبائل المغول والتتر والتركمان في الهند ، وكما فعل المسيحيون القدماء عندما كانوا مضطهدين في الدولة الرومانية الوثنية قبل اعتناقها للمسيحية .

ثم لعل تلستوى قد قدر أيضاً أن دفع الشر بالشر يؤدي إلى خلود حب الانتقام والأخذ بالثأر ؛ وكثيراً ما فئت أسر وقبائل وشعوب بسبب خلود حب الانتقام والأخذ بالثأر جيلاً بعد جيل . ونحن نرى الآن كيف يهدد الخراب عالم العمران بسبب دفع الشر بالشر والمباراة فيه . فترى أن خطأ تلستوى ليس بالخطأ الذى يتهم صاحبه من أجله بالانحطاط والجنون كما فعل ماكس نورداو الناقد الألماني ، ولم يكن هناك من داع في هذا الحالة لنظرية الانحطاط التى بنى عليها ماكس نورداو كتابه (الانحطاط) ولو أنه اكتفى بإبراز الحيرة الفكرية التى أدت بهروب تلستوى من نظرية دفع الشر بالشر إلى نظرية ألا يدفع الشر بالشر وأوضح خطأ هذه الحيرة لكان أقرب للتقوى .

وعرض ماكس نورداو مذهب تلستوى في العاطفة الجنسية ؛ وله أن يفنده وأن يسخر منه ، ولكن كان من تمام الحكمة والفلسفة والتفكير أن يعرض شرور الحلول الأخرى التى تحمل بها معضلة العاطفة الجنسية لكن يفسر الحيرة التى أدت إلى هروب تلستوى منها ، فإن حل معضلتها ليس طريقاً مموهاً بالأسفلت والقطران كما حسب ماكس نوردو ؛ وهو إن كان كذلك فهو أيضاً كثير الحفر والمهاري ، وهى التى أدت إلى ذلك الرأى الغريب الذى ارتآه تلستوى

وجعله يطلب رفضها رفضاً باتاً حتى فى حالة الزواج ؛ وهو فى هذه الناحية أقل إيماناً بالنفس الإنسانية من ناقده ، ولكن كان يجدر بناقده أن يبرز الشرور والآثام التى تكثر ، سواء أكان حل معضلة العاطفة الجنسية بقلية القيود والغيرة ، أو بضعف القيود والغيرة أو بانعدامها كلها ؛ فلعل تلتوى قد نظر طويلاً إلى كل حالة من هذه الحالات ؛ ولعل طول نظره فى كل حالة هو الذى حيرته ودعاه إلى رفض العاطفة الجنسية رفضاً باتاً ، فالخيرة ليست دائماً دليلاً على كلال الذهن وقصر نظره وغموضه وانحطاطه ؛ وهى تذكرنى برجل جليل فاضل مفكر كان يجيد لعب الشطرنج ويفكر فى كل تفكير يصح أن يفكر فيه الذى يلاعبه ، فكان لا يفكر فى لعبة إلا فكر فى طريقة ضدها تهزمها فينتهى به الحال إلى أن يلعب أول لعبة تخطر على ذهن اللاعب وتستدعى سخر الناظرين وضحكهم .

ونظر ماكس نوردو إلى موقف تلتوى من العلم ، وكان ينبغي لو حاول الاتزان فى النقد أن يفسر سبب الخيرة التى دفعت بتلتوى إلى رفض أكثره ، وأن يميز بين حيرة الجاهل الغيبي وبين حيرة الذكى التى هى أشبه بحيرة لاعب الشطرنج الذى وصفته ، وأن يفرق بين خطأ الغافل الذى لا يفكر وخطأ المفكر الذى يحيره كثرة الفكر وتشعب مسالكه والتواؤمها حتى يراها مثل حارات القاهرة القديمة التى ليس بها منفذ ولكنها حيرة لاتستدعى أن يتهم صاحبها بالانحطاط حتى ولو كان صاحبها مخطئاً ، وإلا كان الانسان حيواناً كثير الانحطاط ، وكان الانحطاط الذى يعينه هو من النقص المحتوم فى الطبيعة البشرية . ولعل تلتوى قد قدر عواقب العلم الحديث فى النظم الاقتصادية وفى النظم والمخترعات الحربية وهى عواقب أدت إلى كوارث الحرب العظمى وأهوالها ، وإلى الأزمة الاقتصادية ومعضلاتها ، وهى إلى الآن تهدد العالم بالخراب ؛ فلا غرابة إذا أدركته الخيرة ، ولا غرابة إذا أخطأ فلم يصب أحد بعد فى حل تلك العضلات . ولعل تلتوى قد فكر أيضاً فيما فكر فيه اللورد بالفور عند ما قال فى وصف أثر العلم الحديث فى تغير نظر الإنسان إلى الحياة : "إن العلم الحديث يعلم الإنسان أن الدنيا لم تخلق من أجله ، وأنه ليس تاج الخليقة ولا أنه من سلالة من سكن الجنان قديماً ، وأن حياته جاءت عفواً ، وأن تاريخه قصة عار وحادث لا تشرف من حوادث أحقر نجم سيار ، وأنه مملوء بالأسقام والآثام والمجاعات والقتل والقسوة . وأن الانسان بعد آلاف لا تحصى قد صار له من الضمير ما يعرف به حقارة نفسه ، ومن العقل ما يدرك به أنه مخلوق تافه ، وأنه بعد عصور طويلة فى ذاتها قصيرة بالنسبة إلى ما مضى من العصور الجيولوجية سينمحي بهاء الشمس يرونها ، ولا تسمح الأرض ببقاء ذلك المخلوق الذى أقلق هذأتها ، فيفنى الإنسان وتفنى معه

آرائه وأفكاره كلها ، فكأنما كان عمله وذكاؤه وإيمانه وآلامه وجهاده فى عصور حياته الطويلة عبثاً ومن غير جدوى .

ثم إن العلم الحديث يقول أيضاً إنه على فرض تحقق السلم والخير الشامل ، وعلى فرض انمحاء الشر ، فإن هذه حالة تؤدي إلى تدهور الإنسانية ، لأن الخير فى مقاتلة الشر ، والذكاء مستنبط من الخوف والحذر من الجوع ومن اعتداء القوى ، فإذا انمحق الخوف والحذر والشر والاعتداء ضعفت الإنسانية وتدهورت وتردت فى هاوية الفناء .

ولعل تلتوى قد نظر أيضاً إلى ما نظر إليه ادن فلبوتس القصصى الإنجليزى فى وصف أثر هذه الآراء كلها فى المجرمين فى أوروبا والولايات المتحدة وغيرهما . فإذا كان تلتوى بعد ذلك النظر قد رفض أكثر هذه الآراء العلمية فليس رفضه دليلاً على الانحطاط كما قال ماكس نورداو بل هو من حيرة المفكر الذى يتهدى .

ولعل تلتوى فى استعراضه تاريخ العاطفة الجنسية ومحتملاتها ونفاقها وأكاذيبها وآثامها ونظمها على اختلاف تلك النظم ولعله أيضاً عند استعراض تلك الآراء والنظم العلمية الحديثة قد نظر إلى قول القائلين إن العاطفة الجنسية والعلم الحديث هما كالماء الذى تضعه فى الإناء القدر فيصير قدراً ، وتضعه فى الإناء النظيف فيكون نظيفاً ، والآنية تختلف كاختلاف النفوس وأصل الماء واحد سواء الذى وضع فى الإناء القدر والذى وضع فى الإناء النظيف .

ولكن لعل تلتوى أيضاً قد فطن إلى أن هذا تشبيه لا أقل ولا أكثر ، وأنه عند امتحان النفوس وتطبيقه عليها يتلاشى ويتضاءل إذا أعوز الإناء النظيف من آنية النفوس البشرية .

١٩- حدود الحق والواجب *

إننى أرى أن رقى كل أمة لا يقاس بما فيها من مسببات الرفاهية والثروة أو معدات القتال إذا كان احترام حدود الحق والواجب غير شائع بين أبنائها . فإنها إذا فقدت هذا الاحترام فقدت العروة الوثقى التى تعتصم بها للمحافظة على مسببات الثروة والرفاهية وللانتفاع بمعدات القتال والدفاع . وإذا عرضنا حياة الأمم وتاريخها الاجتماعى وجدنا أن مسببات الثروة لا تلبث أن تزول إذا كان نظامها الاقتصادى غير مؤسس على احترام حدود الحق والواجب . إنها قد تزدهر فيها الثروة حيناً ، وقد يؤجل لها الخراب المحتوم زماناً ربما طال ، وربما يغررها طول هذا الزمن الذى تستمر فيه رفاهيتها وثروتها بالرغم من ضياع احترام أبنائها لحدود الحق والواجب ؛ وما طول تأجيل خرابها إلا لما يزال فيها من العناصر الصالحة والقوة المدخرة من عهد الماضى الصالح ، كالقوة التى تدفع المرء إذ نزل من سيارة سائرة فيسير هو أيضاً بعد نزوله منها ؛ وقد تكون خطوات سيره قليلة أو كثيرة ، ولكنه إنما يسير إلى الأمام مدفوعاً لا مختاراً . وكذلك الأمة التى تنزل عن احترام حدود الحق والواجب إذا تقدمت فإنما يكون سيرها سيراً آلياً لا فضل لها فيه ، ولا يلبث أن ينتهى ، إلا إذا أدركتها أسباب جديدة تدعو إلى استمرار سيرها . وينبغى ألا نستبطنىء أو نستعجل انتهاء تقدم مثل تلك الأمة التى فقد أبنائها احترام حدود الحق والواجب ، فإن خطوات الأمم أطول مدى من خطوات المرء الذى ينزل من سيارة سائرة ؛ وقد تستجد أمور تزيد خطوات سيرها إلى حين ، وكلما كانت السيارة التى ينزل المرء منها أسرع فى سيرها كانت خطوات المرء الذى ينزل منها أكثر .

وهذه الظاهرة تشاهد فى أمور مختلفة من أمور الأمم ، فهى إذا فقدت احترام حدود الحق والواجب لم يكن الخراب مقصوراً على حالتها الاقتصادية ، بل هو يشمل أيضاً خراب الأسرة وخراب التعليم وخراب كل شىء . وكثيراً ما نرى فى التاريخ جيوشاً أقل عدداً وعدة تهزم جيوشاً أكثر عدداً وعدة من جيوش أمة فقد أبنائها احترام حدود الحق والواجب . وهذا لا ينفى انتصار الفريق الأكثر عدداً وعدة إذا ظفر الفريقان المتحاربان بقدر متكافئ من احترام حدود الحق والواجب .

ولكن القارىء غير الملم بحقيقة الأمر ربما يظن أن انتصار جيوش الدول الأوربية على جيوش الدول الشرقية كان دائماً بسبب كثرة حظ الجيوش الأوربية من عدد القتال وآلاته

الحديثة . نعم إن الأمر كان كذلك فى معارك كثيرة ، ولكنه لم يكن دائماً على هذا الحال .
ففى واقعة بلاسى فى الهند كان جيش سراج الدولة أكثر عدداً وعدة ، وكان قد اشترى من
الفرنسيين مدافع وأسلحة كثيرة ، ولكنه - بالرغم من ذلك كله - دارت عليه الدائرة .

وفقدان احترام حدود الحق والواجب يفسد أيضاً أداة الحكومة وأداة التعليم ، ويفسد صلات
أعضاء الأسرة الواحدة كما يوقع بين الأسرة والأسرة ؛ وهذا الفساد وهذا الخراب لا شك من
مظاهر التدهور مهما كان فى الأمة من مسببات الثروة أو مظاهر الحضارة والتفكير والأدب .
فمن المعروف فى التاريخ أن مظاهر الحضارة والتفكير والأدب والفنون قد تزدهر حتى والأمة
على حافة التدهور ؛ وقد تستمر وهى آخذة فى التدهور فتحسب هذه المظاهر نضوجاً ، وإن
كانت نضوجاً فهى نضوج العطن العفن كالفاكهة التى تعطن من كثرة النضج .

ولقد كانت فى أواخر مراحل الدول الإغريقية والرومانية والفارسية والعربية مظاهر كثيرة
من مظاهر الحضارة والأدب والفنون حتى بعد أن أخذت فى التدهور .

ولاشك أن فقدان احترام أبناء الأمة لحدود الحق والواجب يفسد عليهم مظاهر الحضارة
والتفكير والأدب ، ولكن هذا الفساد قد يعمل فى السر عمل السموس ولا يظهر فى أعظم
أشكاله خطراً إلا فى النهاية . وفى بعض الأحيان لا يحترس أبناء الأمة ولا يأخذون الحيلة
والحذر لمنع أسباب التدهور اغتراراً منهم بكثرة المدارس ، وأنواع التعليم ، وكثرة الصناعات ،
ورواج التجارة وانتشار التفكير ، وكثرة المؤلفات والمؤلفين ، وازدياد الأرض المزروعة ، وغير
ذلك من مظاهر الحضارة ككثرة المباني الشاهقة الحديثة ، والشوارع المنتظمة ، والميادين
الفسحة ، والسيارات الفخمة ، ومهيئات الراحة والرفاهية ، ودواعى الاطمئنان وما يجلب
اللذة والسرور .

فإذا تنبه أحدهم إلى أمر ضرورى وهو احترام حدود الحق والواجب واقتداه ولم يجده فى
النفوس بالرغم من كثرة المدارس والسيارات والعمارات والمنشآت وغيرها من وسائل الحضارة ،
وإذا حذرهم وقال لهم إن اقتداه لا بد أن يؤدى حتماً إما أجلاً وإما عاجلاً إلى التدهور
والخراب - عدوه متشائماً وخدروا عقولهم تخديراً بأن يحسبوا أن وسائل الحضارة هذه من
مدارس وعمارات وميادين وسيارات وغيرها لا بد أن تجلب لنفوسهم هذه الصفة الضرورية وهى
احترام حدود الحق والواجب ، إذا كانت حقيقة ضرورية لا غنى عنها إذا أريد تجنب التدهور
لأنهم لا يستطيعون أن يتصوروا كيف أن كل مظاهر الحضارة هذه لا تحميهم من التدهور والخراب
إذا افتقد شىء غير مرئى ولا منظور وهو احترام حدود الحق والواجب .

وهؤلاء الذين يأملون أن تعصمهم المنشآت والعمارات والسيارات والمدارس والميادين وغيرها من التدهور ، لأنها فى ظنهم لا بد جالبة هذا الشيء المطلوب ، وهو احترام حدود الحق والواجب ، ربما كانوا أقل ضرراً من الفريق الذى يتبجح ويقول إن الحضارة الحديثة مؤسسة على عدم احترام حدود الحق والواجب ، وإن كان هذا الفريق يصوغ قوله فى قالب آخر فيقول مثلاً : ينبغي ألا نياس ، فإن التفكير الحديث قد قلب الأخلاق رأساً على عقب ، وألغى الأخلاق القديمة وجاء بأخلاق تناسب رجل المستقبل . أو يقولون : إن الإنسان الذى يريد أن يكون رجلاً ينبغي أن يحرر نفسه من قيود الأخلاق القديمة . كأن الفلسفة الحديثة يمكنها أن تعطل سنة من سنن الحياة ، وهى سنة تدهور الأمم إذا فقدت احترام حدود الحق والواجب .

ومما يدعو إلى الأسف انتشار هذه النغمة بين بعض المثقفين المفكرين الذين كان ينبغي أن يكونوا أكثر فهماً لحقائق الحياة الثابتة والذين يستطيعون أن يروا كيف سرت هذه الحقائق فى الماضى فى حياة الأمم ، والذين ينبغي أن يفهموا أن ما يدعون إليه من الأخلاق الجديدة ماهر إلا عدم احترام حدود الحق والواجب ذلك الاحترام الذى إذا فقد تدهورت الأمة التى تفقده كما يشهد التاريخ .

وهناك فريق آخر أكثر صراحة وأكثر أثرة وهم يفهمون حقيقة الأمر ، ولكنهم يقولون : الطوفان بعدنا . ويريدون أن يستفيدوا من فقد احترام حدود الحق والواجب ، وأن يعيشوا بهذه الفائدة قبل الطوفان .

وهناك فريق آخر يدرك حقيقة الأمر ، ويحاول أن يزيل الخطر وأن يصلح الأمر ، ولكن بقوة مشلولة ، لأن الله إذا أراد بأمة سوءاً شل إرادتها وقوتها ، وهذه الطوائف الأربع هى الطوائف التى تكون فى الأمة التى فقدت احترام حدود الحق والواجب .

وإذا نظرنا إلى بلادنا وجدنا مظاهر الحضارة من مدارس ومنشآت وعمارات وصناعات وميادين فسيحة وسيارات ، ووجدنا من يظن أن هذه الأمور تعصم من التدهور الذى ينشأ من افتقاد احترام حدود الحق والواجب ، ووجدنا أيضاً طائفة من هذه الطوائف الأربع ، ووجدنا أيضاً .. فقدان احترام حدود الحق والواجب ، والشواهد على فقدانه لا يمكن أن تحصي فهى كعدد الرمال على شاطئ البحر .

ولكننى سأقص على القارىء حوادث تدل على أن فقدان احترام حدود الحق والواجب أمره قد تنفخى حتى فى نفوس أرقى الطبقات . والحادثة الأولى حدثت عندما كنت ناظراً لمدرسة ثانوية

فى الأقاليم ، ورسب ابن أحد كبار رجال الإدارة وابن أحد كبار رجال البوليس فى امتحان النقل . ويكفى أن نقول (أحد كبار الرجال) وكان رسوبهما فى اللغة الانجليزية ، ورفض الأستاذ الانجليزى مراقب تصحيح المادة أن يزيد درجتى الطالبين فى الامتحان ، والقانون يقضى أنه لا يمكن أن تزداد درجة إلا بواسطة مراقب التصحيح ، والنظم الحديثة التى كانت سائدة وقت الحادثة ؛ تحرم على ناظر المدرسة أن يزيد هو الدرجة ، فحاولت أن أطلع أحد الكبيرين على حقيقة الأمر ، وعلى حدود حقوقى وواجباتى كناظر مدرسة ، وعلى أن القانون يحرم على زيادة الدرجة وإنجاح الطالبين ، فقال أحدهم : أنا لا أفهم كيف أننا نتصرف فى تطبيق قانون يتوقف عليه حياة الناس ، ويتوقف عليه امتلاكهم لما يملكون ، وأنت لا يمكنك أن تتصرف فى تطبيق قانون (مدرسى) لا أقل ولا أكثر ! ثم ذهب ولم يصدق قولى . والحادثة الثانية تشبه هذه الحادثة تمام الشبه ، ولكنها حدثت فى مدرسة قريبة من القاهرة ، فقد رسب أيضاً طالب فى اللغة الانجليزية ، ورفض المراقب زيادة الدرجة وإنجاح الطالب ، وأبى أبو الطالب ، وكان من الوجهاء العظام ، إلا أن يحمل لى ضغينة شديدة وأن يشير ضدى غيره من الناس وإن كنت لا أملك وسيلة قانونية لزيادة الدرجة إذا رفض مراقب اللغة الانجليزية أو غيرها من المواد إنجاح الطالب . كما أنى ما كنت أملك وسيلة لمنع مراقب التصحيح من إنجاح الطالب لو أراد إنجاحه ، ورأى أنه يستحق النجاح ، وفى هذا العجز عن منعه من إنجاح الطالب ما يدل على العجز عن منعه من إسقاطه مادام يستعمل حقه القانونى ومادام الطالب يستحق التقدير الذى قدره له مراقب التصحيح .

وقد اتضح لى أن أولياء أمور الطلبة فى مثل هذه الأحوال يريدون أن يوسطوا بعض المشتغلين بالتعليم فيزيد هؤلاء النار أجيجاً . وقد ذكرت الآن حادثة حدثت فى المدرسة الأخيرة وهى أن طالباً أهان أستاذاً فرفت الطالب بضعة أيام ، فجاء إلى والده وقريبه وهما من الأعيان ومعهما ثالث من المشتغلين بالعلم والتعليم ، وحاولوا من غير تلطف بل بوجهاتهم ونفوذهم ، وقبل أن يعرفونى بأنفسهم أن يحملونى على نقض ما أبرمت ، ورأيت أنى لا أملك حق السماح للطالب أن يهين أستاذه ، فرفضت ، فحملوا لى الضغينة وكان أشدهم ضغينة ذلك المشتغل بأمر التعليم . وذكرت حادثة أخرى مثلها حدثت فى مدرسة من مدارس الوجه البحرى ، وتدخل أيضاً أحد المشتغلين بالتعليم بخطاب شفاعاة من القاهرة فتلطفت فى رد طلبه ، فحمل لى ضغينة العمر . والذى أعرفه أن الطلبة كانوا قديماً لا ينتقمون العقاب المدرسى إذا عرفوا حسن نية موقعه ، ولكن الحال قد تبدلت الآن لسوء ندرة الكبار . فإذا كان بين

الطلبة من لا يحترم حدود الحق والواجب فقد لقنوا ألا يحترمونه ، بل لقنوا أن احترامه ضعة ومهانة . وكثيراً ما كنت أشاهد أن الطالب قد يتذمر من العقاب ولكنه يعود إلى الصفاء والولاء . أما الشفييع المخذول فإنه لا ينسى أبداً أنه قد رفضت شفاعته ، وهذا كان قبل أن تسرى طباع الكبار إلى الطلبة . ومن عجائب الدهر أن أشد الناس لوماً للطلبة وتعنيفاً لهم وذماً لسلوكهم في كثير من الأحيان أسوأ قدوة للطلبة ، وهم على نفس الطباع والحصال التي يذمونها في الطلبة والتي سرت منهم إليهم ، وهؤلاء هم الكبار على اختلاف طبقاتهم وأعمالهم .

٢٠- اختلاف

حدود الحق والواجب *

إن حدود الحق والواجب تختلف في الأماكن المختلفة بعض الاختلاف كما أنها قد تختلف في الأزمنة المختلفة أو في المكان والزمان لاختلاف الطبائع والصفات النفسية وما يتبعها من الآراء . وهذا الاختلاف في تعريف حدود الحق والواجب وتعيينها قد يفر الناس في عصور الانقلاب الاجتماعي فينبذونها كلها ويحاولون أن لا يتقيدوا بها وأن لا يجعلوا لها شأنًا ، ويحسبون أن الحياة تستطيع أن تقوم وأن تحسن وتصلح من غيرها ، ويغالطون أنفسهم كي يستثمروا نبلها لجلب مطالب وقضاء لبانات .

والحقيقة أن للحق والواجب حدوداً لا يختلف فيها أحد وإن اختلف الناس في حدود حقوق وواجبات أخرى ، وأن كثيراً من الناس ينبلون حتى الحدود التي يعترفون بها عجزاً عن كبح أثرهم وأن الحياة لا تصلح إلا بنصيب كبير من احترام حدود الحق والواجب التي تحددها القوانين الإنسانية والضمير والشرائع الدينية حتى في عصور التغير الاجتماعي التي يكثر فيها العبث بتلك الحدود ، بل ربما كانت تلك العصور أحوج إلى طوائف من الناس يزداد تشبهها بتلك الحدود حفظاً للتوازن الحيوي لأن الحياة قائمة على التوازن وسنته هي سنتها . ومن درس كتب التاريخ وجد في الأمم المختلفة حتى في إبان الثورات والحروب والكوارث الطبيعية وفي وسط ما تبتعثه من الاضطراب الخلقي والإجرام - أناساً يعملون أعمالهم اليومية في حدود الحق والواجب وأناساً يزداد تشبههم بتلك الحدود حسب سنة التوازن الحيوي التي أشرنا إليها .

ومن الناس من يقول إن حدود الحق والواجب إذا استعبدت الناس استعباداً مطلقاً وتقيدوا بحروفها دون معانيها وظروفها منعت من تحوير الحقوق والواجبات لإثرائها وتحسينها كما يتطلبه رقى الإنسانية . ولعل الصواب الذي في هذا القول أقل من المغالطة المقصودة أو غير المقصودة ، وأقل من سوء التطبيق الذي تدفع إليه الرغبة في التخلص من بعض تلك الحدود ، وأقل من الغفلة التي تمنع من يقول هذا القول من أن يعرف أن أكثر الحقوق والواجبات اللازمة لرقى الإنسانية معروف ، وإنما هو القصور عن عليائها الذي يمنع من الرقى في أكثر الأحوال .

ولا ننكر أن بعض عصور الانقلاب الاجتماعي التي جرت في أذبالها شيئاً مما دعا إلى طمس بعض حدود الحق والواجب القديمة قد أدى إلى تعديل وتحوير وتحسين في حالة الإنسانية، ولكن المصلحين المثقفين كانوا يختلفون عن الدهماء وأمثال الدهماء، فإن المثقفين كانوا يعتبرون هذا الطمس ضرورياً عارضاً مؤقتاً لابد من منع شره من أن يستطير، وأنه ليس سبب الرقى ولا أساسه، وأنه ينبغي قصره على الحد الذي يمكن الدهماء إذا كانوا لا يمكنون إلا معه من الرغبة في الحقوق والواجبات الجديدة. أما أمثال هؤلاء الدهماء وأنصاف المثقفين وذو الأثرة والجشع والمكر والخبث ممن ينشق في أثر كل مصلح فيحاولون طمس جميع حدود الحق والواجب كي ينتفعوا ولا يباليون ما يكون بعد انتفاعهم.

وبالرغم من سنة التوازن التي تؤدي إلى زيادة تشبث بعض الطوائف الإنسانية إذا نقص تشبث غيرها بحدود الحق والواجب قد يتدهور المجتمع الإنساني بسبب قوة عوامل الخراب التي تطفئ وتشل أثر هذه السنة حتى ولو كان التغير المطلوب مما يرجى فيه خير الإنسانية، وبعض التغير لا رجاء فيه فتكون المصيبة أكبر والخسارة مضاعفة.

ومن المستطاع التمييز بين وهي حدود الحق والواجب الناشئة من التغير المؤدى إلى رقى، وبين وهبها الناشئة من تغير لا يؤدي إلى رقى - وإن اختلطا في أذهان الناس ونفوسهم - فالوهى الأول لا يكون شاملاً لجميع الطوائف والطبقات والأفراد، بل نرى من الطوائف من لا يتأثر به ولا سيما طائفة المحافظين على القديم. أما الوهى الثانى الذى يؤدي إلى تدهور فيكون شاملاً، ومن دلالاته أن الطائفة المحافظة على القديم قد تكون من أكثر الطوائف تأثراً به بالرغم مما يتفاخر أفرادها من المحافظة على حدود الحق والواجب. والنوع الأول مقصور على بعض حدود الحق والواجب غير شامل لها، وإنما يقصر على ما يراود تعديل وإفناؤه من الحق والواجب. أما النوع الثانى فإنه يظهر بمظهر شامل لجميع حدود الحق والواجب أو أكثرها؛ والنوع الأول نرى من خلفه حقوقاً وواجبات أخرى يتقيد بها الإنسان. أما النوع الثانى فلا يليح بشيء من ذلك.

وبهذا القياس نستطيع أن نقيس حالة الأمم. فإذا كان احتقار حدود الحق والواجب شاملاً لطوائفها وطبقاتها حتى وإن أنكر بعضهم شموله، وإذا لم كان * غير مقصور على بعض

الحدود ، وإذا كان لا يبشر بحدود أعلى وأتم وأحسن ، وإذا لم كان غير مصحوب بالغيرة على المثل العليا ، ولم تكن تلك المثل الداعية إليه ، فهو نذير شؤم وتدهور واضمحلال .

ولكن مما يؤسف له أن بعض المثقفين لا يميزون هذا التمييز ولا يعيرون هذا القياس اهتماماً بل يكتفون برؤية مظاهر تغير اجتماعى مصحوبة بوهى حدود الحق والواجب فيحسبون أن ذلك إنما كان لتسهيل قبول حدود حقوق وواجبات جديدة أكثر قداسة ، ويفترضون أن مظاهر التغير هذه لابد أن تؤدي إلى الرقى المؤجل الدائم . وبما يسهل انخداعهم أن تكون تلك المظاهر مصحوبة برقى فى الماديات ، ويحسبون أن ذلك الرقى فى الماديات سيكون خالداً ومؤدياً حتماً إلى زيادة حدود الحق والواجب متانة وظهوراً فى النهاية وإن أضعفها وطمسها فى البداية ، ولا يميزون أنواع ذلك الضعف والطمس ولا يقيسونها بما ذكرنا من الشرائط . وربما يسهل انخداعهم أيضاً أن بعض المصلحين يعمدون إلى إضعاف تلك الحدود أو بعضها تقريباً لمبادئ جديدة كما يعمل الهادم معوله فى البناء القديم كى يهدمه وكى يؤسس مكانه بناءً جديداً . وأكثر هؤلاء يحسبون أنه مهما بلغ من الفساد بسبب طمسهم حدود الحق والواجب فإنهم قادرون على علاج الفساد الذى سببوه . وهذا نوع من الغرور يختص به بعض دعاة الإصلاح ويسلكهم فى زمرة المفسدين الذين لا يبالون أصلحت الدنيا أم خربت ، حتى أن المفكر لا يستطيع أن يميز بين الطائفتين وأن يحكم على رجل من أى نوع هو .

وينبغى للمفكر أن يميز بين المجتمع الإنسانى والبنیان ، فالبناء حجر أصم يمكن هدمه وإقامة بناء آخر مكانه ولا خطر فى ذلك إذا تهيأت الأسباب والوسائل / أما المجتمع الإنسانى فهو حى نام شبيه بجسم الإنسان الحى النامى لا بالبناء الأصم ، والذين حاولوا إدخال إصلاحاتهم على اعتبار أن المجتمع كبناء من حجر أصم ما لبثوا أن عرفوا خطأهم ، وزادتهم خيرتهم وزادتهم أخطاؤهم يقيناً أن المجتمع الإنسانى ليس كالبناء المصنوع من حجر أصم بل كجسم الإنسان النامى الحى ، ولكن بعض هؤلاء أخطأ فى حسابه وبالع فأفلتت منه الأمور واضمحلت . وينبغى لكل من يعالج أمراً من أمور المجتمع الإنسانى أن يتدبر أنه قد يكون مخطئاً أو مغالياً حتى على شدة الثقة برأيه فيتخذ الحيطة . واجتماع هذه الأمور لا يكون إلا فى مراتب الثقافة الإنسانية العالية . وينبغى لهذا المعالج لأمر الناس أن يحذر من أن يؤدي عمله إلى احتقار حدود الحق والواجب احتقاراً يصبح ناراً تلتهم كل الحقوق والواجبات أو تحاول التهامها ويصير مرضاً مزمناً فى المجتمع الإنسانى ، وهو إذا حاول استخدام احتقار حدود الحق

والواجب الناشئ من المكر والحيث والجشع ، واستثمارها بتقديم أصحاب هذه الصفات كان عمله آفة لا إصلاحاً ، وصارت أمور الناس ضيعة يستغلها من لا يبالي أصلحت الدنيا أم خربت . وقد يستغلها ويخربها باسم الإصلاح بقدوته ونفوذه العلني والسري ، والثاني شر من الأول لأنه مختلف فيندفع صاحبه غير هيأب ولا وجل في إفساد الأخلاق والذمم والضمائر والنفوس . ويكون معالج أمور الناس الذي قدمه كالمرأة التي تفرل بيد وتنقض غزلها باليد الأخرى ، وربما سطت بتلك اليد الأخرى على غزل غيرها ونسجه فتتلفه أيضاً .

٢١ - التعليم

بين المؤثرات التاريخية والأخطاء البورجوازية *

يزداد عدد الشبان العاطلين يوماً بعد يوم على الرغم مما حازوه من الشهادات . وكان الناس يظنون أن التعليم قيمة تقى صاحبها شر البطالة لأن أبواب الرزق كانت تتفتح أمام المتعلمين القليلين فلما زاد عددهم ضاقت بهم أبواب الرزق فظن بعض المفكرين أن سبب ذلك قلة نصيب المتعلمين من الثقافة وأن نصيبهم أقرب إلى أن يدعى قشوراً وأنهم إذا زاد حظهم من الثقافة التي هي دواء لكل داء مثل إكسير الحياة ، لم يصيبهم حتى داء العطل من العمل .

على أن هذا الشباب المتعلم العاطل من العمل غير مقصور على مصر بل هو أيضاً في الدول الغربية . وبعض هؤلاء العاطلين نصيبهم من الثقافة الفكرية نصيب عظيم . وقد يعجب المفكر من وجود العطل من العمل في الدول الغربية . فإنه يقول هذه بلاد توارث الناس فيها الملكات العملية وميولها جيلاً بعد جيل ثم تمتعوا ببيئة منزلية وغير منزلية تساعد على تمكين الطبائع العملية في النفوس ثم وجدوا فرصاً كثيرة تزيد هذا التمكين من الفرص والمؤهلات والمؤسسات والأسواق الاقتصادية والمستعمرات فلم تحل جميع هذه العوامل دون انتشار عطل المتعلمين بينهم . ولأمراء في أن سريان سنة العرض والطلب الاقتصادية كان لها أثر في هذا الانتشار وكانت هناك أسباب ليس هذا المجال مجال بحثها . ولكن مما لا ريب فيه أن سياسة التعليم وخطته العامة كان لهما أثر أيضاً لأن الطبقة الوسطى على اختلاف درجاتهم عندما ظفرت بالحكم والسلطة في دول غرب أوروبا في القرن التاسع عشر جعلت خطة التعليم العامة مؤسسة على الثقافة النظرية ، وتقديس (البورجوا) لهذه الثقافة وسعيهم في طلبها يشبه سعى أهل القرون الوسطى في طلب إكسير الحياة وحجر الفيلسوف . وفاتهم أن طبقتهم ليست في الحقيقة طبقة واحدة متجانسة وليس جميع أفرادها ولا كل من يتعلم بحسب خطتهم الثقافية (إن صح أنهم كانت لهم خطة لامحضر اتجاه فكري) ممن يستطيعون أن يعيشوا بالثقافة الفكرية دون سواها . وقد بدأوا الآن يندبون حظ العاطلين ممن يسمون بذوى "الباقات" البيض . ومن أغلاطهم أنهم لم يدركوا فائدة الانتفاع من زيادة تمكين الطبائع العملية من النفوس بالوسائل التعليمية المصطنعة في المدارس إلا في العهد الأخير وربما كان السبب في

ذلك اغترارهم زمنياً بعمل عوامل الورثة والبيئة والفرص الاقتصادية في بلادهم على تمكين هذه الطبائع . وفاتهم أن مثل الوسائل العلمية المصطنعة التي تتخذ لزيادة تمكين الطبائع والميول العملية في النفوس وتنمية ما ينشأ عنها من الصفات في العقول والجسوم كمثل الوسائل العلمية الحديثة في الزراعة فإن خصب التربة لا يغنى عنها وكذلك النفوس الغنية بالميول العملية المخصصة بها لاستغنى عن الوسائل التعليمية المصطنعة المنظمة التي تتخذ للاستيثاق من تمكين هذه الطبائع والميول العملية .

ولما كنا نحارى دول غرب أوروبا في خطتها التعليمية فقد وقعنا فيما وقعت فيه من أخطاء وكانت هذه الأخطاء أشد ضرراً بنا لأن المؤثرات التاريخية والاجتماعية في نفوسنا غيرها في نفوسهم ولا نعمل كثيراً على توافر هذه الطبائع والميول العملية في نفوسنا ولأن البيئة عندنا منزلية كانت أو غير منزلية لاتعمل أيضاً على توافر هذه الطبائع ولأن الفرص والمؤسسات الاقتصادية التي من شأنها إنماء هذه الطبائع ليست متوافرة عندنا كما هي متوافرة في هذه الدول التي نحاربها .

والذى يتتبع خطة التعليم في مصر في الجيل الماضى يجد أن محورها كان زيادة المناهج أو إنقاصها وزيادة مرحلة الثقافة العامة أو إنقاصها ، وما عدا ذلك من أوجه الإصلاح كان عرضاً لا جوهرأ ولا محوراً لخطة التربية والتعليم وما كان منه صالحاً لم يستفد منه فائدة تذكر لأن واضعى خطط التعليم كانوا يدينون بعقيدة الإكثار من الثقافة العامة من غير تمييز بين المتعلمين وحاجاتهم وطبقاتهم وكان لفظ الثقافة محور التفكير والحديث والكتابة والفخر وكانوا يقولون إن المرء إذا ثقف ثقافة عامة كان صالحاً للحياة وكانت الحياة صالحة له . وإنما كانوا يختلفون في سبيل تحقيق هذه الثقافة فبعضهم كان يرى توافرها في إطالة مرحلتها في التعليم أو في إتراع مناهجها وإشباعها وبعضهم كان يرى توافرها في تخفيف المناهج مع نشدان الجودة . وكان الاتجاه كل فريق مثل الاتجاه الفكرى عند الحكام من "البورجوا" في دول غرب أوروبا أو من المتصلين منهم بطبقة الأشراف الأغنياء وتقديس "البورجوا" للثقافة تقديساً يصرف النظر حتى عن مهيئاتها هو أمر نبيل وهو ضرورة لهم لحفظ السلطة في يدهم ولكن لم تكن جميع أسبابه عالية نبيلة فقد كان من أسبابه حسد الأغنياء من "البورجوا" للمتعلمين المستنيرين من أغنياء الأشراف الذين كانت في يدهم مقاليد الحكم قبل فوز "البورجوا" في القرن التاسع عشر ولكن الثقافة كانت عند أكثر الأشراف لذة عقلية لاعقيدة ودنيا كما جعلها "البورجوا" كى يخفوا بعض الأسباب الحقيقية التي جعلتهم يأخذون بها .

وكثرة التحدث بالثقافة ومزايا الثقافة قد صرفت المفكرين عندنا عن سبيل تحقيق الثقافة فإن خوفهم من أن يجور التخصص على الثقافة فينتج تشا ناقصاً قد جعلهم لا يميزون بين وسائل تمكين الطبائع العملية من النفوس وبين التخصص . فكلما جد اقتراح من شأنه تمكين الطبائع العملية أثناء مرحلة تعليم الثقافة قبل هذا تخصص في عمل من الأعمال لا يصح ان يدرّب عليه أثناء مرحلة الثقافة . وبهذا التفكير جنوا على الثقافة التي ينشدونها لأن الحواس هي أبواب النفس وإذا لم تربّ ولم تربّض الطبائع العملية كانت النفس مغلقة أو شبه مغلقة لا تقبل كل ما يرد إليها من المعقولات .

وهذه الحواس والطبائع العملية والصفات التي تنشأ عنها ، ومنها حضور الذهن واليقظة الفكرية وسرعة الخاطر ودقة الحكم على الحقائق وإقدام الواصل المؤهل ، أمور لا تنمى إلا بمنهج فيه كثير مما يرفضه القائلون بالثقافة قبل كل شيء . ويقولون برفض كل ما يظن انه تخصص في أثناء مرحلة الثقافة . ومن أجل ذلك لم يشر ما يدعى بالنشاط المدرسي كل ثمرته لانه لم يكن بالجوهر بل كان العرض في المدارس فكان مقصوراً على عدد قليل من الطلبة وعلى انواع محددة من النشاط ولم تعد له كل ما يحتاج إليه من حجات او مال او اخصائين أو أدوات أو فراغ ولم ينظم بطريقة المنهج الواسع النطاق المدرج الذي يراى به ما يراى من بث الصفات والطبائع العملية ولم يتضمن نتائج أبحاث المشتغلين بالتربية ولا منهجاً لتربية الحواس والملكات كما تربي على طريقة منتسورى مثلاً ولا نظاماً للتدرب على أعمال الحياة المختلفة ، كما في المدارس التجريبية الأميركية ولا على غير ذلك من نتائج خبرة المشتغلين بالتربية الحديثة وبحثهم .

وقد يعترض معترض فيقول إن طرق تربية الحواس والملكات من أمثال طريقة منتسورى انما تراد لناقصى العقول والملكات وهذا وهم فإن ثمرتها تكون اتم وأعظم في غيرهم . وقد يعترض معترض فيقول إن المدارس التجريبية في أميركا وغيرها ما هي إلا تجربة فحسب وهذا وهم فإن هذا الاتجاه الفكرى قد أثر في المدارس عامة وكان من أثره ما يسمى بالنشاط المدرسي .

وإذا نظرنا إلى تاريخ الأمم وجدنا لكل منها حضارتين أو ثقافتين فلها ثقافة في إبان نهضتها من البدانة أو ما شابه البدانة من أنواع المعيشة وهي الحضارة التي تكون للأمم عند أخذها بأسباب الثقافة ، قبل أن تفقد الطبائع والميول العملية التي هي أكثر في معيشتها الأولى قبل أن تعتورها رخاوة الحضارة وطراوتها . ولها أيضاً ثقافة أخرى أو قل هي شكل يدخل على الحضارة والثقافة الأولى بعد أن تنال منها رخاوة الحضارة وعوامل الضعف

الاجتماعى المختلفة سواء أمن فساد القوانين والنظم الاجتماعية نشأت أم من ركود التجارة والصناعة والأعمال العامة لأسباب أخرى . وهذه الثقافة الأخيرة قد تكون فى بعض البيئات راقية من الناحية الفكرية النظرية ولكنها قلما تكون مثمرة لافتقار الميول العملية والصفات الناشئة من طبائعها والتي كانت لها فى حضارتها الأولى .

وفى مثل هذه الحال لابد أن تحاول الأمة احياء تلك الطبائع العملية واعادة تمكينها من النفوس بالوسائل التهذيبية التعليمية المصطنعة وهذه المحاولة هى ما ينبغي أن يكون محور خطة التعليم وأساسها وما يستدعى تفكيرنا وسعينا قبل كل شئ حتى قبل التفكير فى الثقافة فإننا إذا فعلنا ذلك كان أمر الثقافة بعد ذلك هيناً وكانت أتم وأحسن وأكثر ثمرة .

وكما ان لنا فى حياة الأمم وتاريخها وحضارتها التى ذكرناها عظة وحجة وعبرة فإن لنا فى حياة الإنسان الفرد أعظم حجة وأكبر عظة . فالطفل لابد أن تفتح حواسه وتربى فى طفولته ، وهى عادة تربى فى المنزل والبيئة عفواً بطرق غير منظمة ولكنها تربية على أى حال ، قبل أن ينمو ويستعد لقبول الثقافة النظرية الفكرية . وتربية الحواس المنظمة تصحح وتساعد تربيتها غير المقصودة والخطر كل الخطر فى الأمة المتحضرة بالحضارة الأخيرة من حضارتها أى الحضارة التى فقدت فيها الطبائع العملية اذا كانت الثقافة هى محور التعليم أن تزيد هذه الثقافة النظرية الفكرية ابناً هذه الأمة عجزاً على عجز وتغريبهم بأحلام اليقظة وتششت ذهنهم وتشل مساعيهم فتكون تلك الثقافة أشبه الأشياء بالمخدرات لا أقل ولا أكثر .

وقد يعترض معترض فيقول إذا كانت الاعمال تمكّن الطبائع والميول العملية من النفوس وتؤهل للنجاح فيها فلم لم تفعل فى مدارس الصناعة والزراعة ؟ وهذه مغالطة ؛ فإنها تفعل ذلك وإنما يكون أثرها اعظم لو ان طلاب هذه المدارس قد نشأوا من صغرهم على خطة من التعليم محورها تربية الحواس والملكات بالطرق البيداغوجية المنظمة الحديثة وتمكين الميول العملية من النفوس وإنما صفاتها التى تؤهل للنجاح فى الحياة والتى تجعل الإنسان أكثر استعداداً للانتفاع بالثقافة العقلية . والحقيقة ان بعض طلاب الثقافة يخسرون الثقافة ويضلون طريقها كما يضل طريق السعادة او الصحة بعض من يعنون انفسهم ويشقونها بالتفكير فيهما فى كل لحظة .

٢٢- مظاهر داء الشعور بالحقارة *

من الأمراض الاجتماعية التي حققتها المفكرون حديثاً ، مرضان نفسيان : الأول داء الشعور بالعظمة ، وقد يظهر بمظاهر العظمة ، أو بمظاهر التواضع المكنوب الذي ينم عن الكبر ؛ وداء الشعور بالحقارة ، وهذا أيضاً يظهر بمظهرين مختلفين : مظهر التواضع المتناهي وتحقير النفس ، ومظهر التعاضم الذي يراد به ستر ما يشعر به المرء من احتقاره لنفسه . وهذا الشعور قد يكون مؤسساً على أمور في العقل الباطن فلا يتنبه صاحبه إلى حقيقة أمره ولا يعرف أنه مريض بداء الشعور بالحقارة .

وقد يختلط المرضان لأن كلا منهما يظهر إما بالتعاضم وإما بالتواضع ، وبغالي في التعاضم أو التواضع ، ولكن تعاضم المصاب بداء الشعور بالعظمة يكون مقروناً بشيء من الاطمئنان والثقة . وقد يبلغ الاطمئنان مبلغاً يجعل صاحبه لا يدرك سخر الناس ؛ أما تعاضم المصاب بداء الشعور بالحقارة فهو تعاضم يساوره القلق وغطرسة تنتابها حمى الحقد والحسد ، فالخلط بين الداءين من هذه الناحية يدل على خطأ في الاستقراء ونقص في الخبرة وخطأ في التفكير . وكذلك الخلط بين تواضع المصاب بداء الشعور بالعظمة وتواضع المصاب بداء الشعور بالحقارة ؛ فالتواضع الأول مقرون بالثقة أيضاً ، ويظهر من ورائه اطمئنان صاحبه إلى عظم نفسه . أما تواضع المصاب بداء الشعور بالحقارة ، فهو تواضع يظهر من ورائه الحقد والحسد ؛ وليس من لوازم داء الشعور بالحقارة أن يجعل مظهره مظهر التعاضم ومظهر التواضع في رجل واحد في أوقات مختلفة . إنه قد يفعل ذلك ولكن كثيراً ما نرى أنه يختص رجلاً بالتعاضم وآخر بالتواضع ؛ وأكثر شيوع داء الشعور بالحقارة يكون في الأمم التي لبثت عصوراً طويلة مغلوبة على أمرها ، ولا يهتم التمييز بين أصحاب الغلبة في تفسير نشأة هذا المرض الاجتماعي .

وأكثر ضرر داء الشعور بالحقارة يكون إذا صال به رجال أتاس قد بلغوا شيئاً من الجاه والمنزلة والثروة أو كانت لهم سلطة ، فإن اقتران القدرة به والتفوذ والسلطة مفسدة وأي مفسدة . هذا الداء الويل داء الشعور بالحقارة من الأحقاد والضغائن والأكاذيب والشرور والحقارة والفساد ، ولا تستطيع أمة أن ترقى إلا إذا تمكنت من اقتلاع جرثومة داء الشعور بالحقارة من

نفوس أفرادها ، وإلا إذا عاجلته في مدارسها علاجاً نفسياً صحيحاً باطلاع الطلبة والتلاميذ على حقيقة نتائجها ، فإن نتائجها قد تظن محمداً واعتزازاً بالنفس ، أو قد تظن غير ذلك على حسب ما يظهر به داء الشعور بالحقارة من المظاهر سواء مظاهر العظمة التي يساورها القلق والحققد والحسد أو مظاهر التواضع التي تساورها هذه الأمور أيضاً . ومن الحكمة جمع الشواهد والأدلة وتفسيرها ، فالغيبة والنميمة مظهران من مظاهره ولاشك ، لأن منشأهما الرغبة في الاستعلاء بوسائل غير مشروعة يتخذها من يشعر في نفسه بالعجز عن أسباب الاستعلاء الفاضلة لتمكن داء الشعور بالحقارة من نفسه ، وكذلك حب الظهور من شواهد هذا الداء وأدلتها ولو كان ظهوراً يؤدي إلى ضياع الثروة والعقارات والفدادين . ومن شواهد الولوع بالفكاهة اللاذعة للسخر حتى بالغرباء ، كل هذه محاولات من المرء أن يقهر شعوره بحقارة نفسه وأن يقنعها بأنه أفضل من غيره . ومن شواهد داء الشعور بالحقارة أيضاً عدم احترام حدود الحق والواجب ، لأن العظيم حقاً يجد من عظم نفسه الحقيقي ما يسليه عن الفشل في نيل أمر تمنع من نيله حدود الحق والواجب ، أما الذي يشعر في نفسه بداء الحقارة ، فإنه يرى في طمس حدود الحق والواجب زيادة في قدرته وعظمته وشفاء لما يشعر به من ألم الحقارة أو لما يتحسسه في أعماق العقل الباطن من هواجس هذا الداء إذا كان صاحبه لا يدرك حقارة نفسه أو لألم الحقارة وهواجس العقل الباطن معاً . ومن شواهد هذا المرض وأدلتها أيضاً الامتناع من لباب الأمور ، فإن صاحبه يكره اللباب المحض الصريح لأنه يشعر أنه يبرز عجزه ويهتم للبهرج المزيف لأنه براق خادع ولا يكلف ما يكلفه اللباب .

وليس من الضروري أن يكون المريض بداء الشعور بالحقارة غيباً أو بليداً . وهذا الشعور بالحقارة قد يعظم في نفس صاحبه حتى أنه قد يدفعه إلى الإثم والجرم الشنيع . وقد يصير جنوناً أو شبه جنون وحتى تصبح نفس صاحبه كالمفرزات القنطرة التي يتصاعد منها الذباب الكثير الألوان ، فمن ذباب أزرق وذباب أصفر وآخر أسود وغيره أحمر إلى آخر أنواع هذا الذباب الذي ينبعث من الأقدار .

وقد يعظم داء الشعور بالحقارة في نفس صاحبه حتى كأنما يخيل له أن الأرض لا تستطيع أن تحمل ثقل شعوره بحقارة نفسه وهي هي الأرض التي حملت الجبال وحملت الناس والحيوانات حتى الحيوانات الهائلة التي اندثرت قديماً ؛ وهي الأرض التي حملت طوفان نوح وفلكه المشحون وحملت حماقة الناس وآثامهم وغباوتهم وجهلهم من عهد سيدنا آدم ، وحملت الأرض كل هذه الأشياء ولكن كأن المسكين يخشى أن تلك الأرض نفسها ربما لا تستطيع أن

تحملة وأن تحمل ثقل شعوره بحقارة نفسه . وهذا الشعور بالحقارة مما يزيد الحياة مرارة وألماً .
ولده عدوى فى بعض البيئات مثل عدوى الأمراض الجثمانية المعدية .

ومن درس التاريخ عرف أن الأمراض النفسية تكون لها فى بعض الأحيان عدوى مثل
عدوى الأمراض الجثمانية المعدية . أو لعل تلك الأمراض النفسية تكون مصحوبة بأمراض
عصبية كمرض (الهستيريا) وقد شوهد عدوى تلك الأمراض النفسية وشوهد وباءها بصفة
خاصة فى عصور الانقلاب الفكرى والاجتماعى والاقتصادى وفى عصور الكوارث الطبيعية
الكبيرة والثورات والحروب ، ولكنها تظهر فى شكل أقل شدة وحدة فى حياة الناس اليومية .

وداء الشعور بالحقارة قد يصيب الغنى كما يصيب الذكى ، وقد يصيب الوضيع المنزلة كما
قد يصيب الرفيع المنزلة الذى ارتفع بعد ضعة أو ارتفع أبوه أو جده بعد ضعة أجداده . وهو فى
أشد حالاته يكون مصحوباً بجنون خلقى لا يميز صاحبه الخير من الشر ، ولكن ليس كل جنون
خلقى يكون مصحوباً بداء الشعور بالحقارة .

والشواهد على وجوده كثيرة : فالوضيع الذى يتعالى ويتعظم مصاب به ، والرفيع المنزلة
الذى تصيبه حمى إذا رأى ميزة فى إنسان أو استضعفه وحاول القضاء عليه بوسائل تنجيده من
العقاب والمؤاخذه . ومثله مثل الفلاح الذى يسلط الأشقياء على الناس لسبب تافه أو لغير
ماسبب إلا حب الأذى وحب الظهور . وقد عرفنا أناساً من هذا القبيل يصابون (بالسادزم)
نسبة إلى الكونت دى ساد الفرنسى الذى كان مصاباً بداء التلذذ بالتوحش والقسوة . فترى أن
داء الشعور بالحقارة فى أشد حالاته يكون مصحوباً بالجنون الخلقى ويجنون التلذذ بالتوحش
والقسوة وسنحصى بعض شواهد هذا المرض فى مقال آخر .

٢٣ - عود إلى داء الشعور بالحقارة *

والمصاب بداء الشعور بالحقارة إذا أفدته علماً أو مالاً تباهى به عليك وتلمس الوسائل كي يظهر بمظهر المانح كأنما يمنحك فضلاً أو عوناً ، إما بأخذه ما أخذ منك ، وإما بدلا منه . وهو لا ينسى لك فضلاً ويحسدك على نعمتك حتى تزول ولو كان في زوال نعمتك زوال نعمته ، ويحاول أن يخفى فضلك عليه حتى على أكثر الناس علماً بما أفدته ، ويحاول أن يجند منهم أعواناً له ضدك بأن يظهر كمن يظهر العداء لهم وقحة ** الخير والزهد فيهم ، فإذا عاتبته واضطرت أن تذكره بمعونتك كي تبتعث الحنان في قلبه عد إشارتك التي استشارها بعمله أو حديثه امتناناً منك عليه ، فيزداد لك عداوة . وهو بالرغم من مقابلته المعروف بالاساءة يطمع في المزيد مما عندك وإن ظهر بمظهر العائف له . وهو سلاح في يد أعدائك حتى وإن لم يدرك ذلك ، لأنه قد يغالط نفسه أو يغالطونه ويخادعونته .

ومن المصابين بداء الشعور بالحقارة من ينقص عيشة من يعاشره باظهار حدة الطبع ورفع الصوت والعراك ، لأنه يرى في كثرة العراك تعاضماً وتعالياً يخفى ما يشعر به في سريره نفسه من الوجل والخوف من أن يحقر . ومن المصابين بهذا الداء من يعد سفاهة لسانه سياجاً يحوط به عظمتة الموهومة التي يخفى بها ما هو كامن في سريرة نفسه من الشعور بالحقارة التي قد يظنها عظمة .

ومنهم من يتلمس الفرص كي يسمع الناس صوته كأنما صوته جرس يدق إيذاناً بالعظمة التي يخفى بها خوفه من التحقير .

وترى الواحد من هؤلاء لا يتعفف عن مدح نفسه والاشادة بآرائه وأفكاره وإعجاب الناس بها واحترامهم إياه بسببها ، وهذه الخطة قد تكون مكرراً ووسيلة كوسيلة التاجر في الاعلان عن بضاعته وإن عرف أن بضاعته غير مزجاة ؛ وصاحبها مع ذلك مطمئن النفس لا يبالي إذا لم يصدق السامع ، ولكنها قد تكون خطة مسعور متكالب على الناس يرجو احترامهم ولا يستطيع أن يعيش من غيره ولا يهنأ حتى ولو فقد مثقال ذرة منه ، وهو يتفريس في وجوه الناس كي يرى هل صدق السامع حديث إعجاب الناس به . وكلما كان الرجل من هؤلاء

* الرسالة : ١٤ مارس ١٩٣٨ ، ص ٤٠٣ ومايلي .

** غير واضحة في الأصل . " المعرد "

المصابين بداء الشعور بالحقارة مفلساً من المال أو الجاه أو العلم كان حقه أشد ، ونكايته أنكى ، وصوته أكثر إيذاناً بالعظمة التى يحاول أن يخفى بها المرض . وقد تزول أسباب المرض من إفلاس فى مال أو علم أو جاه ، ولكنه يبقى طبعاً فى النفس لا يستطيع مداواته . ومن العجيب فى أمر المصابين بداء الشعور بالحقارة أنهم قد يخلصون أو يتظاهرون بالإخلاص - وهو الصواب - لمن لا يرجون منه خيراً ولا نفعاً ، ويختصون بالاعنات من يرجى منه الخير أو من أصابهم منه خير ، لأن الدين ربما عدوه نقصاً . وهؤلاء المصابون بداء الشعور بالحقارة يود بعضهم بعضاً بالفرصة ، ويساعد بعضهم بعضاً مادام ليست بينهم خصومة على خير مرجو ، ومادام لا يحجب أحدهم الآخر عن الظهور ؛ وهم عندما يساعد بعضهم بعضاً يكونون كأنما هم حلف على الباطل قد عمل بحرف الحديث : (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) وأغفل معناه الحقيقى ؛ وهم إذا تعاونوا على الباطل يعرفون أنهم لا يشبعون نهمتهم من العظمة الباطلة التى يخفون بها ما كمن من الشعور بالحقارة إلا بالتساند ؛ أما إذا تخاصموا على مظهر من مظاهر التعاضم فلا يتعففون من التعارب بأقذر سلاح كما كانوا يتعاونون به .

وهم يضحون بالسعادة والصحة والمال وبأحب عزيز وسعادة كل من يعوقهم كى يبلغوا مظاهر التعاضم التى يخفون بها ما كمن فى العقل الباطن وفى السريرة من الشعور بالحقارة . وإذا بلغ هذا المرض أشده لم يحجم صاحبه عن الجرائم ؛ وقد يؤدى إلى الجنون وهو مرض شائع ، وبعض مظاهره ليست حادة ولا مسببة للحزن والتعاسة كما تسبب حالاته الشديدة . فمن حالاته البسيطة التى ربما كانت تدعو إلى الفكاهة أن يقابلك إنسان مصاب بهذا المرض وهو يعرف اسمك تمام العرفان فيناديك باسم آخر ، فإذا كان اسمك محمداً قال : كيف حالك يا مصطفى بك ؟ وهو يفعل ذلك كى يشعر أنه أعظم شأنًا من أن يتذكر اسمك ؛ فإذا صححت له اسمك اعتذر ثم يعود بعد قليل فيناديك بالاسم الخطأ ؛ قائلاً أليس الأمر كذلك يا مصطفى بك ؟ ولا يناديك باسمك مهما صححت خطأه . ومنهم الصغير المنزلة الذى يقابلك فيتلطف فى الحديث فإذا لمح إنساناً يعرفه رفع صوته بلهجة الأمر كى يشعر السامع أنك تقبل منه هذه اللهجة لعظم أمره . ومنهم صاحب الأباريق فى قصة الموظف المشهورة الذى أحيل على المعاش فاشترى أباريق وملاها ماء وجلس عند المسجد الجامع يقول لكل طالب ماء بلهجة الأمر: خذ هذا .. لا تأخذ ذاك . وهذا المثل الأخير قد يكون من أمثلة داء الشعور بالعظمة ، والحقيقة أن مظاهر داء الشعور بالعظمة ، ومظاهر داء الشعور بالحقارة قد تختلط ، ولكن المحك الذى تعرف به وتميز هو إما ثقة صاحب الداء بنفسه وعظمتها ثقة لا تدعو إلى القلق ، وإما أن مظاهر تعاضمه يخالطها القلق والحقد والحسد والدناءة والسفالة ، الأول أكثر أطمئناناً حتى أنه قد لا يشعر بسخر الساخر به ، وقد يكون فى تكبره كريماً أو رحيم النفس ، وهو إذا

ارتكب إثماً فإنما يرتكبه باسم العظمة والاصلاح ، ويرتكبه وهو مطمئن وادع لاحقد يشرب
إثمه ولا قلق ولا دناءة كما تشوب هذه الصفات إثم المصاب بداء الشعور بالحقارة ، والأول إذا
تواضع فى كبر المبالغ الواثق بنفسه ، وإذا تكبر تكبر بكبر الواثق بنفسه الذى لا يشعر بسخر
الناس به ، وهذا المصاب بداء العظمة لا يتلصص فى تحايله ووسائله كما يفعل صاحب الشعور
بالحقارة الذى هو أميل إلى الكيد والدس .

والموظف الصغير المنزلة فى المصرف أو فى الدواوين الذى يتعالى ويتعظم ويتصام ويتفخم
ويحملك فى وجهه أصحاب الحاجات ويتباطأ فى إجابتهم من غير سبب أو معذرة إنما هو
مصاب بداء الشعور بالحقارة . ولعله يتشفى بهذه الأحوال لما أصاب نفسه من تعظم من هو
أعلى منزلة ، تعظماً شعرت به الذلة والمسكنة . وفى بعض حالات هذا المرض لا ترى سبباً
ظاهراً له ، فقد يصاب به الرجل من بيت عز وعلم فتتلمس العلل الخفية فتقول هل طغى عليه
أبوه فى تربيته فى الصغر طغياناً يشعره الذلة والمسكنة ، فإذا ورث أباه غطى ماورثه على
ذلك الداء من غير أن يعصمه من الأقوال والأعمال الناشئة منه ، أم هل ورث هذا الشعور عن
أجداده ، أم أنه داء يعدى كما تعدى بعض الأمراض النفسية بالمحاكاة ولطول العشرة وحكم
البيئة .

وبما يلاحظ أن المحاكاة والعشرة والبيئة قد تنقل مظاهر هذا الداء فى المدارس من تلاميذ
مصابين إلى تلاميذ على الفطرة والسذاجة . ولعل المدارس المصرية أكثر مدارس العالم
ديمقراطية لكثرة مجانية الفقر للتفوق ولا تخفاض المصروفات فهى تساعد انتقال الصفات من
طبقة إلى طبقة ، فالفقراء يحاكون الأغنياء فيخسرون ، وأبناء الأسر الطيبة يحاكي أبناء أسر
أقل طيبة فيخسرون أيضاً وإن كان لهذه الديمقراطية مزايا .

٢٣- مجد العرب والاسلام *

فى سنة ١٩٠٩ كنت فى جامعة من جامعات إنجلترا ، وكان أحد أساتذتنا فى الجامعة قد دعانى إلى وليمة أعدها إلى كما دعوته إلى مثلها ؛ وكانت هذه الدعوات عادة الأساتذة والطلبة ، فجلسنا إلى مائدة الطعام ولم يمنعنا من الحديث فيما هو عملنا وبحثنا وهو التاريخ كما تفعل كل طائفة ، فإن الناس لا يمتنعون حتى فى مباحثهم وأوقات راحتهم عن الحديث فى أعمالهم اليومية . ولما كان الإنجليز أمة تجار وتكثر فى إنجلترا الدكاكين فقد اشتقوا فى لغتهم عبارة يعبرون بها عن هذه الظاهرة . فكلما تكلمت طائفة فى أمر من أمور أعمالها اليومية قالوا إن حديثهم كان دكاناً أو عن الدكان حتى ولو كانت الطائفة من المشتغلين بالعلم وليس لهم دكان .

فأخذنا فى الحديث عن التاريخ والحضارات ، وكان أستاذنا صاحب الدعوة قد عودنا الصراحة فى القول والتفكير والبحث ، فكان لا يخفى رأيه فى أمور حضارتنا كما كنا لا نخفى رأينا عنه فى أمور قومه وتاريخهم وحضارتهم . وكانت المناقشة لا تتعدى الوقار والأدب . فقال الأستاذ إن التاريخ يدل على أن مظاهر الرحمة فى الحضارات والدول الأوروبية قديماً وحديثاً كانت أعظم من مظاهر الرحمة فى الحضارات والدول الشرقية ، وقال إن هذا يدل على أن الحضارات الأوروبية قديماً وحديثاً أرقى من الحضارات الشرقية ، وكان الأستاذ يعرف حوادث تاريخ الشرق والغرب فى القرون الوسطى . لأنه كان أستاذ تاريخ تلك العصور فذكر لنا قصة رجل خرج على الرشيد فظفر به الرشيد ومثل به تمثيلاً شنيعاً ، ثم ذكر قصصاً عن سلب بعض الفاطميين أسرى من أسراهم وهم على قيد الحياة . فقلت يا أستاذ : هذا تعميم كبير ، ولا يتفق مثل هذا التعميم مع العلم الذى يتقضى فروق الزمان والمكان واختلاف طبائع الناس وحكامهم وتباين آرائهم وميولهم النفسية ؛ وذكرت له كيف أن سيدنا على بن أبى طالب (رضه) عندما أصابه عيب الرحمن بن ملجم أوصى قبل موته ألا يمثلوا بقاتله . وذكرت له بالتمثيل الشنيع الذى كان حظ من يحاول قتل أمير أو ملك من ملوك أوربا فى تلك العصور ؛ وذكرت له قصصاً من قصص عدل الخلفاء الراشدين وأخرى من قصص حلم معاوية للدلالة على اختلاف الطبائع

وسموها ، فذكرت فيما ذكرت قصة المرأة التي لم تجد قوت عيالها وكيف بكى عمر بن الخطاب (رضه) من خشية الله عندما سمع صياحها واستغاثتها ، ووصفت اهتمامه وخدمته لها وهو خليفة وحاكم من كبار حكام الدنيا ؛ وذكرته بتقرب الإغريق وهم منبع النور والرحمة والعلم والحضارة في أوروبا إلى آلهتهم بالضحايا البشرية في عصر من أزهى عصورهم وهو عصر حربهم مع الفرس ، فقد أسروا أولاداً صغاراً من بيت الأمانة في فارس فقدموهم ضحايا لآلهتهم كي تمنحهم النصر . وذكرته بالرومان وما جره ازدراؤهم للحياة البشرية من الفظائع ، وقلت إن القسوة ليست مقصورة على الشرق ، وليست الرحمة مقصورة على الغرب ؛ وذكرته بفظائع الأشراف والأمراء في قلاعهم في العصور الوسطى وما نال اليهود وغير اليهود من أهوال ؛ وذكرته بجرائم عصر إحياء العلوم وهو من العصور الأوربية الزاهرة وأساس حضارتها الحديثة ؛ وأشارت إلى محاكم التفتيش وتمثيلها بضحاياها ؛ وذكرته بالفظائع الدينية والسياسية في عهد أسرتي تيودور وستورات ، وقبلها في عهد أسر بلاتاجنت ويورك ولانكستر ؛ وذكرته بقسوة القانون الذي كان يشنق الطفل الصغير الجائع من أجل لقمة ، وبمغالاة رجال القانون في أوروبا في العصور الوسطى مغالاة أدت بهم إلى محاكمة الحيوانات العجم وشنقها أو إعدامها أو التمثيل بها بعد محاكمة طويلة تذكرنا بقول الشاعر العربي وهو يسخر من حاكم أحق :

أقاد لنا كلباً بكلب ولم يدع دماء كلاب المسلمين تضيع

وذكرته بالويل والهلاك وكاننا نصيب كثير من النساء اللواتي كن يتهمن بالسحر في أوروبا حتى في العصور القربة المتحضرة . ثم ذكرته بما كانت عليه أوروبا من القسوة والهمجية بينما كانت مظاهر الرحمة والنور تنبعث من أسبانيا العربية . وذكرته بما كان يرتكب في الحروب الدينية في أوروبا من قسوة لاحد لها وتمثيل شنيع ؛ وذكرته باستعباد الأطفال والنساء في المصانع قبل التشريع الحديث ؛ وذكرته بأسبانيا وما صنعتته مع العرب واليهود ، وما ارتكبه في ممتلكاتها الأمريكية مع الهنود الحمر من فظائع تقشعر منها الأبدان ، وما فعله المخاطرون الأوروبيون في جزر المحيط الهادى من قسوة ، وما فعله رجال بعض الدول الأوربية - حتى في عصرنا هذا - مع السكان الأمنين في أوقات الحروب من قسوة وتعذيب وتقتيل وتمثيل . قال الأستاذ : كل هذا لاشك فيه ، ولكن كان الحكام في أوروبا إذا فعلوا شيئاً مما ذكرت يجدون في شعوبهم من بجرؤ على تقدمهم ؛ أما في الشرق فلا . فذكرت له كيف كان الواقع يدخل على

الخليفة فيقرعه حتى يبكى كما فعل أحدهم مع هرون الرشيد ، وذكرت كيف أن من القضاة من كان يزهد في منصب القضاء وإن أودى من أجل رفضه . قال الأستاذ : يخيل إلى أن الحكم على حياة أمة من الأمم حكماً عاماً من حيث مظاهر الرحمة أو القسوة فيها من الصعوبة بمكان ، أو لعله ليس من المستطاع ، لأن المؤرخين لم يكن ميزانهم للحضارات وقياسهم لها بميزان الرحمة ومظاهرها فلم يحصوها كلها ، ولو فعلوا لاستطعنا أن نحكم بإحصائهم . قلت : إذاً لا نستطيع أن نقول على التعميم إن مظاهر الرحمة في الحضارات الأوربية كانت دائماً أكثر من مظاهرها في الحضارات الشرقية أو العربية الإسلامية . قال الأستاذ : ربما كان الأمر كما تقول ، ولكن العرب أصلهم قوم بدو ، والرحمة في كثير من الأحيان لاتصل إلى قلوب البدو ، لطبيعة أرضهم الجرداء القاسية وصعوبة نيل الرزق ، فأعدتهم أرضهم القاسية بقسوتها . ولعلك تذكر غارات القبائل بعضها على بعض حتى بعد الإسلام ، وما كان يحدث في تلك الغارات في بعض الأحيان من قتل النساء والأطفال . ولعلك تذكر أيضاً كيف كانوا يعاملون الحجاج الذين يقصدون مكة . ومن أجل هذه الطباع فبهم دخلت الحدود في الإسلام لتكبح جماح البدو ، وأريد تطبيقها في بلاد طبيعة أهلها وطبيعة أرضها غير هذه الطبيعة . ومن أجل شدة الحر في بلاد العرب وإطلاق البدو أنفسهم على سجيتهما دخل في الإسلام رجم الزاني ثم نقل إلى بلاد أخرى . قلت : يا أستاذ فرض على الحاكم أن يدرأ الحدود بالشبهات ، وذكرت له قصة عمر بن الخطاب رضى الله عنه مع أبى بكر ، وكيف أنه جعل يتلمس الشبهات في شهادة الشهود حتى لمجي الرجل من حد الزنى ، وذكرته أن التعزير من عقوبات الإسلام ، وذكرته بما يفعله الناس في أمم أوربا وأمريكا إذا قصر القانون أو استبطأوا ، فإنهم يختطفون المتهم ويعاقبونه أقسى عقاب ، وقد يمثلون به أشنع تمثيل : وقد يكون الرجل بريئاً مما نسب إليه . وذكرته بما تفعله أحدث الدول الأوربية إذا اضطرب حبل الأمن في بقعة شرقية . وقلت له إن الحدود لم تمنع انبعاث مظاهر الرحمة والنور في أسبانيا العربية بينما كانت أوربا غارقة في بحر من ظلمات الجهل والقسوة ، ويشهد بذلك كثير من المؤرخين الأوربيين .

والى هنا انتهى حديثى مع ذلك الأستاذ الجامعى بعد أن ذكرته بأن سوء ظن الأمة بالأمة ، وأهل القارة بأهل قارة أخرى ، هو من قبيل سوء ظن الإنسان بإنسان آخر لا يعرفه أولاً يعرف عنه إلا القليل ، وهى ظاهرة فى النفس الانسانية عامة يستوى فيها العالم والجاهل والظالم والغيبى والمنصف والظالم .

أقول إن هذه الظاهرة هي سبب ما نراه من نكران بعض المؤرخين الأوروبيين لفضل العرب على الحضارة الأوربية أو تهوينهم أمر أثر العرب في تلك الحضارة، فبعضهم لا يقرّون للعرب إلا بأنهم كانوا قنطرة عبرت عليها علوم الحضارة الأغريقية الرومانية إلى الحضارة الأوربية الحديثة، وبعضهم يقول إن الحضارة الأوربية كانت نامية لامحالة حتى لو أن أوربا لم تتأثر بالحضارة العربية . ويقول إن العرب لم يكونوا كل مصادر الحضارة الأغريقية ، وإن المصادر الأخرى الأوربية كانت أجدى وأنفع وألصق . وما يؤسف له أن بعض الشرقيين قد جاروا هؤلاء في دعواهم من غير تقص ولا بحث عميق .

إن الحضارة الأوربية كانت حقيقة نامية لامحالة لأسباب داخلية في تاريخها ؛ ولولا استعداد الأوروبيين للتأثر بالحضارة العربية ما أمكنهم قبولها ؛ واستعدادهم هذا يدل على بدء نحو(*) الحضارة فيهم ؛ ولكن هذا لا ينفي أنهم تأثروا بالحضارة العربية تأثراً كبيراً . ولا تزال المعركة الكلامية قائمة بين من يجد أثر العرب في الحضارة الأوربية ومن يقلل من أثرهم من المؤرخين . والفريق الثانى ينظر إلى العيوب ويغفل عن الحسنات ، فينظر مثلاً إلى إضاعة بعض علماء العرب وقتهم وجهدهم فى محاولة كشف إكسير الحياة أو حجر الفلاسفة ، ويغفل كشوفهم العديدة وفضلهم على العلوم الحديثة على اختلاف أنواعها فيغفل فضلهم فى نقل الورق إلى أوربا ، ولولاه ما أجدى اختراع المطابع وتحسينها ، ولا كانت للحضارة الحديثة مظاهرها الشاملة ؛ ويغفل ما نقلوه إلى أوربا من المصنوعات والمنسوجات والمزروعات المختلفة، وما أعطوهم من مخترعات مثل الأسطولا ب وبيت الأبرة والعدسة ؛ ويغفلون فضلهم على الطب والتشريح والفلك والعلوم الرياضية وأنواع الهندسة والكيمياء ، كما يغفل أثرهم وقوتهم فى وسائل الرى وإعداد المدن بوسائل الراحة والرفاهية والنظافة كما فعلوا فى إسبانيا وغيرها . ويغفل أثرهم فى العلم والتعليم وكيف انتشر التعليم والاشتغال بالعلم انتشاراً لم يكن له مثيل . وقد أقر المؤرخ دربير فى كتاب (نحو الفكر الأوربى) بهذا التعصب ضد الحضارة الإسلامية كما أقرب به ما كاب فى كتاب (مجد إسبانيا العربية) . وقد ظهر أثر العرب فى التحاق أبناء الأغنياء الأوربيين بمدارسهم ، وكاتوا يتجشمون الأسفار من أجل ذلك . وقد تعلم فى مدارس العرب بعض رجال الدين المسيحى ومنهم البابا سلفستر ؛ ونشر العرب مبادئ الفروسية وأخلاقها وسجاياها من شهامة ونجدة ظهرت فى بدء عصر الفروسية ، وكان له أثر

* هكذا فى الأصل ولعل الصواب "نمو" كما يقتضى السياق . "المحرر"

فى تكوين آداب اللغات الأوروبية الحديثة ، فظهر أثرهم فى شعراء الرومانس والتروفر والتروبادور كما ظهر فى آراء المصلحين الدينيين وفى رحلات الكشف .

وللمؤرخ (ماكاب) رأى يتفق ورأيه الدينى وهو أن الحضارة العربية فى الأندلس لم يقض عليها التعريف والتنعم والضعف ، وإنما قضى عليها التعصب الدينى من جانب الأسبان المسيحيين بعد أن أضعفها التعصب من جانب المرابطين والموحدين وإن صدوا الأسبان عنها زمناً . ولا يقصر هذا المؤلف وصفه على الحضارة العربية فى الأندلس ، بل يصف الحضارات العربية فى بقاع أخرى .

ولم يكن العرب وحدهم بناءة هذا المجد وهذه الحضارة ، بل اشترك فى بنائهما الأمم التى اعتنقت الإسلام وتعلمت اللغة العربية حتى صارت لغة لها .

٢٤- داء الشعور بالحقارة أيضاً*

قرأ أديب مقالة داء الشعور بالحقارة فقال إن الصفات التي ذكرتها صفات شائعة في النفس الإنسانية . وكأنه بهذا القول يريد أن ينكر أن في النفس ما يصح أن يسمى داء الشعور بالحقارة . فذكرت الأديب بأن صفات الخير والشر كلها موجودة في كل نفس ، فلكل نفس منها نصيب قل أو كثير ، ولكن هذه الحقيقة لا تمنع من تفاوت النفس تفاوتاً عظيماً حسب نصيبها من صفات الخير أو الشر . ولا نريد أن ننكر أن جرثومة الحقارة تلتف حتى في النفوس العظيمة ؛ هذا أمر نريد أن نثبتته وإلا ما استطاع القاريء أن يعترف بما ذكرناه في مقالنا من أن داء الشعور بالحقارة قد يصير وباء في بعض البيئات ، وأن له عدوى كعدوى الأمراض الجثمانية ؛ فلو لا هذه الجرثومة التي تشترك فيها النفوس قاطبة ما استطاعت نفس أن تؤثر في نفس أخرى وأن تحملها على محاكاتها في الأفعال أو الأقوال الناشئة من شعورها بالحقارة . إن صفات الخير أو الشر شائعة في النفوس الإنسانية ؛ وهذا سبب العدوى وسبب المحاكاة . ولكن شيوع صفة من الصفات في النفوس لا يجعلها مرضاً مزمنًا ، وإنما تصير تلك الصفة مرضاً إذا غلبت على النفس وصارت محور أعمالها وأقوالها وطففت على كل صفة أخرى أو حاولت هذا الطفيان وقلقت المشاعر . وفي هذه الحالة يكون الداء النفسي في أشد حالاته ، ولكن له حالات أخف وأهون .

وقد ذكرنا أن ذبوع داء الشعور بالحقارة يكون أعظم في الأمم التي ظلت على أمرها عصوراً طويلة ، غلبة تشعورها الذلة والمسكنة سواء أكان الغالب قاهراً أتاها من الخارج أو حاكماً من أبنائها . وتظهر أعراض هذا الداء إذا قلت وطأة تلك الغلبة أو زالت أسبابها وزادت الحرية ، فتبرز وتعظم صفات القلق والألم والحقد والحسد خشية أن يفطن أحد إلى ما يشعر به صاحب داء الشعور بالحقارة في سريرة نفسه . وقد يكون شعوراً غامضاً لا يتبينه تماماً فيتعاضم تعاضماً لا اطمئنان فيه ، لأنه تساوره الأحقاد والحسد فينم تعاضمه عما يبطنه من الشعور وما يعالجه من داء الحقارة . وفي بعض النفوس يظهر الداء بمظهر المتواضع وتحقير النفس تحقيراً يخالطه الحقد والحسد والقلق ، فتتم هذه الصفات أيضاً عما يعالجه المرء في سريره نفسه من الشعور بالحقارة . وقد يعالج هذا الشعور وهو لا يدركه ولا يفطن له تماماً ، وقد يدعى المتواضع

المصاب بداء الحقارة أنه أكرم خلفاً من المتعاطف بهذا الداء . ولم نقل إن داء الشعور بالحقارة لا يظهر إلا في تلك الأمم التي ظلت مغلوقة على أمرها عصوراً طويلة ، وإنما قلنا إن ذبوعه فيها أكثر ، وصفاته ومظاهره أكثر تنوعاً وتعددًا ، وأعراضه أشد : من حب للظهور ومن دس وكيد وحقد وحسد . ولم نقل إن الكيد والحقد والحسد والتنافر ليس لها إلا هذا السبب وإلا هذا المصدر ، فلها أيضاً أسباب أخرى ، ولكن إذا ظهرت الصلة بينها وبين داء الشعور بالحقارة في مثل تلك الأمة أو البيئة الموصوفة كان هذا الداء هو سببها ، وحتى في حالات الأقراء المصابين بهذا الداء في بيئة سليمة منه قد تظهر صلات هذه الصفات بداء الشعور بالحقارة ظهوراً ليس مثله ظهور . أما في البيئات المربوة فليست الصعوبة في معرفة صلات هذه الصفات والمظاهر بالداء ، وإنما الصعوبة في حصرها وعدّها ولم شعثها وتشعبها تشعباً عظيماً ؛ وهذا التشعب والتفرع قد يبعدها عن أصلها لكثرة الفروع وفروع الفروع حتى يخيل للرائي أن لها أسباباً أخرى غير داء الشعور بالحقارة الذي هو منبتها وجذرها وجزعها في تلك البيئة ، فتتكاثر صفاتها أمام الباحث تكاثر الظباء على خراش .

على أن العقل لا يجد صعوبة في أن يفهم منشأ هذا الداء في الأمم التي ظلت مغلوقة على أمرها عصوراً طويلة تشعرها الذلة والمسكنة ، ثم جاءت الحرية . ومن لوازمها أن يخفى الحر ما يشعر به من صفات متوارثة أو غير متوارثة ، وهذه الرغبة في إخفاء ما في نفسه من داء الشعور بالحقارة قد تصير داء يتلمس كل وسيلة شريفة أو دينية ، وقد يشرف بصاحبه على الجنون أو يبلغه ، وقد يدفع إلى الجرم . وفي اعتقادي أن مباهاة التعس للتعس من فقراء الفلاحين مباهاة ربما دعت إلى الجرم والإثم من أجل سبب تافه ، إنما تنشأ من هذا الداء ومن هذه المؤثرات الاجتماعية القديمة الحديثة . وكذلك حب الظهور الذي قد يؤدي بالأملاك ويؤدي إلى خراب الأسر ، إنما هو داء الشعور بالحقارة الخفى يبرز في شكل تعاطف مصحوب بالقلق والحقد والحسد . وهذه المظاهر تشاهد أيضاً في نفوس بعض الموظفين والطلبة وسكان المدن الكبيرة . ولا بد أن نقول مرة ثانية إن صلات هذه الصفات بداء الشعور بالحقارة في بيئة اعتورها ذل ثم حرية بعد ذل طويل ، صلات ظاهرة لا تنكر ، وإن تلك الصفات ليست في شكلها الذي تشترك فيه النفوس البشرية عامة بل زادت واشتدت حتى صارت داء ، وإنه لا يرجى رقى ولا تصلح تربية ولا يصلح تعليم ولا ترجى ثمراته كلها إلا إذا عولج داء الشعور بالحقارة وأعراضه .

وكانت الحرية الكاشفة عن هذه الصفات الكامنة أشبه الأشياء في فعلها بالخمر التي تظهر الصفات الكامنة ؛ فإذا كانت في طبع المرء شراسة أظهرتها الخمر إذا سكر ، وإذا كان في طبعه إسراف زادت الخمر إسرافاً حتى يكاد السكران يخلع كل ثيابه ويتصدق بها على الناس ؛ وإذا كان في طبعه ميل إلى الإجرام دفعت الخمر إلى ارتكاب الكبائر .

وليس بين القراء من لم يشاهد مريضاً بداء الشعور بالحقارة ، ولكن ذبوع هذا الداء في بيئة يجعله مألوفاً ألفة تفقده الغرابة ، فلا يشعر به الإنسان في تلك البيئة إلا إذا بحث عنه وتعمد القطنة له .

وكلما كان المصاب بداء الشعور بالحقارة مفلساً من العلم أو الذكاء كانت لجأته في جداله وحديثه أعظم ، وكان غضبه إذا خولف أشد ، وكان ادعاؤه العلم بكل شيء أوفى وأتم ادعاء ، وكان حقه على من يخالف رأيه أبعد أثراً وأطول عمراً وأعرق مقراً من نفسه ، حتى ليكاد يأتيه يوم القيامة وأوضح أثر في نفسه حقه على من خالفه في رأيه في الحياة الدنيا . والويل لك إذا عاشرت من اشتد به داء الشعور بالحقارة ، فإنك إذا عاونته حقد عليك من أجل فضلك عليه الذي يهيج شعوره بدائه ، وإذا لم تعاونه حقد عليك أيضاً من أجل حاجته إليك التي تهيج شعوره بدائه . وكلما كان المصاب بداء الشعور بالحقارة مفلساً من المال ادعى الثروة ، وقد يبلغ به داء الشعور بالحقارة منزلة يرضن فيها بما معه من المال على عياله كي يظهر به في المجالس والنوادي ، وبين الغرباء بمظاهر الأريحية والسخاء والثروة . وهو يتلطف ، وقد يتذلل لمن يريد أن يقنعه أن صفات الأريحية والسخاء من صفاته وإن لم يكن من طبعه إلا الشراسة والحقد . وهو يحقد على كل من لا يمكنه من الظهور بمظهر التعاضم والأريحية ومن لا يهيم له السبيل إلى ذلك ، وعلى من لا يضحى بكل شيء في سبيل تهينة وسائل الظهور له ، وعبثاً يحاول أن تظهر لدى من اشتد به هذا الداء بوفاء أو ود ، وعبثاً يحاول أن تفهمه حقيقة الأمر ، فإنه يخادع نفسه حتى يعتقد أنك تحسده على ماله من مظاهر العظمة أو الأريحية أو الذكاء النادر أو على منزلته في قلوب الناس . وفي البيئة التي يذيع فيها داء الشعور بالحقارة يعتقد كل إنسان أنه عظيم الشأن ، أو يحاول أن يعتقد هذا المعتقد وأن يحمل الناس على اعتقاده ، ويرى أن أكبر جريمة في العالم هي أن يجيد إنسان أو أن يظن أن إنساناً أجاد (وإن لم يكن قد أجاد) في عمل أو قول أو جهد أو رأى أو صنع ، سواء أكانت الأعمال والأقوال مما يرجى فيه الخير للجميع أو مما فيه خير خاص ، وسواء أكان فيها نفع للمريض بداء الشعور بالحقارة أو لم يكن فيها نفع ، وهذا الحقد الذي يشعر به هؤلاء قد يخفى نفسه ويظهر

بمظهر العبث : وقد لا يخفى نفسه . وقد يدعى الغيرة على الخير والفضل ، وقد لا يدعى ، وهو دائماً كالحبوان فى الغابة متحفز للوثوب والظهور وإذا أتاحت الفرص ، فإذا لم تتح الفرص لم يثب . وكثيراً ما تراه فى أوجه أصحابه عبوساً خاساً يتم عن جنون الحقد ، وفى مثل هذه البيئة لا يعد المريض بدءاً الشعور بالحقارة المشقة مشقة إذا كانت من أجل إحباط عمل زميل أو غير زميل ، كأنما تلك البيئة رقعة الشطرنج بين يدي لاعبين ماهرين لا يبقى كل منهما ولا يذر .

ولعل السبب فى أن الإنسان فى تلك البيئة التى اعتورها ذل طويل ثم حرية لاهم له إلا منع غيره من الظهور (وكلما كان الظهور بالإجادة فى صنع أو قول كان الخوف منه أعظم) أقول لعل السبب هو الرجوع بالسريرة وبالنفس إلى عهد ذلك الذل الطويل وطغيان الذين ظهروا فى تلك العهود طغياناً سبب ذلك الذل الطويل وسبب داء الشعور بالحقارة ؛ وربما ظهر الظاهرون فى تلك العهود بقدرة أو إجادة فأصبح المرضى بدءاً الشعور بالحقارة ، حتى بعد تلك العهود القديمة البائدة ، يكرهون كل ظهور بقدرة أو إجادة لأن فيه مذلة لأنفسهم .

وهؤلاء الناس قد يتعاونون فى إظهار من برز بقدرة أو إجادة ولكنهم قلما يفعلون ذلك إلا إذا كانوا يرجون فى إظهاره إظهاراً لأنفسهم وإبرازاً لها واكتساباً لأنفسهم شيئاً من الشهرة بالإجادة التى لصاحبهم ، أو إذا كانوا يرجون منه أن يعاونهم بقدرته على الظهور وإشباع نهمتهم منه .

ويبدو داء الشعور بالحقارة أيضاً بين طائفة الخدم والحشم والرعاع فيحسبون أنهم يخفون ما يشعرون به من ضعة منزلتهم الاجتماعية بمحاكاة من هم أرفع منهم منزلة فى اللباس أو فى قتل الشارب أو فى التنحنج أو فى الفكاهة أو فى التعالى والتعاضم على أصحاب الحاجات وكل من يريد مقابلة مخدوميه . وإذا كان المخدوم أيضاً مصاباً بداء الشعور بالحقارة وبخفيه بالسفاهة حرت وصرت لا تدرى يأخذ الخادم من أخلاق مخدومه أم يأخذ المخدوم من أخلاق خادمه . وكثيراً ما يتخذ كل منهما الآخر نصيراً فى خصوماته التى يخلقها من أجل شعوره بالحقارة . والفلاح الذى يغرى المجرمين والأشرار بمن لا يحببيه وهو جالس على المصطبة ولا يتزلف إليه مثل الموظف الصغير المنزلة أو كبيرها الذى يغرى الأشرار بمن لا يتزلف إليه .

وهذه الطوائف كلها تجنى على الصغار بتأثير قدوتها فيهم وكثيراً ما يكون سبب إساءة التلميذ أدبه رغبته فى حب الظهور الناشئة من هذا الداء . وحب الظهور صفة عامة فى النفوس كما قلنا ، ولكنها فى البيئات المريضة بداء الشعور بالحقارة تتخذ شكلاً وضيقاً خاصاً وهى تكون مصحوبة بالصفات النفسية الوضيعة التى ذكرناها . وبما يدل على أن داء الشعور

بالحقارة ينشأ بسبب عصور الغلبة التي تشعر بالذلة والمسكنة أن صفاته تكثر وتشيع بين العبيد وأبناء الأرقاء ، أو من كان أجدادهم أرقاء في العصور الغابرة وبين أبناء الشعوب التي ظلت مغلوبة على أمرها عصوراً طويلة خلقت التواء في الخلق ولثماً . ولعل هذا الأمر يفسر ما نقرأ في محاكمات قضايا روسيا من أعمال أبالسة أدنياء كانوا أرقاء أو مغلوبين على أمرهم عصوراً طويلة ، فلما نالوا الحرية أظهرت ما كمن في نفوسهم ، وهذا سواء أكانت هذه الأعمال قد فعلها من نسبت إليهم أم أنهم حملوا على الاعتراف بها كذباً بوسائل جهنمية ، ولا ينفى هذا الاستنتاج أن السياسة الدولية وعمالها السريين قد يستبيحون كل جريمة ضرورية وغير ضرورية في تنفيذ أغراض السياسة السرية وملحقات تلك الأغراض .

ومن التلاميذ الصغار من يصاحب أهل الفساد أو المصابين بداء الشعور بالحقارة ، فيريد أن يخفي التلميذ شعوره بالنقص أو الفساد الذي لحقه بإساءة أديه . وكثيراً ما يحاكي الصغار هذه الطوائف حتى من كان منها من الرعاع فيحاكونهم في مشيتهم وإشاراتهم وأقوالهم ، ويحسبون أن تلك المحاكاة تكسبهم رجولة وبطولة من غير أن يشعروا أن الرعاع أو من هم أكبر منهم منزلة وأعظم علماً من المصابين بداء الشعور بالحقارة يصعدون ويردون في أقوالهم وأعمالهم وإشاراتهم وحركاتهم وهم مسيرون لامخبرون ، وأنهم في كل هذه الأحوال طوع شعورهم بالحقارة وطرح الرغبة في ستر ذلك الشعور فكانهم لعب خيال الظل بحركتها المحرك من وراء ستار .

٢٦- مظاهر القسوة والرحمة *

فى الحضارات

أشرت فى مقالة (مجد العرب والاسلام)^(١) إلى محاولة بعض المؤرخين الأوربيين إصغار مظاهر القسوة فى الحضارات الأوربية وإعظامها فى الحضارات الشرقية . ولسنا نريد أن ننكر مظاهر القسوة فى الحضارات الشرقية ، وإنما نريد ألا يكون هناك لبس ، وألا تختفى الحقيقة التاريخية ، وهى أن الحضارات الأوربية لم تكن مظاهر القسوة فيها أقل من مظاهرها فى الحضارات الشرقية . فكل تمثيل قرأنا عنه فى حضارة شرقية قرأنا مثله فى الكلام عن الحضارات الأوربية . ولا يمكن تقصى كل مظاهر القسوة فى الحضارات ؛ ولا يفيد الانسانية إخفاء الحقيقة ، والمؤرخون الذين يخفونها قد يفعلون ذلك بحسن نية لأنهم يغالطون أنفسهم فيكونون كمن يجهل الحقائق وإن كانت ماثلة أمامه . وهذه ظاهرة كثيراً ماتشاهد فى الحياة فيحسبها الناظر سوء نية وكذباً متعمداً وماهى كذلك ، وإنما هى المغالطة للنفس التى تجعل المؤرخ يفرق بين النفوس البشرية ونزعاتها فى الشرق ، وبين النفوس البشرية ونزعاتها فى الغرب . كما يفرق المؤرخون فى بعض الأحيان بين العقول البشرية وملكاتهما وطرق تفكيرها فى الشرق وبينها فى الغرب ، ويبالغون فى اختلاف طرقها بحسن نية ، وإن كانت المبالغة خطأ فى البحث والاستقراء .

كنا نقرأ عن الحضارة الإغريقية أنها منبع الرحمة والنور فى العالم القديم والحديث ؛ وكان بعض المؤرخين لايسهبون فى وصف مظاهر القسوة فيها ، وإن كانت موصوفة فى مراجع التاريخ ، وإنما هم يهملون وصفها عند إثبات أن الحضارة الإغريقية منبع الرحمة والنور فى العالم ، فلا يذكرون أن تلك الحضارة كانت مؤسسة على عرق جبين الأرقاء ودمائهم ، ويهملون ذكر ماكان يحدث فى المحاكم الإغريقية إذا ادعى أحدهم دعوى على رجل وأنكر هذا الرجل الدعوى وجىء بالأرقاء الذين يملكهم هذا الرجل المنكر وعذبوا بأصناف من العذاب القاسى الشنيع كى تؤخذ اعترافاتهم وهم يعذبون حجة على سيدهم . وكان السيد إذا اعترض على تعذيب أرقائه عد معترفاً أو شبه معترف بخوفه من أن يبوح أرقائه وهم يعذبون بما يؤدى إلى

* الرسالة : ٢٥ إبريل ١٩٣٨ ، ص ٦٨٦ .

(١) انظر العدد ٢٤٦ من الرسالة ، ٢١ مارس ١٩٣٨ .

إدانتهم . ومن أمثال تلك القسوة فى الحضارة الإغريقية ما كان يلاقيه الأرقاء فى المحاجر والمناجم ، ومثلهم مثل الأرقاء فى مناجم الرومان . ويكفى وصف مآلقات جنود أثينا الأسرى عندما حاولوا غزو سراقوسة فى صقلية وفشلوا واستخدموا فى المحاجر والمناجم أرقاء . ومن مظاهر القسوة أيضاً معاملة المدينة الظافرة للمدينة المغلوبة على أمرها إذا ثارت على سيدتها ، فقد كانت المدينة الظافرة تقضى فى بعض الأحيان بقتل جميع الرجال وبيع الأطفال والنساء فى سوق الرقيق . وهذه المعاملة تذكرنا بما كان الإغريق فى العصور الحديثة يشنعون به على الأتراك ومعاملتهم لرعاياهم من الإغريق ؛ إلا أن تلك المعاملة القاسية القديمة كان يعامل بها الإغريق الإغريق . وحتى فى المدينة الواحدة كان الحزب السياسى إذا ظفر عامل الحزب المخاصم له أشنع معاملة . وهذا كان حال الحضارة الإغريقية التى كانت بالرغم من ذلك متبع الرحمة والنور فى تاريخ الحضارة الأوربية . فإذا انتقلنا إلى حضارة الرومان وجدنا أن مظاهر القسوة لم تكن أقل منها فى الحضارة الإغريقية ، فكان الأرقاء يعاملون معاملة قاسية بالرغم من القوانين التى أصدرت لحمايتهم . وكانت الأحزاب السياسية يقسو بعضها فى معاملة بعض قسوة شنيعة . وكان الظفر الحربى الرومانى نذير القسوة الشنيعة حتى بعد ذلك الظفر عند الاحتفال به وبعد الاحتفال به . وكانت الخوازيق التى يُعَبَّرُ بها الأتراك والشرقيون من العقوبات الرومانية ؛ وكذلك الصلب والتمثيل بالمصلوبين وهم مصلوبون . وكانت ميادين الكوليسيوم معرضاً لجنون قسوة النفس الانسانية حتى صارت من ملذات الجمهور الرومانى رؤية الوحوش وهى تفترس أجسام الأحياء وتمزقها تمزيقاً ، ورؤية حرق الأحياء كما كان المسيحيون يُحرقون . ولم تكن مظاهر القسوة فى الحضارة مقصورة على حضارة أوربا الوثنية ، بل كانت على أفظع شكل حتى عند المتدينين من القائمين بأمر محاكم التفتيش الذين كان بعضهم يبكى رحمة بمن يعذبونهم فلا يزيدهم بكاء الرحمة إلا رغبة فى تعذيب ضحايا تلك المحاكم اعتقاداً أن ذلك التعذيب وأن تلك القسوة رحمة بالضحايا . ويقولون إن تعذيبهم فى الحياة الدنيا يقلل من عذابهم فى الآخرة ، فيكون تعذيبهم فى الحياة الدنيا رحمة بهم ، ولم تكن مظاهر القسوة مقصورة على طائفة دينية دون الطوائف الأخرى بل اشتركوا فيها جميعاً . كما أن القوانين التى كانت تطبق فى الأمور غير الدينية كانت مثقلة بروح القسوة والتعذيب . ومن العجيب أن المؤرخين الذين ينعون على الدولة الإسلامية تنفيذ الحدود ينسون أن القوانين الأوربية والمحاكم الأوربية كانت إلى قبيل الثورة الفرنسية توقع عقوبات هى نفس الحدود التى ينتقدونها فى الدولة الإسلامية . فإننا نقرأ فى مؤلفات ماكولى وغير ماكولى من المؤرخين عن قطع الأيدى وجذع الأنوف وصلم الآذان وغير ذلك من أجزاء الجسم وقراءة وصف العقوبات

التي وقعت بعد فشل ثورة دوق مونموث تكفى للدلالة على أن المؤرخين ينسون ما كان في الحضارات الأوربية من مظاهر القسوة عند ذكرها في الحضارات الشرقية . فإننا نقرأ كيف كانت أجسام الأحياء تقطع وتنصب أجزاءها على النصب والمباني والأعمدة وعند ملتقى الطرق، فمن رؤوس وأحشاء وأرجل وأيد منصوبة نتنة كانت تفسد الهواء في المجترات بعد ثورة دوق مونموث وغيرها من الثورات الفاشلة . والمستعمرون الأوربيون في أمريكا حتى المتطهرون منهم لم يقصروا في مظاهر القسوة . وقد استعرض فان لون المؤرخ الأمريكي مظاهر القسوة في الحضارة الأوربية والأمريكية في كتابه المسمى (تحرير الإنسانية) ولا تزال آلات التعذيب في المتاحف الأوربية الخاصة بها تدل على أن النفوس في أوربا لم تكن أقل قسوة من النفوس في الشرق ؛ ولا تريد ذكر هذه الحقائق للغرض من فضل الحضارة الأوربية. وإنما نريد تصحيح ما يشيعه بعض المؤرخين بحسن نية أو بسوء نية فيضل ما يقولون ويؤدي إلى تخليد قسوة النفس الإنسانية ، وربما كانوا أبعد الناس عن الرغبة في تخليدها .

والحقيقة أن النفس الإنسانية إذا غضبت قست وأجمرت حتى ولو كان غضبها للحق أو الحرية أو الوطنية أو كرهاً للظلم . ولعل أكبر انتصار للنفس الإنسانية في المستقبل يكون انتصارها على نفسها بمنعها من الاجرام والقسوة الهمجية الوحشية عندما تغضب للحق أو الحرية أو الوطنية أو كرهاً للظلم . انظر مثلاً ما ارتكبه ثوار الثورة الفرنسية من شرب للدماء ، وقزيق أجسام الأحياء ، وأكل للحوم البشرية وسلخ لجلودها والتذاذ باراقة الدماء والفخر بما كانوا يسمونه الفنائم والأسلاب من أحشاء نتنة ورؤوس كانوا يضعونها على الرماح . ولم يفعل كل هذا أناس شرقيون ولا أناس من قبائل نيام نيام في أواسط أفريقيا بل أناس غضبوا للحرية وكرهوا الظلم وكانوا يدعون إلى الحرية والإخاء والمساواة وإلى محو الشر . وهذه الثورة الفرنسية كانت مقدمة للديمقراطية الحديثة ، ولكن بعد أن كره العالم اسم الحرية زمناً وارتضى الحكومات المطلقة زمناً بسبب هذه الفظائع وهذه النذالة في الإجرام والقسوة .

ثم انظر إلى فظائع الحروب الاستعمارية وفظائع الحرب الكبرى فقد قاسى من أجلها من المحاربين ومن الأطفال والنساء آلاماً كثيرة عدد لم يقس مثله في الحضارات الشرقية بشهادة بعض المؤرخين الموثوق بقولهم وبشهادة المفكرين مثل هالدين وليونارد وولف .

ثم انظر إلى مستقبل الإنسانية وما هو منظور أن تقاسيه من الويلات بسبب الحضارة الأوربية وجشعها ومبخرعاتها مما ينسى المفكر كل مظاهر القسوة في الحضارات الشرقية التي ينتقدها بعض المؤرخين الأوربيين . والحقيقة أن النفس الإنسانية في السلم والحرب وفي

أعمالها وأقوالها اليومية لاتزال أكثر ولوعاً بالقسوة مما يظن المستعرض لها بنظرية سطحية عجلى ، كما هي أكثر ولوعاً بالمجون وقصصه وأعماله مما يظن المستعرض للأكاذيب المقررة التى هي طلاء الحضارة والتى تخفى مظاهر القسوة والمجون فى أعمال النفوس البشرية .

وإنى ما ذكرت تنور المتوكل الذى عذب فيه وزيره محمد بن عبد الملك الزيات إلا ذكرت الغلاف الحديدى ذا المسامير الذى كان يوضع فيه الأحياء فى أوربا . وما ذكرت الرقيق فى الدول الشرقية إلا ذكرت أن الرقيق كان شائعاً فى أوربا وأمريكا إلى عصور قريبة ، وإلا ذكرت أنه عندما بدأ الرحماء يدعون إلى تحرير الرقيق ووجدوا نصراً من رجال الدين فى أوربا ألقوا أعداء من رجال آخرين من رجال الدين كانوا يتذرعون بآيات من الكتاب المقدس من العهد القديم كى يزكوا بها الاستعباد ، وذكرت ما كان يقاسيه الرقيق فى الحضارات الأوربية مما يطول شرحه ووصفه ، وذكرت أن الكنيسة نفسها كانت تشتري الرقيق من الغلمان الصغار الملاح وتخصيهم ، وكانوا يسمون خصيان الكنيسة ؛ وكانت تفعل ذلك كى يرق صوتهم فيرتلون الآيات فى الصلوات بصوت عذب شبيه بأصوات النساء . وكان بعضهم يهلك من عذاب الخصى .

وبعد ، فإن مثل المؤرخين الأوربيين الذين ينكرون أو يصغرون من أمر مظاهر القسوة فى الحضارات الأوربية ويكبرون أمرها فى الحضارات الشرقية مثل كل إنسان فى هذه الحياة الدنيا ، فإن كل إنسان فى هذه الحياة الدنيا يصغر ويهون من أمر مظاهر القسوة التى ترتكبها نفسه ويكبر من أمر مظاهرها الصادرة عن نفوس غيره من الناس . وهو يفعل ذلك إما غفلة وعن حسن نية ، وإما يفعل ذلك وهو يدري مايفعل . ولن تنصلح الإنسانية إلا إذا امتنع تضليل النفس هذا .

٢٧ - مقياس الثقافة *

يرى أكثر الناس أن الحق جوهر لا يتجزأ ، وأنه إذا كان عند إنسان أو طائفة من الناس لم يكن عند خصومه أو خصومهم شيء منه . ومن ير هذا الرأي تضئول ثقافته ويضئول فكره . وهؤلاء المؤمنون بالحق قد يرون من المنكر الشنيع أن يجزئوه بين خصمين أو أكثر . وفي الناس طائفة أخرى على شيء من الثقافة تستطيع أن ترى ما للأضداد من الحق ، ولكنها من أجل ذلك لا تؤمن بالحق لزعمها أن الحق لا يتجزأ ، فإن تجزأ انعدم ؛ وإنكارها الحق بسبب تجزئه نقص في ثقافتها ينشأ من قليل من الثقافة ، فإن بعض الثقافة قد يعوق عن بعض . والدهماء وأشباه المتعلمين يغرون بمحاكاة هذه الطائفة في إنكار الحق ، والتشبه بها في الزرابة عليه من غير بصيرة ولا فهم ، ويتشبهون بها في الزرابة على كل ذي حق من فضل في العلم أو العمل أو الخلق ، ويتشبهون بها في إظهاره بمظهر المزيف المخادع . وإذا كثر أمثال هؤلاء وأشباههم في أمة ماتت روحها وأصابها الركود وإن كانت حية ترزق . والرجل من هؤلاء إذا وجد لإنسان حقاً أنكره ، وإذا وجد له نصف حق أنكره ، وإذا وجد له ثلث حق أو ربع حق أنكره ، لأنه في سريرة نفسه لا يرى لنفسه ذرة صغيرة من الحق تعدل اعترافه بجزء غيره من الحق أو كله . وكلما عظمت الثقافة عرف كل خصم جانب الحق الذي لخصمه ، بقدر عرفانه جانب الحق الذي في ناحيته ؛ وهم إذا عرفوه حقيقتهم أن تقل الخصومة بينهم ، ولكن ربما لا تنعدم ، لأن كل إنسان يرى لنفسه من الحق نصيباً أكثر من نصيب غيره ، فيتقاتلون على تعيين حدود أجزاء الحق إن لم يتقاتلوا على تعيين حدود الحق كله .

على أن الثقافة كفيلة بأن تُلطف تلك الخصومة ، لأن المثقف الباحث في نفسه المفكر فيها كثيراً ما يراجعها ، فإذا عادى عادى وهو يحسب في خصومته حساباً لما قد يكون من خطأ النفس الذي لم يفتن له بعد في تقدير حقها ، ويحسب أنه ربما يفتن له في مستقبل أمره . أما غير المثقف فإنه لا يستطيع أن يحسب حساباً لما قد يكون من خطأ النفس الذي لم يفتن له . ولعل ألصق خصائص الثقافة وألزمها لها عرفان أوجه الحق عرفاناً ملحاً يدعو إلى الاعتراف بها ويدعو إلى حسابان سقطات الفكر من غير قصد وإلى إسقاط المرء الشيء ولو القليل من الثقة بالفكر كي يعدل به ما قد يكون من خطأ لم يفتن له .

وقد ولع بعض الكتاب بالزراية على الحق زراية ليست زراية من يريد أن يقلقل المتنطسين في انتشيع لجانب منه عن تنطسهم كي يدركوا الجوانب الأخرى ، وإنما هي زراية الجاهل الذي يريد أن تعم الفوضى كي يكتسب فيها ومنها من غير حق ، كاللص الذي ينتهز فرصة فوضى العراق كي يسرق دراهم الناس . وأمثال هؤلاء الكتاب يجدون رواجاً في أوساط التدهور حيث يصير السخر بالحق وأوجهه خطة عامة لا يستثنى منها فضل أو علم أو عمل أو خلق . فلا غرابة إذا ماتت روح أمة هذا شأنها وإن كانت حية ترزق . والحق عند الجاهل كالدينيا عند الأبله الساذج بقعة حول نفسه أو داره أو قريته . وكلما زاد المرء علماً كبرت الدنيا في نظره حتى يعرف أنها عوالم ونظم شمسية عديدة لم تحصص بعده . وكلما زاد المرء فطنة وثقافة عظم الحق في ذهنه كمعظم الدنيا في رأى علماء الجغرافية والفلك . على أن عظم الحق في نظر المفكر قد يعدم الحق كما رأينا ، فيقول المرء لاحقيقة في الحياة ، بل كل أقوال الناس دعاوى باطلة ، وإنما مثل نظر هذا المفكر إلى الحق مثل نظر المظل في الماء وقد قذف فيه بحجر ، فهو ينظر إلى دائرة موقع الحجر في الماء تتسع حتى تفتنى . ولكن هناك حالة من حالات الثقافة يطمئن فيها المرء إلى أن تباين أوجه الحق لا ينفي الحق . ألم تر أن الدواء يشمل الأضداد ويشمل حتى السم ، فلا ينفي ذلك أنه دواء . وحذا لو فطن إلى ذلك أصحاب الأوهام الغربية الذين لا يرون الخير إلا الخير المطلق الذي ليس متصلاً بالشر ، والحقيقة المطلقة التي لا تتصل بباطل ولا تتجزأ ، فإذا وجدوا أن الخير في الحياة ممتزج بالشر قالوا أن لاخير ولاشر ؛ وإذا وجدوا أن الحق ممزوج بالباطل قالوا أن لا باطل ولاحق ، وإنما هي كلمات واصطلاحات ، وإن كل إنسان يعد الحق والخير مافى ناحيته ومافيه نفعه ، ولكن لو أن أحد الناس نظر في وجوه الناس ثم في وجوه الخيوانات والطيور ثم قال : إن اختلافها يدل على أن ليس في الكون ما يسمى وجهاً أكان يكون مصيباً في مقاله ؟ وكذلك من نظر إلى الدنيا نظرة الراهب الزاهد فيها ونظرة المقبل على مباهجها وأطاييها ونظر إلى نظرة القوى ثم نظرة الضعيف وجد أن أوجه الحق مختلفة ، أكان يكون مصيباً لو قال إن اختلاف أوجه الحق ينفي الحق ؟ أليس قوله مثل قول من يعرف أن النور إنما يتكون من ألوان عدة ، ويقول إن اختلاف مظاهر الألوان التي يتكون منها شعاع النور ينفي وجود النور . وإنما دفعه إلى إنكار الحق أن تغاير وجوه الحق قد يجعله عند الناس كمقياس من الجلد القابل للتمدد يتخفونه لقياس الأقمشة وهم تارة يخطونه إلى نصف مط ، وتارة يخطونه إلى آخر ما يستطيع فيه من المط حسب أهوائهم . وكذلك يطيلون الحق ويقصرونه حسب أهوائهم فيصير الحق مقياس محتال وآلة خداع فتقل حماسة المرء في

سبيل الحق ، ويحتقر الجهاد فى الحياة لنصرة الحق ، ويدفعه اختلاف أوجه الحق إلى إنكار الحق، ويهيبه له العذر فى نصرة الباطل لأنه يرى أن الإحساس بالحق والباطل يختلف كاختلاف الإحساس بالحرق والبرد حسب الأمزجة والطبائع . وإذا نظرنا إلى أكثر المتعاضين من الحياة الراجين إصلاحها وجدناهم من أصحاب المزاج الشاذ أو من ذوى الفشل أو الفقر ؛ وبالرغم من أن أساس هذا الامتنعاض فردى ، وأنه شعور خاص ، فإنه من وسائل الرقى والإصلاح ، ويؤدى إلى كثير من الخير والحق . وكذلك إذا نظرت إلى أصحاب المزاج المعتاد وأهل النجاح والسعادة وجدتهم يكرهون كل تغير ، ويرون صلاح الحياة فى بقاء كل قديم على حاله ؛ وبالرغم من أن أساس رأيهم شعور خاص بما فيه النفع لهم فإنهم يدافعون عن الحق الكائن والخير القديم ويفطنون إلى مافى رأى المتعاضين من الحياة الراغبين فى إصلاحها من وهم وباطل وشر وإن لم ينفطنوا إلى مافى رأى هؤلاء من حق وخير . والرجل المثقف هو الذى يستطيع أن يجمع بين النظرتين من غير أن ينعدم الحق فى نظره ، والذى يعد فريضة التشبث بالقديم ليست من الباطل بل هى الحجر الذى يحتك به زناد المتطلعين إلى منازل الرقى الراغبين فى إصلاح الحياة فيورى هذا الاحتكاك نور الحق ونار الحياة . وإنما ضربنا مثل هاتين الطائفتين كى نوضح أن اختلاف منازل الحق لا ينفى الحق . وليس من الصعب تطبيق هذه الفكرة بالرجوع إلى كل أمر من أمور الحياة ، وإلى كل فريق من طوائف الفكر والعمل ، وإلى كل مذهب من مذاهبها ومن أجلها كانت كل حقيقة متممة لأختها ؛ ولا يتم الحق فى رأى إلا بما فى نقيضه من حق ، كما لا يتم الباطل فى رأى إلا بما فى نقيضه من باطل متصل به أو قد يتصل به والذى يحير المفكر الذى لا يجد فى الثقافة عزاء ولا هو ممن يتغلب على نزعات الفكر الحر بالتعصب لجانب منه أنه يريد حياة بسيطة ولكنها ليست بسيطة ، بل إنها كالحيط المعقد تلوى بعضه فى بعض . فإذا استراح المرء إلى الثقافة وجد فيها عزاء ، ورحب صدره ولبه بقدر اتساع الحق فى نظره ، ولم يحزنه اختلاف أوجه الحق ، ولم يضلّه إلا فى ساعات كلل الذهن أو ساعات الخوف أو التعب أو السقم والتشاؤم الذى يتهيا فى هذه الحالات أو فى مثلها .

على أن مذهب من ينكر الحق بسبب اختلاف مظاهره هو أيضا من الوسائل التى تستقيم بها الحياة وتستفيد منها ، فالحياة تتخذ من كل مذهب وسيلة وتقبل نفعه وتدفع ضرره ، وبمذهب من ينكر الحق لاختلاف مظاهره تستطيع الحياة أن تداوى نقيضه وهو مذهب المتعصب لجانب واحد من جوانب الحق . وإن المفكر ليرى فى العقل البشرى على العموم خصيصة تمكنه

فى بعض حالاته من قبول أى رأى أو معتقد سواء أكان قريباً أم بعيداً ، متزناً أم غير متزن ، جليلاً أم غير جليل . وهذه الخصيصة قد تدعو إلى الباطل ، ولكن من الثقافة ألا ييأس المفكر من أجلها لأنها دليل على أن العقل البشرى قادر على أن يرى كل جانب من جوانب الحق فى الأمور فى أثناء التخييط فى جوانب الباطل منها . ومادام الرأى لا يصير عادة أو قيداً وسجناً أو ألفاظاً ميتة مستحبة أو شيئاً لا يصح الرجوع عنه بطريق الثقافة ، فالأمل معقود بالتخييط والتهدى حتى ولو قبل العقل البشرى من الآراء فى بعض الأماكن والأزمنة والحالات ما قبلته عقول زئوج الغابات ونفوسها وما قبلته عقول القبائل البشرية من آراء رهبة يصف أمثالها السير جيمس فريزر وسجموند فرويد . وأشد منها رهبة وخطراً على العقول البشرية أن يحرم محرم فى أرقى الدول الحديثة حضارة وفكراً على العقل البشرى أن يفكر إلا فيما تسمع بالتفكير فيه تلك الدول ، لأن الأمل معقود بتخييط الفكر البشرى وتهديه مادامت الثقافة رائده ، ومادام الرجل المثقف يفسح صدره لرأى خصومه ، لأن كل جانب من جوانب الحق قد يتصل بجانب من جوانب الباطل ، إذ بينهما تقارب وتناسب ؛ فالرغبة فى بلوغ الكمال وولوج الفكر به وتحقيقه مما يوطد سبل التقدم ، ولكنها أمور قد تدفع إما إلى اليأس إذا فشلت ، وإما إلى الإجرام فى أثناء محاولة تنفيذ أغراضها ، فتكون داعية إلى الحق من ناحية وإلى الباطل من ناحية أخرى ، وكذلك الرأى القائل بإنكار استطاعة رقى الإنسانية وكمالها قد يؤدى إلى الحق الذى فى جانب الاتزان والتؤدة والمحافظة على الحق المستطاع بدل لفظه فى سبيل الحق المنشود . ولكنه قد يؤدى من ناحية أخرى إلى الأثرة وتبرير الفساد الموجود لأنه موجود فى وجود أنكر هذا الرأى إمكان إصلاحه . والرأى القائل بالإيثار له جانب حق كما أن للأثرة جانباً آخر ينشد فى تهيئة الأحاد والأفراد بالقوة والإقدام ، وفى قوتهم وإقدامهم قوة للمجتمع الإنسانى وإقدام له.

وعمل الثقافة فى الحياة هى أن تؤسس الحياة على أساس صالح يوفق بين جوانب الحق فى الأضداد ، وأن تفصل بين كل جانب من جوانب الحق وما يلائمه من جوانب الباطل .

٢٨- الأخلاق والحضارة*

"الحضارة كالخمر تظهر المناقب والمثالب"

يقولون إن الحضارة مفسدة للأخلاق وهذا قول نصفه حق ونصفه باطل كما هو شأن الجمل العامة التي تطلق على علائها فإن الحضارات يختلف مستواها الخلقى ، وللحضارات محاسن خلقية ، كما أن لها رذائل والحضارات تختلف مظاهر الأخلاق فيها في أطوارها وعلى حسب الأساس التي بنيت عليها ولنقيض الحضارة مفسد خلقية أيضاً . والمتحضر يبالغ في مفسد نقيض الحضارة قدر مبالغة غير المتحضر في مفسد الحضارة أو أنها لا يكادان يريان غير المفسد وهو الأصح لأن النفس البشرية هي التي قد تبالغ في إظهار مفسدها . ويقولون إن علوم الحضارة الحديثة مفسدة للأخلاق متلفة للمناقب . والصواب انها تنشىء فرصاً لإظهار ما استسر في النفس من خير لا يرجو جزاء ومن شر لا يخشى عقاباً وإنما مثلها مثل الخمر التي تظهر المناقب والمثالب من خير وشر فمن كان كريماً أظهرت كرمه ومن كان لئيمًا كشفت عن لؤمه . ففكرة صلاح الكون ببقاء الأقوى وهلاك الأضعف أو ببقاء الأصلح للحياة وهلاك الأقل صلاحاً لها (لأن الأضعف جثمانياً قد يكون في لبد من الهبات الصالحة للحياة أكثر مما في لب الأقوى) أقول هذه الفكرة قد أوگت تأويلاً يعذر القوى في استعباد الضعيف ويعذر الضعيف عند نفسه في خنوعه ويسخر من المبادئ السامية . قال الاستاذ هولاند روز المؤرخ الانكليزي في اسباب تغلب حب الاستعمار والسيطرة (انه لما ذاعت فكرة صلاح الكون ببقاء الأقوى وهلاك الأضعف جعل الناس يتساءلون لماذا يحى الضعيف اذا كان صلاح الكون في ضياعه وهلاكه) فكانت هذه الفكرة كالخمر زادت وأبرزت مافى النفس من حب الاستعلاء . وقد بالغ المفكرون حتى ظهر بينهم من يقول إن التشبث بالجنس والوطن لا يؤلف القلوب كى تتعاون في نشر السلم والحضارة العالمية والأمن والسعادة وكى تسعى فى رقى الانسان والانسانية عامة . وقال المؤرخون إن التشبث بمبادئ المحافظة على الجنس الوطن سرعان ما ينقلب الى ضراوة استعمارية ورغبة فى السيطرة والحروب كما ظهر مراراً فى تاريخ أوربا الحديث كلما قويت جنسية من الأجناس التي كانت تنادى بمبادئ العدل العام والسلم عندما كانت مقهورة مغلوبة على أمرها فإنها إذا قويت لاتلبث أن تنادى بأن الحضارة العالمية لاتتحقق الا بتناحر الأجناس وتقاتلها حتى وإن كان فى آلات القتال الحديثة ما يهدد العالم بالخراب .

وقد ارتاع بعض المفكرين وخافوا على أهمهم من تفشى مبادئ الفلسفة الهادمة وقد جعل بعضهم يروج العقائد الدينية بوسائل قديمة جديدة مثل تشجيع تحضير الأرواح وذلك لأنهم خافوا على الحضارة من مبادئ الفلسفة المادية وخافوا على الأخلاق منها وكان تشجيعهم تحضير الأرواح كى يثبتوا بأدلة مادية عقيدة خلود الروح تلك العقيدة التى كانت تدفع بالمجاهدين من المسلمين فى صدر الاسلام فى لهوات الموت غير مكترئين له موقنين أن الموت ليس له سلطان على الروح وأنهم اذا خسروا هذه الحياة الدنيا الفانية فقد ربحوا الحياة الباقية فكان من وراء ذلك الاعتقاد استعلاء أمتهم وسيطرتهم . ولعل من أسباب زيادة نصرة المفكرين لمذهب استحضار الأرواح ومكالمتها وذيوعه فى السنين الأخيرة رغبتهم فى مواساة من مات له قريب أو حبيب فى الحرب العالمية الكبرى (مواساته أو ابتزاز ماله) ورغبتهم فى حث الجماهير على أن يجودوا بحياتهم لنصرة أمتهم إذ أن لهم وراء هذه الحياة حياة باقية فإن المرء لا يجود بحياة ليس له غيرها قدر ما يجود بحياة وراها حياة خير منها ويقدر يقين المرء وإيمانه بالحياة الأخرى يكون جوده بهذه الحياة .

على ان الدفاع عن الأهل والوطن أصبح طبيعة لا يلبث المفكر طويلاً حتى يؤوب اليها . وقد وصف الكاتب الفرنسى موريس لوبلان هذه الحقيقة فى قصته المسماة (على الحدود) وقلما نجد من له شجاعة أو عناد يمكنه من أن يمتنع عن الدفاع عن بلده وأن يقف موقف رومان رولان الكاتب الفرنسى الشهير فى أثناء الحرب العالمية وإن كان قد حاكاه فى انجلترا أناس صاروا يسمون بطائفة "اعتراض الضمير" نعم إن هذا الدفاع يصير اندفاعاً ألياً باعثة الخوف وللخوف شجاعة وحماسة فى اندفاعه ولكن شتان بين شجاعة اندفاع الخوف وشجاعة العقيدة والأمل والرغبة فى الحياة الباقية الأخرى .

لكن الباعث عند جمهور الناس هو أن يفدى المرء وطنه بحياته محافظة على عاداته ومبادئه والفوائد التى يشترك فيها أهل الوطن . والشجاعة مزاج فى النفس وقد تتوافر بالرغم من اعتناقه آراء الفلسفة الهادمة كما أنها قد لا تتوافر بالرغم من اعتقاده فى خلود الروح . فإذا كان المسلمون قد أقدموا على الموت فى حروبهم فى صدر الإسلام فقد أقدموا لأن اعتقادهم فى خلود الروح كان مقروناً عندهم بمزاج الشجاع القوى ولوفرة نصيبهم من الحيوة . وكم من جيوش قد هزمت وجبتت بالرغم من اعتقادها فى خلود الروح . وتحضرنا الآن ذكرى قصة شائقة من قصص الكاتب الاميركى جاك لندن وعنوانها (دين آبائه) وفيها يصف كيف أن قسيساً ضعيف الأعصاب والإرادة عندما هدده رجل مجرم نائر من سلالة التزاوج بين

البيض والهنود الحمر ، وخيره بين الحياة مع إنكار المسيح وشتمه وبين الموت ؛ اختار الحياة مع انكار المسيح بالرغم من أنه كان من المبشرين . ولما خير رجلا آخر من العتاة الملحد من فضل القتال حتى الموت واستحيا من أن يجعل إنكار دين آبائه وسيلة للنجاة من الموت .

وقس على ذلك أثر الحضارة في المعتقدات الأخرى فإن بين الناس من ينصر الفضيلة بالرغم من اعتناقه الآراء المادية الهادمة ومنهم من ينصر الرذيلة بالرغم من اعتناقه في الحياة الأخرى والجزاء والعقاب . ولكن مما لا شك فيه ان الكفر بالحياة الأخرى قد أصبح مثل الحمر التي تظهر مكامن النفس وكثير من النفوس لا تمتنع عن الإثم والجرم إلا رغبة في جزاء في الآخرة أو خشية عقاب . فاللحاد كالحمر يظهر ما كمن من الشر فيها وما تعالج من ميوله . فالفضائل والرذائل طبائع في النفوس وقد ترى في الناس من يفخر بالرذيلة وهو منها أقل نصيباً مما يقول إذا شجعته بيئته على ذلك الفخر كما أن من الناس من يفخر بالفضيلة وهو قليل النصيب منها ولكننا نسرع إلى تصديق الأول ونسرع إلى تكذيب الثاني في كثير من الأحيان وإن كان للخداع مجال في الحالتين .

وبين الناس طائفة أخذتهم نشوة بعض الآراء الفلسفية فقالوا إن الفضائل من مظاهر الضعف كالولاء والأمانة والوفاء والعدل والذمة وقالوا إن النفوس القوية لا تنقيد بها ويسمون الفضائل أخلاق الضعفاء وسجاي العبيد وهم إنما يقولون هذا القول كي يقضوا على النظام الاجتماعي الحاضر لمخالفتهم نظمه ومبادئه الاقتصادية . فقولهم إنما هو سلاح مؤقت لاحتاجة ثابتة ويسر باستخدام سلاحهم هذا المجرمون الذين تدفعهم رذيلتهم إلى اعتناق هذه النظريات الهادمة ، لا أن هذه النظريات الهادمة هي التي تخلق رذائلهم . ويقولون ماذا يهمنا أن يلحق الضرر غيرنا من الناس ولماذا نبالي الناس ويقولون انه فرض عليهم أن ينصوا أنفسهم بأن يطلقوا لها العنان فتستمرسل فيما تريد ويقولون سيان ارتكابك الشر وغشيانك الخير مادامت الحياة فانية . ويقولون إن حياة الملايين من البشر ليست أعظم عند الطبيعة من حياة الضفادع أو الحشرات . وتنتشر هذه المبادئ إذا اشتد التعارض على المعاش وقلت الثقة بالنظام الاقتصادي أو النظام الحكومي ويزيدها الشعور بالغبن وقلة الإتصاف .

على أن المرء لو لم يراع أخلاق الكمال هذه بعض المراعاة في معاملة من لا يؤمن بها لارتاع ذلك الجاحد لها وذم ونفوس الناس . والضرر الذي يلحق الجاحد لها لا يأتيه من ناحية أبناء قومه فحسب بل يلحقه أيضاً من الضعف الذي يذل أمته بسبب تفشى هذه الأخلاق فيها ولكنهم يقولون إذا كانت الامم تستبيح غشيان الرذائل في معاملة الامم الأخرى فلماذا لا تحيز الأفراد ذلك في معاملة الواحد للواحد منهم كي يبقى الأصلح للبقاء وهم لو فعلوا ذلك وساروا

على هذه الخطة كل السير لاهتضهم قوم آخرون لتخاذلهم . وأما بقاء الأصلح فيكون باتباع مثل الكمال ولو إلى حد ما . ومما يجلب الوهن أيضاً والتخاذل وانعدام الثقة بالأخلاق والفضائل تقديس الحقوق الفردية الى حد أن يكون كل فرد كجزيرة مستقلة في بحر الإنسانية لا شأن بغيره . ومبدأ الفردية هذا قد يكون من نتائج المغالاة بالحرية الشخصية التي تسنها المبادئ الديمقراطية ولكنه أيضاً قد يكون من مظاهر التخاذل والأثرة في الأمم القديمة التي مرت بها عصور حكومات مستبدة جعلت كل إنسان لا يفكر إلا في نفسه وجعلت كل إنسان من المحكومين المقهورين على طبائع الحكام فيصير كل إنسان من المقهورين مستبداً صغيراً يعامل المقهور مثله بطباع الاستبداد في الرأي والفعل والمشئمة . فإذا أتاحت فرصة عمت لموضي شاملة لأن كل إنسان في تلك البيئة على طبع الاستبداد لا يقدس غير أثرته وهو يظن أن طبعه هذا فضيلة التمسك بالحرية وبالمبادئ الديمقراطية لنفسه ويمدح نفسه لدى نفسه ولدى غيره إذا لج في فوضى الاستبداد وطبائعه زاعماً أنه بطل من أبطال الحرية وهو ضحية عصر الاستبداد القديمة وطبائعه الراسخة في نفسه .

وإذا انتشرت في بيئة هذا الإنسان المبادئ المضللة التي تترى بالفضائل والأخلاق وتعدّها من سجايا العبيد كان الاضمحلال أعظم والخطر أشد . ولا سيما إذا تكاثرت السكان واشتد القتال على المعاش وأبرز هذا القتال غناء النفس كما تبرز القدر الفائرة قذاها وبفوت هؤلاء أن حدود الأخلاق هي من تجارب الإنسان ومن ثمرات خبرته وهي تراث الطارف والتليد وذخره النفيس وقد سمعت إنساناً يتغنى بقصيدة لشاعر أوربي هو على ما أذكر من الشعراء الإغريق الحديثين ويقول الشاعر في قصيدته (خذ معولاً واهدم به كل ما يعتقد الناس أنه جميل أو جليل أو مقدس من الآراء والأنظمة والفروض والأخلاق واهدم ماضي الإنسانية كله ولا تذرف عليه دمعاً) وهذه هي الفوضوية بعينها وقد نسي أمثال هذا أنه لو أتبع للفوضوية أن تنشىء حكومة ثابتة لكان أول هم هذه الحكومة كي تتمكن من البقاء أن تقضى على الفوضوية ذاتها . وكل مذهب من المذاهب الهادمة للأخلاق قد جرب فيما مضى من الزمن ونبذ بعد حين حتى المذهب الذي يغرى بالشروع كي تعرف الإنسانية أن الحياة شر وتنقطع عن التناسل .

ومهما تعظم شرور الحياة فإن في النفوس قلعة للإيمان بها وبإرادة الله فيها وكلما دكت قلعة في النفس لذلك الإيمان بنيت على أنقاضها قلعة أخرى أو كما قال إمرسون الأميركي (ان في قلب المرء معبداً كلما تهدم بنى الله على أنقاضه معبداً آخر) وقد يلوّث هذا المعبد ما في النفس من شر ولؤم حتى تحسب النفس أن شرها ولؤمها خير لا ينفصل عن ذلك المعبد ولكن من الإيمان بالحياة وإرادة الله فيها أن تعتقد أن شر النفس ولؤمها سيظهر منهما ذلك المعبد .

٢٩- هل تنجح الدكتاتورية عندنا ؟ *

نشرنا في العدد الماضي مقالاً بعنوان "هل تنجح الدكتاتورية عندنا" وقد حوى ثلاثة آراء لمخضرات أحمد لطفى السيد باشا ، والأستاذ عباس محمود العقاد ، والدكتور عبد الحميد سعيد . وقد أطلع عليه الأستاذ عبد الرحمن شكرى ، وأرسل إلينا هذا الرد النفيس ، يحلل فيه كلا من نظرتى الحكم الديمقراطى والحكم الدكتاتورى من ناحية حاجة الشعب إليه ، وهو يرى أن قيام أى حكم يتوقف على حالة الأمة وأن الحاجة تابع لحاجة الأمة إليه . "الهلل"

إن التاريخ يدل دلالة واضحة على أن قيمة نظم الحكم تتوقف على الرجال القائمين بتنفيذها وعلى أحوال حياة الأمة التى تنفذ فيها ، فلا يمكن أن يقال على الإطلاق إن نظاما من نظم الحكم خير من نظام آخر فى كل زمان ومكان ، ومهما اختلف القائمون بتنفيذ النظام الواحد . وإذا صح هذا فمن العبث البحث فى أيهما أفضل الدكتاتورية أم الديمقراطية إلا بعد تقصى دوائر نفوس الذين يراد أن ينفذ النظام الحكومى على يديهم ، ومعرفة طابعهم وخططهم ، وبعد معرفة الأحوال التى تستدعى النظام المراد تنفيذه وهل تلك الأحوال تستدعى حقيقة ذلك النظام أم أن هناك وهماً ، فالتاريخ ينكر ما يقال من أن صوت شعب مامن صوت الله ، وتعالى الله عما يصفون ، فإن صوت الشعوب كصوت الأفراد يشمل حوافز الضغن والخطأ وسوء التقدير والجهل وقصور الذهن ، بل لقد ثبت لعلماء النفس أن رأى الرجل الفذ النافذة الرجيع العقل قد يضيع أو يتغلى عنه طوعاً إذا أراد أن يقود الجماهير ، فليس من حسن الإيمان أن يقال إن صوت الشعب من صوت الله ، ولكن التاريخ أيضاً ينكر على الواحد المفرد الحاكم بأمره ، أن يدعى أنه مفوض له من قبل الله جل شأنه أن يفعل ما يريد .

فنظرية حق المحاكم الإلهى المقدس باطلة ، كنظرية جعل صوت الشعب من صوت الله ، والنظم الديمقراطية الحديثة مهما بلغت من قداستها لدى بعض الشعوب الحديثة ما كانت تستطيع أن تنهض بأوربا عقب تدهور النظام الإقطاعى فيها ، إذ كانت أممها فى حاجة إلى حكام أقوياء حتى ولو كان فى بعض قوتهم إثم وجبروت كى ينجوا الأمم من معائب ذلك النظام الإقطاعى ومفاسده خصوصاً فى عهده الأخير . ولقد كان الملك فى تلك الأحوال أشبه بالمنقذ ، فكان ملكاً وكان دكتاتوراً أو شبه دكتاتور ، ومن أجل ذلك تعطلت النظم الديمقراطية

حيث كانت توجد مبادئها ، ولو فرضنا أنها لم تتعطل لكان نواب الشعوب الأوروبية وقتئذ لا محالة على مثل حالة الجماهير الأوروبية العقلية والنفسية من التأخر والركود ، وإذن لو فرضنا أن النظم الديمقراطية كانت سائدة وقت دخول آراء نهضة إحياء العلوم لارتاع نواب الشعوب من الآراء الجديدة ، كما ارتاعت الجماهير ، ولحاولوا القضاء عليها ، بينما كان كثير من الأمراء والملوك يشجعونها بنفوذهم وأموالهم .

وليس هذا كل عيوب تلك النظم فى أمة أو أمة غير مستعدة لها ، وأظن أن أبا النظم الديمقراطية جان جاك روسو الفيلسوف هو الذى قال إن أصلح من تصلح لهم الديمقراطية هم قوم من الملائكة تنزهوا عن اتخاذ نفوذهم السياسى فى الديمقراطية وسيلة لنيل مآربهم ، وقد ظهر هذا العيب حتى فى أول نشأة الديمقراطية أيام الثورة الفرنسية الأولى ، فلم تكن كل التهم التى قيلت عن ارتشاء الزعماء تهماً باطلة ، بل كان منها الباطل وكان منها الكثير من الحقائق ، وكانت هذه هى الداعية إلى إذاعة التهم الباطلة فى حالات أخرى . وقد كانت النظم الديمقراطية فى إنجلترا قديمة ، ولكنها كانت قبل القرن التاسع عشر أرسوقراطية حقيقة وديموقراطية شكلاً ، فلما اضطرت الأرسوقراطية إلى اصلاح توزيع الحقوق الانتخابية وتوسيعها اضطرت الحكومة إلى اصدار قوانين لرفع مستوى الجماهير العلمى خشية إساءة استعمالهم حقوقهم ومع ذلك فإن النظم الديمقراطية لم تحقق حكم الشعب بالمعنى الأعم الاتم ، بل كانت ديموقراطية "أوليغاركية" ، أو ديموقراطية رأسمالية بسبب انحطاط الجماهير نسبياً ، ونشاط أصحاب الأموال نسبياً ونفوذهم ورقبهم أيضاً ، فلا معنى لأن نعد صوت شعوب تلك الحكومات من صوت الله - تعالى الله عما يصفون .

والضرورة هى التى تخلق نظام الحكم حتى ولو كان المفكرون النظريون ضده ففوضى الثورة الفرنسية وجرائم حكومة الإرهاب ومفاسدها ، وخشية عودتها ، والخوف من غزو الدول لفرنسا ، هذه هى الاسباب التى مهدت السبيل لحكومة نابليون شبه الأوتوقراطية ، ومن قبل ذلك مهدت فوضى الجمهورية الإنجليزية بعد سقوط شارل الأول ومقتله لدكتاتورية كرومويل ، وكان كرومويل يكره ثروة النظريين من رجال السياسة كما كان يكرهها نابليون ، وقد صادف كل منهما نجاحاً كبيراً ، ولكن لم يستطع أحدهما إقامة حكومة ثابتة ، وترك نابليون فرنسا أقل مما وجدها بالرغم من فتوحاته الكثيرة ، وزاد الطين بلة أن مجد اسمه مهد السبيل لنابليون الثالث ، ولضباع الإلزام واللورين فى عهد هذا الأخير . وإذا كان لايجوز لجيل من أجيال أمة التحكم فى مرافق أجيالها المستقبلية ، وتحمل مسئولية ضياعها فكيف يستطيع فرد

أن يتحمل تلك المسئولية إذا لم تدعه الأمة إلى هذا النوع من الحكم كما دعت نابليون في أول الأمر^(١) دعوة مفروضة في موافقتها على حكمه .

ونحن إذا استعرضنا الدكتاتوريات الشهيرة في التاريخ وجدنا الناجع منها ما كان مؤقتاً ومؤسساً على إرادة الشعوب ، وكان في أمة قوية لم تتحل أخلاقها بسبب مفسد عصور استبداد طويلة ، وكانت ضرورة الأحوال هي التي دعت إلى الدكتاتورية المؤقتة وأيدتها .

أما إذا نشأت الدكتاتورية من غير ضرورة قاهرة في أمة انحلت أخلاقها بسبب مفسد عصور استبدادية طويلة . زادت الدكتاتورية مخلفات تلك العصور ، إذ أن نظام ذلك الحكم الدكتاتوري ينشئ فرصة لكل إنسان أن ينتفع منه بالطريقة عينها التي كانت النفوس تحاول الانتفاع بها في العصور الاستبدادية القديمة ، ولا يستطيع الدكتاتور أن يوجد نفوساً خالية من تلك العيوب ليدير بها نظام الحكم على طريقة جديدة صالحة مهما كان حسن النية ، إلا إذا كانت الأمة لاتزال فيها حيوية وطبقات خالصة من تلك العيوب ، أو قهرت تلك العيوب بالرعب . وإذا نظرنا إلى دكتاتورية مصطفى كمال وجدنا أن الحالة التي وصلت إليها تركيا بعد الحرب ، وأطماع الدول في أقسامها ، هي الأسباب التي مهدت لدكتاتوريتها السبيل ، حتى إن كثيرين ممن كانوا يسيئون به الظن كانوا يؤيدونه بالرغم من ذلك ، واعتقد أن مؤثرات الأناضول الجغرافية نجت تركيا من انحلال خلقى كبير بسبب عصر الاستبداد ، وجعلت فيها حيوية تمكنت من التغلب على كل شيء وجعلتها قابلة للانتفاع بإصلاحات دكتاتور مثل مصطفى كمال ، فإذن لا يصح أن نقول إن كل أمة يمكنها أن تنتفع بالحكم الدكتاتوري كما انتفعت تركيا ، ومع ذلك فإن ظروف السياسة الخارجية لو كانت غير ما كانت لمنعت دكتاتور تركيا من النجاح ، فليس النجاح مضموناً لنظام من الحكم معين .

فإذا فرضنا أن نظاماً ديمقراطياً برلمانياً في أمة استخدمت نواب الأمة والقائمون على أمرها أداة انتفاع وغلبت مفسد المقهور إذا تحكم ، وظهرت فوضى النفوس التي سببتها وقهرتها عصور الاستبداد الطويلة ، أو ظهرت لضعف الحكومة مفسد النفوس البشرية عامة ، واقتضت الضرورة إيجاد نظام من هذه الفوضى ، فالحكم الدكتاتوري يقوم بطبيعة الحال وبحكم الضرورة ، وبصرف النظر عن كونه يؤدي إلى إصلاح ، أو لا يؤدي .

(١) نجاح نابليون الدائم كان في توجيه نظام الإدارة وتوحيد القوانين ، ولكن ينبغي ألا ننسى أن خطة التوحيد هذه كانت خطة ملوك اليرانيين وخطة الجمهورية الفرنسية الأولى قبل نابليون .

أما إذا لم يحدث تلك الضرورة الملحة القاهرة في أمة فلا تقوم فيها دكتاتورية شعبية بالمعنى الحقيقي ، وفي بعض الأحيان تؤدي ضرورة الفوضى أو الفساد الاجتماعي أو الاقتصادي إلى دكتاتورية أو حكومة مطلقة نفعية كما حدث مراراً في التاريخ ، فصلاح الحكم الدكتاتوري أو فساده لا دخل له بالضرورة التي تؤدي إليه .

ولكن من حسن حظ مصر أن الفوضى التي كانت فيها في أواخر عهد حكم أمراء المماليك والوالى والجنود والترك أدت ضرورة معالجتها إلى ظهور دكتاتور قادر عبقرى استطاع أن ينشئ مصر الجديدة ونعني به محمد على باشا .

٣- صيانة العقيدة المحمدية من احتيال النفوس *

نقرأ في كتب السير عن أناس من السلف الصالح بلغت نفوسهم من الصفاء والتغلب على احتيال الأهواء مبلغاً كان للإسلام حجة أعظم من ألف حجة ودليل من الحجج والأدلة النظرية ، وقد بهرت سيرتهم وقُدوتهم من عرفها من غير المسلمين فأجلوا ذلك السلف الصالح من أجلها وأجلوا المسلمين من أجلهم ولو أنهم كانوا لا يؤمنون به وامتدحوه كما يمتدح الأب إذا حسنت سجايا ابنه التي بثها فيه . ولكن لاشك أن روح العقيدة الواحدة تختلف في نفوس معتنقيها باختلاف تلك النفوس ؛ فإن من الناس القاسي والرحيم والكريم واللئيم والشهم والوغد والمقبل على لذات الدنيا والزاهد فيها والوفى والغادر والعالم والجاهل والذكي والغبي ، وقد يعتنق العقيدة الواحدة أناس من كل هذه الطوائف ولكل منهم صفات تغلب على نفسه وتصبح آراءه وأقواله وأعماله بلونها ، وكأنه لا يرى ولا يسمع ولا يحس ولا يعمل إلا وعليه رقيب من تلك الصفات وهي كالقيود لا يستطيع أن يخلص منها .

والعقيدة في نفس معتنقها كالماء في الإناء يتخذ شكله ؛ فإذا كان الإناء مستديراً كان الماء فيه مستديراً ، وإذا كان الإناء مستطيلاً كان الماء مستطيلاً . وكذلك العقيدة تتخذ شكل النفس التي تعمرها . نعم إن العقيدة تخالط النفس والماء لا يخالط مادة الإناء ولا يحدث به أثراً ؛ ولكن المشاهد المحقق أن العقيدة تؤثر في النفس بعض الأثر ولكنها لا تستطيع أن تحول طبائعها ، وإلا لو استطاعت لما وجد بين معتنقي العقيدة الواحدة الطاهر البريء والمجرم الأثيم والسمح الكريم والوغد اللئيم والذكي الفهيم وذو الفهم البهيم والرحيم والقاسي الزنيم . فالعقيدة فيما هو مشاهد في الحياة لا تحمل النفوس على أن تتخذ شكلاً واحداً بل تبقى النفوس على محامدها ومساوئها ، وكما تؤثر العقيدة في النفس بعض التأثير تؤثر النفس في عقيدتها . ومهما اشتركت النفوس المتباينة في شعائر العقيدة فهو اشتراك عام لا يمنع اختلاف النفوس في تفضيل جانب على جانب ومظهر على مظهر من مظاهر الدين ، فشكل العقيدة في النفس الغليظة القاسية الغبية غير شكلها في النفس الرحيمة الذكية . وتتخذ العقيدة الواحدة أيضاً أشكالاً مختلفة في الأمم والأقاليم والأزمنة المختلفة وهي عقيدة واحدة ذات شعائر ومبادئ لا تتغير . والناس قلما يلتفتون إلى فروق روح العقيدة في النفوس المتباينة ، وقلما

يحسبون حساباً لهذه الفروق بالرغم من أنها قد تجعل الرجلين وهما على عقيدة واحدة وكأنهما على عقيدتين بينهما من البعد مثل ما بين السماء والأرض ، وإغفال هذه الفروق يؤدي إلى الاهتمام بمظاهر الدين أكثر من الاهتمام بروحه ، والدين معناه في روحه الزكية ، فإن رذائل النفوس قد تستولى على مبادئ الدين وتقاليده وعرفه وأخلاقه فلا تأخذ منها غير المظاهر بل إنها قد تزكى نفسها وتهون أمر تركها روح الدين وحقيقته وأخلاقه بالاندفاع في نصرة مظاهره والانفعال في نصرتها وقد يكون انفعالاً لأخفى العقل الباطن أنه بسبب أن النفس في غيظ شديد من أن روح الدين تخالف أثرتها وفائدتها الدنيوية وأنها لا تستطيع أن توفق بين ورع روح الدين وعفته وبين مطالب الحياة فتضحي بورع روح الدين كي تنال الدنيا أو بعض مطالبها حسب استطاعتها ثم تظهر الغيرة على مظاهر الدين الذي ضحت بروحه وورعه وتفتقر تلك التضحية بتلك الغيرة ، والنفس في احتيالها هذا ربما كانت معذورة إلى حد ما إذا لم تغال وتشتط وتقسو وتلوم وتؤدى الناس كي تعذر نفسها لدى نفسها التي ضحت بورع الدين وكفافة وعفته وهي تحسب أنها إذا لم تستطع صيانة روح الدين والتخلق بورعه كي تنال رضا الله ونعيم الآخرة فهي ربما تنال رضوانه ورحمته ونعيمه بهذا الاحتيال فتجمع إلى نعيم الأخرى الانطلاق في طلب الدنيا وتكفر عن نيتها ورع الدين بالاقتصاص من غيرها وتجعل هذا الاقتصاص قرباناً إلى الله بذل أن تجعل قربانها الصفاء والزهد في الدنايا والعفة عما يتطلبه نيل حطام الدنيا . ولقد قلنا الصفاء إننا نعذر هذه الروح ونرحمها إذا لم تشتط في هذه الخطئة، نعذرنا بعض العذر لضعف النفس البشرية ولضرورات الحياة وماتقهر الحياة النفس عليه من الدنايا ، ولأن النفس الورعة التقية قد تتردد فيها بالرغم من ورعها هواجس وخواطر طلب الشهوات لنفسها فتحاول أن تكفر عن تلك الخواطر التي تخشاها بالقسوة على من تحسبه مطيعاتها ولأن النفس قلما تظن إلى باعثها على الانفعال في نصرة مظاهر الدين دون ورعه وتقواه ، بل إنها قد تحسب أن الورع هو باعثها وإن كانت لا تتورع ، وقلما تظن النفس إلى أن بين الناس من يستطيعون الجمع بين المجون والقسوة والغباء وبين التدوين ونشدان المثل الأعلى بالقول لا بالخلق ، وهذه الاستطاعة من مآسى الحياة وربما كانت من ضروراتها المكروهة بسبب ضعف النفوس ونقصها وأوضاع الحياة التي تعيش فيها .

فينبغي لمن يريد صيانة روح الدين والعقيدة المحمدية السمحة الرضية أن يحذر عند أدائه فروض الدين وفروض الحياة وأن يحاسب نفسه حساباً عسيراً عند أداء تلك الفروض أكثر من محاسبتها عند إهمالها لأن ألد فرض وواجب وأطيبه لدى النفس وأحلاه عندها هو الواجب

الذى يمكنها أداؤه من أن تؤذى الناس وأن تتشقى بأذاهم من متاعب الحياة وإن كانت لا تطفن إلى ذلك . وما أشد إتلاف متاعب الحياة لصفاء النفوس خفية .

فالنفس قد تفضل أداء الواجب الذى يمكنها أداؤه من أذى الناس سواء أكان الذى تؤذيه عدواً أو غريباً وإن كانت تفضل أذى الأول ، وأسمح فرض وواجب لدى النفس وأبغضه لديها هو الواجب الذى يتطلب أداؤه ترك شىء من أطايب الدنيا المادية أو المعنوية . والنفس قلما يعوزها عذر تحول به ما يجد فيه سعادة ولذة إلى فرض وواجب .

فنصرة العقيدة الرضية الزكية وصيانة روحها وقدسها من احتيال الروح الدنيوية تقتضى دراسة علم النفس وتطبيقه على النفوس وأعمالها وأساليبها ووسائلها واحتيايلها للتوفيق بين القدسية والدنيوية ولو بخادعة نفسها فلا شىء يقتل أمل الإنسانية فى صفاء الدين وقدس فضائله من احتيال أهواء النفس على النفس وتزويرها الحقائق تزويراً يخلط بين حقد النفس الشريرة وبين الغضب المقدس للحق ، ويخلط بين العايب السامى للنفس والباعث غير السامى ، ويخلط بين صيانة روح الدين وبين التكفير عن قتل روح الدين فى طلب الأهواء بالانفعال فى نصرة مظاهره . ومن قرأ تاريخ الأديان فى العالم وجد أن بعض القبائل المتأخرة ترى مخرجاً لغرائزها الوضيعة عن طريق الدين . وفى الأمم المتحضرة يوجد أناس يسلكون فى إخراج غرائزهم التى يستحيون من إخراجها على حقيقتها مسلك تلك القبائل المتأخرة إما لجهل وإما لما يسمى فى علم النفس بالرجعية النفسية إلى صفات عصور الإنسانية الأولى وهذه الرجعية قد يصاب بها حتى المتعلمون وقد تظهر فى أمور كثيرة غير أمور العقيدة .

وهذا غير ما يُخشى على قدسية الدين من رياء المرائين ، وأعظم ما يدعو إلى الحسرة والأسف أن ترى روحاً صافية نقية صادقة فى غيرتها على الدين طائعة منقادة لنفس مرائية تبغى حطام الدنيا ، وهذه النفس الثانية أى النفس المخادعة عادة تغلب النفس الأولى ، الصافية الطاهرة لأن النفس المتلهفة فى طلب حطام الدنيا تخلق لها لهفتها ويخلق لها غيظها وخوفها من فوات الحطام انفعالاً شديداً تحاكى به الغيرة على الدين وقلما تستطيع النفس الصادقة فى تدينها محاكاة ذلك الانفعال الدنيوى الذى تمده الحياة بقوتها لأنه فى طلب أمور الحياة . وقلما تستطيع تمييزه إلا إذا كان لها نصيب من الخبرة بعلم النفس وتطبيقه على أساليب النفوس ووسائلها وهى خيرة لا بد منها لصيانة روح العقيدة المحمدية السامية .

ومن الأخطاء التى يقع فيها المفكرون وغير المفكرين أن يحسبوا أن الإنسان على مستوى واحد لا يتغير من حيث روح الدين فى نفسه ومن حيث فضائله ، والحقيقة هى أن النفس

الإنسانية في الحياة كالطائرة الهوائية التي تصادف جيوباً هوائية كثيرة مختلفة الضغط الجوي فتظل ترتفع وتنخفض فجأة ، ولكن كل إنسان يريد أن يستثمر ارتفاعه لمغالطة الناس كما قد يغالطهم في انخفاضه ويعدده ارتفاعاً ويوهم أنه كذلك بقوة الإيحاء . وهو لو قصر المغالطة على قوة الإيحاء لهان الأمر ولكن أشد الضرر بروح الدين أن يتخذ المرء وسيلة للإشادة بعلو قدره وإعلان انحطاط قدر عدوه أو عدو صديقه أو عدو قريبه أو من يعاديه قريبه فيصبح الدين في نظره قوة دنيوية للكسب كقوة المصاهرة أو المسامرة أو كقوة المال .

٣١ - عواقب النصيحة *

قد يتناول النصيحة إنسان من إنسان ، كما يتناول وعاء الملح على الطعام ، أو كما يتناول لفافة التبغ ، أو كما يتناول بذهنه النكتة من الملح والنكات في غير ما إحنة ولا ألم ، ولكن النصيحة قد تكون مجلبة الشر بماركب في النفوس من إثرة وشر .

فإنك قد تنلطف في النصيحة ، ولكنها ، وإن كانت نافعة للمنصوح إذا اتبعها ، قد تكون كربة ، إما لأنها تُشعره أن الناصح قد امتاز بسداد الرأي وعلاء بالحجة ، وكل نفس تشعر بغضاضة إذا علتها نفس أخرى ، مهما كانت صديقة أو عزيزة ، وإما أن النصيحة تنهى عن أمر فيه ضرر محقق ، ولكنه لذيذ محبوب ، فاذا اقتنع المنصوح بما في الأمر من الضرر ، ووجد أن الضرر أعظم من اللذة ، وطاوعته نفسه ، عمل بالنصيحة وابتعد عما حذره الناصح منه ، ولكنه لا يغفر للناصح أنه نصحه بالابتعاد عن أمر لذيذ ، كأنه هو الذي حرمه من لذته ، أو كأنما قد سرق الناصح منه شيئاً ، أو كأنما قد غبنه وظلمه وأهانته . ومن الغريب أنه كلما يشكر الناصح على نجاته من الضرر ، وإذا شكره شكره بلسانه ، أو بلسانه وبجزء من قلبه صغر أو عظم ، وبالجزم الباقي من قلبه يشعر بشيء من الامتناع أو الكره أو الرغبة في الأذى . وهذا الشعور في المنصوح يختلف مقداره ، فهو في بعض الناس تضاييق خفيف يكاد يكون غير مفظون له ، وفي بعضهم يزداد حتى يصير مقتاً ورغبة في الأذى ، بالرغم من أن صاحب هذا الشعور قد انتفع بنصيحة الناصح . وهذا الشعور الموصوف في المنصوح أكثر ظهوراً في الأطفال ، لأنهم لم يعتادوا إخفاء شعورهم أو المغالطة فيه كالكبار ، فالطفل قد تمنعه عما فيه ضرر كبير له فينتفع بمنعه إياه ، ولكنه قد يبكي من الغيظ ، وقد يشتبك إذا كان في هذا الأمر المضر الذي منعه عنه لذة يعقبها الضرر . وهذا الامتناع الذي يشاهد في الأطفال يشاهد في الناس كلهم أو هو خفي في سريرتهم .

على أن الشعور بالسوء غير مقصور على المنصوح ، فإن الناصح قد يشعر بالأحاسيس المختلفة وكلها سوء ، وإن غالطت فيها النفس وموهبتها . فإذا نصح إنسان إنساناً وتنبأ له بضرر في مخالفة نصحه ، ثم لم يتبع المنصوح نصحه ولم يحق به أذى ولم تصدق نبوة الناصح ولا إنذاره بالشر ، فقد يشعر الناصح بخيبة من أجل بطلان تشاؤمه حتى ولو كان المنصوح صديقه العزيز ، كأنما يرد الناصح بالرغم من ذلك أن يصدق تشاؤمه ، وأن يحل بصديقه بعض الشر الذي تنبأ له به إذا خالف نصحه . وهذا الشعور بخيبة التشاؤم يختلف مقداره باختلاف نفوس الناصحين المتشائمين وتختلف عواقبه ، فإذا كان الناصح الخائب في نبوته شريراً سعى بين الناس يشتم صديقه تشفياً منه ، وتكاد نفس الناصح الخائب في نبوته تعد تلك الخيبة انهزاماً وانكسار وخسارة في مال أو ثكلاً في أهل ، وكأنما له ترة عند صديقه .

أما إذا صدقت نبوته وصدق تشاؤمه ، وحل بصديقه المنصوح ضرر من أجل عصيان نصحه ، فإن الناصح يزهر عليه ويفرح بالشر الذي حل به . ويختلف مقدار هذا الشعور أيضاً باختلاف نفوس الناصحين ، فقد يكون زهواً خفيفاً وفرحاً خفيفاً غير مفرطون له ، وقد يكون زهواً وفرحاً يخالطهما الحقد والتشفي من صديقه المنصوح لأنه خالف نصحه . وفي الحالة الأولى يفرح ولو أن الذي حاق به المكروه صديقه العزيز ، وكلما قابل صديقه الذي حل به الضرر لومه وعنفه لأنه خالف نصحه ، وذكره أنه تنبأ له بالشر . حتى إنه قد ينقص عليه حياته بالتعنيف والتذكير ، وقد يصير لومه وتذكيره ضرراً أشد من الضرر الذي حل بصديقه بسبب مخالفة نصحه ، والناصح المعنف قد يفتن إلى أنه يضايق صديقه بلومه وتذكيره وقد لا يفتن ، وهو على أي حال يتشفي لأن صديقه لم يتبع نصحه .

فإذا كان صديقه المنصوح المخالف النصح ، والذي حل به الضرر ولأذى بسبب مخالفته النصيحة من أهل الخير، تضايق من إلحاح الناصح في التعنيف والتذكير ، واكتفى بأنه تضايق منه . أما إذا كان هذا الصديق المنصوح المخالف الذي حل به ضرر مخالفة النصح ، وضايقه التعنيف والتذكير ، شريراً مثل الناصح المتشفي بالتعنيف ، أو إذا أغلظ عليه الناصح المتشفي بالتعنيف والتذكير إغلاظاً قد يمزجه وقد لا يمزجه بالمزاح ، فقد يحقد ذلك الصديق المنصوح المتضايق على الناصح المعنف ، حتى يعده كأنه هو المسئول عما حل به من الشر والأذى بسبب تشاؤمه ، وحتى يبغي أذاه . وقد يغالط الناصح المتشفي بالتعنيف نفسه ويوهمها أن إلباس التشفي والحقد لباس المزاح في التعنيف يسلب المنصوح المخالف الملموم حقه في التضايق من هذا التعنيف والتذكير المشوب بالمزاح أو بالملاطفة ، فإن المزاح قد يجعل

التعنيف أشد إيلا ما وأبلغ في التشفي ، حتى ولو ادعى الممازح أنه لا يريد التشفي وإنما يريد الملاطفة بالمزاح . فمن مكارم الأخلاق إذا تنبأت لأحد بشر في مخالفة نصحك وصدقت نبوتك أن لا تذكره بما تنبأت به ، كي لا يتضايق منك ، وكي لا يحقد عليك ، وكي لا تعذب نفسه . والنفس ذات أهواء وأوهام عجيبة - كأنك أنت الذي سببت له سوء العاقبة بتشاؤمك ، وإن كان سوء العاقبة الذي حل به كان بسبب مخالفة نصحك .

فمن الراحة لك والسعادة وكسب مودة الصديق ومنع أذاه عنك ، أن لا تذكره بما كان من سوء عاقبة مخالفته نصحك ، حتى وإن وجدت في حرمانك نفسك لذة تقريعه وتعنيفه وتذكيره ألماً شديداً ، وقد يكون في حرمان النفوس التشفي من أصدقائها حتى الأعزاء ، ألم وامتنعاض وتضايق ، فتحمل هذا الألم والامتنعاض والتضايق من حرمانك نفسك لذة تعنيفه وتذكيره ، فإن محمله ألبق بمكارم الأخلاق وأدفع للشر ، وهو على أي حال قد يحرملك لذة التشفي بأن ينكر إنكاراً تاماً أنك نصحته ، ويبنت له سوء العاقبة . وإن كان صاحبك مأكراً ماهراً ، فقد يحملك إنكاره أنك نصحته تلك النصيحة بالذات ، ويحملك تعجبه من تذكيرك إياه بنصح لم يأت منك إذا أتقن صنعة ذات التعجب والانتكار - أقول إن مكره قد يحملك على أن تتهم ذاكرتك فتشك في صحة مانصحته به أو تشك في حصول النصح منك ، وهذا يفسد عليك لذة التشفي . وقد يبالي في مكره ، فيحاول أن يقنعك أنه اتبع نصحك وأن نصيحتك هي التي أوقعته في الشر . وهذا أيضاً يتلف عليك لذة التشفي ، وحتى إذا لم يحدث شيء من ذلك فإن ادعاءه نسيان نصيحتك يفسد أيضاً عليك لذة التشفي ، لأنك لا تستطيع التلذذ بالتشفي إلا إذا كنت واثقاً أن صاحبك يتذكر نصيحتك ، ويتذكر مخالفته لها كي يندم على مخالفتها التي جرت سوء العاقبة له ، أما إذا حملك على الشك في تذكره نصيحتك ، فإن شكك يكون كشوكة تشوكك في جانب تشفيك وتؤلمك . فخير لك أن تترك التشفي عن مخالف نصحك وأن تحتمس بمكارم الخلق ، وأن لا تذكر صديقك بعواقب نصحك من خير في اتباعه أو شر في مخالفته .

ومن قبيل عنف الناصح المخذول إذا تشفى من المنصوح الذي خالف نصيحتة فوقع في الشر ، ما يفعله بعض عوكد المرضى . فكم رأينا من عائد للمريض يشتد في لومه ، وهو يظهر الإشفاق عليه والحنان له بلسانه ويقول : ولو كنت فعلت كيت وكيت ما أصابك المرض ، أو لو كنت تجنببت أكل كيت وكيت ما أصابك السقم ، أو لو كنت اتقيت تيار الهواء لما وصلت إلى هذه الحالة ، ويردد ويعيد اللوم والتحذير . ولو كان هذا القول على سبيل الإشفاق والنصح

والحنان ، لا كتفى العائد بذكره مرة واحدة أو مرتين ، ولكنه لا ينقطع عن ذكره كلما عاد المريض . وربما ذكره بالموت ويقول له : يا فلان ينبغي أن تكون أكثر حذراً ، وإن لم يكن حذرَكَ حياً لنفسك فينبغى أن تحرص على توقي أسباب المرض حياً لأولادك ، إذ من الذى يعولهم ويكرمهم ويعزهم بعدك إذا مت ؟ ويستمر العائد الثقيل البغيض فى هذا التعنيف ، حتى يتضايل المريض المسكين فى جلده وإن كان منتفخاً من الغيظ ، حتى يخيل لذلك المريض أن الموت أقل ما يستحقه من العقاب لأنه لم يوف الوقاية حقها كراى العائد ، وإن كان يجهل رأى العائد قبل مرضه . ولا يستطيع أحد أن يقول إن مثل هذا الإلحاح فى مضايقة المريض بالنصح من قبيل الإشفاق ، بل هو من قبيل الرغبة فى التعاظم بالعلم والحكمة والفتنة ، وانتهاز فرصة ضعف المريض للتعالى عليه بالفتنة والعرفان ، ومن الغريب أن بعض العُود لا يفتنون إلى أنهم يضايقون المريض بهذه النصائح ؛ وهؤلاء فى حاجة إلى شيء من الثقافة النفسية .

٣٢- العقول بين الشرق والغرب *

يولع بعض المفكرين النظريين بتقسيم العقل البشري إلى عقل شرقي وعقل غربي ، ويشتطون في ذلك حتى ليخيل لهم ولقرائهم أن الجنس الإنساني أجناس مختلفة ؛ وقد غرهم وأغراههم بهذا التقسيم ما للبيئة الجغرافية والنظم والشرائع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية من آثار ظاهرة في تفكير المفكرين ، من شرقيين وغربيين ؛ ولكنهم ينسون أن تلك الآثار أمور عارضة تتحول وتتبدل على مر الزمن إذا تبدلت أسبابها ، فيحسبون أنها خصائص غريزية لا تزول ولا تتحول مهما تبدلت الأحوال . ويعذرهم في هذا الوهم بعض العذر رسوخ تلك الآثار والصفات بسبب طول الزمن وفعل الدهور في إثباتها وتمكينها من العقول والنفوس . ولولا أنه من خصائص فكر المفكرين أنهم قلما يلتفتون إلى أكثر من وجهة واحدة في أثناء حكمهم على المشاهدات والحقائق وفي أثناء بناء النظريات الفكرية ، لمنعهم من هذا الخطأ والوهم دراسة تاريخ الدول الأوروبية سواء أكانت في شرق أوروبا أم في غربها ، فقد مرت على تلك الدول والأمم أزمان كانت العقول فيها والنفوس في نزعاتها ورغباتها وأفكارها على أشباه ونظائر ما كانت عليه العقول والنفوس في أمم الشرق ، إذا تشابهت المؤثرات المناخية أو إذا تشابهت أحوال المعيشة والنظم والشرائع الاجتماعية والسياسية والدينية في الشرق والغرب ؛ فالفرق الأساسي بين العقول في الشرق والغرب أصغر وأتفه مما يخيل للمفكرين ، وإنما اختلاف العادات الفكرية الناشئة من اختلاف أوضاع المعيشة القابلة للتحول والتبدل هو الذي يوهم المفكرين أن اختلاف عادات التفكير في الشرق والغرب اختلاف خالد لا يزول ، حتى إنهم لينسون أن العقل البشري وأن النفس البشرية واحدة في الشرق والغرب في صفاتها الأساسية وأن الاختلاف بين العقول والنفوس في الشرق والغرب لا يكون أكثر من اختلاف عقول ونفوس آحاد الأفراد في الأمة الواحدة ؛ ففي الأمة الغربية كما في الأمة الشرقية أناس يغلب عليهم تحكيم المنطق وأناس يغلب عليهم تغليب الوجدان وأناس يغلب عليهم تغليب الخيال في التفكير ، وفي الأمة الشرقية كما في الأمة الغربية أناس يقدسون العادات ويعدون لها ذات قداسة كقداسة الدين ؛ وفي كل منهما أناس يحاولون في كل عصر تحوير العادات والأفكار . والذي دعاني إلى هذه الأفكار درس التاريخ ودرس الجغرافية ودرس الشعر والأدب في الشرق

والغرب ، فالذى يقرأ تاريخ الامبراطورية الرومانية وأثر الجواسيس فيها لا يجده أقل من أثر الجواسيس فى أيام حكم السلاطين ذوى الأهواء والبطش فى الدولة العثمانية ، أو فى الدولة العباسية ؛ وكان فى تلك الدول المتزلفون فى طريقة تفكيرهم من الفلاسفة والأدباء ، وكان فيها المستقلون فى أفكارهم ونزعات نفوسهم . نقرأ فى الدول الشرقية عن أناس كانوا يدخلون على الخليفة أو السلطان فيقرعونهم حتى يبكى من ورعهم ونفوذهم الخلقى ، كما نقرأ عن مثل ذلك فى دول الغرب . ونقرأ فى حياة الإغريق القدماء عن بعض جوانب نظرهم إلى المرأة المحترمة ومنزلتها فى حياتهم وابتعادها عن الحياة الاجتماعية ، كما نقرأ عن مثل ذلك فى تاريخ الأمم الشرقية . نقرأ عن حرية المرأة وفروسياتها وبعاليتها وحقوقها واشتراكها فى الحرب وفى الحياة العامة فى الجاهلية وصدر الاسلام ، كما نقرأ عن مثل ذلك فى حياة قبائل الغال والكلت والتيوتون . نقرأ عن أدبيات الإغريق من النساء الفاتنات ، وعن عشاقهن ، وعن مخالطتهن الرجال أثناء احتجاز الحرائر ، كما نقرأ عن أدبيات الدولة العباسية . ونقرأ عن نزعات الطوائف الدينية المتطرفة الثائرة التى ظهرت فى فرنسا قبيل نهضة إحياء العلوم ، وفى ألمانيا فى عهد تلك النهضة كالآناهايتست . وخطتهم الدين بالسياسة وبالاقتصاد ، فنرى فى بعض شططهم ما يماثل شطط الخوارج أو القرامطة بعض المائلين ، على اختلاف هؤلاء ومخالفتهم للآناهايتست وغيرهم فى أوجه أخرى . ونرى نزعة المورمون فى الولايات المتحدة ، فنرى لها مثيلاً فى الشرق ، بل إن العقيدة البهائية الحديثة قد وجدت لها أو أوجدت صدى لها فى الولايات المتحدة ، ونرى تأليه الرومان للأباطرة ، فنرى لها صدى فى تأليف * شيعة الدولة الفاطمية للخلفاء الفاطميين . ونقرأ شواهد كثيرة لهذا التأليه فى شعر شعرائهم ، وهذه الشواهد كثيرة فى شعر محمد بن هانى الأندلسى شاعر المعز لدين الله الخليفة الفاطمى ، ومن أقوال محمد بن هانى فى تأليه الحاكم الأعلى قوله برّ قادة وهى بلدة :

حَلُّ بِرِّ قَادَةِ الْمَسِيحِ	حَلُّ بِهَا آدَمُ وَنُوحُ
حَلُّ بِهَا (الله ذو المعالى)	وكل شيء سواه ربحُ

* هكذا فى الأصل والصواب تأليه على نحو ما يقتضى السياق .

وقوله :

نطقت بك السبعُ المثنى السُّنَا
فكفيتنا (التعريض والتصريحاً)
تسعى بنور (الله) بين عباده
لتضىء برهانا لهم وتلوحي
وجد العيانُ سناك (تحقيقاً) ولم
تُحِط الظنون بكُنْهِهِ تصحيحاً
أخشاك تُنسى الشمسَ مطلعها كما
أنسى الملائك ذِكْرَكَ التسبيحاً

وقوله :

قوم إذا ماج البرية والتقى
خصمان في (المعبود) يختصمان
عقدوا الحبا بصدور مجلسهم كمن
عرف (المعز) حقيقة العرفان
وكفى بمن ميراثه الدنيا ومن
(خُلِّقَتْ لَهُ) و (عباده الثقلان)

فهذه الأقوال لم تترك للرومان شيئاً في تأليهم للأباطرة ، وهي دليل آخر على ما نريد أن نشبهه من أن العقول والنفوس في الشرق والغرب متقاربة جد التقارب متى تهيأت الأسباب والمسببات من أحوال وظروف . وهذا موضوع يطول شرحه . وكما أن التاريخ والأدب والفلسفة فيها أدلة على ما أردنا إثباته ، فالجغرافية أيضاً فيها مجال واسع لإثبات ما نحونا نحوه من التفكير ؛ فالأفكار والعادات تتغير في الشرق كما تتغير في الغرب ، فالثقافة الإنسانية إذا كان الناس مشغولين بالرعى تختلف عنها إذا كانوا مشغولين بالزراعة أو بالصناعة ، والثقافة في الأمم ذات الحكومات المطلقة تختلف عنها في الحكومات الجمهورية ، ولكن ينبغي ألا ننسى أن أساس العقل والنفس لا يتغير ، وأن الأمة الواحدة تظهر في ثقافتها آثار الأحوال

الجغرافية أو السياسية التي مرت بها ، وتظهر هذه الآثار حتى في عصر واحد في أفكار أناس مختلفي الثقافات . وتحسن طرق المواصلات في العصر الحديث ، أدى إلى تقارب الثقافات في الشرق والغرب ، وإن كان أثر القرون الماضية واختلاف الأحوال فيها ظاهراً في اختلاف الثقافات ، كما أن أثر اختلاف الأحوال الجغرافية والاجتماعية ظاهر أيضاً .

ومما يشوق المطلع أن ينظر في أدب الغرب ، وما يماثله من أدب الشرق ، ولا سيما في التشبيهات والأخيلة التي قد يظن أنها خاصة غير عامة ، وأنها من ابتكار عقل واحد ، وهي ليست كذلك ، بل هي مشاهدات عامة في مشارق الأرض ومغاربها . وقد حاول بعض الأدباء ، وقد وجدوا أمثال هذه التشبيهات في شعر الأوربيين ، أن يردوها إلى الاقتباس من شعر العرب ، وهي ليست اقتباساً . وكان الخلق بهؤلاء الأفاضل ألا يتعجبوا من اتفاق هذه الأخيلة ؛ بل العجب كل العجب كان يكون لو لم يستنبط العقل البشري أفكاراً وأخيلة متشابهة في مشارق الأرض ومغاربها ؛ فإذا قرأنا في شعر العرب تشبيه الثريا بالوشاح المفصل أو العقد المنظم كما فعل امرؤ القيس ، وقرأنا هذا التشبيه في شعر شعراء الإنجليز كما في شعر تنيسون الشاعر الإنجليزي ، ولم نحمل ذلك على الاقتباس بل عددناه أمراً طبيعياً ، لأن العقل البشري واحد في أساسه في الشرق والغرب . وأعتقد أن الشرقيين قد فكروا في كل مذاهب الفكر التي فكر فيها الغربيون مع تفاوت في جوانب الرأي . ومن قرأ شعر المعري أو مذاهب الفلسفة الشرقية ، وقارنها بما في الثقافة الغربية ، وجد مصداق هذا القول . وسنذكر بعض أشعار العرب وما يشابهها من قول أدباء الغرب ، لا على سبيل التنقيص ، بل على سبيل ذكر الشواهد والأمثلة الحاضرة في الذهن . قال أشجع السلمي :

لأُصْلِحَ السلطان إلا شدة

تَغْشَى البريءَ بفضل ذنب المجرم

هذا البيت يذكرنا بقول رجال القانون في أوروبا في القرون الوسطى : "خير للإنسانية أن يُعاقَبَ ألف بريء من أن يُقْلَتَ من العقاب مجرم واحد" وهو عكس ما يقولونه الآن من أنه خير للإنسانية أن يُقْلَتَ من العقاب ألف مجرم من أن يُعاقَبَ بريء واحد .

وقول الشاعر :

فيا وطني إن غائى عنك غائل

من الدهر فلينعم لساكنك الحال

يذكرنا بمبدأ علماء الاجتماع الذين يقولون إن الفرد الواحد خُلِقَ للجماعة ، وعكسه قول
أبي فراس : "إذا مت ظمآنًا فلا نزل القطر" فهذا يذكرنا بقول من يقول بقداسة الفرد ، وإن
الجماعة خُلِقَتْ للفرد .

وأما قول المعري :

فلا هطلت على ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلادا

فيذكرنا بقول من يقول إن الفرد والجماعة خلقا للإنسانية عامة . وإنما جاءت هذه الأقوال
في صيغة الفنون بدل أن تأتي في الصيغة العلمية .

وقول أبي هلال العسكري في كتاب ديوان المعاني :

ولا يَفْرُتْكَ من دهماتهم عَدَدٌ

فإنما الناس قُلُوبًا كلما زادوا

يذكرنا بقول من ينتقد الديمقراطية ، ويقول : إن الواحد الفرد من الناس قد يكون خلقه
ورأيه أرقى وأعظم إذا لم يجد في مدح الجماعة ما يسوغ نزوات نفسه وعقله .

وقد كنت أقرأ قول الحسن بن هانئ :

دارت على فتية دار الزمان بهم

فلا يصيبهم إلا بما شاعوا

فأنكر تفسير من يفسره بأن الزمان لا يستطيع أن يصيبهم إلا بالخير الذي يريدونه ، لأنه
معنى رخيص أساسه المغالطة والباطل ، والشاعر لا يصف هؤلاء القوم الذين يعاقرون الخمر
بالقوة ، وإنما يصفهم بالخبرة التي تسلب من كربه الحوادث حمة سمها وألم شرها ، وتعلمهم فوق
التسليم لإرادة القدر أن يجدوا لذة في ذلك التسليم ، حتى كأن ما حل بهم هو ما أرادوا .
وهذا مثل قول جويتى الشاعر الأديب الألماني : "إن الحكمة والسعادة هي أن يجعل المرء إرادة
القضاء إرادته من خير أو شر" وهذا شبيه بالسعادة الصوفية التي تجعل الصوفيين يرون
سعادتهم فيما يريد الله لهم من خير أو شر ، كما يتلذذ العاشق بما يوقع به المحبوب من لذة أو
ألم . وهذا التسليم هو روح الإسلام ومعناه الذى دعا جويتى الألماني إلى أن يقول : "إذا كان
هذا هو الإسلام فنحن مسلمون" .

وقول الأخطل يفتخر على بنى أمية وعلى خلقائهم :

أبنى أمية لى مدائح فيكم

تُسَوِّنَ إن طال الزمان وتُذَكِّرُ

وقول الأبيوردي الشاعر :

وكيف يَخْشَى الدهر مَنْ شعره

على جبين الدهر مكتوب

يذكرنا قول القصصى الفرنسى وأظنه دى جوناكور عندما بلغه أن العالم لا يبنى إلا بعد

أربعين ألف جيل :

"يسرنى أن قصص لا تبنى إلا بعد أربعين ألف جيل" .

وقول الشريف الرضى :

ولولا نفوس فى الأقل عزيزة

لغطى جميع العالمين خمول

يذكرنا أقوال كاروليل أو نيتشه فى هذا المعنى ، كما يذكرنا أقوال علماء البيولوجية مثل

الدكتور ساليبى الذين يفسرون رقى الإنسان فى التاريخ بأثر الميزات البيولوجية العالية ، وكما

يذكرنا بأقوال علماء علم تحسين النسل (البوجينيك) الذين يفسرون أيضاً رقى الإنسان

بتوارث الصفات العالية الناشئة من تزاوج الأفراد ذوى الصفات العالية . وقول أبى تمام :

وقديماً ما استتبطت طاعة الخا

لق إلا من طاعة المخلوق

يذكرنا بقول العلماء الذين يرجعون نشأة فكرة الاعتقاد بالله إلى الرهبة من رئيس القبيلة

أو رب الأسرة وتأليهما . وقول البحتري :

كان يُحْيى هالكاً من ظمأ

بعض ما أوبق ميتاً من غرق

يذكرنا بأقوال الاشتراكيين الذين ينتقدون توزيع المال بين طبقات الناس وهو يريد هذا

المعنى .

وقول محمد بن هانى الأندلسى :

ولم يتجمع لامرىء كان قبله

بناءً المعالى واجتناب المآثم

يذكرنا قول بطل مقالة (الدير) من مقالات أناتول فرانس التى تشبه القصص ، فقد اعتزل الناس وانقطع حتى عن قول الخير وعمل الخير خشية أن يسوق الخير فى قوله أو عمله الناس إلى الشر . ومن فكاهات وسخر أناتول فرانس أنه قال له وهو يزوره : إن اعتزاله وانقطاعه عن القول والعمل قد يصير عقيدة يقاتل الناس من أجلها ويرتكبون الشر . ويذكرنا قول محمد بن هانى أيضاً بشرح الدكتور هافيلوك ايليس فى كتابه (رقصة الحياة) لما كان فى بناء الحضارات والمعالى من ارتكاب الشرور ، كما يذكرنا بقول جورج مور الكاتب الأيرلندى فى كتاب (إعترافات شاب) أن بناء المعالى والحضارات لن يكون إلا بارتكاب الشرور . وقول المعرى :

فَتَفْعَلْ النفس الجميل لأنه

خير وأحسن لا لأجل ثوابها

يذكرنا بعلماء الأخلاق عند الإغريق وغيرهم الذين كانوا يقولون : إن المرء ينبغى ألا يحب الفضيلة من أجل جزاء عليها ، بل ينبغى أن يحب الفضيلة من أجل حسناتها وجمالها . وللمعرى آراء كثيرة لاشك فى أن لها أشباها وتظائر فى الأدب والفلسفة والشعر الأوربى .

٣٣- لعبة التخادع فى الحياة *

كثيراً ما يخطئ المخادع المحتال إذا حسب أن الناس قد نخدعوا فى فكره ، وكلما كان نصيب المخادع من الذكاء أقل كان اعتقاده أن قدرته على خدع الناس أعظم فلا يتخذ فى وسائل خداعه من الأساليب ما يحتاط به لفطنة الناس إلى خداعه .

أما المخادع الذكى فإنه يفتن إلى أن الناس كثيراً ما يتظاهرون الانخداع ويدعونه إما لكى يعرفوا غاية المخادع ومأربه ، وإما لأن لهم فى أن يخدعوا المخادع وأن يضحكوا منه فى سرهم ، وإما لأن لهم مأرباً لا يتألمونه منه إلا بإظهار الانخداع له . ومن أجل ذلك ترى المخادع الذكى يحاول أن يستفيد من ادعائهم الانخداع قدر ما كان يستفيد لو أنهم انخدعوا حقيقة . والقدرة على الاستفادة من ادعاء الناس الانخداع هى سر النجاح فى الحياة ، وليست بمستطاعة لكل إنسان . والحياة فى كل عمل أو مظهر أو رأى مطلب ومكسب وفى كل حاجة من حاجاتها يوجد بجانب ما بها من الصدق شيء من الخداع والانخداع وادعاء الانخداع ، وهذه هى أقانيم الحياة الثلاثة أو ثالوثها المقدس .

وقد تدرك الحيرة الشاب الذى يزاوُل الخداع فى الحياة فى أول عهده بالفطنة لما يتطلبه النجاح من الخداع ، فإنه قد يبدأ فى خداع إنسان فإذا بذلك الإنسان يحاول أن يخدعه بأن يدعى أنه انخدع به حقيقة . وهذا يكون كالنشال الذى يقابل إنساناً يتوسم فيه السذاجة وهو لا يدرك أنه نشال مثله فيسلم عليه بيد ويمد اليد الأخرى بخفة إلى ثياب ذلك الإنسان يبحث بها عن حافظة نقوده ، فإذا به يشعر أن يد ذلك الإنسان الأخرى تبحث عن حافظة نقوده هو ، فتدركه الحيرة ويكاد لا يعرف أيهما النشال .

وهذا يذكرنى بما جاء فى كتاب الكامل للمبرد عن ** أخذ البيعة بالخلافة ليزيد بن معاوية ، فقد أطنب الناس فى مدحه وأسرفوا إسرافاً جعل يزيد ، وقد كان ذكياً ، يعرف أنهم غير منخدعين بصفات المدح التى وصفوه بها وهى ليست من صفاته ، وأدرك أن لهم مأرباً فى ادعاء الانخداع بخلقه وصفات نفسه ، فالتفت إلى أبيه معاوية وقال : يا أبى هل نخدع الناس أم هم الذين يخدعوننا ؟ فقال له معاوية : يا بنى ، إنك إذا أردت أن تخدع إنساناً فتخدع لك

* الرسالة : ٢٤ إبريل ١٩٣٩ ، ص ٨٠٣ ومايلى .

** هكذا فى الأصل ولعل الصواب عندكما يقتضى السياق .

حتى تنال منه ماتريد فقد خدعته . أى أن ادعاء الناس الاتخداع وإن كان باطلاً فهو وانخداعهم سيان مادام المرء ينال منهم مايريد . وهذه حكمة من معاوية تدل على أنه كان بصيراً بالنفس الإنسانية ومسالكتها فى الحياة .

وهى حقيقة تُحس فى كل مجلس من مجالس الناس ، وفى كل بيئة . فهى ليست بالأمر الصعب إدراكه . بل لولا ادعاء كل معاشر أنه انخدع بمعاشره فى أمور الحياة ما طابت الحياة . ومن أجل ذلك لايمقت الناس أحداً قدر مقتهم الرجل الذى يريد أن يرفع غطاء الرياء عن الحياة ، ويختلقون له أسباباً يسوِّغون بها مقتهم . وكأن لسان حالهم يقول له : دعنا نخادعك وخادعنا أنت أيضاً كما نخادعك ، وادع انك انخدعت بنا ، ودعنا ندعى أننا أنخدعنا بك . فإن من الإنصاف ، أو من الذوق ، أو من الرحمة أن يدعى كل عشير أنه انخدع بعشيريه مادامت النفوس لاتستطيع الحياة إلا على هذه الأخلاق ، ولا تستطيع أن تغيرها . وكأنما يقول لسان حالهم أيضاً : إن تبادل ادعاء الاتخداع مثله مثل من يعطى هدية ، ويأخذ هدية فى قدر قيمتها . ومطالب الحياة لاتنال إلا على هذا النمط . أما الذى يريد من الناس أن ينخدعوا له ويفضض إذا اتضح له أنهم لم ينخدعوا ، بل يدعون الاتخداع ، وبعد ادعاءهم الاتخداع له عملة زائفة لا يقبلها ، ويطلب منهم العملة غير الزائفة ، أى انخداعهم الحقيقى ؛ ثم هو لايعطيهم لا انخداعاً ولا ادعاء ، فللانخداع ، فمثله مثل من تقدم له هدية فيفضض إذا لم يعط أعظم منها ، وهو لا يعطى مثلها .

وينبغى للإنسان إذا ادعى الاتخداع لعشير أو صديق أو رئيس أو مرموس أو عميل أن يلازم الحذر من أن ينقلب ادعاؤه الاتخداع انخداعاً حقيقياً ؛ فيكون كمن يرى لصاً فى منزله فيدعى النوم حتى يجد من اللص غفلة ليتمكن منه ، فإذا بإدعائه النوم قد صار نوماً ، فيغط فى النوم حتى يأخذ اللص كل مايريد من البيت ويتركه ، وصاحبه قد ادعى النوم حتى نام . وهذا أيضاً شبيه بمن يريد أن يحتال على إنسان فيقدم له قطعة من الذهب ويدعى أنه وجد كنزاً كى يخدع ذلك الإنسان ، ويسلبه ماله ، فيدعى ذلك الإنسان السذاجة وأنه انخدع ، ويأخذ القطعة كى يسأل عن قيمتها ثم لايعود .

وهو أيضاً شبيه بصاحب الورق المقامر على الورق المقلوب من ورق اللعب ، يدعى الخسارة ويعطى اللاعب جنيهاً كى يستدرجه ويسلبه ماله فيدعى اللاعب أنه ساذج ، ويظهر رغبته فى استئناف اللعب ، والقمار ، ويستأذن فى قضاء حاجة ضرورية من حاجات الجسم ثم يذهب بالجنيه ولا يعود .

وهذه الأعمال لها نظائر وأشباه بالقياس في أعمال الناس الجليلة الكبيرة المشروعة المحترمة. فالحذر عند ادعاء الاتخداع ضرورة . أما أن يفتخر المرء بأنه لا يستطيع أحد أن يخدعه فإذا كان يراد به التملق لمن يتظاهر مع ذلك بالاتخداع لهم فهو دهاء ، وسيلة كسب بالمر . أما إذا أريد به مضايقة الناس وتحريك عوامل خوفهم وبغضهم فهو سذاجة أو بلاهة ، ولا شيء يدعوا إلى الفشل في الحياة كاعتقاد الناس في إنسان أنه لا ينخدع ، ولا يدعى الاتخداع ؛ وهذا الاعتقاد يؤدي إلى بغض الناس من يعتقدونه فيه حتى وإن كان اعتقادهم باطلا لا أساس له ، وهذا التظاهر بالاتخداع هو ما جعله أبوقحاف من أسباب السيادة وسماء بالتغابي في قوله :

ليس الغبيُّ بِسَيِّدٍ قى قومه

لكنَّ سيد قومه المتغابي

وتبعه البحتري فقال :

وقد يتغابي المرء في عظم ماله

ومن تحت بُرْدِيَةِ المَغِيرَةِ أو عمرو

٣٤- الواشى والوشاية *

أيهما أعظم أثراً ونصيبياً فى إذاعة الوشايات ؟ ميل النفس إلى أن تشى بغيرها ، أم ميلها إلى أن تقبل الوشايات فى حق غيرها ؟ هذه مسألة لانهىب أنه من المستطاع توضيحها على قاعدة واحدة تصدق فى كل النفوس على السواء على اختلاف صفاتها من مكر وسداجة ومن فطنة وغباء ومن خير وشر . على أن الميلىن يتصلان فى النفس ويتشعبان من شعبة واحدة وهى الأثرة ، وماتشير من رغبة فى منفعة أو خوف من مضرة ، وإن كانت الرغبة فى المنفعة ألصق بالواشى ، وكان الخوف من المضرة ألصق بقبائل لوشاية . على أن هناك أمراً لاشك فيه وهو أن تنوع أساليب الواشى فى الوشايات وتهيبتهها تهيبته خاصة كى تكون مقبولة فى النفوس المختلفة مما يجعل رد الوشايات ورفضها من أشق الأمور . ولابد من التأثير بها إما قليلاً وإما كثيراً حتى فى حالة رفضها وحتى فى حالة كره الواشى وقلة الثقة به ، وحتى فى حالة معرفة كذبه . وإذا استطاع المرء أن يقاوم أثر الوشايات ألف مرة فهو قد لا يستطيع مقاومتها مرة بعد ألف . ومن أجل ذلك ترى الرجل العادل الذى كف نفسه عن الشر يندفع إلى الشر بسبب وشاية واش بعد طول العصمة ويأخذ بالوشايات بعد رفض أمثالها مراراً فيتعجب الرائى المفكر من فجاءات الحياة والنفوس فى أمثال هذه الأحوال الغريبة المباغته . وإذا كان هذا شأن العادل المتحرج من عمل الشر ومن قبول القول من غير بينة أو دليل ، فما ظنك بأكثر الناس وهم يقبلون القول قبل الإطلاع على البينة ، وقبل فحص الدليل والتأكد من صحته ، ومنهم من يلتقط القول التقاطاً من فم وكأنما ينتزع الوشايات انتزاعاً من بين ثناياه ، وكأنما يخشون ألا يخرج القول كله من فمه فيسعفوه بالمسهلات والمقيثات . وأكثر من هذا وذاك أنهم يأخذون بالظنة من غير حاجة إلى وشاية ونعيمة ؛ فقد يحبى إنسان إنساناً آخر ولا يرد الثانى التحية لخطأ البصر أو بطئه فى تبين الأشخاص ، أو لانشغال ذهنه أو عينه ، أو لسرعة انتقال الأول وفوات الفرصة لرد التحية ، فيحسب الإنسان الأول أن الثانى تعمد الإساءة إليه مع عرفانه بسابق إعزازه له ومردته وإكرامه . وقد زاد أبو تمام فى هذا المعنى ووضعها فقال :

يَظُلُّ عَلَيْكَ أَصْفَحُهُمْ حَقُوداً لِرُؤْيَا إِنْ رَأَاهَا فِي الْمَنَامِ

وللواشى فطنة بما يؤثر فى كل نفس فتراه فى بعض الأحيان يتخذ أسلوب التلميح لا التصريح ، ويكتفى بالإشارة عن العبارة ، لا لرفقه واقتصاده فى الشر ، بل ليكون قوله أبلغ فى الشر ، إذ أنه يفطن إلى أن السامع من الذين يفهمون فى التلميح أكثر مما كان يبسطه الواشى بالتصريح ، ويرون فى الإشارة أكثر مما كانت تستفيض به العبارة . ثم إن الواشى يرى فى هذا الأسلوب من التلميح احتراساً فيستطيع إذا أخرج أن ينكر بعض ما فهم السامع أو كله مادام قوله يحتمل التأويل والتفسير . وفى حالة أخرى يرى الواشى أن الإشارة لا تشغل ذهن السامع ولا تحرك نفسه فيعمد إلى الإطالة والإفاضة والتفصيل والتهويل حتى يكاد السامع يصيبه جنون الخوف أو الغضب من أجل عداً مزعوم أو انتقاص أو تدبير شر أطلقه عليه الواشى فيندفع إلى الشر ، وقد يندفع إلى الجرم العظيم ، ثم قد يتدم أشد الندم ولات ساعة مندم . وتارة يقرن الواشى إلى وشايته وعدا خفياً بمكافأة يجزى بها السامع إذا قبل وشايته ؛ ولا نعى مكافأة مالية ، وإنما نعى أنه يعده وعداً من وعود المودة والمعاونة والتقديم والإكرام والانتصار له على أعدائه ؛ وتارة يَدْخُلُ فى ثنايا وشايته وعيداً خفياً يوعد به السامع إذا رفض وشايته ، وتهديداً بالعداء إذا عده كاذباً فى وشايته وإنذاراً بأنه بعد ذلك الرفض ينصر أعداء السامع عليه أو أنه يُخْفَى عنه كل ما يدبر له من الشر والكيد فيخشى السامع أن ينقلب الواشى عدواً يناصر أعداءه إذا لم يصدق أنه يخشى أن يصيبه شر من كيد مدبر يمتنع الواشى من نقل خبره إليه إذا كذبه ولو مرة واحدة فيسرع السامع إلى تصديق الواشى وإكرامه .

ومن أساليب الواشى أنه قد يلاطف السامع ويتعجب إليه ، ويكرمه ويحده بنفع ، ويطيل فى الثناء عليه ، ويظهر الحذب عليه ، والحزن والخوف من وقوع الشر به حتى يشق به سامعه . ولاشىء تكتسب به ثقة السامع أبلغ من الثناء عليه وذم أعدائه . وإتقان المدح فن قد يعد من الفنون الجميلة التى تتطلب صناعة حلوة ، وبعد إتقان الواشى مدح السامع ترى ذلك السامع حريصاً على تصديقه كأنه يقول فى نفسه هو صادق كل الصدق فيما مدحنى به ، فلا بد أن يكون أيضاً صادقاً كل الصدق فيما نقله إلى من الوشايات ؛ ولا يعدها وشايات بل كرامات وهذا هو منطق النفوس البشرية . وإذا أطال الواشى فى مدح السامع فقل على الغائب الذى يشىء به السلام . فإن كُرهَ سامع الوشاية لذلك الغائب ورغبته فى أذاه وحقده عليه أمور تتمكن من نفسه كلما أجاد وأطال الواشى فى مدحه وانتقاص ذلك الغائب . وكيف لا يعد السامع الممدوح الوشايات كرامات وهو يرى مظاهر إخلاص الواشى له وخوفه على جاهله أو سمعته أو حياته أو مكانته ويرى رغبته فى صرف الأذى عنه وفى رد كيد أعدائه ؛ وقد يصعب فى بعض الحالات على الناقل المخلص حقاً الذى يريد بالنقل دفع الشر عن صديقه

أن يثبت صدق قوله فيختلط الحابل بالنابل ويضطر السامع أن يقبل من هذا وذاك . على أن الوشاية قد تترك أثراً وخيماً حتى في حالة معرفة السامع كذبها ، فإن النفوس البشرية في بعض حالاتها تشك بالرغم من معرفتها ببطلان الشك ، وتسمى الظن بالرغم من معرفتها كذب الظن . وهل هذه الحالة أغرب من حالة أشعب الثقفي النفسية ، وهو الذي كان يصرف الأطفال عنه فيدعى أن احتفالاً بزواج في حارة مجاورة تنثر فيه النقود على الناس فرحاً وابتهاجاً فيسرع الأطفال إلى تلك الحارة كي يلتقطوا بعض النقود ، وتنخدع نفس أشعب بالقصة التي اخترعها فيعدو خلف الأطفال كي يلتقط أيضاً بعض تلك النقود التي لا وجود لها .

على أنه حتى في حالة رفض السامع للوشاية ورفض كل شك في كذبها تراه مهموماً بسبب ما نقل إليه من الذم أو الرغبة في الأذى لأنه بعد ما نقل إليه قد أنقص من نفسه لدى نفسه وأنقص من اطمئنانه إلى الحياة عامة وإلى النفوس البشرية فيحس امتعاضاً وتضايقاً من الغائب الذي نقل الواشى عنه مالم يقل أو مالم يفعل لأنه كان سبب ذلك النقل الباطل والوشاية الكاذبة التي آلمته حتى وإن كان سبباً غافلاً عما سببه في نفس الناقل الكاذب ولكن سامع الوشاية المتألم منها بالرغم من تكذيبه لها في سريرة نفسه قد ينقم على ذلك الغائب المكذوب عليه سواء كان الواشى الكاذب معذوراً أم غير معذور في بغضه له الذي دعاه إلى أن يكذب عليه في وشايته . وهذا أيضاً من منطق النفوس البشرية . وما يزيد في حنق سامع الوشاية أنها قد تكون مما لا يستطيع ذلك السامع فحصه أو مخاطبة المنقول عنه ؛ ولا سيما إذا كان سامع الوشاية عظيماً أو رئيساً فيخشى على رياسته وعظمته أن تبتذل عند التفصيل في كشف الوشاية وفحصها وتحقيقها ، ولا سيما إذا كان الغائب المنقول عنه مرءوساً ليس في منزلته ؛ فيرى من الانتقاص لنفسه أن يطلعه على ما نقل الواشى إليه لأنه يضطر أن يحدثه بالقول المر الذي قيل عن شخصه ، أي شخص العظيم ، وهذا فيه إحراج لعظمته فيفضل أن ينتقم من غير بحث ومن غير ظهور بينات أو أدلة على صدق الواشى ، وتلمس نفسه لنفسه الأعذار عندما تحول الشبهات إلى بينات تخلصاً من إحراج عظمته بالتفوه بما قيل في حقه . وإذا كان هذا شأن من توجب عليه منزلته السير بالعدل فما ظنك بالكثير من الناس الذين يرى كل لنفسه عظمة مثل تلك العظمة ، وإن لم تكن له تلك المنزلة التي تفرض عليه ماتفرض منزلة الأول . والذين يقرآن كل يوم ويسمعون عما يسمى بالطريقة الأمريكية في الاحتيال ، فلا تمنعهم قراءتهم عنها من الوقوع في شرك المحتالين ، ووسائل تلك الطريقة الأمريكية في الاحتيال أسهل من وسائل الوشاة . فالنفس البشرية تنقاد بالخيال والإحساس بالرهبة والرغبة أكثر من انقيادها بالعقل والمنطق الصحيح والعدل .

ومما يزيد الوشاية تمكناً أن النفوس طبعت على الخوف ، فكل نفس تقبل الوشاية لا لأنها اقتنعت بصدقها بل لدرء الشر وابتقاء الضر المحتمل ، وهي قد تسرع بالإساءة إلى الغائب المنقول عنه إذا وجدت أن إساءتها إليه أسهل من ملاطفته وملاينته ، وإنما تريد تعجيزه عن الشر بالإساءة إليه قبل أن يسيء إليها . وهي تزكى إساءتها إليه قبل التأكد من صدق الوشاية بأن تعد تلك الإساءة من ضرورات الحياة ومكارهاها التي لا مناص منها ، والتي تدعو إلى المبادرة بالشر حيطة وحذراً ؛ إذ أن البدء بالهجوم والمفاجأة به نصف الظفر والانتصار كما يقولون . وهذا أيضاً من منطق النفوس البشرية وأعنى المنطق الخفى لا الذى يدرس فى الكتب .

أضف إلى كل هذه الأسباب ما يدعو إلى قبول الوشاية من الرغبة فى الأذى ، وهي قد تكون رغبة ملحة وشهوة قاهرة فى كثير من النفوس ولا سبب لها إلا التمتع بارتكاب القسوة وعمل الشر وإيلام غيرها وهذه الرغبة فى الأذى والمتعة فى القسوة لا تعجز عن خلق الأعذار والأسباب والشواهد والأدلة والبيئات كى تزكى نفسها فى التمتع بالقسوة وفى ارتكاب الشر ، وصاحب هذه المتعة النفسية فى إيلام غيره يُرَحَّبُ بالواشى النمام كما يرحب العاشق بحبيبته الذى طالت غيبته لأن ذلك الواشى يساعده على خلق الأعذار التى يُزكىُّ بها رغبته فى عمل الشر .

٣٥- لـجاجة الـجلـل *

قـل ترى إنساناً يسخر من إنسان آخر لأنه فى حـلثة معه يـلكر حقائق مـبتـلـة كل الناس : وهذا الساخر قـل يعرف أن أحاديث الناس فى جملتها من هذا النوع الذى يسخر منه ، وأن كونها من هذا النوع يسهل الحديث بين الناس على اختلاف ما يؤهلهم للحديث من علم وفطنة ، أو مالا يؤهلهم له من جهل وغباء . فهذا النوع المبتذل من الحديث الذى يسخر منه الساخر يؤلف بين الناس فى مجالسهم ويساعدهم على أن يقضوا وقتاً يريدون إفناؤه ، ويمنع من انقطاع الحديث زمناً للبحث عن فكرة صائبة غير مبتذلة ، كما قد يمنع من الحقـل الذى ينشأ بسبب الخلاف على فكرة غريبة غير مبتذلة ، أو بسبب حسد جليس لجليسه إذا ظهر عليه بفكرة جليلة . والساخر من الحديث المبتذل قلما ينقم فى سريرة نفسه على محدثه إذا كانت آراؤه سخيفة أو مبتذلة قدر ما قد ينقم عليه إذا بذه بالحجة وفاقه بأصالة الراى . فليس شر الحديث المبتذل ، وإنما شر الحديث ما كان لـجاجة وحبا للظهور بالعظمة وأثرة ورغبة فى الانتصار وفى إرغام الناس على إجلال فكر . فإن بعض الناس - حتى بعض أفاضلهم وعلمائهم - يرتاد المجالس كى يزهى بعلمه وينتصر بالجلل . وبعض الذين لم ينالوا قسطاً كبيراً من التعليم يشعر بنقص إذا جالس الناس فيعمد إلى إخفاء ما يشعر به من نقص بما يظهر ذلك النقص ، فتراه يحول الحديث من الموضوعات الشائعة المبتذلة إلى الأمور العلمية ويحاول أن يسيطر على الحديث باللـجاجة وأدعاء العلم والإصرار والتهجم على مخالفه ، وقد ينفعل انفعالاً نفسياً شديداً ، وليس انفعاله من شدة انتصاره للحق ولا من ذعره أن يسود الباطل العالم ، وإنما انفعاله من غيظه إذا لم يـلـل من الانتصار فى الحديث ومن إسكات مجادلـه كى يوهـم نفسه وكى يوهـم جلساءه أنه لا يشعر بنقص علمه ، وقد يفتن جلساءه إلى أن باعـلـه على اللـجاجة والانفعال شعوره بنقص تعلمه ولا يفتن هو إلى فطنتهم لنقصه فيضع نفسه فى منزلة الخـلـى من غير داع .

وتشبهت المرء بالحق فى المجالس واجب ، أما إعلان هذا التشبه بالجلل الذى يؤدى إلى الخصومة والعداوة والبغضاء والتضارب أو التقاتل فمن الضعف وقلة كبح النفس والعجز عن ضبط اللسان . وهذا العجز ليس من الحكمة فى شىء بل هو من الطيش الذى قد يندم المجادل

عليه ولو كان الحق في جانبه ، فإن أحاديث الناس في مجالسهم ليس فيها ما يزكى اللجاجة التي تدعو إلى الخصومات . ويستطيع المجلس إذا خشي أن يُعَدَّ سكوته عن الجدل واللجاجة مشاركة في خطئ الرأي أو إثم الغيبة أن يترك ذلك المجلس وأن ينصرف عنه إلى غيره بعد إعلان رأيه في رفق وتؤدة وحلم .

وبعض الناس قد طُبِعَ على أن يجادل لنصرة ما يراه حقاً حتى ولو أدت المجادلة إلى المهاترة أو المضاربة ، وكأنما يشعر شعوراً غامضاً أن مصير الدنيا وبقاء الكون موقوف على انتصاره لما يراه حقاً ، وقد يكون هذا المجادل اللجوج صادق النية مخلصاً في شعوره كأنه لم يَرَ كيف أن العلماء والفلاسفة يأتون كل جيل أو كل عصر بآراء تخالف ما أتى به أسلافهم ، والحياة قائمة بالرغم من خطأ السابقين أو اللاحقين ، والسماء لم تنهد ولم تسقط على الأرض والدنيا على حالها يخالطها كثير من الخطأ ، فلأى أمر إذاً يتضارب الناس في مجالسهم أو يتخاصمون من أجل اللجاجة والجدل .

على أن في الناس من يحترف الجدل مكرماً ودهاء كي يكون اعترافه بأصالة رأى مجادلة أوقع وكى يكون انهزامه في الجدل أحب إلى جليسه الذي يجادله ، وكى يفهم ذلك المجلس أن قوة بَيَانِهِ ورجاحة حجته وفرط ذكائه هي الصفات العالية والهبات النفيسة النادرة التي مكنته من إقناع ذلك المجادل الذي إنما يجادل كي ينهزم وكى يمدح صفات جليسه العقلية تقرباً إليه لم حاجة في نفسه ، وهذه وسيلة من وسائل الدنيويين الذين يريدون النجاح في الحياة ، وقد شاهدنا مثل هذا الجدل والافتناع الكاذب في حديث الرؤساء والمروسين وفي حديث الوجهاء ومن هم أقل منهم منزلة .

وهناك نوع آخر من الجدل يثيره خبيث يعرف أن جليسه عصبي المزاج ينفعل إذا جادل فيحسب أن يعيب به وأن يضحك من انفعاله ، وأن يتخذ لهواً وقد يكون رأيه في الأمر الذي يجادل فيه مثل رأى ذلك العصبي المزاج ولكنه يخالفه كي يتفكه بضجيجه وصراخه وحركاته حتى إذا نال بغيبته من الفكاهة أقرب برجحان رأى ذلك العصبي المزاج فينال نوعاً آخر من الفكاهة إذا رأى عظم سروره وخمود ثورة أعصابه .

وقد شاهدنا نوعاً آخر من الجدل إذ يرى أحد المجلسين أن جليسه سفيه لا يريد توضيح الحق بالجدل وإنما يريد الظفر في الحديث بأية وسيلة ، ولا يترك جليسه إذا سكوت بل كلما طال سكوته أحس ذلك السفية أن سكوته إنكار لرأيه فيلج في الجدل كي يرغمه على الخروج من صمته ، صاحبه لا يرى فائدة في الخروج من صمته فيكتفى بأن ينطق بمقاطع لاتدل على مخالفة

أو موافقة كأن يقول : أومّ . إيمّ . آ . إمّ . وهذا على أي خير من التقاتل أو التضارب من أجل الجدل .

ونقرأ في الجرائد عن تضارب يؤدي إلى قتل وكان سببه نزاعا على مليم أو على قطعة من البطيخ ، ومثل هذا التقاتل يرجع إلى اللجاجة في الجدل أكثر مما يرجع إلى شدة الفقر إلى المليم أو إلى قطعة من البطيخ ؛ ومثله مَثَلُ اللجاجة في الجدل وفي النزاع على رأى سياسى أو فى التنافس فى البر وعمل الخير ، فهذا أيضاً قد يدعو إلى التقاتل كما حدث بين شابين تجادلا فى أيهما أحق بالتأذين والدعوة إلى الصلاة فانقلب لاجاجة الجدل إلى تشاتم ثم إلى تضارب فتقاتل . ونقرأ فى الجرائد أن اللجاجة فى الجدل قد تؤدى إلى الخصومات والتقاتل بين الأسر أو بين البلدان المتجاورة .

واللجاجة فى الجدل عند بعض الناس مرض يظهر خبث النفوس فترى بعض الناس يحقد على من يجادله ويسعى فى أذاه إما سعيّاً ظاهراً وإما فى الخلفاء . ويخيل للرائى أن بعض المجادلين يكاد يجن إذا لم ينتصر فى الجدل ، وقد يكون هذا المجادل طيب القلب سمحاً إذا وافقه المجلساء على رأيه وهواه ، وقد يمدح من يوافقه فى حديث المجالس على رأيه فيقول : - فلان رجل ذكى لا يجادل بالباطل ويدرك الصواب إدراكاً سريعاً .. وقد يكون هذا الممدوح مخفياً غير ما وافقه عليه وساخراً برأى المادح فى سريره وهازناً بلجأته .

والطوائف والأمم مثل آحاد الناس فإننا نقرأ فى تاريخ الإنسانية عن تقاتل الطوائف من الناس على ألفاظ لا طائل تحتها وعلى أخيلة وأوهام بعيدة عن العقل فنعجب هل كانوا حمقى أم مجانين .

وستأتى عصور يتسائل أهلها عن تقاتلنا على الألفاظ والأوهام ، ويتمجبون من حماقة هذه الأجيال كما تتمجب هذه الأجيال من حماقة أهل العصور القديمة ، ولم يعظنا ما رأيناه من عبث التقاتل على الألفاظ والأوهام والآراء التى تتبدل فى كل عصر حتى كأن العقل البشرى من قلة اتعاط النفوس لا أثر له فى الحياة وحتى كأن الحياة لا تستقيم إلا بأن يجد الناس لذة فى خلق أسباب الألم والعذاب لأنفسهم بخصومات الجدل وعداواته كما يجد بعض المتدينين لذة فى أكل النار وطعن أنفسهم بالخناجر فى بعض الحفلات الدينية .

والجدل فى مناظرة الكتب والصحف والمجلات كالجدل فى مناظرة الكلام فمنه ما يكون من العبث المضى فيه ، ولعل أشد المناظرة عبثاً وضيعة ما يدعو إلى مجادلة الذى يُزكى بالمصطلحات قلة خبرته بالحياة ، وهى مصطلحات لا يستقيم مذهبها إلا فى الأمور النظرية

التي لا تتصل بأمور الحس ، أو مجادلة من يشبه المؤرخ الذي لا ينتقد مصادر تاريخه كما ينتقد الصيرفي نقوده وتطفي حماسة الشباب في قوله وتطفي الثقة بالأصدقاء ، على الرغبة في الإنصاف وفي تخليد حكمه وصيانتها من أن ينقضه بحث باحث .

وقد يكبر الوهم للمشتغلين بالسياسة قيمة جدلهم ومناظراتهم في الصحف ، ويحسب كل فريق أن خراب الوطن رهن بانخذه في أية مناظرة مهما يكن سببها فيستبيح ضمير كل فريق من الوسائل في خصومات الجدل ما كان يعده إجراماً لو نظر إلى الأمور بعين المؤرخ الذي يرى زوال الجهود البشرية وغيثاة أمر الكثير منها وتفاهة ما كان الناس يعدونه جد جليل خطير .

ولما كانت السياسة شغل الناس الشاغل في العصور الحديثة فإن الأخلاق التي يستبيحها الجدل في شؤونها ، وما قد يظن معنا على هذا الجدل ، تتفشى وتفسد أمور الحياة التي يراد إصلاحها بهذا الجدل فيأتي فساد الأمور من سبيل إصلاحها ، ويأتي سقمها على يد طبيبها . ولا يقتصر هذا الفساد على المشتغلين بالأمور السياسية ؛ فإن كل إنسان وكل قوم يبيع فيمن بعدهم من خصومه وإن لم يكونوا خصوماً في أمور المعاش ، ماتبيحة السياسة من الكذب ، والخساسة في العداوة والإجرام ؛ فإن الرجل من عامة الناس أو أشباه العامة يرى بين الخاصة والعظماء المشتغلين بالسياسة من يستبيح كل وسيلة مهما كانت مرذولة ، فيبيع لنفسه في أمور المعاش واللهم والتلذذ بالكيد ماتبيحه السياسة في الأمور العامة ، ويصير نشر الدعوة الكاذبة في أمور السياسة خطة يتأثرها الناس في أمور المعاش أو اللهم أو الغرور ، ويصير التحزب ونصرة الجماعة بالحق وبالباطل في أمور السياسة عادة يتبعها الناس ويغالون في باطلها في أحقر الأمور وأصغرها أو في أبعد الأمور عن تلك الخطط والعادات وأقلها حاجة إليها وأكثرها فساداً بها ، ويكون فسادها أعظم والمغالاة بها أشد في البيئات التي تعودت في تاريخها التخاذل في الحق والتحزب والتقاتل في أتفه الأمور أو أجلها وأبعدها عن التحزب بالباطل .

٣٦- وسائل الاغتياب *

كل إنسان من الناس لا يعد الاغتياب اغتياهاً إلا إذا كان قد أتى من غيره في حقه أو في حق عزيز عنده أو مرضى عنه لديه . أما إذا أتى الاغتياب من غيره وقصد به انتقاص غير عزيز عنده ولا مرضى عنه ؛ أو إذا كان هو الذي يغتاب فإنه لا يعد الاغتياب في هذه الحالات اغتياهاً بل يعد مكرمة وفضيلة ، فيعده انتصاراً للحق وهداية إلى الفضيلة وإظهاراً للنقص ومعاربة للرذيلة وتحذيراً للسامع من الشر . وهكذا تتغير حقائق الأمور حسب أهوائه ، وبذلك يسيطر على ضميره ويخدع ضمائر الناس . فالاغتياب منه فضيلة ليس بعدها فضيلة ؛ أما من غيره فالاغتياب دليل على لؤم النفس وخساستها . وهو إذا اغتابه أحد الناس لم يعد اغتياب المغتاب له فضيلة وهداية إلى الفضل ومعاربة للنقص كما يعد الاغتياب الذي يجرى من نفسه في حق الناس . وكثيراً ما يلجأ المغتاب إلى أساليب عجيبة كي يقبل اغتياها فيقول: إني لا أريد أن أنتقص فلاناً أو أن أذمه فإنه رجل فاضل ، ثم يغتابه بما لا يترك له فضلاً ولا فضيلة . وقد يمدح عمل الرجل في صنعته كي يقبل الناس ذمه له في أخلاقه ؛ وذلك لأن الفضل في العمل قد لا يخفى على البصير الحاذق الذي يستطيع أن يزن فضل القول أو العمل في الصنعة أو المهنة . أما فضل الأخلاق فأكثره غير مكتوب في طرس ولا مرصوف في بناء ولا منحوت في تمثال حتى يزن الوازن فنه ولونه وحقيقته ، بل أكثره ودبحة في نفوس المخطيء أو من ليسوا بخطاء ولا عشراء إذا كان المرء معروفاً بالذكر عند من لا يعرفه في حياته الخاصة . والمخطيء قد لا يؤدون الأمانة وأمانة ولا الوديعه غير منتقصة وغير المخطيء إنما يحكمون بالصدى .

وكثيراً ما يرشو المغتاب سامعه بالمدح إذا كانت إثارة شره وحقده على من يعرفه أولاً يعرفه محتاج إلى مدح المغتاب لسامعه الذي يريد إثارة شره ، أو قد يهدد المغتاب سامعه بالذم إذا لم يقبل أن يستشار شره وحقده على ذلك الغائب الذي يغتابه المغتاب ، وقلما يجروا أحد الناس إذا سمع ذماً لغائب أو شبه غائب على رفض الذم وتزكية المذموم خشية أن يعد الناس مدحه للمذموم مشاركة له في نقصه الذي ذم به ، فتري أكثر الناس إلا من تدر إذا اغتاب إنسان إنساناً يسرعون إلى إظهار تصديقهم قوله خشية أن يُعدوا مشاركين للغائب المذموم إذا كذبوا

مفتابه . وهم يسرعون إلى هذا التصديق وإن كانوا من أهل الخير ، وإن كانوا من أبعد الناس عن التلذذ بالحق من غير سبب للحقد ، وإنما يصدقون المغتاب وقاية لأنفسهم ، وكل إنسان به شيء قليل أو كثير من الجبن أو الخوف أو الحذر فيخاف إذا لم يعاون المغتاب على اغتياب الغائب - وأقل المعاونة المعاونة بالسكوت والإنصات والابتسام والإقبال - أن يُعد مشاركا للغائب فيما اغتیب به . وإذا كان هذا شأن أهل الخير فما ظنك بغيرهم من الناس وأكثر الناس يجدون في أنفسهم لذة ومسرة - إما قليلة تكاد تكون خفية غير ملحوظة وإما لذة عظيمة - إذا سمعوا ذمًا لإنسان . وأقل أسباب هذه اللذة وأطهرها أن الذم لم يقع بهم بل بغيرهم فیسرُّون لنجاتهم من الذم بوقوع الذم بغيرهم كما يسرون من أجل أن ذمَّ غيرهم بالحق أو بالباطل إذا سمعوه أو قالوه يزيدهم عظمة عند أنفسهم فيشعرون أنهم صاروا أعظم من المذموم حتى ولو كان ذمه بالباطل ، الذم كالجمر كل يريد أن يلقيه على غيره . فإذا أحس السامع في نفسه أنه أحق بذلك الذم الذي اغتاب به المغتاب غائباً أسرع في معاونة المغتاب على الغيبة كيلاً * يظن المغتاب وكيلاً * يلحظ من عينيه أنه أحق بالذم من الغائب .

ومن أجل ذلك يكون الاغتياب أشيع ما يكون بين أهل النقص الحقيقيين بالذم الذين يخفون من أسرار أنفسهم ما هو حقيق بالذم فيرتعدون خوفاً من ظهوره فيندفعون إلى الغيبة من الخوف ، كما قد يُقبلُ الأرنب من خوف إلى الثعبان ، أو كما قد يُقبلُ الهر من خوف إلى الأسد . وهم قد يندفعون في نقصهم ويهتوئون على أنفسهم النقص بذلك . وقد يُصرِّح المغتاب للسامع بالتهديد ولا يكتفى بالتلميح في تهديده فيقول : لا يدافع عن أهل الرذيلة إلا من كان من أهل الرذيلة ، فيسرع السامع إلى تصديق المغتاب ، وربما صار من خوفه أشد شرها في الاغتياب من ذلك المغتاب الذي هدده إذا لم يقبل منه قوله .

وقد تجتمع في نفس السامع أسباب الاغتياب كلها ، بل إن الخوف من مشاركة الغائب المهجو في الذم قد يجعله السامع عذراً لنفسه إذا وجد لذة في الشر والانتقاص ، وإيقاع الأذى بغيره بمعاونة المغتاب ؛ فبعد أن يكون قبوله الاغتياب والمعاونة عليه خوفاً يصبح القبول وتصيب المعاونة لذة في إيقاع الأذى وتعاضلاً بانتقاص غيره ، فتري أن أقل أسباب قبول الغيبة إثماً وأطهرها شكلاً يسوق النفس إلى أكثر أسباب قبول الاغتياب والمعاونة عليه إثماً ، وإلى أخبثها أصلاً في النفس . وهنا من عجائب النفس الإنسانية التي في أول أمرها قد تتخرج من أقل الخبث والشر ، فإذا قبلته مكرهة قد لا تتخرج في أن تجد لذة في أشد الشر والخبث

والخوف من مشاركة المذموم في الذم سنة عامة قد تتخذ شكلاً مضحكاً . فقد ترى جماعة من الناس يتحدثون في مودة وصفاء ثم يرون على قرب منهم اثنين يتضاحكان ، وقد يكون تضاحكهما لأمر لا صلة له بهم ، ولعل ذكرهم لم يمر على لسان المتضاحكين ، ولكن شدة الذعر من السخر والذم قد توهم تلك الجماعة التي تتحدث في مودة وصفاء أن تضاحك المتضاحكين منهم أو من أحدهم فيبتسم كل منهم كي يوهم أصحابه وجلساءه أنه واثق في سريرة نفسه أنه غير مقصود بضحك المتضاحكين . وقد يكون ابتسامه مخلوطاً في شكله بمظاهر الخوف والارتباب فيمتخذ ابتسامه شكلاً مضحكاً حقاً . أما إذا استطاع أن يخفي ما في سريرة نفسه من الارتباب والخوف فإنه قد يقنع جلساءه أن تضاحك المتضاحكين على مقربة منهم ليس سخرأ به بل بأحدهم وقد ينظر مبتسماً إلى جلسي كي يوهم جلساءه أن المتضاحكين إنما يسخران بهذا الجليس الذي ينظر إليه فهو يتوقى السخر الموهوم بالصاقه بجليسه كي يقي نفسه من أن يُظن موضوع اغتيال المتضاحكين . وهذه ظاهرة مشاهدة في الناس وقد قال أحد الأدباء الماكرين :

إذا رأيت إنساناً في جماعة على مقربة منك وارتبت في أنه يغتابك فما عليك إلا أن تختار صديقاً أو جليساً يجيد الضحك ثم حدثه حديث فكاهة يثير ضحكك ولا علاقة لحديثك بالإنسان الذي ترتاب في أنه يغتابك فإذا أكثرتما من الضحك وجعلت تنظر إليه أثناء الحديث والضحك ارتاب ذلك الإنسان أيضاً في أنك تذكره بسوء . بل قد يندعر بعض جلسائه خشية أن يكون هو المقصود بالضحك فينصرفون عنه ، وقد يسمعون إليك مبتسمين إذا كانوا يعرفونك كي يوهم كل منهم الآخر أنه واثق في سريرة نفسه أنه ليس مدعاة للسخر والضحك ، وإنما يكون انفضاضهم عن ذلك الإنسان على صوت ضحككما كأنفضاض قوم عند سماع صوت انطلاق قذيفة من مدفع غير مُعَبَّأ بما يبيت . وهذه الحيلة ليست من مكارم الأخلاق وربما لجأ إليها الظن المخطيء وربما لاتستطاع إلا بشيء من الصفاقة لا يملكه كل إنسان ولكنها على أي حال من أخلاق الناس ومشاهد الحياة .

والمغتتاب الذي لا يستطيع الناس أن يجدوا سبباً لحقده على من يغتابه أكثر المغتابين لجاحاً في الاغتياب ، ومن أجل ذلك يحاول المغتتاب الماكر أن يخفي سبب حقه وكرهه ، وقد يكون السبب بطبعه بعيداً عن الأذهان ، وقد يكون المغتتاب نفسه غير قاهر سبب حقه الذي يخامر نفسه كل الفهم ، وأخلق بهذا السبب ألا يفهمه الناس إذا كان صاحبه لا يفهمه .

٣٧- المغتاب *

وشر ماتكون الغيبة اذا سرت إلى ناس لهم فضل فليس المغتاب وشركاؤه محرومين من كل فضل ولو كانوا كذلك لهان أمرهم ولما عظم شرهم وانما شر اغتياهم يخشى بسبب ما لهم من تعظم نفوسهم وتوقر وتسمع أقوالهم من أجله .

وفى البيئات التى تكثر فيها هذه الطوائف الموصوفة تكون الحياة معركة والفائز فيها من فقد الشهامة ومن فقد تقزز النفس من الدنيا ومن استخدم كل خصال النفس الوضيعة كى يفوز وينتصر . وفى هذه البيئات يكثر الغش وتزييف الحقائق والخصال فى ظلام الغيبة الدامس وراء ستارها فان للاغتياب ستارا يخفى جرائم وآثاما . وفى هذه البيئات تقوم الأحقاد والوشايات والسعائيات والأكاذيب مقام البيئات القضائية . ولا يزال المغتاب بنفسه حتى يقنعها بصحة اغتيايه الناس وحتى يتضجر ممن لا يقيم قوله مقام البيئات التى لا يدخلها الشك شأن كل ظالم تؤلمه أساليب العدل والقضاء . ولا دواء للاغتياب إلا بأن يتقدم كل جليس من جلساء المغتاب للشهادة عليه وإلا بأن يعتقدوا أن هذا التقدم للشهادة شهامة وفرض فى أعناقهم وذممهم وصلاح للمجتمع وإقرار للعدل ومنع للظلم الذى قد يحل بجليس المغتاب المصفى إليه كما يحل بغيره ومنع لتزييف الحقائق والخصال والأقوال والآراء تزييفا يجعل الحياة معركة يفوز فيها المزيف .

* المجلة الجديدة الأسبوعية ٢٢/١٠/١٩٣٩ ص ٨ ، ٩

استفتاء قامت به المجلة الجديدة تحت عنوان " ماذا يقولون " والمحرر .

٣٨ - مشكلة اليهود فى العالم *

إن الذى يدرس تاريخ اليهود من قديم الزمن يعرف أن العوامل التى تتنازع سياستهم ليست حديثة العهد ، وأن مواقف الأمم الأخرى منهم فى هذا العصر كانت لها أشباه ونظائر فى عصور التاريخ المختلفة فى عهد قدماء المصريين والبابليين والأشوريين والفرس والإغريق والرومان . فمسألة اليهود كانت موجودة حتى قبل أن يفقدوا استقلال شعبهم وقبل أن يهزم طيطوس ابن الإمبراطور الرومانى فسباسيان معبدهم وقبل أن يقضى على أورشليم ، وقبل أن يتشتت اليهود فى العالم ^(١) . بل هى كانت موجودة قبل ذلك عند أسرهم ، ونقل الكثير منهم إلى بابل وهو المعروف فى التاريخ باسم بابل ^(٢) وكانت موجودة عندما سمح لهم قورش ملك الفرس بالعودة وإعادة بناء أورشليم ، وعندما شجعهم فى أعمالهم المالية كى ينشط التجارة فى دولته .

ويتنازع نفوس اليهود من قديم الزمن عاملان : النزعة العالمية ، والنزعة الشعبية المصطبغة بصبغة دينية . وقد كانت متاعب اليهود قديماً وحديثاً ناشئة من استفحال النزعتين وتنازعهما نفوسهما ؛ فتارة يوقعهم الغلو فى المحافظة على تقاليد النزعة الشعبية الدينية فى نزاع مع الدول الأخرى ، وتارة يوقعهم الغلو فى النزعة العالمية فى ذلك النزاع . وقد كانت النزعة العالمية تظهر فى نفوسهم فى بعض الأحيان بمظهر اقتصادى مالى فيحاولون السيطرة على أسواق العالم المالية ، وتارة تظهر النزعة العالمية بمظهر الدعوة إلى مثل العليا . وكان بعضهم يريد قصر تحقيق هذه المثل العليا على اليهود ، وهؤلاء هم الذين كانوا يناصرون النزعة الشعبية الدينية ، وبعضهم لا يريد قصرها على اليهود بل تعميمها فى العالم .

والغريب فى أمرهم أنه بالرغم من المشاحنات والاقتتال الذى كان يحدث قديماً بين اليهود من أنصار المحافظة على تقاليد النزعة الشعبية الدينية وبين أنصار النزعة العالمية ، وبالرغم

* الرسالة : ٣١ يوليو ١٩٣٩ ، ص ١٤٨٥ ومايلى .

(١) كان اليهود منتشرين فى العالم المتحضر من قديم الزمن قبل سقوط أورشليم ، وأحياناً كان بعضهم يتخذ جنسية أخرى ويرقى أعظم المناصب فى الأمم الأخرى القديمة وحاولوا قديماً السيطرة على الأسواق المالية كما يفعلون الآن .

(٢) فى عهد بختنصر الكلدانى .

من أن النزعة العالمية في نفوس بعضهم كانت تتخذ مظهر الأثرة المالية والطباع الدنيوية الداعية في الرجح المالى قبل كل شىء. وهى طباع تخالف نزعة المثل العليا وتخالف التضحية في سبيل تحقيقها. فإن كثيراً منهم كان يحاول التوفيق في نفسه بين النزعتين المتناقضتين أو يحن تارة إلى هذه وتارة إلى تلك، كما أن بعضهم كان يحاول الاستفادة لنفسه أو للشعب اليهودي من النزعتين المتناقضتين معاً. فاليهودي الذي يميل إلى المثل العليا أو الذي يميل إلى المحافظة على تقاليد النزعة الشعبية الدينية لا يرى حرجاً في أن يلتجئ إلى صاحب النزعة العالمية المالية والطباع الدنيوية لاستخدام ماله وسلطته في سبيل تحقيق مثله العليا أو في سبيل المحافظة على التقاليد الشعبية الدينية الضيقة التي ترفض النزعة العالمية، كما أن صاحب الطباع الدنيوية والأثرة المالية لا يرى تناقضاً في خطته إذا حن إلى المثل العليا التي قد تخالف نزعة أثرته الدنيوية، أو إذا ساعد في المحافظة على تقاليد النزعة الشعبية الدينية الضيقة التي تخالف نزعته العالمية الدنيوية، وربما حن إلى المثل العليا ذلك الحنين الذي يدعو إلى التضحية في سبيلها في الوقت الذي يستثمر الدعوة إلى تلك المثل العليا لكسب المال وزيادة نفوذه الاقتصادي. واجتماع هذه النزعات المختلفة في النفس الواحدة ليس مقصوراً على اليهودي فهى طباع النفوس البشرية عامة، ولكن هذا التناقض أظهر ما يكون في اليهود لغلوهم في النزعتين المتناقضتين غلواً يظهر الفرق بينهما في نفوسهم أكبر منه في نفوس غيرهم.

وقد ظهر اليهود قديماً وحديثاً ظهوراً كبيراً في مناصرة النزعتين المتناقضتين، وهذا أدى كما ذكرت إلى مشاحنات بين طوائفهم وإلى مشاحنات بينهم وبين الأمم. وقد ظهرت النزعة العالمية في حياة اليهود على اختلاف مظهرى تلك النزعة أى المظهر المالى الاقتصادي ومظهر المثل العليا قبل أن يفقد اليهود كل سلطة سياسية في حكم فلسطين، فظهرت في دولة الفرس^(١) وظهرت في دولة الرومان^(٢).

على أن فقدانهم كل سلطة سياسية في حكومة فلسطين لم يوهن النزعة الشعبية الدينية في نفوسهم وإن كان قد ساعد على استفحال النزعة العالمية. وتحريم الكنيسة المسيحية على

(١) بعد عودتهم من بابل استخدموا الثقافة التي استفادوها هناك لدواع دينية وزادتهم محنة الأسر رغبة في المثل العليا.

(٢) كالمثل العليا العالمية في المسيحية وقد انتشرت أولاً بين اليهود ثم انتقلت منهم إلى غيرهم. وقد ساعد هذا العامل النفساني لقبول الدعوة لرغبة في إعادة استقلالهم.

المسيحيين تقاضى الربح عند تسليف النقود واعتباره ربا أدى إلى ما يشبه احتكاراً من اليهود للعمليات المالية وإلى سيطرتهم على الأسواق المالية في أوروبا ، وهذا قوى النزعة العالمية في نفوسهم كما أدت النزعة الشعبية الدينية إلى مناصرة بعضهم بعضاً ؛ وزادت هذه المناصرة إذ وجدوا أنفسهم قلة يهودية في وسط كثرة غير يهودية من الشعوب التي هاجروا إليها . وشأن القلة من الطوائف التعاون حتى لا تنفمرها الكثرة ولا سيما إذا كانت الكثرة كثرة تبغض القلة . وزاد البغض الدينى في نفوس الكثرة أولاً استيلاء اليهود على الأسواق المالية بالتسليف ؛ وثانياً عواقب مناصرة اليهود بعضهم لبعض من استيلائهم على كثير من المهن التي تحتاج إلى الأعمال الفكرية والاستعداد العلمى والفنى .

وبالرغم من أن بعض اليهود حاول معالجة هذا البغض والقضاء على الكره الذى كان غير اليهود يشعرون به نحوهم بالاندماج فى الأجناس الأوربية اندماجاً تاماً ، فإن الكثرة من اليهود بقيت محافظة على تقاليد النزعة الشعبية الدينية . ولو أن النزعة العالمية غلبت على نفوسهم كل الغلبة لتمكنوا من الاندماج فى الشعوب التي استوطنوا أرضها . وهذا الاندماج كان ينسى تلك الشعوب أن اليهود فى أصلهم أجنب ، وهذا كان يزيل البغض الذى كانت آحاد تلك الشعوب تشعر به نحوهم ، وكان يستطيع اليهود أن ينعموا بميزة القدرة على كسب المال ، ولكن ربما كانت تلك القدرة تقل لو تم ذلك الاندماج لأنه كان ينسبهم اختلاف جنسهم عن الأجناس الأخرى ؛ فكان يقضى على مناصرة بعضهم لبعض ، وعلى تعاونهم للسيطرة على الأسواق المالية ، وعلى المهن الفكرية والعلمية .

وبقاء النزعة الشعبية الدينية فى نفوسهم أدى إلى فكرة الصهيونية^(١) التي تدعو إلى العودة إلى حكم فلسطين . وهذه الفكرة كانت فى أول أمرها مثلاً أعلى كالمثل العليا تحلم بها الإنسانية ولا تحقق . وهذه الفكرة الصهيونية زادت اعتقاد آحاد الشعوب الأوربية أن اليهود بينهم - وإن تجنسوا بجنس غير جنسهم ، وإن ضحوا فى الحروب وفى غير الحروب لمناصرة الجنس الجديد الذى تجنسوا به - إنما هم أجنب بالرغم من ذلك وأنهم يعدون أنفسهم أجنب .

(١) من قديم الزمن كانت تنازع فكرة الصهيونية والتشبهت بالمعبد الأورشليمى فكرة اعتبار المعبد فى نفس كل يهودى . وظهرت هذه الفكرة للسلوى واستئناف الحياة الدينية أولاً عند بعض من فر إلى مصر بعد غزوة بختنصر الكلدانى ، وثانياً بعد تخريب طيطوس الرومانى للمعبد وسقوط أورشليم .

وهذه الفكرة الصهيونية مخالفة لمصالح اليهود الاقتصادية ؛ فإن قطراً كـفلسطين ربما كان يصلح لاستيطانهم قديماً عند ما كانوا قليلين وعلى حالة قريبة من البداوة ، وعند ما كانوا هم الكثرة الغالبة فيه . أما الآن فقد زاد عددهم في العالم وتعددت فوائدهم ومنافعهم العالمية ، وصار في هذا القطر كثرة غير كثرتهم من العرب الذين وراء كثرتهم في فلسطين كثرة عربية أخرى في الأقطار المجاورة .

ولو خلت فلسطين لليهود لما استطاعت أن تزوي غير عدد قليل من الملايين العديدة من اليهود . وفي العالم بقاع شاسعة أكثر خصباً تحكمها إنجلترا وغيرها من الأمم المناصرة لليهود ؛ فلا يمكن أن يقال إذاً إن الضرورة والأسباب الدينية هي التي تقضى بإسكان المهاجرين اليهود في فلسطين .. لا ، بل تشبث اليهود بفلسطين هو تشبث بتلك النزعة الشعبية الدينية التي تفضل التقاليد القديمة والتي تحاول أن تعكس دورة الزمن وأن تعيد العالم كما كان في بدايته وأن تتجاهل حقائق الحياة . وهذا من قبيل التشبث . في أمور الحياة لا في عواطف النفس وحدها . بمثل أعلى لا يمكن تحقيقه . وهذا التشبث كما قلنا طالما أوقع اليهود قديماً وحديثاً في قتال ونزاع مع الأجناس المجاورة ، وطالما أدى إلى ضياع فائدة اليهود الدينية الحقيقية . ولكن حقائق الحياة والضرورة قد تغرى اليهود بقبول الاستيطان في بقعة أخصب من فلسطين وأقل سكاناً وأوسع رقعة . ويمكن إرضاء العاطفة الشعبية بأن يسمى ذلك الوطن الجديد (فلسطين الجديدة) أو (صهيون) وأن ينشئوا فيها مدناً تسمى بأسماء المدن القديمة في فلسطين القديمة . ويمكن إرضاء النزعة الدينية بأن ينقلوا من الأحجار والآثار المقدسة ، ومن تربة أرض فلسطين القديمة إلى فلسطين الجديدة ما يقدس به الهيكل الجديد وما هو ضروري للدفن الديني المقدس . وهذا الحل يجمع بين إرضاء العاطفة وبين الفائدة الاقتصادية .

٣٩- الحق جاهد *

إن الإنسان كلما كبر علمته التجارب أن التقاتل على أكثر الآراء عناء زائل وأمر حائل ، وأن ما يدعى تقاتلاً على الحق إنما هو تقاتل على المطامع التي تدعى حقاً . قال أحد الفلاسفة : من المقرر في علم الحساب أن جمع الاثنين والاثنين أربعة ولكن لو كانت هذه المسألة من مسائل الحياة التي تختلف فيها مطامع الناس ومطالبهم وكان بين الناس من يعتقد بإخلاص وحسن نية أن جمع الاثنين والاثنين خمسة أو سبعة أو تسعة حسب ما تقتضيه مطامعهم وفوائدهم . وكل منهم يعتقد بإخلاص أن جمع الاثنين والاثنين إذا كان في رأيه خمسة أو سبعة أو تسعة غير مؤسس على ما تقتضيه المطامع والفوائد الخاصة ، وإنما وصل كل منهم في اعتقاده إلى هذه النتيجة بالتخلص من لوازم شخصه وبالفكر النظري الخالص من كل شائب . لكن الناس اتفقوا على أن جمع الاثنين والاثنين أربعة لأن هذا الجمع ليس من الأمور التي تختلف فيها مطالبهم أو فوائدهم . على أن الناس في الحقيقة يختلفون في جمع الاثنين والاثنين عندما يخرجونه من خيز المسائل الحسابية النظرية العارية وعندما يلبسونه لباساً من مطالب الحياة وفوائدها واختلاف أوجه النظر فيها حتى تصبح المسألة الحسابية البسيطة مقنعة غير ملحوظة في أفكارهم ومطالب حياتهم وكأنها غير موجودة .

أذكر أنى قابلت أثناء الحرب العظمى الماضية أحد أفاضل الأجانب ممن اتصف بالعدل وصدق النظر في الأمور والاعتدال في الرأي ، وجرى بيننا الحديث عن الحرب والأمم المتقاتلة فيها فأطرى الفرنسيين وذم الألمان ، وأوضح أسباب المدح والذم . ثم انقضت الحرب وحاولت فرنسا بعدها بمحالفة الدول الأوروبية السيطرة على القوى البرية في أوروبا وخشيت المجترة أن تخل بالتعادل الدولي . وقابلت صاحبنا فذم الإنجليز ومدح الألمان وقال هم أبناء عمنا ، وذكر أسباب المدح والهجاء . ولو قابلته الآن بعد أن عادت المجترة وفرنسا إلى الوفاق وبعد أن قررت ألمانيا لعاد إلى رؤية الأول وصاحبنا هذا رجل عدل وإنصاف واعتدال في أمور الحياة ، وهو في كل حالة يعتقد ما يقول ، ويرى أنه الحق ولاحق غيره ، وهذا الفاضل ليس ببدع فهذه سنة الناس فيما يسمونه حقاً يحورونه ويحولونه بإخلاص وحسن نية إلى ما يناسب آمالهم ومطالبهم وأحاسيسهم ، وهم لا يشعرون بذلك التحويل ، وعدم قننتهم إلى هذا التحويل هو

سبب اندفاعهم في نصرته ما يسمونه حقاً وسبب إباحة كل وسيلة في نصرته ؛ ومن هذا الطريق يدخل نفس الفاضل الحسن النية ما يدخلها من شر وقسوة ولؤم ، فكل إنسان في الحياة يدخل في معنى الحق ما يتفق وحالات نفسه وخواطرها وآمالها ومسرراتها وصدقاتها وعداواتها ، وما يناسب نشأته وثقافته الخاصة وميوله وهو يدخل ما يدخله في معنى الحق من غير أن يعمل عمل المنافق الذي يخفى من رأيه غير ما يعرض على الناس ، ولو سمينا طريقته في تحويل الحق إلى جانبه نفاقاً لكانت نفاقاً لا يحس صاحبه أنه نفاق .

فإذا أضفت إلى هذا النفاق غير المقصود الشائع في كل نفس ما تقصده أكثر النفوس من تضليل العامد إلى النفاق المدبر ، ظهر أن محاولة معرفة الحق أمر جاهد حقاً وظهر السبب في خطأ الناس في قدر ما يعرض عليهم من الأمور التي تسمى حقاً ، إذ أن السعار والضرواة في نصرته ما يسميه كل إنسان حقاً ليست مقصورة على صاحب النفاق المدبر الذي يعرف صاحبه أنه ينافق فيما يسميه حقاً ، بل إن الضرواة والسعار في نصرته الحق أمران قد يلفيان في نصرته صاحب النفاق غير المقصود لما ينتصر له من الأمر الذي يسميه حقاً . ومن أجل ذلك قلما يعنى الناس أنفسهم بفحص ما يعرض عليهم من الأمور للوصول إلى الحق . فهم أيضاً في حكمهم شأنهم شأن صاحب الأمر الذي يعرضه عليهم كي يقبلوه ، فهم إما يقبلونه على أنه حق إذا وافق هواهم وإما يعرفون بطلانه ووجه تزييفه ويدعون أنهم انخدعوا لصاحبه . فإذا خالف هواهم قالوا إنه باطل وهم في كل حالة قد يخالطون أنفسهم ويدعون الفحص والتحصيل ويعتقدون ما يعتقدون أو ما يتظاهرون باعتقاده بحسن نية ، وقد يجتمع حسن النية والتظاهر ، إذ أن النفس تستطيع أن تخادع نفسها حتى في تظاهرها بغير ما تبطن . ومن أجل غلبة الأهواء بقول الباحثرى .

أخى إذا خاصمت نفسك فاحتشد لها وإذا حدثت نفسك فاصدق

فقال احتشد لها لأن النفس أغلب بالأهواء وأملك بميولها ، وفي البيت إرشاد إلى ثقافة ولكن الثقافة نفسها قلما تخلو من أهواء النفوس وقلما يستطيع المرء أن يحتشد لنفسه إذا خاصمها بالحق وقلما يحاول أحد تلك المخاصمة وذلك الاحتشاد للحق مادام يلون الحق كما يشاء ، وبصنعه صناعة أو يصطنع في نفسه وهو لا يدري . والحق يختلف أيضاً باختلاف آراء المرء حسب حالات جسمه وأعصابه الناشئة من سقم أو صحة وقوة أو ضعف وحالات معدته ومطاعمه . ولو فكر المرء في اختلاف الحق حسب اختلاف مطالب المرء ونشأته وثقافته وحالات نفسه وجسمه فإنه قد يستطيع مع إيمان الفكر أن يقلل من ضراوته وأكاذيبه وحقده وغيرها

من الوسائل التى يناصر بها الحق ، على حد قول القائل إن الغاية تبرر الوسطة ، فيبرر ضراوته وأكاذيبه وحقده لأنه يستخدم هذه الوسائل فى نصرة الحق الذى هو أيضاً وليد أحاسيسه وحالات نفسه وجسمه .

واستعراض هذه الأمور العديدة التى تشكل الحق فى نظره يسقط حجته فى أن الغاية الشريفة تبرر الوسطة الدنيئة إذ أن شرف الغاية معدوم أو إذا كان موجوداً فقلما يكون بقدر ما يشرف الوسطة الدنيئة . بل إن الوسطة الدنيئة تقضى على بقية الشرف فى حقه الذى خالط فيه الصدق حاجات نفسه وميولها .

والعصبية تتلف الحق وتمنع المرء من الاحتشاد الذى أراده البحترى عند محاسبة النفس كعصبية المودة أو القرابة أو المصاهرة أو المنفعة المتبادلة أو عصبية الجوار والبلدة الواحدة ، وهذه العصبية الأخيرة قلما تكون إلا إذا اختلف أهل البلدة التى استفحلت عصبيتهم عن حولهم من أهل البلاد الأخرى اختلافاً فى الجسم أو النشأة ، ولا عيب فى تلك العصبية إذا التزمت بجانب الشرف والإتصاف والضرورة القصوى ، أما إذا تعدته إلى جانب الإسفاف والجهل والظلم بغير داع ضاع الحق فى مطالب تلك العصبية . وعصبية المصاهرة على ما بها من عيوب قد تكون مصدر قوة لطائفة كبيرة هى قوام الأمة أو شبه قوام ، ولكنها إذا دخل فيها من لا يمتاز إلا بقوة الجسم ، وارتفع إلى المصاهرة أناس من السفلة وأهل الغباء نشروا عدوى خصالهم الذميمة وآرائهم المخطئة بين أناس من ذوى الأناقة فى الخلق والرأى ، ومن ذوى الاعتدال فى الحكم ، فتنتقل المصاهرة متلفة للحق ولأمر الناس .

والضراوة فى مناصرة مطالب تلك العصبية التى تسمى حقاً تشتد كلما قلت الثقافة فى أمة وزاد الشعور بالنقص فى نفوس أبنائها وكثر التهريج والمهرجون الذين يخلقون لأهل الغباء مبادئ سامية من أحط نزعات نفوسهم .

وأحقاد الناس فى الحياة ليست عبید حاجاتهم وضروراتها بقدر ما هى عبید هواجسهم المبهمة التى تخلق فى أذهانهم ونفوسهم كما تخلق الخفافيش تحت قبة البناء المظلم المهجور ، وذلك لأن الحاجات والضرورات تنقضى وتحد ، ولكن الهواجس لا حد لها ولا انقضاء .

إن الإنسان لا يدهش كثيراً إذا وصف أمامه إنسان بالشر والمكر والسوء ، وهو يعرف أنه أبعد الناس عن هذه الصفات قدر ما يدهش إذا كان هو الموصوف بهذه الصفات لأن دهشته فى الحالة الثانية تعود على أمر يخصه ويؤلمه ، والدهشة المزوجة بالألم أشد وقعاً فى النفس من الدهشة الخالية من الألم ، ولأن كل إنسان يعرف من أسباب أقواله وأعماله ما لا يعرف عن

أسباب أقوال غيره وأعماله ، ويعرف من حالات نفسه فى تلك الأقوال والأعمال مالا يعرف عن أحوال نفس غيره ، فهو بهذه المعرفة يستطيع أن يسوغ أقواله وأعماله ، وبذلك الجهل لحالات نفس غيره لا يستطيع إلا إنكار أقوال غيره وأعماله إن كانت تستدعى الإنكار أو تحتمله ، وهذا بالرغم من أن كل إنسان يعرف من هواجس السوء التى ترد فى نفسه أكثر مما يعرف من هواجس السوء فى نفس غيره . فإن الإنسان لا يستخدم ميزاناً واحداً فيما بينه وبين الناس ؛ فهو مثلاً يكذب كثيراً ويعد كذبه أمراً هيناً فإذا كذب غيره فى حقه عده لئماً ليس بعده لؤم .

كل هذه الحقائق حقيقة بأن تزهد المفكر المتأمل فى سعاره أو ضراوته فى مناصرة ما يسميه حقاً وأكثره ليس بحق ، وهى حقيقة بأن تزهده فى رأى من يرى أن الغاية تبرر الوسطة ، إذ أن خطأه فى قدر الغاية قد يكون عن حسن نية ، ولكنه قد يسوقه حسن النية إلى أعمال اللؤم والإجرام فى سعار مناصرته للحق المزعوم الذى فى تلك الغاية التى أخطأ فيها وعدها نبيلة وهى ليست نبيلة ، وحسن نيته فى ذلك المخطأ لا يخليه من أثم ولؤم ذلك السعار وتلك الضراوة.

إن الذين يُعَنُّون أنفسهم بالبحث عن الحق قليلون ولا سيما البحث عن الحق فى أمور حياة الناس التى تتحكم فيها الأهواء والأوهام ، وقد يحسب الساذج أن الحق فى حياة الناس كالحق فى علم الحساب بمقدار معين لا شك فيه ولا تغير ، ولكن الساذج إذا اختبر الحياة واستطاع أن يقضى بخبرته على سذاجته علم أن أحوج الناس إلى مظاهر الحق هم أهل الباطل ، ومن هذه الحاجة نشأ سعارهم ، ولم ينشأ ذلك السعار من شدة الإخلاص للحق بل من شدة شعورهم أنهم على باطل يحتاج إلى مظاهر الحق .

٤ - الحضارة

واختلاف الطبائع *

ماهى الحضارة ؟ لقد اختلف الكتاب فى تعريفها فإذا قيل العمران وجدنا أن العمران قد يكون موجوداً من غير ذوق وتمييز ، والحضارة لا تكون إلا بهما . وإذا قيل العلم وجدنا أن العلم قد يكون تحصيلاً من غير تفكير ومن غير فهم كثير . وإذا قيل حسن الأخلاق وجدنا أن حسن الأخلاق قد يكون موجوداً فى الأمم التى على الفطرة التى لا تعرف الحضارة . وإذا قيل الذكاء والفهم والحكمة وجدنا هذه الصفات عند بعض قبائل البدو الذين لا يمتنون إلى الحضارة بسبب . وإذا قيل إن الحضارة فى الثراء والبذخ وجدنا الثراء مدخراً ومكنوزاً عند من لا يعرف الحضارة . وإذا قيل إن الحضارة فى انتهاز فرص اللذات والمسرات وجدنا أن الهمج من الناس قد ينهمكون فى اللذات كما تفعل أصناف كثيرة من الناس . ومن أجل ذلك كان تعريف الحضارة من أصعب الأمور . ولو أن اسمها يجرى فى أفواه الناس كل يوم . فالتعرف وحده لا يتم الحضارة ويكوئنها ، ولا العلم وحده ولا الذكاء والفهم وحدهما ولا طيب الخلق وحده ، ولا انتهاز فرص المسرات ولا الابتكار فى الفنون كالشعر والنحت والتصوير فنون كانت راقية قبل الحضارة .

لقد خلف لنا ثيو كيديدس المؤرخ الأثينى فى كتابه المسمى حرب البلوبونيز خطبة بركليز السياسى الأثينى وهو يؤمن قتلى حرب البلوبونيز . وفى هذه الخطبة يصف بركليز صفات العظمة فى الحضارة الأثينية ، أو الصفات التى يرى أنها جديرة أن تكون مقياساً للحضارة وإنها أحق بالرعاية والتنمية . وقد اقتبس كثير من المؤرخين جملاً من تلك الخطبة التى يعدها المؤرخون من أعظم الخطب سواء أكان بركليز واضعها بالنص ، أم صاغ ثيو كيديدس فى كلامه ماعلق بذهنه منها . ففيها نرى التسامح بين أبناء الأمة الواحدة والعدل فى صيانة الحقوق ، والثقافة المؤسسة على الفهم والعمران المبنى على الذوق والتمييز . والاستعداد للدفاع عن الدولة من غير خشونة أو مغالاة تقضى على الجوانب الأخرى من الحياة ، ونرى الحرية اللازمة لاختلاف الطبائع والأمزجة ، تلك الحرية التى تمنع من صب الناس فى قالب واحد وقسرهم على رأى واحد ومسلك واحد نظرية واحدة ونظر واحد إلى الحياة .

وقد نظر الكتاب فى الحضارات المختلفة فوجدوا ان الحضارة تكون أعظم ازدهاراً وابتكاراً وأطول عمراً وأكثر تجدداً إذا كان فيها نصيب موفور من تلك الحرية اللازمة لاختلاف الطبائع والأمزجة ، وتكون أقصر عمراً وأقل ثمرة وازدهاراً اذا فقدت تلك الحرية ، وحاولت الدولة صب الناس فى قالب واحد وقهرهم على أن تكون طبائعهم وأمزجتهم متشابهة .

وقد غالى بعض الكتاب فذكر ان حرية الطبائع والأمزجة خصيصاً اختصت بها الحضارة الأوربية دون غيرها من الحضارات ولاسيما الحضارات الشرقية . ومن أجل ذلك بادت الحضارات الشرقية ولم تبتد الحضارة الأوربية . وقد نسوا ان بعض الحضارات الشرقية كانت أطول عمراً ، وان الحضارة الأوربية القديمة التى وصفها بركليز فى خطبته التى أشرنا اليها بادت كما باد غيرها ، وأن الحضارة الأوربية الحديثة قريبة العهد لا يصح الحكم فيها وفى أجلها .

قال فرنسوا جيزو المؤرخ والسياسى الفرنسى ووزير الملك فيليب لويس جيزو وهو واضع كتاب تاريخ الحضارة الأوربية . ان الحضارات الشرقية كانت مؤسسة على مبدأ واحد أو نظرية واحدة أى كل حضارة على نظرية ، وان اختلفت مبادئ الحضارات .

والقارىء يرى فى كلامه بعض ما يشعر إنها كلها على نظام واحد ونظرية واحدة ويقول إن الحضارة الأوربية مؤسسة على اختلاف المبادئ وتباين الأسس ، وتفاوت النزعات مما يؤدى الى بقطة العقول والنفوس ، وإلى الابتكار والتوليد والابتداع . وقال جون ستوارت ميل المفكر والفيلسوف الانجليزى فى كتابه المسمى كتاب الحرية . إن الحرية التى تسمح باختلاف الأفكار وحدها لا تكفى لتقويم الحضارة بل لابد من الحرية التى تسمح باختلاف الطبائع والأمزجة والنزعات النفسية وذكر أن تعاضم الحضارة الأوربية إنما كان بسبب تلك الحرية التى تشبع الطبائع المختلفة . وان ركود الحضارات الشرقية كان بسبب فقدان تلك الحرية ومحاولة قهر الناس على طبع ومزاج واحد . فركدت النفوس والعقول وانقطع عهد الابتكار والابتداع وركدت الحياة عامة .

وعندى أن هذه الآراء قراءة للحقائق عكساً لا طرداً كمن يقرأ الكتاب من آخره كى يصل الى أوله وذلك للأسباب الآتية :

أولاً : إن الحرية اللازمة لاختلاف الطبائع والأمزجة ليست دائماً سبباً للقوى الحيوية فى الحضارة ، بل قد تكون نتيجتها . فالقوى الحيوية فى الطبائع والأمزجة قد تسبب الحرية وتضمنها وتجعلها قضاءً محتوماً بالرغم من قهر وكبت ، وبالرغم من محاولة صب الناس فى

قال واحد . وأن استبداد العادة الذي يحكى عنه جون ستوارت ميل فى كتاب الحرية قد يكون نتيجة لضعف الطبائع والأمزجة مهما اختلفت . وأن الحكومات الاستبدادية وجدت فى أوروبا كما وجدت فى الشرق . وقد اعترف جون ستوارت ميل فى كتابه إن الحرية اللازمة لاختلاف الطبائع والأمزجة ظهرت فى أوروبا بسبب القوى الحيوية فى النفوس حتى فى عصور الرعم والقهر .

ثانيا : إن شرط الحرية اللازمة لاختلاف الطبائع والأمزجة ليس خاصا بالحضارة الأوربية ، فلو درس هؤلاء الكتاب الأفاضل الحضارات الشرقية أو العالمية فى أبنائها وجدوا أن حرية الطبائع والأمزجة موفرة حتى فى عصور الاستبداد والقهر . فقد كانت موفرة فى حضارة الأندلس العربية كما كانت موفرة فى الحضارة العباسية فى أشد عصور خلفاء العباسيين بأسا وقوة . ويكفى أن نقرأ كتب الأدب والعلوم العربية لنعرف الى أى حد بلغت حرية الطبائع والأمزجة . نقرأ عن باحث خصص حياته لدراسة النمل وعاداته ، وأنه كان إذا تكلم فى النمل قضى ساعات طوال لا يمل ولا يمل سامعه . ونقرأ بجانب ذلك وصف الولايم التى كانت تبلغ غاية المجون فأى اختلاف فى الطبائع والأمزجة أكثر من هذا الاختلاف .

ثالثا : إن عصر حرية الطبائع والأمزجة اللازمة لازدهار الحضارة . لاهد من أن يسبقه عصر توحيد للقوى وهذا العصر السابق هو عصر قيام الدول ونشأتها ، وتأسيس بأسها وسطوتها ولولا هذا العصر الذى هو عصر الجماعة ويسود فيه مذهب الجماعة لامذهب الفردية ما أمكن أن يكون بعده عصر الحرية الفردية ، لأن العصر السابق عصر توحيد الجهود النفسية والفكرية، وعصر الغلبة الذى يجلب للأمة الاطمئنان إلى عصر الحرية الفردية اللاحق به . والحرية الفردية هى حرية اختلاف الطبائع والأمزجة .

رابعا : إن تلك الحرية الفردية كثيراً ما يعقبها عصر اضمحلال إذا بلغت الحرية الفردية غايتها وضعفت الطبائع والأمزجة وعندئذ لا يغنى اختلاف الطبائع والأمزجة عن ضعفها ، ولا يشمر ولا تزدهر الحضارة معه . وقد يتجى من ذلك الاضمحلال خطر خارجى داهم يضطر الشعب الى توحيد الجهود النفسية والفكرية إذا استطاع . ولم تكن الطبائع والأمزجة قد ضعفت ضعفاً لا أمل معه . أما إذا كانت الطبائع قد ضعفت واضمحلت وصارت نزعاتها سطحية فلا أمل فى توحيد الجهود النفسية والفكرية بالرغم من كل محاولة وبالرغم من كل خطر خارجى داهم .

خامساً : إن تعاقب عهود اندماج الفرد فى الجماعة وإطلاق الحرية للفرد الى أقصى حد مستطاع وغير مضر تعاقب يصلح الشعوب الاتسانية ، وهو أمر مشاهد فى التاريخ لأن اندماج الفرد فى الجماعة كما أنه يوحد الجهود النفسية والفكرية ، ويمنع زيف طبع الفرد ومزاجه كذلك قد يضعف طبع الفرد ، وإذا ضعفت طباع الأفراد ضعف طبع الجماعة . وإطلاق الحرية لطبع الفرد ومزاجه كما إنه يؤدي إلى تقوية طبع الفرد ، وإلى استيعاب جميع مظاهر الحياة وإلى تشعب مسالك الفكر والمطلب الذى يؤدي الى ازدهار الحضارة ، فإنه كذلك قد يؤدي إلى زيف وضلال وشطط فى الطبائع الفردية ، وقد يستهلك قواها . ومن أجل ذلك يتعاقب العهدان لما فيه خير الشعوب ، وقد يتعاقبان لما فيه ضررها ، إذا أتى مثلاً بعد عهد فوضى الطبائع الفردية عهد قهر مرهق من عهود اندماج الفرد فى الجماعة فيقتضى على البقية الباقية من قواها ، فيكون الفساد حيث يراد الإصلاح بالقوة .

سادساً : ينسى الكتاب الأفاضل عند تعليل ركود الحضارات الشرقية فى عهد ازدهار الحضارة الأوربية أمر هامة منها : إن الحضارات الشرقية تسلمتها قبائل وشعوب لها طباع فاضلة ولكنها أقل استعداداً لتنمية الحضارة وإعلانها من القبائل والشعوب التى تسلمت الحضارات الأوربية القديمة ، وليس المراد الحكم على شعب أو قبيلة حكماً أبدياً ، وإنما هو حكم الماضى من التاريخ فالقبائل التيوتونية التى تسلمت الحضارة الأوربية القديمة كان عندها استعداد فى ماضى تاريخها لتنمية الحضارة أكثر من استعداد قبائل التتر والمغول والأتراك التى تسلمت الحضارة الشرقية . ولاسيما أن الطبائع الفردية فى الشرق انتابها عهد بعد عهد أضعف قوتها على إختلال مصادر هذا الضعف وأسبابه .

ولاننكر ان نظم الحياة والحكم التى نمت فى أوربا قديماً وحديثاً والتى ورثها الشرق الآن بورائته نظم الحكومات النيابية المنتظمة ، ربما كانت أدعى إلى صيانة حرية الطبائع والأمزجة . التى يقول المفكرون إنها من أهم مقومات الحضارة . بل هى الصفة اللاصقة بالحضارة ، والتى لا تكون إلا بها فى نظرهم . وهذه النظم النيابية هى أيضاً نتيجة أكثر منها سبباً ، أى إنها نتيجة القوى الحيوية فى الطبائع والأمزجة والنفوس . على أن هذه النظم فى غير البيئة الصالحة لها ، قد تؤدي إلى استبداد ثثة قليلة من الأسر البيروقراطية وأعوانها .

٤١ - السلم الدائم والحلف العام *

"الناس كلهم إخوة والدنيا وطن كل إنسان" ١١ زينون : الفيلسوف الإغريقى

بدأ الإنسان مغيراً بطبيعته غاضباً فكانت تغير القبائل الأقل حضارة على البقاع الغنية الأكثر حضارة فإذا جمعت هذه بين الحضارة والقوة صدمتها وإلا غمرتها الأولى وبدأت الحضارة تنمو من جديد كما حدث فى مصر فى عهد الهكسوس وفى بابل فى عهد البابليين والآشوريين، والكلدانيين ، وفى كنعان عند دخول اليهود ، وفى البلقان عند إغارة الأغريق على الإيجيين الذين أسسوا الحضارة الإيجية ، وفى آسيا الصغرى عند هجوم القبائل الآرية المختلفة . ولكننا مع ذلك نجد العقل البشرى فى نظره إلى الإنسانية يتغير ويقابل ذلك تغير فى الكتب السماوية القديمة كما هو ظاهر من مقارنة أسفار التوراة الأولى التى كانت تحث على سفك الدماء بالأسفار الأخيرة التى ذكر فيها السلم الدائم ، وإخوة الناس فى الإنسانية ، والمساواة بين القوى والضعيف ، ولو أن كل ذلك ممزوج بفكرة سيطرة اليهود . وكذلك ترى الأغريق كانوا فى أول أمرهم يتسممون العالم إلى أغريق وبرباريين ، وكانت كلمة بارباريين تشعر بشيء من الغربة والاحتقار مثل كلمة جنتيل عن اليهود .

ولكن فى النهاية صارت الفلسفة الأغريقية تنظر نظرة أعم إلى الإنسانية ولاسيما مذهب زينون . ومن المأثور عنه قوله "إن الناس كلهم إخوة والدنيا وطن كل إنسان" إلا أننا مع ذلك لا نجد محاولة لتأسيس حلف عام ، لقد تحالفت بعض المدن الأغريقية لأغراض دينية كمرعاية المعابد أو لتقرير ما يجوز عمله فى الحرب وما لا يجوز وهو عمل إنسانى وهو ما قام به الحلف الامفكتيونى ، أو لأغراض سياسية كصد الفرس وهو غرض حلف ديلوس الذى تحول إلى امبراطورية أثنية ونشوة القوة والظفر ، ولدت الصلف والكبرياء الحربى وحب الاعتداء فأغارت أثينا على سرقوزة فى صقلية . وإذا قرأنا ما كتبه ثيوكيديدس وجدنا أنه يعزو الى الإثنيين الآراء والأقوال التى كنا نسمع بها عن النازيين والفاشست أى قولهم أن الحرب واجبة، وأن من حق القوى أن يستعمل قوته ، وأن يسيطر على الضعيف . ولكن هذا الاعتداء كان من أسباب سقوط أثينا ، وصار ملك الفرس حكماً بين الدويلات الأغريقية إلى أن ظهرت مقدونية وسطا الإسكندر المقدونى على الشرق .

ومن الأساطير المأثورة أنه وجد في بلدة بها عقدة قيل إن من يستطيع فكها يسود العالم ، فأخرج الاسكندر سيفه وقطعها به بدل أن يحاول حلها وهذه هي العقدة المعروفة بالعقدة المعروفة بالعقدة الجوردية فصارت مثلاً يتمثل به في السياسة عندما يحاول أن يحل إنسان مشكلة دولية بالسيف بدل حلها بالتفاهم والمفاوضة والتراضي وتجزأت دولة الاسكندر بعد موته وغزت روما أكثر العالم المتحضر حول البحر الأبيض وما يلي ذلك واستغلت الدول وفاخرت بالسلم الروماني ولكنها لم تستطع منع الحرب حتى بين جيوشها ، ثم سقطت . وكان يظن أن المسيحية ستمنع الحروب وتحقق السلم العام فإذا كل ذلك حلم جميل وكانت الفكرة السائدة أن العالم المسيحي عالم واحد وأمة واحدة ، ولكنها فكرة لم تحقق كما أن الأوروبيين كانوا يعدون باقي العالم من غير المسيحيين خارجاً عما تقتضيه العهود المرعية . وما لبث أن ظهر فشل البابوات في تكوين إمبراطورية دينية عالمية ونشأت فكرة التوازن الدولي .

وكان أول من جاهر بضرورة حلف دولي عام سولي وزير هنري الرابع ، ولكننا لو فحصنا هذا المشروع وجدنا تحته أغراضاً سياسية خاصة بفرنسا وتأمينها وصيانة سلامتها من دول أسرة الهابسبرج التي كانت تخشاها كما تخشى الدول الجرمانية في العصر الحديث ، والحقيقة أن كل مشروع من هذه المشاريع إنما يلجأ إليه الساسة عند الضرورة . ثم أننا نجد الدول الأوربية في عهد لويس الرابع عشر صارت تنادى بضرورة التحالف ضده لمنع اعتدائه على جيرانه الضعفاء ، وكثر الكلام في ضرورة تأمين الضعيف من سطوة القوى ولكن الدول ما لبثت أن اقتسمت مع حفيده شعوب الامبراطورية الإسبانية الضعيفة .

ثم جاءت الثورة الفرنسية فخطب الثوار الفرنسيون زاعمين أنهم يريدون خير الإنسانية وكان منهم من يسمى نفسه خطيب الإنسانية أو محب الإنسانية ، وكانت أكبر سبة عندهم أن سموا الوزير الانجليزى عدو الجنس البشرى ، وأعلنت الحكومة الفرنسية أنها حليفة لجميع شعوب العالم ضد الطغاة ووعدت الشعوب المغلوبة على أمرها بتحريرها . ومن العجيب أن بعض الأدباء بيننا ممن تشقف بالثقافة الأدبية الفرنسية ولم يع عظات التاريخ كان إلى عهد قريب لا يزال يغتر بهذه الأقوال التي ظهر بطلانها من عهد بعيد ، فقد صارت جيوش الجمهورية الفرنسية جيوشاً غازية مستعمرة مستغلة ، واستفحل ذلك في عهد نابليون بونابرت فاتحدت ضده الدول وزعمت أنها تحاربه كي تحرر العالم من طغيانه ، وصارت تعد كل أمة بالحرية ، ولكن ما لبث أن سقط نابليون حتى اقتسمت الدول المتحالفة شعوب العالم ونسيت وعودها . وصار نابليون ف منفاء يلقي على تابعه ممثلون أحاديث السلم العام والحلف الإنسانى الذى عهد لابنه أن يحققه عند ما يستطيع أن ينال الملك . وفي هذه الأحاديث يقول نابليون إن الحلف الانسانى لا يحقق بقطع العقدة الجوردية بالسيف كما فعل الاسكندر وكما

فعل هو وإنما يكون بالتفاهم . هذه بعض أحداث نابليون في جزيرة هيلانة التي نفى إليها وهي أحداث تخالف تاريخ حياته بعض المخالفة على الأقل . ومن الغريب أن خصمه اسكندر الأول قيصر روسيا طلع هو أيضاً على الدول بفكرة حلف عام أسماه الحلف المقدس يتعهد فيه المتحالفون أن يعاملوا رعاياهم حسب مبادئ المسيحية . وقد رأت بعض الدول في هذا رغبة من روسيا في إخراج تركيا المسلمة ونيل مآربها الاستعمارية منها . وعلى أي حال فإن دول هذا الحلف كانت مشغولة بمكافحة نزعات الحرية والوطنية التي ظهرت بين الشعوب الأوروبية التي كانت خاضعة لها . وتم توحيد ألمانيا وإيطاليا وظهرت دول كانت شعوبها مغمورة ، ولاح أن العالم مسوق إلى حرب عالمية كبيرة لاختلاف مطامع الدول ومصالحها ، ففكر الساسة في التحكيم الدولي ؛ وتأسست محكمة لاهاي ، كما فكروا في الحد من التسليح . ولكن كل هذا لم يقد لمنع الحرب وهكذا انتقاد العالم إلى الحرب العالمية الأولى التي ظن أنها خاتمة الحروب ، وتأسست عصبة الأمم بعد أن طلع الرئيس ولسن بشروطه ، وتلقاه العالم كأنه رسول السلام ، ولكنه أطمع الشعوب أكثر مما أشبعها ، فخاب أكثر مما نجح ، وتغلى عنه نواب الشعب في أمريكا فتدخلت أمريكا عن عصبة الأمم ولم تفلح تلك العصبة في منع الحروب . وقيل إن سبب ذلك إنها لم يكن لها جيش دولي ويخيل لي أن الساسة يغالطون أنفسهم في هذا الجيش الدولي إذ كيف يكون جيشاً دولياً يخلص أحاده لغير دولهم إذ كانت هي المعتدية أليس يكون منقسماً على نفسه .

ولقد دهمت الحرب العالمية الثانية العالم وهي تنذر بحروب أخرى . ولم نسمع أن الدول استطاعت تكوين جيش دولي حقيقى وإنما هي أجزاء من جيوش الدول كل جزء مطيع لحكومته ودولته . ولا تزال الدول مختلفة في المبادئ والأطماع والنفس الإنسانية كانت ولا تزال يقودها الطمع . وقد زعموا أن الخوف سيجنعهما من حرب أخرى . ولكننا لا نرى الخوف من القنبلة الذرية قد قلل أطماع النفوس ، ولا صرف الناس عن التسليح والاستعداد الحربي ، ولا حل مشكلة اختلاف المبادئ ، فإذا ذلك الخوف لن يعصمهم من حرب أو حروب أخرى . بل ربما كان الخوف من أسباب تلك الحرب كما يزعمون ، وإذا لم يكن الخوف فالطمع والجشع واختلاف المبادئ . والنفس الإنسانية تعرف أنها تستطيع أن تعوض خسائرها مهما عظمت . فلو هلك نصف سكان العالم لاستطاع النصف الباقي أن يعود إلى ما كان عليه العالم من الازدحام بالناس . وقد كانت بعض بقاع العالم عامرة فخريتها الحروب الماضية ولا تزال خراباً ولم يمنع ذلك الناس من معاودة الحروب ، ولم تكن هذه الحروب العالمية الحديثة أول صنف من الحروب التي يهلك بسببها الملايين من الناس . على أنه لو حاول العالم أن يتعظ ويمنع الحرب لكان ذلك بحرب أخرى لإرغام من لم يتعظ ، وكل حرب توطئة لحرب أخرى في المستقبل .

ولقد قال جان جاك روسو "منع الحرب لا يكون إلا بحرب أشد من كل حرب" وعندى أن هذا هين إذا استطاعت تلك الحرب الشديدة أن تمنع كل حرب ، فإن الظاهر من عظات التاريخ أن كل حرب تبذر بذور حرب جديدة فى المستقبل وتهىء أسبابها ولكن ليس من المستطاع أن يتجنب العالم الحرب إن لم يكن ذلك للرجبة فى اعتداء جديد فبمسبب اعتداء أو ظلم قديم . وهذه الحرب العالمية الثانية لم تغير طباع النفس الإنسانية ومادامت المنافسة أساس الحياة والعمران بين الأفراد والجماعات صعب التعاون الذى يمنع الحرب . ومن الصعب وضع حد للمنافسة حتى لا تتعداه فتؤدى الى الحرب ، وما عدا ذلك مغالطة فى القول . وما يدل على قلة ثقة أهل السياسة بمجلس الأمن العام وهيئة الدول المتحدة أنهم بدأوا يفكرون ويدعون الى وسائل أخرى لمنع الحرب ، فبعضهم يدعو الى انشاء ولايات متحدة أوربية بين ممالكها ، والظاهر أن المستر تشرشل صاحب هذه الفكرة لا يعرف أن النجاح فى انشائها ليس بأقرب الى التحقق مع اختلاف الأطماع والمبادئ . أو أنه يعرف ولكنه يخفى ما يعرف لسبب ما . وبعض أهل السياسة يدرك الصعوبة فيدعو إلى تحالف الدول الأربع الكبرى وتفاهمها ، وهذا لا يكون إلا على حساب دول كثيرة صغيرة . مما يؤدى إلى الحرب التى يراد تجنبها فى المستقبل . وما يزيد المعضلة الدولية تعقداً بدأ النزاع بين الشيوعية والرأسمالية . وفى الدول التى نظامها رأسمالى يراد إقناع الطبقات الفقيرة بترفيه اجتماعى نسبى سيكون حملة على الطبقات الدنيا الفقيرة من الطبقات الوسطى ، لأن أفرادها هم أكثر أفراد الأمة ولأنهم أقل نفوذاً من الطبقات العليا ، ولأن المتحصل من الضرائب عليهم وإن كانت تصاعدية أكثر من المتحصل من غيرهم لكثرة عددهم ، وسيكون حملة أيضاً على الأمم الضعيفة ، ولاسيما الزراعية لأنها تستثمرها الأمم الصناعية القوية حتى فى التجارة المشروعة وهذه الوسائل وهذا النزاع مما ينذر أيضاً بحرب فى المستقبل .

لقد رأينا أن الإنسان من قديم الزمن فكر فى أن الناس كلهم أخوة وأن الدنيا وطن العالم . ولقد رأينا أن الدول فى كل عصر تحاول اكتساب الأنصار بالدعوة إلى السلم والإخاء الإنسانى إذ خافت أن يمسها الضرر ، فإذا تحكمت نسيت دعوتها . وقد رأينا أن الأمل فى هذا السلم الإنسانى الدائم كان مخدراً تهية الحياة للناس كى يستطيعوا أن يعيشوا حتى يصابوا بحرب مهلكة . فهو من سنن الحياة . وقد رأينا أن الساسة غير واثقين من وسائلهم الحديثة لمنع الحرب . وأن أطماع النفس لم تتغير . وأن خير ما فى النفس قد يؤدى إلى الحرب كما يؤدى شر ما فيها . وأن الإنسانية تعودت أن تستعيض عما خسرتة ، فى كل حرب ، فألفت ذلك واطمأنت .

٤٢- الحرب تؤدي إلى الحرب*

كل حرب ناتجة من حرب أو حروب سابقة ومؤدية إلى حرب مستقبلية مادامت المنافسة سنة العمران وما دامت الأمم تختلف في مقدار قوتها وبأسها ونظامها ، وأوضح ماتكون هذه الحقيقة في الحروب العالمية الكبيرة التي تخلف مشكلات واسعة النطاق ولكنها تصدق أيضاً في الحروب الصغيرة . وإن خفيت وغمضت أحياناً . وقد تكون تأدية الحرب إلى الحرب بطريقة غير مقصودة وبعيدة عن أغراضها . أو قد تكون بطريقة متصلة بأسبابها : فإذا نظرنا في تاريخ مصر الحديث وجدنا أن واقعة التل الكبير كانت منذرة بواقعة أم درمان وباطماع إيطاليا في الصومال والحبشة وحروبها فيها .

وإذا رجعنا إلى عهد الخديوي اسماعيل باشا وجدنا أن الحرب الداخلية في الولايات المتحدة في أمريكا الشمالية كان لها أثر في مصر فإن انقطاع ورود القطن الخام من الولايات الجنوبية إلى مصانع إنجلترا بسبب محاصرة أسطول الشمال لها أدى إلى الإكثار من زراعته في مصر وإلى ارتفاع ثمنه ارتفاعاً كبيراً أغرى الحكومة والشعب بالإنفاق عن سعة . فلما انتهت تلك الحرب هبطت الاثمان وكان كثير من الناس يظنون أن هبوط الثمن هبوطاً كبيراً إنما هو أمر مؤقت وإنه سيعود إلى الارتفاع وهذا مثل ما زعم الناس في أعقاب الحرب العالمية الأولى التي أدت إلى إفلاس كثيرين لاعتمادهم على عودة ارتفاع ثمن القطن بعد هبوطه ولم يصدقوا أنه هبوط دائم . وهذا الاتفاق عن سعة كانت له أسباب أخرى منها توقع إزدياد ثروة مصر زيادة كبيرة بسبب فتح قناة السويس لمرور تجارة العالم بين الشرق والغرب بها وربما كان سبب هذه الفكرة ما كان يذيعه المروجون لفتحها ، وأيضاً القياس على ثروة سلاطين المماليك وهو قياس لا يصح ، أولاً - لأن تلك الثروة كانت من الضرائب الكبيرة التي كانت تفرض على تجارة المرور وليس للدولة مثلها في قناة السويس .

وثانياً - أنه كانت الصناعات يدوية في ذلك العصر كانت تقع على طريق مرور التجارة وتنتفع بها وتنفع الدولة والأمة . ومن أسباب الاتفاق عن سعة أيضاً تعجل ثمرات الإصلاح والاعتماد عليها قبل أوان حلولها ، وارتفاع ثمن القطن بسبب تلك الحرب الداخلية كان من الأسباب . وهذا الإنفاق عن سعة أدى إلى تداخل الدول ثم بحلقات متصلة إلى الثورة

العربية. وإذا نظرنا الى حروب محمد على باشا وجدنا أيضاً حرباً منها تؤدي الى حرب . وإذا بحثنا تاريخ الولايات المتحدة وجدناه يسير على هذه القاعدة فحرب السنوات السبع التي نشبت بين المجلترة وفرنسا وأدت إلى انتقال كندا من فرنسا إلى المجلترة أشعرت سكان المستعمرات الانجليزية في الولايات المتحدة الأمان بسبب زوال الخطر عليهم من ناحية مستعمرات فرنسا . واستشعارهم الأمان أدى الى نقد خطة المجلترة الاستعمارية نحوهم وإلى السخط من أوجه الأثرة فيها ولاسيما احتكارها الصناعة والتجارة فكان ذلك هو السبب الحقيقي لحرب استقلال الولايات المتحدة . وإن كان السبب الظاهر تشبث الحكومة الانجليزية بضرية دخلها قليل ولكن النزاع كان على المبدأ . فحرب السنوات السبع مهدت لحرب استقلال الولايات المتحدة وهذه الحرب الأخيرة مهدت للحرب الداخلية لأن هذا الاستقلال أدى الى اعتماد الولايات الشمالية منها على صناعاتها وتجارتها بدل الاعتماد على الصناعات الإنجليزية وكان لتلك الولايات ميزات صناعية . ولكن الصناعة الناشئة فيها كانت تحتاج إلى حماية فكان هم تلك الولايات فرض الضرائب على الصناعات الأجنبية لحماية مصنوعات من منافستها وأن لا تفرض على المزروعات كي تقل نفقات الصناعة ولم يكن يهمها أمر الرقيق . ولم تكن في حاجة إليه لأن الجو يناسب العمال البيض . أما الولايات الجنوبية فكانت على عكس ذلك يهمها رخص المصنوعات الأجنبية وحماية مزروعاتها بالضرائب على المزروعات الآتية من الخارج . وكان يهمها بقاء تجارة الرقيق وزيادة الولايات المعتنقة لمبدأ تجارة الرقيق بين الولايات الجديدة . ولما كانت الولايات الشمالية صارت أكثر ازدهاراً بالسكان البيض فقد كثر عدده نوابها وخشيت الولايات الجنوبية سيطرة الولايات الشمالية فقررت حقها في الانفصال عن الوحدة ولو فازت هذه النظرية التي تعطي الولايات حق الانفصال لتجزأت الولايات المتحدة ولم يكن لها أثر في سياسة العالم .

ومن أجل ذلك قاتل أهل الشمال لحماية الاتحاد وصيانة الاتحاد أدى إلى تعاظم الولايات المتحدة وإلى اشتراكها في حروب آخرها الحرب العالمية الثانية . وإذا رجعنا الفكر الى العالم القديم رأينا أن حرب فرنسا وبروسيا سنة ١٨٧٠ وحرب تركيا والروسيا سنة ١٨٧٧ - ١٨٧٨ هيئت أسباب الحرب العالمية الأولى . ففي الحرب الفرنسية البروسية سنة ١٨٧٠ انتزعت بروسيا الإلزاس واللورين من فرنسا وأخذت منها غرامة كبيرة ساعدتها في نمو شأنها . وأدت الحرب إلى تأسيس الامبراطورية الألمانية الحديثة وصارت هذه الامبراطورية تدفع بالدول إلى ميدان الاستعمار لأسباب كثيرة منها تصريف الزائد من مصنوعات التي زادت زيادة

كبيرة لم يكن لها مثيل في ماضى تاريخها ومنها الرغبة في إيجاد مأوى لمن يهاجر من سكانها . ومنها أن تشغل فرنسا بالاستعمار عن التفكير في استعادة الألزاس واللورين ، ومنها محاولة إيقاع الدول المستعمرة في نزاع كي تكون المانيا حكماً بينها . وكل هذه الأمور هيأت الحالة النفسية والمادية التي أدت إلى الحرب العالمية الأولى وإن كانت شغلها في البلقان بسبب جريمة سير اجيفو عندما قتل بعض الشبان من صقالبة الجنوب المؤتمرين في الصرب الغراندوق فردناند ولى عهد النمسا وزوجه . ثم أن نيل صقالبة الجنوب مآربهم من تركيا بحري ١٨٧٧ و ١٩١٢ كان مندرأ بحرب أخرى بينهم وبين النمسا لتحرير المقاطعات النمسوية والمجرية التي يسكنها الصقالبة . فالحرب العالمية الأولى ناتجة من حروب سابقة حسب القاعدة العامة .

وإذا نظرنا إلى الحرب العالمية الأولى وإلى عواقبها رأينا أنها لم تمح مشكلات العالم بل زادتها وهيأت أسباب الحرب العالمية الثانية لأن الحرب العالمية الأولى زادت مشكلة الشعوب الألمانية وخلقت مشكلات في بحر البلطيق وأواسط أوروبا والبلقان وأدت بحلقات متصلة إلى البلشفية والفاشية والنازية وخلقت بين ما خلقت مشكلة المعر البولوني الذي أشعل نار الحرب العالمية الثانية وإن كانت أسبابها متعددة ناشئة من كل ما خلقت الحرب الأولى من مشكلات .

وإذا مارجعنا إلى ما قبل حرب فرنسا وبروسيا سنة ١٨٧٠ رأينا ان هذه القاعدة تصدق أيضاً ؛ أى أن كل حرب تؤدى إلى الحرب فإن حرب فرنسا وبروسيا سنة ١٨٧٠ كان ظاهر سببها ترشيح أحد أمراء أسرة الهوهنزولرن التي كانت تحكم بروسيا كي يكون ملكاً لاسبانيا فرأت فرنسا في ذلك تهديداً لها ولسلامتها من ناحيتين فرفض هذا الأمير العرش الإسباني وكان هذا يكفي لتهدة فرنسا ولكنها أبت إلا أن تذل بروسيا بأن تتعهد لها هذه إن مثل ذلك لا يحدث في المستقبل فإن مثل هذا التعهد لقيمة له إلا إرادة اثاره نزاع جديد. وكان بسمارك السياسى البروسى يرى أن المانيا لا يتم اتحادها إلا إذا قهرت فرنسا وأبعدت عن نهر الرين لأن فرنسا كانت لها أطماع في الدول الرينية . وقد نشر بسمارك الوثائق الكتابية التي تثبت ذلك فكان هذا مما أدى إلى امتعاض الدول من فرنسا ووقوفها موقف الحياد عندما هزمها الألمان واطماع فرنسا في الأراضي الرينية ظهرت أيضاً في عهد نابليون وفي عهد الدركتوار وفي الثورة الفرنسية . وقبل ذلك في عهد لويس الرابع عشر الملك البوربونى . وقد فقدت فرنسا كل ما غزته أيام الثورة الفرنسية وأيام نابليون ولكنها لم تفقد الأراضي الرينية التي استولت

عليها أيام البوريون . ومن أجل ذلك قال بسمارك لبعض الساسة الفرنسيين "نحن إنما نحارب لويس الرابع عشر " وهذا دليل قاطع أن حروب لويس الرابع عشر بذرت بذور حرب ١٨٧٠ .

ويطول المقال إذا تتبعنا الحروب واحدة بعد واحدة ورأينا كيف تصدق هذه القاعدة فيها فنرى أن كل حرب تؤدي الى حرب فى المستقبل .

ولكن بعض المفكرين يقولون إن الحرب العالمية الثانية تختلف عن الحروب السابقة (أولاً) بسبب كشف سر القنبلة الذرية . (ثانياً) لوجود هيئة الأمم ومجلس الأمن العام . أما هيئة الأمم فلا أراها تختلف اختلافاً كبيراً عن عصبة الأمم فى الجوهر . وأما القنبلة الذرية فإنها قد لاقمت الحروب لأسباب (أولاً) ان الأبحاث الذرية تقوم بها الآن دول كثيرة وليس من المستطاع الإشراف على كل بقعة فى العالم لمنع صناعة القنابل الذرية. (ثانياً) إذا عرفت دول متعددة سر هذه القنبلة فمن الجائز ان تحدث حرب لاستخدم فيها كما لم يستخدم غاز الخردل فى الحرب الثانية فى أوروبا (ثالثاً) على فرض أنها استخدمت فمن الجائز أن يكون أثرها فى قصر مدة الحرب أكثر من أثرها فى القتل والتدمير وإن كان عظيماً . ففى الحروب الماضية كان الملايين من الناس يموتون فى حرب أو عدة حروب بينهما فترات استجمام ولكن أسبابها لاتتغير، فكانت مدة الحرب المتصلة الأسباب أطول ولكن الهلاك فيها أو بعدها بسبب المجاعات أو الأوبئة أو بسبب قتل الأسرى أو تعذيبهم أو إهمالهم أو استعبادهم لا يقل كثيراً عن الهلاك فى الحروب الحديثة السريعة . والتخريب قديماً وإن ضعفت أدواته كان تخريباً شاملاً حتى ان بعض الغزاة كان يقال عنهم ان النبات لاينبت فى أرض دمرتها جنودهم فكانوا يدمرون المدن ويقتلعون النبات والأشجار ويبدلون الملح فى الأرض أو يسقونها بماء مالح كى لاتنبت شيئاً . ومن المعروف ان بقاعاً كانت عامرة هى الآن قليلة السكان والعمران بسبب تلك الحروب أو كانت الحروب من بعض أسباب خرابها أو تأخرها . ويبالغ أهل العصور الحديثة فى زعمهم إنهم أرق إحساساً من أهل العصور السابقة وإنهم بسبب ذلك سيتتهون عن الحروب وعن القتل والتدمير . فإذا قسنا رقة الشعور بالنزعات الإنسانية فى كل عصر كانت نزعات خير وأحلام بالسلام وإذا قسناها بآلات القتال فالعصور الحديثة لم تحجم عن استخدام آلات أشد هولاً من آلات القتال القديمة . ثم ان الظاهر أن الأمم قد تصاق إلى الحروب سوقاً لأن الناس لا يسيطرون على نزعاتهم تمام السيطرة ولا يحكمونها حكماً تاماً والحرب الثانية لم تحل مشكلات العالم حتى يظن إنها خاتمة الحروب بل زادت بها تضخماً واستعصاءً بالرغم من هيئة الأمم المتحدة

ومجلس الأمن العام . والنزاع بين الشيوعية والرأسمالية يزداد استفحالا ومشكلة الشعب الألماني من العسير حلها حلا نهائيا ولا تزال شعوب كثيرة تتطلع إلى التخلص من النفوذ الأوربي وبعضها به نزاع بين طوائفها . وكل هذه المشكلات بذور لحرب مقبلة لاتقل عن بذور الحروب الماضية ولايستطاع القطع بأن الحرب لن تكون ونحن الآن فى فترة الاستجمام ولكنه استجمام كله متاعب إلا انه قد يبعد عن الأذهان خطر الحرب المقبلة حتى تنسى ذكرى المستر تشمبرلين قبل الحرب الأخيرة عندما عاد بالطائرة من ألمانيا إلى إنجلترا وصار يلوح للجماهير بورقة اتفاق مبونيج ويقول لقد كسبنا السلم !! ثم كانت الحرب بعد قليل . والحقيقة هى انه مادامت الأمم مختلفة فى مقدار قوتها ونظامها ومادامت المنافسة أساس العمران فمن الصعب تحقيق السلم الدائم . بل من المحال منطقيا أن يكون إذا لم نغالط أنفسنا فى معنى تلك المنافسة ولوازمها .

٤ - فى النقد^(*)

* - العنوان من عندى « المحرر » .

التمثيل (*)

أدواته - المحاكاة - الإقراط والتفريط

زعموا أن جاريك الممثل الإنكليزي خرج يوماً في رفقة له ، فلما توسطوا شارعاً قال لهم ما تقولون في ضحكة تضحكونها إذا كان من ورائها أن تساقوا إلى مركز الشرطة . فقالوا وقد لعبت بهم نشوة الفتوة لهانت علينا العاقبة إذا امتلأنا جذلاً وأن خليقاً بذى اللب أن لا يدع لعاذر مقالاً فيما يدخل السرور على قلبه . قال : نعم ثم ابتعد عنهم قليلاً وحل رباط رقبتهم ، وخرق قبعته ، وأسدل شعره على كتفيه ، وفك عرى سروايله (البنطلون) وحل رباط نعليه ، ثم جعل يلطم وجهه ويعدو وراء المارة حتى ذعر الناس منه ، وصاروا ينادون : اقبضوا على المجنون وهو يضحك ثم يبكي ويشور ثم يسكن ويصرخ ، ثم يثن . أما أصحابه فقد تملكهم الضحك ، واقتربوا الأرض ، بالرغم منهم وصاروا يطعنون الهواء بأرجلهم ، كما يفعل الطائر المذبوح ، ومازالوا كذلك حتى أتى الشرطي .

والغرض من ذكر هذه القصة بيان أن الممثل إذا أراد أن يمثل حالاً من الأحوال ، كان خليقاً أن يستكمل أدوات تمثيل تلك الحال ، وأن يراعى الأشياء الدقيقة التي تنقله من حال إلى حال . فلو أن جاريك لم يخرق قبعته ، ويحل رباط رقبتهم ورباط نعله ، لكان بعيداً عن حال المجانين ، مهما ادعى الجنون .

وما قولك في رجل يبرزه لك المسرح ، وقد انتظمت ثيابه حتى كأنه آت من أمام المرأة ، ثم يريد أن يوهمك أنه آت من مكان قصي ، وقد أعمل ساقيه لما بلغه أن أبا حبيبته قتل أباه ، وأنه من أجل ذلك ، خسرها ولو لم يكن من الأمر إلا أن في الانزعاج للملهمات غفلة ، لصح لنا أن ندرك عليه ما أدركناه ، فأين آثار السفر ، وما تتطلب الإجابة في التمثيل من أن تكون ظاهرة عليه .

قال اسحاق ديزرايلي : كانت بشرة بترتون الممثل تضرب فيها الحمرة ، ولكنه كان إذا مثل هاملت وبلغ إلى أن رأى خيال أبيه ، استحالت الحمرة إلى صفرة الموتى ، من غابة الوجع عليه ، وامتلكته هزة المروع . فلو أن خيال أبيه ظهر له حقيقة ، لما بعث فيه من الخوف والجزع ، أكثر من ذلك . ولقد كان لتمثيله وقع في النفوس النظارة حتى أنه ليشعرهم بهزة في عروقهم ، ويشركهم فيما اعتراه من الوجع .

* - الجريدة : ١٨ يونيو ١٩٠٨ ص ٢ ، ١ .

وقال ميشيل بارون الممثل الفرنسي الشهير أحسن ما يأخذ به الممثل من النصائح ، هو أن يجعل أعضاء جسده تبعاً لمواطنه المستفزة ، فإنها أعرف بمواطن استعمال كل حركة .

وينبغي للممثل نسيان أنه ممثل ، حتى يمكنه أن يرسل على تقاطيع وجهه هيئة المجنون أو العاشق أو البائس إلخ ولأجل الإجابة في ذلك ، كان خليقاً به أن يتصفح الأوجه وأن يتتبع الحركات ، ليقرأ ما تتضمنه من حالات الفرح والحزن والوجل ، وأن يقارن بين أقوال الناس وأفعالهم وبين ما تنم عنه أوجههم ، من المعاني حتى يتم له استكمال أداة من أدوات التمثيل ، وهي المحاكاة .

وإنى لأحسب أن الإفراط والتفريط اللذين قد جالا في أعمال المصريين مجالاً عظيماً ، قد ولجا إلى ما يعالجونه من صناعة التمثيل ، وأكثر ما يحدث الإفراط من أبطال الروايات ، وذو الأدوار المهمة ، فإن عرفانهم بقيمة الأدوار التي يمثلونها ، ورغبتهم في بلوغ منزلة الإجابة والتبريز ، قد تتعدى بهم حد الإجابة ، إلى ما وراء ذلك من الكلفة ، وأكثر ما يحدث التفريط من الخدم وذو الأدوار الثانوية الذين قصر بهم عدم إجهادهم قواهم عن بلوغ منزلة الإجابة . فالتفريط هو أن لا يستكمل الممثل أدوات التمثيل ، مثل أن ترى ممثلاً للجزع ، يكثر من استعمال الإشارات التي تدل على ذلك ، إكثاراً قبيحاً ، ومثله مثل الظمان الذي يكرع من المنهل العذب ، رغبة أن تستقيم له الصحة ، فلا يقف عن حد نقع الغلة ، بل يتجاوز لك حتى بشرق .

جامعة في حلم (*)

ما عجبت من شيء عجبي من أن يعرض علينا التاريخ من صحفه ، ما نقرأ ونرى من حسنات عيشة الأولين ما نحب ، ثم لا نجاريهم في أمثالها . انظر إلى عيشة قدماء اليونان ، كان الشبان يذهبون إلى الملاعب يقوون أجسامهم ، وهم في أثناء ذلك يتفاكهون ويتباحثون ، ويتناشدون الأشعار ويتجادون الحديث فيفيض كل واحد بما يخزنه الصمت . لو كنت حاضر أمرهم ، أيها القارئ ، لرأيت حكيمًا يكالم تلاميذه ، ويفاتحهم الرأي في أمور الحياة وأبواب العلم ، وهم يمزجون المزج بالجد مزجاً لا ينصر الأول ، ولا يخذل الثاني . فيكون ذلك أدعى

إلى استئناف البحث . هذا هو التعليم الذى يفتق الذهن ، وينمى الفكر . يذهب المعلم مذاهب شتى مع تلاميذه ، غير مقيد بما يقيد نظام التعليم الحديث المعلمين به . أتحسب أن المدارس تخرج مفكرين أو أنها تثير ملكات العقل حتى تستقم غذاءها فتفصل (*) المعلمين عما يعالجون ، وكيف أن الواحد منهم إذا مرت فكرة بالغة فى الدرس ، أرسلها غير مشبعة بأخواتها بما يفيض به التفكير ، والمكاملة الحرة التى لا يحددها مقرر ، يظل المعلم فى المدارس مغلول الفكر ، يضع له المقرر طريقًا كالصراط ، ضيقًا يسعى عليه وهو خائف أن يميل به التفكير إلى يمينه أو إلى شماله . والتفكير الصحيح وثاب يضم أطراف الوجود بين جناحيه لا يحبسه حابس ، ولا يقبده مقيد . مثل هذا المعلم مثل لابس ياقة أقرنجية ضيقة ، يخشى أن يميل رأسه لأنه إذا فعل ذلك حزت الياقة فى جلد رقبته . وقد نسى المعلمون أن للمعاني تلقيحًا مثل تلقيح أشجار الثمرات ، وكما أنك تخرج نوعًا من الثمار من نوعين آخرين ، كذلك تخرج معنى فى موضوع من مواضيع التفكير من معنيين فى موضوعين آخرين .

رأيت فى الحلم مرة أن تلك الحياة قد أعادها الدهر فى مصر . رأيت أن فى الجزيرة حديقة كبيرة ، بعيدة الأطراف شاسعة البساط ، فسألت أحد الناس عنها فقال هى المدرسة الجامعة ، فدخلتها وقد أذكرتنى حياة قدماء اليونان الحرة ، وتلك الساعات اللذيذة التى كان يقضيها الشبان فى التفكير واللعب والدرس ، تلك الساعات التى كانت تثير قوى العقل إلى استتمام ما ينمىها . وقلت نعم البديل أنت من تلك الحجرات التى كانت ثقل فيها النفوس ، إنى لأرى فيك الزهر والشعر والفكر والحب الحياة تتناجى ... فيك ينال الروح نصيبه من الآداب والأخلاق ، وفيك تمتلئ الأجسام من نفحات الصبى ونفحات الزهر تصافحها العافية وتمحوطها السلامة.

أنت مهد التفكير فيك تينع الأفكار كما تينع الأثمار ، وفيك تفتح الأذهان كما تفتح الأزهار ، ثم جعلت أمشى حتى مررت بأرض واسعة بساطها العشب الرطب ، ورأيت التلاميذ الصغار جماعات يلعبون ويمرحون ويحاولون التحارين الرياضية حتى إذا أجهدهم ذلك ذهبوا إلى مكان ملأت وجهه أصناف الزهر ، فاستراحوا ثم جعلوا يتناشدون الأشعار والحكم والمعلم مصغ إليهم ؛ حتى إذا فرغوا من ذلك ناداهم كى يحكموا بين أنفسهم أيهم أبلغ منطقًا وأحسن قولاً وأكرم رأيًا ثم يصلح من حكمهم ، فمن كان أكرمهم رأيًا وأصحهم منطقًا صنعوا له تاجًا من

الزهر ، وكللوه به ثم يناديهم المعلم ويباحثهم فى مواضيع شتى وكل واحد منهم يذكر رأيه ويؤيده بالحجج ، فلما رأيت ذلك قلت أيتها النفوس لا برج الروض مثواك ، فيه تلعبين وتمرحين ، وفيه تجدين ولا برحت عواطفك تصلحها مظاهر الطبيعة ، ويغذيها ترقق الغدير ، ونفحات الزهر ، ولا زالت بنات الشمس تسقيك رحيقاً يثير فيك بواذر الفكر . هنا تحوطك الصحة ، صحة الجسم وصحة النفس ، لا فى تلك الحجرات التى شادتها لك المدنية الكاذبة .

ثم رأيت مطران يتلو على الطلاب درساً فى خيال الشاعر ، وسنن الطبيعة فسمعتة يقول : إن التماس معرفة سنن الطبيعة ، يكسب الشاعر دقة فى التمييز ، ويجلب له حسن الذوق فى اختيار المعانى ، والتفريق بين الخيال السقيم والخيال الصحيح ، وهو أيضاً ينمى صحة المنطق فى أشعاره ، ويكون باعثاً لأن يخفض الشاعر من غلواء المغالاة بأن يعلمه جلالة البساطة ، فإن مظاهر الطبيعة تفتح للشاعر باباً من الخيال يغنيه عن تطلب تلك الأوهام التى تسلك فى باب المغالاة ، والتماس معرفة سنن الطبيعة ، ينمى عاطفة تقديس مظاهر الوجود . وذلك يفيض على القلب طهارة ، ويجعل فى الروح سعة لأن تفهم أسرار الحياة ومعانيها . وهو أيضاً يزيد خيال الشاعر صلابة وصحة فيكون سموه مثل سمو النسر يعلو ، ولكنه إذا رمى الأرض بلحاظه أصابها بها . فهو بعيد السمو بعيد النظر ، فيجمع الشاعر الذى يلمس عرفان سنن الطبيعة ، بين سعة الخيال وصحة المعنى ، ويكون خياله مكتسباً من صدق النظرة ، لا مثل خيال معالج المغالاة ، فإن خيال هذا مكتسب من كذب النظرة . أليست المغالاة نظرة كاذبة ، ولكنه لا يسلك فى باب المغالاة المذمومة ما يقوله الشاعر عن لسان من بذهه خطب ، أو كثره حزن أو ما يقوله أيضاً عن لسان عامى النفس ، فإن هؤلاء يلجؤون إلى المغالاة بحكم الطبيعة للتعبير عن عواطفهم وآرائهم .

ثم أبصرت حافظ إبراهيم ، وحوله فتيان يترقرق على وجوههم ماء الذكاء وماء الجمال ، وسمعتة يلقي عليهم درساً فى المترادف . ويقول : كلما عظم التفكير بين الأدباء قل المترادف ، والسبب فى ذلك أن كل مترادف يأخذ معنى لم يكن له قبل ، لأن ذلك من دواعى التدقيق فى البحث وراء المتشابه والمتناكر من المعانى ، وخير للمترادف أن يسد حاجة من حاجات التفكير ، بدل أن يعيش مقبوراً فى كتب اللغة ، وسيكون للمترادف نفع جليل ، فيجد ما كان غير محدود من المعانى ، ويلبس المعانى الجديدة ثياباً جديدة ويزيل ذلك الإبهام الذى يجعل المتناكر من المعانى متشابهاً والمتغاير متعارفاً ، ويعوق الأديب عن التفكير الصحيح . فلما سكت حافظ أردت أن أغضبه بالمزاح فقلت : ماذا عنيت يا حافظ بقولك

فمن ملاينة أستارها خدع إلى مصالبة أستارها وهم

أليس معنى هذا البيت أن القوم يلاينونا ولكنهم يسترون الملاينة بالخداع ، ويصالبوننا ولكنهم يسترون المصالبة بالتضليل . ألا ترى أن هذا المعنى غير مستقيم ، لأنه لا معنى لأن يلاينونا ثم يجعلوا للملاينة أستاراً من الخداع ، كما زعمت ، لأن من لاين أحداً كان راغباً فى أن يرى من وقعت عليه الملاينة يلاينه ، وإنى لأحسبك أردت أن تقول إنهم يخدعوننا ويسترون الخداع بالملاينة ، فتكون الملاينة سترًا للخداع وليس الخداع سترًا للملاينة كما زعمت ، وأنهم يضلوننا بالوهم ويسترون ذلك بالمصالبة فتكون المصالبة سترًا للوهم والتضليل وليس التضليل سترًا للمصالبة . قد اضطرب فى يدك ففسد معناه . فلما سمع حافظ ذلك عيس قليلا ولكن عاودته البشاشة .

فتضحك وقال : قاتلك الله ، إنك لتخرج السقيم من الصحيح ، وتجعل على وجه السليم هيئة المريض ، فضحكنا طرفة ، ثم جعل حافظ يشرح معنى البيت ويظهر فساد زعمى ، فقلت له : لله درك يا حافظ أنا إذا لم أنتقد عظيماً مثلك ، فمن أنتقد ؟ وكان يودى أن أذكر للقراء وجه صحة البيت الذى شرحه حافظ ولكنى نسيته .

ثم أبصرت السباعى يلتقى على الطلاب درساً فى فلسفة الشذوذ ؛ فسمعتة يقول :

الشذوذ عنوان العبقرية ، ودليل على سعة فى الروح ، فإن ضيق الروح لا يرى الصواب إلا فيما تسنه العادات ، ولكن واسع الروح يرى أن الصواب كثير المنازل ، ويعرف من منازلها ما لا يعرف قتيل العادات . والشذوذ أيضاً دليل على شجاعة المرء ، فإن الجبان يخشى أن يرتاد مظان الشذوذ جبناً وضعة ، فلو أنه كان عزيز النفس ، لرأى أن فى بعض الشذوذ خلاصاً من الضعة وانتصاراً لجلالة النفس ، وحرية الضمير ، فإذا رأيت أمة ذليلة كثر بينها أهل الشذوذ الذين يجرؤون ويقدمون الذين لا يبيعون جلاله النفس بالخفض والجاء ، الذين ينصرون ضمائرهم بإعزاز أنفسهم ، الذين يعرفون أن العادات ، مظاهر الحق والباطل ، ولياس الصدق والكذب ، الذين لا يخشون الداء والفقر والجوع والسب والاحتقار والحمول فى نصرة الحق ، إذا رأيت أمة ذليلة كثر بينها هؤلاء ، فاعلم أنها أمة عزيزة .

ثم أخرج من ثيابه رغيثاً فجعل يأكله ، فكادت أبكى فرحاً من جرأة هذا الجرى ثم قلت له أصحيح يا سباعى أنك تحتقر الحياة فى كتابتك ؟ فقال إنى أريد أن أرفع عن النفوس حجاباً من الحياء الكاذب ، فأجلوها مكشوفة الجسم ، ولكنى أجلوها فى زى طفل صغير . والطفل

إذا كشف جسمه ملأنا ضحكاً ولم يملأنا غضباً ، ثم رفع يديه وقال : أيتها الأذان العفيفة إنى لا ألو^(١) عليك غير ما يحدثك به ذلك الهاتف الذى يهتف من أعماق الروح ، فإذا أبت لك اللجاجة أن تنزلى منزلة الطبيب الذى يصلح سقم المريض ، فيعطيه من الصحة والعافية ، ويأخذ من دراهمه فأنزلىنى منزلة الطبيب الذى يأخذ من صحة المريض. ويعطيه أجرة إتلاف جثته أليس هو خيراً من ذلك الطبيب الذى يتقاضى المريض أجرة إتلاف جسمه وجعله رمة بالية .

فتركته وجعلت أَمْشَى حتى رأيت الرافعى الشاعر ، يلقى على تلاميذه درساً فى مستقبل الشعر فسمعتة يقول اللغة العربية عند كثير من شعراء اليوم مثل إناء حلية ، يضعونه فى بيوتهم زينة لها ، ولكنها عند العبقرين إناء منفعة يستعملونه فى الحوائج . ولو أضر الاستعمال بجذته . أليس إناء الحاجة خيراً من إناء الحلية ، وسكت قليلاً ، ثم قال : ألم تسمع فى قصص العجائز أن ساحراً أسر فتاة حسناً وجلسها فى قصره وأعطاه مفاتيحه ، ولكنه حرّم عليها أن تقرب غرفة من غرفه وأنها ترقبت غيابه ، حتى إذا غاب عن القصر فتحت تلك الغرفة ، فرأتها وفيها من بنات الملوك عدد كبير كان قد أحبهن ذلك الساحر فأسرهن واحدة فواحدة ، ولما ملهن سحرهن وجعلهن فى هذه الغرفة فعلمت الفتاة أنها لا محالة سائرة إلى حيث سرن ... إلى آخر هذه القصة ... إنه ليجول فى خاطرى أن تلك الفتاة هى الشعر فى هذا العصر ، وأن ذلك الساحر هو غول التقليد والمعجز والجن الذى حرّم على الشعراء أن يقربوا المعانى الكريمة التى قالوا ما هو إلا خابط ليل قد أضل طريقه . قلت صدقت . قال : ولكن الشعر حر يأبى أن لا يرى جوانب الحياة وينظر فى تلك الغرفة المحرّمة ليرى ما بها من المعانى الكريمة الأبهكار .

ثم مررت بالسيد عصفور يلقى على سامعيه درساً فى فن الغناء فسمعتة يذكر للغناء تعريفاً بليغاً كان بودى أن أذكره ، ولكن منع من ذلك أنه يقال ، ولا يكتب لأن كله صياح .

ثم رأيت على قرب تماثيل عارية الأجسام ، فقربت من بعضها وكان تمثال سيدنا عطار فقلت له أما تستحي أن تخرج إلى الناس عارى الجسم ؟ فقال على رسلك أما والله لقد كدتم تنسون أن الإنسان خلق عرياناً صرتم تعيشون فى ثيابكم بدل أن تعيشوا فى أنفسكم . ولم يبق بينكم غير هذه التماثيل توقظكم رؤيتها من غفلة المدنية ، وذل العادة وتخرج من قلوبكم ذلك الجبن الذى مكّنه الجهل منها ، فكيف تستحون من رؤية أجسامكم ، وأنتم لا تستحون

من مواقعه الرذائل ؟ فقلت أعوذ بالله هذه بقية من بقايا الوثنية . فقال : يا قتلى المظاهر وأهل الرياء ، إنما الحياء هو إباء المرء أن يعاقر الرذيلة ، وأما ذلك الحياء الذى يمنع المرء عن التماس ما يفك عنه قيود العادة ، فهو مثل الحمرة التى تصبغ بها الهلوك وجهها لتخفى مابقى به من الحياء الصادق . وكان تمثال الزهرة قريباً منا ، فلما سمعت حديثنا قالت : ليس الجمال ضعفاً ولكنه قوة للأمم ، يزيد لها رغبة فى الحياة فتلتبس أسبابها وتسفر قواها رغبة فى التمتع به ، وإنما الضعف يتسرب إلى الأمم من رغبتها عن بعض أنواع الجمال وليس التعلق بجمال الأجسام وجمال الفنون عائقاً عن الرغبة فى جمال الخلق وجمال العلم وجمال القوة ، فإن أنواع الجمال مثل أصابع اليد يعين بعضها بعضاً ، وليس جمال المادة وجمال شكلها بمخفوض الشأن إذا عد أنواع الجمال . فلولا جمالها لكانت الحياة حملاً ثقيلاً ، فالجمال أجل نعمة أنزلها الله على الناس ، ثم إن بين جمال الخلق وجمال الجسم صلة ، والدليل على ذلك أن رؤية لجمال تهيج فى القلب عواطف الرحمة والكرم والرفق . إن لذنا^(١) فى الجمال تفك عنا أغلال العادة لنعيش فى أسر الطبيعة ، ولكن جلال الجمال يفك عنا أغلال الطبيعة لنعيش معها فلذة الجمال هى نشوة الحرية ، ولكن جلال الجمال صحو من تلك النشوة . ثم توضحت وقالت هيهات أن تأخذوا من حرية الفكر بنصيب ، وأنتم جبناء تخشون من الزلل فى الرأى أن يأتىكم من طريق حرية الفكر ، ولو أفقتم من العجز لعلمتم أن أغلاط كتاب الغرب التى سببها استقلال فى شخصية الكاتب ، أجل وأحسن من أغلاط كتاب الشرق التى سببها التقليد والجبن . كانت تقول ذلك وهى تسخر ، فغضبت ورفعت هراوتى لأضربها بها فانتبهت من النوم فزعاً من أجل ألم شديد فى قدمى اليمنى ، فعلمت أنى ضربت بها الحائط وأنها كانت هراوتى التى رفعتها فى الحكم لأضرب بها الزهرة إلهة الجمال .

٢ - ضمائر الشعراء

والشجاعة الشعرية(*)

إن للشعر رجولة تبعث في قلب المرء خشوعاً مثل خشوع يبعثه صوت العاصفة في صدر السامع . وقد قدم المتنبي على أبي تمام والبحتري وابن الرومي . إن نصيب شعره من تلك الرجولة أكبر من نصيب أشعارهم ، ولولا أن ابن الرومي يفيض المعنى الواحد من معانيه على أبيات كثيرة ، فيودع كل بيت جزءاً من المعنى ، ولولا أن أبا تمام يتكلف الخيال السقيم كثيراً ، ولولا أن البحتري يعيد معانيه كثيراً ، لكان شعرهم أعظم وقَعاً منه الآن . وقد أسعد المتنبي ذلك الإباء الذي جعله يعيش شقيّاً ويموت شقيّاً . وإذا أردت أن تعرف لم يجرى شعر المتنبي مجرى المثل ، فالتمس سبب ذلك في الإباء الذي أشعل كلماته وأثار معانيه . أما مناقضة نفسه في مدح كافور ثم ذمه ، فهي ليست بما ينافي الإباء . وكافور كان ملوماً في مداجاته . وهذه المناقضة شيء ضئيل ، بجانب ذلك النفاق الذي جعل البحتري يمدح المتوكل ، ثم يرثيه ، ثم يمدح قاتله ، والأمر بقتله ، والذي جعله يمدح المستعين ، ثم يهجو أشد الهجاء بعد نكبته ، وكيف يكون نصيب شعراء اليوم من رجولة الشعر كبيراً ، وهم يكلفون أنفسهم الكتابة في موضوعات لم تنهبا أنفسهم للكتابة فيها ، ولم يجدوا في قلوبهم دافعاً إليها .

إن رجولة الشعر في صدق سريرة الشاعر وإحساسه بصدق مايقول . هناك فئة من الشعراء يعوقها فقدان الشجاعة الشعرية عن بلوغ شأوها ، والشجاعة الشعرية هي التي تدفع المرء إلى التعبير عما يوحى إليه ضميره ، تلك الفئة لا ترى في ضميرها مزجاً إلى القريض ، ولكن باعثها إليه رغبته في أن تبين عما تسنه ضمائر الناس ، ولكن يعوقها عن ذلك أن الكذب والنفاق والخداع والتحيز والفرور ، حجب مسئولة على ضمائرهم .

على أن ضمير المرء أصدق مناصحة له من ضمير غيره . هذا سبب أن الشاعر من شعراء هذه الفئة يناقض بين أقواله في التعبير عن الأخلاق ، ويلبس آراءه كما يلبس ثيابه . ولو لم يكن في هذه الخلقة شيء غير فناء الشاعر في شخصية غيره ، لكان خليقاً بالعبقريّة أن يأنف من التخلق بها . ولكنها تسوقه إلى إطرء الشيء وهو يعرف أنه شيء ، وإنما حب العبقري

* - البيان : ربيع الثاني ١٣٣٠ هـ (١٩١٢/٥) ص ٥٨٧ .

نفسه أنفقه من أن يعيش فى آراء غيره . وقد يعود تعلقه بما يسته ضميره حباً لنفسه ، مثل ذلك « روسو » كان شديد التعلق بما يوحى إليه ضميره من الآراء حتى صار يجعل نفسه من أجل إجلاله لتلك الآراء . وهذه الخلة غير غرور الأديب الذى يقتل ضميره ليحيى آراء الناس فإن هذا الغرور سببه إطراء الناس إياه وتقريظهم شعره . أرأيت ضعيف الجسم إذا أراد أن يلفت الناس عن ضعفه ، فيملأ فمه كذباً من وصف شجاعته وإقدامه ، ويطعن الهواء بصرخات يحسبها الغافل صرخات النجدة والحماسة حتى يضج الهواء منها . مثل هذا ، مثل كثير من شعراء السياسة إذا قرأ الغافل شعرهم حسب أن نصيبه كبير من تلك الرجولة التى سببها صدق السريرة وعظم الإحساس فإذا قرأه صاحب الذوق السليم ، وجد به ضجة مثل ضجة الدجاج ، قد يحسبها الغافل ضجة الشجاع المستقر : هؤلاء الشعراء يلبسون آراءهم كما يلبسون ثيابهم .

على أن مجال الشاعر فى الانتصار للحرية غير مجال السياسى فالأول سبيله التعميم ، والثانى سبيله التخصيص الأول يعنى بالحوادث الكبيرة التى يعنى ذكرها المرء فى التماس الحرية فى الرأى والدين والعمل ، والثانى يعنى بالحوادث اليومية الصغيرة . الأول يستمد من التاريخ والخيال والثانى يستمد من السياسة .

٣ - مقالات في الأدب (*)

١

(التخييل والتوهم)

ينبغي أن نميز في معاني الشعر وصوره بين نوعين نسمى الأول التخييل والآخر التوهم. فالتخييل : هو أن يظهر الشاعر الصلات التي بين الأشياء التي ربما خفيت عن غيره ، ولكن يشترط في هذا النوع أن تكون الصلة متينة . والتوهم أن يتوهم الشاعر بين شيئين صلة ؛ ليس لها وجود ، أو أن يبين عن صلة غير متينة انظر إلى قول أبي العلاء المعري في سهيل النجوم :

ضرجته دماً سيف الأعادي فبكت رحمة له الشعر يان
أو قوله في هذه القصيدة أيضاً

وعلى الأفق من دماء الشهيد على ونجمله شـاهـدان
فإن الصلة التي بين الشفق وبين دماء الشهيد صلة توهم ، وكذلك الصورة التي في البيت الأول صورة توهم . ثم انظر إلى قول أبي العلاء :

كم قيلة في الضمائر لم أخف فيها العقاب لأنها لم تكتب
هذا مثال من أمثال التخييل الصريح ، فإن العاشق مغرى بأن يليح لعينه بصورة هيبته ثم يقبل تلك الصورة الخيالية . فالصورة المودعة في هذا البيت صورة طبيعية يعرف صحتها كل من عالج الحب . وانظر إلى قول الشريف الرضي

ما للزمان رمى قومي فزعزعهم تطاير القعب لما صكه الحجر
هذا أيضاً من التخييل الصريح فإن تفرق شمل القوم مثل تطاير أجزاء القدح المكسور . وانظر إلى قول ابن المعتز في المشيب :

(هذا غبار وقائع الدهر)

فإن المشيب يأتي المرء من معالجة الأيام ومصارعتها ، كما أن الغبار تستثيره المصارعة والمناهضة .

* - البيان : جمادى الأولى ١٣٣٠ هـ (١٩١٢/٦) وجمادى الثانية ، ١٣٣٠ هـ (١٩١٢/٧) ص ٦٩٧ وما بعدها .

ومن أمثال التوهم البديع قول أبي تمام فى المشيب :

(فإن ذاك ابتسام الرأى والأدب)

فإن الصلة التى بين المشيب والابتسام ولا سيما ابتسام الرأى والأدب صلة : توهم ليس لها وجود . ولكن هذا هو التوهم الحميد . على أن الشاعر قد يجئ به غثًا إذا لم يكن له غير المغالاة حيلة . وأحسن هذا التوهم أقر به إلى التخييل الصريح واقبحه أقره إلى أحلام المحموم . وقد حبه إلى الشعراء مجاراتهم ذوق العامة فى المغالاة فإن العامة لا تميز بين المغالاة التى تجوز والمغالاة التى لا تجوز .

قد يكون فى الخيال كلفة كما يكون فى التعبير صنعة ، وإنما تكلف الخيال أن يجئ به كأنه السراب الخادع فهو صادق إذا نظرت إليه من بعيد ، وهو كاذب إذا قاربتة غير أنه قد يشابه الخيال الصحيح السقيم إذا كان وجه التأليف بين الأشياء فى الخيال الصحيح بعيداً . ولكن بُعد وجه التأليف وخفاء الصلة ليس بمعيب ؛ إذا كان وجه التأليف صحيحاً ، وكانت الصلة متينة . فإن ظهور الصلة لكل قارئ ليس دليلاً على متانتها فقد تكون الصلة ظاهرة ضعيفة وقد تكون غامضة سليمة . وهذا سبب من أسباب اشتباه العظيم من الشعراء بالضئيل ، والعبقري بالقلد . فإن المتنبي أو شكسبير قد يولع باستخراج الصلة المتينة الغامضة التى بين شيئين يخال القارئ أن ليس بينهما صلة . ولكن هذا المذهب غير مذهب الناظم الذى يولع بأن يوجد صلة سقيمة بين شيئين ليس بينهما صلة ، أو باستخراج صلة ضعيفة بين شيئين .

إن ولوع الشاعر باستخراج الصلات المتينة الغامضة التى بين الأشياء دليل على أنه حر الدهن ولكن الشعراء المولعين بذلك غرض لسهام ذوى الأذهان المغلقة ونصب رميات أهل الغباوة ولكنى لا أنكر أن الشاعر المولع بذلك قد يسلمه ولعه به إلى المغالاة المقبوحة واستخراج صلات التوهم وأبو تمام والمتنبي والمعري من هؤلاء الشعراء . على العبقري يعرف بسيئاته أنه عبقري كما يعرف بحسناته ، لأن أكثر سيئاته سببها أنه واسع الخيال كما أن أكثر حسناته سببها تلك السعة .

٢

(الجاحظ والصايبى)

الفرق بين أسلوب الجاحظ وابن المقفع وأسلوب الصايبى وابن العميد أن الأولين يسلكان من سبل التفهيم والإيضاح أقصرها ، وأما الصايبى وابن العميد فقد كانا من كتّاب الدولة وأرباب

السياسة يضطر أحدهما إلى الغموض لحاجة من حاجات العياسة ، فيسلك من سبيل التفهيم أطولها وأوعرها كي لا يفهم رسالته من أرسلت إليه كل الفهم ، أو كي يفهم في أثناء سطورها ما ليس فيها . ألم تر كيف عمد سياسة الدول الأوربية إلى اللفظ المبهم والعبارة الغامضة في بعض الأحيان كأن يريد أحدهم أن يعد وعداً لا يستطيع أن يفي به أو أن يساق إلى إيضاح أمر من حاجة السياسة أن يبقى غامضاً أو أن يريد أن يستخدم المغالطة كي يغطي على صحة رأيك أو أن يخدعك في حق تطالبه به . فأسلوب الجاحظ وابن المقفع من هذا الوجه أقصع من أسلوب الصابى وابن العميد . وأسلوب الأولين أشبه بلهجة العرب وفصاحتهم فهو خليق أن يسمى الأسلوب الطبيعى أما أسلوب الصابى فهو أسلوب صنعه ، لأن الفصاحة العربية الصريحة التى تطالعك من مصنفات الجاحظ وابن المقفع قد نضب ماؤها ، وصار حظ الأديب أن يتكلفها وسبب ذلك اعتعاد الأعاجم دسوت الرئاسة وتغلبهم على العنصر العربى والعصبية العربية فى دولة الإسلام . فلم تكن اللغة كالماء الأجن ، لأن الأساليب تتغير فأسلوب الجاحظ غير أسلوب الصابى وأسلوب الصابى غير أسلوب صاحب كتاب قلائد العقيان . فالأساليب تسير مع الأيام وتتغير بتغير الزمان والمكان واللغة ليست ملكاً لقوم دون قوم فإن الفرق بين أسلوب الصابى وأسلوب الجاحظ ، أو بين أسلوب الصابى وأسلوب صاحب القلائد لا يجوز لنا أن نسميه فرقاً بين لغة ولغة كما يزعم زاعم يريد أن تكون لغة مصر غير لغة الشام أو العراق .

إنك إذا قرأت رسائل الصابى كنت كلما انتهيت من جملة نسيت أولها إما لعظم ما بين أولها وآخرها وإما لأنه يدخل فى الجملة ويخرجها من حيث ادخلها فلا تعرف أين يبتدئ وأين ينتهى . وألفاظ الصابى أكثر من معانيه فهو يريق المعنى على فناء واسع من اللفظ فيفيض ماؤه ، والمعانى كالبخار إذا حبست البخار زدته قوة وإذا أفسحت له فى الفضاء أضعفته . إذا أجاد الصابى ذقت فى كلامه حلاوة الصنع وإذا أجاد الجاحظ ذقت فى كلامه حلاوة الطبع .

على أن للطبع صنعة ولكنها صنعة ذوق وسليقة لاصنعة رصف وتنميق . وصنعة الطبع ليست بأقل حلاوة من صنعة الرصف والذى يستخدم صنعة الرصف لا يسلم من الكلفة والفساد والإطالة المقبوحة وإضلال المراد وذكر ما لا يراد منه كأن يسلك أديب فى عقد واحد جملاً كثيرة لا تقرب القارئ من طلبته قيد قتر أو أن يكيل كاتب لقارئه من المترادف شيئاً كثيراً .

إن بين من يكلف بالفصاحة ومن يتكلفها فرقاً واسعاً والجاحظ كلفٌ بالفصاحة ولا يتكلفها لأنها تواتيه إذا شاء والصابي كلف بالفصاحة ولكنه قد يتكلفها ولا أحسب سبب ذلك أنه جاء بعد الجاحظ ولكن مذهبه إدخال الجملة في الجملة ومط الكلام كما تخط الجلد . هذا ابن رشيق صاحب كتاب العمدة متأخر من المتأخرين في الزمن ، ولكن مذهبه في كتاب العمدة أشبه بمذهب ابن المقفع والجاحظ والمبرد وابن قتيبة وغيرهم من الفحول من حيث السلاسة وتوفية المعنى نصيبه من اللفظ وقصر اللفظ عليه وانتظام جمل الكلام . ففصاحته فصاحة ذوق وطبع لا فصاحة رصف ووضع فلو أن الأديب ليس له بد من عبارة أهل زمانه وبلده وأسلوبهم في الكتابة لكانت عبارة كتاب العمدة مثل عبارة كتاب القلائد ولكنها ليست كذلك فإن فصاحة كتاب قلائد العقيان فصاحة رصف ووضع ، وهي أكثر شبهاً بفصاحة الصابي وابن العميد والثعالبي ، منها بفصاحة الجاحظ وابن قتيبة وابن رشيق ، ولكنها أكثر تصنعاً من فصاحة الصابي وأقل حلاوة . فعبرة الصابي في منزلة بين أسلوب الجاحظ وابن المقفع وأسلوب القلائد فالصابي وابن العميد والثعالبي كانوا يملكون من عنان مطبتهم ما لم يملكه صاحب القلائد ، ومن هذا حذره . وهكذا كل من عالج صناعة الرصف والوضع . خيف عليه أن تغيب عنه حلاوة الطبع .

كان ابن رشيق ينقم من أهل زمانه صناعة الرصف ويفريهم باستخدام صناعة الذوق والطبع ، استدنا ، للفصاحة العربية وتطلباً لذلك الأسلوب الطبيعي ، أسلوب ابن المقفع والجاحظ وابن قتيبة ويزجرهم عن ذلك الأسلوب المتقطع المتكلف المخنث ، أسلوب السجع والمترادف والبديع الذي كانت قملأ به الأدباء رسائلهم ، من رصف وإطالة بطل القارئ فيها ما يبغى من المعنى . ولكن هذا الفساد كان قد تمكن من اللغة وأخذ من أذواق الناس مأخذاً بليغاً ، فلم يكن لابن رشيق عون على إصلاحه . وأعظم من استخدم صناعة الرصف والوضع من الأدباء وغالى بها ، الصابي وابن العميد والثعالبي فكانوا يجيئون بالجزل الجيد من الكلام وكان لكلامهم نصيب من بداوة النثر ، أي سلامته من الكلفة ورجولته ، تلك البداوة التي تطالعك من مصنفات ابن القفع والجاحظ والمبرد وغيرهم من الفحول ولكن لم يكن يعرف الصابي وذوو مذهبه أن سيأتي بعدهم أدباء ينهجون نهجهم ، وليس لهم من سلامة الطبع وبداوة القول ورجولته ما كان لأسلافهم ، فيستخدمون المحسنات البديعية استخداماً يجعلها مساوئ فإن مجيء هذه المحسنات عفواً حسن لا بأس به ، ولكنها جعلوا يدخلونها في كلامهم كما تدخل الجرذ في مصيدته ، أي بالخدعة والدهاء ، ويجذبونها إليه كما تجذب القط من ذيله ، إذا تشدد فيضطرب انسجام كلامهم ويعوج أسلوبه .

٤ - واجب أدبى

وانتحال المعانى الشعرية(*)

لقد كاد يعد الاطلاع على آداب الغرب جريمة وتهمة فى أعين الأدباء ، إذ أنه مظنة السرقة ، وذلك لأن بعض الشبان لا يدين بدين الملكية فى الآداب . إن العقول مثل الثروة تحتاج إلى أن تتعهد بما يظهر خصبها . والاطلاع من الوسائل التى تظهر خصب العقول . ولا ينكر أحد أن العقول تتطبع بما تطلع به فينشأ من ذلك الابتداع والتوليد . إذ أن للعقول تلقيحاً مثل تلقيح الأشجار ، فيوسع الفكر وينمى الملكات ، ويبعث على الابتداع . ولكن هناك طريقاً أقل مؤونة وأعنى نقل الشئ وأدعاءً . ولو كانت المسألة التى أتكلم فيها تافهة لما تعرضت لها ، ولكنها تشمل قصائد ومقالات كثيرة تسمى ظن الناس بأهل العلم والابتداع ، وتبعث على الفوضى فى العلوم والآداب . وقد شاعت حتى لم يعد يمكن كتمانها . على أن كل أديب حارس من حُرأس الأدب ، ومن واجبه أن لا يغفل عن حراسته .

وهناك دافع آخر دفعتنى إلى الكتابة وإظهار هذه المأخذ ، وهو الرغبة فى الخلاص من مظان الريب . فقد اعتاد بعض الناس أن يقرن اسمى إلى اسمى المازنى والعقاد للمودة التى بيننا ، ولكنها مودة لا تُحمل كل واحد منا عيوب أخيه ، فحسب المرء منا أن يحمل عيوب نفسه ، ولكن الجمهور لا يستخدم المنطق فى كل رأى يراه .

إن المودة التى بينى وبين المازنى قديمة . ومن أجل ذلك ، لم أكن أعرف كيف يُسوغ لى أن أكتب هذا المقال ، ولكنى شرحت الأسباب التى دعتنى إلى الكتابة . فإن المسألة ليست هينة ، ومثل هذا الواجب ينبغى أن يكون فوق المودة منزلة . فقد شاع بين الأدباء أن المازنى قد أخذ بعض قصائد كاملة من شعراء الغرب ، وأفكار متفرقة غير أنى لم أتنبه إلى هذه التهمة ، وأهديت إليه الجزء الثالث من ديوانى ، علامة على ثقتى ومودتى . ولكن أحد الأبناء لفتنى إلى قصيدة « فتى فى سياق الموت » فى ديوان المازنى ، وهى مأخوذة من قصيدة لتوماس هود الشاعر الإنجليزى . ثم لفتنى آخر إلى قصيدة « قبر الشعر » فى ديوانه ، فإذا هى

* - المقتطف : يناير ١٩١٧ ، ص ٨٧ وما يلى .

وقد سبق أن أشار « عبد الرحمن شكرى » فى مقدمة الجزء الخامس من ديوانه « الخطرات » ، الطبعة الأولى ١٩١٦ ، إلى سرقات المازنى وتكاد تتكرر ملاحظاته النقدية بلفظها . « المحرر »

للشاعر هينى الألمانى . وقد كنت أقرأ عرضاً فى تنيسون الشاعر الإنجليزى ، فرأيت فيه قصيدة الذكرى التى قال المازنى إنها له . ثم أرسل إلى المازنى بعد ذلك قصيدة « الوردة الرسول » فإذا هى للشاعر ولر الإنجليزى . ونشر فى جريدة عكاظ قصيدة « الراعى المعبود » ، فإذا هى للشاعر لويل الأمريكى . وبينما كنت أحادث أحد الأدباء فى شعر المازنى ، وهو الأديب أمين أفندى مرسى ، لفتنى إلى قصيدة المازنى الياثية التى سماها الشاعر المحتضر ، فإذا هى من قصيدة « أودينى » لشلى الشاعر الإنجليزى ، وهى التى قالها فى رثاء كيتس . ورأيت بعد ذلك قصيدة « شوكة الحسن » فإذا هى لهينى الألمانى .

ومن الغريب التزام المازنى الدقة فى الترجمة ، فإن هنرى هينى يقول لحبيبته « صرت تدعيننى العزيز هنرى » فقال المازنى « العزيز المازنى » . وقد نبهت المازنى إلى هذه القصيدة فاعترف أنها ليست له . ولكنه قال إنه نظمها ، وهو يظن أنها له ذلك لأنه حفظ المعانى ونسى أنها لغيره . فبينت له أن الأبيات والمعانى متسلسلة ، والترجمة دقيقة جداً . فأصر على فكرته السيكلوجية ، وقال : إن ذلك جائز فى علم السيكلوجيا . ولكنه وعد أن يتجنب أمثال هذه المآخذ فى المستقبل .

ولا أعرف كيف يوفق بين تعليله لهذه المآخذ ووعده بتجنبها فى المستقبل ، ولم يف ، إذ أنه بعد ذلك أنشدنى قصيدة « إكليل الشوك » و « الغزال الأعمى » . وهى أيضاً من هذه المآخذ . وبينما كنت أقلب مجلة البيان وجدت مقالا طويلا عنوانه « تناسخ الأرواح » منسوبا إلى المازنى ، فإذا هو مأخوذ من أوله إلى آخره من مقالات ادسون الكاتب الإنجليزى الشهير فى مجلة السبكتاتور . ثم اطلعت على مقالات المازنى فى ابن الرومى ، والجزء الأكبر منها ليس فى ابن الرومى ، بل فى العبقرية والعظماء . فإذا أجزاء كبيرة منها مأخوذة بعضها من كتاب عنوانه « شكسبير » تأليف فكتور هيجو الشاعر الفرنسى ، وبعضها من مقالات كارليل الأدبية . فنبهت المازنى إلى ذلك ، فقال : ماذا أصنع إذا كنت أكتب الشئ ، ولا أعرف أنه ليس لى ، هل أطوف على الناس أسألهم هل رأوه قبل ؟ (هذه كلمة من رسالة بعث بها إلى)

أما مقالة « تناسخ الأرواح » فإنه قال : إن صاحب مجلة البيان نسى أن يذكر أنها منقولة، وكذلك قال : إن صاحب البيان نسى وضع الأقواس ، حول القطع المنقولة فى مقالات ابن الرومى . وليس الأمر مقصوراً على ما ذكر ، فإن أحد أدباء مصر ، وهو مصطفى أفندى علوه كان قد جمع كتاباً ذكر فيه مأخذ كثيرة ، زعم أن المازنى أخذها من كتاب واحد فقط ، وهو كتاب « الذخيرة الذهبية » فى الشعر الإنجليزى . ولم أقمك من رؤية كتاب هذا الأديب ،

ولكن أحد أصدقائنا ، وهو محمد أفندى جلال رآه فقال للمازنى إنه لو تعمد الترجمة لما وجد أحسن مما جاء به فى تلك المآخذ .

وقد جمعنا مرة مجلس ، فأخذ أحد الأدباء الأفاضل ، وهو عبد الحميد أفندى العبادى ديوان المازنى وكتاب الذخيرة الذهبية الإنجليزى ، وجعل يقارن بين أبيات المازنى وأبيات الذخيرة حتى أدهش الحاضرين . وقد أرسل إلى المازنى قصيدته التى عنوانها « الأقدار » فإذا جزء منها مأخوذ من قصة « قابيل » للشاعر الإنجليزى اللورد بيرون ، ولا سيما قول المازنى

انفـرس فى الفردوس أشجار نـقمة وينكران تتشـا منى وطـلاب

إلى آخر القصيدة . وبينما أقلب ديوان بيرون الذى عند المازنى ، رأيت قطعاً من شعر بيرون قد وضع المازنى بجانبها علامات ، فقرأت شيئاً من هذا الشعر ، فإذا هو فى شعر المازنى فى قوله .

وما أن تنام العين لكن أخالها تدبر بقلـبى نظرة حين أرقـد

وهذا موجود فى أول قصة « منفرد » للشاعر بيرون . وبينما أقلب ديوان المازنى ، كى أكتب منه هذا البيت فى هذا المقال ، وقع نظرى على قوله

لا تخش أشجـانى إذا اعتلجت أو لست تركب هائل الشـجن

القلب يم لا قـرار لـه جم العواصف مـزيد القـن

لكن فى أغـسـواره درأ ولاكـثـرا أبـقى من الزمن

فإذا هى منقولة بدقة من أغانى هبنى . وقد لفتنى العقاد إلى قصيدة فى شعر المازنى قال إنها منقولة بدقة من شعراء الغرب ولكن لا أتذكرها .

ولا أريد أن أذكر مأخذ المعانى المفردة والأبيات المتفرقة . ولو شئت لذكرت أبيات المازنى الرائية المأخوذة من قصيدة سوثرى الشاعر الإنجليزى فى وصف العالم والكتب وأشياء كثيرة من أمثال ذلك . ولكن أكتفى من هذا المقال بذكر ما قدرت أن أحصيه من المقالات والقصائد التى أخذت كاملة . ولو كان الأمر مقصوراً على أبيات قليلة منفردة ، لما رأيت فرضاً على أن أكتب هذا المقال .

هذا وأؤكد لصديقى المازنى أنى أجله وأوده ، بالرغم من ذلك ، وأدع للقارئ أن يحكم أمصيب أم مخطئ أنا فى إظهار ما أظهرت . وليس لى أن أعلل هذه المآخذ ، أو أن أتهم المازنى بأنه تعمد أخذها .

انتحال المعانى الشعرية(*)

سيدى محرر « المقتطف »

قرأت ملتذاً رسالة الأستاذ عبد الرحمن شكرى فى موضوع انتحال المعانى الشعرية وانتقاد شعر المازنى ، فأكبرت شعوره بالواجب نحو الأدب ، دون تحيز بحكم صداقة أو قرابة فى المذهب الشعرى . وهذه صفة تكاد تكون معدومة فى مصر ، لأنها فوق الشجاعة الأدبية ذاتها التى تعتبر على ندرتها بيننا من نقائص الأخلاق العصرية .

ويلوح لى أن بين الأسباب التى دفعت شكرى أفندى إلى الجهر بتلك الملاحظات غيرته على حسن سمعة صديقه المازنى الذى أبدع أيما إبداع فى ديوانه الصغير ، باكورة ثماره الشهية وظهر بين أقطاب الشعر الحديث الذى تتكبر فوق دروعهم نبال الجامدين ، وقد كاد هؤلاء الجامدون الأبطال يغنمون الموقعة ، كما غنمها من قبل شوقى ومطران وغيرهما ممن حرروا الشعر العربى بعد اعتقاله الطويل .

الشعر العربى أخذ فى تدرج راق سريع ولشكرى وأمثاله منة كبيرة عليه ، للروح الجديدة العالية التى نفخوها فيه وهو يُعذر إذا خشى أن تعبت العواصف بمجهوداته ، ومجهودات أقرانه ، فقال كلمة نصح وتحذير . ولكن اقتدار المازنى المشهود به ضمين بفوزه مهما عدت له العثرات ، وما الابتكار بعزير على خاطره ، الفياض بالآيات البيئات . ومهما شابته نغماته أنغام غيره ، ففضله فى النقل عظيم وفضله فى الاعتراف بالحق عند تبينه أعظم ، وهو إذا احتسب فى المستقبل من أغاليط تعودها ، أضاف إلى حسناته حسنات خالصة ، وأنصف نفسه وأهل حزه والأدب والعلم .

يقول حضرة الكاتب : « لقد كاد يُعد الاطلاع على آداب الغرب جريمة وتهمة فى أعين الأدباء إذ أنه مظنه السرقة ، وذلك لأن بعض الشبان لا يدين بدين الملكية فى الآداب ، وهى ملاحظة غريبة ، إذ المعروف أن الأدب الغربى مكروه بين جاهلية فى مصر لا لأنه مظنة السرقة بل تبعاً للقاعدة المتبعة ، وهى كره ما يُجهل ، كما لا يستحب لدى من لا يفقهون منه إلا

* - المقتطف : مارس ١٩١٧ ، ص ٢٨٧ وما يلى .

وهذا المقال تعقيب من الشاعر دكتور " أحمد زكى أبو شادى " على المقال السابق للشاعر الناقد عبد الرحمن شكرى ، المنشور فى المقتطف ، يناير ١٩١٧ .

التشور ، ولدى من ينفرون من كل ما لم يالفوه نفورهم مثلاً من القبعات مهما عُدت أنسب وأنفع من العمائم . والأدب الغرب ذخيرة جواهر لا تحصى ، ولكن ثمينها مهور لا يجسر أحد على سرقة ، وإن تجاسر على التقليد معترفاً به . وهذا ما لا يُعاب بل هو مما يمدح لأنه من وسائل الإصلاح الأدبي ، ومن طرق الإغراء على التدوين بأرجح المذاهب . وليست كل أشعار الغربيين المشهورين ولا معظمها من المعجزات الخالدة ، ولا سيما أشعارهم العصرية . وأسباب نهوضهم بشعرهم هي عين الأسباب لرقبهم في كل شيء من مظاهر حياتهم . وكذلك كان شأن الشعر العربى فى أيام عزته بين العباسيين والأندلسيين . فعلام بُعد الاطلاع على آداب الغرب مظنة السرقة ، وحسنات تلك الآداب لا يجسر على سرقتها وإخفائها طويلاً أمهر اللصوص ، كما أنها ليست كلها بالحسنات .

طالما قمتُ بالاطلاع على شعر كبلنج ونشره معجباً بعبقريته الفذة . ومع هذا فقد سئمت مراراً من مبتذلاته وتافه أقواله . خذ مثلاً قصيدته الحديثة المنشورة فى « كتاب الأميرة مريم » التى يقول فى مطلعها :

« إلى ابن التمساحك يا خللاً^(١) بفحم المجترة فوق البحار ؟ »

وانى أوتر عليها أية قصيدة من نظم حافظ الذى طالما عيب عليه ضعف خياله ، وعُدتْ أكثر قصائده مقالات صحفية منظومة . فمظنة السرقة من آداب الغرب باطلة ، والسارق على أى حال يجنى على نفسه جناية عاجلة ، وإذا كان بين الشبان عدد ضئيل لا يدين بدين الملكية فى الآداب فأحسن علاج لهم التقرير العلنى .

والواجب أن يحبب إلى المتأدبين الاطلاع على الأدبيات الغربية ليستهدوا لا ليضلوا بها لأنها نمت فى ظل مدنية أهلها ، وتشبعت بفلسفتهم وأخلاقهم وعوامل رفعتهم . والشاعر الفحل فى كل عصر ، ليس بموسيقى ناظم فقط ، بل هو حكيم مؤرخ عالم مرشد لا يسير لاطلاعه وتصوره غور ولا تحد دائرة نظره البعيد .

ترجمة الشعر الغربى ترجمة دقيقة ، مع الأمانة التامة ، ليست من الأمور الهينة إن لم تكن من المستحيلة ، وإن قلتُ مشقتها فى الشعر المرسل ، وربما كان لبعضنا مشجع على التعريب من موضوع القصيدة مثل قصيدة « ذكرى ألف ليلة وليلة » للشاعر الإنجليزى تينسون . ولكن قلما يكون النجاح نصيبه فى الترجمة المستوفاة . ومع أن العقاد قد أبدع فى

تعريب قصيدة الوردة لكوير ، فترجمته ليست بالدقيقة . فإذا كان المازنى مَنْ تُعَدُّ عنده هذه الموهبة ، فإنه يُخدم الآداب العربية خدمة جليلة لو توفق إلى نقل ديوان أو أكثر من دواوين الشعر الغربى المشهورة التى تستهويه إلى حد إيقاعه بين الحفظ والنسيان . وربما تيسر له حينئذ أن يأمن من الزلل ، ويبر بوعده مطمئناً .

أختم تعليقى هذا بكلمة اطراء لكتاب « الذخيرة الذهبية » الذى أشار إليه شكرى افندى فإنه حقيق بكل متأدب يعرف الإنجليزية أن يزين به مكتبته ، لأنه جامع على إيجازه ، وبالرغم من ثمنه الزهيد . لنخب من أنفس شعر الإنجليز ، وإن كانت قاصرة على أبواب معينة . وله رواج واسع أينما قرئت الإنجليزية ، وإن تعددت كتب المنتخبات التى تحاكيه . وكنت تشرفت منذ سنتين بإهدائه إلى أحد شعراء النيل قبيل عيد ميلاده ، فكتبت الأبيات الآتية على جلده ، ولا أظن أنى بالغت ، فى تقريب هذه المجموعة الشعرية الثمينة :

يا ناحت الشعر تمثالا سجدت له	لا زال شعرك مرفوعا كتبت
هذا بعيدك قربان أقدمه	وعيد مثلك تعيد لأمثالى
إذا قنعت بما يحويه من طرف	فقد جعلت كلينا مسعد الحال
أو شمت فيه شفاء النفس من ألم	نصفت سمعة من عُدوا كأبطال
وإنما بطل كل امرئ خلقت	آثارة فسخر تاريخ وأعمال
هزوا مواطنهم هزا لكرمة	ورثعسوها بأحلى الشدو والقال
وخلفوا بعدهم ذخرا وموعظة	ومثمة وهوى ما ليس بالبال
أنت المرئ بسفر كله ذهب	فإنه لم يمش إلا لإجلال
فليس رقنا على رسم يغيب به	وليس قسرا على سلمى وأطلال
تعلم البلبل المعشوق منطقته	من بعضه شكر أسرار وأصال
وحير الذهن فياض الخيال به	كأنه لم يكن قد مر بالبال
فأسبكه فى قالب يحيا القريض به	فإنه من معالى وحبك الغالى
وانشره للناس تبسرا يغستنون به	فإننا فسقراء العلم والمال
هدية إن تكن قلت بقيمتها	فإنها صفو أحلام وآمال
مسائر من دواوين الألى عرّفوا	سر الطبيعة فاحفظها كأمثال
فأنت طائر وادى النيل منبسطا	وذى أغاريد أبحار وأجبال
لها لدى الغرب تقديس وتكرمة	كما لقولك فينا مجد العالى

يجرى الهيمان بها حراً لمعجزة
 عُرفت بالأدب الشرقى مفتتاً
 ليس الجمال له حدٌ يحدُّ به
 متع فؤادك بالسحر الذى امتلأت
 وبالكنوز التى باهى الزمان بها
 وبالحلى التى مازال رونقها
 وأعدر حجاب على تقصير مقتضب
 هذا لملكك تاج أنت حليته

نادى مستشفى سانت جورج

بلندن

وما بها غير إحسان وإجمال
 فأنظر لوجه أخيه الباسم الحالى
 واى خالد قول من سنا خال
 به مفاخر (بيرون) و (ميرقال)
 وصانها اوت أجيمال لأجيمال
 من مدهشات معانى الشاعر الحالى
 فإن فضل رسولى فوق إقلال
 وأنت أهل لتلقاه بالقسمال
 أحمد زكى أبو شادى

(طبيب)

٥ - العاطفة في الشعر (*)

إن روح الشاعر مثل آلة القناء ، لابد أن تنهياً تهباً خاصاً لكل نغمة من النغمات فيقصر بعض الأوتار ، ويطل بعضها ، ويشد وتر ، ويرخي آخر ، والشاعر لا يمكنه أن يهين روحه كذلك متى شاء . بل لابد من أسباب يتوخاها زمناً ، حتى يساعد الطبع فتتهياً نفسه ، ثم يوقع عليها ما يشاء وجدانه من الألحان . والشاعر الكبير لا يكتفى بإفهام الناس . بل هو الذي يحاول أن يسكرهم ويجنهم بالرغم منهم . فيخلط شعوره بشعورهم ، وعواطفه بعواطفهم . ولشعر العواطف رنة ونغمة لا تجدها في غيره من أصناف الشعر . وسيأتي يوم من الأيام يفيق الناس فيه إلى أنه هو الشعر ولا شعر غيره . فالشعر مهما اختلفت أبوابه لابد أن يكون ذا عاطفة . وإنما تختلف العواطف التي يعرضها الشاعر . ولا أعنى بشعر العواطف رصف كلمات ميتة تدل على التوجع أو ذرف الدموع . فإن شعر العواطف يحتاج إلى ذهن خصب ، وذكاء ، وخيال واسع ، لدرس العواطف ومعرفته أسرارها وتحليلها ، ودرس اختلافاتها وتشابهها ، واثلاثها وتناكرها ، وامتزاجها ومظاهرها وأنغامها ، وكل ما توقع عليه أنغام العواطف من أمور الحياة وأعمال الناس . فينبغي للشاعر أن يتعرض لما يهيج فيه العواطف والمعاني الشعرية . وأن يعيش عيشة شعرية موسيقية بقدر استطاعته . وينبغي له أن يعود نفسه على البحث في كل عاطفة من عواطف قلبه ، وكل دافع من دوافع نفسه . لأن قلب الشاعر مرآة الكون ، فيه يبصر كل عاطفة جليلة شريفة فاضلة ، أو قبيحة مرذولة وضيعة .

والحياة في نظر الشاعر الذي يعيش لفنه الجليل ، قصيدة رائعة تختلف أنغامها باختلاف حالاتها . ففيها نغمة البؤس والشقاء ، وفيها نغمة النعيم والجلد ، وفيها أنغام الحقد واللؤم ، والشر والندم ، واليأس والكراهة ، والغيرة والحسد ، والمكر والقسوة ، وأنغام الرحمة والجود ، والأمل والرضا والحب ، فالشاعر الكبير هو الذي يتعرف كيف يقتبس من هذه الحالات أنغامها ، ويصوغها شعراً . وهو الذي عواطفه مثل عواطف الوجود ؛ مثل الأمواج أو الرياح أو الضياء أو النار أو الكهرباء . وهو الذي يحكي قلبه الأركستر الكثير الآلات ، الكثير الأنغام . أليس الوجود أيضاً أركستر آلاته الناس ، وعواطفهم وأعمالهم ، والرياح والأمواج ،

(*) مقدمة الجزء الثالث « أناشيد الصبا » الطبعة الأولى ، ١٩١٥ م .

والطيور والحيوانات ؟ كذلك قلب الشاعر أركستر آلاته العواطف . ومن أجل ذلك لا ينظم الشاعر الكبير إلا في نوبات انفعال عصبى ، في أثنائها تغلى أساليب الشعر في ذهنه ، وتتضارب العواطف في قلبه . ولكن تضارباً لا يزعج نبضه طيور الأنغام الشعرية التي تغرد في ذهنه . ثم تتدفق الأساليب الشعرية كالسيل ، من غير تعمد منه لبعضها دون بعضها . أما في غير هذه النوبات ، فالشعر الذي يصنعه يأتي فاتر العاطفة ، قليل الطلاوة والتأثير . وإدمان الاطلاع أساس في الشعر . لأنه هو الذي يهيئ الطبع . أما انتقاء الأساليب عند النظم ، فدليل على أن الشاعر غير متهى الطبع ناضبه ؛ ليس في أعصابه نغمة ، ولا في قلبه عاطفة.

وإذا نظرت في الشعر العربى ، وجدت أن شعراء الجاهلية وصدر الإسلام ، كانوا أصدق عاطفة ممن أتى بعدهم . والسبب في ذلك أن النفوس كانت كبيرة ، والعواطف قوية ، لم يتلفها بعد الترف والضعف ، وغير ذلك من الصفات التي تطرقت إلى الأمة في عهد الدولة العباسية ، وما بعدها من العصور التي أولع فيها الشعراء بالعبث والمغالطة ، والمغالاة الكاذبة ، والتلاعب بالألفاظ ، والخيالات الفاسدة . وشعر الأمة مرآة حياتها . فإذا كانت نفوس أفرادها كبيرة ، كان شعرها شديد التأثير ، صادق العاطفة . وإذا كانت نفوس أفرادها حقيرة ، كان شعرها ألفاظاً مرضوفة ميتة ، ليس فيها عاطفة . والعواطف هي القوة المحركة في الحياة ، وهى للشعر بمكانة النور والنار .

٦ - فى الشعر (*)

إن وظيفة الشاعر فى الإبانة عن الصلات التى تربط أعضاء الوجود ومظاهره ، والشعر يرجع إلى طبيعة التأليف بين الحقائق . ومن أجل ذلك ، ينبغى أن يكون الشاعر بعيد النظر ، غير آخذ رواء المظاهر ، مأخذ نور الحق . فيميز بين معانى الحياة التى تعرفها العامة وأهل الغفلة ، وبين معانى الحياة التى يوحى إليه بها الأبد . وكل شاعر عبقرى ، خلىق بأن يدعى متنبئاً . أليس هو الذى يرمى مجاهل الأبد بعين الصقر ، فيكشف عنها غطاء الظلام ، ويرينا من الأسرار الجلييلة ما يهابها الناس ، فتغرى به أهل القسوة والجهل ؟ .

كل شئ فى الوجود قصيدة من قصائد الله . والشاعر أبلغ قصائده .

الشاعر هو الذى لا يعيش مثل أكثر الناس ، مقبوراً فى الأحوال التى تحوطه . هو الذى إذا عاش ، كان له من شاعريته وقاء من عداة قتلى المظاهر . فإذا مات كانت الشهرة زهرة على قبره . فإذا لم تسعده الشهرة ، هبطت روح الطبيعة على قبره ، تظله بجناحها ، وتفرخ فوقه أبناءها الشعراء . تلك الأرواح التى تستمد الوحي من عظامه ، وتسقيه من دموع الرحمة والحب والحنان .

وليس الشاعر الكبير من يعنى بصغيرات الأمور . ولكنه الذى يُخلق فوق ذلك اليوم الذى يعيش فيه . ثم ينظر فى أعماق الزمن آخذاً بأطراف ما مضى وما يستقبل . فيجئ شعره أدياً مثل نظرتة . وهو الذى يلج إلى صميم النفس فيترع عنها غطاءها وهو الذى إذا قذف بأشعاره فى حلق الأبد ساغها . فعيب شعرائنا جهلهم جلالة وظيفة الشاعر . لقد كان بالأمس نديم الملوك ، وحلية فى بيوت الأمراء . ولكنه اليوم رسول الطبيعة ترسله مزوداً بالنعيمات العذاب ، كى يصقل بها النفوس ويحركها ، ويزيدها نوراً وناراً . فعظم الشاعر فى عظم إحساسه بالحياة ، وفى صدق السريرة الذى هو سبب إحساسه بالحياة . وإذا رأيت شاعراً يأخذ الحقيير مأخذ الجليل من الأمور ، ويحسب الحوادث الصغيرة من الحوادث الكبيرة ، فاعلم أنه ضئيل الشعر . فإن ضئيل الشعر يغتر بضجة الحوادث ، ولا يعلم أن حوادث النفس على صمتها أجل الحوادث .

(*) مقدمة الجزء الرابع « أزهار الربيع » ، الطبعة الأولى ، ١٩١٦ م .

سئل وردزورث الشاعر الإنكليزي عن شعر شاعر ، فقال إنه ليس من المحتم في شيء . فكأنه يقول إن أجل الشعر ما يخاله المرء قطعة من القضاء ، لا بد من حدوثها . فإذا أردت أن تميز بين جلاله الشعر وحقارته ، فخذ ديواناً وقرأه ، فإذا رأيت أن شعره جزء من الطبيعة ، مثل النجم أو السماء أو البحر ، فاعلم أنه خير الشعر . وأما إذا رأيت أنه أكثره صنعة كاذبة ، فاعلم أنه شر الشعر . فالشعر هو ما اتفق على نسجه الخيال والفكر إيضاحاً لكلمات النفس وتفسيراً لها .

فالشعر هو كلمات العواطف والخيال والذوق السليم . فأصوله ثلاثة متزاوجة فمن كان ضئيل الخيال ، أتى شعره ضئيل الشأن . ومن كان ضعيف العواطف ، أتى شعره ميتاً لا حياة له . فإن حياة الشعر في الإبانة عن حركات تلك العواطف ، وقوته مستخرجة من قوتها ، وجلاله من جلالها . ومن كان سقيم الذوق ، أتى شعره كالجنين ناقص الحلقة . غير أن بعض الناس يحسب أن سلامة الذوق في وصف الكلمات كأنما الشعر عنده جلبة وقعقة بلا طائل معنى . أو كأنما هو طنين الذباب . ولا يكون الشعر سائراً إلا إذا كان عند الشاعر مقدرة على التأليف بين اللفظ والمعنى . ولست أعجب من أحد ، عجبى من الأدباء الذين ينظمون الشعر في مواضيع تطلب منهم الكتابة فيها . فينظمون من أجل إرضاء من سألهم ذلك . كأنما الشاعر آلة وزن . ولكن الشاعر هو الذي لا ينظم حتى تنوبه تلك النوبة التي تدفعه إلى قول الشعر ، بالرغم منه ، في الأمر الذي تنهياً له نفسه .

قد أصبح الشعر عندنا كلمات مبنية ، ليس تحتها طائل معنى . يحسب الناس أنه إذا أخذ من النحو والصرف والعروض كفاية ، وأصاب من طرف الشعر غاية فقد أجاده . وإنما الشعر كلمات تخرج من النفس بيضاء مشبوبة . وكما أن العاطفة تنطق الشاعر ، كذلك قد تخرسه شدتها . ومن أجل ذلك كانت ذكرى العاطفة والتفكير فيها ، شعراً . وإنما نعني الذكرى التي تعيد العاطفة ، والتفكير الذي يحييها . وليس شعر العاطفة باباً جديداً من أبواب الشعر ، كما ظن بعض الناس فإنه يشمل كل أبواب الشعر . وبعض الناس يقسم الشعر إلى أبواب منفردة . فيقول : باب الحكم ، وباب الغزل ، وباب الوصف ، الخ ... ولكن النفس إذا فاضت بالشعر ، أخرجت ما تكنه من الصفات والعواطف المختلفة في القصيدة الواحدة . فإن منزلة أقسام الشعر في النفس ، كمنزلة المعاني من العقل . فليس لكل معنى منها حجرة من العقل منفردة بل تتزاوج وتتوالد فيه . فلا رأى لمن يريد أن يجعل كل عاطفة من عواطف النفس في قفص وحدها . .

ومن القراء فئة كأنها تريد أن تشم من شعر الشاعر رائحة الدسم . وأن يملأ شعره بطون أفرادها لا عقولهم . كأن النفوس تقاس بالدرهم والدينار . وكأن الشعر لا يوزن إلا بالرطل والأقّة ! وبعض القراء يهذى بذكر الشعر الاجتماعي ، ويعنى شعر الحوادث اليومية ، مثل افتتاح خزان ، أو بناء مدرسة ، أو حملة جراد ، أو حريق ، أو زيارة ملك ، أو حفلة فى نادى الألعاب ، أو مجئ طيار . فإذا ترفع الشاعر عن هذه الحوادث اليومية ، قالوا ما له ؟ هل نضب ذهنه ، أم خبت عاطفته ، أم دجا خياله ؟ ويجعلون منزلة الشاعر على قدر عدد قصائده فى تلك الحوادث ! فإذا نظم أحدهم قصيدتين فى الجراد ، كان عندهم أعلا منزلة ممن نظم قصيدة واحدة ، وليس أدل على فوضى الأدب وفساد ذوق الجمهور من هذا الهراء . كأنما الشعر جريدة منظومة ، أو كأنما الشاعر مصنع لصنع الأوزان . وإنما الشاعر هو الذى يحاول أن يبلغ إلى أعماق النفس ، وأن يضرب على كل وتر من أوتارها ، والذى تسمو معه النفس عن تلك الحوادث إلى سماء الشعر فينشقها نسيمه وينعشها بنفحاته ، ويسمعها من ألبانها ، ويريق عليها من ضيائه ما يرفعها عن منزلة البهم إلى منزلة الآلهة .

وهناك فئة تريد من الشاعر أن يكون أكثر شعره تكلفاً للحكمة . فأتى بأمثال من بطون الكتب ، وأفواه العامة ، نصفها حق ونصفها باطل . ثم بصوغها شعراً من غير أن يكون قد أحس لذعها فى ذهنه ، ولا شعر بقيمتها . وشر الحكمة التى يتكلفها الزانئون . وإنما حكمة الشاعر تبدو فى كل قسم من أقسام شعره سواء الغزل والوصف والثناء الخ ... فإن شعر الشاعر مهما اختلفت أبوابه ينبئ عن نصيبه من التفكير . وحكمة الشاعر تجاربه وخواطره فى الحياة . تلك الخواطر التى ينضجها الشعور والتفكير . والشاعر لا يسير على رأى واحد لا يتعمده . فإن المذاهب الفلسفية أزياء تأتى وتروح مثل أزياء باريس . والنفس أعظم من أزيائها ، ولكل حالة زى . والشاعر لا يعبر عن عاطفة واحدة ، أو نفس واحدة بل يعبر عن عواطف متغايرة ، ونفوس متباينة . فلا رأى لمن يريد أن يقيد بمذهب من مذاهب الفلاسفة يذود عنه ويتعصب له . فإن الشاعر يرى جانب الصواب من كل مذهب ، ويعبر عن كل نفس .

ولقد رأيت بعض القراء لا يفهم منزلة الغزل فى الشعر . إن مزية الغزل ، سببها أن حب الجمال حب الحياة . وكلما كان نصيب المرء من حب الجمال أوفر ، كان نصيبه من حب الحياة أعظم . وحب الحياة والجمال من العوامل الاجتماعية القوية التى تزجى الأمم إلى التفوق والاستعلاء ، ولا أعنى بالغزل غزل الشهوان ، بل الغزل الروحانى الذى يترفع عن أوصاف الجسم ، إلا ما بدا للروح أثر فيه . والحب أعلق العواطف بالنفس . ومنه تنشأ عواطف كثيرة ،

مثل البغض أو الود أو الرجاء أو اليأس ، أو الحسد أو الندم ، أو الشجاعة أو الجبن أو حب العلاء ، أو الجود أو البخل . ومن أجل ذلك كان للغزل منزلة كبيرة في الشعر ، من حيث هو جماع العواطف ، ومظهر دروسها . فالغزل يعبر عن جميع العواطف النفسية . ومن حيث إن حب الجمال حب للحياة ، ترى فيه آراء الشاعر ، وكل ما يعتوره في الحياة من الخواطر ، ويصيبه من التجارب ، وكل ما يسمو إليه فكره أو يحن إليه قلبه ، وكل ما يعالجه من أساليب الحياة . وهذا الغزل الذي هو واسطة القلادة ، وسلك العقد ، وروح الشعر ليس من شروطه تعليق العاطفة بفرد من أفراد الناس ، وقصرها عليه ، وإن كان أدعى إلى ظهورها . فإن الغزل الذي نعنيه سببه العاطفة التي تجعل المرء يحس الجمال إحساساً شديداً في جميع مظاهره ، سواء جمال الوجوه والأجسام ، أو جمال الأزهار والأنهار ، أو جمال البرق في السحاب ، أو جمال الليل ونجومه ، أو الصباح ونسيمه ، أو جمال النفوس والأخلاق ، أو جمال الصفات ، أو الحوادث والوقائع ، أو جمال الخيالات التي يخلقها الذهن . وليست محبة الفرد للفرد إلا مظهراً من مظاهر هذه العاطفة الواسعة التي تخنو على كل جمال يستجلى في الحياة . وهذه العاطفة الشعرية تفيض ضياها على كل شيء ، حتى على جوانب الحياة المظلمة الكريهة ، فتحورها جمالاً فنياً ؛ مثل جمال الصور البديعة التي يعجب المرء جمالها الفني ، حتى ولو كانت صورة مذبحة ، أو جمال الأنغام الحزينة التي تذيب القلب . والشاعر المناسب مثل المصور ، إنما يستعمل من صور الملاحظة التي في ذهنه . ولقد سئل جيدو ريني المصور الإيطالي : من أين لك هذه الخلق المليحة التي تودعها صورك ؟ فقال لسائله . انظر ! ثم أتى بشيخ قبيح وأجلسه أمامه نموذجاً ، ورسم صورة فتاة مليحة ، كأنها قد جمعت بين جمال الملائكة وجمال الحور . ثم قال : « أترى في هذا الشيخ الدميم مثل هذا الجمال ؟ نحن أصحاب الفنون نحمل في نفوسنا دنيا أجمل من هذه الدنيا » . وما يدرينا لعل قيساً بن الملوح كان يشبب بليلي التي في الدنيا التي في نفسه ، لا بليلي العامرية .

كان جيئى الشاعر يقدر الأشياء والناس بقدر ما يستفيد من رؤيتهم ولقائهم من صفات الشعر ومواضيعه ، وعواطفه وقصصه وبواعثه ، فإذا رأى عبوزاً تسعى أو شيخاً هرمًا أو فتاة أو طفلاً أو فقيراً أو غنياً إلخ عدهم كلهم بواعث من بواعث الشعر ، مهما اختلفت صفاتهم . وكان يخزن من رؤيتهم ما اكتسبه لساعة الشعر والإلهام . فإن رؤيتهم تبعث على التفكير وتوقظ الملكة الفنية ؛ أو كأنما رؤيتهم ريح تهيج أمواج نفس لشاعر فيعلوها درها وأصدافها ، وكذلك يهيج الشاعر إلى الشعر لذاته وآلامه ، فيصوغ الشعر من لذاته وآلامه وآماله ، كما يصوغه من لذات الناس وآلامهم وآمالهم .

٧ - فى الشعر ومذاهبه (١)

يقولون إن الشعر ليس من لوازم الحياة . ولو جاز لنا أن نعد الإحساس غير لازم للنفس ، أو التفكير غير لازم للعقل ، لجاز لنا أن نعد الشعر غير لازم للحياة . أليس مجال الشعر الإحساس بخوارج النفس وشرح ما يعتورها ؟ ويقولون إن الشاعر ينبغى أن لا يجعل الشعر مائلًا لحياته ، كأن الشعر ليس ضرورة الشاعر ودينه . فإن الشاعر الصميم يرى أن الشعر أجل عمل عمله فى حياته ، وأنه خلق للشعر ، فليس الشعر متممًا لحياته بل هو أساسها . هل العطر كماله متمم للزهر ، أم العذوبة كماله للماء ؟ كلا . فإن الزهر يراد لعطره ، والماء لعذوبته ، والنحل لشهده ، والشاعر لشعره .

ولو جئت بنفس ليست من النفوس المنقومة الموسيقية ، وأردت أن توقع عليها ألحان الشعر ، ما أفلحت . ولكن الشاعر إذا لم يتعهد بالتهذيب ، بقى كالحديقة التى طغى عليها كالأها ومات زهرها . وينبغى للشاعر أن يتذكر كى يجنى شعره عظيمًا ، أنه لا يكتب للعامة ، ولا لقرية ، ولا لأمة ، وإنما يكتب للعقل البشرى ، ونفس الإنسان ، أين كان . وهو لا يكتب لليوم الذى يعيش فيه ، وإنما يكتب لكل يوم وكل دهر . وهذا ليس معناه أنه لا يكتب أولاً لأمته ، المتأثر بحالتها ، والمتهى ببيئتها . ولا نقول إن كل شاعر قادر على أن يرقى إلى هذه المنزلة ، ولكنه باعث من البواعث التى تجعل شعره أشبه بالمحيط - إن لم يكن محيطًا - منه بالبركة العطنة فى المستنقع الموى .

ويمتاز الشاعر العبقرى بذلك الشره العقلى الذى يجعله راغبًا فى أن يفكر كل فكر ، وأن يحس كل إحساس . وهذا هو الدافع الذى يدفعه بالرغم منه ، إلى أداء ما قد خلق له من التعبير عن حقائق حياته لها الطبيعة . فهو يقدر أن يتحمل جهل الناس ، لأن الشاعر الكبير يخلق الجيل الذى يفهمه وبهيته لفهم شعره . ويعين الشاعر العبقرى فى أداء ما فرضته عليه الطبيعة ثقته من شعره بالرغم من كثرة إساءة ظنه به . فإن إساءة ظنه بشعره ، إنما سببها رغبته فى الكمال . وهى سائقة به إلى منازل . والشاعر العبقرى يعلم أن حياة الشاعر حرب أدبية ينجلى بعدها النفع ، فيُعرف الظافر والمنهزم .

ولقد فسد ذوق المتأخرين فى الحكم على الشعر . حتى صار الشعر كله عبثاً لا طائل تحته .
فإذا تغزلوا جعلوا حبيبهم مصنوعاً من قمر ، وغصن ، وتل ، وعين من عيون البقر ، ولؤلؤ ،
وبرد ، وعشب ونرجس الخ ... ومثل ذلك قول الواواء الدمشقى ، وهو البيت الذى ينسب ظلماً
إلى يزيد بن معاوية :

فأمطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت ورداً وعصت على العناب بالبرد

وذوق الأمويين برئ من أمثال هذا القول . ولا أريد أن أجمع على يزيد جرّمين : قتل
الحسين ، وقول هذا الشعر الذى لا بأس به ، إذا أريد للفكاهة والعبث ، لا للغزل الذى يشرح
عواطف النفس ويشعرك إياها . وإذا أراد المتأخرون وصف الحب ، أكثروا من ذكر الدموع ،
وقالوا إن دموعهم تغنى عن المطر ، وأن البحر قطرة إذا قيس بها ، وأنهم سلخوا عاماً لم
يذوقوا فيه النوم ، وأن جسمهم صار أقل من القليل ، حتى أنهم يخشون أن يطيروا مع الهواء
لنحولهم . وأنهم لا يريدون أن يروا حبيبهم بالليل لأن طلعتة تجعل الليل نهاراً فيفتضحون .
ولكنهم يريدون أن يروه نهاراً لأن طلعتة من نورها تجعل ضوء النهار ظلاماً ، فيخفون عن
العذال ، إلى آخر ما ذكروا من هرائهم . وإذا رثوا قالوا : إن السماء كادت أن تسقط لموت
المرثى . وأن الليالى لايسة حداداً عليه . وأنه قد شاعت تعازى الشهب باللمح بينها حزناً على
النير الهاوى إلى الفلوات . وأن القمر به كلف حزناً عليه . وأن الرياح تنوح أسفاً على موته .
وأن الملائكة لبست السواد حداداً عليه . وأن القبر لا يسعه لأنه بحر . وإذا صلب أحد الأمراء ،
قالوا إن قاتليه أجلوه فلم يرضوا له القبر . وينشدون أبيات الأنبارى التى يقول فيها :

ولما ضاق بطن الأرض عن أن يضم هلاك من بعد الممات

أصاروا الجسود قبرك .. إلخ ..

ويقولون : انظر إلى مهارة الشاعر فى قلب الحقائق ، وإظهار الذميمة مظهر الحسن . وإذا
مدحوا قالوا للممدوحهم إن وجهك قمر ، ولحيتك ذهب يطرز هذا القمر . وأنت بحر ، وأسد ،
وعمام ، وأن الدنيا لو دخلت فى صدرك لوسعها لأنه رحيب . وأنشدوه قول المتنبى :

وقلبك فى الدنيا ولو دخلت بنا وبالجن فيه مادت كيف ترجع

وقالوا له : إنك لو غضبت على النجوم ، لانتفأت من غضبك . وإنك لولا انقطاع الوحى
لنزلت فيك الآيات والصور . وإذا مات للمدوح قريب ، لم يكن فى بيته حينما أدركته المنية ،
قالوا إن المنية لم تجرؤ عليه إلا لأنه كان غائباً عنك .

وقد فسد ذوق القراء حتى أنهم إذا رأوا خيالا يفسر حقيقة ، لم تتملكهم هزة الطرب التى تنوبهم عند قراءة الخيال الفاسد ، وإنما يعجبهم من الخيال استحالته وبعده عن المألوف عقلا : وإذا وضحت لهم فسادهم قالوا : إذا كل خيال فاسد . وزعموا أن حلالة الشعر فى قلب الحقائق وإخراجنا من هذا العالم إلى عالم ليس للعقل فيه سبيل . عالم يرخص المرء لعقله أن يتنزه فيه أينما شاء من غير خشية رقيب . كما يفعل الموظف كل سنة حين يترك فروض الحياة . ومن أجل ذلك شاع عندهم أن الشعر نوع من الكذب وليس أدل على جهلهم وظيفه الشعر من قرنهم الشعر إلى الكذب . فليس الشعر كذبا بل هو منظار الحقائق ، ومفسر لها . وليست حلالة الشعر فى قلب الحقائق ، بل فى إقامة الحقائق المقلوبة ، ووضع كل واحدة منها فى مكانها ولن كان بعض الشعر نزهة ، فإن بعض النزهة فرض . ولئن كان بعض الشعر رحلة ، فهى رحلة إلى عالم أجمل وأكمل وأصدق من هذا العالم . رحلة إلى عالم يحس المرء فيه لذات التفكير ، أكثر مما يحسها فى هذا العالم الأرضى .

وإذا تدبرت ما ذكرته ، عرفت فساد ذوق الجمهور فى حكمه على الشعر . وكيف أنه يقبل على الشعر المزدول وبعده جيدا . ويعاف الشعر الجليل ، الصادق الخيال ، الكثير الحقائق . وبعض القراء يرى أن الشعر مقصور على التشبيه ، مهما كان الشبه الذى فيه متوهما . ومثل الشاعر الذى يرمى بالتشبيهات على صحيفته من غير حساب ، مثل الرسام الذى تغرّه مظاهر الألوان فيصلا بها رسمه من غير حساب . وليس الخيال مقصورا على التشبيه ، فإنه يشمل روح القصيدة وموضوعها وخواطرها وقد تكون القصيدة ملأى بالتشبيهات وهى بالرغم من ذلك تدل على ضآلة خيال الشاعر . وقد تكون خالية من التشبيهات . وهى تدل على عظم خياله . وقيمة التشبيهات فى إثارة الذكرى أو الأمل ، أو عاطفة أخرى من عواطف النفس ، أو إظهار حقيقة . ولا يراد التشبيه لنفسه . كما أن الوصف الذى استخدم التشبيه من أجله لا يطلب لذاته ، وإنما يطلب لعلاقة الشئ الموصوف بالنفس البشرية وعقل الإنسان . وكلما كان الشئ الموصوف ألصق بالنفس . وأقرب إلى العقل ، كان حقيقا بالوصف . وهذا يوضح فساد مذهب من يريد وصف الأشياء المادية لأنها مما يرى ، لا لسبب آخر . وهذا الوصف خليق بأن يسمى الوصف الميكانيكى . فوصف الأشياء ليس بشعر إذا لم يكن مقرونا بعواطف الإنسان وخواطره ، وذكره وأمانيه ، وصلات نفسه .

فالخيال ليس قاصرا على التشبيهات . والشاعر الكبير ، ليس هو ذا التشبيهات الكثيرة ، الذى يكثّر من مثل وكأن . ولو كان ليس بعدها إلا المعنى المتضائل ، والصورة المضطربة ،

غير المتجانسة الأجزاء . فإن الخيال هو كل ما يتخيله الشاعر من وصف جوانب الحياة . وشرح عواطف النفس وحالاتها ، والفكر وتقلباته ، والموضوعات الشعرية وتباينها ، والبواعث الشعرية . وهذا يحتاج فيه إلى خيال واسع . والتشبيه لا يراد لذاته كما يفعل الشاعر الصغير ، وإنما يراد لشرح عاطفة أو توضيح حالة ، أو بيان حقيقة . وإن أجل الشعر هو ما خلا من التشبيهات البعيدة والمغالطات المنطقية . انظر مثلاً إلى قول مويك يرثى امرأته وقد خلفت له بنتاً صغيرة ، فقال يصف حالها بعد موت أمها :

فلقد تركت صغيرة مرحومة لم تدر ما جزع عليك فتجزع

فقدت شمائل من لزامك حلوة فتبست تسهر أهلها وتفسج

وإذا سمعت أنينها في ليلها طفقت عليك شئون عيني تدمع

فهو لم يعلمك شيئاً جديداً لم تكن تعرفه . ولم يبهز خيالك بالتشبيهات الفاسدة ، والمغالطات المعنوية . ولكنه ذكر الحقيقة . ومهارته في تخيل هذه الحالة ووصفها بدقة . وهذا أجل التخييل . وأجل المعانى الشعرية ما قيل في تحليل عواطف النفس ووصف حركاتها ، كما يشرح الطبيب الجسم . ومن أمثال هذا في الغزل قول ابن الدمينه في وصف حياء الحبيب :

بنفسى وأهلى من إذا عرضوا له ببعض الأذى لم يدر كيف يجيب

ولم يعتذر عذر البرئ ولم تنزل به سكرة حتى يقال مسريب

مثل هذا الشعر يصل إلى أعماق النفس ويهزها هزاً . والشعر هو ما أشعر ، وجعلك تحس عواطف النفس إحساساً شديداً ، لا ما كان لغزاً منطقياً ، أو خيالاً من خيالات معاقري الحشيش . فالمعانى الشعرية هي خواطر المرء وآراؤه ، وتجاربه وأحوال نفسه ، وعبارات عواطفه . وليست المعانى الشعرية كما يتوهم بعض الناس التشبيهات والخيالات الفاسدة والمغالطات السقيمة ، مما يتطلبه أصحاب الذوق القبيح . فإذا لم يجد هؤلاء في الشعر مغالاة سخيفة ، أو مغالطة معنوية ، أو ألوية منطقية ، أو تشبيهاً بينه وبين الخيال مثل ما بين لعب الأطفال بالألوان وبين رسم تشميات ومهارته في استخدام الألوان . أقول : إذا لم يجدوا ذلك في الشعر قالوا إن ليس فيه معنى . فإذا سمعت هؤلاء يصفون قصيدة بأنها ملأى من المعانى ، حسبت أن قائلها ذو ذهن خصب ، وعقل راجح كبير ، ونفس عظيمة . وأنه جعلها ذخيرة الحقائق ، والآراء السامية الشريفة . ولكن الأمر ليس كذلك . إذ أنهم يعنون أنها مملوءة من

الخيالات والمغالطات المضطربة . وأن خيال صاحبها بهلوان شعري . أو مشعوذ يغرك بحركاته .
 فينبغي أن نميز في معانى الشعر وصوره ، بين نوعين نسمى أحدهما التخيل والآخر التوهم .
 فالتخيل هو أن يظهر الشاعر الصلات التى بين الأشياء والحقائق . ويشترط فى هذا النوع أن
 يعبر عن حق . والتوهم أن يتوهم الشاعر بين شيئين صلة ليس لها وجود . وهذا النوع الثانى
 يغرى به الشعراء الصغار ، ولم يسلم منه الشعراء الكبار ، ومثله قول أبى العلاء المعرى :

واهجم على جنح الدجى ولو أنه أسد يصول من الهلال بمخلب

فالصلة التى بين المشبه والمشبّه به ، صلة توهم ، ليس لها وجود . وكذلك قول أبى العلاء
 فى سهيل النجوم :

ضرجته دماً سيوف الأعادى فبكت رحمة له الشعرى

أى أعاد رأى سيوف ؟ فى مثل هذا البيت ترى الفرق واضحاً بين التخيل والتوهم . أما
 أمثلة الخيال الصحيح فهو أن يقول قائل إن ضياء الأمل يظهر فى ظلمة الشقاء كما يقول
 الهمداني :

كالكوكب الدرى أخلص ضوءه حلك الدجى حتى تالق والمجلى

فهذا تفسير لحقيقة وإيضاح لها . وكذلك قول الشريف :

ما للزمان رمى قومي فزعزعهم تطاير القُصْب لما صكه الحجر

(القصب القدح) فهو يشبه تفرق قومه بتطاير أجزاء الإناء المكسور . وهذا أيضاً توضيح
 لصورة حقيقة من الحقائق ، وهى تفرق قومه .

فتكلف الخيال أن تجنى به كأنه الشراب الخادع ، فهو صادق إذا نظرت إليه من بعيد ، وهو
 كاذب إذا نظرت إليه من قريب . وبينه وبين الخيال الصحيح ، مثل ما بين الماس الصناعى
 وماس كميرلى . وقد يكون سبب هذا الخيال الكاذب ، التأليف بين شيئين لا يصح التأليف
 بينهما . ثم إن بعد وجه التأليف وخفاء الصلة ليس بمعيب إذا كان وجه الشبه بين الشيئين
 صحيحاً صادقاً ، وكانت الصلة التى بينهما متينة . فليس ظهور الصلة لكل قارئ دليلاً على
 متانتها . فقد تكون ظاهرة ضعيفة ، وقد تكون خفية سليمة صادقة . فليس كل ما يخطر
 على أذهان العامة من الخيالات صادقاً صحيحاً . وهذا سبب من أسباب اشتباه العظيم من
 الشعراء بالضئيل . وعجز الناس عن التمييز بينهما . فإن العبقري قد يغرى باستخراج

الصلات المتينة الصادقة بين الأشياء . فتقصر أذهان العامة عن إدراكها . وهذا ليس مذهب الناظم الوزان الذى يولع بأن يوجد صلات سقيمة بين حقائق ليس بينها صلة . ولكن الشاعر الضئيل يشبه الكبير من حيث إن الشاعر الضئيل يعرف أنه ضئيل بحسناته كما يعرف أنه ضئيل بسيئاته ، وكذلك الشاعر العبقري يعرف أنه عبقري بحسناته ، كما يعرف أنه عبقري بسيئاته ، لأن سيئاته سببها أنه واسع النفس حر الذهن ، غير مقيد بقيود المحاكاة فى فن الشعر .

إن القراء من الجمهور إذا قرأوا قصيدة ، جعلوا يلتقطون منها ما يناسب أذواقهم ثم ينبذون ما بقى من غير أن يبحثوا عن السبب الذى جعل الشاعر ينظم فى قصيدته هذه المعانى . فهم كالمرضى الذى فقد شهوة الطعام ، يأخذه متكرهاً . فهم لا يفتفرون للشاعر أن يكون أوسع منهم روحاً ، وأسلم ذوقاً ، وأكبر عقلاً . ويريدون منه أن ينزل إلى مستوى عقولهم ونفوسهم وأذواقهم . ويحكمون على قصيدته بأبيات منها تستهوى أنفسهم إما بحق وإما بباطل . لأنهم يعدون كل بيت وحدة تامة . وهذا خطأ . إن قيمة البيت فى الصلة التى بين معناه وبين موضوع القصيدة . لأن البيت جزء مكمل ، ولا يصح أن يكون البيت شاذاً خارجاً عن مكانه من القصيدة ، بعيداً عن موضوعها . وقد يكون الإحساس بطلاوة البيت وحسن معناه رهيناً بفهم الصلة التى بينه وبين موضوع القصيدة . ومن أجل ذلك لا يصح أن نحكم على البيت بالنظرة الأولى العجلى الطائشة ، بل بالنظرة المتأملة الفنية . فنبغى أن ننظر إلى القصيدة من حيث هى شئ فرد كامل ، لا من حيث هى أبيات مستقلة فإننا إذا فعلنا ذلك وجدنا أن البيت قد لا يكون مما يستفز القارئ لغرابته وهو بالرغم من ذلك جليل لازم لتمام معنى القصيدة . ومثل الشاعر الذى لا يعنى بإعطاء وحدة القصيدة حقها ، مثل النقاش الذى يجعل نصيب كل أجزاء الصورة التى ينقشها من الضوء نصيباً واحداً .

وكما أنه ينبغى للنقاش أن يميز بين مقادير امتزاج النور والظلام فى نقشه ، كذلك ينبغى للشاعر أن يميز بين جوانب موضوع القصيدة ، وما يستلزمه كل جانب من الخيال والتفكير . وكذلك ينبغى أن يميز بين ما يتطلبه كل موضوع . فإن بعض القراء يقسم الشعر إلى شعر عاطفة وشعر عقل . وهى مغالطة غريبة إذ أن كل موضوع من موضوعات الشعر يستلزم نوعاً ومقداراً خاصاً من العاطفة والتفكير . فبعض شعر الشاعر تكون العاطفة فيه أوضح وألزم . وفى بعضه تكون أقل وضوحاً . ولا ريب فى ذلك إذ أن الغزل مثلاً يستلزم نوعاً خاصاً من العاطفة غير العاطفة التى تبعث على خواطر الحكم والوعظ .

والأدباء فى مصر يخلطون فى الكلام عن الأساليب خلطاً كثيراً . فهم يتناسون أن أجل الشعر العربى وأفخمه ، وأجزله وأسيره ، وأكثره نفعاً وتوكيداً لبقاء اللغة ، هو الشعر الذى لم تتكلف فيه الغرابة . فإن المعلقات أسلس وأجزل شعر الجاهلين (ما عدا الغزل) وأقله غرابة وتعقيداً . وشعر الشريف أجله وأفخمه ما لم يتكلف فيه الغرابة . إن فى شعر الشريف صفتين : حسن الديباجة والقخامة والسلاسة فى أكثر شعره ، وتكلف الغريب فى بعضه . فصار الأدباء يخلطون بين الصفتين ، ويزعمون أن الغريب من لوازم حسن الديباجة ، ولو قرأت شعر الشريف لعلمت كذب ذلك .

وإذا نظرت فى شعر الحريرى ، وجدت أنه مترع بالغريب . ولكنه بالرغم من ذلك ليس من حسن الشعر . وهذه قصيدة ابن زريق ، ليس فيها شئ من الغريب ولكنها من أجل الشعر وأفخمه . وإذا شئت فقل وأضخمه ، لأن الضخامة صفة فى الأسلوب الملتهب الذى يشبه الصخور الذائبة ، التى تسيل من قم البركان . ذلك الأسلوب الذى تؤججه العواطف القوية . وهذا الأبيرودى مغرى بالأساليب الغربية . ولكن شعره ليس عليه طلاوة ، وليس فيه مجتنى . فللشاعر أن يستخدم كل أسلوب صحيح سواء كان غريباً أو معهوداً أليفاً . وليس له أن يتكلف بعض الأساليب . ولا أنكر أن الشعر من قواميس اللغة ، ولكن له وظيفة كبيرة غير وظيفة القواميس . وعاطفة الغريب ، الدائنة بين فئة خاصة منا ، هى رد فعل سببه ولوع شعراء القرنين الماضيين بالركيك من العبارات والأساليب . وقد وجدت بعض الأدباء يقسم الكلمات إلى شريفة ووضيعة . ويحسب أن كل كلمة كثر استعمالها صارت وضيعة . وكل كلمة قل استعمالها ، صارت شريفة . وهذا يؤدى إلى ضيق الذوق ، وفوضى الآراء فى الأدب . قرأ أحد الأدباء قول الشريف :

إن غداً مجدوعه أشراقه فالبنى وأسيه والمجد عالى

فقال : المجد عالى ، عبارة وضيعة من عبارات الفقهاء كثير استعمالها . ولو أردنا أن نحذف من شعر الشاعر ، سواء كان الشريف الرضى أو امرأ القيس ، العبارات الكثيرة الاستعمال ، لحذفنا أكثر شعره .

إذا فامتهان الكلمة أو العبارة لكثرة استعمالها ، رأى غير رجيح . فإننا نجد أجل الشعر كانت عباراته كثير استعمالها . أفتريد أن نحذف ونمتن كل ما كان من نوع قول المتنبى :

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تاتى الرياح بما لا تشتهي السفن

أو قول أبي نواس :

إذا امتحن الدنيا لسيب تكشف له عن عدو في ثياب صديق

أو قول أبي العلاء :

خفف الوطأ ما أظن أديم الـ أرض إلا من هذه الأجساد

أو قول ابن زريق :

لا تعذليه فإن العذل يولعه إلى آخر القصيدة

أو غزل جميل ، وكثير ، وابن الدمينه وغيرهم

هل يرى القارئ في أسلوب ما ذكرنا شيئاً غريباً ؟ كلا . ولكنه بالرغم من ذلك أجل وأفخم وأروع الأساليب . فإذا قولهم الروعة في الغريب ، هراء المتكلمين الوزاتين ، الذين يسرقون معانيهم . وجعلهم حسن الديباجة في الغريب مغالطة تكذبها كل دواوين أشعار العرب . فإن الشاعر الكبير يأتي بالأسلوب رائعاً جليلاً من غير تكلف للغريب . أما المبتدئ فهو الذي يتكلف الغريب كي يخفى به ركاكة عبارته . وكذلك الوزان الغريب ، كي يخفى به جمود طبعه ، وقلة معانيه . وقد سمع أحد الأدباء قول مصطفى المنفلوطي في وصف العامل : « كأنه الآلة في المعمل » : وهذا وصف بديع لبؤس الصانع ، فقال : الآلة من الكلمات الوضيعة لأنها تبعث الذكر الوضيعة ، ولو أخذنا برأى أمثال هذا ، لقضينا العمر في مجادلات لفظية ليس تحتها طائل . فإن الغرابة لا تستعصى على أحد . وإنما الصعوبة في الجمع بين المتانة والسهولة . وليس للشاعر بد من استعمال الكلمات المستعملة ، إذ أن ثلاثة أرباع اللغة من هذا القبيل .

وقد تكون العبارة الملأى بالكلمات الغريبة ، أخص أسلوباً وديباجة ، وأقل متانة من العبارة السهلة ، التي ليس بها غير المألوف من الكلمات . فينبغي للشاعر المبتدئ أن يتطلب المتانة وأن لا يخلط بينها وبين الغرابة ، كي لا تضله الغرابة عن المتانة فيقنع بها . انظر إلى قول المتنبي :

عرفت الليالى قبل ما صنعت بنا فلما دهتنى لم تزدنى بها علماً

هذا أسلوب فخم جزل ، رائع متين . ولكن ليس به غريب . ومن عجيب أدبائنا أن بعضهم إذا قرأت شعره لا تجد فيه شيئاً غريباً ، ولكنه يأتي أحياناً في بعض شعره بكلمات قليلة

غريبة بعض الغرابة ، كى تميز له إدعاء الغرابة . كأن الغرابة تستعصى على أقل الناس ذهنًا وإطلاعًا . فإن الجزالة والمتانة تتطلب من الاطلاع أكثر مما يتطلبه استعمال الغريب . لأن المتانة تستلزم درس آداب كل العصور التى مرت على اللغة العربية حتى يكون ذوق الشاعر واسعًا صحيحًا . ولو فرضنا أن فى الكلمات ، الوضعية والشريفة ، لكان للكلمة الوضعية منزلتها من الشعر مثل الكلمة الشريفة . وإنما العيب فى استعمال الكلمات فى غير مواضعها . فينبغى للشاعر أن يتعرف أية كلماته تعبر عن المعنى أو العاطفة التى يريد وصفها أتم تعبير . فالكلمة قد تكون شريفة أو وضعية حسب الاستعمال . فشرف الكلمة فى دلالتها على المعنى ، وفى وقوعها موقعها الخاص بها من الشعر ، لا فى غرابتها . فلو كانت الكلمات وضعية تلو كها الألسن فيزرى بها ذلك ، لأزرى باللغة العربية أن لاكتها الألسن هذه العصور الطويلة . فضعة الكلمة إذا هى (التى) غطت على المعنى والعاطفة وزادتهما غموضًا ، وأفسدت نغمة الشعر وروحه وخفة طبعه ، وموهت غثاثة المعنى والعاطفة ، وأخفت ضعف الشاعر وعجزه .

والذى يجنى على بعض شعرائنا تعصبهم لشاعر دون شاعر . أو لعصر دون عصره . فى حين ينبغى تطلب صحة الذوق التى أساسها سعة الاطلاع . فإن الشاعر ينبغى أن يتميز الأساليب ، كما يتميزز الخمر المعتقة ، ويطرشفها كما يطرشف الكؤوس . ولكنه يلتذ منها جمالها لا غرابتها . فإن الأساليب الصحيحة مهما تباينت فى غرابتها وسهولتها ، من قماش واحد وذات لون واحد . هذه حقيقة يعرفها الطبع ، وإن كان ينكرها التصنع .

والاطلاع شراب روح الشاعر . وفيه ما يوقظ ملكاته ويحركها ، ويلقح ذهنه ، ونفس الشاعر ينبوع ؛ والاطلاع هو الآلة التى يرفع بها ماء ذلك ينبوع إلى الأماكن العالية . والشاعر فى حاجة إلى محركات وبواعث ، والاطلاع فيه كثير من هذه المحركات والبواعث . والأديب الذى لا يغرم بالاطلاع كالماء الأجن العطن ، الذى لا يحركه محرك . وإنما عمل الشاعر فيما يطلع به عمل النحل فى قول أبى العلاء المعرى :

والنحل يجنى المسر من نور الربى فيصير شهداً فى طريق رضابه

فالعالم الماهر يخرج من الجيد جيداً . ولكن العبقرى يخرج أيضاً من الردى جيداً . ولكن بعض القراء يقى على صحيفته ما قد قرأ بدل أن يخرج من أزهار ما قرأ شهداً . وهذا هو الفرق بين العبقرى وغيره من الناس . نعم إن المطلع بآداب لغة من اللغات ، لابد أن يجتنى بعض ما يقرأ من المعانى والخيالات من غير أن يشعر . وإنك إذا أدمنت قراءة المتنبي مثلاً

علقت بذهنك بعض معانيه . وأما المعيب فهو أن يأخذ الشاعر المعنى عمداً . أما إثبات العمد فليس من الصعوبة بمكان . فمن مظاهر تعمد السرقة دقة النقل والأخذ لا المشابهة والتوليد . فإن المشابهة والتوليد لاتعد سرقة . ومنها تسلسل المعاني كما فى الأصل . وكثرة المتشابه وعجز الشاعر عن الابتداع والتوليد .

وشعراء العرب لم يكونوا جهالا بآداب غيرهم وعلومهم وحضارتهم . فليس كل التربية مدرسية . انظر إلى زهير بن أبى سلمى وحكمه ، وانظر إلى امرئ القيس وعلاقته بالحضارة البيزنطية ، وعدى بن زيد وتفكيره وعلاقته بالحضارة الفارسية . وانظر إلى رواج العلوم فى أيام الدولة العباسية . وتأثر أبى العتاهية وابن الرومى والمنتبى والشريف الرضى وأبى العلاء المعرى بهذه العلوم . فإن هذا التأثير واضح فى أشعارهم كل الوضوح . وإنما فسدت آداب اللغة العربية حين ساد الجهل فى الممالك العربية فى العصور الأخيرة . فإن سنة التقدم تقتضى الاطلاع بما يستحدث فى الآداب والعلوم . وكلما كان الشاعر أبعد مرمى وأسمى روحاً ، كان أغزر اطلاعاً . لا يقصر همته على درس شئ قليل من شعر أمة من الأمم . فإن الشاعر يحاول أن يعبر عن العقل البشرى والنفس البشرية ، وأن يكون خلاصة زمنه . وأن يكون شعره تاريخاً للنفوس ، ومظهر ما بلغت النفوس فى عصره . وما عجبت من شئ عجبى من القوم الذين يريدون أن يجعلوا حداً فاصلاً بين آداب الغرب وآداب العرب ؛ زاعمين أن هناك خيلاً غريباً وخيلاً عربياً .

نعم إن كل لغة لها خصائص وذوق . ولكن بالرغم من ذلك نجد الخيال الجليل والمعنى الرائع المصيب محموداً حيث كان . إذ أنه ليس رهناً بخصائص اللغات ، وإنما مرجعه العقل البشرى والنفس الإنسانية . إنما المغالطات المنطقية والتشبيهات المتوهمة رهينة بخصائص اللغات ، وتختلف فى كل لغة حسب ذوق الجماهير فيها . وإذا قرأ الشاعر العربى آداب الأمم الأخرى أكسبته قراءتها جدة فى معانيه ، وفتحت له أبواب التوليد . فإن الشاعر الكبير ، كى يعبر عما فى نفسه من العبقرية تمام التعبير حتى لا يبقى بعضها مكتوماً مجهولاً ، لابد أن يجدد ذهنه دائماً بالإطلاع . وأن يحرك به نفسه . وأن ينوع من ذلك الاطلاع . فإن شره الإحساس والتفكير ، هو ميزة العبقرى . فإن مذاهب القول التى تستلزمها حياتنا تقتضى درس آداب العناصر الأخرى التى عمرت العالم وأنشأت لها حضارة وعلومًا وفنونًا . فإن درسها يوسع عقولنا ، ويجدد آمالنا وقوانا ، ويهين ويحيى ذكائنا ويعلى خيالنا . ولكى ينبغى أن لا نكون

ناقلين بل ينبغى أن نكون مفكرين باحثين فيها . ومن دلائل هلاك الأمم نظرها دائماً إلى حياة أجدادها واحتذائهم فيها احتذاء لا روح ولا قوة فيه ، ولا ذكاء ولا فطنة . ولقد بدأ الناس يتهمون ذوى الاطلاع بالنقل والأخذ والسرقة . وهذا الاتهام شئ لا غرابة فيه ، فإن دخول الآراء الجديدة ، والمذاهب والأغراض والمسالك الشعرية الحديثة ، واتخاذ الآداب شكلاً غير شكلها المعهود ، يدعو إلى الظنة والاتهام .

ولكن بما زاد الطين بلة ، أن بعض الأدباء لا يراعى حرمة ولا يردعه ضميره عن السرقة اللفظية . وأمثال هذه الأفعال قد بثت في أذهان كثير من القراء ، أن كل شئ ، جليل معناه ، غريب موضوعه ، مسروق لا محالة . وروج هذا الرأي طلاب فوضى الآداب الذين يمرحون في ظلامها مرح الخفافيش في الظلام . وهؤلاء هم الغلمان المفلوجون والجهلاء ، وأهل الحسد والحقد والكذب ، ومغلقو الأذهان ، ممن يكره كل جديد ، ويتهمه ، وشعراء المسلك القديم الذين ظهر عجزهم ونقص تعليمهم ، وفساد معانيهم ، وجُهل القراء الذين يزعمون أنهم من الخاصة . ولكنى أعتقد أن الشاعر العبقرى الكبير يخرس هؤلاء حتى ولو بعد موته ، بكثرة ما يجيد ، ويزيحه من طريقه كما يزيح الخنفساء بنعله عن قارعة الطريق ! وهو يعلم أن عداؤهم له سنة طبيعية لا مناص منها ، كانت لها مظاهر في كل عصر من عصور الآداب في الأمم كلها . ولكن بالرغم من ذلك ينبغى للقراء أن يميزوا ما يقال . فإنه ليس السبيل لمعرفة السارق أن يتهم كل المطلعين من غير حق . فإن هذه الزحمة فرصة السارق ، فيزاول مهنته في خفاء وأمان . فالإتهام الذى أساسه سوء الظن والجهل والحسد ، والسفالة وقلة التبصر والكسل ، الذى ينأى بالمتهم عن البحث والتدقيق ، يؤدي إلى الفوضى التى هى فرصة ينتهزها اللص . ولو فرضنا أن أحد المتهمين (بالكسر) نظم قصيدة بديعة فاتهم أنه سارقها . بأي شئ كان يحارب المتهم ؟ أبدياً الجهل وقلة الاطلاع ؟ إنه قد يكون جاهلاً . ولكن الجهل لا يمنع من السرقة . كما أن الاطلاع لا يمنع من الأمانة .

وقد لفتنى أديب إلى قصيدة المازنى التى عنوانها « الشاعر المحتضر » اليبانية التى نشرت فى عكاظ . واتضح لنا أنها مأخوذة من قصيدة أدونى للشاعر شلى الانجليزى . كما لفتنى أديب آخر إلى قصيدة المازنى التى عنوانها « قبر الشعر » ، وهى منقولة عن هينى الشاعر الألمانى . ولفتنى آخر إلى قصيدة المازنى « فتى فى سياق الموت » وهى للشاعر هود الإنكليزى ، ولفتنى أيضاً أديب إلى قصيدة المازنى التى عنوانها « الراعى المعبود » ، وهى

منقولة عن الشاعر لويل الأميركي . وقصيدة المازنى التى عنوانها « الوردة الرسول » وهى للشاعر ولر الإنكليزى . وأشياء أخرى ليس هذا مكان إظهارها . وقرأت له فى مجلة البيان مقالة (تناسخ الأرواح) ، وهى من أولها إلى آخرها من مجلة السبكتاتور لأدسون الكاتب الإنكليزى . ومن مقالاته فى ابن الرومى التى نشرت فى البيان ، قطع طويلة عن العظماء . وهى مأخوذة من كتاب شكسبير والعظماء تأليف فكتور هيجو ، ومن مقالات كارليل الأدبية . وقد ذاعت هذه الأشياء . ولو كنت أعرف أن المازنى تعمد أخذها ، لقلت إنه خان أصحابه بهذه الأعمال . ولكنى لا أصدق تعمد أخذها . ولو أنى رأيت الآن عفريناً لما عراني من الحيرة والدهشة قدر ما عراني لرؤية هذه الأشياء ، ولا أظن أنى أبرأ من دهشتى طول عمرى . وفى أقل من ذلك مبرر لمروجى الإشاعات والتهم . ولا أظن أن أحداً يجهل مدحى المازنى ، وإشارى إياه ، وإهدائى الجزء الثالث من ديوانى إليه ، وصداقتى له . ولكن كل هذا لا يمنع من إظهار ما أظهرت ، ومعاتبته فى عمله ، لأن الشاعر مأخوذ إلى الأبد بكل ما صنع فى ماضيه . حتى يداوى ما فعل ويرد كل شئ إلى أصله وليس الاطلاع قاصراً على رجل دون رجل حتى يأمن المرء ظهور هذه الأشياء . ولسنا فى قرية من قرى النمل حتى تخفى ! .

٨ - فصل فى أن الشعراء كماليون (*)

يحكى أن دوناتلى الإيطالى صنع دمية فأجاد صنعها . فلما رآها أستاذه قال له مازحاً : ما ينقصها غير أمر واحد . ثم كتبه عنه حتى مرض دوناتلى من الأسف عليه ، والفكر فيه ، وحتى أشرف على الهلاك . فدعا أستاذه وقال له : قد رأيت ما بى من الداء ، وأنى هامة اليوم أو غد . فاخبرنى أى نقص رأيت فى دميتى ؟ قال : ما ينقصها غير الكلام ! فقام المريض محمواً حتى أطل على دميته وقال تكلمى ، تكلمى ، فما ينقصك غير الكلام . ثم وقع ميتاً .

وكل ذى فن فى فنه مثل دوناتلى فى طموحه إلى مرتبة الكمال . وإنما يجيد حسب فضل الملكة المهدبة التى يسترشدها من نفسه ، لا لأنه يقصد إلى ما أولع به الناس ، مما يستفز إعجابهم فإن إعجاب الناس وإن كان حبيباً يتطلب بإرضاء ملكته المهدبة لا بإرضائهم ، ويأمل أن يقنعهم ما أقنعه من نفسه . وهذا سبيل أثره فيهم الذى يأمله فى حياته أو بعد موته . وسواء أكبر الناس شعره أم أصغروه ، فإنه يعيش بحسرة على ما يعجز عنه ، ويلهفة على ما لم يقل ، وإن جل ما يقول .

ومن هنا ولج التحاسد إلى أفئدة الشعراء . فإن الشاعر يعالج حسرة على كل فوز لم يفزه ، وطائر أمل لم يقنصه . فإن نفس الشاعر طماحة أبداً . وخليق بمن يعرف أن فوق كل إجابة إجابة أن لا يدع للحسد سبيلاً إلى قلبه ، وأن يعد كل قصيدة جليلة فوزاً يزهى به عالم الحسن على عالم القبح ، ونصراً أصابته الحياة على الموت ، غير مفرق بين قائل وقائل فى الإعجاب الذى لا يتفاضل الشاعر بل يتفاضل شعره .

ألا وإن أجل شعر شكسبير هو ما كان يحلم به شكسبير ، ويود لو قيده بقيود الكلام . وليس أجل شعره ما يعجب به الناس ويعجب منه ، فإن كل حسن فى الفنون عنوان لحسن ، وكل فوز وعد بفوز . فإن الشاعر ليرى فى نفسه القصائد التى يحلم بها كما يرى العاقر أبناء الذين لم يلدهم . أو كما كان ميشيل أنجلو يرى الدمى التى لم ينحتها كأنها محبوسة فى الصخر الأصم الذى لم يلمسه بعد . وقد ورد عن كثير من كبار ذوى الفنون ما يثبت هذا الظناً الذى هو خير لشعر الشاعر من نفسه .

ولو كانت الحياة شجرة لكان الجمال زهرها والشعر طائرها . ولولا الشعر افتقد جمال الحياة وكل حى شاعر بمقدار ما يحس الجمال فى الأشياء والأخلاق والأعمال التى ينشدها . والعالم عالمان : عالم الجمال وعالم القبح . وكل منهما محتزج بأخيه ، منعدم فيه . والشاعر رسول الجمال يسعى فى تحقيق عالمه . وإنما الخير ضرب من الجمال ، والشر ضرب من القبح . والشاعر يعرف أن الشر محتوم ، ولكنه يعرف أن من الحتم أيضاً الطموح إلى ما وراء الشر المحتوم من الخير المحتوم . ومن أجل ذلك كان كل شاعر كمالياً سواء أعرف أم لم يعرف . وهو إذا نبذ عقيدة اقتران الجمال والخير ، إنما ينبذها شوقاً إليها ، كما يهجر المحب عشيقته من هجرها إياه . وإنما الحياة أو الحق كالميزان ، لا يعتدل أعلاه إلا إذا استوى جانباه . ومن أجل ذلك صار الشاعر ومنزلته من الحياة ، كما يعدل كل نقبض تقيضه . وهذا أساس الحياة . ألا ترى كيف عدلَ عيسى عليه السلام روح الأثرة فى دولة الرومان ؟ وكيف أن رفض شوبنهاور للحياة يعدل تقديس نيتشه إياها ، وتقديس كل ما تفرى به ؟ ومنزلة السعادة فى الحياة كمنزلة الشعر من النثر . والذين يسعون فى نصرة الخير واستخلاص السعادة التى فيما دون المحال ، يأخذون نشر الحوادث فيجعلونه أوزاناً وأنغاماً . ومن أجل ذلك يتغنى الشاعر بالبطولة ورجالها الذين يشايعونه فى مداواة قبح الحياة ولو لم يكن فى ذرعه من المكافحة كى يستخلص من الحياة جمالها إلا التغنى بما يلهمى المكافحين ، ويلجأ لهم بمثال الجمال المنشود أو تحذيرهم باليأس والسخر إذا استناموا إلى الأمل ، أو اتخذوا منه مرقدًا لكفى .

ولا ريب أن شعر الشاعر ابن طبيعة ومزاجه . وأن الشعر ضروب متغايرة . وذلك لا ينفى ما ذكرناه . هذا شكسبير ما ترك جانباً من جوانب النفس ، وهو من رحب النفس بحيث يسع الجرم والمجرم . ولكنتك لا تمجد فيه تزييناً للباطل إلا على لسان أهله وصفاً لهم . كما أنك لا تمجد فيه وعظ من لا يرى إلا جانبه من الحق . وإنما نريد بذكر ما ذكرنا ، أن الرغبة فى الشعر من أجل أنه شعر ، لا من أجل مقصد خلقى حتى إذا عنى الراغب أن الشاعر ينبغي أن لا يتجاوز أصول فنه التى يهيم بها لذات الفنون ، كى يبلغ من النفس مبلغه من التأثير فيها بتلك اللذات . وأما إذا قيل إن الشعر لهو ساعة فهذا قول من اللغو ! .

٩ - مقدمة (*)

لقد ذكرنا فى مقدمة الديوان الرابع ، أن الشاعر لا يهتم الناس إلا لأنهم بواعث من بواعث الشعر . ولم أعن بذلك كما زعم بعضهم أن القصيدة الواحدة يبعث إليها إنسان خاص ، يكون موضوعاً لها ويستثير فى الشاعر جميع الخواطر التى دفعت إليها . فإن الشاعر ليس بالراسم . ولو كان راسماً لاستفاد أيضاً من أفراد كثيرين فى عمل رسم فنى خيالى كبير .

ولقد رأى القارئ فى بعض هذه الدواوين قصائد فى شرح أخلاق السوء كالخسد أو البغض . فحسب بعض الناس أنه المعنى بها . ولعمري لو كان غير ذكى لقلت إنه يريد أن يشرف بهذا الادعاء ؛ ولكنه أجل من هذه المرتبة . فلم يبق إلا أن يكون ذلك منه وسيلة لإظهار كيدته وشافعاً له . وكما أنى لا أعنى أحداً بقصائد الهجاء ، كذلك لا أعنى أحداً بقصائد النسيب . ولا أنكر أن الأفراد من الناس هم الذين يستثيرون خواطر الشعر ، ولكن هذا القول لا يستدعى أن تكون كل قصيدة فى فرد معين . نعم ، الأمر يستدعى ذلك عند المداحين والهجائين ومن جرى مجراهم ، ممن لم يضع لنفسه سنناً عامة فى فنه ، يجرى فى نهجها . أما القول فى أفراد ، فهذا أول مذهب وأول عصر من مذاهب الشعر وعصوره . وأما المذهب الحديث فهو أن تكون الطبيعة البشرية ماثلة أمام الشاعر ، يأخذ منها لقصيدته ما يقتضيه الفن . ومثل ذلك أن قصيدة « صرصور الشعر » فى الجزء الخامس بعث إلى كتابتها صرصور من صراصير الحقيقة ، لا صراصير الخيال ولا صراصير البشر . وقصيدة « سم الخسنة » مأخوذة من مسودات كنت قد ألفتها فى كتاب اسمه (مجالى الأخلاق) لم ينشر ؛ وكثيراً من قصائد الغزل فى هذا الديوان كانت تخطر لى فأقيدتها فى رسائل سميتها : (رسائل الحب) لم تنشر . ولذلك أرى من العبث والجهل بفروض الشعر قول قائل إنى أعنى أحداً بما أقول فى أى باب من أبواب الشعر .

ولى كلمة أريد ذكرها فى العقيدة ، ومن يذيع بين الناس أنى على غير هدى ، وأكثر أمثال هذا إما من الجهلاء الأغبياء ؛ وإما من أهل الحقد والحسد . فليس التساؤل والامتعاض من مظاهر الشر قلة فى الإيمان ، بل إن ذلك غاية الإيمان . وإن الذى يتهرب من الله إلى نفسه ،

وينكر آياته فى الوجود ، يبعد الله فى نفسه فى خير نزعاتها . وإن فى الله حاجة من حوائج النفس البشرية ، وكلما خفيت عنا أدلة وجود الله ، لعظم الشر والإثم ، كان ذلك الخفاء أدعى إلى تطلبه ونشدانه والإيمان به على الوجه الصحيح .

فالإيمان بالله والخير ضرورة وحاجة ، لعظم الشر والشقاء . إذ أن الزيف وقلة الإيمان لا تعين على الشر والشقاء . بل تزيد الحياة اختلالاً ؛ كما ذكرت فى قصيدة : « صوت الله أو لهجوى المؤمن » فى الديوان الرابع . وقد أساء بعض الناس فهم قصيدة « ليتنى كنت إلهاً » فى الديوان الثانى . ولا أعرف كيف فات من صفت نفسه من سوء النية من القراء ، أن نسبته سوء الفعل إلى ذلك المتطلب مرتبة آله ، خرافة من خرافات الوثنيين . والذي يريد أن يصلح نظام الحياة والكون ، هى غاية الإيمان لبيان أن المرء ينتقد ويتسخط الشر والإثم ، حتى إذا حكم أتى الشر الذى نقمه . ولو أنى جعلت أفعاله فى القصيدة حميدة ، لكان ذلك اعترافاً منى بأنه مصيب فى نقده وأنه رشيد عادل .

هذه قصيدة « الملك الثائر » لقد حاول غبى أن يقرأها مرة ، فقرأ منها أبياتاً ، ورأى عصيان الملك ، فأخذ منه الغضب كل مأخذ ، ولم يتم قراءة القصيدة . فلما قرأت له ما لاقاه الملك الثائر من العقاب لعصيانه ، انشرح صدره وقال : « إنه جدير بهذا العقاب » .

وهذه الحادثة ، تشرح السبب فى سوء الفهم ؛ الذى يعتور بعض الناس فى قراءة القصائد التى تشرح أمثال هذه الخواطر والعواطف النفسية التى لها علاقة بالحياة والخلق . فإنه لا يحاول تفهم مغزى القصيدة الذى لا يستخلص من أبيات مفردة من القصيدة ، بل يستخلصه بأن يفهم وحدة القصيدة الفنية وما تقتضيه المقابلة الفنية من اختلال جوانب الرأى فيها واختلاف حالات النفس التى ضمنها القصيدة .

١٠ - نقد الطريقة الرمزية

وشرح أثرها في أساليب الشعر ومعانيه(*)

مذهب الرمزيين كما أعتقد يشمل أموراً منها إحلال المشبه به مكان المشبه وحذف المشبه في كثير من المواضع ، ومنها إدخال تشبيه في تشبيه واستعارة في استعارة وخيال في خيال ، وثالثها الاسترسال في وصف الهواجس النفسية من غير تمهيد أو شرح . ويرمز لهذه الهواجس بأشياء تذكرهم بها ، ورابعها أنهم قد يشبهون شيئاً بشئ آخر وهذا الشئ الثاني يشبهونه بثالث والثالث برابع الخ . ثم يحذفون كل هذه الأشياء ما عدا المشبه به . الرابع فإنهم يبقون لفظه كي يكون رمزاً للمشبه الأول . ولا شك أن هذا المذهب يتطلب ذكاء وانتباهاً وثقافة من الشاعر والقارئ ، ولكن أصحابه قد نسوا قول بنديار الشاعر الإغريقي القديم (على ما أذكر) وقد أراد أن ينصح شعراء عصره : « ابدروا البذر باليد لا بالزبيبيل » يعني أن الزارع إذا رمى بذراً كثيراً في مكان واحد فإن النبات الذي ينبت قد يقتل بعضها بعضاً ، وكذلك الشاعر إذا أدخل الصور الشعرية بعضها في بعض في جملة واحدة أفسد بعضها بعضاً . ثم إن الأسلوب قد يتهم بالضعف اللغوي مهما كان صاحب الأسلوب مضطرباً باللغة . وذلك لأن أسباب التعلق بهذا المذهب كثيرة وليس السبب واحداً ، فمنها : (١) أن الشاعر قد يلجأ إليه عمداً متكرراً بأخيلته وصوره الفنية ناسياً قول بنديار الشاعر الإغريقي الذي سبق ذكره ، (٢) ومنها أن الشاعر قد يلجأ إلى هذا المذهب إذا أعوزته الكلمة الصحيحة ، فيضع الكلمة التي تحضره ولا يعدم وجه شبه بين مدلول الكلمة الأولى ومدلول الكلمة الثانية ، فتصير الكلمة التي وضعها رمزاً للشي لا يذكرها على سبيل وضع المشبه به مكان المشبه (٣) ومنها أن هذا الوضع قد يكون لمرض في مزاج الشاعر يعرفه الأطباء - ففي الحالة الأولى قد يكون الشاعر مضطرباً بأساليب اللغة خبيراً بها ولكنه في أسلوبه يستوى والشاعر غير المطلع لتشابه طريقتيهما والناقد معذور إذا سوى بينهما .

فالاستكثار من الصور الفنية في الجملة الواحدة باستعمال رموز الشبه يؤدي إلى غموض الصورة العامة كما يؤدي إلى قتل الصور الجزئية بعضها بعضاً ، كما يقتل النبات النبات في

(*) مجلة أبولر : المجلد الأول ، العدد العاشر ، يونيو ١٩٣٣ م ، ص ١١٩٤ وما يلي .

المكان الواحد ، وأسلوب الشاعر المطلع يختلط بأسلوب الشاعر غير المطلع كما فسرت ، وما تستدعيه هذه الطريقة من الذكاء والانتباه والثقافة ؛ ليس أعز ذكاء ولا أفضل انتباهًا ولا أجل ثقافة . ألا ترى أن حل معميات الكلمات الأفقية والرأسية التي تنشر مسابقاتها في الجرائد والمجلات يستدعى أيضًا ذكاءً وانتباهًا وثقافة من القارئ؟ وهذه الطريقة الرمزية ، تؤدي إلى فتور العاطفة وقلة تأثر القارئ لشعور الشاعر .

إن إكثار الشاعر من قرض الشعر ليس بعيب حتى ولو أدى إلى أن يكون في شعره غير المختار ، فإن إجادة الشاعر الكثير وإساءته قد تأتيان منه عفواً أثناء إكثاره وقد يفقد بعض إجادته إذا فقد بعض إكثاره فلا يكون الإكثار مستهجنًا إلا إذا دفع الشاعر الصانع لعجلته إلى طريقة الرمزيين أي إلى استعمال كلمة مكان أخرى وعبارة مكان عبارة ثم الاحتجاج لهذا الاستعمال بإيجاد وجه شبه بين الكلمتين أو العبارتين التي حلت إحداها محل الأخرى على سبيل حذف المشبه وإحلال المشبه به مكانه ، أو إحلال الرمز مكان الأمر المرموز له . فهذا المذهب إذا قل أتباعه كان حلية تقبل وتستلمح إذا قرب وجه الشبه ، أما إذا كثر استخدامه وبعد ما بين المشبه والمشبه المحذوف وما بين الرمز والمرموز له أدى إلى المآخذ التي شرحتها في شرح طريقة الرمزيين ، ولا شك أن الكثير العجلان قد يتأثر هذه الطريقة إذا وضع كلمة مكان أخرى أو جملة مكان أخرى . ولكن هذا التأثير قد يكون مرجعه إلى اعتقاد الشاعر أن هذه الطريقة تزيد الأخيلة والصور الفنية في الجملة الواحدة ، ناسيًا أن الصورة تمحو الصورة كما يقتل النبات النبات في المكان الواحد ، وناسيًا أن هذا التكثير بالرمز لا يغنى عن سبيل العاطفة المتدفق ولا عن المعنى الهام الأجل .

على أن منزلة الشاعر لا تقدر بأن نضع حسناته في كفة ميزان وسيئاته في كفة أخرى ثم نسقط من الحسنات بقدر السيئات ، فإذا فعلت ذلك ذهبت بعض السيئات ببعض الحسنات والحسنات لا يتغير عنصرها ، فمنزلة الشاعر إذاً هي منزلة أحسن شعره . هكذا يقيس الدهر أكثر الأمور فيشيد بالحسنات ويقيم السيئات إذا وجد للحسنات مديعاً .

وقد تنشأ السيئات إذا أكثر الشاعر من التجارب كما يصنع الكيميائي وحاول أن يمهّد منهجًا جديدًا وكان جريئًا ذاهبًا مذهبًا بعيدًا في هذا الطريق غير المعبد ؛ فإن التجارب في الأمر الجديد غير المعروف قد يفشل بعضها كما يحدث في معمل الكيمياء . ولكن الشاعر إذا أجاد بسبب جرأته وذهابه مذهبًا جديدًا ، كانت إجادته أعظم من إجادة الشاعر المحاكى الذي

يتبع الطريق المعروف المملول . وليس من المحتوم أن يفشل الأول فى كثير من محاولاته الأولى: ألا ترى أن الكيميائي قد يصيب فى أول محاولة ؟ وإنما يرجع ذلك إلى استعداد الشاعر واطلاعه وذكاؤه وتأنيبه حتى يأتيه الشعر بدل أن يسعى هو إلى الشعر ، وإنما يسعى الشعر إلى الشاعر فى حالات خاصة ليس له سلطان عليها ، ولكنها إذا عرضت للشاعر قدحت خياله وذكريته وحشدت له المعانى والأساليب من غير أن يسعى إليها ، فتعطيه موضوع قصيدته ومعانيها وصورها الفنية من غير أن يتكلف طريقة الرمزيين ، اللهم إلا إذا كان مريضاً بذلك المرض الذى يغريه بوضع كلمة مكان أخرى . وفى هذه الحالة يتبع الطريقة الرمزية حتى فى حالات إبعاء العقل الباطنى والاتدفاع الشعرى .

أما أن الشعر الرمزى يجد قراء وأنصاراً على غموضه فلأسباب عديدة :

(١) أن بعض القراء يكتفى من الشعر بمدلولات بعض الكلمات وبنغمة الوزن : فبعضهم إذا قرأ قصيدة غير مفهومة لم يرعه أنه لا يفهمها ؛ ولم يقلل ذلك من لذته فإن لذته فى مدلولات وصور بعض الكلمات ، مثل النجوم والحب والأزهار والحياة . فإذا قرأ كلمة الحياة تصور ما شاء من صور الحياة أو تأثر شعوره بها ، وإذا قرأ كلمة الحب ذكر مواقف وؤسسه ونعيمه ، وإذا قرأ كلمة النجوم سامر النجوم وكان حادياً لها فى السموات فيحس كأن النجوم تسير على توقيعه ويكاد يسمع لها غناء ونغماً أثناء رقصها فى دورتها ، وإذا قرأ كلمة الأزهار ناجته بألوانها وشذاها وكأن الحياة لديه زهرة كبيرة كثيرة الألوان ، أو كأن القصيدة التى يقرأها زهرة كبيرة من زهرات الحياة والحب . ومن كان مثل هذا لا يهمه فهم القصيدة .

(٢) أن بعض القراء لا يكتفى بمدلولات بعض الألفاظ فى القصيدة ، بل يفهم القصيدة حقاً ؛ وإن كان لا يفهمها أكثر الناس ، ولكنه يفهم فيها ما يشاء من المعانى لا ما يعنيه الشاعر ويحسب أن الشاعر يعنى ما فهم ، منها أو لا يهمه ما يعنى الشاعر .

(٣) أن بعض القراء يفهم ما يستقيم فهمه من القصيدة ويحسن الظن بما لا يفهم وما يفهم منها يغريه بهذا الظن الحسن أو قد لا يغريه وإنما يحسن الظن بطبعه .

(٤) أن بعض القراء كالعبيد فى معابد القدماء لا يحمدون من الشاعر إلا ما كان غير مفهوم من شعره ، كالعبيد الذين كانوا لا يحمدون كهانة الكاهن إلا إذا كانت غير مفهومة ، وهؤلاء القراء يحمدون من الشعر أن يكون سرّاً رهيباً مغلقاً محجوباً عن النفوس ، كسر الحياة وكسر الموت ولا يلتذونه إلا إذا كان كذلك .

(٥) أن بعض القراء له تلك الملكة وذلك الذكاء والانتباه وغيره من المواهب التي تجعله قادراً على فهم الرموز الشعرية الكثيرة المتداخلة ، وهؤلاء يلتذون الشعر كما يلتذ قراء المعميات الأفقية والرأسية البحث عن تلك الكلمات التي ذكرت رموزها كما يصنعون في ملء المربعات الخالية البيضاء في مسابقات المجلات .

فيستجيد هؤلاء القراء مهارة الشاعر أو عجلته في وضع الكلمات مكان الكلمات كرموز لها على هذه الطريقة المقتضية .

(٦) أن بعض القراء لا يفهمون الشعر ولا يحاولون فهمه ولكنهم يخشون أن يتهموا بالبلادة وقلة الثقافة إذا قالوا إنهم لا يفهمون فيدعون فهم ما لا يفهمون .

(٧) أن للتمجيد والاستحسان عدوى كعدوى البغض أو الود أو الحب أو الاستهجان أو القدح أو التثاؤب ، فإذا تشاب أحد الناس رأيت كثيرين يتشابهون ، وكذلك إذا سرت عدوى التمجيد والاستحسان رأيت كثيرين من القراء قد أصيبوا بعدوى الاستحسان وهم لا يفهمون ما يستحسنون .

(٨) أن بعض الناس يستحسن شعر الشاعر لأنه صديق يثق به في الحياة ، وما دام الشاعر موضوع ثقته في معاملات الحياة ف، إن شعره موضع ثقته أيضاً على جهل منه بالشعر . وهذا القياس خطأ منطقي ، ولكن النفوس مولعة أحياناً بالأخطاء المنطقية بل إن تلك الأخطاء المنطقية تكون في الحياة أحياناً كما تكون التواهل في الطعام صلاحاً ولذة . فلا يسيغ المرء الحياة إلا بها في تلك الأحياء .

(٩) أن بعض القراء يزدري الشعر المفهوم إما لأنه يعد وضوحه اتهاماً لعقله بالعجز عن فهم العويص الغامض وإما لأنه بضن على الشاعر بأن يحدد معنى شعره وبعد ذلك غروراً منه وكبراً . ومثل هذا القارئ يود أن يشارك الشاعر في تحديد معنى شعره فيعظم القارئ بذلك عند نفسه وهذا لا يستقيم إلا إذا كان الشعر غامضاً ، أو مثله كمثلي الجليس الذي يقطع عليك حديثك كي يوضح لك معنى ما تقول . ولعل قارئ هذا المقال قد لقي من الجلوساء من يجاهد ويجالد كي يفعل ذلك ويفضرب إذا لم يهيئ له فرصة .

(١٠) أن بعض القراء قد يستولي عليه الملل إذا كان معنى ما يقرأ مفهومًا فهو يباعد الملل عن نفسه بالتأمل في رموز الشعر غير المفهوم .

(١١) أن بعض القراء يرى ضرورة له فى الحياة أن يعبر عما تكنه نفسه من الأشجان والهواجس وما يرى من الآراء ؛ فعنده شعور الفنانين وليس عنده قدرتهم على النظم أو النثر ، فلا بد له من شاعر أو كاتب يفهم فى شعره أو نثره تلك الآراء ويشعر فيه بتلك الأشجان ولا يستقيم له ذلك إلا إذا كان الشعر أو النثر غير مفهوم .

(١٢) أن القارئ قد يكون مصاباً بالمرض نفسه الذى يجعل الشاعر أو الناثر يضع الكلمة مكان الأخرى فيستحسن المريض طريقة المريض .

(١٣) قد يكون غموض الشاعر من أجل خطأ منطقي أو انقطاع الصلة المنطقية الصحيحة اللازمة بين أجزاء شعره . وهذا كثيراً ما يعرض أيضاً للقراء فيفهمون منطق الشاعر على أنه صواب وهو خطأ لأنه يوافق طريقة منطقهم وتفكيرهم .

فالطريقة الرمزية من قديم الزمن يجعلها كثير من القراء إذا سرت عدوى التمجيد وقد يقابلها بالعداء فى أول الأمر . والشاعر قد يدرك هذه الأسباب وغيرها إما بالفريضة وإما بالتفكير المنظم ، فيرى فى هذه الطريقة منافذ له إلى الجمهور واستحسان الناس وتقبيدهم فيتعلم تأثر هذه الطريقة . وقد يكون هو نفسه كالجمهور ممن تؤثر فيهم هذه العوامل ؛ أى قد يكون الشاعر ممن يكتفى بمعانى وصور بعض الألفاظ كالأزهار والنجوم والحب والحياة فلا يهتم المعنى العام ، وبعد هذه الألفاظ ثروة شعرية كبيرة ، أو قد يقف الشاعر أمام شعره كالعابد أمام كهانة الكاهن ، أو قد يكون الشاعر نفسه كالقارئ فيفهم فى شعره ما ترتضيه هواجس نفسه لا ما تؤديه الألفاظ ، أو قد يكون الشاعر كبعض أولياء الله الصالحين الذين يقولون كلاماً غير مفهوم فيفسره أشياعه كل تفسير يرون فيه سر الحياة وسر الموت ومفتاح مغاليق الكون . وقد يجمع الشاعر بين المكر والسذاجة فى اتباع هذه الطريقة ، كما يجمع الفلاح بين المكر والسذاجة .

أما أن الجمهور إذا سرت فيه عدوى التمجيد قدس الطريقة الرمزية فأمر يعرفه من درس تاريخ الأدبان ورموزها من عهد قدماء المصريين والبابليين والآشوريين والإغريق واليونان والرومان وغيرهم من الأمم القديمة . ولعل بعض المسيحيين فى العصور المختلفة لم يتأثروا تعاليم المسيح عليه السلام كما تأثروا رموز فصل من الإنجيل يدعى أپوكاليبس - Apoc- alypse ولا تحسبن أن الطريقة الرمزية قاصرة على صفار الشعراء فجيتته Goethe كان مغرئ فى بعض مؤلفاته بالرموز ، ومن أدباء العصور الحديثة أديب قد أكثر من الطريقة الرمزية حتى ليحار الإنسان فيه فلا يعرف أهو عبقرى مفكر كبير ؛ أم مشعوذ أم هو الاثنان معاً ، وأعنى مورييس ميتزلنك .

على أنه لا يصح أن نجعل مرجع كل شعر لا يفهمه القارئ إلى الطريقة الرمزية ، فقد يكون العيب عيب القارئ وقد يكون عيب الناظم وقد يكون عيب كليهما وقد لا يكون هناك عيب في أحدهما .

فالشاعر المثقف والقارئ الذى لا يعرف من الثقافة غير القراءة كيف يلتقيان ؟ والشاعر والقارئ إذا اختلفا في مقدار الثقافة أو في نوعها كيف يتفاهمان كل التفاهم ؟ والشاعر المفكر الذى يبحث في خفايا النفس والقارئ الذى لا يفكر ولا يقدر أن يبحث في خفايا النفس كيف يتعارفان ؟ ، أضف إلى ذلك أنه كلما تجد اثنين من الناس يتفقان في طريقة التفكير أو طريقة الشعور كل الاتفاق ، لاختلاف صفات نفسيهما الموروثة واختلاف اتجاه الذهن وقتاً ما . ومن أجل هذه الأسباب اختلط الحابل بالنابل في عصر كثرت وتنوعت فيه الثقافة وصار الرمزيون يحيلون على الثقافة وأنواعها وطرق التفكير والشعور ومقدار العرفان إذا لم يفهم القارئ شعرهم وليس الأمر كما يزعمون في بعض شعرهم إذا صدق زعمهم في بعضه .

وقد يقتفى الشعراء الطريقة الرمزية على اختلاف ثقافتهم ، فبيننا أستاذ شاعر عبقرى وناثر كبير يتعصب للقديم ويزدرى الجديد وبعض مؤلفاته لم يؤلف مثلها عربى صميم ، لأن الصور الفنية والرموز الشعرية في بعضها تتقاتل تقاتلاً عنيفاً تقاتل النبات في المكان الواحد ، وهو مضطلع بالأساليب العربية الصيحة وباللغة الفصيحة . ولكن بعض مؤلفاته غير مفهوم بسبب كثرة التشبيهات والاستعارات والصور والرموز الشعرية التى بطمس بعضها بعضاً في الجملة الواحدة ، وبيننا شاعر آخر عبقرى يتعصب للتجديد وهو مكثّر يدل إكثاره في موضوعات مختلفة على اضطلاع باللغة ، ولكنه يكثّر من الرموز الشعرية والصور الفنية أحياناً إكثاراً قد يغطى على اضطلاع به ويجعل بعض قوله مبهماً .

ولا شك أن طريقة الثقافة في الشعر قد تلتقى وطريقة الرمزيين أو تقترب منها وإن اختلفتا في الأصل وذلك لأن بعض الرمزيين مثقفون وإن اختلفت ثقافتهم في النوع والمقدار ، ولأن الشاعر المثقف لابد أن يكون كثير الإشارات إلى ظواهر كونية وحيوية وإلى حقائق مادية وإلى حالات نفسية مختلفة ، وهذه الإشارات قد تكون شبيهة بالرموز أو الطلاسم عند الجمهور إذا لم يمهّد الشاعر لها ويوضحها ما استطاع . ولا يصح أن ننصح بترك الثقافة وقصر الشعر على المعانى المعروفة والصور الفنية الموروثة والحالات النفسية الموصوفة المألوفة ، إلا إذا كان الشعر شعراً خاصاً لطبقة غير مثقفة ، وإلا كان الشعر فقيراً معدوماً ميتاً لا روح فيه .

أما نصيحتنا فهي أن نصوص الثقافة عن أساليب وطرق الرمزيين التي يستخدمها المثقفون وغير المثقفين منهم ف، لا تضع كلمة أو عبارة مكان أخرى كي تكون رمزاً لها ولا أن ندمج الصور الفنية بعضها في بعض في جملة أو بيت واحد متكررين بذلك من الأخيلة والاستعارات والتشبيهات ومتعجلين في إيجاد وجه شبه بين شيئين على طريقة الرمزيين .

وينبغي أن نذكر قول بندار الشاعر الإغريقى الذى سبق ذكره ومعناه أن الصور الجزئية إذا ازدحمت في جملة واحدة طمس بعضها بعضاً كما يقتل النبات النبات ، وغطت على العاطفة وعلى قدرة الشاعر اللغوية والفنية ؛ وينبغي أن تنبه الاستنتاج غير المنطقي وأن لا تكون الصلة المنطقية مقطوعة بين أجزاء الكلام وأن نذكر أن المعنى أوضع ما يكون في تلك الأساليب التي يتمصصها ويتذوقها القارئ كما يتمصص الشراب الحلو ، وقد يلحس شفته ولسانه بعد أن ينطق بها ، وهذه الأساليب لا تنقاد للشاعر إلا في حالة من حالتين :

(الأولى) إذا تأنى الشاعر ورفض أن ينظم الشعر حتى يسعى إليه الشعر ، وهذا يكون في حالات خاصة من حالات المزاج لا سلطان له عليها . وهذه الحالات تقدح خياله وذاكرته وتحشد له اطلاعه وقده بموضوع شعره ومعانيه وعاطفته ، وقد يكون عقله قبلها غير متجه إلى هذا الموضوع . وللعقل الباطنى أثر في هذه الحالات ، ولا يستقيم العقل الباطنى في هذه الحالات إلا إذا كان صاحبه مثقفاً خبيراً باللغة وأساليب الفن ، وبينه وبين العقل الظاهرى صلة متينة وهذه طريقة من نالوا شيئاً من العبقرية .

(الثانى) إذا سعى الشاعر إلى الشعر عمداً بمذكرة وذاكرة قوية مقيداً كل الأساليب العذبة التي يمكنه أن يعبر بها عن معنى من معانى موضوعه مستجمعاً لتلك المعانى مستعيناً بكتب اللغة والأدب والمعجم فيكون مثله مثل من يهوى أدوات العمارة أمامه قبل أن يبنى القصر الفخم ، وهذه طريقة أساتذة الصنعة . وقد حدثنى أديب توفى إلى رحمة الله أنه زار مرة شاعراً كبيراً توفى أيضاً إلى رحمة الله ولم يكن الشاعر في غرفة مكتبة فوجد الزائر القواميس وكتب اللغة مفتوحة ووجد أوراقاً قيد بها الشاعر قوافي تناسب معانى منشورة ، فدهش الزائر ، ثم دخل الشاعر ورأى دهشة زائره فضحك وقال : لا تظن أن هذه الأشياء تغنى عن الملكة الشعرية وإنما هى أعوان لها وللذاكرة لإجادة الصنعة وإنما مثلك مثل من رأى أتربة وأحجاراً أو أدوات عمارة مبعثرة فساء منظرها ولو عاد بعد قليل لرأى قصرأ منيقاً . وقد يلجأ إلى كل هذا أو إلى بعضه أساتذة الصنعة كما يلجأ إليه من وهب شيئاً من العبقرية وكما

يلجأ إليه أحياناً من جمع بين الاثنتين وقد يستغنى عن ذلك العبقرى بما يُحشد له من اطلاعه فى تلك الحالات النفسية الخاصة التى يتنبه فيها العقل الباطنى والتى لا سلطان له عليها والتى تجمع له شتات ذهنه من غير عناء وسعى من قبله .

ولكن ينبغى للشاعر أن يميز بين تلك الحالات النفسية الخاصة التى يستيقظ ويتصالح فيها العقلان الباطنى والظاهرى وبين حالات أخرى لا تصلح للشعر إذ لا تتفق فيها يقظة العقلين الباطنى والظاهر معاً فيكون كل منهما فيها غافلاً منابذاً لأخيه . وقد يشعر الشاعر شعوراً يدفعه إلى النظم وقد يتألم إذا لم ينظم ، ولكنه مع ذلك لا تتفق له تلك الحالة التى تقدر طبعه وذاكرتة وتحشد له نفسه واطلاعه من غير عناء . فإذا نظم الشعر ولم تتفق له الحالة الأولى لم يكن شعره من أجود ما يقول ، فإن للعقل الباطنى خدعات وللعقل الظاهرى غفلات نسيان تكون أشبه بالسراب يظنها الشاعر فرصة وهى ليست بفرصة كما يظن المصعر السراب ماء . فالشعر طريقتان لا بد من إحداها أو كليهما ، طريقة أهل العبقرية صفرت العبقرية أو عظمت ، وطريقة أساتذة الصنعة . وما يؤسف له أن الطريقة الرمزية قد يتأثرها العبقريون وأساتذة الصنعة فتفسد بعض ما يكتبون إذا غالوا فى اتباعها ، كما أنه قد يفسد بعض ما يكتبون أنهم لا يسعون إلى الشعر سوى ذلك الشاعر الكبير الذى هيا أدوات عمارته قبل أن يبنى قصره المنيف ولم يشعر بزلة أمام زائره ، لعلمه أن ما هيا لا ينفى ملكته الشعرية ، أو يترشون حتى تعرض لهم تلك الحالات التى يصلح فيها العقل الباطنى والعقل الظاهرى وحده وما يشعرون من الرغبة فى عمل الشعر من غير تهى حقيقى له أو يعملونه صنعة من العقل الظاهرى من غير أن يعدوا له أعوانه التى استعان بها ذلك الشاعر الكبير . ولقد يفيد الشعر مخالفة الشاعر للمنطق وأصوله ظناً منه أن ما وافق أصول المنطق الصحيح كان فلسفة لا شعراً وإنما يأتى إليه هذا الوهم ، لأن بعض ما يشرحه الشاعر من حالات النفس وما قد تجمع النفس من النقيضين والضدين وما يستعين به الشاعر من الصور لإيضاح تلك الحالات النفسية وتلك الأضداد الروحية أو العقلية الحقيقية الطبيعية ، يخالف المنطق السطحي الظاهر المألوف وإن لم يخالف منطق الحقائق النفسية والعقلية . وهنا أيضاً قد يختلط الحابل بالنابل فيحيل الشاعر على المنطق الصادق العميق وإن خالف شعره كل منطق .

ولابد من إيضاح أختم به هذا المقال : وهو أن طريقة الرمزيين تختلف مظاهرها وليست كل صفاتهم ترجع إلى استخدام الرموز ، وهى الصفة الأساسية : فبعضهم تغلب عليه خصائص

المكثر من التشبيهات والاستعارات ، وإن قلّت رموز الشبه في شعره ، إلا أنه من الواضح أن ازدهام التشبيهات والصور الفنية يضطره إلى استخدام الرموز وإحلال المشبه به مكان المشبه والإكثار من ذلك كي يجد لها مكاناً في شعره ، فيقتضب أسلوبه اقتضاباً ينافي البيان لا على سبيل الإيجاز المحمود . وبعضهم ترى أكثر رموزه ليست على طريقة حذف المشبه وإحلال المشبه به مكانه بل على طريقة الرمز للكلمة بما يشبهها أو يقارنها أو يذكر بها . وبعضهم لا يكثر من الرموز اللفظية بل يرمز للمعنى بما يقارنه أو بما له صلة به كصلة الذكرى أو قد يرمز للحالة النفسية بحالة أو صورة تذكر بها . وبعضهم قد تكون الصفة الغالبة عليه من صفات الرمزيين إدخال المعنى في المعنى والصورة في الصورة . وكل هذه الصفات لاتعاب إلا إذا كان البيان والفصاحة لا يستقيمان معها ، فيجب إذن أن يسهب الشاعر ويكون اسهابه هو الفصاحة . فإن الصور الفنية التي يقتضى البيان عنها أبيات عدة إذا سلكت في بيت أو جملة واحدة تضاعفت ، والتمييز بين الإيجاز المحمود والإسهاب اللازم لا يكون إلا مع الذوق السليم والاطلاع الصحيح . والشاعر الرمزي قد يقضى أياماً في نظم قصيدة على طريقة الرمزيين فلا تكون في منزلة قطعة من الشعر يقولها ارتجالاً في تلك الحالة النفسية التي يستيقظ فيها العقل الباطنى ويتفق والعقل الظاهرى . وينبغى أن يميز الشاعر بين نوعين من الارتجال : ارتجال إحياء النفس الذي يحشد للشاعر ما اطلع به من غير عناء ، وارتجال الناظم الذي أوتى سهولة في النظم والذي يقدر أن ينظم متى شاء في أى موضوع نظماً ليس بخالد ، وشتان بين الارتجالين .

١١ - البؤساء

لشاعر كبير وأستاذ جليل (*)

أهدى إلينا الشاعر الكبير الأستاذ حافظ بك إبراهيم كتاب البؤساء فأحببنا أن نذكر أثره في النفس بعد قراءته .

إن بعض الأساليب كالدواء من المذاق وهذا يجرع ولا يترشف ، وبعضها يتذوق و يترشف كما يترشف صباية الخمر المعتقة . وأسلوب حافظ بك إبراهيم من هذا النوع . أرايت أيها القارئ شارباً لا يدمن الخمر بل يمضى ساعات طوال يرشف كأساً واحدة رشفة بعد رشفة ويتذوق كل رشفة في فمه قبل أن يسيغها . ثم يتمهل بين الرشفة والرشفة كي لا تنسيه جدة الثانية ماذاق من حلاوة الأولى . هكذا شأن القارئ مع أسلوب حافظ بك إبراهيم في كتاب البؤساء . فهو لم يرد أن ينقل قصة . وإنما أراد أن يختط أسلوباً ينهج نهجه طلاب الأدب وأن يضع مثلاً يحتذى في الإنشاء الذي يراد لذاته على قاعدة الفن للفن .

فلا لوم عليه إذ لم ينقل من الكتاب إلا أقله فإن الأمثال التي تحتذى لا تكال كيلاً ، ولا يكون قدرها بالعد والخصر . وإنما يكون قدرها بتميز نوعها وطبقتها ، ألا ترى أن صفحة واحدة من « الدرة اليتيمة » أو « الأدب الكبير » لابن المقفع شيء تام ووحدية لا ينقصها جزء . وحافظ بك إذا بعد عن متناول جمهور القراء في بعض الأحيان فلا ينأى بأسلوبه عن منزلة الخمر التي يترشفها المحتسى ، فهي تتذوق وتستمرأ من أجل ذلك التائق الذي أخذه عليه بعض الكتاب ممن ينقطعون دون عبارته ويزلون عن مرتبته . وإنما وجه الخطأ في قولهم أنهم يريدون أن يحملوا الناس على أسلوب واحد في كل غرض من أغراض التأليف والإنشاء .

ولو أردنا أن نمدح من هو غنى بشهرته عن المدح لقلنا إن قمماً في جاهليته ، وعبد الحميد في أمويته ، وابن العميد في عباسيته . لو اجتمعوا على نسج أسلوبه لما برزوا في قليل أو كثير على حافظ بك . فكتابه هو نهج البلاغة في هذا العصر وأسرارها ، ودلائل الإعجاز فيها ، والعمدة في صناعتها ، وزهر آدابها ، وعقدها الفريد ، والكامل من معانيها ومبانيها ، وأدب الكاتب الأديب . فقد جمع من أمهات الكتب خيراً وقرائداً ، وسار على طريقها ، فليسر نقاده على طريقته .

ولقد أخذ عليه ناقد أنه لم ينتقل كلام العامة والخدم من أفراد القصة بلغة العامة والخدم . ولكنه غير ملوم في تجنب أمر يحججه ذوق الأدباء في العربية . ولا حجة في قول القائل إن لغة الخدم والعامة في ذلك الموضع أمر طبعى يكسب القصة سيئاً من الحقيقة والحياة ، فإن الفن كون له سنن وشرائع ، والفن يستمد من الحياة لا أن كل أمر من أمور الحياة فن ، ولا أن كل مظهر من مظاهرها فن حتى يتبع سنن الفن وشرائعه . ألا ترى أن بعض الفنون عند الأوروبيين أنفسهم لا يحاكي الحقيقة كفن « الأوبر » فقد أخذ الناقدون عليه أن الناس في الحياة لا تتغنى بكلامها المؤلف كذكر التحية أو تبليغ خير . ولكن الممثلين يتغنون بكل ذلك فلو أن خير ما في الفن محاكاة الحياة ولا خير غيره لبطل الرسم والنقش ، واكتفى الناس بالتصوير الشمسى الذى يخرج الصور أشبه بمظاهر الحياة والناس والطبيعة مما يخرج النقش والرسم ، فلو جاز إبطال النقش والرسم بهذه الحجة جاز أيضاً ما يدعيه ناقد حافظ من تفضيل نقل كلام العامة والخدم بلغة العامة والخدم .

قالوا ولكننا في زمن ينبغي ألا يراد الفن لذاته فيه وألا يتعشق المرء الألفاظ كتعشقه الحسنة . ولكنى لا أدري لماذا يكون الأدب أشبه الأشياء بسم الخياط ، فلا يدخل في ملكوته إلا أشياء طريقة واحدة ، وأى شئ يمنع من أن يريد أديب فنه لذاته ويتعشقه كما يتعشق الحسنة ، بينما يريد غيره الفن لا غاية بل وسيلة لأمر آخر ، فيستلذ القراء من الأول عبارته وطريقته ونوع إجادته ، كما يستلذون في الثانى نوعاً آخر من الإجابة . بل أى شئ يمنع المرء من أن يجيد نوعى الإجابة في موضعين متباينين وغرضين مختلفين .

وبعضهم يدرك على حافظ اختيار الكتاب ويزعم أن البؤساء كتاب قديم كأن الشئ يقدر بالجدة أو القدم أو كأن « هيجو » أصبح من سقط المتاع في نظر بعض الناس عندنا . وأقسم أنهم لم يقرأوا إلا أقله ، فزعموا أن فكتور هيجو ثرثار وأنه إن يكن كذلك فهو من الكثيرين القول إكثاراً به يصرون الأشياء حتى كأنك تحسها على نأيها وهو شاعر في نشره . وهو وإن لم يكن عنده ما تشعر به في أسلوب بعض أساتذة الفن من ضبط النفس والهدوء في مزاولته ، ولا الاطلاع ببعض حالات النفس والعقل الثانوية الخاصة ، إلا أنه يجيد وصف عواطف الرحمة والقسوة والحب والكبر والحسد وغيرها من مظاهر النفس العامة التى يشترك فيها الناس كلهم .

١٢ - فن أبي نواس (*)

مثال لطرب الفنان بفنه

منذ نحو خمس وثلاثين سنة كنت أقرأ مقامات بديع الزمان الهمذاني ، فرأيت في واحدة منها قصيدة سينية منسوبة إلى الحسن بن هاني يصف فيها كيف كان الأدباء في ذلك العصر يلجأون إلى الأديرة للسمر والقصف ومعاقرة الدنان ، حيث لا رقيب من شرطة أو عسس وحيث الخصور غير محرمة بل كثيراً ما كان يصنعها رهبان الأديرة . وفي القصيدة يداعب ابن هاني الرهبان وقد كشفت لي هذه القصيدة عن حياة غريبة ودلت على ناحية من نواحي المعيشة في أيامه ورأيت أسلوب القصيدة سلساً له نغمة موسيقية خاصة فاشتريت ديوانه وقرأته .

وعندي أن الصفة المميزة لشعره هي صفة في الأسلوب ناشئة من طرب الفنان بفنه ، فهي صفة تنتقل من النفس إلى اللفظ وإلى أية أداة أخرى إذا كان الفن غير فن الشعر وهي صفة تدرك أكثر مما توصف ، وتراها في كل باب من أبواب الشعر حتى باب الزهد فإن للفنان أيضاً طرباً بالزهد كطربه باللهو .

وإذا كان أبو تمام قد لقب أبا نواس بالأستاذ والحاذاق فلأنه هو الذي فتح باباً توغل فيه أبو تمام وأعنى باب الصنعة البيانية ، وهو حاذق فيها لأنها كانت وليدة طرب الفن ، فكانت طبيعة غير نابية حتى لا يكاد القارئ يحسها إلا إذا بحث عنها عامداً . فهو في فنه كالممثل الحاذق في فنه ينسيك أنه يمثل كما أن المصور البارع ينسيك أدوات فنه من دهان وزيت حتى لتحسب أنك ترى جزءاً من الطبيعة ، والشاعر الحاذق أيضاً ينسيك صنعته البيانية مع إجادته فيها .

وقد كان لأبي تمام أيضاً نصيب وافر من هذا الطرب الفني ، إلا أن أبا تمام كان يدفعه طرب الصياغة والصناعة البيانية أحياناً إلى المغالاة في أساليبه البيانية من استعارات وتشبيهات . وقد أحس كثير من الشعراء بما أحس به أبو تمام وفطنوا إلى أن الحسن بن هاني كان أستاذاً للشعراء في صنعته ، فكان منتهى ما يسمون إليه أن يحاكو قصائده وأن ينسجوا على منوالها كما فعلوا في احتذاء قصيدته التي مطلعها : « حي الديار إذ الزمان زمان »

(*) مجلة الهلال : أغسطس ١٩٣٦ ، ص ١١٠٦ - ١١٠٩ .

والتي مطلعها : يا دار ما فعلت بك الأيام « والتي مطلعها : « أيها المنتاب من عفره »
والتي مطلعها : « دع عنك لومي فإن اللوم إغراء » والتي مطلعها « حامل الهوى تعب »
والتي مطلعها : « أجارة بيتينا أبوك غيور » وقد كان النقاد لا يقرّون لشعراء المغرب ببلوغ
منزلة المشاركة في الإجازة ، حتى احتلّ ابن دراج الأندلسي قصيدة أبي نواس . التي
مطلعها : « أجارة بيتينا أبوك غيور » وقد أجاد ابن دراج في قصيدته كل إجازة عند وصفه
وداعه لزوجه وابنه الصغير . وهي قصيدة قلما تطاول في هذا الموضوع . وحبذا لو أتيح
لديوانه من ينشره ! فإن ابن دراج شاعر مغمور ومن يستطيع أن يجيد إجادته في قصيدته
الرائية يستطيع أن يجيد في غيرها فلا بد أن له شعراً جيداً مغموراً . وقد احتلّ البارودي
أيضاً قصيدة أبي نواس الرائية . وكل هذا الاحتذاء فضل للشاعر الذي احتذاه الشعراء
واعتراف منهم أنه أستاذهم . ومن المشاهد أن الطرب الفني الذي قدمه في الشعر وجعله
أستاذاً للشعراء لا يفارقه حتى في زهده ! فترى له في الزهد قصائد يكاد يتغنى بها أو تردد
ترديد المستجيد لما فيها من طرب الفنان بفنه مثل قوله :

خل جنبـيك لرام وامض عنه بسلام

مت بداء الصمت خير لك من داء الكلام

إلى أن قال : والبس الناس على الصـحة منهم والسقام

أو قصيدته التي مطلعها : « يا بني النقص والعبر » .

ولعل طربه بفنه وهو طرب نفساني هو الذي غطى على تأنقه اللفظي في كثير من شعره
حتى سارت أبيات كثيرة له مسير الأقوال التي يتمثل بها وقد ينسى اسم صاحبها . ومن
أبياته التي يتمثل بها قوله :

وليس لله بمستكثر أن يجتمع العالم في واحد

يقال في المدح وقد ورد أيضاً (ليس على الله بمستكثر) وهاتان الروايتان صحيحتان في
الوزن ولكن بعض الكتاب يخلطون ويكسرون البيت فيقولون (وليس على الله) ومن الأبيات
التي يتمثل بها أيضاً قوله :

يزيدك وجهه حمناً إذا ما زده نظراً

وقوله : لا يرحم الله إلا راحم الناس

وقوله : لا تتناهى النفس عن غيها ما لم يكن منها لها ناه
 وقوله : فودّ بجذع الأثف لو أن ظهرها من الناس أعرى من سراة أديم
 وقوله : مت بسداً الصمت خير لك من داء الكلام
 وقوله : دارت على قتيّة دار الزمان بهم فما يصيبهم إلا بما شاموا

وهذا البيت الأخير يذكرني قول جويتى الألماني : « الحكمة هي أن يجعل الإنسان إرادته فيما يريد له القدر حتى إذا أصابه القدر بشئ كان كأنما شاء أن يصيبه به القدر » وهذا فيه معنى الإسلام وروحه . ومن صفات الحسن بن هانئ في شعره الجرأة والصراحة ، وقد روى أن الخليفة أراد أن يحده حد معاقر الخمر لأنه أجاد في وصفها إجادة لا يجيد مثلها إلا المعافر فقال أبو نواس : « وكيف عرفت يا أمير المؤمنين أنى أجدت وصفها وأنت لم تذوقها ؟ وكأنما يريد ابن هانئ أن يورط الخليفة وقد كان ابن هانئ جريئاً على الله حين قال يدعو صديقاً لمعاقرة الخمر :

يا أحمد المرتجى في كل نائبة قم سيدى نعص جبار السموات

وقد قاده جرأته في شعره إلى السجن لهجائه عدنان .

ومن جرأته هجاؤه الأمراء والوزراء ، كما هجا جعفر بن يحيى البرمكى ، وتظهر هذه الجرأة بمظهر التعزز وإكرام النفس كما في قوله وق تكبر عليه ذو مال :

وَمُسْتَعْبِدٌ إِخْـسَـوَانُهُ بِشِرَائِهِ لبست له كبيراً أبر على الكبير

إلى أن قال : لقد زادنى تيهاً على الناس أننى أرائى أغناهم وإن كنت ذا فقر

وقد يبلغ به إكرام النفس مبلغاً فيه الجفاء المستتر الذى يعبر عنه اللفظ تعبير في قوله :

لم ترض عني وإن قرئت متكنى يا راضى الوجه عني ساخط الجود

بل استقرت بإظهار البشاشة لى والبشر مثل استتار النار في العود

ولا ننسى أنه كان مثل غيره من الشعراء يستجدى بشعره وإن كان الشعراء يرون لأنفسهم حقاً فيما يصيبون من المال لأدبهم وفطنتهم وبلاغتهم . ومجونه هو مظهر آخر من مظاهر هذه الجرأة المشاهدة في شعره . وما يؤسف له أن كثيراً من المجون الذى قاله في مبادله خلد ، وهذا المجون هو أشبه بما تسمعه من المجون حتى في مجالس الوجهاء والعظماء والأدباء ، ولكنه لا

يؤخذ عليهم لأنه لا ينشر . فكم من كبير يغرى بالقصص القلرة يسردها ويتمزرها وبالنكات المجونية اللفظية والمعنوية يستحلى تردددها فى فمه ثم يتكر نسبتها إليه إذا اقتضى الأمر إنكارها ، وقد اعتذر أبو نواس عن مجونه فى قوله :

عفا ضميرى هازل لفظى وفى نظرى عرامة

ويقول إن مذهبه الحقيقى فى الحب الاستمتاع بالنظر ، وربما كان هذا الاعتذار منه عند ما قارب الشيخوخة التى يصفها فى قوله :

أرانى مع الأحياء حيا وأكثرى على الدهر ميت قد تخرمه الدهر

وله قصيدة يذم فيها عيشة البدو ويصف أثر الحضارة . وهو فى وصفه كاتب ديوان الخراج فيها كأنما يصف شابا باريزيا بالغ فى التجميل والتطيب والتأنق . وهو فى القصيدة أيضا يعلل مذهبه فى بعض نواحي غزله . وهذه القصيدة تكشف لنا عن نواح من حياة القوم فى ذلك الزمن وأغنى القصيدة اتى بقول مطلعها : « دع الرسم الذى دثرا » . ولكن من مجونه ما لا يصح إيداعه حيث يسهل أن يستعيره أو يطلع عليه الشبان المراهقون ، لأن أثره فى سن المراهقة غير محمود . ومثله كثير من دواوين العرب وكتبهم فإن بها القليل أو الكثير مما ليس له قيمة تاريخية أو أية قيمة أخرى ولا يمكن الاستشهاد ببعضه .

وربما شابه الحسن بن هانى الشاعر الفرنسى بول فرلين . فكلاهما كان يكثر من معاقرة الخمر ، وهما شبيهان فى بعض نواحي غزلهما وفى رقة الشعر وفى ندمهما وتوبتهما ، وإن كانت توبة فرلين توبة متكررة أى توبة العائد وكلاهما قد سجن ، ولكن لكل مقارنة حدا .

١٣ - الشريف الرضى (*)

وخصائص شعره

الشريف الرضى لا يضارع ابن الرومى فى تحليله المعنى وتقصيه إياه ، ذلك التقصى الذى ساعد ابن الرومى على إجادة الوصف سواء أكان وصفًا لهمسات النفس وخطراتها أو لأوجه الطبيعة والمرثيات . ولا يضارع الشريف أبا تمام قيسا يتقنه من فلتات الصنعة النادرة التى تأتى بالأبيات الفذة الخالبة الأخذة بمجامع القلوب والتى تستهوى القلوب وتشعل الخيال ، ولا يضارع الشريف المتنبى وأبا العلاء المعرى ، ولا سيما المعرى فى التفكير فى النفس والحياة ، وأخلاق الناس . ولكن للشريف نصيبًا لا يستهان به من هذه الميزات ؛ وهو مع ذلك قد اقتص بالشرع الوجدانى . ولهؤلاء الشعراء جميعًا ولغيرهم شعر وجدانى ، ولكنى أحسب أن الشريف يزهم جميعًا فى هذا الضرب من الشعر . وهو قد أمن ما يعتور ابن الرومى فى بعض الأحايين من الفتور بسبب ما قد يبدر منه من الإفراط فى التقصى والتحليل وتتبع الجزئيات ؛ وأمن الشريف زلل المبالغة فى الصنعة الذى قد يقع فيه أبو تمام إذا أفرط فى حبه للاختراع والتوليد وإتيان ما لم يأت به أحد من التشبيه أو غيره من صيغ الصنعة . وأمن الشريف المبالغة غير المقبولة والمعاظلة كما فى بعض شعر المتنبى ؛ وأمن أيضًا ما قد ترى فى ديوان سقط الزند للمعرى من مبالغات المتأخرين التى لا تعبر عن وجدان صادق . ولو قارنت بين شعر الشريف وشعر معاصريه لوجدت فرقًا كبيرًا فى الأسلوب والذوق ، فإن الصنعة كانت قد انتشرت فى عصره وغالى الشعراء فيها من إبعاد فى التشبيه ومغالاة فى المعنى من غير سبيل دافق من العاطفة والوجدان يلبسها لباس صدق الإحساس ، ومن ألعيب لفظية ومعنوية . وحسبك أن حكيم الشعر العربى المعرى التزم ما لا يلزم فى لزومياته مجازاة لصنعة عصره ، ويولع أحيانًا بالجناس وغيره من المحسنات اللفظية التى لا تناسب ما هو فيه من التفكير والحكمة والجد . ولا عبرة بما يقوله بعض المطلعين على الشعر الأوربى من أن الشاعر العالمى الإنجليزى شكسبير يفعل ذلك ويغرى أحيانًا بتلك الألعيب اللفظية ، فإن شكسبير يفعل ذلك فى غير موضع الجذ المؤثر ، وعلى لسان أناس من طوائف خاصة ، أو لهم صفات خاصة . والشريف يترفع عن أساليب هذا التلاعب بالألفاظ . ولعل هذا هو ما ينبغى أن يكون ، لأن الشريف شاعر الوجدان

(*) الرسالة : ٢ ، ٩ يناير ١٩٣٩ ، ص ٥ - ٧ ، ص ٥١ وما يلى .

والعاطفة . وهذه الألاعيب اللفظية هي نزهة ولعب يلهمو به الذكاء في استنباطها واختراعها ومقارنة معانيها ؛ والذكاء من العقل ، فلا غرو إذا قبله المعري شاعر العقل لأنه كان سائداً في عصره ، وإن كان هذا الهزل ضد جده ، ولا عبرة بما يقول القائل من أنه أراد أن يلفت بعبث هذا الناس عن حرية القول والفكر والعقيدة في بعض شعره كما فعل رابليه الكاتب الفرنسي في تغطيته نقده لعقائد رجال الدين في قصصه بالعبث الصاخب ، وإن كان عبث رابليه مجوناً لا يطيقه المعري . ولا عبرة بقول من يقول إن المعري أحسن من مرارة نفسه أن الحياة والخلقة وإن كانت مقدسة تدعو من أجل قداستها إلى مرارة النقد ، إلا أنها مهزلة أيضاً ؛ فهي مهزلة مقدسة كما سماها دانتى الشاعر الإيطالي ، ومن أجل أنها مهزلة أباح هزل الألاعيب اللفظية في أثناء جد الفكر .

ومن أجل أن الشريف شاعر الوجدان كان أقرب شعراء عصره إلى الأقدمين . وكان بدوى النزعة وإن كان قد أخذ بنصيب من الصنعة العباسية لإعظام أثر المناجاة أو النداء أو الاستفهام أو النفي الوجداني في شعره ، فإنه يستخدم هذه الصيغ البيانية ويتعرف وسائل الصنعة في تكرارها بل تقوى أثره . وإذا قرأ القارئ له غزله أو رثاءه أو إخوانياته أو تحسره على انحسار الشباب أو مناجاته الدبار ظهرت للقارئ آثار هذه الصيغ في إشباع الوجدان وإقناعه ، فإن الشريف الرضى يشبع الوجدان ويقنعه ويظهره ويستميله بالنداء الوجداني ، أو الاستفهام والسؤال ، أو النفي أو الإخبار بصيغة التحقيق والتأكيد ، أو الأمر أو المناجاة بأساليب أخرى ... ويفعل الشريف كل ذلك حتى ليخيل إلى القارئ أن لأدوات هذه الصيغ في شعره معنى ليس لها في شعر غيره ؛ وهو إذا رأى تلك الأدوات والحروف مثل « يا » أو « الهمزة » للاستفهام أو النداء أو « أين » أو « كيف » أو « لن » أو « قد » عرف أنه يجيد استخدامها لأغراض الشعر الوجداني أكثر من إجادة غيره استخدامها ، ففي رثاء أحبابه وأودائه ينادى الدهر فيقول :

« يا » دهر رَشَقًا بكل نائية « قد » انتهى العتب وانقضى العجب

« ردُّ » يدى ما استطعتَ عن أرى « لم » يبق لى بعد مسوتهم أرب

ففي هذين البيتين استخدم النداء والإخبار بالتحقيق والأمر والنفي كلها بصيغة وجدانية تؤثر في النفس . فهذه هي الصنعة اللفظية المحمودة لا الجناس والألاعيب اللفظية التي أولع بها معاصروه .

ويخاطب وينادى النظرة ويسأل مع النفى فى قوله :

ذكرتكم ذكر الصبا بعد عهده قضى وطراً منه وليس بعسائد
« فيا » نظرة لا تملك العين أختها إلى الدار من رمل اللوى المتقاود
« أمّا » فارق الأحباب قبلى مفارق ولا شيع الأظعان مثلى واجد ؟

فى هذه الأبيات استخدام الإخبار ثم النداء ثم الاستفهام المنفى ، وهذه صيغ لفظية وصنعة لفظية لا يحسُّ القارئ أنها صنعة ؛ وهى صنعة الطبع التى تُقنع الوجدان ، ويتفطن الشريف ويفتن فى مناجاته ومناداته الوجدانية فينادى وقفة الأحباب فيقول : « يا وقفة بوراء الليل أعهد لها إلخ » وينادى بؤس القرب القصير من الأحباب الذى يعقبه الفراق الطويل فيقول :

فيا بؤس للقرب الذى لا تذوقه سوى ساعة ثم الفراق مدى الدهر
وينادى نفسه ويشجعها على تحمل آلام الحياة ومتاعبها فيقول :

يا نفس لا تهلكى بأساً . ولا تدعى لوك الشكائم حتى ينقضى العمرُ
وينادى الشباب فيقول :

فمن يك ناسياً عهداً فبأنى لعهدك يا شبابه غير ناسى
فإن العيش بعدك غير عيش وإن الناس بعدك غير ناس
وينادى بؤس نفسه فى الغزل فيقول :

يا بؤس مقتنص الغزال طماعة ذهب الغزال بلب ذاك القناص
كالدرة البيضاء حان ضياعها من بعد ما ملأت يمين الغناص
ما كان قريك غير برق لامع وكلى الغمام به وظل قدسالص
أغسدو على أمل كحبيبك زائد وأروح عن حظ كوصلك ناقص

وينادى الحبيب صاحب القلب الصحيح الخالى من الهوى فيقول :

يا صاحب القلب الصحيح أما اشتفى ألم الجوى من قلبى المصدوع

ولاحظ أنه لم يكتب بصيغة النداء فى « يا » بل قرن إليها صيغة الاستفهام المنفى فى قوله « أمّا » . وهى ألفاظ إذا جاءت فى كتب النحو كانت مية ، ولكنها هنا تثبت حياة كالمسك عند اخراجه من الماء .

ويخاطب الشريف السرحة ويرمز بها إلى من يحب فيقول

إسلمى يا سرحة الحسى وإن كنت مسحيقاً
أتمنى لك أن تيسقى على النأى وريقاً
ثم رُحُرم وأشريك علينا أن نذوقه
وينادى بالهمزة فى قصيدته المطربة فيقول :

أمعيني على بلوغ الأمانى وشفائى من غلتى واشتياقى
وينادى طائر البان فى قصيدته المشهورة فيقول :

يا طائر البان غريداً على فنن ما هاج نوحك لى يا طائر البان !
(هل أنت مبلغ من هام الفؤاد به ... إلخ)

فانظر إلى أثر «يا» و «ما» و «هل» ، وإلى تلك الصنعة اللفظية التى تقنع الوجدان كل الإقناع . وقد يُقنع الوجدان أيضاً بالمناجاة من غير أدوات النداء فيناجى الموطن والدار فيقول :

سكنتك والأيام بيض كأنها من الطيب فى أثوابنا تتقلب
وتعجبني منك النسيم إذا سرى ألا كل ما سرى عن القلب مُعجب
ويقول :

كانك قدمة الأمل المرجى على وطلعة الفرج القريب
ويقول :

وأهجركم هجر الحلى وأنتم أعز على عيني من طارق الكرى
ويقول :

وانى لأقوى ما أكون طماعاً إذا كذبت فيك المنى والمطامع
ويقول فى قصيدة مطربة :

فإن لم تكن عندي كسمعى وناظرى فلا نظرت عيني ولا سمعت أذنى
وانك أحلى فى فؤادى من الكرى وأعذب طعماً فى فؤادى من الأمن
ويناجى أيضاً مناجاة وجدانية فيقول :

أنت الكرى مؤنساً طرفى وبعضهم مثل القذى مانعاً عيني من الوسن

ويقول :

فقلت نعم لم تسمع الأذن دعوة بكى إن قلبى سماع وجنانى
وتراه يستخدم الاستفهام استخدماً وجدانياً مطرباً كاطراب ندائه الوجدانى فيقول :
هل تذكر الزمنَ الأتيقَ وعيشنا يحلو على مُتَسأمل ومذاق ؟
وليسالى الصبوات وهى قصائر خطف الوميض بعارض مبراق ؟
ويستفهم بأين ويناجى فى قصيدته فى ديار الحيرة ، وهى من الوصف الوجدانى المؤثر ،
ومن الشعر ينبغى أن يختار له كلما اختير له شعر وجدانى ويقول فى مطلعها :
أين بانوك أيها الحيرة البـ ضاء والموطنون منك الديارا ؟
على أن الوجدان يفيض فى شعر الشريف حتى من غير الاستعانة بهذه الصيغ البيانية .
انظر إلى وصفه حبيبته فى قوله :

تُحسِبُ أيامَ الحسياءِ وإنها لأعذبُ من طعم الخلود لطاعم
وتراه يستجمع أساليب البيانية كلها فى قصائده الطويلة المشهورة كثرائه للصايب
وللصاحب فى قصيدته التى يقول فى مطلع واحدة :

أعلمت مَنْ حملوا على الأعواد أرايتَ كيف خبا ضياء النادى ؟
وفى مطلع الأخرى :

أكذا المنون تُفطرُ الأبطال أكذا الزمان يضعض الأجيالا ؟
وهاتان القصيدتان من أفخم قصائده فى الرثاء وإن كان الحنين فيهما أقل منه فى قصائده
فى رثاء أهل بيته . وله فى رثاء الصايب قصائد أقل فخامة وإن كانت أكثر حرقة . ومن أكثر
قصائد الشريف فى الرثاء وجداناً قصيدته العينية المشهورة التى يقول فيها :

لله نفرة وجد لست أملكها إلا تذكرت إخوان الصفاء معى
وفىها يقول :

الآن نعلم أن العيش مُسْخُتَلَسُ وأنا نقطع الأيام بالثُدَع
أخى لا رغبت عيني ولا أذن من بعد يومك فى مرأى ومُسْتَمَع

وقصيدته التي يقول في مطلعها :

قف موقف الشك لا يأس ولا طمع وغالط العيش لا صبر ولا جزع
وهي في نظري من أكثر قصائده في الرثاء وجداناً . ومن قصائده الوجدانية في الرثاء
قصيدته في آل المسيب العينية التي يقول فيها :

وفارقني مثل النعيم مفارقاً وودّعني مثل الشباب مودّعاً
ومن قصائده الحبيبة في الرثاء قصيدته في رثاء أمه وهي أكثر وجداناً من قصيدة المتنبي
في رثاء جدته التي يقول فيها :

وإن لم تكوني بنت أكرم والد لكان أباك الضخم كونك لي أمّا
وللمعري قصيدته الطويلة الفخمة في سقط الزند في رثاء أمه التي يقول فيها :
مضت وقد اكتملت فخلت أنى رضيع ما بلغت مدى الفطام
ويقول :

سألت متى اللقاء فقبل حتى يقوم الهامدون من الرجام
فليت أذين يوم الحشر نادى فأجهشت الرمام إلى الرمام
ولكن قصيدة الشريف أسهل وأسلم وأكثر وجداناً وهي التي مطلعها :
أبكيك لو نفع الغليل بكائي وأقول لو ذهب المقال بدائي
وهي كلها ألصق بالموضوع من بعض أجزاء قصيدة المعري . ولابن نباتة السعدي قصيدة
تستجاء في رثاء أمه يقول فيها :

فقدت كبيراً برّاً أم حفيضة كما فقد الشدي المعلن مريض
تبادر نحوي تبتغي أن تصرني ولم تدّر أنى بالسرور أروع
إلى أن قال :

إلى أي تعليل وأي مبررة وود نصيح بعبد ودك أرجع
ولأمر ما تذكرني قصيدة الشريف بقصيدة كوير الشاعر الإنجليزى في رثاء أمه : ولعل
الذكرى لأثرهما في الوجدان فحسب لا لشبه كبير .

وللشريف قصيدة فى التعزية تستجيب للتلفظ فى التعزية تليظاً يجيده الشاعر الوجدانى وهى التى مطلعها : (لو رأيت الغرام يبلغ عذراً) .

وقصائد الشريف فى رثاء جده الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه مشهورة جيدة فخمة ، ولكنها فى نظرى من حيث هى شعر وجدانى أقل مما ذكرت من القصائد . وربما أكون مخطئاً ، وهى لا ينقصها التحرق والتأسف ولكن قيمة الشعر الوجدانى ليست بالتحرق والتلدد فحسب ، ولا بالفخامة ولا بدقة المنطق ولا بعكسه ، وقد يكون الشعر الوجدانى عكس المنطق إذا كان العكس يعبر عن صدق العاطفة ، فقول الشريف فى تشتت قومه وآله :

ما كان ضر الليالى لو نفْسُنْ بهم على النوائب واستثناهمُ القُدْرُ

ليس من منطق العقل ولا هو عكس المنطق الناشئ من مبالغات أهل الصنعة المزيفة بل هو منطق الوجدان الذى يعبر عن النفس ؛ فإن كل نفس فى الحياة تطلب أن تُستثنى من آلام الحياة وصروفها ومنطق عقل صاحبها يعلم أن هذا طلب محال . فالشعر الوجدانى توفيق ويصادف هوى النفس ومنطقها حتى لكأنه يخلق لها سمعاً يصغى إليه وقلباً يطرب له . وقد يكون البيت الواحد منه ألصق بالنفس وأثمن من قصيدة فخمة سواء أكانت من شعر التلدد ، أو من الشعر التعليمى المحض المستقل عن العاطفة ، أو من شعر الزخارف والأعيب الذكاء فى تبذله ولهوه . انظر مثلاً إلى أبيات الشريف التى يذكر فيها كيف أنه يدافع الهموم بذكرى النعيم الزائل بينما غيره يدفعها بالخمر أو سماع الأغانى ولكنه يفيق من نشوة الذكرى كما يفيق غيره من نشوة الخمر ؛ وهى الأبيات التى أولها :

إذا ضافنى هم أملُ طروقهِ ببعض اللبالي أو أضيق به صبرا
إلى أن يقول بعد صحوه من الذكرى :

فما كان إلا خلصة ثم إننى رأيت يسدى بما علقته به صـفـراً

وهى أبيات ليس فيها خيال غريب ولكن قيمتها فى صدق وصف حالة للنفس ووسائلها فى تعللها . وللشريف قصائد شهيرة فى الإخوانيات قلما تتفق لشاعر آخر فى صدق قولها وبساطتها وقربها من النفس وفى مظاهر الوجدان فيها مثل قصيدته فى مودة الحب ، وهو موضوع قلما يطرقه شعراء العربية عند وصف الحب فى أشعارهم ، انظر إلى قوله فيها :

أينعت بيننا المودة حتى جَلَلْتَنَا والـدَّهْرَ بالأوراق

أو قوله فيها :

فى جبين الزمان منك ومنى غُورٌ كوكبية الاتلاق
ومن قصائده المشهورة قصيدته التى يقول فيها لصديقه :

كأنك قسمة الأمل المرجى على وطلعة الفرج القريب
والقصيدة التى يقول فيها :

وكم صاحب كالرمح زاغت كعبه أبى بعد طول الغمز أن يتقوما
وهى من قصائده التى ترد كثيراً فى كتب المختارات ، وحق لها أن تختار ، والشريف إذا
جوفى عبر عن شعوره بقوله :

ويُظهر لى قوم بعباداً وجفوة وما علموا أنى بذلك أفرح
فيكون هو المعزز المكرم بقوله هذا . وانظر إلى الوجدان فى قوله :
تُحَبَّبُ أيام الحياة وإنها لأعذب من طعم الخلود لطاعم
وهو لا يفحش فى هجائه كما يفعل الشعراء ؛ ولكنه مع ذلك يدمغ خصومه ، انظر إلى
قوله :

من كل وجه نقاب العار نقبته كالعرمر عليه القار والقطر
يصدى من اللؤم حتى لو تعاوده أيدى القيون زماناً لا ليجلى الأثر
وهى مبالغة ضرورية لأنها نكتة يراد بها السخر . وانظر إلى قوله :

تمسكوا بوصايا اللؤم تحسبهم تتلى عليهم بها الآيات والصور
وقوله :

لو عيّد من داء القهامة واحد عادوه من عى إذا حضر الندى
وأشعاره فى الشيب كأشعار أخيه المرتضى مشهورة ، وقد عنى بشعرهما فى الشيب
صاحب كتاب (الشهاب فى الشيب والشباب) وهو باب من الشعر الوجدانى أيضاً . وهذه
النظرة فى ديوان الشريف تثبت ما قدمناه فى أول المقال من أنه أكثر نصيباً من شعر الوجدان
ولكن ليس له فى وصف الطبيعة كقصيدة أبى تمام التى أولها (رقت حواشى الدهر فهى

تقرمر) أو كقصيدة البحترى التى يقول فيها (وجاء (*) الربيع الطلق يخال ضاحكاً) أو (شقائق يحملن لندى فكأنه) أو وصف بركة المتوكل أو وصفه آثار الفرس وغيرها من شعر الوصف التصويرى . وليس له كوصف ابن الرومى غروب الشمس فى قوله (وقد رنقت شمس الأصيل إلخ) ولم يسر شعره فى الأمثال كما سار بعض شعر المتنبى ، ولم يولع بالبحث فى الحياة والكون كما يفعل المعرى ، ولكنه مع ذلك قد أمن زلل المبالغات والتشبيهات البعيدة المرفوضة ، وأمن الفتور وأمن المعاظلة والتواء القول وأمن الألاعيب اللفظية . وشعر الوجدان ليس بأقل منزلة ولا أقل أثراً فى النفس من أبواب القول الأخرى التى بزّه فيها منافسوه . فهر إذاً أقلّ منهم منزلة وله مع ذلك نظرات صائبة تدل على عقل وذكاء وذوق فى اختيار ما يقول ورفض ما لا يجمل به أن يقول . انظر إلى قوله فى وصف لذة القسوة المركبة فى بعض الطبائع:

يهش للمرء تغريه أظافره كما تهش سباع الطير للجيء
إذا لجأ من يديه غير منعتر أفنى أنامله عضاً من الأسف
وقوله :

يصل الدليل إلى العزيز بكيسه والشمس تُظلم من دخان الموقد
وقوله فى أثر الأعداء فى حياة الناس وتاريخهم :
ولولا نفوس فى الأقل عزيزة لغطى جميع العالمين خمول
وقوله :

رب نعيم زال ريعانه بلسمه من عقرب الحاسد
وقوله :

كفى بقوم هجاء أن مادحهم يهدى الثناء إلى أعراضهم قسراً
وكل هذه نظرات صائبة فى النفس ، وله أشياء كثيرة من أمثالها ، ولا غرابة أن تكون للشاعر الوجدانى نظرات صائبة فى النفوس . وله أيضاً وصف بديع كما قال فى وصف الفرس:

إذا توجّس كان القلب ناظراً والقلب ينظر ما لا ينظر البصر

وقال فى وصف تردد الجميل فى النعيم وتشبيهه بتردد القرط الجميل فى اهتزازة على جانب الوجه الجميل بعد تشبيه الحبيب فى النعيم بتردد النسيم ولعبه بالأغصان :

ينأى ويدنو على خضراء مورقة لعب النعامى بأوراق وأغصان (١)

كالقرط علق فى ذفرى مبتلة بين العقائل قرطاهما قليقان

وهذا الوصف إذا تَزَمَّل وجد وصفًا مطربًا (٢).

١ - النعامى بالياء : ربح هائلة ،

٢ - ضاق المقال عن الكلام فى النعمة الموسيقية فى شعر الشريف ، وسنتكلم عنها فى مقال عن تلميذه مهيار الديلمى ونشير إلى مقترحاتهما فى الوصف .

١٤ - شعر مهبّار (*)

قال ابن خلكان فى كتاب وفيات الأعيان : « هو أبو الحسن مهبّار بن مرزويه الكاتب الفارسى الديلمى الشاعر المشهور ؛ وكان مجوسياً فأسلم . ويقال إن إسلامه كان على يد الشريف الرضى أبى الحسن محمد الموسوى وهو شيخه وعليه تخرج فى نظم الشعر ، وقد وازن كثيراً من قصائده » . نعم أخذ مهبّار عن الشريف الرضى وسلك مسلكه فى فخامة اللفظ وقرب التشبيه والاستعارة ونغمة الوزن وتحكيم الوجدان والتباعد عن المعانى التى يمجها اللوق والوجدان إلا فى القليل مثل قوله فى الغزل :

غار المحبون من أبصار غيرهم ضناً وغرت على لمياء من بصرى

إذ أن هذا معنى غير مستقيم ولا يقبله الذوق وإن كان للشعراء مثله . ولا أذكر الآن هل للشريف مثله أم ليس له . ومن دلائل التكلف أحياناً فى شعر مهبّار أن له قصيدة فى الرثاء بها يرثى أهل البيت رضى الله عنهم ومطلعها غزل وهو : (فى الظباء الغادين أمس غزال) وجاء فى غزلها ذكر الملل والدلال وما إلى ذلك . وهذه أقوال لا تستقيم مع الرثاء عموماً ورثاء أهل البيت خصوصاً . وعلى أى حال فإن أستاذة الشريف أكثر طبعاً ؛ وإن كان الشريف أحياناً يقبل معانى الغزل المعتاد الشائع فى عصره ، ولكن نصيبه من عبث الحضارة أقل من نصيب مهبّار ، وأقل من نصيب غيره من شعراء الدولة العباسية . ومن أجل متابعة مهبّار له سلم فى أكثر شعره من هجنة الذوق الحضري العابت ، ولكنه من أجل هذه المتابعة لم يُدْخِلْ فى العربية أثراً من الثقافة والنزعة الأدبية الفارسية . وكنا نأمل أن نجد لمهبّار ابتكاراً بسبب جمعه بين الحضارتين الفارسية والعربية ، ولكن طريقة الشريف كانت عربية بدوية أكثر منها حَضَرِيَّةً ، فنزع مهبّار هذا المنزع ؛ ولم يكتف بذلك بل إنه برزّ فى أبواب القول التى برزّ فيها الشريف مثل الغزل الوجدانى الرقيق ، والرثاء والإخوانيات والعتاب وشكوى الزمان وأهله ؛ وبرزّ أيضاً فى المديح بحكم مهنته . وهو أحياناً يحتذى طريقة الشريف فى المديح بوصف عادات البدو فى معيشتهم فيقول :

ضربوا بدرجة السبيل قبايهم يتقارعون بها على الضيفان

ويقول :

كَأَنَّ حَدِيثَ مَنْ يُتَنَّى عَلَيْهِ حَدِيثُ الْقَيْنِ عَنْ نَصْلِ يَمَانِي
وَالْمَدِيحِ هُوَ الْبَابُ الَّذِي كَانَ فِيهِ مَهْيَارٌ أَكْثَرَ اسْتِرْسَالاً مِنْ أَسْتَازِهِ بِحُكْمِ مَنْزِلَتِهِ وَبِحُكْمِ تَرْفَعِ
الشَّرِيفِ الَّذِي يَخَاطَبُ الْخَلِيفَةَ فَيَقُولُ لَهُ إِنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا :

إِلَّا الْخِلَافَةُ مَيِّزَتُكَ فَسَانِنِي أَنَا عَاطِلٌ مِنْهَا وَأَنْتَ مَطْوِقٌ
وَيَقِلُّ تَبْرِيزُ مَهْيَارٍ فِي أَبْوَابِ الشَّعْرِ الَّتِي يَقِلُّ فِيهَا تَبْرِيزُ الشَّرِيفِ ، فَلَا يَنْتَشِي مَهْيَارٌ بِمَا
يُصَفُّ كَمَا يَنْتَشِي أَبُو تَمَامٍ فِي وَصْفِ الطَّبِيعَةِ ، وَكَمَا يَنْتَشِي الْبَحْتَرِيُّ وَابْنُ الرُّومِيِّ . وَلَكِنْ
وَصَفُّ الشَّرِيفِ أَقْوَى وَأَعْرَقَ فِي الشَّعْرِ مِنْ وَصْفِ مَهْيَارٍ . انْظُرْ إِلَى قَوْلِ الشَّرِيفِ فِي وَصْفِ
الْقَلَمِ :

وَيَنْطَلِقُ بِالْأَسْرَارِ حَتَّى تَظُنَّهُ حَوَاهَا وَصَفَرٌ مِنْ ضَمِيرٍ أَضَالَعُهُ
أَوْ قَوْلُهُ فِي وَصْفِ الذُّثْبِ :

إِذَا فَاتَ شَيْءٌ سَمِعَهُ دَلَّ أَنْفَهُ وَإِنْ فَاتَ عَيْنِيهِ رَأَى بِالْمَسَامِعِ
وَهَذِهِ الْقَصِيدَةُ تَذَكِّرُنِي قَصِيدَةَ الْبَحْتَرِيِّ الَّتِي مَطَّلَعَهَا (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا وِفَاءَ وَلَا عَهْدَ)
وَفِيهَا وَصْفٌ لِلذُّثْبِ مِنْهُ قَوْلُهُ :

كَلَانَا بِهَا ذَنْبٌ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِصَاحِبِهِ وَالْجَدُّ يُتَعَسُّهُ الْجَدُّ
وَتُذَكِّرُ أَيْضًا وَالشَّيْءُ يَذَكِّرُ بِالشَّيْءِ أَهْيَاتُ الْفَرْزَدَقِ فِي وَصْفِ الذُّثْبِ الَّذِي قَرَأَهُ وَأَطْعَمَهُ بِعَكْسِ
مَا فَعَلَ الشَّرِيفُ وَالْبَحْتَرِيُّ ، وَهِيَ الَّتِي مَطَّلَعَهَا (وَأَطْلَسَ عَسَالَ وَمَا كَانَ صَاحِبًا) .

أَمَّا مَهْيَارٌ فَلَهُ شَعْرٌ كَثِيرٌ فِي الْوَصْفِ أَكْثَرُهُ فِي وَصْفِ الشَّمْعِ أَوْ السَّمَكِ أَوْ الطَّبِيلِ أَوْ
الْأَسْطَرَلَابِ إلخ . وَهُوَ لَيْسَ مِنَ الطَّرَازِ الْأَوَّلِ . وَلَهُ أَهْيَاتُ فِي وَصْفِ السَّمَاءِ وَهُوَ مَوْضُوعٌ كَبِيرٌ
يَشْمَلُ حَسَنَهَا فِي مَظَاهِرِهَا الْمُخْتَلِفَةِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَوْفِهِ حَقُّهُ . وَلَهُ قَصِيدَةٌ فِي وَصْفِ آلَاتِ زِينَةِ
صِنَاعِيَّةٍ فِي بَرَكَةِ ، وَلَكِنَّهَا عَلَى شَهْرَتِهَا لَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الشَّاعِرَ قَدْ انْتَشَى بِمَوْضُوعِهِ ، فَمَهْيَارٌ
إِذَا لَا يُبَرِّزُ فِي الْوَصْفِ كَمَا يَبْرُزُ فِي الْمَوْضُوعَاتِ الْأُخْرَى الَّتِي ذَكَرْنَاهَا وَبَرَزَ فِيهَا أَسْتَازُهُ .

وَالَّذِي جَعَلْنَا نَأْمَلُ أَنْ يَبْتَكِرَ مَهْيَارٌ وَأَنْ يَدْخُلَ ظَهْرًا مِنْ أَثَرِ الثَّقَافَةِ الْفَارْسِيَّةِ هُوَ مَا رَأَيْنَاهُ
مِنْ ابْتِكَارِ ابْنِ الرُّومِيِّ وَمَا لَعَلَّهُ مِنْ أَثَرِ نَسْبِهِ الدَّخِيلِ ، وَإِنْ كَانَ ابْنُ الرُّومِيِّ قَدْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ

النزعة العربية أكثر مما غلبته النزعة الرومية . ومهيار يفتخر بسؤدد الفرس فيقول : إنه جمع المجد من أطرافه (سؤدد الفرس ودين العرب) ويفتخر بفصاحتهم فيقول : (وفيهم ألسنُ البيان) ويقول :

إن تُشكِّرِي قومي فعندك من بقيتهم بيانُ

وقد نظرنا في شعر هذا الفارسي فوجدناه أكثر عروبة من شعر بعض الشعراء العرب من سكان العراق وفارس ، وكان هؤلاء يتملحون ويتجملون بألفاظ فارسية في بعض الأحيان . ونحن لم نطلع على شعر لشعراء دولة الفرس قبل الإسلام ، ولا نعرف إن كان شعرهم قد بقي ، ولكننا اطلعنا على منتخبات لشعراء الفرس بعد الإسلام عندما استقلت فارس بسبب ضعف الدولة العباسية وسقوطها ، وبعضهم أيضاً كان يكتب أيام حكم التتر ، وهذه المنتخبات لعمر الخيام وحافظ الشيرازي والسعدي والفردوسي والجامي والنظامي وأنوري وفريد الدين العطار وجلال الدين الرومي وابن جسيم^(١) لا تختلف كثيراً عن شعر شعراء الدولة العباسية من العرب إذا استثنينا ما في بعضها من قصص تاريخ الفرس القديم التي صارت في هذا الشعر أشبه بالأساطير الإغريقية في شعر هوميرو وغيره ؛ وإذا استثنينا أيضاً الأساطير التي حاكها بعض هؤلاء الشعراء في موضوع حياة الطيور والحيوانات إلخ على طريقة الخيال الأري . ولم أجد في شعر مهيار أثراً لذلك وإن كان يقرب من الحضارة الفارسية في وصفه بعض مظاهر الترف ، لأن الحضارة العباسية العربية كانت شبه فارسية ، إذ قد أخذ العرب في العراق وفارس من مذاهب الإحساس والفكر والحضارة الفارسية ، حتى إن بعض المؤرخين سمى الدولة العباسية ، بالدولة الفارسية العربية . وقد رد العرب هذه المذاهب المستعارة من مذاهب القول والإحساس والفكر إلى شعراء الفرس المسلمين الذين ظهروا عندما استقلت فارس عن الدولة العباسية ؛ وهذه هي أسباب أوجه التشابه بين هؤلاء الشعراء وبين شعراء الدولة العباسية العربية . فمهيار لا يقترب في قوله من الثقافة الفارسية والحضارة الفارسية إلا من حيث اقترابه من نزعة شعراء العربية في الدولة العباسية . وهو كما أوضحنا غير مندفع فيها كل الاندفاع ولا منغمر فيها بسبب احتذائه طريقة الشريف في محاكاة النزعة البدوية ؛ وهو مع ذلك له شعر في مظاهر من تلك الحضارة لم يطرقها الشريف كوصفه للخمر كما في الأبيات التي يقول فيها :

١ - هذه الأسماء منقولة من صيفها في كتب المنتخبات الإفرنجية التي أشرت إليها لا عن الصيغة الفارسية .

من فم إبريقها إلى شفة الكأس عمود الصباح محدود
وقد أغرق في تحسين السكر في قصيدته التي يصف فيها آلات الزينة في البركة
ومطلعها:

ندبى وما الناس إلا السكارى أدرها ودعنى غداً والخمارا
وعطل كؤوسك إلا الكبير تجذ للصغير أناساً صفارا
وقد أنقذته محاكاته للشريف من أن يكون أكثر شعره على هذه الوتيرة . وقد ذكرنا أن
الوصف في هذه القصيدة لا يحدث للقارئ نشوة شعرية ، وإنما النشوة فيها نشوة مادية
للشاعر بالخمر كما ترى . وعندى أن بيتاً واحداً في الوصف للمعري ، وهو ليس من شعراء
الوصف ، قد يحدث نشوة شعرية للقارئ أكثر مما تحدثه قصيدة في الوصف لمهيار . انظر إلى
قول المعري :

ليلى هذه عروس من الزند سج عليها قلاند من جمان
وكلمة « هذه » في البيت لها أثر كبير في الوصف . وبعض وصف مهيار على سبيل
الأحاجي والمعميات وهذا ليس من الوصف العالي .

ويجوز لنا أن نقول إن منزلة مهيار من الشريف كانت كمنزلة البحتري من أبي تمام من حيث
احتذاء الطريقة . وقد هجا ابن الرومي البحتري فقال :

والفتى البحتري يسرق ما قال حبيب في الممدح والتشبيب
كل بيت له يُجسّد معناه فمعناه لابن أوس حبيب
وهذه مبالغة المنافس القادح الزارى . إلا أنه مما لا شك فيه أن البحتري على عظم منزلته
كان محاكياً أكثر من ابن الرومي . وقد وجدنا أن مهيار يعزب عن نهج الشريف في بعض
قوله وروحه . ولا غرو فإن النبات إذا نقل من مكان إلى مكان كانت ثمراته شبيهة بشمرات
نوعه من نبات المكان الثانى ، وكذلك طريقة الشعر إذا نقلت من شاعر إلى شاعر ، فهي
يصدق فيها قول الشريف في الأمال :

وتختلف الأمال في ثمراتها إذا شرفت بالرى والماء واحد
ولمهيار قصائد عديدة ذات نغمة موسيقية عذبة كنغمة قصائد الشريف العذبة ، وهو لا يقل
عن الشريف في هذه الموسيقى بل قد يزيد أحياناً ، ولكن الوجدان الشعري في ثنايا موسيقية

الشریف أكثر طبعاً وغزارة ؛ وقد يقل الوجدان وتقل الموسيقى في قصائد مهيار المطولة في المدح على أنافتها ، ولكن القارئ يشعر في بعضها إطالة النثر القدير وتوقف الكاتب في تدبيج المديح أكثر مما يشعر من اندفاع السيل الشعري الأتي ؛ ولكن أسباب هذا الشعور أن مهيار كان كاتباً قديراً وأنه أوتي سهولة كبيرة في النظم ونفساً طويلاً جداً . وفي بعض مدائحه يحس القارئ سرعة اندفاع الوزن ولكنه يحس أيضاً أن سهولة النظم وطول النفس قد سبقا شاعرية الشاعر . وهذه هي جناية المدح على الشاعر وجناية نظم الشاعر بالأمر أو الطلب أو للحاجة واكتساب الرزق ، وهذا أمر يشترك فيه كثير من شعراء الصنعة مع مهيار ، إلا أن ما أضر الشعر من ناحية قد أفاده من ناحية أخرى ، فقد أصبحت قصائد الصنعة التي ليس فيها اندفاع سيل العاطفة الشعرية فاذج تحتذي في المدارس وفي غير المدارس لتقويم لسان الناشئين المبتدئين ؛ ولكن الخطر قديماً وحديثاً هو إما أن يمل الناشئ اللغة بالرغم من طلاوة النماذج وأنافتها لافتقاده سيل العاطفة ، وإما أن يظل طول عمره على النماذج الإنشائية لا يطلب وراءها روحاً أو معنى أو وجداناً . ولقد نجى الشریف من أن يكون بعض شعر المدح من شعره فاذج إنشائي فحسب أنه كان يترفع عن التكسب بالشعر أو كانت له عنه مندوحة . والشریف لم يكثر إكثار مهيار وإن كان الشریف أكثر جداً إذا قيس بالمتنبى أو أبي تمام .

وبالرغم من إطالة مهيار في القصيدة الواحدة إطالة كبيرة في المدح ، وبالرغم من مؤاتاة سهولة الوزن له فقد كان يهذب ويشذب ويتأنق ويسئ بالإحسان فيها ظناً حتى يقتنع ذوقه بدليل قوله :

وَأَسَى ظَنًّا وَهِيَ مُجَسِّنَةٌ لَا كَسَالَمَسَى وَيَحْسِنُ الظَّنَّا

ولعل هذا سبب ولوعه بإطراء شعره في شعره فقد قال في قصائده :

لَكِنَّهَا مِنْ مَعْدَنٍ لَمْ يَكُنْ بِسُّرِّهِ يَنْبِيعٌ إِلَّا لِيَسْا

وزاد على هذا فجاء بقول يشبه أقوال المتنبى فقد قال مهيار :

ظَهَرَتْ بِأَيْتَى فِي غَيْرِ قُصُومِي وَلَمْ أَنْظَرْ بِمَعْجَزِهَا أَوَانِي

أي ظهر قبل ظهور الجبل الذي يستطيع أن يقدره .

ولقد قالوا إن الشریف قد اشترك في كتابة بعض ما ينسب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه في كتاب (نهج البلاغة) وهذا شيء لا يصدق لبعد التزوير من أخلاق الشریف

الرضى . وعلى أية حال فليس فى شعر الشريف ما يذكرنا بأنه كاتب ناثر ، وإن كان له فى النثر فضل كبير . وأحسب أن ابن الرومى لو شاء أن ينبغ فى النثر نبوغه فى الشعر لاستطاع لتقصيه الأجزاء وتتبعه ، واتساق كلامه وربط بعضه ببعضه واستطراده وضربه الأمثال وإشاعته المعنى فى أكثر من بيت ، وما إلى هذه الصفات من صفات ؛ ولكن الشعر ملك عليه وقته ونفسه وحاجات لبه وغلبت عليه سهولة النظم . ولم يصل إلينا شئ من نثر مهيار وإن كانت الكتابة هى الصفة المقدمة فى كلمة ابن خلكان عنه . ولعل شعره فى المدح وغيره من أغراض الأمراء والحكام يغنى عن نثره لفظاً ومعنى . ولأناقة مهيار فى أسلوبه سيبان : الأول محاكاته طريقة الشريف الرضى ، والثانى هو أن الدخيل إذا اعتنق لغة حتى تصير لغته واحتاج إلى النبوغ فيها والتكسب بها اضطر إلى التأنى أكثر من اضطرار الأصيل الذى يعتز بأصالته فلا يعتمد المغالاة فى التأنى . ومن أجل ذلك كان مهيار أكثر أناقة فى الأسلوب من كثير من شعراء العرب فى الدولة العباسية ولا سيما شعراء عصره . وليست أناقته بمستحيلة إذ أن عمدة النحو العربى رجل فارسى مثله وهو سيبويه ، وهو مثل آخر من أمثال هذه الظاهرة ، وهى أن الدخيل قد ينبغ أكثر من الأصيل فى لغة بسبب اضطراره إلى استبطان دخائنها ، وهى ليست قاعدة عامة بل هى من الأمور الغريبة كغرابية إتقان الكاتب البولونى جوزيف كونراد للغة الإنجليزية وكتابة قصصه بها حتى صارت كتبه تعد من ذخائر الأدب الإنجليزى وحتى صار يعد أديباً إنجليزياً لا بولونياً .

وقد أخذ مهيار عن الشريف سر الموسيقى الشعرية وهى لا تتوقف على الوزن وحده بل على الوزن وعلى أسلوب الشاعر فى الإقصاص عن إحساسه . ومن قرأ قصيدة الشريف التى مطلعها : (ضَرَبْنَا إلينا خدوداً وساما) أو التى مطلعها (أَرَاكَ سَتَحْدُثُ للقلبُ وجداً) أو التى مطلعها (اسلمى يا سرحة الحى) أو التى مطلعها (يا ظبية البان) وغيرها من أشعار الشريف ثم يقرأ شعر مهيار الموسيقى يحس كيف أتقن التلميذ سر تلك الموسيقى كما فى قول مهيار :

أتراها يوم صددت أن أراها علمت أنى من قستلى هواها
إلى أن يقول :

أُعْطِيتُ من كل شئ ما اشتيت فرأها كل طرف فاشتتها
أو قصيدته التى يقول فى مطلعها :

لواعج الشـرق والغـليل على أحنى من العـبـسـذول

أو التي يقول فيها :

آه على الرقصة في خدودها لو أنهما تسرى إلى فؤادهما
أو التي يقول فيها

واذكرونا مثل ذكرانا لكم ربُّ ذِكْرِي قرئت من نَزَحَا
أو التي يقول فيها :

أنتِ أمرتِ البدر أن يصدع الدجا وعلمتِ غصن البان أن يتميلاً
أو التي يقول فيها :

وهبكم منعتم أن يراها بعينه فسهل تمنعون القلب أن يتسمناها
ولو أن أساتذة فن الغناء في عصرنا هذا شاعوا لوجدوا في شعر مهيار نبعاً لا ينضب
معينه من الموسيقى والغناء . فيا حبذا لو لحنوا الكثير من قصائده الموسيقية .

وقد نبغ مهيار أيضاً في الرثاء كما نبغ الشريف ؛ ومن أكثر قصائده في الرثاء وجداناً
قصيدة قالها في فتى كان قد تبناه ورباه وهي التي يقول فيها :

فَجِئْتُ به غض الشماثل والهوى مُسِنُ الحِجَابِ والفضل مقتبل السن
على حين قامت للمنى فيه سوقها وحقت شهادات المخايل والظن

ومن قصائده البارزة في الرثاء القصيدة التي مطلعها (مَنْ حاكم وخصومي الأقدار)
والتي مطلعها (نعم هذه يا دهر أم المصائب) ويقول فيها :

سلام على الأفراس بعدك إنها وإن عِشتِ لست إربة من مآرسي
ومنها قصيدته في رثاء عبد العزيز بن نباتة السعدي اللامية التي يقول فيها :

أَقْلَمَ بِرُعْسِهَا منك نفس حُرَّة كنت الوحيد بها وأنت قبيل

وقصيدته في رثاء الشريف الرضي مشهورتان ولا سيما الدالية التي مطلعها (أقرش لا
لنم أراك ولا يد) .

وقد نبغ مهيار أيضاً في شكوى الزمان والإخوان ، وله في هذا الباب أشعار كثيرة مثل
قوله :

وأخ مع السراء من عُسْدِي وعلى في الضراء والشر
مولاي والأحساد مُقَمَّدة فإذا انتُضِينَ قَرَى كما تفسري
تعبٌ بحفظ هنات ميسرتي كيما يُعَدِّدَهَا على العسر

ومن شعره فى هذا الباب قوله من قصيدة رائعة :

وقلوب أعسدتى الذين أخافهم مغلولة لى فى جسوم أجسبتى
ولمهار قصيدة فى العتاب بلغت منزلة عالية وهى التى يقول فى أول العتاب منها :
يا أهل ودى وما أهلا دعوتكم بالحق لكنها العادات والدرب

وفى اللغة العربية قصائد بارزة فى العتاب يصح أن تكون فى باب وحدها وإن تفاوتت مراتبها ومنها هذه القصيدة لمهار وقصيدة البحتري التى أولها (يهون عليها أن أبيت متيماً)
والتى مبدأ العتاب قوله (عذيرى من الأيام رنن مشربى) وقصيدة ابن الرومى التى مطلعها
(يا أخى أين ريع ذاك اللقاء) وقصيدة سعيد ابن حميد التى مطلعها (أقلل عتابك فالبقاء
قليل) وقصيدة المتنبى التى مطلعها (واهر قلباه عن قلبه شهم) وقصيدة الطغرائى التى
مطلعها (على أثلات الواذيين سلام) .

وفى الهجاء يحتذى مهيار الشريف أيضاً . قرن بين قول الشريف الرضى (من كل وجه
نقاب العار نقبت) وقوله (يصدى من اللؤم حتى لو تعاودة) وبين قول مهيار :
وملثمين على النفاق بأوجه صم يصيح اللؤم من قسماتها
ولمهار أبيات كثيرة ضائعة فى ثنايا مطولاته وهى أبيات يصح أن تشتهر وأن يتمثل بها
. مثل قوله :

والشامة البيضاء تنعت نفسها لوضوحها فى الجلدة السوداء
وقوله :

يقول المرء ما يهوى ويرجو ويفعل فعلة الفلك المسدار
وقوله :

يسمون عيشاً فى الخمول سلامة وصحة أيام الخمول سقام
وقوله :

ونشتكى دهرنا والذنب ليس له والدهر مذ كان مظلوم ومستمهم
وقوله :

تقام على الفسقى وما جناها إذا وجبت على الثرى الحدود
وقوله وهو ليس من الهجاء بقدر ما هو حقيقة عامة فى كل النفوس :

يجهلنى بديهة وإنسه يزداد جهلاً بى كلما امتحن

١٥ - المتنبي وسر عظمته(*)

بلغ المتنبي ما لم يبلغه شاعر آخر من الشهرة . وقد اهتم له النقاد الأدباء قديماً وحديثاً ، وكتب عنه كثيرون من أفاضل الأدباء وأكابرهم في عصرنا هذا . وقد عني بعضهم باستنباط أخلاقه من شعره ، وبعضهم أغرى بتتبع نسبه وتاريخ حياته وأسرارها وأسباب حوادثها ، وبعضهم نظر إليه من حيث هو الشاعر الذي يمثل العرب خير تمثيل وينوب عنهم في الإبانة عن خصائص نفوسهم ونزعاتها ، وبعضهم عني بحكمته ونظراته في النفس والحياة ، ومنهم من راقته أساليب التشبيه التي أغرى بها أهل زمنه ، وقدموه من أجلها في ظاهر ما يحسبون ويحسون . وإذا تأملت سبب إعجاب المعجبين به ، وجدته يختلف باختلاف أذواق المعجبين به واختلاف نظرهم إلى الشعر كما تختلف أسباب المهتمين بدراسة سيرته ، وإذا نظرت في شعر المتنبي وشعر غيره من كبار الشعراء وجدت شاعراً قد يماثله أو يبرزه في صفة ، ويمثله أو يبرزه شاعر آخر في صفة أخرى من صفات الجودة ، وهو بالرغم من ذلك أوفر نصيباً من الشهرة . وترى لغيره من الشعراء أبيات كثيرة في الحكم والأمثال والأقوال الماثورة ، تدل على فطنة بالنفس ، وخبرة بالحياة ، وتوفيق في الصنعة ؛ ولكنها لم تسر كما سیر المتنبي شعره في هذه المعاني . فالبحر أكثر منه نصيباً من طلاوة الصنعة ، وأبو تمام من أساليب البيان ، والشريف من الوجدان وسلامة الفطرة ، وابن الرومي من الأوصاف ، والمعري من النظرات في الأخلاق والحياة ، ولكن ما من دوى أثاره أحد هؤلاء إلا ويخفت بجانب ما أثار المتنبي حتى ليصدق فيه قوله :

وتركك في الدنيا دويًا كأنما تداول سمعَ المرء أمّله العشر

وقد تتبع النقاد^(١) قوله أحياناً بالتزييف ، وإظهار السيئات من معاملة والتواء في بعض قوله ، وبالتقصّ للسراقات والمآخذ ، أو ما ظنوا أنه سرقات ومآخذ . حتى حاول بعضهم رد كل معنى من معانيه إلى شاعر سابق . وبعض النقاد أولع بإظهار ما في مغالاة مدحه من التهكم

(*) الرسالة : ٢٣ يناير ١٩٣٩ ، ص ١٥٣ وما يلي ، الرسالة : ٣٠ يناير ١٩٣٩ ص ١٩٥ وما يلي .

١ - للتحالبي فصل عنه في كتاب « يتيمة الدهر » . وكتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه مما يرجع إليه من الكتب . هذا عدا مؤلفات ومقالات كبار أدباء هذا العصر ، وهي لا تقل عن الكتب القديمة إن لم تكن أوفى .

المقصود . وبعضهم أظهر ما في مغالاة المدح من إلحاد أو شبه إلحاد ، وما في استطالته بالفخر من كفر أو شبه كفر ، واستشهدوا بقوله :

وكل ما قد خلق الله به ومما لم يخلق
مُعتقراً في همّتي كشجرة في منفرقي
وقالوا إنه كان يظهر الشك بالبعث والحياة الأخرى كما في قوله :

فقل تخلص نفس المرء سالمة وقيل تشرك جسم المرء في العطب
ومن تفكّر في الدنيا ومهجته أقامه الفكر بين العجز والتعب
وقالوا إنه تعدى منزلة الشك في هذه الأبيات الذي يشبه الإنكار المقتنع إلى منزلة إثبات
النفي المقتنع في قوله :

تنتع من سهاد أو رقباد ولا تأمل كرى تحت الرجسام
فإن لثالث الخالين معنى سوى معنى انتباهك والمنام
وثالث المعانى التى يدركها العقل بعد معنى الانتباه ومعنى المنام هو معنى الفناء والعدم .
والمتنبى يلجأ إلى عقل القارئ في تأمله فهو إذا يريد المعنى ولا معنى غيره . وبعض النقاد
أشار إلى شدة حقه على الناس وقسوته في قوله :

ركن كالموت لا يرثى لبك بكى منه ويروى وهو صادى
وقوله :

ومن عرف الأيام معرفتى بها وبالناس روى رمحه غير راحم
فليس بمرحوم إذا ظفروا به ولا فى الردى الجارى عليهم بآثم

ولكن كل هذا النقد لم يسقط الرجل من منزلته ، فلأى أمر تبوأ هذه المنزلة ؟ إنه لاشك في
مقدرته في الشعر وإن له من صفاته باعاً فيه ، فهو بالرغم من معاذلة أحيانا يجيد أساليب
البيان كأحسن ما يجىء به أبو تمام ، وأحيانا يأتى بالأساليب الحلوة كأحلى ما يجىء به البحتري ،
وإن كان إتيانه بها عفواً من غير عمد وتكلف ، ولكن كل هذه القدرة في القريض وما عنده
فيه من صفات الجودة جماعها أمر واحد وهو الروح الخاصة التى تظهر فيما له صلة من شعره
بآماله وخيبتها وتفويض على ما ليس له صلة مباشرة بتلك الآمال ، فتعم إذا هذه الروح كل
شعره وتكسبه (جاذبية الشخصية) وجاذبية الاعتداد بالنفس والاعتزاز بها وجاذبية لذة
البيان المعبّر عنها ، ولأكثر الشعراء نصيب منها ، ولكن نصيب المتنبي أوفر نصيب . وهى

أيضاً التي بصرت بهدائل النفس الإنسانية وأسرارها وعيوبها كى يتخذ من تلك البصيرة بالنفس الإنسانية عامة سلاحاً يساعده فى الاعتزاز والاعتداد بنفسه ، فاعتداد المتنبي بنفسه إذا سبب طلاوة شعره وسبب حكمه وأمثاله وسبب ما يشعر القارئ فى شعره من القوة . وقد تكون روح الاعتداد بالنفس مصحوبة بالتقحم والإقدام والفخر والادعاء كما كانت فى حياة بنفوتو سلينى المثال الإيطالى الذى كتب تاريخ حياته وهو مملوء بالمغامرة والمخاطرة والإجرام وبالفخر العريض والادعاء ، ولكنه كتاب يستهوى القارئ بسبب ما أكسبه اعتداد صاحبه بنفسه من جاذبية وطلاوة وقوة فى الكتابة . وقد تكون هذه الصفة عند رجل مفكر فى نفسه غير متقحم ولا مستطيل ولا مدّع فتكسبه أيضاً صفات الكاتب الذى يستهوى قلمه القارئ ؛ فإن اعتزاز مونتاني الكاتب الفرنسى بخواطر نفسه وحوادث حياته اليومية واللذة التى وجدها فى قيدها ووصفها تستهوى القارئ بعدوى الشخصية ومغنطيسها . فعدوى الشخصية فى نظرى هى الصفة لغالبية التى ميزت شعر المتنبي ، وهى التى ميزت ترجمة بنفوتو سلينى لحياته وميزت مقالات مونتاني الفرنسى . ويشترط فى وجود هذه العدوى أن تكون شخصية صاحبها ذات هبات عقلية ونفسية طبيعية ، والعدوى قد تظهر بين الناس فى مقدار أقل حتى ولو كانت الشخصية المعتد بها المعترّ بها صاحبها قليلة الهبات العقلية ؛ وهذا أمر مشاهد فى حياة الناس اليومية وتأثير بعضهم فى بعض فى أعمالهم وأخلاقهم وأفكارهم ومذاهبهم وصداقاتهم وعداوتهم ، فالناس إذن خليقون أن يهتموا للشاعر أو الكاتب الشديد الاعتزاز والاعتداد بنفسه وقد يهتمون له أكثر من اهتمامهم لشاعر أو كاتب آخر أقل اعتداد بالنفس وأكثر هبات عقلية ونفسية ، فليس اهتمام الناس للشاعر أو الكاتب إذاً على قدر هباته العقلية وحدها كما يظن المعجبون به الذين يستهويهم اعتداده بنفسه ، وللشاعر هينى الألمانى كلمة حكيمة فى هذا الموضوع وهى كلمة مأثورة فى هذا المعنى فقد قال : « إن الإنسانية كالشجرة ، فالشجرة لا تحفظ ذكرى الأيدى التى تعهدتها بالرى والعناية وإصلاح التربة والصيانة من العواصف والأضرار والرياح ، ولكنها تحفظ ذكرى اليد المعتدية التى تأخذ خنجراً وتحفر اسم صاحبها على ساقها بالنحت والتكسير من غلافها والسطو عليها ، وكذلك الإنسانية قلما تحفظ ذكرى الذين ضحوا فى خمول وسكوت لأجل رعايتها والعناية بها ؛ ولكن الإنسانية تحفظ ذكرى الغزاة المدمرين الذين نقشوا أسماءهم على جبهة ذاكرتها بأحرف من نار وبالسطو عليها وبالإهلاك والتدمير وإراقة الدماء » . وهذه شواهد متطرفة تدل على اهتمام الناس بالمعتد بنفسه . ولا نريد أن نقول إن الشعراء والكاتب الذين يبالغون فى إظهار الاعتداد بالنفس هم مثل هؤلاء الغزاة المدمرين فى شرهم ، وإنما نعنى أن ظاهرة الاعتداد

بالنفس تستدعى اهتمام الناس فى الحالاتين . ومع ذلك فإن رجلاً كالمتنبى ما كان يتأخر عن إراقة الدماء والتدمير فى سبيل تحقيق آماله كما يشهد الكثير من شعره . وقد صرح بذلك فى أكثر من قصيدة كما فى قوله :

بكل مُنصَلتٍ ما زال مُنتظِرِي حتى أدلتُ له من دولة الحُدَم
شيخ يرى الصلوات الخمسَ نافلةً ويستحل دم الحجاج فى الحرم
تُنسى البلاد بُروقَ الجوِّ بارقتى وتكتفى بالدم الجارى عن الدِّيم

وهذا تصريح ليس بعده تصريح . والحقيقة أن تقديس الإنسانية للاعتداد بالنفس حتى ولو بلغ الإجماع لا يقل فى كثير من الأحيان عن تقديس الإنسانية للفضائل ، بل قد يكون أعظم من تقديسها للفضائل ، إذ أن تقديسها للفضائل كثيراً ما يكون نفاقاً ورياءً أو رغبة فى الانتفاع من وداعة الفاضل واستكائته وترفعه عن الدنايا بينما يكون تقديس الإنسانية للاعتداد بالنفس ومظهره فى غيرها عذراً لها فى تقديس مظهره فى نفسها وتقديس أثرها ، فتجمع بين لؤم الأثرة وقداسة العبادة بتقديس مظهر الاعتداد بالنفس فى غيرها . وقد تحتال للجمع بين هذين المتناقضين بأن تنسب إلى المعتدِّ بنفسه النبل والجلال وكرم الشرائع والمروءة ، وهو قد يكون خلواً من هذه الصفات أو على الأقل يكون خلواً من مقاديرها التى تنسبها إليه كى تجمع بين لؤم الغريزة وتقديس الفضائل . وهذا أمر يشاهد كثيراً بين الناس ، ولعل هذا الشرح يفسر كيف أن الناس كثيراً ما يحاربون الفضلاء وينتقصوهم مع معرفة فضيلتهم وهم يقدسون الفضائل فى كلامهم ، وكيف أن الناس كثيراً ما يجلون صاحب الرذيلة إذا لم يضطروا إلى مؤاخذته اضطراراً ، وإذا كان معتداً بنفسه وكانت فى لسانه خلاصة أو له قدرة وسلطان . فإذا كان هذا شأن الناس مع من قلت فضيلته من المعتدين بالنفس ، فكيف لا يكون إعجابهم أعظم بمن جمع إلى الاعتداد بالنفس فضائل وبيانا وفصاحة تستهوى القارئ ؟ وكثيراً ما يضع القارئ نفسه فى منزلة نفس القائل المعتد بشخصه ويشاركه فى آماله وأطماعه وإحساسه واعتزازه بنفسه ، ويشاركه فى خواطر نفسه وحالاتها كما يفعل القارئ أيضاً عندما يقرأ لكاتب فيضع نفسه فى مكان بطل القصة الموصوف الذى يعجب به القارئ . وقد يفعل بعض القراء ذلك حتى فى قراءة قصص مشاهير المجرمين الذين يعتدون ويعتزون بأنفسهم إلى حد الإجماع . وهذه شواهد متطرفة لهذه الظاهرة النفسية وجاذبية الاعتداد بالنفس تختلف باختلاف الكاتب وباختلاف نفوس القراء المتأثرين بها . وهذه الجاذبية كالمعدن السائل الذى

يسيل بمقادير متفاوتة مع ماء الينابيع التي لا تتفاوت في مقادير مياهها السائلة ؛ فالشعراء والأدباء قد لا يختلف مقدار نتاجهم مع اختلاف فيض ينبوع معدن الجاذبية في قولهم ، وعلى قدر ما في قولهم من جاذبية وبيان الاعتداد بالنفس يكون قدر تأثير القراء بهم فإذا قرأ قارئ قول المتنبي :

أبدو فيسجد من بالسوء بذكرنى فلا أعاتبه صفحاً وإهواناً
وهكذا كنتُ نسي أهلى وفى وطنى إن النفيسَ غريبٌ حيثما كانا

تلمس تلك النفس واكتسب شيئاً من إحساسها بالنفاسة والقدرة على الاعتزاز بنفسها وأحس ما رآته النفس الموصوفة في حياتها من صفح وإهوان ؛ وهو قد يكتسب كل هذا الشعور أثناء قراءته قول الشاعر من غير قفظة له ، فهو في رحلة نفسية ، إما في مسالك العقل الظاهر ، وإما في مجاهل العقل الباطن . وكذلك إذا قرأ قول المتنبي :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له ما من صداقتيه بُدُ
خليلاى دون الناس حزن وعبرة على فقد من أحببت ما لهما فقد
وأكبرُ نفسى على جزاءٍ بغيبة وكل اغتياب جهد من لا له جهد
وأرحم أقواماً من العى والغبى وأعذر فى بغضى لأنهم ضد

وسافر سفره في عالم التجارب النفسية وبين الأحياء ولو لم يكن على صلات الشاعر النفسية ويلتذ التجارب الخلقية بالتذاذ ما يعبر عنها من البيان . وكذلك إذا قرأ قول المتنبي :

إذا غامرت فى شرف مَرُوم فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت فى أمر حقير كطعم الموت فى أمر عظيم
يرى الجبناء أن العجز عقل وتلك خديعة الطبع اللئيم
وكل شجاعة فى المرء تُغنى ولا مثل الشجاعة فى الحكيم
وكم من عائب قولاً صحيحاً وأفتته من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الإذنان منه على قدر القرائع والعلوم

أحس أن حكمة الشاعر في التمييز بين عقل العجز والجن وبين عقل الفطنة المقرونة بالشجاعة والطموح ليست حكمة الشعر التعليمي أو الوعظي ، وإنما هي حكمة الخبرة والتجارب والفطنة المقرونة بالطموح إلى الآمال السامية ، وهو ذلك الطموح الذي كان من

مظاهر الاعتداد بالنفس عند المتنبي ، وهذا ما يلمسه القارئ في باقى حكمة المتنبي فيسلم
نفسه للشاعر يتصرف بها أثناء قراءة شعره حسب بيان خبرته وحكمته وآماله وآلامه ، وإذا
قرأ قول المتنبي :

وخلّة فى جليس التقي به كيما يرى أننا مثلان فى الوهن
وكلمة فى طريق خفت أعربها فيهنّدى لى فلم أقدر على اللحن
كم مخلص وعلى فى خوض مهلكة وقتلة قرّنت بالذم فى الجبن
لا يُعجِبَن مضيما حسن بزه وهل تروق دفيناً جودة الكفن

أحس بما تدعو الحياة إليه من تقيد النفس بقيود التجانس حتى ولو كان فيها قهر أنيل
عواطفها ونوازعها ، وأحس بالمعركة التى تدور فى النفس بين نزعاتها من رضا وإباء وتسليم
وثورة ، والتد مشاركتة الشاعر فى تلك المعركة النفسية حتى ولو كانت المشاركة بالعقل
الباطن والقراءة بالعقل الظاهر . وهو يحس هذا الإحساس إذا قرأ قوله :

واحتمال الأذى ورؤية جانبي به غداً تضوى به الأجسام
ذل من يفسد الذليل بعيش رب عيش أخف منه الحمام
كل حلم أتى بغير اقتدار حجة لاجئ إليها اللثام
من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

وهو أيضاً يضع نفسه موضع الشاعر فى تلك الرحلة النفسية التى يلتذها بالقراءة إذا قرأ
قوله :

وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام
خليلك أنت لا من قلت خلى وإن كثرت التجمل والكلام

ويزداد اعتداد المتنبي بنفسه ، فلا يزداد القارئ إلا لذة ببيانه عندما يقرأ قوله :

ما مقامى بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود
عش عزيزاً أو متاً وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود
واطلب المعز فى لظى ودع الذل لولو كان فى جنان الخلود
أنا فى أمة تداركها الله به غريب كصالح فى ثمود

وكذلك عندما يقرأ قوله :

ومن جاهل بى وهو يجهل جهله ويجهل علمى أنه بى جاهل
ويجهل أنى مالك الأرض مُعسرٌ وأنى على ظهر السماكين راجل
تحقر عندى همتى كلُّ مطلب ويقصر فى عينى المدى المتناول
غشاة عيشى أن تغث كرامتى وليس بغث أن تغث المساكل

والبيت الأول يدل على تفكير طويل فى أنواع جهل النفوس بالنفوس ، وهو موضوع عميق كعمق الحياة ، ومجاهل أعماق النفس والحياة كمجاهل أعماق المحيط . وكذلك إذا قرأ أبيات المتنبي التي يخاطب بها أسد الفراءيس ويدعوها فيها إلى محالفتة ، سار القارئ فى رحلة نفسية خيالية فى عالم البيان الشعري ، حيث بنود الشاعر أن يؤلف الوحش وأن تألفه ، كما حدثوا عن الشنفرى الشاعر . وإذا قرأ قارئ قول المتنبي :

عسَدُوْنِي كَلَّ شَيْءٌ فَسِيكَ حَتَّى لَحَلَّتْ الْأَكْمُ مَوْغِرَةُ الصَّدُورِ
فَلَوْ أَنِّي حُسِسِدْتُ عَلَى نَفْسِي لَجَذْتُ بِهِ لِذِي الْجَدِّ الْعُثُورِ
وَلَكِنِّي حُسِسِدْتُ عَلَى حَيَاتِي وَمَا خَيْرَ الْحَيَاةِ بِلا سُرُورِ

كان قد بلغ من تلك الرحلة النفسية قفراً موحشاً تختلط فيه الحقيقة بالخيال فى نفس بلغت من النفرة من الناس والشك فيهم مبلغاً يجعلها تشك فى الجماد ، وتخاله موغر الصدر كالناس ، وهذه حالة حقيقية فى النفس ، وإن اختلطت فيها الحقيقة بالخيال ، وهى من الحالات النفسية التى يجيد المتنبي وصفها كما قال :

ومن صعب الدنيا طويلاً تقلبت على عينه حتى يوى صدقها كذباً
أرى كلنا ينفى الحياة لنفسه حريصاً عليها مستهماً بها صبا
ويختلف الرزقان والفعل واحد إلى أن ترى إحسان هذا لذا ذنباً

ويتبع القارئ الشاعر فى رحلة التجارب النفسية حيث يقول :

فلا تَنَلُكَ اللَّيَالَى إِنْ أَيْدِيهَا إِذَا ضَرَبْنَ كَسْرَنَ التَّبَعِ بِالْغَرَبِ
وَلَا يُعْنُ عَسَدُوا أَنْتَ قَاهِرُهُ فَإِنَّهُمْ يَصْدُنُ الصَّقَرُ بِالْخَرَبِ
وإن سررن بمحبوب فتجعن به وقد أتيتك فى الحالين بالعجب
وربما احتسب الإنسان غايتها وفاجأته بأمر غير محتسب
وما قضى أحد منها لباتمه ولا انتهى أرب إلا إلى أرب

والبيت الأخير يعبر عن سر التعلق بالحياة ؛ فليس سر التعلق بها لسعادتها وكمال مسراتها ، بل قد يتعلق بها أشد التعلق من قلت مسراته فيها ، وإنما يكون الحرص عليها كلما وجد المرء سبيلاً لنشذان المطالب والمآرب حتى ولو لم يسعد بها . فالحرص على الحياة موجود ما دام المرء ينتشى فيها بالسعى والطلب ، وإن لم يؤدّ السعى إلى فوز وسعادة . ويستمر القارئ متابعاً للمتنبى في رحلته النفسية في عالم التجارب وآلامها كما في القصيدة التي يقول في مطلعها : (كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً) . ويعاود وصفها في القصيدة التي مطلعها : (فراق ومن فارقت غير مذمم) والتي يقول فيها :

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونهُ وصدّق ما يعتاده من توهم
وعادى مُحِبُّهُ بقول عداته وأصبح في ليل من الشك مظلم

ويعاود وصف آلامه وآماله وخيبته وتجاربه في قصيدة : (هم التعلل لا أهل ولا وطن) . وفي قصيدة : (أغالب فيك الشوق والشوق أغلب) . وفي قصيدة : (صحب الناس قبلنا ذا الزمانا) . وهو يحس فيها بضالة مطالب الحياة بالرغم من إقبال نفسه عليها فيقول :

ومراد النفوس أصغر من أن تتعدى فيه وأن تتفانى
كل ما لم يكن من الصعب في الأنف س سهّل فيها إذا هو كانا
وإذا لم يكن من المسوت بدُّ فمن العجز أن تكون جباناً

وتراه يصف كيف أن نفسه قد تُقهرُ على التخلُّق بصفات الحياة من مدهانة وشك ، فيقول :

لما صار رد الناس خبا جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن أطفئ به لعلمى أنه بعض الأنام

إلى أن يقول :

ولم أر في عيوب الناس شيئاً كنقص القادرين على التمام

ويعود إلى وصف ما علمته الحياة من سوء الظن فيقول :

وتوهم القوم أن العجز قريننا وفي التوهم ما يدعو إلى التهم
ولم تزل قلة الإتصاف قاطعة بين الرجال وإن كانوا ذوي رحم
هونٌ على بصر ما شق منظره فإنما يقطعات العين كالخلم
ولا تشك إلى خلق فتشمتته شكوى الجريح إلى الغربان والرخم

ثم هو بالرغم من شكواه يعرف أن للمعالى التي ينشدها ثمنًا لا بد أن يؤديه فيقول :
 تريدن لقيان المعالى رخيصة ولا بد دون الشهد من إبر النحل
 ويعلم أنه من العبث أن يُعنى المرء نفسه وأن تُعنىه إذا لم تدرك ما تُمَتِّت فيسلى نفسه
 ويسلى القارئ معه بقوله :

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجرى الرياح بما لا تشتهي السفن
 ويعلم أن الظلم فى النفوس صفة عامة إذا خفيت فإنما تخفى لسبب فيقول :
 والظلم م شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم
 والذل يظهر فى الدليل مسودة وأود منه لمن يسود الأرقم
 ومن العداوة ما ينالك نفعة ومن الصداقة ما يضر ويؤلم
 وهذه الحكم العديدة وأمثالها فى شعر المتنبي ليست من الشعر التعليمى أو الوعظى الذى يصنعه المرء وهو ناعم اليال قرير العين بارد العاطفة وهو جالس إلى مكتبه يتأمل فيما تصف به الكتب والدفاتر أوجه الحياة وأخلاق النفوس فيها ، ولكنه تأمل المختبر المجرب ، فهو شعر التأمل الذى تفرى به العاطفة لا شعر التأمل الذى يفرى به العقل فى دعته أو مباذلة أو عند مباهاته بالعلم ومفاخرته بالعرفان ، فهو شعر حكمة يُبصرُ الشاعر فيها نفسه ويدكرها كي تتحمل الحياة بمعرفتها الحياة ، وتحمل الناس بمعرفتها أخلاق الناس . ومن كان شديد الاعتداد بالنفس والاعتزاز بها كالمتنبي كان فى حاجة إلى هذه التبصرة والتذكرة بسبب ما يجشم الشاعر نفسه من معاناة الحياة والناس معاناة القنوع التى لا بد منها . فهذا الاعتداد بالنفس بما يفيض به من حنكة وخبرة وأنغام وبيان وآلام وآمال ، هو سر نبوغ المتنبي وسر شهرته وتعلق الناس بشعره كما ذكرنا ، وهو سر قوة شعره . وهذه القوة هى فيض يفخر كل باب من أبواب شعره من مدح أو وصف أو عتاب أو رثاء . ومن أجل ذلك تبدو حكمة الحنكة فى شعره مختلطة بالمدح أو العتاب أو الوصف أو اللم ، ففى قصيدته التى يصف فيها الأسد ويقول :

فى وحدة الرهبان إلا أنه لا يعرف التحريم والتحليلا
 ويستجمع كل معانى الوصف الرائعة ، إذ تراه يورد الحكمة كما فى قوله :
 أنفُ الكريم من الدنيئة تارك فى عينه العدد الكثير قليلا
 وفى قصيدة أخرى بينما هو يمدح الممدوح إذ تراه يقول :

إلف هذا الهـواء أوقع فى الأثر ففص إن الحـمام مُـرُّ المذاق
وفى قصيدة أخرى يقول :

لعل عتبك محمود عواقبه فربما صحت الأجسام بالعِلل
وفى قصيدة أخرى من قصائد المدح يقول :

إننا لفى زمن ترك القبيح به من أكثر الناس إحسان وإجمال
فأصبح منتهى ما بطمع فيه الطامع فى خير الناس أن يحصل على خيرهم السلبى ، أي
امتناعهم عن الشر ، كأنما الامتناع عن العمل عمل يشكرون عليه . وكذلك يورد الحكمة فى
قصائد المدح الأخرى مثل قصيدة (لكل امرء من دهره ما تعودا) التى يقول فيها :

إذا أنت أكسرت الكريم ملكته وإن أنت أكسرت اللئيم قردا
وكذلك يصنع فى قصيدة (على قدر أهل العزم تأتي العزائم) وقصيدة (الرأى قبل
شجاعة الشجعان) . فقيمة مدحه ليست فى المغالاة المذولة كما فى بعض قوله وإن اشتهر
بها ، ولكن قيمته فيما يخالطه من حنكة وخبرة إما بالأخلاق والحياة عامة ، وإما بالصفات
المرغوب فيها التى يود كل ممدوح أن تنسب إليه . وكذلك يورد الحكمة فى قصائد الاستعطاف
أو التوفيق أو العتاب كقصيدة (إن يكن صبر ذى الرزينة فضلاً) وقصيدة (حسم الصلح ما
اشتتهته الأعادى) وقصيدة العتاب الرائعة الفخمة التى يعنف فيها فى عتاب سيف الدولة
تارة وتارة يبلغ غاية الرقة كما فى قوله فيها :

إن كان سرُّكم ما قال حاسدنا فما لجرح إذا أرضاكم ألم
ويورد الحكمة أيضاً فى قصيدة (بغيرك راعياً عبث الذئاب) فيمدح ويستعطف ويورد
الحكمة ، ونبيها يقول :

وجرم جرره سفها قوم وحل بغير جارمية العقاب
وكسب ذنب مُـولِّدٌ دلال وكم بُغْدٌ مُـولِّدٌ اقتراب
ويورد الحكمة أيضاً فى قصائد الرثاء والتعزية وله فيها قصائد شائعة مثل رثائه لعمه عضد
الدولة ورثائه أم سيف الدولة وأخته ومملوكه يماك ورثاء المتنبى لجده ورثائه لأبى شجاع فاتك ،
وفى رثاء عمه عضد الدولة يقول :

يموت راعى الضئان فى جسله ميتة جبالينوس فى طبه
وربما زاد على عـمـره وزاد فى الأمن على سـمـره

وفى رثاء أم سيف الدولة يقول :

وصرتُ إذا أصابتني سهام تكسرت النصال على النصال
وفى رثاء مملوك سيف الدولة يقول :

وأوفى حياة الغابرين لصاحب حياة امرئ خاتمه بعد مشيب
إذا استقبلت نفس الكريم مصابه بخيبت ثنت فاستدبرته بطيب

وفى رثاء جدته الرائع بصف ما لاقاه فى سبيل تجشيم نفسه عظام المساعي فتزداد لذة
القارئ فى قراءته . والمتنبى إذا أراد الوصف أجاد كما فى وصف الأسد وكما فى وصف شعب
هوان ونباته الذى يقول فيه وهو من أبدع الوصف :

مفانى الشعب طيباً فى المفانى بمنزلة الربيع من الزمان
ويصف الخيل كما فى قوله (وما الخيل إلا كالصديق قليلة . إلخ) ويصف الحروب .
وليس إقلاله من وصف مظاهر الكون والطبيعة من عجز ، بل لأن بصر بصيرته كان موجهاً إلى
دخائل نفسه ونفوس الناس وأخلاقهم فى الحياة أكثر مما كان موجهاً إلى مظاهر المراتب . وله
فى الغزل بالرغم من ذلك أشياء تستجاد وتستحب مثل قوله :

زودنا من حسن وجهك ماداً م فحسن الوجوه حالاً تحول
وصلينا نصلك فى هذه الدنيا بما فإن المقام فيها قليل
وقوله :

إذا كان شم الروح أدنى إليكم فلا برحتنى روضة وقبور
ألم ير هذا الليل عينيكم رؤيتى فتظهر فيه رقة ونحول

فسحر شعر المتنبى هو سحر جاذبية الشخصية المعتدة بنفسها وسحر ما تختبر من الحياة .
ولا نغنى بسحر الاعتداد بالنفس أن الناس لا يقاومونه . هم يقاومونه بكل وسيلة فى أول
الأمر ، وبعضهم يظل يقاومه حتى مع التأثر به . بل إن بعضهم تدل شدة مقاومتهم له على
شدة التأثر به . ففى بعض سجايا النفوس قد يظهر التأثر بالإحسان ، أو بالشئ بمظهر المقاومة .
ولعل أظهر هذه الظاهرة فى العلاقات الزوجية ، ولكنها موجودة فى جميع علاقات الناس
بعضهم ببعض ، وقد لا تكون المقاومة دليلاً على التأثر . بل قد تكون دليلاً على قلة التأثر
أو انتفائه . ولعل الظاهرة أساسها واحد فى الحالتين ، وأساسها هو : دفاع كل نفس فى الحياة
عن كيانه ومميزاتها وخصائصها ؛ وكلما كان تأثرها بخصائص غيرها وكيانه أعظم ، كانت

المقاومة ألزم في بعض الحالات وفي بعض النفوس ، إما صيانة للبقية الباقية من استقلالها ، وإما لكي تعذر نفسها لدى نفسها في استسلامها لسحر الاعتداد بالنفس سرّاً بمقاومة جهراً فترتاح إلى هذا العذر وتحسب أنها قد صانت به كرامة استقلالها ، ولكن إذا كان الاعتداد بالنفس عظيماً ، وكان مقروئاً بقوة العبقرية أو البيان والفصاحة أو الخلافة أو العصبية المناصرة له فمكن على الزمن من تحويل الشيء الكثير من المقاومة إلى إعجاب ، كالإعجاب الذي ناله من النفوس التي ناصرته من أول الأمر بسبب لذتها في الاستسلام أو لذتها في رؤية اعتدادها بنفسها مقدساً في شخص عظيم . وتغلب الاعتداد بالنفس على المقاومة يكون شبيهاً بتغلب النعاس على اليقظة . وقد لاقى المتنبي أشد المقاومة ، ولكن شدة اعتداده بنفسه فمكنت من تحويل المقاومة على مر الزمن إلى إعجاب كثير .

لقد كنا في عهد الصغر إذا قرأنا للمتنبي قوله :

من لورأى ماءً مات من ظمأ ولو عسرضت له في النوم لم ينم
تخيلناه مخلوقاً من مخلوقات الخيال في القصص الخرافية . وفخره العريض في هذا البيت وفي أمثاله كان من خواطر العظمة التي رآها لنفسه ، ولكننا لم نشأ أن نعد كل أقواله في القتال وإراقة الدماء من قبيل خواطر السوء التي تمر بخاطر كل إنسان ، لأن الرجل كان محارباً فعلاً كما كان متخيلاً قولاً .

وإذا صدقت قصة مقتلته التي قيل فيها إنه فر طالباً النجاة بمن أغاروا عليه حتى ذكره مذكر بقله :

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم
وذكره بأن من يقول هذا القول لا بد أن يكون فعله كقولهِ ، فعاد للقتال حتى قُتل .
أقول إذا صدقت هذه القصة : كان الاعتداد بالنفس الذي قتله ، هو الاعتداد بالنفس الذي خلد عظمته وزادها . وهو أيضاً كذلك وإن لم تصدق هذه القصة .

١٦ - ابن الرومي الشاعر المصور (*)

يولع الناس في الحياة عادة ، لتسهيل فهم الأنفس والأمور وتبسيطة ، بأن يجعلوا لكل نفس أو أمر صفة يرمزون بها أو معادلة أو قاعدة ، وفي ذلك أضرار ، منها أن العجلة قد ترمز للأمر أو النفس بصفة لا تتفق وأكثر الخصائص المراد تلخيصها بالرمز أو تختلف عنها كل الاختلاف ، وإذا تعلق الناس بالرمز صعب إصلاح خطئهم وصعب حملهم على تغيير زيهم وصعب عليهم فعل الأمر الذي يعالجونه أو النفس التي يتفهمونها ، أو قد يكون الرمز منطبقاً على جانب صغير منها فيغفل الناس عن الجانب الأكبر . على أن الرمز إذا وافق الجانب الأكبر فهو قد يغري أيضاً بالغفلة عن الجانب الآخر الذي لا ينطبق عليه الرمز فيتسرب الخطأ في هذه الحالة أيضاً ، ولكن إذا تأنى المفكر في وضع الرمز واختياره وقدر أن يكون مخطئاً في بعضه أو كله وحسب حساب ما لا ينطبق عليه الرمز حتى في حالة الإصابة كان فعله سهلاً للتفكير والفهم وتذوق الأمور . وعلى هذا الشرط نبيع لأنفسنا أن ننظر إلى كبار الشعراء على ضوء رمز نرمز به إلى كل منهم وصفة نصفه بها ، فنقول إننا نتذوق أبا تمام كأنه خطيب عبقري بصير بأساليب البيان وأثرها في النفس ، جرى في ابتداع الأقوال ، بصير بما يعالج من أمور البيان بالرغم من جرأته ؛ وسواء أكانت أقواله في أمور حسية أو نفسية فإم كلماته تبلغ صميم القلب بما فيها من الخيال المشبوب وقوة الإيجاز مع الدلالة التامة والإلمام بالمعنى المراد ومع تجنب الإطالة الفاترة . وفنه من هذه الناحية يشبه أيضاً فن صانع القصص التمثيلية في الاعتماد على قوة الأداء مع صدقه الفني وإيجازه مع استيفائه المعنى . ونذكر على هذا الوصف أن لأبي تمام ولمن نشبهه به جوانب لا يتفقان فيها ولا يلتقيان عليها ، لأن النفس الإنسانية تشبه البلور ذا الأظلاع والجوانب العديدة التي تنعكس عليها أشعة الشمس في أشكال وجهات مختلفة متعددة . ونتذوق البحتري كأنه ممثل قدير يلوك حلو الكلام ويتأثر به وينتشي بحلاوة الصنعة حتى تخلق له الصنعة عواطف فنية كما في حياة بعض كبار الممثلين ، ونقدر مع ذلك أن لنفسه جوانب أخرى تنعكس عليها أشعة الفنون . ونتذوق الشريف الرضي كأنه موسيقى يحكم الوجدان ويؤثر في النفس بأنغامه ؛ ونقدر أيضاً ما للنفس البشرية من مرام مختلفة . ونتذوق المتنبي على أنه محارب مغامر مدجج بسلاح الحنكة والخبرة والاعتداد

(*) الرسالة : ٦ فبراير ١٩٣٩ ، ص ٤٣ وما يلي : الرسالة : ١٣ فبراير ١٩٣٩ ، ص ٢٩٥ وما يلي .

بالنفس ونعرف له جوانب أخرى . أما ابن الرومي فإننا قد أدركتنا في أول الأمر حيرة في اختيار صفة واحدة له ، إذ أنه قد يقف موقف الخطيب المؤثر كما في قصيدته في التحريض على قتال العلوي صاحب الزنج بعد أن خرب البصرة وهي التي يقول في مطلعها :

ذاد عن مقلتي لذية المنام شغلها عنه بالدموع السجام

وابن الرومي مثل أبي تمام مفرى بابتداع التشبيهات والأخيلة والمعاني ، ولكننا لم نشأ أن نختار له الرمز الذي اخترناه لأبي تمام لأنه قد يدركه الفتور ، وأبو تمام لا يدركه الفتور ؛ وقد يطيل حتى يمل سامعه خصوصاً في المدح ، وأبو تمام لا يطيل مثل . وقد تدركه اللجاجة الفكرية في إبراد الحجة ودفع الحجة بالحجة على طريقة المجادل المناقش المناظر لا على طريقة الخطيب الذي يؤثر بالعبارات والأخيلة المشبوية النارية المستقلة في معناها بعضها عن بعض في إيجازها وتركزها تركز الأحماض أو الروائح العطرية المنعشة أو المخدرة أو الحميتة ، وابن الرومي يبسط معناه بسطاً كما تتسع دائرة موقع الحجر في الماء أو كما يبسط الخباز الرقاقة في قول ابن الرومي نفسه :

ما بين رؤيتها في كف كره وبين رؤيتها قنوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة في لجة الماء يرمى فيه بالحجر

وهذا هو الوصف الذي ينطبق على ابن الرومي نفسه في صناعة المعاني فكأنه خباز المعاني . ولابن الرومي في الأهاجي ما هو أشد من الأحماض فتكاً ، ولكن أثرها ناشئ أيضاً من تقصيه أجزاء المعنى وصوره المختلفة وتوليد المعنى من المعنى . ولم نشأ أن نصف ابن الرومي بما وصفنا به البحتري الذي ينتشى بما يصوغ من حلوى الصناعة وما يلوكه منها كما ينتشى الممثل بما يمثل من الأحاسيس . لم نشأ أن نصفه بهذا الوصف ولو أنه وصف ينطبق على كل ذي فن إلى حد ما فهو ينطبق على الشعراء جميعاً ولكن ليس كانطباقه على البحتري .

وابن الرومي لا يبلغ به التفاني في فن الألفاظ وصناعتها والانتشاء بها ما يبلغه البحتري بل يستخدم ابن الرومي الألفاظ استخدام السيد الأمر لعبده محبوباً كان العبد أو غير محبوب؛ أما البحتري فكان لا يقرب الألفاظ إلا كما يقرب المحب حبيبته ولم نشأ أن نصف ابن الرومي بما وصفنا به الشريف الرضي الذي نتذوقه كموسيقى يحكم الوجدان والفطرة السليمة ؛ لم نشأ أن نصف ابن الرومي بهذا الوصف ولو أنه له في الغزل والعتاب والشكوى أشياء عميقة الأثر في النفس كقوله في الغزل :

أعانقها والنفس بعد مشوقة إليها وهل بعد العناق تدانى
 كأن فؤادى ليس يشفى غليله سوى أن يرى الروحين متزجان
 وقوله فى العتاب :

تخذتكم ترسًا ودرعًا لتدفعوا نبال العدى عني فكنتم نصالها
 وقد كنت أرجو منكم خير ناصر على حين خذلان اليمين شمالها
 فإن أنتم لم تحفظوا لودتى ذمامًا فكونوا لا عليها ولا لها
 قلوا موقف المهدور عني بعزل وخلوا نبالى والعدى ونبالها

ولكنه بسبب لجاجته الفكرية أحيانًا وتتبعه أو موازنته بين أجزاء المعنى وتلمسه دقائق
 الصور قد تضع منه النغمة الشعرية وإن كان شعره يكتسب ميزة أخرى . وقد أحس ابن
 الرومي مع ذلك فى نفسه بذلك الجانب منه الذى يشبه به الموسيقى أو الطائر الصادح فقال
 زاعمًا أنه لا يمدح بمدوحه :

إلا كما راقى القمرى جنته فظل يتبع تفريداً بتفريد

ولم نشأ أن نصفه بما وصفنا به المتنبي من أنه محارب مغامر يغالى فى الاعتداد بالنفس
 لأن ابن الرومي لم يطلب ملكًا ولا حكمًا ولا رئاسة وإنما طلب السلامة من الناس وإنصاف أديه
 وفضله وفنه وإعطائه حق ذلك الأدب والفضل بما فى أيدي الوجهاء والرؤساء والأمراء من
 أموال الله والناس التى كثيراً ما كانت تنهب نهبًا . وكان ابن الرومي مرهف الخواس منهومًا
 بالجمل فى كل مظهره ومطالبه ، وهذا يكفى أن يكون شغله الشاغل فى الدنيا بعكس
 المتنبي . وكان ابن الرومي يخشى الأسفار فى طلب الرزق وله فى وصف خشيته منها أشعار ،
 ويخشى ركوب البحر ويخشى لقاء الناس ويتشام بهم ، فكانت صفاته النفسية تختلف
 اختلافًا كبيرًا عن نفس المتنبي ، ولا نحسب أن المتنبي كان يضرع فى مخاطبة مدوح كما فعل
 ابن الرومي فى قوله :

أصبحت بين خصاصة وتجمل والمرء بينهما يموت هزلا
 فامدد إلى يدا تعود بطنها بذلك التوال وظهرها التقبلا

وفى قوله :

تعرفت فى صحبى وأهلى وخادمى هوانى عليهم مذ جفانى قاسم

وبعد ذلك بأبيات يرجو الرئيس المعائب ألا ينسى أنه خادم . أما شدته في هجائه فشدة الرجل المرفف الحس إذا جُوفى أو غُبن أو أسيء إليه أو اضطهد . ونكر أن النفس كالبلور ذي الاضلاع والأشعة المنعكسة عليه مختلفة النواحي . ولكن لعل أصدق وصف يوصف به ابن الرومي هو أن يوصف بالمصور أو الرسام أو النقاش . ويخيل إلينا أنه لو كان عائشاً في إيطاليا في عهد نهضة الإحياء واشتغل بالنقش والرسم ما كانت قدرته تقل عن قدرة مصور مثل تشيانو (تيتيان) في ولوعه بالألوان الجمال وجمال الألوان . ولا نعني أنه كان مصوراً في وصف مناظر الطبيعة والنبات^(١) فحسب ، وإنما كان مصوراً في كل أبواب شعره من مدح أو ذم أو غزل أو وصف للغناء أو المأكّل أو الأشربة . وقد ذكرنا قدرته الخطابية في قصيدة التحريض على قتال صاحب الزنج ولكن أعمق أجزاء القصيدة أثراً هو وصفه دخول الزنج المدنية ووصفه ما فعلوا بها وبأهلها . فولوع ابن الرومي بالألوان لم يكن مقصوراً على ألوان المرثيات بل تعداها إلى ألوان الآراء ، فتراه يُغري بوصف لون من الرأي ثم بوصف اللون الذي هو نقيضه . والولوع بالألوان وشدة الإحساس بمعانيها وجمالها وأثرها من صفات المصور ، وكذلك تنقضي الأجزاء وربط أجزاء الصورة في القصيدة . ومن مظاهر ولوعه بوصف ألوان الرأي قصائده في مدح الحقّ وذمه ؛ وليس من المرفوض أن نقول إن مدحه الحقّ كان بسبب إحساسه المرفف وحقده على الذين آلموا هذا الإحساس المرفف من مناوئيه . فمن مدحه الحقّ قوله :

أديمى من أديم الأرض فـاعلم أسيء الربيع حين يسيء بذراً
يُسمى الحقّ عيباً وهو مدح كما يدعّون حلّوا الحقّ مُراً

وقوله :

وما الحقّ إلا توأم الشكر في الفتى وبعض السجايا يتّسبن إلى بعض
وإني أشك في أن الحقّ توأم الشكر دائماً فإته إذا قرّين بالحسد ، ولكل نفس نصيب منه قل أو كثر ، منع من الشكر . وقد راجع ابن الرومي نفسه ولامها على مدح الحقّ في قصائد منها قصيدته التي يقول فيها :

(١) قد نبه الأستاذ العقاد إلى ولوع ابن الرومي بالألوان وضرب شواهد ذلك الولوع وأشار أيضاً إلى ولوعه بتصوير الطبيعة ذات حياة .

يا مادم الحقد محتالاً له شبهاً لقد سلكت إليه مسلماً وعشاً
وأبدع منها وأعظم قصيدته التي مطلعها :

يا ضارب المثل المزخرف مطرباً للحقد لم تقدح بزند وارى

وعندى أن هذه القصيدة من أعظم وأجل قصائده ، وكل منتخبات من شعره لا تشملها تعد ناقصة ، وفيها بحث على مغالبة النفس لطباع الشر وعلى تنمية طباع الخير ، وقد بلغت قوة التصوير عند ابن الرومي مبلغاً جعله يُصور الطبيعة وكأنها من الأحياء ، وربما كان ولوعه بذلك أكثر من ولوع شعراء العربية الذين كانوا يجردون من الجماد أشخاصاً فيخاطبون الليل أو السرى أو الرياح أو النجوم أو الربوع والأطلال أو الفراق ، فيحدثونها وتحدثهم ، وهذه الصفة من قبيل تلك الصفة في ابن الرومي وإن كان إحساسه بحياة الطبيعة أعم وأشبه بطريقة الشعراء الأريين^(١) . وليس شبه ابن الرومي بالشعراء الأريين مقصوراً على إحساسه بحياة الطبيعة وإشاعة المعنى في أكثر من بيت وتقصى أجزاء المعنى ، بل يشمل أيضاً تفضيله فكاهة الصور الخيالية ومعانيها على الفكاهة اللفظية الشكلية ، وكانت فكاهة الصور الخيالية مفضلة في العصور المتقدمة في الآداب العربية فلم يبتدعها ابن الرومي وهي ليست ملكاً له ولا ابتكاراً ولكنه زاد فيها زيادة كبيرة ، ثم إن المتأخرين من الشعراء صاروا يفضلون فكاهة المغالطات اللفظية ، وهذا النوع كان شائعاً في الأدب الأوربي وإن كانت الصور الخيالية أفضل وأعلى مرتبة .

ولعل عظم نصيب ابن الرومي من فكاهة الصور الخيالية كانت من أسباب تبريزه في الهجاء تبريزاً لا يضارعه فيه شاعر آخر . ولو حذفنا هجاء الذي أفحش فيه مثل هجاء ابن الجبازة المعروف بهجاء بوران وغيره من الفحش القاذع الذي لا يصح نشره في هذا العصر بقيت لنا في هجائه صور فكاهية خالية لا يستطيع تجنب اختيارها إذا أحصيت خلاصة الخلاصة من شعره ، لأنها أعلى مرتبة من مدحه بالرغم من إجادته فيه . وقد كان الهجاء سبب موته مسموماً . والظاهر أن الأمراء والوجهاء كانوا يسيئون الظن ببعض مدحه علاوة على خشية الذم ، وهذا أمر يشاهد كثيراً في الحياة ؛ فإذا اشتهر رجل بالسخر ظن الناس كل ما يقول من

(١) كثير من علماء علم الوراثة في العصر الحديث ينكرون استطاعة الوراثة تورث أساليب الفكر ومذاهب الإحساس . وقد تغالى بعضهم في ذلك ، ولكن لم ينكر أحد تورث هذه الأمور عن طريق القدوة في الأسرة والبيئة من الجد إلى الأب إلى الابن .

قبيل السخر أو الذم حتى ولو لم يقصد إلا المدح والتودد والصفاء . ومن شواهد سوء الظن هذا ما حدث عندما مدح ابن الرومي أبا الصقر إسماعيل بن بلبل الشيباني بقصيدته الرائعة التي مطلعها (أجنث لك الوردة أغضان وكثبان) فأساء الممدوح الظن بقول الشاعر :

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم كلا ولكن لعمرى منه شيبان
وكم أب قد علا بابن ذار شرف كما علا برسول الله عدنان
ولم أقصر بشيبان التي بلغت بها المبالغ أعراق وأغصان

وظن أنه يهجو به بضعه الأصل مع أن المدح ظاهر للأصل والفرع . ولا نطن أن الغباء هو الذي سما بالممدوح إلى مرتبة الوزارة ، وقد كان وزيراً فلم يبق إلا التعليل الذي ذكرناه ، وهو أن الرجل إذا اشتهر بالسخر والذم حمل مدحه على محمل الذم والسخر ، والشك في نية القائل يغطي على فهم السامع ، وكثيراً ما تراه في الحياة يغطي على فهم ذوي الفهم حتى تراهم كالأغبياء .

والظاهر أن حادث أبي الصقر لم يكن الحادث الوحيد من نوعه وإن كان أظهر حادث . فإن لابن الرومي أشعاراً كثيرة يشكو فيها من خذلان الممدوحين مثل قوله : (ما لى لديك كائن قد زرعت حصي) . وقوله : (فلا تعتصر ماء الصنبعة بالمطل) . وقوله : (طال المطال ولا خلوه فحاجة) . وقوله : (أبا حسن طال المطال ولم يكن) . ومثل هذا كثير في شعره . وكان يغطى البحتري لإقبال الممدوحين على شعره ، ومن أجل ذلك كان يتعرض ابن الرومي للبحتري ، وله فيه أهاج منها قوله :

الحظ أعمى ولولا ذاك لم نره للبحتري بلا عقل ولا حسب

وترى ابن الرومي بالرغم من إطالته في المدح وإكثاره فيه يذم هذه الخطة فيقول :
وإذا امسراً مدح امسراً لنواله وأطال فسيه فقد أراد هجاءه
ويقول للممدوح :

فإن الله أعلى منك جِداً ويرضيه من الحمد اليسيرُ

على أن له بالرغم من كل ذلك مقدرة كبيرة على توليد معاني المدح كما في الأبيات التي يقول فيها :

والناس تحت سماء منك مشمسة والناس تحت سماء منك مدرار

فيتتبع هذه المعانى الشائعة ويولد منها معانى أخرى ، وله الأبيات التى يقول فيها :
 هب الروض لا يثنى على الغيث نشره أمنظره يُخفى مآثره الحُسنى
 والتى يقول فيها :

وله هيبة لسم يكتسبها بكلفة إذا اكتسبت ذاك الوجوه العوابس
 والتى يقول فيها :

أراؤكم ووجوهكم وسيوفكم فى الحادثات إذا دَجَوْنَ نجوم
 والتى يقول فيها :

حُرِّقَ تُعَرِّضَتِ الدنيا له فصبا إلى المكارم منها لا إلى الفتن
 لسه حریم إذا مسا الجار حل به أضحى الزمان عليه جد مؤمن
 كأنه جنة الفردوس قد أمنت فيها النفوس من الروعات والحزن

ولكن أهاجيه بالرغم من ذلك أهرع وأشد أثراً ، وهو فيها أكثر ابتداءً للمعانى والخيالات ، وأحياناً يسوق فيها الأخيطة الفكاهية مترادفة ويولد الدم من الدم والهجاء من الهجاء وينتشى بالهجاء ويعربد كل عريدة ويطلق لنفسه العنان كراكب الجواد يطلق العنان لجواده يعدو ما شاء العدو . ومن شعره المشهور فى الهجاء قوله :

ولو يستطيع لتقتير تنفس من منخر واحد
 وقوله :

إن للجسد كيمياء إذا ما من كلباً أحاله إنساناً
 وقوله :

فلو لم تكن فى صلب آدم نطفة لخر له إبليس أول ساجد
 وقوله :

لو كنتم صحتى وعافيتى فررت من قسركم إلى السقم
 وقوله فى هجاء طبيب :

سلط الله عليه طِبُّهُ وكفاه طبه لا بل كفانى
 وقوله :

وأخرق تضرعه تفضةً سفاها وتطفئه تفضه
وقوله :

وقال اعذروني إن بخلى جبلةً وإن يدي مخلوقة خلقة القفل
طبيعة بخل أكدتها خليفة تخلقتها خوف احتياجي إلى مثلي

وقوله : وقد أبدع واستطرد في وصف صور السعادة التامة وتصويرها تصويراً بارعاً كما يقول : إن سعادة الناس لا تقتضى الشكر عليها مادام المهجر منهم ، فانظر إلى براعة الرسم والتصوير في قوله :

ما كسرّم الله بنى آدم إذ كان أمسى منهم خالد
والله لو أنهم خلّدوا حتى يبسّد الأبد الأبد
وأصبح الدهر حفيّا بهم كأنه من بره والد
ولم يكن داءً ولا عاهة فالعيش صافٍ شره بارد
ودامت الدنيا لهم غضة كأنها جارية ناهد
ما كلفوا الشكر وقد ضمهم وخالد اللوم أب واحد

على أن هذا كله أهون ما في شعره من الهجاء ، وأسهل تحملاً من فحشه الذى أطلق لنفسه العنان فيه وخلع الحياء ، وأتى بأشد مما جاء به كل الشعراء . فلا الخطيئة ولا الأخطل ولا جرير يدانيه في الهجاء ، وهو مع ذلك أحياناً يخلط الهجاء بالحكمة والمثل كما في قوله :

توقى الداء خبيرٌ من قصدٍ لأيسره وإن قرب الطبيب
وكما في الأبيات المشهورة التى يقول فيها :

رأيت السدر يسرف كل وغدٍ ويخفض كل ذى شيمٍ شريفه
كمثل البحر يفرق فيه حىً ولا ينفك تطفو فيه جيفه
أو الميزان يخفض كل وافٍ ويرفع كل ذى زنة خفيفه

فترى أنه مفرى دائماً بتتبع الصور وبالتصوير سواء أكان ذلك في مدحه أو ذمه . وتظهر قدرته على التصوير أعظم ظهور في وصفه الأزهار أو الأنهار أو الأشجار أو القفار أو الرياح أو السماء أو السحاب أو الفواكه أو الروائح أو المأكولات ، وله في كل هذه الأشياء أشعار كثيرة . انظر إلى وصفه للنسيم :

وشمالاً بإرادة التَّسِيمِ تشفى حزازات القلوب الهيم
كانها من جنة النعيم

وقوله فى وصف الأرض والمطر :

أصبحت الدنيا تروق من نظرٍ بمنظر فيه جلاء للبصر
أثنت على الأرض بآلاء الماطر فالأرض فى روض كأفواف الحبر
نيرة النوار زهراء الزهر تهرج الأتني تصدت للذكر

ويقول فى غروب الشمس :

كان غبو الشمس ثم غروبها وقد جعلت فى مجنح الليل قمرض
تخاوص عين مس أجفانها الكرى يرتق فيها النوم ثم تغمض
ومن بدائع القصيدة التى يقول فيها (حبتك عنا شمال طاف طائفها) والتى يقول فيها :
(ورياض تخايل الأرض فيها) والتى يصف فيها النرجس والورد فى قوله (للنرجس الفضل
المبين لأنه) والأخرى التى يصف فيها فواكه أبلول ويقول : إنه لولاها لزهد فى الحياة . وله
القصيدة البديعة التى يصف فيها غروب الشمس وأول وصفها قوله فيها :

وقد رنقت الأصـبـل ونفـضت على الأفق الغربى ورسا مدعداً

وفىها يتخيل أن الشمس تودع النبات ويردعها النبات وكأن كلا منهما يحس لوحة الفراق.
ويخيل إلى أنه لو كان نقاشاً لرسم ونقش صورة مملوءة بالحياة كأبداع ما صنع المصورون فى
معنى هذه القصيدة ، ولكن ما أحسب أن مصوراً يأتى بأحسن مما جاء به فى الشعر ، وله
وصف العنب الأبيض الذى يقول فيه :

لسم يبقى منه وهج الحـرور إلا ضيـاء فى ظروف نور

وله فى وصف الخمر :

لطفت فقد كادت تكون مشاعة فى الجو مثل شعاعها ونسيمها

وأمثال هذا الوصف كثير فى شعره . وهو مصور أيضاً فى غزله . انظر إلى وصفه محاسن
النساء فى قصيدة (أجنـت لك الورد أغصان وكثبان) ووصفه الجمال والغناء فى قصيدته
الدالية فى وحيد المغنية وهى التى يقول فيها : (يا خليلي تيمتني وحيد) وكأنما هو فيها

يُصَوِّرُ الأَلْحَانَ كما يَصُورُ الوجوه الحسان . ومن بدائعه فى الغزل قوله : (وحديثها السحر
الحلال لو أنه) وقوله : (لو كنتَ يومَ الفراق حاضراً) وقوله : (لا تكثرنَّ ملامة العشاق)
وقوله : (وفيك أحسن ما تسمو النفوس له) وقوله : (شفيعك من قلبى شفيعٌ مُشَفِّعٌ) .
وله غزل كله شهوة ، وله مجون شنيع ، وكان يفتخر بالقدرة الجثمانية على الملذات . وهذا كله
لا يليق نشره ولكن له مع ذلك غزلا وجدانيًا رقيقًا ، فهو قد جمع الأطراف لأنه كان مرهف
الإحساس كما كان مرهف الحواس وتراه يجمع الوجدان والتصوير فى قوله فى حب الوطن :

بَلَدٌ صَحَبْتُ بِهِ الشَّبِيْبَةَ وَالصُّبَا وَلَبِستَ فِيهِ العِيشَ وَهُوَ جَدِيدُ
فَإِذَا تَمَثَّلَ فِي الضَّمِيرِ رَأْيَتُهُ وَعَلَيْهِ أَفْنَانُ الشَّبَابِ قَمِيدُ

فهنا أيضًا نزعَة التصوير غالبية عليه فى البيت الثانى . وله أشعار أخرى فى حب الوطن ،
ولا غرو فإنه كان يمقت الأسفار . ومن رأى أن تحسّر ابن الرومى على ذهاب الشباب ليس له
مثيل فى شعر الشعراء وإن كانوا قد أكثروا فى هذا الموضوع . وأحسن قصائده فيه قصيدته
التي يقول فيها (كفى بالشيب من ناهٍ مطاع) ومن أبياته فيها ، وقد غلبت عليه النزعة إلى
التصوير فى هذه الأبيات :

يَذْكُرُنِي الشَّبَابُ جَنَانُ عَدْنٍ عَلَى جَنَبَاتِ أَنْهَارٍ عَذَابِ
تُفِيئُ ظِلُّهَا نَفَحَاتَ رِيحٍ تَهْزِ مَتْنُونَ أَغْصَانِ رَطَابِ
إِذَا مَاسَتْ ذَوَائِبُهَا تَدَاعَتْ بِوَاقِي الطَّيْرِ فِيهَا بِانْتِخَابِ
يَذْكُرُنِي الشَّبَابُ وَمِيقَاتُ بَرَقٍ وَسَجْعُ حَمَامَةٍ وَحَنِينِ نَابِ
وَكُنَانَتْ أَيْكَتِي لَيْدِ اجْتِنَاءِ فَصَارَتْ بَعْدَهُ لَيْدُ احْتِطَابِ

وهو لا يكتفى بما يكتفى به غيره من جعل الحياة بعد الشباب كالموت بل يقول إنها عذاب.
وله قصائد أخرى فى التحسّر على الشباب منها قصيدة (دَاكِبَرُ أَوْطَارُهُ إِلَى الذُّكْرِ) و (خَلِيلِي
مَا بَعْدَ الشَّبَابِ رِزِيَّةٌ) و (لَا تَلَحْ مَنْ يَبْكِي شَبِيْبَتَهُ) ، (أَيَّامُ اسْتَقْبَالِ الْمُنْظُورِ مَبْتَهَجًا)
وقوله :

اكَتَهَلْتُ هَمَّتِي فَأَصْبَحْتُ لَا أَبَـ هَجَّ بِالشَّيْءِ كُنْتُ أَبْهَجُ بِسِنَةِ
وَحَسْبُ مِنْ عَاشٍ مِنْ خُلُوقِنِيهِ خُلُوقِيَّةٌ تَعْتَرِيهِ فِي أَرِيَةِ

وهذا الرجل المنهوم بحاسن الحياة ولذاتها ، المولع بوصف مباحجها وفتنها وأطاييها ، له
حالات إذا وصف فيها الزهد أتى بالقول المؤثر ، كما فى قصيدته فى وصف الزُّهَّادِ ، وهى قد
جمعت أيضًا بين التصوير والوجدان ، وهى التى يقول فيها :

تَتَجَسَّأْنَ جَنَافِي جَنُوبِهِمْ عَنْ وَطَنِ الْمَضْجَعِ
ولكن الجمع بين التهافت على الملاذ في وقت من أوقات الحياة وشدة الشعور الديني في وقت آخر أمر مشهود ؛ وقد يتردد صاحبهما بينهما مرات عديدة .

وقصائد ابن الرومي في الإخوان والعتاب متنوعة الأغراض والمعاني والأنغام والصور . وأشهرها قصيدة : (يا أخى أين ريع ذاك اللقاء) وفيها يتخيل مناظرة ونقاشاً طويلاً بينه وبين هنات صاحبه ، وهي بارعة في التصوير والتفكير ؛ ولكن له من القصائد ما هو أكثر وجداناً وعاطفة ، وله مقطوعات موسيقية كقوله :

طلبتُ لديكم بالعتاب زيادة وعطفًا فأعتبتكم بإحدى البوائق
فكنتُ كمستسقٍ سماءٍ مخيلة حياً فأصابته بإحدى الصواعق

وقوله :

عسودك من صديقك مستناد فلا تستكثرن من الصحاب
فإن السداء أكثر ما تراه يحول من الطعام أو الشراب
والأبيات التي ذكرت من قبل وأولها : (تخذتكم درعاً وترساً لتدفعوا) وهي من أبدع ما قال في العتاب الوجداني ، وكذلك قوله : (أتاني مقال من أخ فاغفرته) . وقوله : (إني لأغضى عن الزلات مجتنباً) . وكثرة العتاب في شعره تدل على أنه كان منكوباً في الإخوان والأنصار . وقد أجاد ابن الرومي أيضاً في الرثاء لأنه كان منكوباً في أولاده ، وإنا هذه نكبة الرزء والموت لا نكبة الجفاء التي دعت إلى إجادة العتاب ، ولا أذكر قصيدة في رثاء الأبناء في اللغة العربية تقارب قصيدة ابن الرومي الدالية في رثاء ابنه الأوسط غير قصيدتي التهامي ومطلع قصيدة التهامي الأولى :

حكم المنيسة في البسرية جباري ما هذه الدنيا بدار قرار
ومطلع الثانية :

أبا الفضل طال الليل أم خانتني صبري فخيّل لي أن الكواكب لا تسرى
وفيهما يرثى ابنه كما يرثى ابن الرومي ابنه بقصيدته التي أولها مخاطباً عينيه :
بكاؤكما يشفى وإن كان لا يُجدي فجودا فقد أودى نظيركما عندي
وتغلب نزعة الرسم والتصوير على الشاعر ، فيصف ابنه يعالج المرض والموت ، ويصف حزنه إذا رأى أخويه يلعبان في ملعب له . وهذه القصيدة من أجل ما قال ابن الرومي من

الشعر ، بل من أجل ما قال شاعر من الشعر ، وهى أكبر دليل على أن الشعر الرفيع المقام لا يكون إلا إذا وجدت العاطفة ، وأما الصنعة وحدها فلا تخلق شعراً عالياً . ولابن الرومى قصائد أخرى فى الرثاء تستجاد ، منها رثاء يحيى بن عمر العلوى التى مطلعها :

أمامك فانظر أى نهجيك تنهج طريقان شتى مستقيم وأعوج

وفىها يقارن بين ترف العباسيين وبين ما كان العلويون فيه من تشريد واضطهاد . ومما يؤسف له أنه شأنها بالفحش الشنيع فى هجاء العباسيين ؛ وهذه القصيدة تذكرنى بقصيدة دعبل الخزاعى الرائعة فى آل البيت وهى أعمق أثراً ومطلعها :

مدارس آيات خلت من تسلاوة ومنزل وحى مقفر العرصات

والذى يقرأ شعر ابن الرومى يرى أنه أشد ذوى الفنون عجزاً عن حبس بعض ما يجول فى خاطره من الخواطر ، وهذا العجز يجعل صاحبه كأنه أسوأ خلقاً ونفساً من الناس ، وهو قد يكون وقد لا يكون ، فإن كل إنسان - كما قال سمرست موام القصصى الإنجليزى فى كتاب (الخلاصة) - تخطر على خاطره خواطر السوء حتى على بال القديسين المطهرين الذين كانوا يشكون فى نقاوتهم وطهارتهم بالرغم من أنهم كانوا لا يفعلون ما يدعو إلى هذا الشك ؛ وذوو الفنون ، بسبب النعمة الفنية إلى تصوير أنفسهم والتعبير عن خواججها ، قد يعجزون عن كتم هذه الخواطر التى يكتتمها غيرهم . وإنى أميل أحياناً إلى الاعتقاد أن قصص المجنون فى شعر أبى نواس وابن الرومى لم تحدث حقيقة ولم يفعلوا ما زعموا أنهم فعلوا أو على الأقل بعضها لم يحدث ، وإنما هى خواطر السوء التى تمر بخاطر الناس ويكتتمها الناس ويعجز بعض الفنانين عن كتمها بل يصنعون منها قصصاً فخراً بها أو صنعة . وعلى هذا القياس نستطيع أن نفهم قصيدة ابن الرومى التى أولها : (لهدف نفسى على رصاص مَذاب) أى رصاص منصهر كى يصبه فى فم عدوه حتى يموت ويتشفى بسؤاله عن صحته أثناء ذلك ، وهى قصيدة شنيعة . ولكن كم من الناس إذا تألم من عداء رجل ألماً شديداً لا تخطر له مثل هذه الخواطر إذا اشتد به الألم وكان مرهف الإحساس ؟ أما أن يصب الرصاص المنصهر فى فم إنسان فهذه مسألة أخرى ، فقد يكون صاحب هذه الخواطر أعجز الناس عن إتيان الشر كما هو أعجز الناس عن كتمان ما يجول بخاطره من خواطر السوء . ولا ننس أن ابن الرومى كان مرهف الإحساس حتى أنه أعد خنجراً مستنواً كى يقضى به على حياته فيما زعموا إذا اشتد به الألم فى الحياة ، وقد اشتد واشتد ولم يفعل .

بين شكسبير وابن الرومي*

ليست هذه المقالة موازنة بين شاعرين ، وإنما هي صلة بين قصدين لتقارب موضوعهما ، وأعنى قصيدة رثاء مارك أنطونيوس ليوليوس قيصر ، وحث الجمهور على الأخذ بثأره ، وقصيدة ابن الرومي في رثاء أهل البصرة عندما دخلها صاحب الزنج وفتك بأهلها وسبى نساءهم ومثّل بهم أشنع تمثيل ، وفي هذه القصيدة يحث ابن الرومي جمهور المسلمين عامة وأصحاب الشأن في الدولة العباسية تعريضاً على الأخذ بثأر أهل البصرة والنفير لقتال صاحب الزنج . وتقاربت القصيدتان في نظري أيضاً لمهارة ما أرى فيهما من الأسلوب الخطابي والقدرة على السيطرة على الجماهير بمختلف الأساليب الخطابية ، فينتقل القاتل فيهما من باعث للشعور إلى باعث ، ومن عاطفة إلى عاطفة ، ومن حيلة في إثارة النفوس إلى حيلة أخرى ، ومن حجة إلى حجة ، ومن ترغيب إلى إرهاب ، ومن حنان إلى استفظاع ، ومن رقة الذكرى الماضية إلى هول الكارثة ، وتقرأ القصيدة منهما فتحس كأنها قطعة موسيقية توقع على مختلف الأوتار والآلات والأصوات لتعبر عن مختلف الأحاسيس ، وتمتاز قصيدة شكسبير في أنها أبرع ما قرأت في شعر الغربيين من هذا النوع من التأثير الخطابي ، كما تمتاز قصيدة ابن الرومي في أنها أروع ما في اللغة العربية من هذا التأثير الخطابي وأكثره تنوعاً لأساليب التأثير ، ولا يقتصر تأثير القصيدة على كثرة وسائل إثارة النفس كما ذكرت ، ولكن الشاعر فيها يستخدم تكرار بعض الأساليب والعبارات تكراراً يراد به زيادة التأثير الخطابي ، والقصيدة لاقتناز في ألفاظ أو عبارات منمقة فخمة ، ولكنها تشعر القارئ كأنها قيلت أرتجالاً أو أن إحساس الشاعر كان أسرع من أن يدع له مجالاً للإغراب في اللفظة والتنميق الصناعي ، ففخامتها فخامة الشعور المتدفق ، وعندى أن القصيدة خطبة أكثر منها قصيدة تقرأ في دعة وسكون ، فيكون أثرها أتم وأعم إذا تخيل القارئ كارثة البصرة وما حل بها ، وشارك الشاعر في شعوره وفي رغبته في إثارة أهل بغداد . ثم إذا هو قالها على أسلوب الخطباء متتبعاً اختلاف أساليب الشاعر في إثارة النفس مغيراً من صوته ولهجته في إلقائها حسب تغير تلك الأساليب ، فإنه يجد فيها روعة لا مثيل لها في نوعها في اللغة العربية.

وقصيدة شكسبير تختلف من أجل أن الخطيب كان مضطراً أن يداهن الذين يريد إثارة الرومان عليهم ، فحمدهم على أن سمحوا له برثاء يوليوس قيصر ، ونفى عن نفسه العداء لهم

كما نفى عن نفسه القدرة تمهيداً لإظهار قدرته ، وكى يظن السامعون أن أثر المأساة هو الذى أثارهم لا قدرته الخطابية . ثم جعل يستدرجهم من طريق الرحمة والإقرار بفضل المقتول إلى النقمة على القتلة ومجاهرتهم بالعداء والتشنيع . وابن الرومى لم يكن فى حاجة إلى مداهنة صاحب الزنج فكان يسميه اللعين من أول الأمر ، ويكيل له الهجاء صاعاً بعد صاع ، ولكن انظر كيف يتدرج من التوجع لما حل بالبصرة إلى وصف دقيق لما أصابها من الزنج ، ويبدأ وصفه بدخول الزنج المدينة فيقول :

دخلوها كأنهم قطع اللـ بل إذا راح مدلهم الظلام

ثم يذكر كل ما حدث من قتل وذبح وهتك للأعراض وسبى وإحراق وتخريب وتمشيل حتى يأخذ الفرع بالقارئ مأخذه ثم يلتفت إلى الذكرى فيتذكر رخاء أهلها ونعيمهم وعمار المدينة وبهجتها ، ثم يتوجع ويظهر الحياء من خذلانهم ، ويذكر الناس بمحاسبة الله ومخاصمة النبي إياهم .

ثم يلوح للناس بالعار اللاحق بهم ويحضهم على الأخذ بشأ أهل البصرة . والقصيدة طويلة تقع فى أكثر من ثمانين بيتاً ، ولما كان أثرها الخطابى يزداد من تراكم قول على قول وإثارة على إثارة لا من بيت القصيد أو من قطع ممتازة . فكل اقتطاف منها لا ينصفها ، ولا سيما أن أسلوبها ليس بالأسلوب الذى يقرأ فى دعة لديباجته بل يقال جهراً مع تنويع الصوت حسب مرمى الشاعر الخطيب .

ويخيل لى أن حافظ إبراهيم كان متأثراً بروح هذه القصيدة عندما نظم قصيدته فى رثاء قصر الجزيرة وقصيدته فى زلزال مسينا .

ومن تكرار ابن الرومى المطرب المؤثر ترديدة اللف فى قوله :

لهف نفسى عليك أيتها البصـ رة لهفًا كمثل لهب الضرام

لهف نفسى عليك يا فرضة البـ مدان لهفًا يبقى على الأعوام

لهف نفسى لجمعك المتفانى لهف نفسى لعزك المستضام

أو ترديد من فى قوله :

كم ضنين بنفسه رام منجى فلتقوا جبينه بالحسام

كم أخ قد رأى أخاه قتيلاً تَرَبَّ الخد بين صرعى كرام

كم رضيع هناك فطموه بشبا السيف قبل حين الفطام
أو ترديد من فى قوله :

من رآهن فى المساق سبايا داميات الوجوه للأقدام
من رآهن فى المقاسم وسط الـ زنج يقسمن بينهم بالسهام
من رآهن يتخذن إماء بعد ملك الإماء والخدام
أو ترديد أن فى قوله :

أين ضوضاء ذلك الخلق فيها أين أسواقها ذوات الزحام
أين فلك فيها وفلك إليها منشئات فى البحر كالأعلام

أو ترديد أفعال الأمر فى أخريات القصيدة ، وهذا الترديد ما هو إلا ناحية من نواحي أسلوبها الخطابي ومثل من أمثلته وطريقة من طرقه المؤثرة ، والأسلوب الخطابي نفسه ما هو إلا ناحية من نواحي الإجادة الشعرية التى تتعدد وسائلها فى القصيدة ، وفى القصيدة ناحية تزيد ألمها فى النفس وهى إعادة الشاعر عرض فظائع القتل والتخريب والتمثيل بعد أن ينتقل بالقارئ أو السامع فى هدوء إلى ذكرى نعيمها الزائل ، وبعد أن يهدئ من روعه بعرض مناظر أمنها وسعادتها ردعة أهلها الماضية فكأنه ينكأ القرح بعد أن يضمده ، ويضرب القلب بعد أن يريت عليه ، ويجذب الأعصاب بعد أن تسكن .

١٧- أبو تمام شيخ البيان *

هو حبيب بن أوس الطائي ، وقد سبقه إلى صناعة البيان بشار ومسلم والحسن بن هاني ، ولكنه ظهر بها ظهوراً كبيراً وحاكاه البحتري وغيره ، وكان حقيقاً بسبب كثرة إجادته في تلك الصناعة أن يسمى شيخ البيان . وكان أبو تمام يقدم الحسن بن هاني ويلقبه بالأستاذ وبالخاذق ويجاربه في طريقته ، ولكن أبا تمام قد بز ابن هاني أبا نواس في المدح ووصف الطبيعة ، وإن لم يكثر منها ، وفي الرثاء والأمثال والحكم ، وجاراه في وصف الخمر والغزل المذكور . وقد سئل البحتري عن أبي تمام وعن نفسه فقال : جیده خبر من جیدی وردیثی خیر من ردیثه . وهي قوله حق ، فقد كان عند البحتري من حذر ذوی الصناعة وإحجامهم ما لم يكن عند أبي تمام الذي كان أكثر جرأة في صناعته . ولم يكن ردثيه القليل عن جهل ، فقد سئل فيه فقال : إن أبيات الشاعر كأبنائه فيهم الجميل وفيهم القبيح وكل منهم حبيب لدى أبيه الذي يعرف أيهم القبيح وأيهم الجميل . ولقد قال في إسائة ظن الشاعر بشعره ويعنى نفسه :

وسى بالإحسان ظناً لا كمن هو بأبنه وشعره منتون

ولكنه يقول أيضاً :

من كل بيت يكاد الميْتُ يفهمه حسناً ويعبده القرطاس والقلم

ولا غرابة في أن يكون قائل البيت الأول هو قائل البيت الثاني ، فإن نفس الشاعر قد تتردد بين الثقة بقوله ثقة ليس بعدها ثقة ، وبين الشك كل الشك في مرتبته . ولعل هذا الشك وإسائة الظن مما يحفز على استئناف الإجابة وإلى الاستزادة من الإبداع كيلا يستنيم إلى ما أجاده من سابق قوله . والشاعر الجريء في صنعة البيانية يكون نصب نقد الناقلين ، وعندما مدح أبو تمام أحمد بن المعتصم بقصيدته التي مطلعها : (ما في وقوفك ساعة من باس) أنكر بعض النقاد أن يشبهه بمن هم أقل منه منزلة في قوله :

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

ومثل هذا النقد يهدم صناعة التشبيه من أساسها لأنه لم يشبه المدوح بهم في المنزلة ، وإنما يكون للتشبيه وجه شبه خاص لا يتعداه اتفاق المشبه والمشبه به ، وهذا النقد يدل إما على

الإفراط في قلق المدح والمغالطة مع علم ، وإما على جهل بالصناعة البيانية. وقد دفع أبو تمام حجتهم بأن زاد في المديح قوله :

لاتنكروا ضربي له من دونه مثلاً شروداً في الندى واليباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس

وأمثال هذا النقد اللفظي كثير فقد انتقدوا أيضاً قول أبي تمام :

دنيا ولكنها دنيا ستنصرم وآخر الحيوان الموت والهرم

وقالوا : إن الهرم يأتي قبل الموت ولكنه أخره وقدم الموت. وهذا اهتمام بالصفائر ، فقد كان في استطاعة الشاعر أن يقول : (وآخر الحيوان الشيب والعدم) وقد فعل المتنبي ما هو أشد من وكانت له عند مندوحة عندما قال :

جفخت وهم لا يجفخون بها بهم شيم على الحسب الأفر دلائل

يعنى جفخت أى فخرت بهم وهم لا يجفخون بها ، وكان يستطيع أن يقول : (فخرت بهم وهم بها لم يفخروا) فيستقيم الوزن والأسلوب ولكن هذا لا يؤخر الشاعر الكبير ولا يقدمه . ومثل هذا النقد يغرى به الشعراء أنفسهم عند الملاحاة ، فقد ورد في كتاب العمدة لابن رشيق أن مسلم بن الوليد انتقد قول أبي نواس :

ذكر الصُّبوح بسحرة فارتاحا وأمله ديك الصباح صياحا

وقال : كيف يجتمع الارتياح والملل ؟ كما انتقد أبو نواس قول مسلم :

عاصى الشباب فراح غير مُقْنَدٍ وأقسام بين عزيمة وتجلد

وقال كيف يجتمع الرواح والإقامة ؟ وفي كل من البيتين يريد الشاعر اجتماع حالات نفسه مختلفة الأسباب . على أن أبا تمام قد يأتي في الفلتات بما لا يستجاد مثل قوله :

بلد الفلاحة لو أتاها جَرَّوْلٌ أعنى الخطيئة لاغتدى حراثاً

و(أعنى) هنا أثقل من الرصاص .

وقد عد بعض أدباء العصر أبا تمام من شعراء الرمزية ، وهذا في رأي غير صواب ، لأن كل شاعر يستخدم الرموز ، ولكن ليس كل شاعر من أدباء الرمزية. وأستطيع أن أفهم سبب عد أبي تمام من شعراء الرمزية، وإن لم يكن كذلك ، فإنه يكثر من استخدام التشبيه

والاستعارة والمجاز ، فالاستعارة رمز والكناية رمز. ولكن شعراء الرمزية فى أوربا تخطوا منزلة الاستعارات والكنائيات وصاروا يرمزون إلى حالات نفسية بأشياء مادية وبألفاظ أو جمل، ويقطعون الصلة بين الرمز وما يرمز لها بها اعتماداً على خيال القارئ وإحساسه وأحلامه وهواجس نفسه الغامضة ، وأحياناً يستخدمون رموزاً مدلولها أشياء مادية ويرمزون بها إلى تلك الهواجس الغامضة فى الوعى الباطن، وهى لغرضها لا تستطيع عقولهم الظاهرة تفسيرها إلا بتلك الرموز . وهذه طريقة لم يكتب فيها شاعر عربى. أما طريقة أبى تمام فهى طريقة الصناعة البيانية المألوفة وإن كان قد أبدع وأغرب فيها، وشعره شعر الخيال المشبوب بنار الشاعرية ، والجيد من شعره يجمع بين القوة والحلاوة وإقناع الصنعة الفنية ، وهى ليست صنعة ألفاظ فحسب بل صنعة ألفاظ وخيال وإحساس وذكاء وعقل وبصيرة . وترى فى قوة الجيد من شعره قوة الخطيب ولا أعنى أن الشاعر خطيب فله خطيب صفات قد تداير صفات الشعراء ، وإنما أعنى أن لشعره قوة تشبه وقع خطاب الخطيب فى الأذن فكأن له صوتاً يسمع. وإذا كان للشاعر نفسه من صفات الخطيب فهى الصفات التى يقترب الخطيب فيها من عبقرية الشاعر ومن بصيرته النافذة وخياله المشبوب، وليست الصفات التى يقترب فيها الخطيب من فن الممثل وهى صفات عالية فى فنها وفى الخطابة ولأنأسف لإضاعة شاعر من شعراء العرب فى التكسب بالمدح شعراً كان يكون أعظم شأنًا فى وصف الحياة والنفس قدر ما نأسف لإضاعة أبى تمام ، فإن الرجل كان قادراً على أن يبلغ ما بلغه شعراء أوربا من وصف الحياة والنفس ومظاهر الكون؛ على أن فى شعره فى المدح أشياء من هذه الأشياء . ولعل القارئ يقول : ولماذا لا نأسف على المتنبى قدر أسفنا على أبى تمام أو أكثر ، وليس المتنبى بأقل منزلة وهو ذو بصيرة وخيال . ولكن أبى تمام كان عنده من نشوة الصناعة البيانية أكثر مما كان للمتنبى؛ وكان للمتنبى من قوة الشخصية وإثرتها أكثر مما كان لأبى تمام ؛ وقوة الشخصية هذه لها أثر فى الشعر يظهر فى كل أبوابه وتجعل الشاعر يترك بعده دويماً كما قال المتنبى :

وتركك فى الدنيا دويماً كأنما تداول سمع المرء كما أغلغ العشر

أما أبو تمام فإننا نقرأ أنه كان مولعاً بالخمر إلى حد الإفراط أحياناً ، ونقرأ أنه سكر مرة فى مجلس عظيم وعريد وحُمِلَ من المجلس بين أربعة ، وأنه كان إذا أخذ صلة أمير أفتاها بين الغناء والموسيقى والرياض والخمر والأوجه الوسيمة. وهذه الأمور ربما كانت تقلل نتاجه وتلهيه

عن الشعر لو أنه لم يكن مضطراً إلى قرض الشعر في المديح أو الرثاء لكسب المال، فإننا عندما نقرأ سيرة الرجل وشعره فإيل إلى الاعتقاد أن الحياة عنده كانت شعراً يعاش وأن الشعر عنده كان حياة تكتب أو شعراً يكتب ، وأنه ما كان يلجأ إلى الشعر الذي يكتب إلا إذا سمع له أو اضطره شعر الحياة الذي يُعَاشُ . ولعل هذا هو سبب إقلاله وسبب موته وقد تخطى الأربعين قليلاً . وإننا نتساءل ماذا كان يكون نتاجه لو كان من المعمرين من غير أن يفنى قدرته الحيوية بالحياة وانتشاره بالحياة ميز شعر التكسب في قوله عن شعر التكسب في أقوال الشعراء الكثيرين ، فشعر التكسب في قولهم ألفاظ ميتة مهما حاولوا إحياءها بصناعة البيان أو بالأناقة ، وكانت قوة شعره مستمدة من انتشاره بالحياة ، فلم تكن قوة كتلك القوة في شعر بعض الشبان المبتدئين الذين يفتعلون القوة فيخيل للقارئ أنهم يخنقون ألفاظهم ومعانيهم كي تصبح كما تصبح الدجاجة إذا حاول الطفل الصغير أن يخنقها ، وكانت ألوان البيان في شعر أبي تمام طبيعية كألوان الحياة بالرغم من إغرابه ، ولم تكن كتلك الألوان التي وضعها القرد على ما لونه المصور في نقشه ورسمه ، وقد انتهز القرد فرصة انشغال سيده المصور بأمر من أمور الحياة . وقد أسف المغاربة أيضاً لموت محمد ابن هاني الأندلسي في سن مبكرة وكانوا يأملون أن يعمر حتى يفاخروا به أكثر شعراء المشرق، وكان لابن هاني بعض مقدرة أبي تمام ولكنه لم تكن له ثروته الشعرية في نفسه ، وكان كل منهما مولعاً بشعر الحياة الذي يعاش . وجرأة أبي تمام في التشبيه والاستعارة والمجاز هي ما يصح أن يسمى بالجرأة الموفقة إلا في القليل من شعره ، وهي تشبه في المبارزة بالسيف نوعاً من الهجوم إذا أجاده المبارز نشر سلاح خصمه وأصابه في الصميم وإذا أخطأ المبارز في هجومه سقط وسلاح خصمه في قلبه .

والسائر من شعر أبي تمام لا يقل في الصفات التي تؤهله لأن يسير عن شعر المتنبي السائر . وترى كثيراً من هذا الشعر السائر في جميع أبواب شعر أبي تمام من مدح أو رثاء أو وصف أو هجاء ، وله أبيات كثيرة تدل على بصيرة وفهم وذكاء ، وأسباب السيرورة هي التوفيق في الصناعة والإيجاز والبيان والوضوح وسهولة اللفظ وقوة السيل الشعري المنبعث من النفس وسلامة الفطرة والذوق . ولأبي تمام أبيات صارت ملكاً مشاعاً مثل قوله :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

ومثل قوله :

فلا تحسبا هنداً لها الغدر وحدها سجية نفس، كل غائبة هند

وقوله :

ومن لم يُسَلِّمَ للنوائب أصبحت خلائقه طرا عليه نوائبها

وقوله :

وطول مقام المرء في الحى مخلق لديباجتيه قاغترب تتجسده

وقوله :

وقد يستر الإنسان باللفظ خُلُقَه فيظهر عنه الطرف ما كان يستر

وفي رواية فعله (أى سبب فعله) بدل خلقه؛ وقوله أيضا :

يعيش المرء ما استحيى بخير ويبقى العُود ما بقى اللحاء

وقوله :

وانى رأيت الوشم فى خلق الفتى هو الوشم لا ما كان فى الشعر والجلد

وقوله فى تعزية الرثاء من قصيدة جليلة مشهورة :

أتصير للبلوى عزاء وحسبته فتؤجر أم تسلو سلو البهائم

وقوله :

لذلك قيل بعض المنع أدنى إلى مجد ، وبعض الجود عسار

وقوله :

ليس الغبى بمسيد فى قومه لكن سيد قومه المتغابسى

وقوله :

وإذا امرء أسدى إليك صنيعه من جاهه فكأنها من ماله

وقوله وفيه روايتان فى اللفظ:

ومن الخزامة لو تكون خزامة ألا تؤخر من به تتقدم

وقوله :

إِنْ شِئْتَ أَنْ يَسْوَدَّ ظَنُّكَ كُلَّهُ فَأَجِلْهُ فِي هَذَا السَّوَادِ الْأَعْظَمِ
يعنى جمهور الناس وقوله :

فَصُرْتُ أَذِلَّ مِنْ مَعْنَى دَقِيقٍ بِهِ قَفَرٌ إِلَى فَهْمٍ جَلِيلٍ
وقوله :

قَدْ يُنْعِمُ اللَّهُ بِالْبُلُوِّ وَإِنْ عَظُمَتْ وَيَبْتَلى اللَّهُ بِعُضِّ الْقَوْمِ بِالنَّعَمِ
وقوله :

بَصُرْتُ بِالرَّاحَةِ الْكُبْرَى فَلَمْ أَرَهَا تَنَالُ إِلَّا عَلَى جَسَرٍ مِنَ التَّعَبِ
وقوله :

إِنْ الْكِرَامُ إِذَا مَا أَسْهَلُوا ذَكَرُوا مَنْ كَانَ يَأْلِفُهُمْ فِي الْمَنْزِلِ الْخَشِنِ
وقوله :

سَكَنَ الْكَيْدُ فِيهِمْ إِنْ مِنْ أَعْمَى ظَمَّ إِرْبَ الْأُتْسَمَى أَرْبَا
وقوله :

فَقَدْ تَأَلَّفَ الْعَيْنَ الدَّجَا وَهُوَ قَيْدُهَا وَيَرْجَى شِفَاءَ السَّمِّ وَالسَّمَّ قَاتِلُ
وقاتل :

أَنْكَرْتَهُمْ نَفْسِي وَمَا ذَلِكَ إِلَّا نَسْأَةً كَارَ إِلَّا مِنْ شِدَّةِ الْعَرْفَانِ
وَإِسَاءَاتِ ذِي الْإِسَاءَةِ يُذَكِّرُ نَكَ يَوْمًا إِحْسَانِ ذِي الْإِحْسَانِ
وقوله :

وَقَدِيمًا مَا اسْتَنْبَطْتَ طَاعَةَ الْخَسَا لَقِيَ إِلَّا مِنْ طَاعَةِ الْمُخْلُوقِ

وهذا البيت الأخير فيه إلمام بملهب الملاحدة الذين يقولون إن الاعتقاد بالمخالق فكرة إنسانية ولها نشأة بشرية في قديم الزمن بسبب تأليه رب الأسرة ورئيس القبيلة في العصور التي قبل التاريخ. على أن البيت يصح تأويله بما لا يخالف الدين. وقد طعنوا في عقيدة أبي تمام بسبب تركه للصلاة والصوم وقوله في المشاعر والفروض الدينية كلاما ، كما جاء في كتاب مروج الذهب للمسعودي وفي غيره من الكتب . وقد طعنوا أيضا في نسبته إلى طي ، وبعضهم

صحح نسبته إلى طى وقال إنه نشأ فى فرع مسيحي منها ثم تظاهر باعتناق الإسلام ؛ وقد مدح الإسلام فى مدحه للخلفاء والوجهاء ووصف المسيحيين بالشرك والكفر وعبادة الأصنام كما قال فى مدحه المعتصم ووصف فتحه مدينة (عمورية) . وإذا أردنا أن نحصى خلاصة الخلاصة من شعر أبى تمام لم نستطع أن نستغنى عن المدح ، وإن استطعنا الاستغناء عن المدح عند إحصاء خلاصة الخلاصة من شاعر كالشريف الرضى فإن شعر المدح فى صنعة أبى تمام يحجب القارئ قراءة المدح حتى ولو كان ممن لا يميل إليه. انظر إلى قوله :

نسب كأن عليه من شمس الضحى نوراً ومن فلق الصباح عموداً
أو قوله :

خدم العلى فخدمته وهى التى لا تخدم الأقوام ما لم تُخدم
أو قوله :

ولو لم يكن فى كفه غير نفسه لجاد بها فليتنق الله سائله^(١)
أو قوله :

فلو صورت نفسك لم تزدها على ما فىك من كرم الطباع
أو قوله :

غرئتُ العلى على كثرة الأهـ حل فأضحى فى الأقربين جنيها
وله قصائد كثيرة فخمة حلوة فى المدح مثل قصيدته فى محمد بن عبد الملك الزيات التى يقول فى مطلعها :

لهان علينا أن نقول وتفعلـ ونذكر بعض الفضل منك فتفضلا
أو الأبيات التى يقول فيها :

ليس الحجاب يُقصرُ عنك لى أملا إن السماء تُرجى حين تحتجب
وإجاداته فى المدح إجابة يطول حصرها ، هى ليست فى مدح الأحياء فحسب بل هى أيضاً فى مدح الموتى فى الرثاء مثل قوله :

١- هذا البيت ينسب أيضاً إلى مسلم بن الوليد .

هيهات أن يأتى الزمان بمثله إن الزمان بمثله لبخيل

أو قوله فى رثاء بنى حميد :

وأنفس تسع الأرض الفضاء فلا يرضون أو يجشموها فوق فوق ما تسع
يود أعداؤهم لو أنهم قتلوا وأنهم صنعوا بعض الذى صنعوا
عهدى بهم تستنير الأرض إن نزلوا بها وتجتمع الدنيا إذا اجتمعوا

أو قوله من رثاء ابنى عبدالله بن طاهر : « فحمان شاء الله ألا يطلعا » إلى آخر القصيدة
وهى من ماثور قوله وبها بيت يتمثل به كثيراً وهو قوله :

وإذا رأيت من الهلال نحوه أيقنت أن سيكون بدرًا كاملاً
وقوله أيضاً فى مدح الرثاء :

فالما ليس عجيباً أن أعذبه يفنى ويمتد عُمر الأجن الأسين
وأكثر رثائه على هذا النمط : رثاء صنعة فخمة رائعة لا رثاء حرقة ولوعة ، ولا رثاء
وجدان ؛ ومن أجل رثاء الصنعة قصيدته المشهورة التى يقول فى مطلعها :

كذلك فليجل الخطب ، وليفدح الأمر فليس لعين لم يقض ماؤها عذر
ولا ينقص من قدرها أنها من رثاء الصنعة فإن الشعر كالفاكهة أنواع ولكل نوع طعم ولذة.
وله مع ذلك قصائد من شعر رثاء العاطفة والوجدان مثل رثائه لأخيه الذى أوله :

إنى أظن البلى لو كان يفهمه صد البلى عن بقايا وجهه الحسن
والقصيدة التى يقول فيها : « بأركان لى خل مقيم وصاحب » ولكنه أحياناً تفيض العاطفة
من رثائه كما قال فى رثاء جارية له :

يقولون لا يبكى الفتى لخريدة إذا ما أراد اعتاض عشرًا مكانها

وهل يستعيض المرء عن عشر كفه ولو صاغ من حر اللجين بنانها

فالتعليل يدل على الذكاء ، ولكن ليس هذا رثاء العاطفة ؛ وكان ينبغى أن تكون حجته
منزلة الجارية من نفسه لا أن يضعها بمنزلة عشر الكف . ومثل هذا رثاؤه محمد بن حميد إذ
يقول إنه رآه فى الحلم فسأله : ألم تموت ؟ قال : لا .. كيف يموت من كان كريماً مثلى كرمه
خالد . وكان ينبغى أن يجعل المرثى أرفع من أن يقول هذا القول الذى كان يستطيع الشاعر

نفسه أن يقوله فيه بدل أن يضع المراثى موضع المفاخر بكرمه وإنه لو كان حيا لكان حريا به أن يرى من الكرم ألا يفتخر بالكرم والبيت هو :

ألم تمت يا شقيق الجسود من زمن فقال لى لم يمّت من لم يمّت كرمه

ومن رثاء العاطفة قوله فى رثاء ابنه وكان وحيدا بدليل قوله (بُنَى يا أُوحد البنينا) وهذه القصيدة هى التى مطلعها : (قد كان ما خفت أن يكونا) ، ولكنها ليست شيئا إذا وضعت قصيدة ابن الرومى الدالية فى رثاء ابنه وهى التى مطلعها : (بكأؤكما يشفى وإن كان لا يجدى) . وإذا قارنا بين غزل أبى تمام وبين أقواله فى المودة والإخوان وجدنا شعره فى الإخوانيات أكثر عاطفة ووجدانا وأعلى مرتبة فى الشعر مثل قوله :

من لى بإنسان إذا أغضبته وجهلت كان الحلم رد جوابه
وإذا طربت إلى المدام شربت من أخلاقه وسكرت من آدبه
وتراه يصفى للحديث بقلبه ويسمعه ولعله أدرى به

أو قوله :

عصابة جاررت آدابهم أدبى فهم وإن فُرّقوا فى الأرض جيرانى
أرواحنا من مكان واحد وغدت أهداننا بشام أو خراسان
ورب نائى المغانى روحه أبداً لصبق روحى ودان ليس بالدانى

أو قوله :

رقلت أخ قالوا أخ من قرابة فقلت لهم إن الشكول أقارب
نسيبى فى عزمى ورأبى ومذهبى وإن باعدتنا فى الأصول المناسب

أو قوله :

خليلى ما أرتعت طرفى بيهجسة ولا تبسط منى إلى لذة يد
ولا استحدثت نفسى خليلاً مجدداً فيذهلنى عنه الخليل المجدد

أو قصيدته فى على بن الجهم التى يقول فيها إن ودهما (عذب تحنر من غمام واحد) أو

قوله :

وتكشّف الإخوان إن كشفتهم ينسبك طول تصرف الأيام

أما غزله فكثير منه من قبيل التغزل بالغلمان وأكثره غزل حواس وليس به عاطفة عميقة أو وجدان . وأكثره مقطوعات صغيرة في أغراض أكثرها بنت ساعتها ولعلها من عفو القريحة. هكذا أكثر غزله ولو أن به ذكر الدموع التي تحولت إلى دماء (إفني صبرى واجعل الدمع دماء) ، وذكر آلام الحب وحرقاته ولكنه ذكر لا يدل على شعور عميق كما يدل غزل العذريين ، ولا على وجدان كوجدان العباس بن الأحنف أو كوجدان الشريف الرضى . وله في أول قصائد المدح بعض الغزل الرقيق، وهو مولى بذكر محاسن أعضاء الجسم كالعيون والحدود... إلخ . انظر قوله :

صبّ الشبابُ عليها وهو مُقْتَبِلٌ ماءً من الحسن ما في صفوه كدر
لولا العيون وتفتح الحدود إذا ما كان يحسد أعمى من له بصر

وكثير من غزله يشبه عزل أبي نواس ، ولعل هذا هو سبب ورود قصائد في الغزل في ديوانه وفي ديوان أبي نواس مثل التي أولها (قال الوشاة بدا في الخد إلخ) والتي أولها (أفنيك فيك معاني الشكوى) والتي أولها (وفاتن الألفاظ والحد) . وما هو شبيه بالغزل في قصائد المديح مما يستحسن الأبيات التي يقول فيها :

أدار البؤس حسنك التصابي إلى فصرت جنات النعيم
والتي يقول فيها :

يا موسم اللذات غالتك النوى بعدى فربك للصباية موسم
والتي يقول فيها :

أصبحت روضة الشباب هشيما وغدت ريحه البليل سموما
والتي يقول فيها :

ثم انقضت تلك العنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام
وله في الغزل والوصف :

بأشر الماء وهو في رقة الصنن عة كالماء غير أن ليس يجرى
خدش المساء جلدة اليرطب حتى خفته لابساً غلالة خمر

أما قوله في المغنية الفارسية فمن عذب القول وهي قصيدة مطربة وهي التي يقول فيها :

ولم أفهم معانيها ولكن ورت كبدى فلم أجهل شجاها

وفى باب الوصف من شعره أشياء بلغت منزلة عالية من الجودة تجعلنا نأسف لقلتها ونود منها المزيد . ومن هذه القصائد وصفه لفتح عمورية ، ووصف السحابة فى أرجوزتها المشهورة ، ووصف القلم فى قصيدة يقول فيها : (لك القلم الأعلى الذى بشباته) وهو وصف مشهور أيضا وهو من قصيدة مدح كوصف فتح عمورية . ومن وصفه أيضا أرجوزة (إن الربيع أثر الزمان) ، ومنها أخذ البحتري قوله : (وجاء الربيع الطلق يختال ضاحكا)^(١) . وأحسن قصائده فى وصف الطبيعة قصيدته التى يقول فى تَمَرْمَرٍ ولها : (رقت حواشى الدهر فهى تَمَرْمَرُ) وفيها يقول البيت المشهور :

تريا نهارا مشمسًا قد شابهَ نَوْرَ الرُّبَى فكأنما هو مقمر

والنور الذى يحدث هذا الأثر هو النور الذى له لون يغض من اصفرار أشعة الشمس كأن يكون لونه أبيض ، ولا يحس القارئ مقدار صدق هذا الوصف إلا عند المشاهدة . وله فى وصف الحمر قصيدته التى مطلعها : (قَدْ كَ اتَّشَبَ أَرَبِيبٌ فِى الْغُلُوَاءِ) وفيها يقول :

صعبت وراض المزج سىء خلقها	فتعلمت من حسن خلق الماء
وضعيفة فإذا أصابت فرصة	قتلت ، كذلك قدرة الضعفاء
وكان بهجتها وبهجة كأسها	نار ونور قُبُدا بوعاء
أو درة بيضاء بِكُـرْ أطبقت	حملاً على ياقونة حمراء
يخفى الزجاجة لونها فكأنها	فى الكف قائمة بغير إناء
ولها نسيم كالرياح تنفست	فى أوجه الأرواح بالأنباء

وقد أسقطت بعض الأبيات للاقتصار ، والبيتان الأخيران ينسبان إلى البحتري أيضا فى قصيدة له ، ولأبى تمام إجادة فى الهجاء وله فيه قصائد سائرة مثل قوله :

كم نعمة لله كانت عنده	فكأنها فى غربة وإسار
كسيت سبائب لؤمه	كتضاؤل الحمىء فى الأظمار

وقوله :

مسار لو قُسمَنَ على الغوانى لما جُهرن إلا بالطلاق

فخلاصة الخلاصة من شعره لا بد أن تشمل شيئا من كل باب وهذا يدل على علو منزلته ومقدرته .

١- فى مقال عن البحتري سيشار إلى صلته الأدبية بأبى تمام . وقد أطال الأمدى فى المقارنة بينهما فى كتاب « الموازنة » .

١٨- البحتري أمير الصناعة^(١)

قيل إن أبا العلاء المعري شرح ديوان المتنبي وسماه (معجز أحمد) وشرح ديوان أبي تمام وسماه (ذكرى حبيب) وشرح ديوان البحتري وسماه (عبث الوليد) . ولعمرى لو كان شعر البحتري عبثاً ما احتفل له أبو العلاء المعري ولم سلخ زماناً من عمره في شرحه، وإلا كان المعري عبثاً لإضاعة وقته في شرح العبث. وهذا أمر يذكرني بكارليل والقرن الثامن عشر، فقد كان كارليل كلما ذكر القرن الثامن عشر في أوروبا سماه العصر العقيم وعصر طاحونة المنطق، ويعنى المنطق الفارغ وعصر الإلحاد؛ ولكننا لو درسنا مؤلفات كارليل لوجدنا أن أكثرها كان في دراسة القرن الثامن عشر ورجاله ونزعاته الفكرية والسياسية، ولو كان عقيماً ما حفل له ولا اهتم به كل هذا الاهتمام. وكنت أود أن أسأل شيخ المعرة، على ماله عندي من الاحترام والمنزلة، هل شعر الوليد (ويعنى البحتري وهو الوليد بن عبادة) هو العبث أم الجناس والتزام ما لا يلزم؛ وأحب يجلب المداعبة ويفرى بها كما يداعب المحب حبيبته، وقد يكون ثقل المداعبة ذليلاً على شدة الحب الذي لا يجد تنفيساً وترويحاً إلا بالتشاغل بالمداعبة. وإذا أضفت إلى ذلك اعتزاز المعري بتفكير كثير ليس للبحتري مثله كنت قد جمعت بين شقى المداعبة وسببها، فليس من المحتوم أن يكون لها سبب واحد. على أن المعري يُغرى أحياناً بمعارضة البحتري في شعره، وهذه مداعبة أخرى في ثناياها الجدة فقد قال البحتري من قصيدة:

وغيرتني سجال العدم جاهلة والنبيع عريان ما في قرعه ثمر

أى أن الفقر لا يعير به الرجل كما أن الشجر النافع مثل النبق لا يعير بأنه ليس له ثمر. فقال لمعري يعارضه:

وقال (الوليد) النبيع ليس بمثمر

وأخطأ سرب الوحش من ثمر النبيع

يعنى بالوليد البحتري ويقول: إن قول البحتري إن النبيع ليس له ثمر خطأ لأن النبيع تصنع منه القسي وبالقوس يقتنص الصائد سرب الوحش، فكأن سرب الوحش من ثمر النبيع الذي ليس له ثمر من فاكهة النبات. فبالله أليست هذه دعابة؟ ثم أليست فكرة المعري مأخوذة من

بيت البحتري ، إذ يعنى أن النبع الذى يمد القانص بالقوس من خشبه لا يعير بأنه ليس له ثمر من فاكهة النبات لأنه يكون سبباً فى اقتناص القنص فله مزايا ؟ فأيهما إذا العايب ؟ على أنه لو كان شعر البحتري عبثاً لكان أفضل من كثير من عبث الحياة الذى يسمى جداً على سبيل تسمية الضد بال ضد . ثم أما كفى المعرى إضاعة وقته بشرح عبث الوليد فى زعمه حتى يضيع جزءاً آخر من وقته بالإشارة إلى معانيه .

والبحتري أقرب الشعراء فى صناعته إلى أبى تمام وإن كان أبو تمام أكثر جرأة فى تلك الصناعة وأعظم ابتداءً . ولجد لأبى تمام معانى يجاريها البحتري ، فأبو تمام يقول :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

فيقول البحتري فى المعنى نفسه :

ولن تستبين الدهر موضع نعمة إذا أنت لم تُدلل عليها بحاسد

وبيت أبى تمام أسير وأحسن معنى . وألاحظ أن الصناعة هنا هى التى أثقلت بيت البحتري وعاقته عن السير . أما أبو تمام فعرف كيف يجعل الصناعة خادمة للمثل السائر وأبى أن يعوقه بأن يحمله ثقلاً من الألفاظ ، وهذا المعنى هو نصف الحقيقة المشاهدة فى الحياة ، والنصف الثانى من الحقيقة هو ما عبر عنه الشريف الرضى بقوله :

رب نعيم زال ريعانه بلسعة من عقرب الحاسد

وهناك فرق قليل فى المعنى بين بيت البحتري وبيت أبى تمام ولكن الموضوع واحد . وقال أبو تمام أيضاً :

لو سمعت بقعة لإعظام نعى لسمى نحوها المكان الجديد

فقال البحتري :

فلو أن مشتاقاً تكلف فوق ما فى وسعه لسمى إليك المنبر

وقال أبو تمام أيضاً فى أرجوزة :

إن الربيع أثر الزمان لو كان ذا روح وذا جثمان

مصوراً فى صورة الإنسان لكان بساماً من الفتيان

فقال البحتري :

أتاك الربيع الطلق يخال ضاحكا من الحسن حتى كاد أن يتكلما

وقد زاد البحتري في المعنى واختصر كلمته وأحسن سبكه . والحقيقة هي أن البحتري قلما يأخذ معنى إلا زاد فيه وأجاد سبكه أو تصرف في معناه . انظر كيف أخذ قول أبي الصخر الهذلي :

تكاد يَدِي تَنْدِي إِذَا مَا لَمَسْتُهَا وَتَنْبِت فِي أَطْرَافِهَا الْوَرَقَ الْخَضِرَ

فالهذلي يقول إنه إذا لمس حبيبته أعدته بالحسن ، ولكن أى حسن ؟ حسن النبات . فجعل البحتري العدوى بحسن الإنسان فقال :

أَغْتَدِي رَاضِيًا وَقَدْ بَتُّ غَضِبًا ن وَأَمْسَى مَوْلى وَأَصْبَحَ عَبْدًا

وينفسى أفدى على كل حال شادياً لو يمس بالحسن أعـدى

وقد ظلم ابن الرومي البحتري بقوله فيه :

كُلُّ بَيْتٍ لَهُ يُجَوِّدُ مَعْنَاً ، فَمَعْنَاءُ لَابْنِ أَوْسٍ حَبِيبٌ

فإننا لو شئنا لآتيناه بأبيات يشترك في معانيها ابن الرومي ومن كان قبله من الشعراء . ويمتاز البحتري بجودة الصنعة ، وكثيراً ما يزيد المعنى ، انظر إلى قول أبي تمام : (ولا يحيف رضا منه ولا غضب) وإلى قول البحتري :

يُرْتَجَى لِلصَّفْحِ مَوْتُورًا وَلَا يَهْبُ السُّؤْدَةُ فِيهِ لِلْحَقِّقِ

لصفح الموتور أعظم من صفح الغاضب ، والشرط الثاني زاد المعنى بهاء . لاشك أن ابن الرومي كان أكثر ابتداءً ، وكان يجيد الصنعة ولكن للبحتري قطعاً لا يستطيع ابن الرومي محاكاتها في حلاوة الصنعة ولا سيما في المدح ، ومدح البحتري كان أسهل متناولاً ، ولعل هذا وحلاوة صنعته مما جعله مسعوداً لدى المدحيين أكثر من ابن الرومي . والظاهر أن الأمراء والوجهاء^(١) كانوا يسيئون الظن بمدح ابن الرومي أحياناً لأنه كان هجاء ساخر ، ومن كان كذلك حمل بعض مدحه على محمل السخر ، وهذا أمر مشاهد في الحياة . أما البحتري فإنه يذكرنا بما يحكى عن أحد طهارة باريس الذي أجاد صناعة الطهى حتى أنه طبخ ذات مرة نعلًا سال له لعاب أكله من جودة صناعة الطهى . وقد بلغت جودة الصنعة في شعر البحتري مبلغًا

١- كما حدث عندما مدح أبا الصقر إسماعيل بلبل الشيباني الوزير بقصيدته النونية الرائعة .

جعلها تحاكي العاطفة والوجدان كما ترى في بعض غزله ، ولكن لو كان كل ما في شعر البحتري حلاوة في الصنعة لما حفل به ابن الرومي قدر ما حفل به؛ وأما إتقان صناعة البحتري محاكاة صدق العاطفة فهي صفة في كبار الفنانين. فالممثل الكبير إذا مثل الحزن أو الحب لم تفرق بين الحقيقة والمحاكاة، بل إن المحاكاة تصير حقيقة حتى أن الفنان نفسه قد يخدع بمظهرهما في نفسه كما يخدع المعجبون بفنّه، ومن أجل ذلك قد تختلط حقيقة العاطفة ومحاكاتها في حياة الفنان كما تختلط الحقيقة والعاطفة في فنّه. انظر مثلاً إلى قصة البحتري وغزله في مملوكه نسيم الذي كان يبيعه ويقبض ثمنه ثم يصنع فيه غزلاً من أرق الغزل ويعرضه على المثرى الذي اشتراه فيرد المملوك إليه هدية فيبيع المملوك، ويربح ثمنه ، ويصنع غزلاً من غزل محاكاة العاطفة ، ولكن حلاوة الصنعة فيه تغطي على المحاكاة وتختلط الحقيقة والخيال فيه .

والمدح في شعر البحتري لا يقل كثيراً في جودته عن المدح في شعر أبي تمام. وإذا أردت أن تنتخب خلاصة الخلاصة لم تستطع ترك المدح من شعرهما . أما ابن الرومي فإن له أشياء في موضوعات وأبواب أخرى تلهيك عن مدحه عند اختيار خلاصة الخلاصة من شعره ، وإن كان له في المدح قدرة كبيرة .

ومن بديع شعر البحتري في المدح قوله :

تُلقي إليه المعالي قصد أوجهها	كالبيت يقصد أمّا بالمعاريب
كالعين منهومة بالحسن تتبعه	والأنف تطلب أعلى منتهى الطيب

وقوله :

علا رأيه مرمى العقول فلم تكن	لتنصفه في بعده وارتفاعه
وقارب حتى أطمع الغر نفسه	مكاذبة في ختله واختداعه

فهذه الأقوال ليست صنعة فحسب بل هي أيضاً خيال وفكر .

وانظر إلى قوله في مدح قوم توارثوا خصال الحمد :

خلق منهم تردد فيهم وليته	عصابة عن عصابة
كالسام الجراز يبقى على الدهر	ويبقى في كل عصر قرابه

أو قوله :

جهير خطاب يخفض القوم عنده معارض قول كالرياح الرواكد
وهذا تشبيه بديع ، وانظر إلى قوله :

مدرك بالظنون ما طلبوه بفنون الأخبار فنا فنا
وقوله :

وكان الذكاء يبعث فيه في سواد الأمور شعلة نار
وقوله :

صبروا الزمان الفسط إلا أنه هرم الزمان وعزهم لم يهرم
وقوله :

علم بتصريف الأمور كأنما يعانى صروف الدهور من عهد تبع
وقوله :

عجل إلى نجاح الفعال كأنما عسى على وتر من الموعود

وقوله :

وكم لبست الخفض في ظله عمرى شباب وزمانى ربيع
فمدحه حلو شائق سراء أكان المعنى سائراً مألوفاً أم كان جديداً مبتدعاً .
انظر إلى دقة المدح فى قوله :

لم يرتفع عن مراعاة الصغير ولم ينزل إلى الطمع المخسوس إسفاً

ولكنه مع ذلك لا يخلو من أشياء فيها فتور الصنعة وتكلفها عندما تكون الصنعة قاهرة
لعاطفته الفنية ومنافسة لها بدل أن تكون زميلتها أو خادمتها . وقد روى أنه أحرق أكثر
هجائه الذى به فحش وإن كان فى ديوانه القليل من هذا النوع^(١) وله فى الهجاء أشياء
مستحسنة مثل قوله :

١- مثل هجائه على بن الجهم الشاعر .

تزيد الإهانة في حاله صلاحاً وتفسده التكرمة

وهذا البيت يصف النفس الإنسانية في بعض حالاتها وهو في معناه شبيه بقول القائل :

يصبح أعداؤه على ثقة منه وخلائمه على وجل

تذلل للعدو عن ضعة وصوله بالصديق عن نفل

ومن مآثور هجاء البحتري قوله :

وبعضهم في اختباراتهم يحب الدناءة حب الوطن

والظاهر أنه لم يجد حباً أشد من حب الوطن كي يقارن به حب المهجر للدناءة . ومن المشهور قوله أيضاً :

كل المظالم ردت غير مظلمة مجرورة في مواعيد ابن عباس

منعتني فرحة النجوع الذي التمسست نفسي فلاتمنعني فرحة الياس

وأبياته التي يقول فيها :

ويعد عن المعروف حتى كأنما ترون به سقم النفوس الصالحات

والأبيات التي يقول فيها (ويعد العتاب من السباب) وذمه على أي حال لا يقارن بهجاء ابن الرومي الذي بزهم جميعاً في بابه .

والبحتري لا يعنى نفسه كثيراً بالتفكير في معضلات الحياة كما يفعل المعري ، ولكن أمراً واحداً يفكر فيه كثيراً وهو تفاوت الناس في الحظوظ ولا سيما في قسمة المال حتى أن في بعض قوله نفحة من الاشتراكية : فهو يقول إن الغنى مفسدة والفقر مفسدة ويود ولو تقاربت الحظوظ في المال ، وهو يكرر هذا المعنى فيقول :

كان يُخَيِّ هالكاً من ظمأٍ بعض ما أوثق ميتاً من غرقٍ

ويعنى بالظمأ والغرق قلة المالك وكثرته ، ثم يكرر هذا المعنى فيقول :

تفاوتت الأيام فينا فأفرطت بظمآن بادٍ لوحه وغريق

وتمنيه في البيت الأول أن يسعد جميع الناس في الحظوظ يخالف قول ابن الرومي :

ومُحال أن يسعد السعداء الدهر — إلا بشقوة الأشقياء

وللبحتري في ثنايا أبواب شعره أبيات كثيرة في الحكم والأمثال ، بعضها يدل على فطنة
لبعض نواحي الحياة والنفس ، وبعضها معان مطروقة كساها ثوباً قشيباً . فمن حكمه وأمثاله
قوله :

أَرَأَيْبُ صَوْلِ الْوَعْدِ حِينَ يَهْزُهُ أَقْدَرُ تَدَارُ وَصُولِ الْحَسْرِ حِينَ يَضَامُ
وقوله :

هُوَ الْحِظُّ يَنْقُصُ مَقْصِدَارَهُ لِمَنْ وَزَنَ الْحِظُّ أَوْ كَالَهُ
وقوله :

لَوْلَا التَّبَايُنُ فِي الطَّبَائِعِ لَمْ يَقُمْ بَيْنَ هَذَا الْعَالَمِ الْمَجْبُولِ
وقوله :

وَلَسْتَ تَرَى عَوْدَ الْقَتَادَةِ خَائِفًا سَمُومَ الرِّيحِ الْأَخَذَاتِ مِنَ الرُّنْدِ
وقوله :

وَالْيَأْسُ إِحْدَى الرَّاحَتَيْنِ وَلَنْ تَرَى تَعَبًا كَظَنِّ الْخَائِبِ الْمَكْدُودِ
وقوله :

كَالْكُوبِ الدَّرِيِّ أَخْلَصَ ضَرَوْهُ حَلَكُ الدَّجَا حَتَّى تَأْلُقَ وَالْمَجْلَى
وقوله :

تَنَاسَ ذُنُوبَ قَوْمِكَ إِنْ حَفِظَ الْـ ذُنُوبَ إِذَا قَدَمْنَ مِنَ الذَّنْظُوبِ
وقوله :

خَلَّتْ جَهْلًا أَنَّ الشَّبَابَ عَلَى طَمَـ لَ الْيَالِسَى ذَخِيرَةٌ لَيْسَ تَفْنَى
وقوله :

أَدْعُ الصَّاحِبَ لَا أَعْذِلْهُ لَا يَسْمَعُنِي بِعَقُوقٍ فَيَعْفُو
قوله :

وَقَدِيمًا تَدَاوَلَ الْعُسْرُ وَالْيُسْرُ وَكُلُّ قَذَى عَلَى الرِّيحِ يَطْفُو
وقوله :

صعوبة الرزء تُلقَى فى توقُّعه مستقبلاً وانتضاء الرزء أن يقعا

وقوله :

أغشى الخطوبَ فيما جئن مآرتى فيما أسير أو أحكمسن تأديبى
إن تلتَمِس ثمر أخلاق الأمور وإن تلبث مع الدهر تسمع بالأعاجيب

وقوله :

وكأنما شرف الشريف إذا انتمى جرم جناه على الوضيع الأصفر

وقوله :

إذا محاسننى اللاتى أدل بها كانت ذنوبى فقل لى كيف أعتذر

وقوله :

ما أضعف الإنسان لولا همة فى نبله أو قوة فى لبه

وقوله :

والشئ تُمنعه تكون بقوته أجدى من الشئ الذى تعطاه

وقوله فى التأسى بمصارع الموتى :

إذا شئت أن تستصغر الخطب فالتفت إلى سلف بالقاع أهمل نائم

ومثل هذا كثير فى شعره

وعندى أن غزل البحترى فى مجموعته أرق وأحلى وأكثر نصيباً من الوجدان الفنى من غزل أبى تمام . فمن قصائد غزله المشهورة قصيدته التى يقول فيها :

تمشى فتحكم فى القلوب بدلها وتميس فى ظل الشباب وتخطر

وقصيدته التى يقول فيها :

ذو فنون يريك فى كل يوم خلقاً من جفائه مستجسداً

أغتدى راضياً وقد بئت غضباً ن وأمسى مولى وأصبح عبداً

وقصيدته التى يقول فيها :

أيها العاتب الذى ليس برضى نم هتئياً فلست أطعم غمضاً

وهى رقيقة ومشهورة . ومن بديع غزله قصيدته التى يقول فيها : «ردى على المشتاق
بعض رقاده» والقصيدة التى يقول فيها :

دنت عند الوداع لو شك بين دنو الشمس تجنح للأصيل

وفيهما يقول :

وذكر نيسك والذكرى عناء مشابه فيك بينة الشكول

نسيم الروض فى ربح شمال وصوب المزن فى راح شمول

والتى يقول فيها :

وجدت نفسك من نفسى بمنزلة هى المصافاة بين الماء والراح

والتى يقول فيها :

وعبر القرب منها كان أشهى إلى المشتاق من وصل البعاد

والتى يقول فيها : «منى وصل ومنك هجر» ، والتى يقول فيها :

بات أحلى لدى من سنة النور م وأشهى من مفرحات الأمانى

والتى يقول فيها :

إذا ما الكرى أهدى إلى خياله شفى قلبه التبريح أو تقع الصدى

والتى يقول فيها :

وفيهن مشغول به الطرف هارب بعينه من الحظ المحب المخاليس

وهى ملاحظة فنية جميلة والتى يقول فيها :

لم يرو من ماء الشباب ولا انجلت ذهبية الصبوات عن أيامه

وفيهما يقول :

أترك أحلام الكرى ذا لوعة كلف الضلوع يراك فى أحلامه

التى يقول فيها :

أنت ديار الحى أيتها الربى السـ أنيقة أم دار المها والنعام

وأيامنا فيك اللواتى تصرمت مع الوصل أم أضغاث أحلام نائم

لعل الليالى يكتسبن بشاشة فيجمعن من شمل النوى المتقادم

والبحترى شاعر وصاف بما له من شهوة تذوق المرثيات بجمال فنه ، فإن الفنان يتذوق مناظر الطبيعة والمرثيات عمومًا كما يتذوق الطعام من له ذوق خاص فى الطعام والشراب ؛ وقد لا يكون شره النظر أو قد يكون ، كما أن الذى له ذوق خاص فى الطعام والشراب قد يكون شره البطن وقد لا يكون .

ومن أجل شهوة تذوق الأمور بفنه أشك فى أن البحترى قد تعمد أخذ كل ما أخذ من المعانى ، فقد تكون شهوة التذوق بالعاطفة الفنية هى التى ساقته إلى هذه المعانى سواء أكان قد اطلع عليها أم لم يطلع وهى على أي حال مفردات .

ومن قصائده المشهورة فى الوصف قصيدة وصف آثار الفرس الفنية التى يقول فى أولها (صنت نفسى عما يُدَّس نفسى) وقصيدته فى وصف بركة المتوكل التى يقول فيها :

كأنما الفضة البيضاء سائله	من السبائك تجرى فى مجاريها
إذا علتها الصبا أبدت حبكا	مثل الجواشن مصقولا حواشيها
فحاجب الشمس أحيانا يضاحكها	وريق الغيث أحيانا يهاكيها
إذا النجوم تراءت فى جوانبها	ليلاً حسبت سماء ركنيت فيها

ومن أوصافه المعروفة وصفه الشقائق فى الأبيات التى يقول فيها : (سقى الغيث أكناف الحمى من محلة) وقصيدته التى يصف فيها الربيع وآثاره وفيها يقول :

وقد نبه النوروز فى غلس الدجا	أوائل ورد كن بالأمس نوما
يُفتقها برد الندى فكأنه	يبث حديثا كان قبل مگتما

وله قصيدته البائية المشهورة فى وصف صيد الفتح بن خاقان للأسد، والدالية التى فيها وصف لقائه (أى البحترى) الذئب فى البیداء ، ويعاود وصف الربيع كما فعل فى قصيدته الرائية التى يقول فيها : (ألم تر تغليس الربيع المبكر) والميمية فى وصف قصرى المتوكل الصبيح والمليح وهى التى يقول فيها :

حلل من منازل الملك كالأثـ جم يلمعن فى سواد الظلام

وقصيدته فى وصف البيان وهى التى يقول فيها :

لَتَفَنُّنْتُ فِي الْكِتَابَةِ حَتَّى عَطَّلَ النَّاسَ فَنَ عَبْدِ الْحَمِيدِ (١)

وهي مشهورة. وله أوصاف أخرى منتشرة في قصائده من وصف للنبات والطبيعة أو للحروب وآثارها مثل القصيدة الفريدة التي يقول فيها :

أَسِيتَ لِأَخْوَالِي رُبِيعَةً إِذَا عَفَسَتْ مَصَايِفُهَا مِنْهَا وَأَقْوَتَ رُبُوعُهَا

ومراثي البحترى مراثي صنعة تكاد تغطي على الصنعة لأن العاطفة الفنية فيها تغطي على العاطفة الحقيقية أو قد يكون مقرونة بشئ منها، وقد ظفر بنو حميد بمراث بلغت غاية الروعة الفنية من شعر أبي تمام ومن شعر البحترى. ولعل أبداع قصائده فيهم قصيدته التي يقول في مطلعها :

أَقْصُرَ حَمِيدٌ لَا عِزَاءَ لِمُغْرَمٍ وَلَا قَصْرَ عَنْ دَمْعٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ دَمٍ
أَفَى كُلِّ عَامٍ لَا تَزَالُ مَرْوَعًا بَفْدِ نَعْيِ تَارَةٍ أَوْ بِتَوَامٍ
إِلَى أَنْ يَقُولَ :

فَصَرْتُ كَعَشٍ خَلْفَتَهُ فِرَاحُهُ بَعْلِيَاءَ فِرْعِ الْأَثَلَةِ الْمُتَهَشَّمِ
ثُمَّ يَقُولُ :

سَلَامٌ عَلَى تِلْكَ الْخَلَائِقِ إِنَّهَا مُسَلِّمَةٌ مِنْ كُلِّ عَارٍ وَمَأْثَمٍ
وَمِنَ الْمُخْتَارِ لَهُ فِي الرِّثَاءِ قَصِيدَتُهُ فِي سَلِيمَانَ بْنِ وَهْبٍ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

أَخَى نَهْنِهِ دَمْعُكَ الْمُسْفُوكَا إِنْ الْحَوَادِثُ يَنْصُرُ مَنْ وَشِيكََا

وقصيدته التي يقول فيها (أبْنَى عَبِيدٍ شَدَّ مَا احْتَرَقَتْ لَكُمْ) والتي يقول فيها (جحدنا سهمة الحدثان فينا) . ومن أشهر قصائده في الرثاء رثاء المتوكل وقد قيل إن ابنه المنتصر ولي العهد دس له من اغتاله وإلى ذلك يشير البحترى في قوله :

أَكَانَ وَلِيَّ الْعَهْدِ أَضْمَرَ غَسَدَرَةً فَمِنْ عَجَبٍ أَنْ وَلَّى الْأَمْرَ غَادِرَةً

وهو لم يتمتع بالخلافة إلا بضعة أشهر. ويقال إن ضميره أفسد عليه تلك الأشهر من حياته. ويخيل إلى أن البحترى لم يعلن هذه القصيدة إلا بعد وفاة المنتصر إلا أن يكون قد تنبأ بها وأجاب الله دعوته في قوله :

١- في قصيدة يمدح بها محمد بن عبد الملك الزيات .

فلا ملىّ الباقي تراث الذى مضى ولا حملت ذاك الدعاء منابره

وفيهما يمدح المعتز بن المتوكل فيقول^(١) :

وإني لأرجو أن تُردّ أموركُم إلى خلف من شخصه لا يفادره

مُقلب آراء تخاف أناته إذا الأخرق العجلان خيفت بوادره

وإني أشك في صدق قوله وأرى أنه من شواهد ما قدمت من اختلاط الخيال بالعاطفة :

أدأقع عنه باليدين ولم يكن

ليثنى الأعادى أعزلّ الليل حاسره

ولو كان سبنى ساعة الفتك فى يدي

درى الفاتك العجلان كيف أساوره

إذ أنه لو فعل كما قال إنه فعل لقتله الفاتكون. ولكن المشهود فى القصيدة روعة الصنعة وفخامتها لاعمق العاطفة . والحق أن البحتري إذا ملك صناعته ولم يتكلفها أتى بها وهى فى بهجتها وحلاوتها حقيقة بالمدح الذى مدح به البحتري منزلة مملوحه فى قوله :

فريت أحاديث النفوس بذكرها وأفاق كل منافس وحسود

وأصدق قول يقال فى البحتري وأبى تمام هو ما قاله البحتري نفسه إذ قال إن جيد أبى تمام خير من جيده ، وردئ أبى تمام شر من رديئة . ومثل هذا القول يصح أن يقال أيضاً فى البحتري وابن الرومى ، ولاتعنى بالجودة الصناعة فحسب بل كل ما ينهض به الشعر من ميزات . وللبحتري قصائد فى العتاب هى من أجل ما كتب فى اللغة العربية فى هذا الباب ولا سيما عتابه للفتح بن خاقان فى قصيدته البائية التى يقول فيها :

ولو لم تكن ساخطا لم أكن أذم الزمان وأشكو الخطوب

١- بعد المنتصر ولى القتلة المستعين بالله وكانت خلافته مضطربة وكان للمعتز حزب قوى بالرغم من أنه محجوزاً وما لبث حزبه أن تغلب واستخدم الحرس التركى لخلق المستعين وتولية المعتز الذى انتفض عليه الجند أيضا .

والميمية التى يقول فيها :

أعيذك أن أخشاك من غير حادث تبين أو جرم إليك تقدما

وفى صنعة عتابه كما فى صنعة مدحه حلاوة وسهولة المتناول ، وليس فيها اللجاجة الفكرية التى بذلها ابن الرومى فى قصيدته فى العتاب التى يقول فيها (يا أخى أين ريع ذاك اللقاء) . على أن هذه القصيدة لابن الرومى لا تمثل إلا ناحية واحدة من نواحي مقدرته فى العتاب فله نواح أخرى منها ناحية العتاب المزوج بالهجاء ومنها ناحية العتاب الذى فيه خضوع للمعاتب . وابن الرومى أوسع مقدرة من البحترى وأكثر نصيباً من ذخائر اللب وإن كان البحترى أوفر نصيباً من بهجة الصنعة .

وقد جاء فى كتاب الأغاني وصف إنشاد البحترى لشعره : فقال المؤلف إنه كان يتشادق فى إنشاده ، ويتزاور ، ويتمايل ، ويلوح بكفه ، ويتقدم ويتأخر ، ومعنى هذا الوصف أنه كان يُحْثَل كما يصنع الممثل على المسرح ، وإنى أميل إلى تصديق هذه الرواية إذ أنها تؤيد ما ذهبت إليه من أن البحترى كانت عنده صفة يكثر ظهورها فى بعض الممثلين ، وهى اختلاط الأحاسيس التى يمثلونها بحقائق الحياة حتى يصعب التمييز بينهما ، وقد ضربت من أمثال ذلك مثلاً من غزله ومن رثائه للمتوكل . ولم يكتف البحترى فى إلقائه بطريقة الممثلين فى الإنشاد ، بل كان ينظر إلى الحاضرين ويطلب منهم الاستحسان ويلومهم إذا لم يظهروا الإعجاب والاستحسان ، وطلب الاستحسان من المشاهدين والحرص عليه والانتشاء به من صفات الممثلين أيضاً . وقد ضجر منه المتوكل يوماً لمغالاته فى هذه الأعمال ، فأغرى به شاعراً صغيراً عبث به فى شعره . ولو جاز أن نتمنى سماع إنشاد البحترى لشعره لتمنينا أن نسمعه ينشد بهذه الطريقة التمثيلية قطعة من شعره تساعد على إظهار مقدرة الممثل مثل قوله فى قتاله للذئب :

عرى ثم أقعى فارتجزت فهجته	فأقبل مثل البرق يتبعه الرعد
فأوجرته خرقاء تحسب ريشها	على كوكب ينقض والليل مسود
فما ازداد إلا جرأة وصرامة	وأيقنت أن الأمر منه هو الجدد
فأتبعها أخرى فأضلت نصلها	بحيث يكون اللب والرعب والحقد
فخر وقد أوردته منهل الردى	على ظمأ لو أنه عذب السورد

ونلت خسيساً منه ثم تركته وأقلعتُ عنه وهو منعفر فرد

ولاغربة أن يكون عند الشاعر الذي عماده الصناعة اللفظية صفة المثل الذي ينتشى بما يقول حتى يخلق له القول عاطفة فنية لا تكاد تميز من الأحاسيس الناشئة من حوادث الحياة في نفوس بعض ذوي الفنون . وفي الأخبار التي وردت عن البحتري نرى أنه كان يمدح شاعرين هما : أبو تمام ، والعباس بن الأحنف . وفي شعر البحتري أثر محاكاته للأول في الصنعة البيانية ومعانيها وللثاني في بعض الغزل من شعره .

١٩ - رجعة إلى البحتري^(١)

أبدى لنا بعض الأدباء الأفاضل شكاً في وصفنا للبحتري من حيث غلبة الصناعة على العاطفة في شعره واختلاط الحقيقة بالخيال في تلك الصنعة مما جعل بعض القراء يغترون بها ويحسبونها عاطفة . ولم نكن نريد انتقاص البحتري إذ عددناه ممثلاً في صناعته ، يمثل العواطف المختلفة تمثيلاً متقناً ؛ ولم نُرجع صحة رواية كتاب الأغاني عن طريقة إنشاده وعن طلبه الاستحسان من الحاضرين وزجرهم إذا لم يُظهروا الإعجاب ، إلا لأن ذلك يفسر تناقض ما يمثل من العواطف والأحاسيس في شعره ، كما سنوضح ، ويتفق وطريقة الصناعة اللفظية التي ينتشي فيها الصانع بما يقول ، وقد أغفلنا الإشارة إلى ما يروى عن بخله إذ لادخل لذلك بفنه ، وكذلك أغفلنا ما روى عن قلة اكتراثه بثيابه ونظافته .. إلخ .

والحقيقة أننا نعجب بصناعة البحتري إعجاباً كبيراً ، ولكن الإعجاب لا يمنع من الوصف والدراسة النفسية والسيكولوجية . وربما أخذ علينا بعض حضرات الأفاضل قولنا إن رثاء المتوكل كان صنعة وإتقاناً تشك في قوله : (أدافع عنه باليدين.. إلخ) . وقد رفضنا ما قرأنا في بعض الكتب من رواية لعلها رواية عذو أو رواية مازح أراد أن يدافع عنه : (أدافع عنه باليدين إلخ) . فقد قيل إنه اختبأ أثناء مقتل المتوكل . ويكفي أن نقول إن الفتح بن خاقان هو الذي حاول أن يدافع عن المتوكل بيديه وبجسمه فقتله الفاتكون وهو من زعماء الترك مثلهم ، فما كانوا يتعففون إذا عن قتل البحتري إذا صح أنه دافع عنه باليدين إن لم يكن لغضب منه فلكى وصلوا إلى المتوكل ولم ينشأ أن نذكر أنه مدح المنتصر بعد أن هجاه في رثاء المتوكل ، ومدح زعماء الفاتكين وعرض بهجاء المتوكل في مدحه للمنتصر كما سنوضح ، ومدح المستعين الذي خلف المنتصر والذي كان منافساً للمعتز بن المتوكل الذي مدحه البحتري في رثائه للمتوكل ورجاه للخلافة ، ومدح ابن المستعين ورجاه للملك أيضاً . كل ذلك والمعتز أسير حبيس ، ثم بعد أن ثار الجند الترك على المستعين الخليفة واضطروه أن يخلع نفسه وفتكوا به هجاه البحتري بقوله :

وما كانت ثياب الملك تخشى جريرة بائسٍ فيهنّ ... رى

وكان الغدر والخيانة والانتقاض أموراً شائعة في ذلك العهد . وفي رثاء المتوكل يهجو فيقول : (إذا الأخرق العجلان خيفت بوادره) ويقول :

ولا رآل (المشكوك فيه) ولا نجا من السيف ناضى السيف غدرًا وشاهرة

وهذا يشمل المتهم بالتحريض غدرًا وهو المنتصر ويشمل الذين شهروا السيف وقتلوا المتوكل وهم الذين مدحهم البحتري بعد ذلك . ورب قاتل يقول : إن الشاعر لادخل له بالسياسة فهو يمدح الحكومة القائمة . ولكن البحتري لم يكتف بمدح كل حكومة كانت قائمة بل كان يهجو الحكومة التي قضى عليها . وقد رأينا هجاء المنتصر في رثائه للمتوكل فانظر كيف يمدحه ويقول :

سروا مرجفين لسعى الصفا ورعى الجمار ومسح الحجر

حجبتنا البنية شكرًا لما حيانا به الله في المنتصر

أي أنه حج كي يشكر الله على أن المنتصر تولى الخلافة وهو الذي يصفه في المراثية بالأخرق العجلان ويرجو ألا ينجو من أن يقتل بالسيف لأنه متهم بالتحريض على قتل أبيه، ولم يكتف بالحج شكرًا بل وصف المنتصر بالحلم بعد وصفه بالخرق فقال :

من الحلم عند انتقاض الحلو م والحزم عند انتقاض المسرر

تطول بالعدل لما قضى وأجمل في العفو لما قدر

ودام على خلق واحد عظيم الغناء جليل الخطر

ويقول:

ولكن مصفى كماء الغما م طابت أوائله والأخر

تلاقى البسرية من فتنة أظلمهم ليلها المعتكر

رددت المظالم واسترجعت يداك الحقوق لمن قد قهر

وآل أبى طالب بعد ما أذيع بسريهم فابذعرو

وصلت شوايك أرحامهم وقد أوشك الحبل أن ينبتسر

وهذا المدح طويل جيد، ولا يقل صناعة عن مدحه للمتوكل بل إن فيه تعريضًا بحكومة المتوكل وهجاءً له، إذ أن المتوكل هو الخليفة الذي غالى في اضطهاد آل أبى طالب . وقوله (رددت المظالم) هجاءً صريح للحكومة السابقة ، وقال :

بقيت إمام الهدى للهدى تُجَنَّدُ من نهجه ما دثر
فإذا كان الهدى قد دثر وجدده المنتصر فمعنى ذلك أن المتوكل هو الذى كان الهدى فى
عهده مندثراً .

وفى مدح العباس بن المستعين يقول :
تَوَلَّته القلوب وباعته بإخلاص النصيحة والوداد
هو الملك الذى جمعت عليه على قدر محبات العباد
بعد أن كان لا يرضى بعد المتوكل خليفة إلا بالمعتز ابنه ، وقد قال فى ذلك (رائى لأرجو أن
ترد أموركم إلخ) .

وفى مدح المستعين يقول :
تَلَو رسول الله فى هَدْيِهِ وابن النجوم الزهر من آله
وهذا ليس مدحاً شكلياً لكل حكومة قائمة بل هو يُحَثِّلُ عاطفة الولاء الشديد والافتناع
بالصلاح وإلا ما قال (تلو رسول الله) .

وبعد أن جعل المستعين مثل رسول الله عاد بعد تعذيب الجنود له وقتله فقال : (وما كانت
ثياب الملك تخشى إلخ) وقال أيضاً فيمن شبهه قبل ذلك برسول الله :
ثقبل على جنب الثريد مراقب لشخص الخوان يبتدى فيوائبه
إذا ما احتشى ما حاضر الزاد لم يبل

أضاء شهاب الملك أو كل ثاقبه
تخطى إلى الأمر الذى ليس أهله فطوراً ينازبه وطوراً يشاغبه
وبعد قتل المعتز مدح أيضاً الحزب المناوى له وخليفة ذلك الحزب وكان فى مدح كل خليفة
يذكر مدحاً يصح أن يحمل على محمل التعريض بالخليفة السابق الذى كان قد رفعه البيهقري
إلى السماء كما فعل المستعين^(١) .

١- تولى المعتز ثم فتك به الجند أيضاً ثم ولوا المهتدى ثم فتكوا به أيضاً وولوا المعتمد ففى زمن قصير
فتكوا بالتوكل والمستعين والمعتز والمهتدى ويقال إن المنتصر مات مسموماً .

وهذه الخطة لم تكن خطته نحو الخلفاء والوزراء فحسب ، بل إنه أيضاً صنع النسيب والتشبيب في علوة الحلبية حتى ظن بعض النقاد أنه من أصدق النسيب وهو ليس كذلك، فهو في القصيدة الواحدة يصفها بالصيانة والتبذل فقال :

بيضاء رود الشباب قد غُصتُ في خجل دائم يعصرها
لاتبعث العود تستعين به ولاتبيت الأوتار تخفرها

وبعد هذا الوصف بالتصون يقول في القصيدة نفسها :

وليلة الشك وهو ثالثنا كانت هناتٍ والله (يغفرها) .

وعلى فرض صحة حدوث ما يستوجب (الغفران) أليق ذكر ذلك في النسيب الذي يصفها فيه بالتصون ؟ وأدهى من ذلك أنه عاد وهجاها أفحش هجاء بقول لا يتفق وما وصفها به من التصون وهو قول لا يمكن الاستشهاد به (صفحة ١٠٩ من طبعة الجوائب) وفيه أنكر عليها التصون والعفة والجمال والأثوثة . وقصته مع نسيم غلامه معروفة إذ كان يبيعه ويقبض ثمنه ثم يعود فيهدد الذي اشتراه حتى يرده إليه هدية كي يكسب المال. ونسيبه فيه نسيب ظاهره الرقة وباطنه فساد الذوق الذي يكون عندما تنعدم العاطفة وتُدعى تمثيلاً قال فيه :

فقل لنسيم السورد عني فإنني أعادبك إجلالاً لوجه (نسيم)

ولو كانت عنده عاطفة لقال :

فقل لنسيم السورد أقبل فإنني أحبك من حبي لوجه نسيم

أو من حبي لطيب نسيم ، أو ما شابه ذلك إذ لا يُعقل أنه يكره الرائحة الزكية لأن نسيم السورد اسمه مثل اسم نسيم . ما بقى إلا أن يتغزل في الرائحة الكريهة إجلالاً لوجه نسيم كما يقول . وقال أيضاً فيه :

لم تجد مثل ما وجدت وما أنت صفت إن أنت لم تجد مثل وجدى

كيف يكون من الذوق والصدق أن يطلب من ذلك المملوك الصغير أن يعشقه ويحس بوجود مثل وجد به والبهتري شيخ كبير والمملوك غلام صغير ؟ أظن أن هذه الشواهد كلها تزكى وصفنا للبهتري وكنا لا نريد الإطالة - وهو وصف على أى حال لا يطعن في علو صنعته .

فقد وصفنا في مقالة (صيانة العقيدة من احتيال النفوس) أن النفس البشرية تستطيع أن تخفى عن نفسها قبح رذائلها وأن تزكيتها بأن تلبسها لباس الفضيلة أو الدين .

ومن نظراته الصادقة أيضاً قوله :

وما القرب في بعض المواطن للننى يرى الحزم إلا أن يشط ويبعدا

فقد يكون في البعد من الإبقاء على المودة ما لا يكون في القرب . وهذه النظرات الصادقة ليست قليلة في شعره بالرغم من فساد نظراته أحياناً . وأختم قولى عن البحترى بأن أعيد بيتاً له أعجب به وهو قوله :

ما أضعف الإنسان لولا همة في نبهه أو قسوة في لبه

إذ يعجبني منه اختصاصه النبيل بالهمة واللب بالقوة وجعل قوة الإنسان في همة نبهه كما جعلها في قوة لبه .

والغريب في أمر البحترى أنه قد يخطئ في المعنى إذا كان نسبياً ويصيب فيه إذا كان مدحاً كان الرغب في قلبه أشد من الحب . انظر كيف فسد ذوقه في قوله في النسب وقوله في مملوكه نسيم :

فقل (لنسيم الورد) عنى فإنى أعاديك إجلالاً لوجه نسيم

ثم إلى قوله في المدح :

إنى لأضمر (للربيع) محبة إذ كنت أعتد الربيع أخاك

وإصابته في البيت الثانى كانت خليقة أن يجعله يقول في البيت الأول إنه يحب نسيم الورد لمشابهة الورد للنسيم ، كما أحب الربيع لمشابهته للممدوح ، ولكن له سقطات في وصف الأحاسيس وما تقتضيه من القول شأن القائل بالصنعة لا بالعاطفة وإن كان أميراً لها . وأدهى مما ذكرنا أن عظيمًا من بنى حميد ماتت ابنته فحزن لموتها فنظم البحترى قصيدة يعزیه فيها فقال إن العاقل ينبغي ألا يحزن لموت أنثى أية كانت لأنها قد تجلب العار :

واستذل الشيطان آدم في الجنه لما أغرى به حواء

والفتى من يرى القبور لمساها ف به من بناته الأكفاء

نعم إنه يعرض بمعنى العار ولا يصرح ولكنه تعريض كتصريح ، ففي القصيدة يقول : إن أعظم العرب ما كانوا يثدنون بناتهن فقراً (بل حمية وإباء) وذكر احتمال العار كى يعزى به أبا حزيناً على فقد ابنته ، والمعزى من أعظم الناس والفتاة التى ماتت من كريمات النساء ،

فساد في ذوق الصانع حتى مع احتمال حدوث العار لو عاشت إذ يكون من فجاءت الحياة التي لا تتفق وكرم محتد التي يرثيها ، هذا هو خطأ ذكاء الصنعة ، أما إذا أسلم نفسه للذكاء الطبع والبصيرة النفسية (السيكولوجية) أتى بنظرات صادقة في النفوس والحياة مثل قوله :

إذا أخرجت ذا كرم تخطئ إليك ببعض أخلاق اللثيم

واختياره كلمة اللثيم للكرم المخرج ليس فيه مبالغة كما يعرف المفكر في أخلاق الناس ، كما أنه ليس من المبالغة قوله في البخل أو اللؤم أو ما شابه ذلك :

وتماحكوا في البخل حتى خلت دينا يدان به الإله ويعبد

٢٠ - المعرى

هل كان سابقاً لعصره؟(*)

لما لاشك فيه أن كل قارئ يرى في الكتاب الذي يطالع به بعض ما هو في نفسه وعقله سواء أكان الكاتب قديماً أو حديثاً . ومما لاك فيه أن اثنين يقرأ عن كتابا يختلفان بعض الشيء في طريقة إدراكه مهما عظمت أوجه التشابه بين فهم كل منهما للكتاب ، فإن كل قارئ يجد فهمه لما يقرأ محدوداً بعض الشيء بنوع تربيته وتعليمه ويمزاجه وطبائعه وبذكرياته وبما تعلم وبما قرأ . فلا غرابة إذا كان القارئ المعرى يرى في شعر أبى العلاء ما لم يقصده أبو العلاء ، فهذا أمر غير مقصور على المعرى ولا على غيره من الكتاب والشعراء ، بل هو غير مقصور على ما يقرأ فإن سامع الحديث أيضاً يفهم في الحديث بعض ما لم يعنه المتحدث . وقد يختلف اثنان في فهم حديث واحد يستمعان له بعض الاختلاف ، وليس الأمر مقصوراً على السمع والمطالعة والفهم لما يسمع أو يقرأ بل إن إدراك المراثيات قد يختلف باختلاف المخلوقات إما قليلاً وإما كثيراً .

فإذا أنقصنا من شعر المعرى بعض جده معانيه بسبب ما نكون قد قرأنا في معانيه من آرائنا ، بقيت له بعد ذلك جدة كثيرة في المعاني وبقيت له الميزة التي جعلتنا نكثر من نسبة آرائنا إليه لا إلى غيره ، فإنه لابد أن يكون قد ألم ببعض جوانب هذه الآراء إن لم يكن قد ألم بجوانب أخرى منها . ثم إن جدته في اتجاه التفكير ونوع الشعور ينبغي أن يحسب أيضاً ولو كانت الفكرة مطروقة . والجدة إذا أريد بها جدة معاني التفكير في النفس والخلق والحياة ، إنما هي أمر نسبي وهي في الحقيقة يراد بها الشيوع والإذاعة أكثر من الجدة ، فإن كثيراً من المعاني التي يأتي بها التفكير في النفس والخلق والحياة قد كان معروفاً عند بعض القدماء حتى في أقدم العصور وإنما كان غير شائع ، فإذا عثرنا في قولهم بشئ من ذلك سميناه جديداً ، والحقيقة هي أن العقول البشرية يكون نضجها في التفكير في النفس والخلق والحياة أسرع من نضجها في التفكير في حقائق الكيمياء أو ما شابهها من العلوم ، ولكننا كثيراً ما نقيس من تفكير العقول في النفس والخلق والحياة على تفكيرها في العلوم فنخطئ بعض الخطأ . على

أننا نقرأ فى بعض الأحايين لبعض القدماء آراء فى العلوم الكونية وغيرها تدل على أنهم قد فكروا فى جوانب بعض الآراء الحديثة وأنهم قد رأوا لمحا منها ، فإذا كان هذا أمرهم فى الأمور العلمية البطيئة النضج فلا غرو إذا كان تفكيرهم أسرع نضجا فى أمور الحياة والنفس والخلق .

ومهما قرأنا فى شعر الشاعر المتقدم من آرائنا فلا بد أن نتساءل لماذا يختلف شاعر عن شاعر من الشعراء المتقدمين فى هذه الميزة ، ولابد أن نتساءل أيضا لماذا يختلف الشاعر الواحد فى قول عن قول فنرى فى قول ما نسميه جدة ونرى فى قول آخر ما نسميه قدما والقائل واحد فى الحالتين . وأكبر ظنى أن اختلاف الناس فى العصور المختلفة فى اللباس والعادات والمعتقدات والآراء الشائعة قد جعل أهل العصور الحديثة يبالغون بعض المبالغة فى تمييز آرائهم عن آراء القدماء . ولعل أحسن دواء لذلك أن نقرأ كتب السير جيمس فريزر فإن من يفعل ذلك يدهش لأنه يرى أن كثيراً من العادات والمعتقدات الشائعة يرجع أمرها إلى العصر الحجري ، وما قبل العصر الحجري .

وإذا قرأ قارئ لوكرتيوس الشاعر الرومانى القديم أحس كأنما يقرأ بعض آراء الفلاسفة المادية التى كانت شائعة فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر فى أوربا ، وشعر لوكرتيوس أوضح مثل لتشابه الأفكار وتردها عصرًا بعد عصر . وقد نقل ماتيو ارنولد قطعة لمؤلف قديم لا أذكر اسمه الآن يصف حواراً واحتفالاً حدث فى الإسكندرية فى العهد الإغريقى البطليموسى ، وإنما نقلها ماتيو ارنولد كى يدل على أن الناس هم الناس فى كل عصر .

وإذا قرأنا قول أبى تمام :

وقديما ما استنبطت طاعة الخالـ حق إلا من طاعة المخلوق

حكمتنا أنه لابد أن يكون قد ألم فى تفكيره بما ألم به الفلاسفة العصريون فى تتبعهم نمو فكرة الخالق فى الأذهان البشرية من قديم الزمن وإلا لم يكن للبيت معنى . وفى بعض الأحايين يكون إمام الشاعر بمذاهب التفكير الحديثة إماماً أبعد وعلى وجه التصميم دون التفصيل ومثل ذلك أن الذى يقرأ قول الشريف الرضى :

ولولا نفوس فى الأقل عزيزة لغطى جميع العالمين خمـول

يقول إنه لابد قد فكر فى بعض ما فكر فيه كارليل وغيره من المؤرخين الذين يجعلون تاريخ الرقى الإنسانى والحضارة تاريخ الأحاد الممتازين من الناس .

فإذا تذكرنا وحدة العقل البشرى وتشابهه فى الأزمنة المختلفة ، وأنه أسرع نضوجا فى المعقول الذى يأتى به التفكير فى الحياة والنفس والمخلوق منه فى الأفكار العلمية التى تحتاج إلى تجارب عملية عديدة ، وإذا تذكرنا أيضاً أن الإمام بالمعنى لا يستدعى الإمام بكل صغيرة وكبيرة منه ، وأن الشاعر يكون أكثر نصيبا من هذه الجودة إذا لم يقيد ذهنه بقيود تمنعه من التأمل فى الحياة والمخلوقة والنفس وأخلاقيها وآرائها - أقول إذا تذكرنا كل هذه الأمور حكمنا أن أبا العلاء المعرى أحق بأن يسمى حديثا من بعض المعاصرين . وأما قوله (غدوت ابن وقتى) ، فإنما يعنى أنه متأثر لما يقع حوله من الحوادث وكثيرا ما يكون هذا التأثير عكسيا أى أنه يتأثر هنا كى يظهر السخط والإتكار .

وإذا نظرنا إلى قول المعرى :

فلتفعل النفس الجميل لأنه خير وأحسن لا لأجل ثوابها

وجدنا معنى كان معروفا لدى المفكرين الإغريق قبله بقرون وعصور، وكان هؤلاء المفكرون لا يميزون بين الفضيلة والجمال ولا بين الحق والحسن، ولكنه مع ذلك لم يكن معنى ذاتعا ولا سيما فى عصره وبعد عصره ، بل المعنى الذائع هو أن امتناع المرء عن المعاصى لا معنى له إذا لم يكافأ عليه فى الآخرة . وقد يعظم هذا المعنى الأخير ويدخله الخطأ الكثير حتى يتصور الرجل العامى أنه سيكافأ بأن يباح له ما امتنع عن عمله فى هذه الحياة الدنيا ، فجده المعرى الصلة بين الفضيلة والجمال وبين الحق والحسن . وكان الناس فى عصره يرون أن الإنسان علة المخلوقات والكون ومرئياته ، فأبان المعرى عن ضالة الإنسان فى الكون كما تفعل نواحي التفكير الحديثة ، وقال المعرى بسنة تطور الأمم واضمحلالها وفنائها حتى أهل الحجاز فقال :

سيسأل قوم ما الحجاز وأهله كما قال قوم ما جديس وما طسم

وقال بتحكيم العقل كما قال فلاسفة القرن الثامن عشر والتاسع عشر ومن أتى بعدهم .

كذب الظن لا إمام سوى العفـ سل مشيراً فى صبحه والمساء

وإن كان يعترف بتصور العقل عن أمور كثيرة فى قوله :

سألتمونى فأعيتنسى إجابتكم من ادعى أنه دار فقد كذبا

ورأى السلاطين والأمراء أجراء فقال :

ظلموا الرعية واستجسزوا كيدها فعدوا مصالحها وهم أجراؤها

وقال :

إنما هذه المذاهب أسبابا ب لجلب الدنيا إلى الرؤساء

وكل هذه الأقوال وأمثالها لم تكن من الآراء الشائعة المعتقدة كما هي شائعة الآن، فلا غرابة إذا رأى القارئ في شعر المعري جدة في المعاني ، ولا غرابة إذا قيل إنه كان سابقا لعصره والحقيقة أن كل مفكر يرتفع عن مستوى جمهور عصره يكون من أجل ذلك سابقا لعصره .

على أننا إذا نظرنا إلى حالة الدولة العربية في عهده من حيث السياسة والنزعات الدينية وما وصلت إليه نهضة الدولة العباسية الفكرية ، أمكننا أن نفهم الأسباب الظاهرة التي اشتركت مع أسباب من نفس المعري ومزاجه فهباته للخروج عن اتجاه التفكير المعهود لدى الجماهير في عصره ، فإن الفوضى السياسية في أواخر الدولة العباسية كانت مصحوبة بفوضى فكرية ، فظهر القرامطة وغير القرامطة من الطوائف الهادمة المستحدثة ، وتلك الفوضى السياسية وما صاحبها من الطغيان والشر تفسر لنا أبياته التي ينزع فيها منزعا يشبه الآراء الديمقراطية الحديثة والتي تدل على ضياع الثقة بالنظام الحكومي الذي كان يعد السلطان فيه ظل الله في أرضه عندما كانت الرعية تستظل الأمن والأطمئنان بسبب قوة الخليفة. وكذلك لم يكن من عفو الأمور أن ظهر مفكر مطلق التفكير من القيود كالمعري في عهد ظهرت فيه الطوائف الدنية والفكرية الهادمة المستخدمة ، إلا أن أكثر هذه الطوائف كانت تلجأ إلى وسائل التعمية والتمويه والتأويل والأسرار أو ادعاء الأسرار لاجتذاب الجماهير لأغراض سياسية، وعملها هذا يفسر لنا الأبيات التي ينمى فيها المعري على أصحاب المذاهب مسلكتهم.

فالمعري قد ارتفع عن مستوى التفكير والشعور السائد في جماهير عصره، ولو أنه كان متأثرا بعصره صادقاً في قوله (غدوت ابن وقتي) .

٢١ - أبو العلاء المعري

ونظره إلى الحياة (١)

إذا قرأ القارئ شعر المعري أذكره نظره إلى الحياة بنظر شو بنهور وإن كان الفيلسوف الألماني قد باعد بين سلوكه في الحياة ونظره إليها واختلف قوله وفعله فهو في قوله يحث على الزهد في الحياة وفي فعله يغنم مغانم لذاتها وفي قوله يرى السعادة في رفض لذاتها وفي فعله ينافس فيها. أم المعري فقد وافق قوله فعله فزهد في قوله وزهد في فعله وهو أيضاً يرى لسعادة في رفض مطامع الحياة وجشعها والتقاتل عليها ولو أنه في عبث قوله قد أدرك مما قبله فكره اختلاف مظاهر السعادة في النفوس فقال :

تناهيت العيش النفوس بغيرة فإن كنت تستطيع الثهاب فناهب

وقال :

إن الشبيبة نار إن أردت بها أمراً فبادره إن الدهر مطفيها

وقال وقد عرف أن من الناس من يجد لذة وسعادة حتى في الإقدام على المهالك :

ومن حب دنياهم رموا في وغاهم بغيض المنايا بالنفوس الحباب

فهو في اعترافه بمظاهر السعادة التي يجدها أناس في غير الزهد كما يجد سعادته في الزهد يذكرنا بأناتول فرنس وكيف أنه صور الناس في قصة تاييس وكل ينشد السعادة فبعضهم ينشدها في رفض مطامع الحياة وبعضهم في نشدان مطالب الآخرة وبعضهم في الإقبال على الحياة فنظرة المعري أعظم وأشمل لحاجات النفوس المختلفة. وإذا كان في نظر المعري إلى الحياة إظهار لمعائب النفس ولشور الحياة فإن الإنسانية قد أفادها إظهار تلك المعائب والنفوس حتى وإن خالف الناس الشاعر أو المفكر المظهر لتلك العيوب في يأسه إذا كان يائساً من معالجتها فلا يستقيم طلب المثل العليا إلا بسخط هؤلاء الساخطين وبإنكارهم ما ينكرون ويلفت الناس إلى عيوب النفس وشور الحياة والمعري يفعل ذلك وهو يعترف بعيوب نفسه قبل أن يلوم الناس على عيوبهم فتراه يقول :

بنى الدهر مهلاً إن ذممت فعالكم فإني بنفسى لامحالة أبداً

ويقول:

ومن العجائب أن كلاً راغب فى أم دفر وهو من عيائها

(أم دفر هى الدنيا) والحقيقة أن عائب الدنيا إنما يعيبها لأنه يود لو كانت أهنا وأسعد فهو إذا يرغب عنها لشدة رغبته فيها وفى السعادة التى كان يأملها فيها ولم تستقم له.

وقد رأينا فى كثير من عصور التاريخ أن رؤية السعادة فى الزهد فى الحياة وفى رفض مطامعها والامتناع عن التقاتل عليها مبدأ يذيع فى العصور التى تعم فيها الشرور وتضطرب فيها الأحوال السياسية حتى يود الناس أن يجدوا ملجأً يحتصون به من شرور الدنيا كما كان البوذيون يفعلون فى معابدهم والمسيحيون فى أديرتهم والمسلمون فى تكاياهم وحتى يريد الناس أن يتجردوا من التأثير بحوادث الحياة فلا قرح ولا حزن كما قال المعرى :

ومن عاين الدنيا بعين من النهى فلا جزل يفضى إليه ولا كبت

إلا أن المعرى مع ذلك عَلمَ علمَ المفكر أن عظة التجارب لا تغلب على الطباع فى كثير من الأحيان فقال :

فهيم الناس كالجھول ولا يظن ففر إلا بالحسرة الحكماء

وقال :

نزول كما زال آباؤنا ويبقى الزمان على ما نرى

وقال :

العقل يسعى لنفسى فى مصالحها فما لطبع إلى الآفات جـذاب

ومن أجل ذلك كان المعرى يرى أن الفضائل والردائل طبع وأن الوعظ والزجر والوعيد لم تغير من أساس النفس الإنسانية على مر الدهور فقال :

كم وعظ الواعظون منا وقام فى الأرض أنبياء

فانصرفوا والبلاء باق ولم يسزل داؤك العياء

وقال :

ولو أن الأنام خافوا من العقـ سبى لما جارت الحياة الدماء

ولكنه مع ذلك لا يأس من إصلاح النشء بتعهد الوليد ومن العجيب أن المعري كان يتعصب لأحمد بن أبي الطيب المتنبي وشرح ديوانه وأسماء معجز أحمد على اختلاف مزاجيهما في الوسائل والقوى وإن اتفقا في النظرة إلى الحياة وإلى النفوس الإنسانية فيقول المتنبي :

ومن عرف الأيام معرفتى بها وبالناس روى رمحه غير راحم

فليس يرحوم إذا ظفروا به ولا فى الردى الجارى عليهم بآثم

انظر إلى قوله (رَوَى رَمَحَهُ غَيْرَ رَاحِمٍ) وهو لا يرى إثما فى أن يصول بمن وصفهم من الهدو فى قوله :

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستحل دم الحجاج فى الحرم

ولأنحسب أن استحسان المعري لفن المتنبي فى شعره هو وحده الذى جلب له هذا الإعجاب وإن كان فى فن المتنبي من حكمة التأمل ما يغرى المعري بل لعل من أسبابه أيضاً ما يطمح إليه صاحب المزاج الذى يضعف عن الكفاح فى الحياة وما يتزعج إليه من الرغبة فى مجاراة المكافحين فى الحياة المقاتلين عليها وهى رغبة تولد إعجاباً وهذه الرغبة وهذا الإعجاب قد يختلفان فى النفس بسبب مزاجها النافر من القتال على الحياة ولكنهما قد يظهران فى بعض الأحيان بالرغم من محاولتهما التخفى وبالرغم من لوم النفس التى يختلفان فيها للمقاتلين على الحياة وتهجينها جشعهم وأى النفوس لا تنزع إلى القتال على الحياة بالرغم من نفورها منه ومن الشرور التى تنشأ منه والتى يصفها المعري فى قوله :

إن العراق وإن الشام مذ زمن صفران ما بهما للملك سلطان

ساس الأمور شياطين مسلطة فى كل مصر من الوالين شيطان

متى يقوم إمام يستقيس لنا فتعرف العدل أجيال وغيطان

وهو فى البيت الأخير ينشد إماماً عادلاً قادراً يدفع الشر وقضى على شرور الشياطين المسلطة فهو إذاً يجيز القتال على الحياة وإن كان مزاجه ينفر من مظاهر ذاك القتال ووسائله بل هو ينظر أيضاً إلى نفوس «الشياطين المسلطة» وإلى نفوس المجرمين وإلى الوحوش فيقول :

وما ذنب الضراغم حين صيغت وصير قوتها فيما تُدْمَى

ولكن هذا لا يمنع من طلب إمام قادر يستقيد منهم بقوته ولا يمنع أن يقول المعري :

ما الظافرون يعزوا ويسارها إلا قريبا الحال من خيائها

ولعل هذا الفكر كان يبعث في نفس المعري رحمة شاملة بالرغم من لومه ذوى العز واليسار والسلطة في قوله (من ليس يحفل خمص الناس كلهم) وهذه الحالة النفسية تذكرنا بحالة الطغرائي النفسية التي جعلته يقول:

أوالى بنى الأيام نظيرة راحم وإن ظنت الجهال أنى حاسد

لهم فى تضاعيف الرجاء مخاوف ولى فى تضاريف الزمان مواعد

على أن المعري قد بلغ فى بعض قوله غاية اليأس وإن كان بعض قوله يدل على أن تحت اليأس من صلاح النفس والدنيا رغبة وأملاً فى صلاحها فإن الأمل كثيراً ما يتخذ من قوة سخط اليأس بياناً وقوة يستخدمهما فى إصلاح ما يريد إصلاحه فيظهر الأمل أملاً معكوساً محولاً إلى يأس للاستنباح بقوة سخط اليأس وبيانه وبلاغته وأثره فى النفوس وهذا هو ما يظهر به بعض المصلحين من اليأس فى قولهم إذ لولا أن سريرتهم تريد أن تستحث النفوس إلى الإصلاح بتخويف النفوس من نتائج هذا اليأس من صلاح الحياة لما لجوا وأمعنوا واستطالوا وأطالوا فى بلاغه بأسهم من غير نفاق . لكن المعري كما قلنا قد تجاوز هذه المنزلة من اليأس إلى ما هو أشد منها أى إلى اليأس من الفن وبلاغته وعلومه ولذته كما فى قوله :

أف لما نحن فيه من عنت فكلنا فى تحيّل ودلس

ما النحو ما الشعر والكلام وما مرقش والمسيب بن علس

طالست على ساهر دجنته والصبح ناء فمن لنا بفلس

وربما يدهش القارئ إذا قلت إن هذا من أشد اليأس ولا يهمنى مرقش والمسيب بن علس فلعل الرزن والقافية وحضورها فى ذهن المعري أثناء النظم هى الأسباب التى أدت إلى ذكرهما ولكن مظهر اليأس هو أن الإنسان سواء أشاعراً كان أم غير شاعر إذا دهمه الهم فى الحياة لجأ إلى الفنون كى يجد فيها لذة وعزاء وسلوى ومهرباً وقوة لاستئناف الحياة والمهرب من الحياة قد يكون قوة لاستئناف الكفاح فى الحياة إذ ليس المهرب هنا إلا تراجع طالب الراحة وتجديد القوة. فالرجل من العامة ينفس عن نفسه بما يناسبه من الفنون والشاعر يتنفس عن نفسه بشعره والمعري فى هذه الأبيات يتساءل عن قيمة النحو والشعر والكلام ويرى أنها عنت وتحيل ودلس ولكنه لم ييأس منها تماماً لأنه لو كان قد يئس منها حقيقة لما التجأ إليها كما فعل عندما نظم

هذه الأبيات نفسها إلا أن التأقف منها منزلة من منازل اليأس من الفنون . وهذا شوبنهاور الفيلسوف الألماني يقول (إن الإنسان يداوى قبح الحياة بالفنون) وهذا نيتشه الفيلسوف الألماني يقول (إنك تكره الحياة وتنكرها إذا حسبت لها مغزى خلقياً ولكنك تحبها وتقبل عليها إذا أيقنت أن لها مغزى فنياً ، وأساس تزكية هافلوك ايلس للحياة في كتابه المسمى (رقصة الحياة) هو اعتباره الحياة فناً في جميع مظاهرها . ولكن المعري لم يكن همه أن يزكى الحياة ولا أن (بتحليل) كي يحبها ويقبل عليها بأن يعد مغزاها مغزى فنيا لا خلقياً كما يريد نيتشه الفيلسوف الألماني بل لعله خشى أن يمنع اطمئنان الإنسان بسبب تحليل الفنون في تزوين الحياة من الرغبة في إصلاحها والقيام بما يحقق هذه الرغبة لأن نظرة المعري إلى الحياة كانت نظرة خلقية قبل أن تكون فنية . وللمعري أبيات يخيل للمقارئ فيها أنه فكر في بعض جوانب نظرية النشوء والارتقاء انظر إلى قوله :

جائز أن يكون آدم هذا قبله آدم على إثر آدم

ولكن لو دل هذا البيت وأمثاله على أن المعري فكر في بعض جوانب نظرية النشوء والارتقاء فإن شعر المعري لا يدل على أنه قد تملكته نشوة أمل كنشوة الأمل التي تملكث الأوربيين عند أول ظهور هذه النظرية ولكنها نشوة عقبها يأس في أوروبا فهل مرت نفس المعري بمثل هذه الأطوار؟ وهل بقيت في نفسه بقية من نشوة الأمل وهل هي التي جعلته يستعين ببلاغة اليأس والسخط لتحقيق آماله الخلقية للحياة والنفوس كما بقيت بقية كبيرة في أوروبا عقب نشوة الأمل الناشئة من نظرية النشوء والارتقاء ؟ لاشك أننا نبالغ في نسبة آراء هذه النظرية إلى المعري وأبلغ برهان على المبالغة أنها لو كان قد انفجر فجراً في أفق نفسه لأحدثت نشوة أمل ليلال صدره كنا نسمع أنغامها في شعره ونذكر معانيها واضحة فيه من غير لبس أو شك .

٢٢ - أنواع النسيب والتشبيب

فى شعر العرب (١)

ربما كان من المستحسن أن نميز فى الأسماء والمصطلحات أنواعاً من النسيب تختلف فى طريقتها وأثرها فى النفس وقد لا يوافقنى على هذا التقسيم بعض الأدباء ولكننى أراه مما يمنع الخلط فى الكلام عن الشعر والشعراء وأراه يسهل تلوق طريقة كل منهم وفهم أسلوب فنه .

فالنسيب فى الشعر أقسام فمنه ما كان مصدره العشق ومنه نسيب الوجدان من غير عشق خاص ومنه نسيب الصوفية ونسيب التمثيل أو القصص التمثيلية ومنه نسيب المحاكاة والصناعة الزخرفية ومنه النسيب المشوب بالمجون وهناك أنواع أخرى بين أنها تجمع بين طريقتين أو أكثر وأبعد أنواع النسيب هى ما بعدت فى هذا الترتيب وأقربها ما اقتربت فيه وقد يجمع الشاعر بين المتقاربين كما قد يخلط الناقد بينهما فى حكمه فقد يخلط الناقد بين نسيب العشق ونسيب الوجدان لأن الأول جزء من الثانى وهو وجدان متعلق بإنسان جميل وقد يخلط بين نسيب الوجدان ونسيب التمثيل لأن الشاعر إذا مثل العاطفة فى شخصه أو فى شخص فى قصة لابد أن يكون له من الوجدان الصافى ما يساعد بصيرته الفنية فى إتقان ذلك التمثيل ولكن نسيب الوجدان هو شعر قد لا يراد به تمثيل العاطفة وإنما قد يأتى من الشاعر عفواً كما يصدق الطائر الغريد فهو قد لا يدل على التعلق بإنسان معين وقد لا يدل على تمثيل العاطفة تمثيلاً يأتى به مزاج مؤلف القصص التمثيلية أو مزاج الفنان الممثل . وقد يخلط الناقد بين نسيب الوجدان ونسيب الصوفية لأن نسيب الصوفية يستمد من الوجدان ولكن الحقيقة أن نسيب الصوفية يجمع أخلاطاً كثيرة من الأحاسيس إما فى قصيدة واحدة وإما فى قصائد مختلفة أو شعراء مختلفين فتراه يستمد من إحساس العبادة وقد يكون جلال المعبود فيه غالباً لجمال المحبوب وقد يكون العكس وقد ترى فى بعض غزل الصوفية قدرة الفنان الممثل للعاطفة وقد تراه يستمد من الصناعة الزخرفية وقد تختلط فيه الأفكار وتهوش إذا حاول الشاعر التوفيق بين أمور الحياة والكون المتناقضة توفيقاً لم ينضجه الفكر المنظم . وقد ترى بعض المجون أو ما يشبه المجون فيه من ذكر محاسن أعضاء الجسم والوصال واللذات

واللمى والريق والخمر ويؤول كل ذلك تأويلاً قديماً والحقيقة المعروفة فى علم النفس أن الشهوة الجنسية الخفية قد تجد لها منفذاً بهذه الوسيلة عن طريق التعبد . وقد يكون الشاعر الصوفى المسكين صادقاً فى تعبده وقد يكون آخر من يفتن إلى حقيقة علم النفس هذه .

وكذلك قد يجتمع شعر المحاكاة والزخارف وشعر المجون من غير أن يخالطهما وجدان أو عبادة صوفية . وقد يخلط الناقد بين نسيب المزاج التمثيلى وبين نسيب المحاكاة والزخارف لأن الشاعر الذى ينظم النوع الثانى يدعى العاطفة أو يدعى وصفها ولكنه قد تعوزه بصيرة الفنان النافذة إلى أعماق النفوس كما يعوزه الوجدان الرقيق الصافى الذى يساعد البصيرة النفسية (السيكلوجية) فإذا أعوزه الوجدان العميق الصافى وأعوزته البصيرة السيكلوجية كان نسيبه من نوع شعر المحاكاة والزخارف لا من نوع النسيب التمثيلى الذى نراه فى القصص التمثيلية وفيما ينحدر منحاه وفنها من شعر غير القصص التمثيلية وكما نراه فى شعر الشاعر الذى أتبع له مزاج الممثل الذى يمثل العاطفة فتتملكه العاطفة ، وقت تمثيلها .

وهذه الأقسام التى ميزناها فى شعر النسيب ليست خاصة كل منها بعصر فى الجاهلية وصدر الإسلام نرى نسيب العشق فى شعر العذريين ونرى نسيب الوجدان إذا لم يتعلق الشاعر بالناسب بإنسان معين وإنما يفيض بوجدانه المتعلق بالجمال ويصدق بحنينه ويغنى بأنغامه ونرى نسيباً يقرب من نسيب الصوفية وإن كان سببه أن فرط الحب أكسب الحب شيئاً من أحاسيس العبادة بينما نرى أن العبادة فى شعر الصوفيين كانت وسيلة لإرضاء عاطفة الحب . ونرى فى ذلك العصر أيضاً شعر النسيب التمثيلى الذى يدل على بصيرة فنية بسيكلوجية تنظم شعراً يمثل نسيب العشق أو نسيب الوجدان المحض اللذين لا يهمهما الفن والصناعة ، ونرى أيضاً نسيب المحاكاة التى تفيض فيها العاطفة وقد يجمع الشاعر إلى محاكاة الصناعة وصف اللذات أو المجون فنسيب امرئ القيس نسيب المحاكاة والصناعة . وقد يرق ويلطف ويدل على وجدان وعلى تعلق بإنسان جميل من غير أن يكون هذا التعلق عشقاً كما كان عشقاً عميقاً عند قيس ابن الملوح أو قيس بن ذريح فإذا رق شعر امرئ القيس وقارب شعر العاطفة والوجدان قال فى وصف حبيبته :

تُضَيِّى الظلام بالعشاء كأنها منارة فمضى راهب مُتَبَسِّل

ولكن أكثر نسيبه نسيب صناعة ووصف للذات . وكذلك نسيب مشهورى الشعراء فى ذلك العصر أمثال الأعشى والنابغة وزهير بن أبى سلمى وكعب بن زهير وطرفة بن العبد وغيرهم

وهم الذين سنوا سنة غزل المحاكاة لشعراء الدولة الأموية ومحاكاة المحاكاة للعباسيين والمتأخرين وكان العبث اللفظي يزداد كلما بعد العهد بمن سن هذه السنة في صناعة الشعر . وقد فطن جرير في عهد الدولة الأموية إلى أن الصناعة وحدها لا تسير الشعر ولا تجعله يأخذ بجامع القلوب فصار يخلط بين تمثيل العاطفة أو محاكاتها وبين الوجدان . ومن أجل ذلك كان شعره أرق وأسير في عهده من شعر الشعراء المنافسين له .

ولكننا إذا أردنا أن نجتمع مجموعة من شعر النسب في اللغة العربية نفاخر بها اللغات الأخرى لم نلجأ إلى شعر امرئ القيس أو الأعشى أو أمثالهما ولا إلى شعر جرير والأخطل والفرزدق وأمثالهم ولا إلى شعر أبي نواس ومسلم بن الوليد وأبي تمام والبحتري وأمثالهم فإن هؤلاء امتازوا بالقول في أبواب مختلفة من الشعر ولكن بزعم في النسب قيس بن الملوح وقيس بن ذريح وأبو صخر الهذلي وعروة بن حزام وابن الدمينه وجميل بن معمر وكثير على قلة ما انتهى إلينا من أقوال هؤلاء . وهؤلاء هم الذين قالوا أحسن ما قيل في النسب في اللغة العربية وبهم نفاخر وهم الذين نرشح لينوبوا عن النسب العربي في معرض النسب بين الأمم . انظر مثلاً إلى قول قيس بن الملوح من قصيدة في التذكر والتحنى وهما موضوعان هامين من موضوعات النسب قال :

فوالله ما أنساك ما هبت الصبا	وما غرّد الفرّيد في وضح الفجر
وما لاح نجم في السماء وما بكت	مطوقة شوقاً على فلق السدر
وما طلعت شمس لدى كل شارق	وما هطلت سحب على واضح الزهر

لى أن قال :

تداويت من ليلى بليلى من الهوى	كما يتداوى شارب الخمر بالخمر
إذا ذكرت يـرتاح قلبي لذكرها	كما انتفض العصفور من بلل القطر
ألا ليتنا كنا غزالين نرتعى	رياضاً من الجوزان في بلد قفر
ألا ليتنا كنا حمام مفازة	نطير ونأوى بالعشى إلى وكر

واستمر في ذكر أمانيه المختلفة إلى أن قال :

وداع دعا إذ نحن بالخيف من منى	فهيج أطراب الفؤاد ولا يدرى
دعا باسم ليلى غيرها فكأنما	أطار بليلى طائراً كان في صدرى

فهذا الشعر ليس فيه روعة الصنعة التي في غزل أصحاب المعلقات ولكنه شعر صادق دافق من القلب يدل على أن قائله شاعر بطبعه وخياله ووجدانه ويدل على عاطفة صادقة تأخذ المألوف من مظاهر الكون والخلقة من تغريد الطيور في وضع الفجر ومن هبوب النسيم وهطول المطر ونضرة الزهر وانتفاض العصفور والحمام في الوكر والغزال في القفر كي تعبر بها عن ذكريات القلب وأمانيه وهذه الوسائل التي تستخدمها والتشبيهات هي ألوان مادة الشاعر فليس كل شعر يحتويها بشعر كما أن ليست كل صورقات ألوان بصورة . وإنما العاطفة هي التي تجعلها شعراً . وانظر إلى قول قيس بن الملوح أيضاً :

وأحبس عنك النفس والنفس صبية بذكراك والمسعى إليك قريب
مخافة أن تسعى الوشاة بظنة وأحرسكم أن يسترب مريب
سأستعطف الأيام فيك لعلها بيوم سرور من هواك تؤوب

وقوله :

فأصبحت من ليلى الغداة كناظر مع الصبح في أعقاب نجم مُفرب

وقوله :

الله يعلم أن النفس هالكة بالباس منك ولكنى أمنيئها
وساعة منك ألهوها وإن قصرت أشهى لدى من الدنيا وما فيها

وقوله :

وكننت كذباًح العصافير دائياً وعيناه من وجسدٍ عليهن تهمل
فلا تنظري ليلى إلى العين وانظري إلى الكف ماذا بالعصافير تفعل

وهو لا يعنى كل ذباح للعصافير وإنما هو فرض كي يمثل معنى فعل الحب به وانظر إلى قوله في قصيدته اليبائية الكبيرة :

وقد يجمع الله الشتيتين بعد ما يظنان كسل الظن أن لا تلاقيسا
وخبُرتماني أن تيماء مبنزل لليلى إذا ما الصيف ألقى المراسيا
فهذى شهور الصيف عنا تصرمت فما للنوى ترمى بليلى المراميا
ومسا طلع النجم الذى يهتدي به ولا الصبح إلا هيَّجاً ذكرها ليا
أعد الليالى ليلة بعد ليلة وقد عشت دهرأ لا أعد الليالى

يقولون ليلى بالعراق مريضة
ولسم أر مثلينا خليلي جناية
خليلان لا ترجو لقاء ولا ترى
وإنسى لأستحييك أن تعرض المنى
وأنت التي إن شئت أشقيت عيشتي
وإنسى لينسيني لقاءك كلما
إذا سرت في أرض خلاء وجدتنى
يميناً إذا كانت يميناً وإن تكن
وأنى لأستغشى وما بى نعسة
هى السحر لولا أن للسحر رقية
فياليتنى كنت الطبيب مداوياً
أشد على رغم العداة تصافياً
خليلين إلا يرجوان التلاقياً
بوصلك أو أن تعرضى فى الدجى ليا
وأنت التي إن شئت أنعمت باليا
لقيتك يوماً أن أبشك ما بها
أصانع رجلى أن ليلى حداثيا
شمالاً ينازعنى الهوى عن شماليا
لعل خيالاً منك يلقى خياليا
وأنى لا ألقى لها الدهر راقياً

لا أظن أن شاعراً يستطيع أن يميز الشعر الصادق بقول كما قال بعض الكتاب أن شعر
قيس بن الملوح من وضع الرواة وأن قيساً هذا لم يكن له وجود . نحن نفهم هذا القول لو كان
الشعر فاتراً أو بارداً أو كاذباً أو مصطنعاً (١) يستطيع أن يقوله كل إنسان ، أما أن يصنع
الرواة شعراً من أصدق وأحسن ما قيل فى اللغة العربية من النسيب فهذا رأى لا نستطيع
الأخذ به . وأما أن بعض أبيات الشاعر نسبت إلى أكثر من شاعر فهذا لا يدل على شيء وله
مثيل فى كل عصر . وهذا شعر أبى تمام فيه أبيات وقصائد منسوبة إلى شعراء آخرين وهذا
لا يدل على أن أبا تمام لم ينظم شعراً ولم يكن له وجود وظاهرة إنكار الوجود هذه ظاهرة مألوفة
فقد أنكروا وجود هوميروس وشكسبير . وهناك مؤلف مؤرخ ينكر وجود سيدنا عيسى عليه
السلام وقد اختلف الرواة فى نسبة شعر كثير فاختلفوا فى نسبة قصيدة (صاح فى العاشقين
يا لكانه) وفيها البيت المشهور :

خطرات النسيم تجرح خديـه
به ولمس الحسريـر يدمسى بنائـه

وهى ليست من شعر المتقدمين حتى يقال إن قدم الزمن هو الذى أنسى الرواة ولم يقل أحد
أنها من صنع الرواة أنفسهم واختلفوا فى نسبة شعر كثير للمتأخرين كقصيدة :

(١) مثل ذلك إذا قارن القارئ المتنوق معلقة عنترة العيسى (وهى لاشك من شعر شاعر) وبعض
القصائد الفاترة الركيكة التى تنسب إلى عنترة سهل عليه تمييز الشعر الصادق والشعر الموضوع .

يا مطالبًا ليس لى فى غيره أرب إليك آل التقصى وانتهى الطلب

فنسبت لابن الحيمى ونسبت لنجم الدين بن إسرائيل . واختلاف الرواة فى نسبه بعض شعر
قيس بن الملوح لا يدل على شئ فإن شعره يدل على شخصية حية وعلى شاعر من الطراز
الأول . ومثله فى تلك الخصائص وفى تلك المنزلة قيس بن ذريح انظر إلى قوله :

لقد كان فيها للأمانة موضع وللنفس مرتاد وللعين منظر
وللحنائم العطشان رى بحسنها وللمرح المختال خمر ومسكر
كأنى لها أرجوحة بين أحبل إذا ذكره منها على القلب تخطر

وقوله :

أحبك أصنافًا من الحب لم أجد لها مثلاً فى سائر الناس بوصف
فمنهن حب للحبيب ورحمة لعرفتى منها بما يتكلف
وحب بدا بالجسم واللون ظاهر وحب لدى نفسى من النفس أطف

إلى قوله :

تعلق حبي روحها قبل خلقنا ومن بعد ما كنا نطافًا وفى المهد
فزاد كما زدنا فأصبح ناميًا وليس إذا متنا بمنصرم العهد
ولكنه يساق على كل حادث وزاثرنا فى وحشة الموت واللحد

وقوله :

إذا طلعت شمس النهار فسلمى فآية تسليمى عليك طلوعها

وقوله :

بلىنى أنادى عن أول غشية ويشنى بها الداعى لها فأفئق
صباحى إذا ما ذرت الشمس ذكرها ولى ذكرها عند المساء غبور

وقد كان من رأينا دائماً أن شعر العاطفة والوجدان يتقارب فى جميع اللغات وإنما الذى
يتباعد فى اللغات شعر الصنعة والمحاكاة بالصنعة لأن هذا أساسه العرف والاصطلاح والذوق
الإقليمى . أما شعر العاطفة والوجدان فهو واحد فى كل إقليم وإنك لو نقلت الشعر الذى
استشهدنا به من شعر قيس بن الملوح أو قيس بن ذريح إلى اللغات لأوربية لطرب له القراء
كما يطرب قراء العربية إذا نقل إليها شعر العاطفة والوجدان من اللغات الأوربية نقلاً صحيحاً
لا سخيلاً . ويقارب قيس بن الملوح وقيس بن ذريح فى طريقتهما يزيد بن الطثيرة الذى يقول :

برغمى أطيل الصمد عنها إذا نأت
أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى
ويقول :

أحبك أطراف النهار بشاشة
أحبك حب اليأس لو ينفع الهوى
ويقول :

بنفسى من لو مرّ بردُ بناته
ومن هابنى فى كل شئ وهبته
ويقول :

أليس قليلاً نظرة إن نظرتها
فبا خلة النفس التى ليس فوقها
ويا من كتمنا حبه لم يُطع به
أما من مقام أشتكى غربة النوى
وكنت إذا ما جئت جئت بحاجة
إليك وكلاً ليس منك قليل
لنا من أخلاء الصفاء خليل
عدو ولم يؤمن عليه دخیل
وخوف العدا فيه إليه سهيل
فأقنيت علالتى فكيف أقول

ومثل هذا الشعر فى صدق التعبير عن الأحاسيس النفسية شعر أبى صخر الهذلى الذى
يقول :

لقد كنت آتيها وفى النفس هجرها
فما هو إلا أن أراها فجاءة
وأنسى الذى قد كنت فيه هجرتها
وقد تركتني أحسد الوحش أن أرى
تكاد يسدى تندى إذا ما لمستهما
ورانى لتعرونى لذكراك هزة
بتأتا لأخرى الدهر ما طلع الفجر
فأبغت لا عسرف لى ولا نكر
كما قد تُنسئ لبّ شاربها الخمر
ألفين منها لا يروعهما الذعر
وينبت فى أطرافها الورق النضر
كما انتفض العفور بلكه الفطر

فهذا الشاعر لا ينظر فى دواوين الشعراء كى يرى ماذا يقال فى وصف هذه العاطفة وكيف
يقال وإنما ينظر فى نفسه وأحاسيسها وهواجسها وما يعتري نفسه وجسمه من أثر العاطفة .
ومن شعراء هذه الطريقة ابن الدمينه فإن شعره يرق ويصفو ويكتسب من وجدانه وعاطفته
أنغاماً عذبة انظر إلى قوله :

أرى الناس يرجسون الربيع وإنما
أرى الناس يخشون الحنين وإنما
لئن ساءتني أن نلتني بمساءة
ربيعي الذي أرجو نوال وصالك
سنتي التي أخشى صروف احتمالك
لقد سررتني أني خطرت ببالك

والى قوله :

وقد زعموا أن المحب إذا نأى
بكل تدارينا فلم يشف ما بنا
على أن قسرب الدار ليس بنافع
يمل وأن النأى يشفى من الوجد
على أن قرب الدار خير من البعد
إذا كان من تهوؤه ليس بذي ود

وقوله :

وانى لأستحيبك حتى كأنما
بنفسي وأهلى من إذا عرضوا له
ولم يعتذر عذر البرئ ولم تزل
على بظهر الغيب منك رقيب
ببعض الأذى لم يذر كيف يجيب
به سكتة حتى يقال مريب

وهذه الأبيات الأخيرة إنما هي مثل من شواهد الخبرة بعلم النفس التطبيقى التى اكتسبها هؤلاء الشعراء لكثرة تأملهم فى صفات النفوس وهذه الخبرة بالنفس تقل فى شعر المتأخرين أو تنعدم إلا ما كان مأخوذاً بالمحاكاة عن قبلهم : ومن شعراء هذه الطريقة أيضاً جميل بن معمر انظر إلى قوله :

لقد قلت فى حبي لكم وصيابتى
سبب لم يكن قولى رضالك فعلمى
فما غاب عن عيني خيالك لحظة
محاسن شعر ذكرهن يطول
نسيم الصبا يابثن كيف أقول
ولا زال عنها والخيال يزول

وقوله :

وما شجاني أنها يوم أعرضت
فلما أعادت من بعيد بنظرة
تولت وماء العين فى الجفن حائر
إلى التفاتاً أسلمتسه المحاجر

على مثل هذه المشاهد النفسية وأثرها كان يعتمد هؤلاء الشعراء لا على المبالغة والتشبيهات البعيدة فكان شعرهم على سهولة وبساطة مشاهداتهم أوقع فى النفس من المبالغة والتشبيهات البعيدة وانظر إلى تصيب كيف يستخدم ما يشاهد من حياة الطيور لتصوير عاطفته فى قوله :

كأن القلب ليلة قيل يُغذى
قطاة غرّها شرك فباتت
بلى العامرية أو يراح
تجاذبه وقد علق الجناح

لها فرخان قد تركا بوكر فعشهما تُصَفِّقُ الرياح
إذا سمعا هبوب الريح نصا وقد أودى بها القدر المتاح
وللشاعر كثير أشعار عذبة تدل على وجدان ولو أنه كان يتهم بادعاء العاطفة .
انظر إلى قوله :

وأدنيتنى حتى إذا ما ملكتنى بقول يُحلُّ العُصَمَ سهل الأباطح
تنايت عني حين ما لي حيلة وغادرت ما غادرت بين الجوانح
وقوله فى ثانيته الكبيرة :

وقلت لها يا عَزُّ كل مصيبة إذا وطئت يوما لها النفس ذلت
وإنى وتهيامي بعزة بعدما تخللت عما بيننا وتخللت
لكالمترجى ظل الغمامة كلما تَبَوَّأ منها للمقيل اضمحلت
وقوله :

كريم يمت السر حتى كأنه إذا استخبروه عن حديثك جاهله
ويرتاح للمعروف فى طلب العلاء لِتُحَمَدَ يوما عند ليلى شمائله

وفى هذه الأبيات أيضا خبرة بصفات النفوس ودراسة سيكولوجية وتصوير لأثر الحب فى النفوس العالية . ومن الشعر العذب الشهى قول أبى بكر الزهرى :

ولما نزلنا منزلاً طله الندى أنيقاً وستاناً من النور حاليا
أجـدُّ لنا طبيبُ المكان وحسنه منى فتسمنينا فكنت الأمانيا
وقول الحارثى :

منى إن تكن حقاً تكن أحسن المنى وإلا فقد عشنا بها زمناً رغدا

وكأنما كانت هذه الطريقة عاصفة اشترك فى رثارتها المرقش وعروة بن حزام وابن الدمينه وأبو صخر الهذلى وجميل بن معمر وعمر بن أبى ربيعة (وإن كان شعره أقرب إلى اللهو والعبث) وكثير وقيس بن الملوح وقيس بن ذريح والعرجى والمخزومى وأبو دهبلى وابن الرقيات وابن الطثرية وابن ميادة والأحوص ونصيب والمخيل وذو الرمة والأبيرد وأبو حية التميمى وتوبة ابن الحمير والنهدى ومزاحم ووضاح اليمن وعروة بن أذينة وغيرهم وامتدت إلى عصر الحسين ابن مطير والعباس بن الأحنف . ولم ينعدم شعر العاطفة والوجدان بعد ذلك فإننا نرى شعراء

الصنعة أمثال بشار وأبى نواس ومسلم وأبى تمام لهم بجانب مجونتهم نسيب وجداني رقيق ولكنه قليل . وقد كان البحتري ذا مزاج قنّى يشبه مزاج الممثل الذي يملكه ما يمثل من الأحاسيس . ومن أجل ذلك كان له نسيب رقيق عذب . ولابن الرومي نسيب وجداني صادق ولكنه قليل (١) . وكان الشريف الرضى ذا وجدان فجاء نسيبه وجداني النزعة وحاكاه مهيار ثم اعتمد الشعراء بعد ذلك على المغالاة والتشبيهات البعيدة أو الزخارف . وكان أكثر شعرهم محاكاة لعانى من سبقهم ولم يخلق شعراء الصوقية مجموعة شعر ثمين عالٍ كما كنا ننتظر ولكنى أظن أن محبى الدين بن العري والسهروردي وابن إسرائيل وابن الفارض لو تقدم بهم الزمن أو لو تأثروا بوجدان الشريف الرضى وأسلوبه لكان شعرهم أرقى منزلة فإن فيهم طبع الشعراء ومزاجهم ولكن تعوزهم قوة الأداء وفخامة الأسلوب وحسن الاختيار . فقصيدة السهروردي المشهورة التى مطلعها :

أبدأ فحنّ إليكم الأرواح ووصالكم ريحانها والراح

تبدأ مبدأ رائعاً ولكنها تفتقر متأثرة بطريقة المتأخرين من ضعف فى الأداء .

وقد اشتهر بها ، الدين زهير شهرة لا تناسب قيمة شعره فماله قوة فى الأداء ولا فخامة ولا روعة فى الأسلوب ولا وجدان عميق وأنغامه لفظية رخيصة مثل قوله :

أنا بالعـِـاذل ألهمـُ أنا بالعـِـاذل ألعب

وأحسن قصيدة فى النسيب قالها شعراء الأندلس والمغرب هى قصيدة ابن زيدون النونية التى يقول فى مطلعها :

أضحى التنائى بديلاً من تدانينا وناب عن طيب لقياننا تجافينا

وهى تجمع بين علو الصنعة وصفاء الوجدان فليس لمحمد بن هانى الأندلسى فى النسيب ولا لابن حمديس ولا لابن خفاجة قصيدة تدانيتها فى هذه الصفات . وهذه القصيدة تذكرنى بما يحكى عن بعض الطيور التى إذا حان حينها جمعت كل قوى روحها وأطلقتها فى تغريده قبل موتها . ونسيب ابن زيدون على العموم أكثر وجداناً من نسيب الآخرين وإن كان قد بزه الآخرون

(١) من نسيب ابن الرومي الرائع قوله :

أعانقها والنفس بعد مشوقة إليها وهل بعد العناق تدانى

كأن فزادى ليس يشفى غليله سوى أن يرى الروحين يستنقان

فى صفات أخرى فبرز ابن خفاجة وابن حمديس فى الأوصاف وربما كان قد بزه ابن هانىء الأندلسى فى الأسلوب الخطابى وإن لم يكن تحت أسلوب ابن هانىء الأندلسى الخطابى دائماً معنى أو مزية . على أن لمحمد بن هانىء قصائد رقيقة يتغنى بها مثل قصيدة (فتكات طرفك ألىم سيوف أبىك) وقصيدة (قمن فى مآتم على العشاق) .

أما نسيب ابن سهل فهو نسيب رقيق يتغنى ببعضه ولكنه ليس فيه روح العباقرة وثورتهم الشعرية ولا يحاول قائله الأناقة فى الأداء التى تزيد النسيب عذوبة وبعض الأناقة يفعل ذلك كما أن بعضها يشغل الشعر . وما يُتغنى به قوله (سل فى الظلام أخاك البدر عن سهرى) .

ومن التقسيم الذى فصلناه يتضح أنه ليس من المحتوم أن بطالب الشاعر بمشوق كى يجيد النسيب ولكنه مطالب بوجدان يصدق ويعبر عن نواحي تلك العاطفة ويمزاج فنى سليم وبصيرة سيكولوجية تمكنه من فهم أحاسيس النفس ومن تصويرها .

٢٣ - الرثاء فى شعر العرب(*)

قد تقلبت على الشعر العربى عصور كثيرة لكل منها طريقة فى صنعة الشعر والأداء فيه ، وقد ظهر فى شعر المتأخرين أثر العبث والمغالطات اللفظية والمعنوية ، وإن كان الوجدان لم ينعدم كل الانعدام ، ومن الصعب أن نقصر صفة من صفات الشعر على عصر من العصور ، ولكننا نستطيع أن نقول على وجه الإجمال ، وإن شذت قصائد عديدة فى التفصيل والتطبيق ، إن رثاء المتقدمين كان أكثر نصيباً من الوجدان ، وصدق العاطفة والبصيرة النفسية ، وإن شعر كبار شعراء الدولة العباسية فى الرثاء كان أكثر رثاءً تكسب إلا ما كان فى رثاء قريب أو حبيب ، وقد كان رثاء التكسب فى شعر بعضهم أعظم منزلة فى الشعر من رثاء أقربائهم ، وكان عكس ذلك يصدق فى شعر آخرين ، وكانت تغلب على شعرهم جودة الصناعة والتأنق فيها ، وفى استنباط الأخيلة والتشبيهات ، وبعضهم كانت تغلب عليه نزعة التفكير ؛ ثم بعد هذا العصر ضعف الأداء وضعفت القدرة على الإتيان بالصناعة الفخمة الصادقة ، وكثرت المبالغة والمغالطة اللفظية والمعنوية . وقد يلتبس على القارئ نوع مبالغة العاطفة القوية ، ونوع مبالغة الصنعة الكاذبة التى تنم عن فتور العاطفة ونضوب العبقرية . والحقيقة هى أن المبالغة سواء أكانت فى الرثاء أو فى الفزل أو فى أى باب آخر من أبواب الشعر هى فى شعر العبقرى الصادق الصنعة ، وفى شعر الشاعر الذى تُسبِرُهُ العاطفة المألكة له من أبداع وأروع وأصدق ما يقال ؛ ولكن هذا الشاعر حتى فى تلك المنزلة الجليلة يكون كمن يطل على الشفير الهارى ، وخطوة واحدة قد تسقطه إلى حضيض الشعر ، حيث مغالاة الشعور الفاتر الذى يدعى صاحبه عظم العاطفة وصدق الوجدان ، وحيث مغالاة الشويعر الذى لا يفرق بين مبالغة العبقرى الصادق الصنعة ، ومبالغة المحاكاة والاحتذاء من غير فطنة وتمييز . والقارئ معذور فيما قد يقع فيه من الخطأ ، فالقراء قلما يفرقون بين نوعى المبالغة ، لولوع بعض كبار الشعراء بالمبالغة الكاذبة ، وقد يرى القارئ النوعين فى شعر شاعر واحد .

وسنستعرض الرثاء فى شعر العرب فى هذه المقالة ، وما قد يدخل فى بابيه من جيد القول .

(*) مجلة الثقافة : ٩ مايو ١٩٣٩ ، ص ١٦٠ مايو ١٩٣٩ ص ٢٩ وما يلى ، ٢٣ مايو ١٩٣٩ .

وأول ما نذكر في هذا الباب قول امرئ القيس ، وقد مر بقبور عربية في بلاد الروم . فقال
أبياته المشهورة التي يقول فيها :

أجارتنا إنا غريبان ههنا وكل غريب للغريب نسيب

ولعل هذه الأبيات من أصدق ما قاله امرؤ القيس وجداناً وعاطفة بسبب ما لقيه من خطب
في بلاد الروم ، وقد ذهب إليها يطلب أن يعان على قتلة أبيه ، فلم ظفر بمعونة ، وهي تختلف
في أثرها في النفس عن شعر لهو وعيشه . ومن الشعر المؤثر قصيدة عدى بن زيد التي يقول
في مطلعها :

أيها الشامت المعير بالدهر — أنت المبرأ الموفور

وفيها يشير إلى قصة صاحب قصر الخورنق . ومن بديع وصف أثر الموت في الأحياء قوله :

ثم أضحوا كأنهم ورق ج — ف فالت به الصبا والذبور

وله قصيدة أخرى في قصة الزباء وجذيمة . ولو تفرغ عدى بن زيد للشعر القصصي لختلف
ذخراً ثميناً . ومن مشهور الرثاء رثاء مهلهل لأخيه كليب الذي هاجت بمقتله حرب البسوس ،
ورثاء جلييلة بنت مرة أخت جساس قاتل كليب لزوجها كليب ، وقد كانت جلييلة بين شقى الرجا
أو بين المطرقة والسندان ، ولعل مصيبتها في أسرة القاتل والمقتول أخيها وزوجها أثرتا في
قولها . وقد رأيت من يقول إن أشعارها منحولة لأنها ليست فيها فخامة الشعر الجاهلي كشعر
المعلقات . وقد نسي هؤلاء أنها لم تكن تقول الشعر صناعة ، وأن الشعر الجاهلي ليس كله
في مستوى واحد ، فبعضه - حتى في شعر الشعراء المعروفين الذين لم يقتل أحد بأن شعرهم
منحول - يفتر في القول وتقل فيه الصنعة ، وبعض الشعر العباسي الذي تعتمد فيه الشاعر
الصنعة والفخامة أو الغربة في الأسلوب ، قد يكون أشبه بالشعر الجاهلي من بعض الشعر
الجاهلي أو الشعر الأموي ؛ ولكن هذا ليس حجة لمن يقول إن الشعر الفاتر أو القليل الفخامة
في الشعر الجاهلي أو الأموي منحول موضوع . وما يستجد في الرثاء أيضاً قصيدة عبد
يغوث في رثاء نفسه ، ولعل تحسر الشاعر على ضياع حياته مع إظهار البسالة مما يجعل مثل
هذا الشعر مأثوراً . ومثلها قصيدة مالك بن الرب في رثاء نفسه أيضاً ، وفي قصيدة عبد
يغوث يتلطف وهو يموت على سماع نشيد الرعاء في قوله :

أحقاً عباد الله أن لست سابعاً — نشيد الرعاء المعزين المتاليا

ومثل هذا التشوق الشجي تشوق مالك بن الرب في قصيدته إلى رؤية سهيل النجوم . إذ
يقول :

« يقر بعينى أن سهيل بدا ليا »

وتستجاد فى الرثاء أبيات عبدة بن الضبيب التى يقول فيها :

وما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

ومن الرثاء الجيد قصيدة دريد بن العمة يرثى بها أخاه ، وفى هذه القصيدة من واجب

مؤازرة المرء قومه ومناصرتة رباهم ، وإن كانوا على غير هدي ، ما يقول فيه الشاعر :

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشداً إلا ضحى الغد

فلما عصرونى كنت منهم وقد أرى عوايتهم أنى بهم غير مهتدي

وهل أنا إلا من غزيرة إن غوت غويت ، وإن ترشد غزيرة أرشد

ومن ذكر محاسن الميت فيها قوله :

قليلٌ تشكّيه المصيبات ذاكر من اليوم أعقاب الأحاديث فى غد

إذا هبط الأرض الفضاء تزينت لرؤيته كالمأتم المتبدد

ومما يستجاد فى الرثاء قصيدة قس بن ساعدة يرثى نديمه وفيها يقول :

خليلىُّ هُبَا طالمَا قد رقدنا أجدكما لا تقضيان كراكما

وهى من الشعر السهل الكثير العاطفة . ولتأبط شراً قصيدة فى رثاء خاله ونسبت لابن

أخته أيضاً ، وهى التى يقول فيها :

إن بالشعب الذى دون سلع لقتيلاً دمه ما يُطلُّ

وقد قيل إنها موضوعة منحولة واتهموا خلفاً الأحمر أو حماداً الرواية بوضعها ، وفى

القصيدة بيت فيه شئ من قبيل الجناس والتورية ، إذا لم يكن أتى عفواً فهو دليل قاطع على

أنها منحولة لأنه بعيد عن ذوق المتقدمين ، وهو قول الشاعر ويعنى بالخل الهزيل :

فاسقنيها يا سواد بن عمرو إن جسمى بعد خالى لخلُّ

فذكر الخمر والخل والخال والخل بعيد عن ذوق المتقدمين إن لم يكن قد أتى عفواً ، ولم يفكر

الشاعر إلا فى معنى واحد لكلمة خل ، وعلى كل حال فإن رواية كبيراً كخلف لأحمر أرفع

ذوقاً من أن يعتمد هذه الألاعيب فى التورية أو الجناس ، ومن المستحيل أن يعتمدها تأبط

شراً .

ومن جيد الرثاء قصائد الخنساء في أخيها صخر إلا أنها أكثرت وكررت ، فصار في قولها
لجاجة المآثم ، ومن مشهور قولها :

قد كنتَ تحمل قلباً غير مُؤْتَشِبٍ مُركباً في نصاب غير خوارٍ
وقولها :

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يكون مثل أخى ، ولكن أسألى النفس عنه بالتأسى
ومن الرثاء الجيد قول مُتَمِّم بن نويرة يرثي أخاه مالكا من قصيدة رائعة :

وكنّا كندمانى جـذيمة حـقبة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كـأنى ومالكا لظول اجتماع لم نبت ليلة معا
وقصيدة أبى ذؤيب الهذلى في رثاء أبنائه من أبدع ما قال المتقدمون في الرثاء ، وهذه
قصيدة جامعة في فنها ، ومثال من الفن العالى ، وفيها يقول :

وتجلى لى للشامتين أريهم أنى لرب الدهر لا أتضع
ويقول :

والنفس راغبة إذا رغبت لها وإذا ثرد إلى قليب تقنع
ومن حكم الرثاء قصيدة لبيد في رثاء أخيه التى مطلعها : « بلينا وما تبلى النجوم
الطوال » . وفيها يقول :

وما المسرء إلا كالضرام وضوئه يحور رمادا بعد إذ هو ساطع
ومن مآثور الرثاء في شعر المتقدمين قصيدة علقمة ذى جفن التى مطلعها :
« لكل جنب (اجتنى) مضطجع »

واجتنى اسم المرأة التى يخاطبها ، وفي هذه القصيدة شئ من جلال الموت وروعة زوال
العظمة . وقد اشتهر كثير من نساء العرب بالمراثى ، وقد ذكرنا مراثى الخنساء ، ومنهن أيضاً
ليلى الأخيلية التى رثت توبة بن الحمير الشاعر بقولها من قصيدة :
لعمرك ما بالموت عار على الفتى إذا لم تُصبه في الحياة المعابر (١)

(١) هذه القصيدة في كتاب « الشعر والشعراء » منسوبة إلى ليلى الأخيلية ، ولكنها في « الأغاني »
منسوبة للرقاشى الشاعر . والمبرد في الكامل نسبها ليلى كما ينسبها ابن قتيبة صاحب « الشعر والشعراء » .

ولها بيتان فى اجتماع الرجولة والتواضع والحياء والبسالة وهما قولها :
 ومُخَرَّقٌ عَنْهُ الْقَمِيصُ تَخَالَهُ بين البيوت من الحياء سقيما
 حتى إذا رُقِعَ اللِّسَاءُ رَأَيْتَهُ تحت اللواء على الخميس زعيما
 (الخميس الجيش) ومن نساء العرب اللواتى اشتهرن بالرياء أخت الوليد بن طريف التمر
 رثته بقصيدة من أعيان الشعر ، وهى التى تقول فيها :
 أيا شجر الخابور مالك مورقًا كأنك لم تخزن على ابن طريف
 وتقول :

فقدناك فقدان الربيع وليستنا فدينناك من فتياننا بالوف
 وقولها إن الشجر مورق كأنه لم يحزن أصدق فى فن الشعر وأوقع فى النفس من قول من
 يقول إن الشجر صوحت أوراقه حزناً على المرنى . ومن جيد الرثاء فى أشعار المتقدمين قول
 مضاض بن عمرو من قصيدة :

كان لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
 وشعر أبى زبيد الطائى فى الرثاء وفيه نغمة من شعر عدى بن زيد . كما أن رثاء ابن
 مناذر فيه نغمة من شعر أبى زبيد الطائى ، ويعجبني لأبى زبيد قوله :

من يَحْنُكَ الصَّفَاءُ أو يَتَبَدَّل أو يزل مثل ما تزول الظلال
 فاعلمن أننى أخوك أخو العهد د حباتي حتى تزول الجبال
 ولك النصير باللسان وبالكف إذا كان لليدين مَصَّالُ
 ومن ماثور الرثاء قصيدة زياد الأعجم فى المغيرة بن المهلب وفيها يقول :

إن السماحة والمسروعة ضُمْنَا قبرا عَرَوْ على الطريق الواضح
 ومراثى الشمردل والأبيرد مشهورة . وقد أورد المفضل الضبى فى المفضليات قصيدة
 لأعرابية فى رثاء ابن لها التى تقول فيها : « يا عمرو يا أسفى على عمرو » . وهى رثاء
 العاطفة لا رثاء الذكاء والفكر . ولأعشى باهلة مرثيته المشهورة التى يقول فيها : « إني
 أتتني لسان لا أسرُّ بها » وفيها يقول فى مدح المرنى :

مَنْ لَيْسَ فِى خَيْرِهِ مَنْ يُكْدَرُ على الصديق ولا فى صفوع كَدَرُ
 وليس فيه إذا استنظرته عجل وليس فيه إذا ياسرته عسر
 مَرُوى حروب شهابٌ يستضاء به كما أضاء سواد الطخية القمرُ

ومن جيد التآبين أيضاً قول محمد بن كعب الغنوى فى رثاء أخيه وهى قصيدة من أعيان الشعر وفيها يقول : فتى ما يبالى أن يكون بجسمه إذا نال خلأت الكرام شحوب إذا ما تراءى الرجال تحفظوا فما تنطق العوراء وهو قريب حلیم إذا ما الحلم زين أهله مع الحلم فى عين العدو مهيب وتستجاد قصيدة شبل بن معبد البجلي التى يقول فيها :

فقد أصبحوا لا دارهم منك غربة بعيد ولا هم فى الحياة قريب
ولسنا بأحياء منهم غير أننا إلى أجل ندعى له فتجيب
ومن مآثور الرثاء قول كثير الشاعر فى رثاء صديقه الأسدى وفيه البيت المشهور :
فلا تبعد فكل فتى سياتى عليه الموت بطسرق أو يغادى
وقد قيل إن أبا زكار الأعمى المغنى كان يغنى به فى مجلس جعفر الهرمكى عندما أتى خادم الرشيد للفتك به ، وهذا من غريب الصدف ، كما ذكروا أيضاً عن بيت حرث بن جبلة العذرى ، فقد وجد مصداقاً فى الحياة أو وضعت له قصة مصداق والبيت هو :

يبكى الغريب عليه ليس يعرفه وذو قرابته فى الحى مسرور
ومن الصدف التى تدعو إلى التشاؤم أن أرطاة بن شهبة ، وكان يكنى بأبى الوليد ، أنشد عبد الملك بن مروان ، وكان أيضاً يكنى بأبى الوليد قوله :

رأيت المرء تأكله الليالى كأكل الأرض ساقطة الحديد
ومما تبقى المنية حين تأتى على نفس ابن آدم من مزيد
واعلم أنها ستكفر حتى تؤقى نذرها (بأبى الوليد)
ومن مآثور الرثاء قصيدة جرير فى رثاء زوجه نوار ، وأحسن ما فيها وصف محاسن شمائل النساء .

وقد استجاد المبرد فى كتابه (الكامل) مراثية ابراهيم بن المهدي فى ابنه ، وهى من شعر العاطفة السهل المأخذ الخالى من جلال الصنعة . ومن المآثور رثاء مروان بن أبى حفصة فى معن بن زائدة وهو قوله : « مضى لسبيله معن وأبقى » إلخ .

وأحسن منه فى رثاء معن هذا قول الحسين بن مطير من قصيدة :
فيا قبر كيف وارىت جسوده وقد كان منه البر والبحر مترعاً
فتى عيش فى معروفه بعد موته كما كان بعد السيل مجراء مرتعاً
(ويروى مرعاً بدلاً من مرتعاً)

ومراثى أبى العتاهية من مآثر الرثاء ، إذ أن التفكير فى الموت كان متمكناً من نفسه
تمكناً كبيراً ، ويروى له قوله :

وكسنت فى حياتك لى عظام وأنت اليوم أوعظ منك حياً
وقوله :

قد لعمرى حكيت لى غصص الموت وحركتني لها وسكنتها
ولمحمد بن مناذر مرثيته الشهيرة فى عيد المجيد الثقفى ، وقد قالها على وزن وقاف
وروى قصيدة فى الرثاء لأبى زبيد الطائى الذى تقدم ذكره . وفى شعر ابن مناذر شئ من نغم
شعر أبى زبيد الطائى وعدى بن زيد ، وتراه فى هذه القصيدة ينحو منحى عدى بن زيد فى
الإشارة إلى قصص الملوك والدول الزائلة ، وفى القصيدة يقول :

يقدح الدهر فى شماريخ وضوى ويعط الصخر من هبور
ولقد ترك الحوادث والأيام وهيا فى الصخرة الصيخود
وفيها يقول :

وأرانا كالزراع يحصد الدهر ر فمن بين قائم وحصيد
وكأنا للموت ركب مخبور ن سراعاً لمنهل كصورود
ومن بديع وصفه للمرثى قوله :

حين قتت آدابه وتردى برداء من الشبواب جديد
وسقاء ماء الشببية فاهتزاز الغصن الندى الأملود
وسمعت نحره العيون وما كان عليه لزائد من مزيد
وكأنى أدعوه وهو قريب حين أدعوه من مكان بعيد
فلئن صار لا يجيب لقصد كان ن سميعاً هشا إذا هو نودى (١)

ومسلم بن الوليد من الشعراء الذين أجادوا الرثاء بقدر إجادتهم المديح . ومن رثائه المأثور
قصيدته فى يزيد بن يزيد التى يقول فيها :

(١) كتاب الكامل للمبرد من الكتب القليلة التى جاءت بأكثر هذه القصيدة . وابن مناذر هذا من
الشعراء الذين نأسف لضياح أكثر شعرهم ، كما نأسف لضياح أكثر شعر دعبيل الخزاعى وأشجع السلمى ،
فمن القليل المخلف نستطيع أن نقول إنهم كانوا من الطراز الأول .

أَحَقُّنَا أَنَّهُ أودى يَزِيدُ تَأْمَلْ أَيُّهَا النَّاعِي الْمُسْتَعِيدُ
 أَتَدْرِي مَنْ نَعَيْتَ فَكَيْفَ فَاهَتْ بِهِ شَفَتَاكَ كَانَ بِهَا الصَّعِيدُ
 أَحْسَامِي الْمَجْدُ وَالْإِسْلَامُ أودى فَمِمَّا لِلأَرْضِ وَيَحْكُ لَا قَمِيدُ
 وقوله « فَمَا لِلأَرْضِ لَا قَمِيدُ » يذكُرنا قول الفارعة أخت الوليد بن طريف : « أَيَا شَجَرِ
 الْخَابُورِ مَالِكُ مَوْرقَا » . وقد فَضَّلَ مُسْلِمٌ أَيْضًا الصَّنْعَةَ الشَّعْرِيَّةَ الْعَالِيَةَ الصَّادِقَةَ ، فَلَمْ يَقُلْ إِنْ
 الأَرْضُ مَا دَتِ لِمَصْرَعِ المَرثِي .

وَمِنَ الرِّثَاءِ المؤَثِّرِ قولُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الزُّبَيْرِي فِي رِثَاءِ زَوْجِهِ ، وَحُزْنِ ابْنِهِ الصَّغِيرِ
 عَلَيْهَا :

أَلَا مَنْ رَأَى الطِّفْلَ الْمَفَارِقَ أُمَّهُ بَعِيدَ الْكُرَى عَيْنَاهُ تَنْسَكِيانِ
 رَأَى كُلَّ أُمٍّ وَابْنِهَا غَيْرَ أُمٍّ يَبِيتَانِ تَحْتَ اللَّيْلِ يَنْتَجِيانِ
 وَبَاتَ وَحِيدًا فِي الْفِرَاشِ تُجِنُّهُ بِلَابِلِ قَلْبٍ دَائِمِ الْخَفَقَانِ
 فَهَبْنِي عَزَمْتَ الصَّبْرَ عَنْهَا لِأَتْنِي جَلِيدَ فَمْنٍ بِالصَّبْرِ لَا بِنِ ثَمَانِ
 ضَعِيفَ الْقَوَى لَا يَطْلُبُ الْأَجْرَ حِسْبَةً وَلَا يَأْتِي بِالنَّاسِ فِي الْخِطَابِ
 وَيَعْجَبُنِي فِي الْفِرَاقِ الَّذِي يَذْكُرُ بِفِرَاقِ الْمَوْتِ قَوْلَ الْعَتَابِيِّ مُخَاطِبًا الْفَرَقْدِينَ :
 أَيْنَا قَدَّمْتَ صُرُوفَ الْمَنَاسِبِ فَالَّذِي أَخَّرْتَ سُرُوحَ اللَّحَاقِ
 كَمْ صَفِيٍّ مُنْتَفِعًا بِاتِّفَاقِ ثُمَّ صَارَا لِفَسْرِةٍ وَافْتِرَاقِ
 قُلْتُ لِلْفَرَقْدِينَ وَاللَّيْلِ مُلْقٍ سُودَ أَكْنَافِهِ عَلَى الْآفَاقِ
 إِبْقِيَا مَا بَقِيَتُمَا سَوْفَ يُرْمَى بَيْنَ شَخْصَيْكُمَا بِسَهْمِ الْفِرَاقِ
 وَمَنَاجَاةُ الْعَتَابِيِّ لِلْفَرَقْدِينَ فِي أَثَرِهَا فِي الْوَجْدَانِ تَذَكُّرُنِي مَنَاجَاةَ مَطِيْعِ بْنِ إِيَاسَ لِنَخْلَتِي
 حُلُوانَ فِي قَوْلِهِ :

أَسْمَعِدَانِي يَا نَخْلَتِي حُلُوانَ وَارْتِيَالِي مِنْ رَبِّ هَذَا الزَّمَانِ
 وَاعْلَمِي أَنَّ رَبِّي لَمْ يَزَلْ يَفِدُ سُرْقَ بَيْنِ الْأَلْفِ وَالْجَبَرَانِ
 وَلَعَمْرِي لَوْ ذَقْتُمَا أَلَمَ الْفِرِّ قَبْلَ أَبْكَائِكُمَا الَّذِي أَبْكَانِي
 أَسْمَعِدْنِي وَأَيِّقِنَا أَنَّ نَحْسًا سَوْفَ يَلْقَاكُمَا فَتَفْتَرِقَانِ
 وَقَوْلُ الْعَتَابِيِّ « قُلْتُ لِلْفَرَقْدِينَ » يَذْكُرُنِي مِنْ شَعْرِ الْمُتَأَخِّرِينَ قَوْلَ شَهَابِ الدِّينِ بْنِ قَهْدِ
 الْحَلَبِيِّ فِي قَصِيدَةٍ « إِنْ مِنْ تَهَوَّاهُ قَدْ ظَعْنَا » ، وَهِيَ مِنَ الشَّعْرِ الْوَجْدَانِيِّ المؤَثِّرِ ، وَقَدْ قَالَ
 فِيهَا :

قلت للبدر المنير وقصد غاباب من أربى عليه سنا
غيب أو اطلع إن أردت فما فيك لى عمن فقدت غنى
أنبأتنى الشمس عنه وعن بدرها إذ غاب واقتربنا
نحن كنا إخوه شرفنا فأصاب الدهر أحسننا
إلى أن قال :

أرتجى واليسأس بهزأ بهى أن يضم الدهر الفستنا
وضلال الحب غسادر لى فيكم بعد المنون منى

وفى القصيدة يصف الشاعر ويقارن بين أثر محاسن الطبيعة والحياة فى نفسه قبل فقد أحبابه وبعد فقدهم ، وهى من الشعر المختار من كتاب « فوات الوفيات » للإصلاح الكتبى ، وهو الكتاب الذى أكمل به « وفيات الأعيان » لابن خلكان . ومراثى عبد السلام بن رغبان المعروف بديك الجن فى جاريته التى قتلها غيرة مشهورة ، ولكن تعجبنى قصيدته فى رثاء خل له وهى التى قال فيها :

وتضحك سن المرء والقلب موجع ويرضى الفتى عن دهره وهو عاتب
إلى أن قال :

فتى كان مثل السيف من حيث جئته لنائبة نابتك فهو مضارب
بكساك أخ لم تحويه بقرابة بلى إن إخوان الصفاء أقارب
وأظلمت الدنيا التى كنت جاراها كأنك للدنيا أخ ومُناسب

وقد اشتهر أبو تمام بمراثيه الرائعة مثل قصيدة « كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر » وقصيدة « إن المنون إذا استمر مريها » فى رثاء ابنى عبد الله بن طاهر ، وقصيدة فى رثاء بنى حميد ، وهى التى يقول فيها :

وأنفس تسع الأرض الفضاء فلا يرضون أو يجشموها فوق ما تسع
يسود أعداؤهم لو أنهم قتلوا وأنهم صنعوا بعض الذى صنعوا
عهدي بهم تستنير الأرض إن نزلوا بها وتجتمع الدنيا إذا اجتمعوا

والقصيدة التى يقول فيها : « هو الدهر لا يشوى وهن المصائب » وغيرها . والغريب أن له قصائد فى الرثاء عديدة أفخم وأعظم من رثائه لابنه الوحيد ، ولعل العاطفة قهرته ومنعته من إحادة الصنعة وبددت قوتها فيه .

واشتهر البحتري بقصائده في الرثاء مثل رثاء المتوكل ورثاء الفرس ووصف آثارهم وهي
السينية المشهورة ، وله في رثاء بنى حميد قصيدة من أروع الشعر وهي التي يقول فيها
مخاطباً قصرهم :

فصرت كعش خلفته فراخه بعلياء فرج الأثلة المتهم
فكل لسه قبر غريب ببسللة فمن منجد نائي الضريع ومُتهم
قبور بأطراف الثغور كأنما مواقعها منها مواقع النجم
إلى أن قال :

سلام على تلك الحسالات إنها مُسَلَّمَةٌ من كل عار ومائم
ومن أجل الشعر تائية دعبل في رثاء آل البيت التي مطلعها :
مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزول وحى مقفر العرصات
وفيها يقول :

بنات زياد في القصور مصونة وآل رسول الله في الفلوات
إذا وثروا مسدوا إلى أهل وترهم أكفأ عن الأوتار منقبضات
وكان دعبل يتهم أبا تمام بالسرقة من أشعار من جاء قبله كما ذكر في الأغاني ، ولكنه
فاته أن أخذ أبي تمام كأخذ الملك الفاتح الغازي لا كأخذ قاطع الطريق .
وقد أجاد ابن الرومي كل الإجادة في مراثيته الدالية لآل البيت التي يقول فيها : « بكأوكما
يشفى وإن كان لا يجدي » . ومن رائع الرثاء قصيدته في يحيى بن عمر العلوي التي يقول
فيها (١) :

لِمَنْ تستجد الأرض بعدك زينة فتصبيح في أثوابها تشهرج ؟
سلام وريحان وروح ورحمة عليك وممدود من الظل سجع
ولا برج القناع الذي أنت جاره يرفُّ عليه الأقحوان المفلج
وقد نحا فيها منحى دعبل الخزاعي في قوله :

فآل رسول الله تُحفُّ حسومهم وآل زياد حُقِّلُ القَصَراتِ

(١) أفند ابن الرومي هذه القصيدة بالفحش في الأبيات التي أولها (بآية أن لا يبرح المرء منكم) إلخ .

فقال :

أفى الحق أن يُنسُوا خِمَاصًا وأنتمْ يكاد أغـسـوكم بِطَنَّةٌ يَتَّبَعُجُ
وليدهم بادی الضوى ووليدكم من الريف ريان العظام خـدْجُ
وقد أجاد المتنبي فى رثاء أم سيف الدولة فى القصيدة الجامعة التى يقول فيها :

ولو كان النساء كمن فقدنا لَفُضِّلَتِ النساء على الرجال

وقد انتقد ابن رشيق فى كتاب « العمدة » كما انتقد الصاحب بن عباد قوله « الوجه المكفَّن بالجمال » وقال ما كان يحسن ذكر الجمال فى رثاء عجوز ، ولكن هذا مغالاة فى النقد ، فإن جمال الشيخوخة لا يستدعى الشهوة وإنما يستدعى زيادة الإجلال والخشوع . وأجاد المتنبي فى رثاء يماك مملوك سيف الدولة ومزجه بالحكمة فى قوله :

وقد فارق الناس الأحبية قبلنا وأعيا دواء الموت كلَّ طبيب
سُبِقْنَا إلى الدنيا فلو عاش أهلها مُنِعْنَا بها من جيئة وذهوب
تملكها الأتى تملك سالب وفارقها الماضى فراق سليب
ولا فضل فيها للشجاعة والندى وصبر الفتى لولا لقاء شُعوب
وأوفى حياة الغابرين لصاحب حياة امرئ خائنه بعد مشيب

وهو أيضًا يخلط الحكمة بالرثاء فى رثاء أخت سيف الدولة فى قوله : « فلا تنلك الليالى » إلخ . وقد أبدع أيضًا فى رثاء جدته فى القصيدة التى يقول فيها :

عرفت الليالى قبل ما صنعت بنا فلما دهتنى لم تزدى بها علمًا

على أن نقد ابن رشيق كان ينبغى أن ينصب على جانب من رثاء المتنبي ترك فيه صنعة الفارعة أخت الوليد بن طريف فى قولها : « أيا شجر الخابور مالك مورقا » وصنعة مسلم بن الوليد العالية فى قوله : « فما للأرض ويحك لا قيد » وقال إن الكون اضطراب لموتى المرنى :
والشمس فى كبد السماء مريضة والأرض واجفة تكاد تمسور

ولو احترس وقال حسينا الشمس إلخ لكان أفخم . وله فى رثاء عمه عضد الدولة بجانب الحكمة العالية مغالطات من ذكاء الصنعة ، والحقيقة هى أن الشعر فى هذا العصر بدأت تختلط فيه مبالغة العاطفة والصنعة المتخاذقة العالية بمبالغة المغالطات الفكرية واللفظية ، وهذا يتضح أيضًا فى شعر المعرى على حكمته وعلو منزلته ، فتراه يؤن ويصف نفسه بالحزن بعده وقلة الضحك فلا يظهر قمه ثناياه فيقول :

كأن ثنائيه أوانس يُتَغَى لها حسن ذكر بالصيانة والسجن
وهذا تخيل بديع ، ولكنه بعيد عن عاطفة الحزين لموت أبيه . وأحسن من هذا قصيدته
التي مطلعها « غير مُجدٍ في ملتي واعتقادي » والأخرى التي مطلعها « أحسن بالواجد من
وجده » . ومن عالى الحكمة فيها قوله :

والقلب ممن أهوائه عابدٌ ما يعبد الكافر من بده
أى أن القلب يعبد أهواءه كما يعبد الكافر الصنم المعبود :

ومن ماثور الرثاء قصيدة ابن نباتة السعدى فى رثاء أمه ، وفيها يقول :
فقدتُ كبيراً برأى حَفِيَّةٍ كما فقد الشدى المَعْلَلُ مُرَضِعُ
وهذا يشبه قول المعرى فى رثاء أمه :

مضت وقد اكتسملتُ فخلت أنى رضيع ما بلغت مَدَى الفِطَامِ
وقد كان عبد العزيز بن نباتة السعدى والشريف الرضى ومهيار الديلمى أوداء ، ومن أجل
ذلك يتقارب شعرهم فى نغمته ووجدانه . وللشريف مرات رائعة فى جده الحسين رضى الله عنه
وفى أمه وفى آل المسيب وفى الصاحب بن عباد وفى صديقه أبى هلال الصاهى ، وفى رثاء
الصاحب يقول :

كان الغريبة فى الأنام فأصبحوا من بعد غارب نجمه أمثالا
وفى رثاء الصاهى يقول :

كم من طويل العمر بعد وفاته بالذكر يُصحب حاضراً أو بادی
ما مات من جعلَ الزمان لسانه يتلو مناقب عُوداً وِسْوَادِی
فأذهب كما ذهب الربيع وإثره باق بكل خمائل ونجّاد
لا تبعدن وأين قسرك بعدها إن المنسايا غمّاية الإبعاد
وقد أجاد مهيار تلميذ الشريف الرثاء كما فى رثائه ابن نباتة فى قوله :

أفلم يرُعها منك نفس حرة كنت الوحيد بها وأنت قبيل
غَنِيَتْ عن الآمال باستعفافها ولكل صاحب حاجة تأميل
وفى رثائه الشريف الرضى فى قوله :

عادت أراك هاشم من بعده خورا لفأس الحاطب المتوقد
فجمعت بمعجز آية مشهودة ولرب آيات لها لم تُشْهِدِ

وفى رثائه لغلّام تبناه يقول :

فُجِعْتُ بِهِ غَضُّ الشَّحَائِلِ وَالْهَوَى
عَلَى حِينَ قَامَتْ لِلْمَنَى فِيهِ سَوْقُهَا
كَأَنَّ فَرَاخَ الْوَكْنِ بَيْنَ جَوَاتِحِي
وَيَقُولُ فِي مَرثِيَةِ أُخْرَى :

سَلامٌ عَلَى الْأَنْسَرِاحِ بَعْدَكَ إِنِّهَا
وَمَنْ أَعْظَمُ مَا قِيلَ فِي رِثَاءِ الْأَبْنَاءِ قَصِيدَتَا التَّهَامِي الرَّائِيَتَانِ فِي رِثَاءِ ابْنِهِ وَفِي وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا يَقُولُ :

عَجَلَ الْخَسُوفُ عَلَيْهِ قَبْلَ أَوَانِهِ
وَاسْتُلَّ مِنْ أَتْرَابِهِ وَلِدَاتِهِ
فَكَأَنَّ قَلْبِي قَبْرُهُ وَكَأَنَّهُ
أَشْكُو بِعَادِكَ لِي وَأَنْتَ بِمَوْضِعِ
وَالشَّرْقِ نَحْوَ الْغَرْبِ أَقْرَبُ شَقَّةً
وَفِي الْأُخْرَى يَقُولُ :

أَبَا الْفَضْلِ طَالَ اللَّيْلُ أُمُّ خَانَتِي صَبْرِي
أَحْمَلُهُ ثَقْلَ التَّرَابِ وَإِنِّي
وَمَنْ أَرْوَعُ وَأَفْخَمُ مَا قِيلَ فِي الرِّثَاءِ قَصِيدَةُ الطُّغْرَائِي عَلَى وَزْنِ وَقَافِيَةٍ وَرَوَى الْقَصِيدَةُ السَّابِقَةَ ، قَالَهَا فِي رِثَاءِ زَوْجِهِ وَهِيَ فَرِيدَةٌ فِي بَابِهَا ، قَالَ فِيهَا :

وَفَزَتْ بِهَا مَا بَيْنَ يَأْسٍ وَخَيْبَةٍ كَمَا اسْتَخْرَجَ الْغَوَاصُ لَوْلُؤَةَ الْبَحْرِ
فَجَاءَتْ كَمَا شَاءَ الْمَنَى وَاشْتَهَى الْهَوَى كَمَا لَا وَنْبَلًا فِي عَفَافٍ وَفِي سِتْرِ
إِلَى أَنْ قَالَ :

وَقَدْ كَانَ رَيْعَى أَهْلًا بِكَ مَدَّةً أَحْنُ إِلَيْهِ حَنَةَ الطَّيْرِ لِلْوَكْرِ
وَأَوَى إِلَيْهِ وَهُوَ رَوْضَةٌ جَسَنَةٌ بِدَائِعِهَا يَخْتَلِنُ فِي حُلَلِ خُضْرِ
فَمَذَّ بَنْتٍ عَنْهُ صَارَ أَوْحَشَ مِنْ لَطْفِي وَأَضْيَقَ مِنْ قَبْرِ وَأَجْدَبَ مِنْ قَفْرِ
وَقَصِيدَةُ الْأَنْبَارِيِّ الْمَشْهُورَةِ فِي عَظِيمِ صُلْبٍ مِنْ أَرْوَعِ الشُّعْرِ وَفِيهَا يَقُولُ :

علو في الحبيبة وفي الممات لحق تلك إحدى المعجزات
 كأن الناس حولك حين قاموا وفود نذاك أيام الصلوات
 كأنك قائم فيهم خطيباً وكلهم قيسام للصلاة
 مسددة يدك نحوهم احتفاءً كمدّهما إليهم بالهبات

وقدرة الشاعر البيانية وقوته تجعل القارئ ينسى هول ما حل بالمرثى من تحقير وتمثيل
 وتشنيع . ولعل هذا هو ما أراد الشاعر ، وما يبرر تلك المغالطة البيانية .
 وللأندلسيين وشعراء المغرب مراثٍ جيدة ، فمنها مرثية محمد بن هاني الأندلسي التي يقول
 فيها :

خرست لعممر الله أنفسنا لما تكلم فوقنا القدر
 إلى أن يقول :

تفنى النجوم الزهر طالعة والنيران الشمس والقمر
 ولئن سَرى الفلك المدار بهما فلسوف يُسلمُهما وتنفطر
 وإذا انتهيت إلى مدى أمل دركاً فيومٍ واحدٍ عُمرُ

ولابن حمديس الصقلي مراثٍ شجية منها قصيدته التي مطلعها : « يهدم دار الحياة
 بانيها » في رثاء جارية غرقت ، وفيها يقول :

يا بحر أغرقت غيرَ مكتسث من كنت لا للبياع أغلبيها
 جوهرة كان خاطري صدقاً لها أقيها به وأحميها
 مانقها الموت ثم فارقها عن ضمة فاض روحها فيها
 وقال فيها من قصيدة أخرى :

أيا رشاقة غصن البان ما هصرك ويا تألف نظم الشمل من نشرك
 لا صبر عنك وكيف الصبر عنك وقد طواك عن عيني الموج الذي نشرك
 كلاً وروضة ذاك الحسن ناضرة لا تلحظ العين فيها ذابلاً زهرك
 أي الثلاثة أبكى فقد بهدم عميمَ خلقك أم معنك أم صفرك
 من أين يقبح أن أفنى عليك أسمى والحسن في كل فن يقتفى أثرك
 كنت الشبيبة إذ ولت ولا عسوس منها ولو ربح الدنيا الذي خسرك

وابن خفاجة الأندلسي في مراثيه يجيد وصف وحشة الأسى ، وروعة الموت وجلال مناظر
الفناء ، كما يجيد في قصائد وصف الطبيعة ، وصف محاسنها وملذاتها ، ومن مراثيه قوله
يرثي صديقاً عزيزاً :

وكفى اكتئاباً أن تعيث يد البلى في محو تلك الصورة الحسناء
فلطالما كنا نريح بظلمه فنريح منه بسرحة غناء
فَتَنَقَّتْ على حكم البشاشة نورها وتنفست في أوجه الجلساء
تتفرج الغمائم عند كأنه قمر يُمزق شملة الظلماء
وقوله من قصيدة أخرى :

كنا اصطحبنا والتشاكل نسبة حتى كأننا عاتق ونجاء
ثم افترقنا لا لعودة صحبة حتى كأننا شعلة وزناد
يا أيها النائي ولست بسمير سكن القبور وبيننا أسداد
ما تفعل النفس النفيسة بعد ما تتهاجر الأرواح الأجساد
ومنها في صف دولة الموت :

في موطن نزلته جرهم قبله وتحولت إرم إليه وعساد
أم يفص بها الفضاء طوتهم كف الردى طى الرداء فسادوا
عسفت البناة على الليالي والبنى وتلاحق الأمجاد والأوغساد
وله من قصيدة من شراب الأمانى لو علمت شراب :

فيالهم من ركب صحب تتابعوا فرادى وهم ملذ الفصون شباب
دعنا بهم داعسي الردى فكأنما تبارت بهم خيل هناك عراب
فها هم وسلم الدهر حرب كأنما جيشا بينهم طعن لهم وضراب
فحتى متي ألقى الرزايا مضضة كما كسرعت بين الضلوع حراب
فإما كما تعدو الضراغم عنوة وإما كما تمشى الضراء ذئاب

ومن شجى الرثاء قصيدة الرندى في رثاء الأندلس بعد استيلاء الأسبان عليها ، وهي
القصيدة المشهورة التي مطلعها : « لكل شيء إذا ما تم نقصان » ، ويقول فيها :

يا غافلاً وله في الدهر موعظة إن كنت في سنة فالدهر يقظان
وماشياً مرحاً يلهيه موطنه أبعد حمص تغر المرء أوطان

ورأتعين وراء البحر فى دعة لهم بأوطانهم عز وسلطان
 أعندكم نبأ عن أهل أندلس فقد سرى بحديث القوم ركبان
 يا من لذلة قوم بعد عزهم أحال حالهم جور وطفيان
 بالأمس كانوا ملوكًا فى منازلهم واليوم هم فى بلاد الكفر عبдан
 يا رب أم وطفل حبل بينهما كما تُفَرِّقُ أرواح وأبدان
 إلخ إلخ . ومن مشهور الرثاء فى شعر المتأخرين قصيدة كمال الدين بن النبیه المصرى التى
 يقول فيها :

الناس للموت كخيل الطراد والسابق السابق منها الجواد
 والموت نُقْبادٌ على كفسه جواهر يختار منها الجياد
 وهذا من الرثاء الذى تتفق فيه مغالطة العاطفة ومغالطة الصنعة .

٢٤ - الفكاهة في شعر العرب (١)

الفكاهة نوعان فكاهة خيالية وفكاهة لفظية والفكاهة الخيالية هي نوع من الخيال ومجالها حيث يتضاءل الجد فيه فهي الخيال في حال تبسطه ومن أجل ذلك كانت الفكاهة لا تستعمل في مكان الجد ولكن صعباً على من لم يتعود النقد أن يعرف الحد الفاصل بين مكان الجد ومكان الفكاهة فمن الناس من يعد في الجد ما يعده آخر في باب الفكاهة ومن الناس من يعد في الفكاهة ما يعده غيره في باب الجد ورجحان رأيه بقدر نصيبه من صحة الذوق وسنين ذلك في هذا المقال فمن أمثال الفكاهة الخيالية قول ابن الرومي في رجل أصلع :

يأخذ أعلا الوجه من رأسه أخذ نهار الصيف من ليله

وليس كل خيال يجرى بالفكاهة لأن الخيال إذا لم يكن وثاقاً امتنعت عليه سبلها لأنها تخرج من التأليف بين الحقائق المتباعدة والصور المتناقضة وتباعد الصور ليس دليلاً على تباعد الصلة لتي بينها فإن ابن الرومي في بيته السابق قد ألف بين صورتين متباعدتين وهما أن صلح الرجل جعل وجهه مغبراً على رأسه أخذاً منه وأن تزايد نهار الصيف يجنى من تناقص ليله ووجه الشبه الذي بين الصورتين قريب متين وإنى لأحسب أن تطير ابن الرومي بينه وبين فكاهته الخيالية سبب لأن التطير يبعثه سوء الظن وسوء الظن يدعو المرء إلى اتهام الناس بمعادة صاحبه وذلك يبعث على تطلب السبيل الدمث لهجائهم وانتقاصهم . وأوجع الهجاء ما جعل المهجو ضحكة في أفواه الناس فأكبر ظني أن سوء رأي ابن الرومي في الناس هو الذي استقدح الفكاهة في خياله وهذا بيرون كان مر النفس فاتخذ من مرارة نفسه رائداً إلى الفكاهة اللاذعة انظر كيف يصف وزيراً من وزراء الإنجليز حيث يقول فلان ذو الذهن الخصى فإن تشبيهه الغباوة بالخصى من الفكاهة الخيالية وهذا المتنبي قد سما بنفسه بين الثريا والسماك ومن كان يربأ بنفسه أن يُعدَّ في الناس عرف من أين تؤتى الفكاهة اللاذعة انظر إلى قوله في رجل أعور :

فيا ابن كرويس يا نصف أعمى وإن تفخر فيا نصف البصير

(١) مجلة البيان ، العدد ٨ ، السنة الأولى ، ٢٩ ربيع الأول سنة ١٣٣٠ هـ (أبريل ١٩١٢ م) ، ص

ومرارة النفس تزيد الفكاهة قوة ورسوخًا في النفس غير أنها تلبسها زياً أسود يلائم زيتها وتستخدمها في إنفاذ أمرها وتقريب غرضها أما إذا لم تجدد الفكاهة في النفس ما يرنق صفوها ويمر مذاقها كانت كالنهر حين تدفقه بين الصخور صافى الماء عذبه هذا جوزيف أدسون لطيف الفكاهة شريقها مهما غلا في نقد العادات والأخلاق ومن أجل ذلك كان خليقاً أن يحمل النفس على الخروج عما يشوبها من غير أن يضيع ثقتها بضميرها ومن غير أن يثير عداة الناس ويحرك بغضهم باللفظ الجارح فقد كانت الفكاهة في لسان سوينت أو كارليل كالسيف في يد الجلود أو السوط في يد الجلاد .

وأحسن الفكاهة ما صدر عن رغبة في إصلاح فاسد وتقويم معوج من العادات والأخلاق والعرب تستعمل الفكاهة في الهجاء والسخر والتعجيز والوصف انظر إلى قول المتنبي في رجلين قتلا جرذاً وأبرزاه ليعجب الناس من كبره .

وأيهما كان من خلفه فإن به عضة في الذنب

انظر إلى الصورة الخيالية المضحكة التي في هذا البيت صورة شجار بين رجلين وبين جرذ وانظر كيف ادعى الشاعر أن أحدهما قد عض الجرذ في ذنبه ولكن المتنبي يمزج الهجاء بالفحش في كثير من شعره ومن الفكاهة ما كان يستعمله الشاعر في المديح تفالياً في إعلاء مدوحه وتكثيراً لما يستخرجه من المعاني وأكثر هذا النوع سخيف لأنه أقرب إلى الذم منه إلى المدح وإنى ما قرأت قوله :

خفت إن صرت في يمينك أن تأخذنى في هباتك الأقسام

إلا قلكنى الضحك من ذلك المنظر الغريب المودع في هذا البيت وذكرت ما يشبهه مما يحدث يوم الجمعة عند باب السيدة زينب حيث يتسابق الفقراء والمساكين إلى التمر والكعك والفطير الذي تفرقه النساء صدقة وقد بلغنى أن امرأة وضعت حداً لها في ناحية فأخذ أحد المساكين حاسباً أنه من هباتها وقد خاف المتنبي إن صار على قرب من ذلك الكريم أن تأخذه الأقسام حاسبة أنه عبد من هباته ومثل هذا قوله :

وقلبك في الدنيا ولو دخلت بنا وبالجن فيه ما درت كيف ترجع

أليس هذا أقرب إلى السخر والتهمك منه إلى المدح ولكن هكذا الشاعر القدير إذا لم يراقب خياله أتى بالمستهجن ولا يحسب أن المتنبي أراد أن يمزج بمعاني المدح شيئاً من الفكاهة وهو خروج بالمدح عن حده وليس هذا من أدب المدح وإنما دفعه إلى مثل هذا الغلو وحب الابتداع وهما شيئان مقرونان في قرن .

أما شعراء الجاهلية وصدر الإسلام فإنهم وجدوا الفحش وهُجِرَ الكلام أنكى وأوجع وقد يمزجون به شيئاً من الفكاهة هذا سبيلهم في الهجاء إلا في القليل النادر وأما شعراء الدولة العباسية فإنهم يستعملون الفحش في الهجاء أيضاً ولكنهم تفتنوا في استعمال الفكاهة اللاذعة وشعراء الجاهلية وصدر الإسلام يستعملون الفكاهة في السخر والتعجيز أكثر من استعمالهم إيها في الهجاء أو الوصف هم يستعملونها كثيراً في الوصف إذا أريد منه السخر ومن استعمل الفكاهة من الشعراء العباسيين فأجاد أبو نواس ومن بديع شعره في هذا الباب . قوله في البخل :

خبز الخصيب معلق بالكوكب يحمى بكل مثقف ومشطب
جعل الطعام على بنيد محرماً قوتا وحلله لمن لم يسغب
انظر إلى قوله (وحلله لمن لم يسغب)

وعجبنى في هذا الباب قول حافظ إبراهيم في الفقير .

ويخال الرغيف في البعد بدرأ ويظن اللحوم صيداً حراماً
وقال أبو نواس :

رأيت الفضل مكتئباً يناغي الخبز والسمكا
فأسهل دمه لما رأى قصاداً وبكى
فلما أن حلفت له بأنى صائم ضحكا

إذا كان لأهل الفضل والأخلاق الحميدة أن يبيعوا الهجاء فلا أكثر من هذا والشاعر خليك أن ينزه منطقته عن مثل ما وقع بين الفرزدق وجريز والأخطل والبصيث أو مثل ما وقع بين بشار وحماد عجرد أو مثل أهاجي ابن الرومي في بوران أو هجاء المتنبي لابن كبة اغ وماذا يرى الأديب مما تسيغه النفس المهذبة في هجاء البحتري للمستعين حيث يقول :

ومما كانت ثياب الملك تخشى جريرة بائل فيهن خسارى
أو قول الأخطل :

قوم إذا استنبح الأضياف كلهم قالوا لأهمهم بولى على النار
أو قول المتنبي :

يحمى ابن كيفلغ الطريق وعرسه ما بين رجليها الطريق الأعظم
إلى آخر الهجاء .

ومن استعمل الفكاهة في الهجاء من غير أن يبيع حرمة الأدب أبو العلاء المعري حيث يقول :

روىك أيها العاوى ورائى لتخبرنى متى نطق الجماد
وأبو تمام حيث يقول :

ألصقت قلبك من بغضى على حرق أضر من حركات الهجر للجسد
أنحفت جسمك حتى لو هممت بأن ألهو بصفحك يوماً لم تجدك بدي
ومن بديع ما سمعت من الفكاهة قول أبى نواس وكان قد حبسه الفضل بن الربيع في أيام
الأمين حتى أشاع أهل خراسان أنه يصطفى ما جئاً خليعاً ويقضى معه ليلة ونهاره فأقام أبو
نواس في السجن زمناً ثم استتابه الفضل فتاب فعفا عنه فبعث إليه بهذه الأبيات :

أنت يا ابن الربيع ألزمتنى النسب لك وعودتنيهِ والخير عاده
فارعوى باطلى وأقصر حبلى وتبدلت عفة وزهاده
المساييح فى ذراعى والمص جف فى لبثى مكان القلاده
وإذا شئت أن ترى طرفه تع حجب منها مليحة مستفاده
فادع بى لا عدمت تقويم مثلى وتفظن لموضع السجاده
تر إثراً من الصلاة بوجسهى توقن النفس أنه من عباده
لو رآها بعض المرائين يومها لاشتراها بعدداً للشهاده
ولقد طال ما شقيت ولكن أدركتنى على يدك السعاده

وهناك نوع من أنواع الفكاهة يسميه الإفرنج الفكاهة اللفظية وشيخ هذه الصناعة (قولتير)
ورب الفكاهة الخيالية عندهم هو جان بول رختر الألماني ، أما شكسبير فنصيبه من النوعين
أوفر نصيب والعرب تستعمل الفكاهة اللفظية ولكنهم قد يغالون فيها فتجئ سمجة والفكاهة
اللفظية مثل قول المتنبي :

كأن السُّماتى إذا ما رأتك تصيدها تشتهى أن تصادا
ويعجبني منه استخدام هذه الفكاهة اللفظية في الاعتذار حين عاتبه بعض إخوانه لأنه لم
يرد سلامه فقال :

أنسا عاتب لتعتبك متعجب لتعجبك
إذ كنت حين لقيتنى متوجعاً لتفجيك
فشغلت عن رد السلام م وكان شغلى عنك بك

فهذا الاعتذار مغالطة ولكنه مغالطة مليحة فهو من الفكاهة اللفظية لأن الصلة التي بين شغله بالتوجع لغياب صديقه وشغله عنه صلة توهم وليست مثل الصلة التي بين أخذ أعلا وجه الأصلع من رأسه وبين أخذ نهار الصيف من ليله في بيت الرومى فإنك إذا نظرت إلى الصورة المودعة في هذا البيت أى صورة وجه الأصلع ورأسه ثم رأيت كيف يجنى تزايد يوم الصيف من تناقص ليله علمت كيف تميز الفكاهة الخيالية من الفكاهة اللفظية لتي أصلها المغالطة في مثل اعتذار المتنبي والفكاهة الخيالية يلتذها المرء بخياله والفكاهة اللفظية يلتذها المرء بملكة المنطق لأنها مغالطة منطقية كأن يريد صاحبك أن يبرهن لك مزاحاً باضطراب في المنطق أن شيئاً خطأ هو رأس الصواب أو أن شيئاً صواباً هو رأس الخطأ واعتذار المتنبي هو مثل من أمثال ذلك . أما الفكاهة الخيالية فهي التي تعرض عليك صورة من صور الخيال يبسم لها القلب وتحسب أن البيت الذى يحتويها صورة لا بيت شعر أما الفكاهة اللفظية فهي مغالطة يبسم لها الذهن فإنك إذا قرأت اعتذار المتنبي أعجبتك مهارته ولطف تخيله وهذا شئ مصدره الذهن وكذلك إذا عرض عليك قوله :

كأن السمانى إذا ما رأتك تصيدها تشتتـهـى أن تصاداً

ولكن إذا عرض عليك قول ابن الرومى فى الرجل الأصلع الذى يأخذ وجهه من رأسه أخذ نهار الصيف من ليله ألاح لك بصورة فكاهية وقد تكون الفكاهة اللفظية أجلب للمضحك من الفكاهة الخيالية لأن المغالطة عند العامة هي مصدر ضحكهم .

وليس لنوعى الفكاهة حدود معينة فلا تقدر أن تقول هذا حد الفكاهة الخيالية وهذا حد الفكاهة اللفظية فإنهما قد يمتزجان انظر إلى قول ابن الرومى فى رجل بخيل :

فلو يستطيع لتسقتـيـره تنفس من منخر واحد

هذا البيت يليح لك بصورة فكاهية صورة رجل من بخله يتنفس من منخر واحد ولكنها مغالطة مليحة لأن البخيل مهما كان بخيلاً لا يجد نفعاً له فى أن يتنفس من منخر واحد حتى لو استطاع ذلك ولكن لا مغالطة فى تشبيه تطاول وجه الأصلع على رأسه بتزايد نهار الصيف وتناقص ليله لأنه ليس معنى التشبيه أن المشبه والمشبه به سواء فإذا نظرت إلى قول ابن الرومى فى البخيل وجدت الفكاهة اللفظية ممتزجة بالفكاهة الخيالية وذلك أيضاً كائن فى بيت أبى العلاء :

روىـدك أبـها العـارـى ورائـسى لتـخـبـرنـى مـتى نطق الجـمـاد

على أن أكثر الفكاهة اللفظية يجرى ممزوجاً بشئ من الفكاهة الخيالية ويقدر نصيبه منها يكون نصيبه من روح الشعر وشعراء الجاهلية وصدر الإسلام يستعملون الفكاهة الخيالية أكثر من الفكاهة اللفظية وهذا دليل على صحة أذواقهم ولكن شعراء الدولة العباسية قد أكثروا من استعمال الفكاهة اللفظية لأنهم تفتنوا في أنواع المغالطة المنطقية وقد يجيئون بها مليحة وقد يجيئون بها سمجة .

ولكن أكبر عيوب شعرائنا هو استخدامهم الفكاهة في موضع الجد وهم لا يعرفون أنها فكاهة وقد ذكرت من أمثال ذلك استخدام المتنبي الفكاهة في المديح وهو لا يعرف أنها فكاهة وأقبح من هذا استخدامهم الفكاهة في الرثاء مثل قول إمام العبد في قصيدة يرثي بها الشيخ محمد عبده ما معناه أنه لبس سواد جلده حداداً عليه قبل مماته وإمام العبد لم يرد أن يمزح فيخالف أدب الرثاء ولكنه أتى بالمزح من غير قصد وعمد لأنه تعود قراءة أمثال هذا المزح في الرثاء والمتنبي إذا استخدم المغالاة في الرثاء حسبت أنه يمزح مع الميت أو أنه يسخر منه ويهزأ به ومن أمثال المزح في الرثاء قول شاعر يرثي إماماً العبد ويقول في رثائه أعزنى سواد جلده كى ألبس حداداً عليك هذا أقرب إلى باب السخر والتهمك واستعمال المزح أو السخر في الرثاء دليل على سقم في ذوق الشاعر وشعراء الجاهلية وصدر الإسلام كانوا أصح أذواقاً من العباسيين لأنهم لم يستخدموا الفكاهة في موضع الجد من مدح أو رثاء أو حكمة إلا أن يجيئوا بها على سبيل التهمك أو السخر أو التعجيز وهم يريدون ذلك . هذا مذهبهم إلا في القليل النادر ولكن بدأت الشعراء تستخدم الفكاهة في مواضع الجد وهم لا يعرفون أنها فكاهة في أواخر الدولة الأموية ثم في أيام الدولة العباسية وما زالوا يغالون في ذلك حتى جاؤا بالغث المستهجن في باب المديح والرثاء والحكم وشعراء هذا العصر يتابعونهم في سقم ذوقهم .

فخليق بنا أن نلتصم سلامة الذوق في شعر شعراء الجاهلية وصدر الإسلام وأن نضع المعنى موضعه كما نلتصم حسن الابتداء ولطف التوليد في شعر شعراء الدولة العباسية .

٥- قضايا ومناقشات (١)

القديم والجديد

الجديد والقديم

١- القديم والجديد نقد وتحليل*

للأستاذ محمد أحمد الغمراوي

لعل من أسوأ سيئات عصور الانتقال ظاهرة التمرد التي تغلب على الناشئين فيها ، فقد كان الناس قبل أن يبتلوا بعصر الانتقال هذا يرجعون فيما يختلفون فيه إلى أصول مقررة تستند إلى ما يسلّمون به جميعاً من دين ، أو عرف مستمد من دين ، أو إلى أدب عريق تحددت أحكامه وتبينت معايير ورسخت أصوله على طوال القرون . فلم يكن صغير يخرج على كبير في تحديد ما ينبغي ، ولم يكن ناشئ يتناول على أستاذ فيما يعلم أنه ناشئ ، فيه وأنه حديث العهد به . فكان الصغير إذا خالف في سلوكه رأى الكبير يخالف وهو يعرف أنه مخطئ ، ولم يكن ناشئ مبتدئ في الأدب أو غير مبتدئ يخطر بهاله - إذا لم يقتنع برأى أستاذه أو من هو في منزلة أستاذه في اللغة أو في الأدب أو في الدين في مسألة بداله فيها رأى خاص - أن يعيب أستاذه أو يثلبه أو يصغره أو يحاول أن يعرضه لسخرية الناس . وكان الكبار إذا اختلفوا يتحاكمون إلى ما أجمعوا على التسليم به من الأحكام والأصول . فلم يكن الخلاف في المقاييس ولكن في طريقة القياس ؛ لم يكن في القواعد ولكن في التطبيق . فكانوا سرعان ما ينتهي خلافهم إلى اتفاق إن كانوا ممن يبتغون الحق للحق لا للشهوة ، أما الذين تأخذهم العزة بالإثم فلا ينزلون على حكم الحق وإن وضع فأولئك في كل عصر هم مصدر الشقاق والفراق ، سواء أكان العصر عصر استقرار في المعايير أم كان فيها عصر اضطراب يشبه الفوضى كعصرنا الذي نعيش فيه .

كان الأمر كذلك وكان الناس في راحة من أجل ذلك . كان يكفي أن يحتج أحد المتناظرين لرأيه بآية كريمة أو حديث شريف أو رواية في اللغة ثابتة تشهد لأحد الرأيين حتى ينزل صاحب الرأي الآخر على رأى الأول من غير أن يجد في نفسه غصاصة ، لأنه في قرارة نفسه يعرف أنه نزل على حكم الآية أو الحديث أو الرواية الصادقة ، وهذه عنده أحكام يجب أن تطاع وأصول

* الرسالة : ٤ يوليو ١٩٣٨ ، ص ١١٠٣ ومايلي .

تمثل هذه المقالات جانباً من أبعاد المعركة بين "الرافعي والعقاد" وهذه المناخلة نقطة البدء في الحوار الذي دار بين الأستاذ "محمد أحمد الغمراوي" والشاعر الناقد "عبد الرحمن شكرى" ولذا أثرت أن أكتبها هنا ليتعرف القارئ على أبعاد المشهد النقدي . "المحرر"

يجيب أن تتبع ، والغضاضة كانت عنده والهوان في مخالفة تلك الأحكام والأصول بعد أن وضع له وجه الحق منها ، لا في مخالفتها نزولاً على حكم الهوى والشهوة . وكان الأمر في ذلك كل مداراة الدين وعلم المرء أن الله سائله عن الحق لم لم يتبعه وقد قر في نفسه ، وعن الباطل كيف اتبعه وليس به الحق رغم ضميره ورغم قلبه . فكان هذا الوازع الداخلي حاملاً على الحق صارفاً عن الباطل حتى ضعف في الناس على الأخص بفشو هذا التجديد الذي يستمد كل قوته من جلال الغالب في نفس المغلوب .

ومسألة القديم والجديد عمرها لا يكاد يزيد على ثلاثين عاماً أثارها في الناس نفر تشقوا ثقافة غربية من غير أن يكون لأكثرهم من الثقافة الإسلامية نصيب مذكور . والغرب والشرق على طرفي نقيض لا يلتقيان كما يقول رديارد كيبلنج ، وإن كان من الممكن أن يلتقيا في العلم الذي هو مفخرة الغرب والذي هو جزء من الإسلام الذي يدين به الشرق . لكن الذين أثاروا مسألة القديم والجديد لم يكونوا يعرفون ، ولعل أنصارهم لا يزالون يجهلون أن العلم الذي ظهر به الغرب هو في الإسلام جزء من الدين ، وأن المدنية الغربية ليس فيها ما يستحق أن يطلب ويؤخذ إلا ذلك العلم الطبيعي الذي اهتدى إليه الغرب بالعقل والتجربة ، والذي يمثل فطرة الله التي فطر عليها الأشياء . أما فطرة الله التي فطر عليها الناس فتلك يمثلها الإسلام عن يقين . فكان الغرب والشرق قد اقتسما علم الفطرة : علمها الغرب في الماديات بالعلم والتجربة ، وعلمها الشرق في الروحانيات والاجتماعيات بالدين والوحي . فكان الشرق مخطئاً حين لا يأخذ بعلم الغرب ، وكان الغرب ضالاً حين يخالف الإسلام كما أنزله فاطر الفطرة على محمد عليه الصلاة والسلام . وكان سبيل الكمال لهما معاً وللإنسانية أن يجتمعا على العلم والدين ، علم الغرب الطبيعي ودين الشرق الإسلامي ، فيجتمع لهما بذلك علم الفطرة ونظامها في المادة والروح . وكان هذا أيضاً هو سبيل التجديد الصحيح لمن يريد أن يكون مجدداً مصلحاً ، يجدد للشرق شبابه ومجده من غير أن يعرضه لشر ما يهدد الغرب من أخطار . وهذا هو السبيل الذي دعا إليه جمال الدين الأفغانى وسار على أثره فيه محمد عبده .

لكن دعاة التجديد الذين جاؤا بعدهما ممن لم يكن لهم مثل علمهما ولا بصيرهما بالإسلام ضلوا سبيل الدعوة وصدقوا الغرب في ظنه الذي ظن بالإسلام من أنه كان سبب تأخر الشرق . ولما لم يطبقوا أن يهاجموا الإسلام مواجهة فيدعوا الناس صراحة إلى نبذة ، عمدوا إلى مهاجمته مداراة بدعوة الناس إلى قبول كل ما عليه الغرب إن كانوا يريدون أن يكون لهم ما للغربيين من قوة وحياة . وزعموا للناس أن المدينة الغربية كل لا يتجزأ ، فيما أن تؤخذ كلها أو

تترك كلها ، إما أن تؤخذ باجتماعياتها وأدبياتها وعلومياتها وإما ألا يؤخذ منها شيء . فوقع الناس بهم في مصيبة طامة وفتنة عامة لأن الناس يلمسون قوة الغرب ويريدون أن يكون لهم مثل قوته لينجوا مما هم فيه من رقة واستعباده . فإن كان حقا ما يزعمه لهم دعاة التجديد الغربى من أن لاسبيل إلى ذلك إلا بأخذ المدنية الغربية بحذافيرها فليس لهم فيما يبدو مفر من ذلك ولو كان في ذلك خروج على الإسلام . ونجحت حركة الالتفات التي قام بها دعاة الغرب ضد سلطان الاسلام في نفوس من أصغى إليهم من الناس حين ألجأهم إلى أن يميزوا أنفسهم ذلك التمييز بين الاسلام وبين القوة والحياة ، من غير أن يتعرض أولئك الدعاة في سبيل ذلك للخطر الذي كانوا يتعرضون له من غير شك لو أنهم دعوا الناس مباشرة إلى نبذ الاسلام . وأصبح الذين أصابتهم فتنة ذلك التجديد كمن أحاط به العدو لا بد له من الموت أو التسليم ، أو كمن وجد نفسه مضطرا إلى الاختيار بين قتل ولده وبين الحياة .

ولقد كان سهلا على من وقف هذا الموقف من الناس أن يفك عن نفسه ذلك الحصار ويخرج من ذلك الاضطراب الوهمي لو أنه كان يعرف حقيقة دينه وتاريخه حتى صدر الخلافة الراشدة على الأقل ، لكن أولياء أمور المسلمين عفا الله عنهم وتداركهم بهدايته وتسديده كانوا ولا يزالون يهملون تعريف المسلمين بدينهم ، وتنشئ أبنائهم وبناتهم في الروح الإسلامى بالتربية الاسلامية . ومن هنا كان المسلمون عوناً لعدوهم على أنفسهم . ومن هنا كان كل ما أصاب أولئك "المجددون" من نجاح ، وما يهدد الإسلام في بلاده وفي نفوس أهله من خطر . ومن هنا أيضاً هب لدرء هذا الخطر فريق من المجاهدين المحتسبين الذين آتاهم الله فقهاً في الدين وقوة في الجنان وبسطة في البيان ، وفي طليعة هؤلاء كان الراقى رحمة الله عليه .

فالمسألة بين القديم والجديد كما يسمونها ليست مسألة اختيار بين أدب وأدب وطريقة وطريقة ، ولكنها في صميمها مسألة اختيار بين دين ودين . فالذين يسمون أنفسهم أنصار التجديد يؤمنون بالغرب كله ويريدون أن يجعلوا الناس على دينهم هذا ولو خالف الإسلام في أكثره . والذين يسميهم هؤلاء أنصار القديم يؤمنون بالإسلام كله وبالقرآن كله ويأبون أن يؤمنوا ببعض ويكفروا ببعض ، أو أن يدينوا للغرب مؤمنين به من دون الله . وكل الخلاف بين أنصار "القديم" وأنصار "الجديد" منشؤه هذا ومرده إلى هذا . هؤلاء مثلاً يريدون متابعة الغرب في السفور والاختلاط لينعموا بالحب ، وكيفما شاعروا ، وأولئك يرون السفور والاختلاط مفسدة أى مفسدة لأن الله وهو أعلم بخلقه نهى عنهما في الكتاب . هؤلاء يريدون متابعة الغرب في ألا يتزوج متزوج إلا واحدة ، وأولئك يرون إباحة تعدد الزوجات لأن الله سبحانه أباحه في

الكتاب . هؤلاء يريدون التسوية بين الذكر والأنثى فى كل شىء . ظناً منهم أن الغرب يسوى بينهما ، وأولئك يرون غير ذلك فيما لم يسو الله بينهما فيه فى الكتاب . هؤلاء يرون الاسلام ديناً عربياً أنزل للعرب ولا يلائم إلا العرب ، وأولئك يعتقدونه دين الإنسانية الكامل أنزل للناس كافة بما يضمن صلاح الناس كافة غير متقيد بزمان ولا متخصص بمكان كما نص الله عليه فى القرآن وكما يتجدد عليه فى كل عصر البرهان .

ثم أنصار "الجديد" يضيّقون ذرعاً بالقيود الأخلاقية التى قيد الدين بها الناس فيما يعملون وفيما يقولون ، ويريدون أن يتحللوا منها فيزعّموا للناس أن هذه الأخلاق وقيودها إن هى إلا عرف وتقاليد ، وإن التقيد بالعرف والتقاليد فى الفن والأدب يعوق الفن ويحول دون ترقى الأدب ، فيجب إذن إطلاق الفن وتحرير الأدب من تلك القيود . ومن هنا نشأ خلاف آخر بين الفريقين نقل العراك بينهما من ميدان الاجتماع إلى ميدان الأدب . فأنصار الجديد يدعون إلى الفن العارى والأدب المكشوف ويدعون للفنان والأديب حرية القول والفعل لم يأذن الله فيها لإنسان ، وأنصار قديم الاسلام يدفعونهم عن هذا ويحدون حرية الفنان والأديب بما حد الله به حرية كل إنسان من قيود الدين والأخلاق وإلا عمت البلية بالأدب وصار شراً ووبالاً على الناس . واتسع الخلاف وتشعب بين الفريقين . يمضى أنصار الجديد الغربى فى توهين السد الاسلامى الذى يجدونه قائماً فى وجوههم أينما تلفتوا فيزعّمون للناس من طرف خفى أن القرآن من صنع عبقرى لا من صنيع الله ، وأنه آية فنية لكنه آية فنية إنسانية لا معجزة إلهية ، وإذن فينبغى أن يخضع لما يخضع له كل عمل إنسانى من النقد والفحص والبحث العلمى فيما يزعمون ، ويهيب لدرء هذا الإفك العظيم كل كريم نجد من رجال الأدب أو غير رجال الأدب من المسلمين ، ويقاثلونهم على إعجاز القرآن وحرمة وتقديسه ، ويدعونهم إلى خطة إنصاف ليس من إنصاف بعده : إما أن يتركوا القرآن وشأنه لا يتعرضون له بشىء إن كانوا لا يؤمنون به ، وإما أن يذكره ويدرسوه إذا قدروا على دراسته ، ولكن بنفس روح الاحترام والاحتياط والإجلال الذى يدرس به العلماء الشمس والنجم والبحر وما إليها من الظواهر الكونية الثابتة التى لا يد فى خلقها للإنسان . وهى كما ترى كلمة سواء غاية فى الإنصاف ، لو كان لدى أنصار الجديد الروح الذى يقضى بقبولها لما كانت هناك تلك المرارة فى القتال التى جلبها عدم قبولهم شطر الكلمة الأول ، ولا صطلح الفريقان وتحابا واجتمعا على التجديد الحق فى الأدب وغير الأدب لو أن أولئك قبلوا شطر الكلمة الثانى . وإذن لما كان هناك أنصار جديد وأنصار قديم ، ولكن فئة

واحدة من المجددين المصلحين الذين يعملون بالحق للحق ضمن دائرتي العلم والدين اللتين يشملهما الاسلام جميعاً .

إن من أشد ما يؤسف له أن تفترق قوة أولى القوة في الشرق هكذا فرقتين ، إحداهما تهدم والأخرى تدفعها عن الهدم ، فيشغل الفريقان جميعاً عن التجديد والبناء ، وعدرهما واقف لهما بالمرصاد . لكن التمني لا يجدي والواقع هو الواقع . فتستمر المعركة بين أنصار جديد الغرب وأنصار قديم الإسلام كأشد وأحمى ماتكون حتى يقضى الله بينهما بحكمه . ومهما يكن من ذلك فالموقف بين الفريقين هو في صميمه كما صورنا . وعلى أساسه يمكن النقد في غير كبير عناء أن يضع الأمر بينهما في نصابه فيما كان وفيما يجد من خلاف . وسنضرب فيما نستقبل من الكلمات مثلاً لذلك بتبيين وجه الحق فيما احتدم حول أدب الرافعي رحمة الله من جدال .

٢- بين القديم والجديد *

للأستاذ محمد أحمد الغمراوي

كتب سيد قطب مقالات عدة يجرح فيها الرافعى وأدبه . وسيد قطب ليس من تلاميذ الرافعى ولا يبلغ أن يكونه ، فما أظنه ولد إلا بعد أن ولدت مسألة القديم والجديد ، وعمرها كما نبهنا فى الكلمة السابقة لا يزيد على ثلاثين عاماً ، وإذن فعمره من يوم ولد إلى يوم كتب لا يمكن أن يبلغ عمر أدب الرافعى الذى بدأ يقول الشعر الجيد على رأس التسعمائة كما يدل عليه ما نشرت الرسالة من نماذج شعره فى ذلك العهد (أنظر مثلاً العدد ٢١٣ و ٢١٤ من الرسالة) ، وإذا كان عمر أدب الرافعى رحمة الله عليه أكبر من عمر صاحب تلك المقالات فقد كان المعقول أن يكتب عن الرافعى وأدبه بغير تلك اللهجة وبغير ذلك القلم لولا أننا فى عصر انتقال من أسوأ سيئاته قمره الشباب على النظم ولو كانت فاضلة ، وتناول الصغير على الكبير فى الإشارة والعبارة إذا كان بينهما خلاف .

ونحن إذ نقول هذا لا نأخذ على صاحب تلك المقالات أن يكون له فى الرافعى رأى يخالف رأى جمهرة الأدباء ، ولكن نأخذ عليه ما أخذه غيرنا من طريقة إبداء هذا الرأى . فلو كان ندا للرافعى لما حسن فيما يبدى من رأى فيه إلا أن يكون مهذب اللفظ مؤدب القلم ، فكيف وهو ليس للرافعى بند ولا لبعض تلاميذ الرافعى ؟ إن الأديب من غير شك يستطيع أن يعرب عن رأيه فى مقام كهذا من غير خروج على أدب القول ومن غير أن يزيد الطين بلة بالتماسه إلى هذا الخروج العليل والمعاذير .

على أن إسراف تلك المقالات فيما ذهبت إليه من سوء الرأى فى الرافعى وأدبه لا يشك فيه أحد ممن له شىء من الاتزان فى التفكير . فلو غير صاحب تلك المقالات خطر له فى الرافعى مثل هذا الرأى المسرف من أن ليس للرافعى إنسانية ولا طبع ولا نفس ولا قلب ولا ذوق ولا ذهن ولا حياة إلى آخر ما شامت له بغضائه أن ينفى عن الرافعى - لو غيره خطر له هذا فى الرافعى لوقف من هذا الخاطر موقف المتهم المتشكك على أقل تقدير ، إذا غير معقول أن يبلغ الرافعى رحمه الله ما بلغ من حسن السمعة وبعد الصيت فى عالم الأدب العربى ثم لا يكون له من كل تلك الصفات حظ يفسر ما قال من صيت حسن وتقدير كبير عند جمهرة الأدباء ، رغم بعض

العيوب البادية في بعض ماكتب من مثل (على السفود) ورغم ما في بعض كتاباته من صعوبة أو غموض . فالرافعي نال مانال من حظوة ومكانة في عالم الأدب العربي رغم هذه العيوب ، ثم نال ذلك غير مزيد بمال ولا جاه ولا سياسة ، وهذا معناه عند الناقد المتزن أن أدب الرافعي لا بد عند التصفية أن تبقى منه بقية كبيرة صالحة تكفي لتمجيده إن لم تكف لتخليده . وإذا كان يكون عمل النقد الأدبي أن يميز تلك البقية ويجليها للناس تراثاً طيباً يضم إلى ما خلفت القرون من التراث العربي الأدبي الطيب . لكن مثل هذا الناقد يحتاج من قوة العقل ، وسعة الاطلاع ، ومحبة الحق والخير ، ومجانبة العصبية والهوى إلى ما لا تنبئ عنه تلك المقالات .

إن أظهر ماتنبئ عنه تلك المقالات أنها نتاج العاطفة قبل أن تكون نتاج العقل . فالعاطفة الجامعة أوحى بكتابتها ، والعاطفة الجامعة لونت الوقائع لعقل صاحبها حين سخرته لحياكة ذلك النقد طبق وحيها . ومدار هذه العاطفة هو حب العقاد وبغض الرافعي : حب العقاد حب مفتون ، وبغض الرافعي بغض مجنون . فلا مدح أكبر من أن يفيضه على العقاد ، ولا ذم أوضع من أن يكيله للرافعي ، وكأنه يعتذر في الحالين من التقصير . ولا عليه في حب العقاد أو غير العقاد أسرف في الحب أو اقتصد ، بل لا عليه في بغض الرافعي أو غير الرافعي ما بقي بغضه سلبى الأثر ؛ أما إذا حركه الحب أو البغض إلى العدوان على من يبغض في سبيل من يحب ، فعندئذ تبدأ تبعته ، وعندئذ تحب مراقبته ثم محاسبته على ما يكتب أو يقول خصوصاً إذا أراد أن يستتر بالنقد مبالغة في الكيد أو احتواء من القانون .

لو كان للنقد الأدبي في مصر أو في العالم العربي قوامون يضارون عليه ويرعون له لتهيب اقتحامه من لا يحسنه ، ولما أقدم على نقد مثل الرافعي من لا يعرف أولاً يراعى أوليات النقد . إن من أبسط أوليات النقد الاحاطة بالموضوع . وصاحبنا الذي لا يعجبه مذهب الأقدمين في النقد ، ويريد أن يشق للناس طريقاً جديداً ، يقدم على نقد الرافعي فيما زعم من غير أن يحيط بأدب الرافعي أو يحاول أن يحيط به . وهو فيما يظهر لا يحس أنه اقترف بهذا جرماً لأنه يعترف به في غير اعتذار ولا حياء . يقول في مقاله الثالث إنه كتب كلمته الأولى على صدى مطالعته القديمة للرافعي ، وكتب كلمته الثانية وليس بين يديه إلا وحى الأربعين . ثم ذهب إلى رسائل الأحزان يتلمس الأمثلة توضيحاً لرأيه فاصطدم بالرافعي كما يقول من جديد ؛ وعلى وقع هذا الاصطدام كتب عن الرافعي ثم كتب حتى أبلغ كلماته إلى ثمان . فعمدته في تقدير الرافعي على الأخص شيئان : صدى مطالعته القديمة ، ورسائل الأحزان . وصدى مطالعته القديمة هو كما يقول "صدى غامض يدل على الجملة ولا يمد الناقد بالتفصيل" .

ومطالعائه ألقائية لاتعدو "حديث القمر" وما كان يكره نفسه على قراءته بعد "حديث القمر". و"حديث القمر" كما أخبر في كلمته الأولى كان أول ماقرأ للرافعى وقد أحس بعده ببغض الرافعى بغضا جعله لا يقرأ للرافعى إلا كارها ، فتزداد كراهيته بما يقرأ من غير أن يعرف لذلك تعليلا كما يقول . فصدى هذه المطالعات كان من غير شك صدى بغضاء وكراهية ، ومع ذلك فقد ظفر الرافعى من صاحبنا فى مقاله الأول بنصيب يكاد يعدل نصيب العقاد حين أراد صاحبنا أن يقسم المزايا الأدبية بين الاثنين . فالعقاد أديب الطبع ، والرافعى أديب الذهن . "العقاد أديب الطبع القوى والفطرة السليمة ، والرافعى أديب الذهن الوضاء والذكاء اللامع . والعقاد متفتح النفس ريان القلب ، والرافعى مغلق من هذه الناحية متفتح العقل وحده للفتات والومضات" هكذا حكم سيد قطب بين الأدبيين الكبيرين ، وحكم لنفسه ضمنا بشيء كثير حين نصب نفسه حكما بينهما . وإذا تذكر أنصار الرافعى أن هذا الحكم فيما يتعلق بصاحبهم هو صدى غامض لمطالعات قديمة محفوظة بالكراهية والبغضاء كان لهم حقا أن يغتبطوا به . ولا عليهم من "مغلق" ومتفتح العقل وحده للفتات والومضات" فان الحكم لا يعطى العقاد شيئا من انفتاح العقل ولو للفتات والومضات . فهو سوى بين الاثنين تسوية تكاد تكون تامة ، أو بالأحرى جعل المزايا الأدبية قسمة بينهما على سواء تقريبا : أخرج العقاد من دائرة الذهن والعقل ، كما أخرج الرافعى من دائرة النفس والقلب ، وخص أحدهما بما نفى عن الآخر . فإذا شك أنصار العقاد فى أن هذا مفهوم حكم صاحبهم على صاحبه ومنطوقه فليقرأوا مقدمة الحكم إذا شاموا :

"وبعد فما كان يمكن أن يتفق العقاد والرافعى فى شيء ، فلكل منهما نهج لا يلتقى مع الآخر فى شيء"

فهل لا يزال أنصار العقاد بعد هذا على شك من مفهوم حكم صاحبهم ؟ إنهم ليس لهم أن يشكوا بعد هذه المقدمة ، إذ لو كان العقاد يشرك الرافعى فى أدب الذهن لاتفق الاثنان فى شيء ، والتقى الأدبان على شيء ، أما وهما لا يتفقان ولا يلتقيان فى شيء فى حكم هذا الحكم المجدد ، فما أثبتته للرافعى من أدب الذهن الوضاء والذكاء اللامع لابد أن يكون نفاه عن العقاد إن كان يعرف ما المنطق وما التفكير . ليس عن ذلك محيص .

لكن لا عليهم هم أيضاً من حكم صاحبهم فإنه لا يعنى مايقول ولا ينظر فى أعقاب الكلام ونتائج المقدمات . هو حسن النية يلقى الكلام دفاعاً عن صاحبه كما ألقت الدبة ذلك الحجر المعروف .

على أنه إن كان لحكمه هذا قيمة فقد عاد فنقضه في مقاله الثالث . نقضه بالنسبة للرافعى من غير أن يصلحه بالنسبة للعقاد . ولو خطر بباله أن حكمه ينتج غير ما يريد بالنسبة لمن يحب لأصلحه ، لكن ذلك لم يخطر بباله فاكتمى بأن نفى عن الرافعى الدائرة التى كان أثبتها له ، دائرة أدب الذهن ، وترك العقاد فى الدائرة التى كان أثبتها له ، دائرة أدب القلب ، من غير أن يثبت له الدائرة الأخرى التى كان قد نفى عنه . وليس لرجوعه عن حكمه للرافعى داع إلا أنه فيما زعم قد نفى عنه . وليس لرجوعه عن حكمه للرافعى داع إلا أنه فيما زعم ذهب يتلمس فى "رسائل الأحزان" الأمثلة التى تفصل مجمل ما دل عليه الصدى الغامض لمطالعة الرافعية السابقة ، فاصطدم بالرافعى " واختلف الصدى الغامض القديم عن الصوت الواضح الجديد" كما يقول . فهو حين ذهب إلى "رسائل الأحزان" لم يذهب ليستوثق من صحة دلالة الصدى القديم التى بنى عليها حكمه الأول ، لأنه لم يكن يخالطه فى صحتها شك ، إذ "ما من شك أن الرافعى كان ذكياً قوى الذهن" كما يؤكد فى كلمته الأولى حين كان يلتبس أن ينفى أن يكون أدب الرافعى أدب طبع عن طريق تبين أنه "كثيراً ما يختلط أدب الذهن وأدب الطبع إذا كان مع ذكاء وقوة". لم يذهب إلى رسائل الأحزان إذن ليستوثق من صحة تلك الدلالة أو ذلك الحكم ولكن ليؤيدها ويفصلهما بأمثلة . فلما اختلف الصوتان وتعارضت الداللتان مال عن الدلالة القديمة الغامضة إلى الدلالة الجديدة الواضحة ؛ وهو يظن أن هذا كاف للرجوع عن حكم حكمه ورأى ارتأه ، ولا يرى فى ذلك شيئاً من سطحية الحكم والنظر التى كثيراً ما يرمى بها خصومه من غير مبرر . لكن النظر السطحي وحده هو الذى يبرر الرجوع عن ذلك الحكم بمثل هذه السهولة لمثل هذا السبب .

إن الغرض الذى وصف به صدى مطالعته القديمة قد فسرهُ هو وحدده بأنه عدم إمداد الناقد بالتفصيل . فذلك الصدى إذن صحيح فى جملته وإن لم يكن واضحاً فى تفاصيله . والتفكير الصحيح كان يقضى ويتطلب أن يتفق الصديان أو الصوتان فى الجملة إن كانا مما يبنى عليهما حكم ، فإن اختلفا لم يمكن بناء حكم على أيهما حتى يتبين وجه الحق فيهما ببيانات جديدة . وكان المنتظر من جشم نفسه دراسة المباحث النفسية الجديدة ومباحث علم الأحياء ومباحث الضوء فى الطبيعة إلى آخر ما حدث عن نفسه فى مقاله السادس أنه قد درسه كى يرقى إلى محاولة استيعاب العقاد - كان المنتظر من مثل هذا أن يكون قد انتفع أيضاً بتلك الدراسات العلمية إلى حد الرقى إلى تلوق الروح العلمية وتفهم الطريقة العلمية فى النظر ، فهذا أنفع له أوجدى عليه من كل ما عرف من مفردات الوقائع والحقائق والنظريات . فلو كان رقى إلى الروح أو الطريقة العلمية فى النظر والاستدلال ، ووجد فى البحث الذى كان

بصدده أن رسائل الأحزان تخالف في دلالتها حديث القمر ، وماتبعه من مطالعات للرافعى وإن قلت ، إذن لوقف موقف العالم الذى يجد نفسه حيال فرضين كل منهما يفسر شطراً من الوقائع التى لديه من غير أن يفسر الشطر الآخر ، فينبذ الفرضين جميعاً ويسعى للوصول إلى فرض جديد يفسر الوقائع جميعاً . فإن كانت الوقائع قليلة ، كما هى فى حالة جديد يفسر الوقائع جميعاً . فإن كانت الوقائع قليلة ، كما هى فى حالة صاحبنا حين أراد أن يحكم على الرافعى من كتابين اثنين - سعى العالم إلى تكثير الحقائق قبل أن يطمئن إلى فرض يفسرها ، كما كان يجب على صاحبنا أن يقرأ كل ما كتب الرافعى قبل أن يطمئن إلى حكم يحكمه ، لا أن يقرأ كتابين على فترة طويلة من الزمن حتى إذا اختلف صداهما عنده حكم لأحدهما على الثانى من غير قرينة ولا مرجع . وإذا كان رأى الذى حكم له أقرب إلى ميله واتجاه عاطفته - كما هو الواقع - لم يبق شك فى أن صاحبنا الناقد المجدد مسير بعاطفته لا بعقله ؛ يتبع العقل ما اتفق وعاطفته ، فإذا اختلفا ترك عقله واتبع هواه

ومن عجيب أمر كاتبنا الناقد أنه أصدر فى أمر الرافعى أحكاماً ثلاثة فى كلمتيه الأولى والثالثة من غير أن يكون لأحد هذه الأحكام أساس معقول . قرأ حديث القمر وما إليه فازداد كراهية لذلك اللون من الأدب من غير أن يجد لذلك تعليلاً ، غير أنه كان يزعم لإخوانه أن الرافعى خواء من "النفس" وأن ذلك سبب كراهيته له . هذا حكمه الأول أبداه على تردد وكأنه يعتذر منه فكان بذلك أقرب إلى المعقول .

ثم كتب صديق الرافعى الحميم فصوله الممتعة فى تاريخ الرافعى وضمنها تاريخ حب الرافعى فى الأعداد ٢٢٦ إلى ٢٣٢ من الرسالة بدأها أول نوفمبر وانتهى منها حوالى منتصف ديسمبر سنة ١٩٣٧ فاغتبط ناقدنا كما يقول لأنه وجد للرافعى حياً له مظاهر وخطوات وأخذ يعلل اغتباطه ذلك بقوله : إن خيالى المنبعث من قراءة الرافعى لم يكن يطوع لى أن الملح إمكان وجود هذه العاطفة فى حياته ، فالحب يتطلب قلباً وكنت أزعم أن ليس للرجل قلب ، والحب يقتضى "إنسانية" وكنت أفتقدتها فيه "حسن ها هوذا قد عرفت أن خياله المنبعث من قراءته الرافعى كان مخطئاً ، فهل تراه غير رأيه فى الرافعى وأثبت له ما كان ينفيه عنه من قبل من أخص خصائص الإنسان بله الأديب ؟ لا . واسمع له يتم لك بقية حديثه فإنه حديث عجب :

"لقد ظلمت هكذا" - أى قاسياً على الرافعى بنفى الإنسانية والقلب عنه - "حتى استطعت أن أكون ناقداً لا يكتفى بالتدقيق والاستحسان والاستهجان ولكن يعلل ما يحس ويحلله فماذا

كانت النتيجة ؟ لقد عدت حكى قليلا ، وخفت حدته ولم أعد أستشعر البغض والكراهية للرجل وأدبه ولكن بقى الأساس سليما .

كنت أنكر عليه "الإنسانية" فأصبحت أنكر عليه "الطبع" ؛ وكنت لا أجد عنده "الأدب الفنى" فأصبحت لا أجد عنده "الأدب النفسى"

كلام مرصوص قد ينخدع به مثل كاتبه ، إن جاز على أصحاب "الأدب النفسى" فلا يجوز على أصحاب "الأدب الذهنى" تأمل هذا الكلام قليلا ، تأمل أوله ثم تأمل آخره . لقد ظل ينكر على الرافعى الإنسانية والقلب حتى أصبح ناقداً يعزل ويحلل . وقد رأيت من كلامه قبل ذلك أنه كان على هذا الإتيكار حتى حدثه العريان بحديث حب الرافعى فى أواخر سنة ٣٧ . إذن فاستطاعته أن يكون ناقداً لا يمكن أن تكون سبقت هذا التاريخ ، وإن حدثنا فى مقاله الخامس عن محاضرة له فى وحي الأربعين ألقاها سنة ٣٤ . فتلك المحاضرة إذن كتبها قبل أن يستطيع نقداً أو تعليلاً أو تحليلاً إن كان يعنى كلامه السابق ، ويكون كلامه السابق هداماً لما فى تلك المحاضرة من نقد وتحليل يحيل عليه فى مقالة الخامس . أما إذا كان لا يعنى كلامه السابق وكانت محاضراته تلك تحتوى على نقد نفيس فإن هناك تفسيراً واحداً لهذا التناقض هو أن صاحبنا الكاتب الأديب لا يحسن التعبير عما يريد باللغة التى هو إخصائى فيها .

عد عن هذا وسلم له استطاعته النقد حين قرأ حديث حب الرافعى ، بصرف النظر عن مبدأ هذه الاستطاعة ؛ والنظر فى النتيجة التى رتبها عليها . لقد عدل حكمه قليلا . لماذا هذا التعديل القليل أو الكثير ؟ وما علاقته باستطاعة صاحبه النقد والتحليل والتحليل ؟ إنه لم يقرأ للرافعى شيئاً جديداً ينقده ، ولم يرجع إلى ما قرأ قديماً فيعيد قراءته ليحلله ويعلل أثره فى نفسه . إن المقروء القديم هو : حديث القمر وأكره نفسه عليه . ولو كان قرأه ثانياً من جديد ما كان صدها ذلك الصدى الغامض الذى يدل على الجملة ولا يمد بالتفصيل . إذن فماذا نقد وماذا حلل ولماذا عدل ؟ هل نستطيع لهذا جواباً ؟ هل يستطيع هو لهذا جواباً لا مراوغة فيه ولا "لعب على حبل" ؟ إن أحاديث العريان عن حب الرافعى يجب أن تؤخذ كلها أو تترك كلها لأنها من قبيل الأخبار . فإن أخذت كلها لزم الكاتب الناقد اثبات "الإنسانية" و"القلب" للرافعى من غير قيد ولا شرط . وإن تركت كلها لزمه الوقوف عند رأيه الأول من غير تعديل كثيراً أو قليل . فلماذا إذن ذلك التعديل القليل وما علاقته باستطاعة صاحب المقالات النقد والتحليل والتحليل ؟ أم هى كلمات ترص ليس تحتها معنى مقصود محدود ؟ أم هى العاطفة تسير صاحبها فى حكمه وإن قام على خطئها الدليل ؟

على أننا سنغض الطرف عن هذا كله ونفرض أن استطاعته النقد مكنته بطريقة ما من تعديل الحكم تعديلاً قليلاً . فهل تراه عدله تعديلاً ما ؟ لقد كان يزعم قبل أن يعرف للرافعى حياً أن الرافعى خواء من "النفس" والآن وقد عرف للرافعى حياً كثيراً أصبح لا يجد عند الرافعى "الأدب النفسى" بعد أن كان لا يجد عنده "الأدب الفنى" أتجد فرقاً بين خلو الرافعى من "النفس" وخلو أدبه من "الأدب النفسى" الذى لا يصدر إلا عن "نفس" على حد تعبيره ؟ ما نرى صاحبنا إلا وقد سلب الرافعى باليمين ذلك القليل الذى أعطاه بالشمال ، وقد صرح بهذا السلب فى صدر مقاله الثالث وإن زعم فى مقاله الأول أنه اغتبط لما حدث به العربان من حديث حب عدل حكمه من أجله بعض التعديل .

بقيت واقعة صفرى ليست بذات بال فى نفسها وإن كان لها دلالتها النفسية على تعبير صاحب تلك المقالات . إنه حين أحس بالفضاضة فى التراجع عن حكمه الأول بين الرافعى والعقاد إلى حكمه الأخير الذى بناه على رسائل الأحران ، أراد أن يهد لذلك التراجع لدى القارىء فى مواربة وجمجمة ، فهل تدره ماذا صنع ؟ إنه زعم أنه أخطأ فى عدم تحديد "الذهن" الذى قال إن الرافعى يصدر عنه فى أدبه فى مقاله الأول ، فإن من الأذهان ماهو مشرق أو خاب وماهو متفتح أو مغلق إلى آخر ما قال . لكن رجعة إلى صيغة حكمه الذى نقلناه لك فى هذا المقال تبين لك حظ هذا الزعم من الصراحة والصدق . إنه لم يخطئ ، فى عدم "تحديد" الذهن لأنه حدده بأوضح الألفاظ فى ذلك الحكم . وقد كان يستطيع أن ينكر ويتراجع فى صدق وصراحة من غير لف أو اختداع للقارىء . ولا عليه من شىء قاله أو يقوله من مدح أو ذم ، من إطراء أو هجاء ، فإن المدح والذم يستويان عند "ذوى المواهب الذهنية" إذا صدرا عن "ناقد" تسخر عقله العاطفة ، كما بينا فى هذا المقال ، وكما نرجو أن نزيده إن شاء الله بياناً فيما يأتى من الكلام .

٣- بين القديم والجديد*

للأستاذ محمد أحمد الغمراوي

لو كان الرافعي حياً وعدا عليه عاد في نفسه وأدبه كما عدا سيد قطب ما تحرك بالدفاع قلم غير قلم الرافعي . وما أظن سيد قطب كان يتحرك إذ ذاك بثلب للرافعي أو تنقص لأدبه . أما وقد مات الرافعي فقد ظن سيد قطب أنه يستطيع أن يعدو على الرافعي ويسخر من أدبه باسم النقد ، وهو آمن أن يوقعه ذلك في ورطه مهلكة كالتى كان يقع فيها لو أنه تناول أدب الرافعي في حياته ، يمثل القلم الذى تناوله به بعد مماته ، لكن الأدب الكبير الحق ، ككل شيء حق كبير في الحياة ، يدفع عن نفسه بنفسه عدوان العادين حتى بعد موت صاحبه . ودفاع الحق عن نفسه له مظهران : مظهر إيجابى تقف فيه عناصر الصواب والصدق والخير فجادل عن نفسها عند كل ذى عقل وقلب ، وتجعل منه حكما يحكم لصاحبها ولو بين نفسه ونفسه ! ومظهر سلبى لعله أعجب المظهرين وأخصهما بطبيعة الحق ، يتجلى في تورط مخاصم الحق في أغلاط ومزالق ومهاو يتردى فيها من حيث يحذر ومن حيث لا يحذر ، فيكون مخاصم الحق بذلك هو نفسه الذى ينتقم للحق من نفسه بما يكشف من عوارها ويبدى من مقاتلها .

والأغلاط التى تورط فيها سيد قطب بالعدوان على الرافعي في نفسه وأدبه كثيرة لم يكن ما بيناه في المقال السابق إلا أقلها . ويؤذن النقد بها في أول ما يطالع من تلك الكلمات تطرف صاحبها البالغ في رأى . والتطرف هو دائماً دليل الهوى وفقدان الاتزان في الحكم إن اغتفر للعامة فلا يعذر فيه الخاصة . فالعقاد عند الكاتب أديب الطبع القوى والقلب ، ولا طبع ولا قلب للرافعي . والعقاد عنده لا يليق به لقب أمير الشعراء لأن المسافة بينه وبين شعراء عصره أكبر من المسافة بين الأمراء والسوقة ؛ ومعنى هذا أن الرافعي الشاعر لا يبلغ أن يكون في السوقة حين يكون العقاد في الأمراء .

ويزداد شطط الكاتب كلما تقدم به الشوط . فالعقاد يكتب عن عقيدة في الأدب والرافعي يكتب عن غيره عقيدة . والعقاد يخلق حتى المبادئ الخلقية ، والرافعي لا يستطيع أن يخلق شيئاً . ونحن نظن أن الرافعي رحمه الله لم يكن يسره أن تبلغ به المقدرة حد خلق المبادئ الخلقية ، لكن كان يسره أن تبلغ به المقدرة حد خلق المبادئ الخلقية ، لكن كان يسره من غير شك أن يكون له على خلق غير المبادئ الخلقية شيء من المقدرة .

والعقاد بعد ذلك هو أديب الذهن المشرق (مقال ٦) والطبيعة الممتازة والنفس الرحبة والمواهب التي تنتفع بالثقافة وتعلو على حدود الثقافات ! أما الرافعي فهو أديب الذهن المريض الخابي المغلق غير ذي النفس ولا الثقافة . ثم العقاد فوق ذلك وقبل ذلك هو الكاتب الجبار الذي بقى "وتضعض خصومه ووراءهم قوة العدد وقوة الحكم وقوة المال وقوة الماضي الوطني وكل قوة مأمولة في الوجود" أما الرافعي فهو أحد خصوم العقاد الذين لم يغن عنهم حيال جبروته التجاؤهم إلى الدين وهو أقوى أثراً من السياسة وأكثر اتباعاً ، فكانوا رغم استعانتهم بالدين في معارضة العقاد من المغلوبين . فصاحبنا كما ترى لا يتشكك في أن العقاد هو هزم الوفد وهو هزم غير الوفد ممن استعان في خصومته بسلطان السياسة أو الدين . وتقوم غاشية الهوى دون عقل صاحبنا فلا يبصر العوامل المتعددة القوية التي كان مجموعها أقوى من سلطان الوفد فانهزم ، ولا يذكر أن المعركة التي انهزم الوفد فيها كان أمضى سلاحها سلاحاً دينياً ، وكان من أكثر الناس استعمالاً له حين جد الجدل العقاد .

إلى هذا الحد من الإسراف والغفلة بلغ بصاحبنا هواه . وجدير لمن يتصدى للحكم بين اثنين هذا مبلغ إسرافه فيهما على نفسه أن يغفل حسنات أحدهما ولا يبصر سيئات الآخر ، وأن يخرج النقد من قلمه شيئاً آخر أو أقل خلقاً آخر ينكره الحق ولا ينكره الباطل لغلبة الهوى عليه وقلة أثر العقل فيه .

لكن صاحبنا لا يعجبه أن ينبهه منبه إلى مافى إسرافه ذلك من خطر عليه هو : على نزاهة حكمه وحرية رأيه ، وإستقلال فكره وحيوية نفسه وسلامة طبعه ، فيرد على من نبهه رد المغيظ المحقق^(١) رامياً إياه بتكلف التورع والتنطس تارة ، وبعدم التفريق بين الكيف والكم ولا بين الصدق والنعج" تارة أخرى ، زاعماً أنه فيما قال إنما يتبع البرهان والدليل ! إلى الخطر الذي يحيط ببرهانه هذا ودليله أريد تنبيهه ، فلم يزد على أن جاء بدليل آخر على إسرافه في التشيع حين لم يتنبه إلى احتمال وقوع الخلل في رأيه ومنطقه من جزاء غلوه ، وحين زعم لنفسه وللناس أن رأيه ذلك إنما بناء على البرهان والدليل .

إن الناقد الحق كالقاضي العدل ، من أظهر صفاته وأوضح أماراته أن يطبق قانونه تطبيقاً واحداً على المتخاصمين . قد يكون القانون الذي يطبقه القاضي معيباً في ذاته ، لكن القاضي لا يسأل في العادة عن ذلك وإنما يسأل عن التطبيق . وقد يخطئ القاضي في التطبيق لكنه

على أى حال يجب ألا يخطئ الروح : روح الإتصاف والتسوية بين الناس عند تطبيق القانون. والناقد كالقاضى فى هذا الشرط : شرط وجوب التزام روح الإتصاف والتسوية بين الخصوم عند تطبيق معايير النقد ، إلا أن الناقد له على القاضى مزية التمتع بقسط غير قليل من الحرية فى اختيار معايير ومقاييسه فى حين أن القاضى لا يملك شيئاً من الحرية فى اختيار القانون الذى يحكم به بين الناس . فالناقد والقاضى متساويان فى تبعه الروح الذى به يطبقان ما بيدهما من أصول وقواعد ، لكن تبعه اختيار هذه الأصول والقواعد إذا أعفى منها القاضى فلا يمكن أن يعفى منها الناقد كل الإعفاء ، بل ولا بعض الإعفاء عند التحقيق .

والقواعد التى جرى عليها الكاتب فى المفاضلة بين الرافعى والعقاد وفى حاجة المنتصرين للرافعى ممكن استنباطها فى سهولة من تضاعف كلامه ، لكننا لا نريد الآن أن نحاسبه على قواعد ومعايير ومبلغها من الصحة والدقة ، ولكن نحاسبه الآن على الحد الأدنى من تبعه الناقد وهو القدر المشترك بين الناقد والقاضى من تبعه التسوية بين الخصوم فى تطبيق الأصول والقواعد مهما تكن تلك القواعد والأصول .

لكن لانكاد نشرع فى قياس كفايته فى النقد ونزاهته فى الحكم بهذا الحد الأدنى الضرورى حتى يتضاءل وينزوى عنه سجل النقد كما يتضاءل القاضى وينزوى إذا حاكم الخصمين فى المسألة الواحدة إلى غير قاعدة أو مادة واحدة وغلب ذلك عليه فى قضائه بين الخصوم .

فناقدنا لم يقترب فى نقده جرماً أقل من كيله بمكيالين وتفكيره بمنطقتين فى حكومته بين الطرفين فى الموضوع الواحد والنقطة الواحدة ، فله ولصاحبه منطق ومكيال ، ولخصومهما فى نفس الموقف ونفس الموضوع منطق آخر ومكيال آخر . والقاعدة فى ذلك - على ما يظهر - أن يكون الحكم دائماً لمن يحب على من يبغض . وإليك من ذلك أمثلة فى غيبر إطالة ولا استقصاء .

ويرى الكاتب^(١) أن العريان أساء تقدير العقاد لأنه لم يختلط بالعقاد أولاً ولم تفتح نفسه لأدب العقاد فيفهمه ثانياً . والكاتب يقر بأنه لم يختلط بالرافعى ويأنه يكره أدبه . ولا يخطر بباله مع ذلك أنه أساء تقدير الرافعى لنفس السبب الذى من أجله رأى أن العريان أساء تقدير العقاد .

ويرى^(٢) الكاتب أنه ينبغي في تحديد معنى السب والشتم أن يطبق علم النفس وعلم الأخلاق على العالم الأدبي فلا ينظر إلى الألفاظ ولكن إلى أسبابها وملابساتها ولا يلتبس للرافعي عذرا من هذا الباب الذي فتحه لالتماس العذر للعقاد .

ويعذر^(٣) العقاد في قسوته على الرافعي لأنه يصور على الأقل ما يعتقد هو أنه حقيقة ، ولا يعذر الرافعي بمثل هذا العذر في قسوته على العقاد .

ويعتذر^(٤) عن العقاد فيما أتى إلى مخلوف باعتقاد العقاد عظم الفرق بين نفسه وبين مخلوف ، وحنقه أن يجترىء مثل مخلوف على نقده . وقطب نفسه مستعد للثورة والحنق إذا تناول أدبه متناول بمثل ضيق الفهم واستغلاق الشعور اللذين تناول بهما مخلوف أدب العقاد . أي يعتذر عن نفسه وصاحبه في غضبهما لأدبهما بحسن رأيهما في نفسيهما وسوءه في غيرهما ، وهو باب من العذر يسع كل الناس لكنه لا يتسع للرافعي ومن معه وإن كان الرافعي أجدر أن يثور لإتكار العقاد إعجاز القرآن كما حكاه العريان .

ويعتب^(٥) على العريان في صدد ما كتب عن تلقيب العقاد بأمير الشعراء أنه سمح لصداقته للرافعي أن تعدو على التقدير الصحيح للعقاد ، ولا يعتب على نفسه هو أن سمح لصداقته أو محبته للعقاد أن تعدو على التقدير الصحيح للرافعي . وبعبارة أخصر ، يهتم العريان في تقدير العقاد لصداقته للرافعي ، ولا يهتم نفسه في تقديره الرافعي مع ما يعلم من بغضه الرافعي ومحبته العقاد .

ويعيب^(٦) على الرافعي إثباته في شعره بالمعاني المألوفة المألوسة التي سبق إليها الشعراء مثل :

إن يقض دين ذوى الهوى فأنا الذى بقيت ديونه

ومثل :

تضنى المحب كأنها أجفانها ألقت عليه فتورها وملالها

يرى ذلك من ناحيته تقليداً من الرافعي لشعراء الدول المتتابعة والممالك في مصر وشعراء أواخر العهد العباسي ؛ ويراها من ناحية أخرى معاني مطروقة "يباع كل عشرة منها بقرش في هذه الأيام" حتى إذا قال الرافعي :

(٢) مقال ١ ، رسالة ٢٥١ .

(٦) مقال ٣ ، رسالة ٢٥٤ .

يا من على الحب ينسانا ونذكره لسوف تذكرنا يوماً وننساك

وهو كما ترى معنى على أفواه الناس سبق إليه القصص القديم ولا بد أن يكون سبق إليه كثيرون من شعراء الدول المتتابة أو شعراء غير الدول المتتابة - حتى إذا قال الراقعي هذا لم يعبه عليه ولم ينتقصه من هذه الناحية ، وهل تدري لماذا ؟ لأنه يعتقد أن الراقعي أخذ البيت عن العقاد (٢) .

ويميب (٣) على محمود شاكر توسعه في تبين مذهب المقتدرين من شعراء العربية في العصور المختلفة في الغرض الذي كان يصده ، بعد ذلك منه جرياً " على النسق الخالي من كتب النقد لقدامة وأبي هلال العسكري ومن ينقلان عنهما من تتبع المعنى تتبعاً زمنياً ، وحسبان كل شاعر متأخر أخذ هذا المعنى عن شاعر متقدم .. " وهو مذهب يظن الكاتب به "القصود والجمود" ومع ذلك فظنه هذا لم يمنعه من حساب الراقعي قد أخذ بيته المذكور آنفاً عن العقاد كما رأيت . ولعل عذره في ذلك أن الراقعي والعقاد كانا متعاصرين حين قيل ذلك البيت فلا سابق منهما ظاهراً في الزمن ولا مسبق .

ثم يرى ناقدنا أن "الحكم على النيات عمل عسير لا يصح الاستخفاف به" إذ كان الأمر متصلاً بالعقاد ونية طه حسين في تلقيبه إياه بأعير الشعراء ، أما إذا كان الأمر متصلاً بنية الراقعي في خصومته للعقاد فعندئذ يزول العسر ويجوز الاستخفاف وتتدخل نظرية فرويد والتحليل النفسي في الموضوع فتجعل كوامن الإنسان تظهر من فلتات اللسان ، وتكشف قلم الراقعي في رسائل الأحزان عن الراقعي في أعماقه ، وتنبئ ناقدنا ذا التحليل والتحليل أن "أهم أسباب الحق في نظر الراقعي وأظهر دوافعه" هو "فوقان ؟ إنسان على إنسان في النتاج الأدبي " ، ولجعله يصيح : "وهكذا كان الراقعي مع العقاد" .

هذه ثمانية مواقف في الخصومة القائمة حول أدب الراقعي والتي أثار غبارها سيد قطب وجعل نفسه فيها ناقداً وحكما ليس لأحد الطرفين في موقف منها كلام إلا ويصح أن يقوله الطرف الآخر ، ولا يمكن أن يستند في الحكم لأحدهما على مبدأ أو أصل أو قاعدة إلا ويمكن الاستناد على نفس هذا المبدأ أو الأصل أو القاعدة في الحكم للآخر لما بين الطرفين في كل

(٢) مقال ٤ .

(٣) مقال ٥ .

موقف من تمام التشابه . لكن صاحبنا واسع الخيلة فى النقد ، يستطيع أن يفرق بين المتشابهات فى الخصومة وأن يطبق المبادئ والأصول والقواعد بحيث تأتى الأحكام كما يريد ، فيخرج أحد الخصمين دائماً ظافراً والآخر خائراً وليس بيد أحدهما من الحجة ما ليس بيد الآخر إلا أن الظافر محبوب والخاسر مكروه لهدى ناقدنا المجدد الذى لا يعجبه فى النقد مذاهب القدماء .

ترى كيف أمكن لهذا الناقد أن يخطئ فى تطبيق مبادئه هذا الخطأ ويفرق بين الخصمين فى المواقف المتشابهة هذا التفريق إن لم تكن عاطفته قد جمحت به وجعلته يجنح عن صراط النقد السوى والتفكير الحر المتزن ذلك الجنوح الكبير ؟

إننا قد بدأنا نشفق على هذا الناقد الناشئ من هول ماجنى على نفسه بتسخيره عقله لهواه فى أمر كبير كالذى تصدى له . ولو علمنا أن هذا القدر يكفيه ليفىء إلى أمر الله لوقفنا عند هذا الحد رفقا به وإبقاء عليه فإن فيه عناصر ذات قوة لا يحول بينها وبين النفع والخير إلا أنها تحاول أن تشق لنفسها مجرى غربيا آخر تضيع به حتما بدلا من أن تنضم إلى النهر نهر العربية الكريم الواسع الذى أجراه الله لها بالقرآن .

إن هناك فى تاريخ العربية ، جداول ضلت الطريق إلى هذا النهر فضاع ضعيفها وكون قوياً منهاق الأدب العربى ومآسنه ودمته الخضراء الوخيمة . وأدب الرافعى رحمة الله عليه لم يخطئ منه مجرى هذا النهر القرآنى إلا القليل ، وإلى هذا القليل نبه الأستاذ العريان فيما أرى للرافعى وإن بأسلوب آخر . وعيب الأديب قطب أنه لم يعرف هذا القليل ولا ذلك الكثير على وجهه ، ويحاول أن يتوصل بكل سبيل إلى هدم الرافعى الشاعر الكاتب المجاهد فى سبيل الله والعربية والقرآن ؛ لكن الذى يحاول هدم الحق ينهدم به وإن تحفظ ، ونحن نشفق على أخينا سيد قطب من عاقبة معاداة الحق ومجافاة طريق القرآن . فهل له فى أن يفىء إلى الحق وإلى أمر الله ؟ إننا نكون أول المعتبطين له وبه إن فعل ونستغفر الله إليه مما يسوءه فى هذه الكلمات .

"بور سعيد"

محمد أحمد الغمراوى

٤- بين القديم والجديد للأستاذ محمد أحمد الغمراوي

أشفقنا على كاتب مقالات "بين العقاد والرافعي" من هول ماجنى على نفسه بتسخيره عقله لهواه فيما تصدى له ، قدعوناه إلى أن يفتىء إلى الحق ويسلك فى أدبه سبيل القرآن قبل أن يحق عليه ماحق على كل مجانب لطريق القرآن من قبله . لكننا لم نكد نتم قراءة مناقشاته وشروحه التى بسط فى العدد ٢٦٢ من الرسالة حتى أيقنا أننا أمام مغرور لن يدع له غروره مرجعاً إلى حق ، ولا رجوعاً عما هو بسبيله من مكابرة ومغارة .

وكان أكبر ما أياسنا وآسفنا منه فى كلمته تلك جوابه على ملاحظة الفاضل الفلسطينى* الذى نهه بجلاء ووضوح إلى خطئه فيما اعتبره تناقضاً بين تلخيص الرافعى لرأى شوينهور فى الجمال وبين حقيقة ذلك الرأى . فى ذلك الجواب بعد أن ذكر أن نصف تلك الملاحظة بعض الجمل ، وكثيراً ما يقع مثل هذا فنكتفى بفطنة القارىء) ولكن مع هذا بقى التناقض بين قول شوينهور وتلخيص الرافعى واضحاً . وأكبر المآخذ على هذا الكلام خلقى لاعقلى ، وموضع المؤاخذه هو ما بين قوسين - والقوسان من عندنا - فقد كبر عليه أن يعترف بالخطأ صراحة فجعل يخادع عن خطئه بالتماس تعليل لا ينطبق على الواقع كما فعل بالضبط فى مقاله الثالث حين أراد أن يخرج من رأى ارتآه فى الرافعى إلى رأى . ومخالفة تعليله هذا للواقع يتضح من كلامه الذى انتقده الفاضل الفلسطينى من مقاله التاسع فى العدد ٢٦٠ من الرسالة. ونحن مودون الآن ذلك الكلام بنصه : قال :

"ثم هذا الخلط بين الرأى الذى جاء به الرافعى وبين رأى شوينهور ، ونسبة كلام إلى رجل يقول ضده تماماً . الفيلسوف يقول : إن الأشياء "تسرنا" كلما قربت من عالم الفكرة وابتعدت عن عالم الإرادة . فيقول الرافعى عنه : إن الأشياء "تخزننا" كلما ابتعدت من عالم الفكرة واقتربت من عالم الإرادة . وهو عكس قول شوينهور . ثم يعود فيقول : "وإنها تفرحنا كلما ابتعدت من عالم الارادة واقتربت من عالم الفكرة . وهو عكس كلام الرافعى الأول ، فأيهما يريد ؟ أغيثونا بالله يا أصحاب الفهم وقولوا لنا متى تفرحنا الأشياء ومتى تخزننا ؟ وأى القوانين ينسبه الرافعى لشوينهور وأيهما ينفذه عنه ؟"

الرسالة : ٢٥ يولية ١٩٣٨ ، ص ١٢٢٨ ومايلى .

* محمد رفيق اللبابيدى : الرسالة : ٤ يوليو ١٩٣٨ ص ٥ . "المحرر"

هذا نص كلام سيد قطب الذى يزعم أن فى ترتيب بعض جملة اضطراباً هو علة الخطأ الذى نبهه الفاضل الفلسطينى إليه ، ويزعم وراء ذلك أن هذا الاضطراب الموهوم فى ترتيب الجمل كثيراً ما يقع فيكتفى بفطنة القارىء ، والقارىء يرى فى الكلام اضطراباً ولكن فى الفهم والحكم لا فى ترتيب الجمل ، فإن الجمل ترتيبها مستقيم كما يتضح لسيد قطب نفسه فإنه مدرس لغة عربية ؛ وليس هناك شك فى أن الجمل كانت مرادة كما هى بترتيبها ومعناها حين خرجت من قلمه أول مرة . لكن العزة تأخذ بالإثم فيحاول أن يفر من تبعة خطأ فى الفهم قد يغتفر فيقع فى تبعة ادعاء مخالف للمواقع لا يمكن أن يغتفر بحال . ويزعم مع ذلك أنه يمثل مدرسة "جديدة تعنى بتصحيح المقاييس الأدبية عنايتها بتصحيح المقاييس النفسية" .

مثل هذه المكابرة فى الواضح المحسوس هو الذى يثبنا من هذا الكاتب أن يقر بخطأ أو يرجع إلى حق إذا وضع مادام هذا الحق عليه لاله .

وقد ارتكب سيد قطب ذلك الخطأ الخلقى لبفر من خطأ عقلى فوقع فى خطأ جديد من غير أن ينبجس من خطئه القديم . إن كلام الرافعى فى تلخيصه شوينهور كلام متسق لا ينقض أول منه آخراً ولا آخر أولاً . وإذا كان آخره يوافق رأى شوينهور بإقرار قطب فأوله يوافق أيضاً . إنما أراد الرافعى أن يفسر رأى شوينهور ويقره للذهن بتعليل معقول يزيل عنه غموضه وتجرده فلم يفهم قطب تفسير الرافعى واستمسك بجملة فيه قطعها عن أخواتها فبدت له كأنها تثبت ما يريد من تناقض الرافعى .

شوينهور يقول - فيما يخصوا له - إن الجمال يكون فى عالم الفكرة المنقطع عن الأغراض والشهوات ، ولا يكون فى عالم الإرادة المتصل بالأغراض والشهوات . وهو كلام غامض ليس بسهل فهمه وتصوره ، فالتمس الرافعى له توجيهاً وتعليلاً حسناً بقوله إن الجمال المتصل بغرضك وشهوتك ليس بجمال ، لأن غرضك وشهوتك هما زينا الشئ لك فبدا جميلاً وإن لم يكن جميلاً فى الحقيقة . فهو باعتبار الإرادة أى الغرض والشهوة جميل ، وباعتبار الفكرة المجردة عن الغرض والشهوة لا جمال فيه . فتعلق قطب بالكلمات "باعتبار الفكرة المجردة لا جمال فيه" كما يتعلق الغريق وقال إن الرافعى يناقض بها رأى شوينهور ! ولو لم يكن يفكر بهواه لا بعقله لرأى هذه الكلمات فى كلام الرافعى راجعة إلى شئ فى عالم الإرادة تعلق به الغرض والشهوة ، وهذا الشئ فى رأى شوينهور غير جميل باعتراف سيد قطب نفسه . فقطب هو الذى لم يفهم عن الرافعى ، ورمى الرافعى بأنه لم يفهم عن شوينهور فى كلام طويل جعل يشير فيه ويصيح ويستغيث .

هذا المقال يمثل من الناحية العقلية ضرباً آخر من أغلاط قطب ويمرّز علة أساسية في سوء تقديره الرافعى . إنه في كثير من الأحوال يخطئ غرض الرافعى ويفهم من كلامه غير ما أراد ثم يحكم عليه بما لم يرد ومالا يدل عليه كلامه : يسرف على نفسه وعلى الرافعى في الحكم وهو في الحقيقة قد أخطأ جوهر الموضوع .

خذ مثلاً لذلك رمية بأنه ينظر إلى الأمور نظرة مادية ويذكر نفسه وقلبه في سوق "المجوهرات" معتقداً أنها أثمن من القلوب إلى آخر ما تشدق به وافترى على الرافعى . وسيد قطب يلقي الدعاوى ثم يثبتها بأمثلة ، وهو طريق في إثبات الدعاوى غريب لا يثبت منها شيئاً ولو صحت الأمثلة كلها . ومع ذلك فإن كل مثال جاء به سيد قطب ليثبت به دعواه تلك هو مثال أخطأ فيه غرض الرافعى وأخطأ لب الموضوع .

إن أول ما هاج قطب إلى تلك الدعوى قول الرافعى من قصيدة له في الحب معجبة :

قلبي هو الذهب الكريم م فلا يفارقه رنينه

قلبي هو الألماس يعسرف من أشعته ثمينه

وواضح أن هذا كآبيات العقاد التي ذكرها اللبائدي ، من باب التشبيه ومن التشبيه في ناحية مخصوصة واضحة في كل من البيتين . فالرافعى يشبه قلب نفسه بالذهب الكريم لا من ناحية سعره وقيمته - ولو قال الرافعى هذا ما كان فيه عليه من بأس إذ يكون واضحاً عندئذ أن قلبه في القلوب كريم كالذهب في المعادن - ولكن من ناحية أن عاطفته النبيلة لا تفارقه كما لا يفارق الذهب رنينه . والذهب في لغة العلم فلز نبيل لا يصدأ في الجو ولا تؤثر فيه الأحماض ولا القلويات وإن أثر فيه الكلور المتولد . فكأن الرافعى يقول إن قلبه يحتفظ بنبله وطهارته رغم المغريات والفتن كما يحتفظ الذهب برنينه رغم المصدئات والمغريات ، واختيار الرافعى خاصة الرنين من بين خواص الذهب رمزا لتلك الخواص ينطق بلطف شاعرية الرافعى وسلامة طبعه ، فإن خاصة الرنين أشبه خواص الذهب بعواطف القلب : هذه يثيرها ويحركها وقع الحوادث والمناظر ، وذلك يشير موجاته نقر القضبان والأنامل . فليست القافية هي التي ألجأت الرافعى إلى اختيار كلمة الرنين ، ولو فعلت لكان ذلك أوثق لشاعريته ، لأن من أصدق الدلائل على شاعرية الشاعر ألا تصرفه قافية عن غرضه ، ولا تستنزله عن بعضه ، بل تخدم قافيته غرضه فيجتمعان له كلاهما في سهولة ويسر . وهذا من أصدق مظاهر الطبع في الشعراء .

والمهم فى بيت الرافعى أنه لم يشبه قلبه بالذهب من حيث قيمته ولا من حيث نوع رنينه ، بل فى الخاصة الواحدة التى يمتاز بها الذهب من سائر الفلزات غير النبيلة : أنه لا يفارقه رنينه ، وإن اختلفت عليه المؤثرات والظروف . هناك فلزات أخرى كالنحاس والفضة لها رنين قد يكون فى الأذن أوقع من رنين الذهب لكن هذا خارج عن مقصد الرافعى . إنما الذى يريد الرافعى توضيحه بالتشبيه هو ثبوت قلبه للحوادث وعدم ذهاب المفريات والأهواء بلبه كما تذهب بأكثر القلوب والألباب . فهدته شاعريته إلى تشبيه قلبه فى هذه الخاصة التى تميزه فى القلوب بالذهب الكريم الذى يمتاز من غير النبيل من أفراد جنسه باحتفاظه بخواصه ورنينه ، على رغم المؤثرات المغيرة ، لا يشركه فى ذلك فضة ولا حديد ولا نحاس .

أما نوع العاطفة التى يستجيب بها قلبه للحوادث فقد أشار إليها ألفت إشارة فى البيت الأول حين وصف الذهب بأنه الذهب الكريم . ويشهد للطف حس الرافعى فى الشعر أنه اختار هذا الوصف دون كل الأوصاف التى يستقيم بها الوزن . فلم يقل مثلاً قلبى الذهب الثمين فبدع لكل متجن مترصداً متكاً يتكىء عليه فى تهمته التى يتهم بها . والرافعى طبعاً لم يكن يعرف الغيب لكن الشاعر المطبوع يتجنب المزالق بلطف حسه وقوة طبعه . وهذا مظهر آخر من أصدق مظاهر الشاعرية والطبع فى الشاعر المطبوع .

لكن الرافعى أراد أن يتبع تلك الإشارة اللطيفة إلى نبل قلبه بما يظهرها ويوضحها فلا يكون هناك شك فى نبل ما يتحرك به قلبه من عاطفة ، كما لم يكن هناك شك بعد بيته الأول فى ثبوت قلبه على تلك العاطفة برغم الفتن والأحداث . أراد ذلك فأتبع بيته الأول بيته الثانى :

قلبي هو الألماس يعرف من أشعته ثمينه

والألماس يعرف بعدة خواص : يعرف بكثافته النوعية ، ويعرف بصلابته ، فهو يخدش ولا يخدش . لكن هاتين الخاصتين لاتصلحان مطلقاً لأن تكونا وجه شبه بين الألماس وبين قلب الرافعى ، لأنها إلى وصف القلب بالغلظة والقسوة أقرب . فهدى الرافعى لطف حسه وصدق طبعه مرة أخرى إلى اختيار الخاصة الواحدة من خواص الألماس التى تليق أن تكون جامعة بين الألماس وبين قلب مثل قلب الرافعى : خاصة أخذ الألماس للنور والتأثير فيه بتفريقه إلى أضوائه المتعددة بألوانها الزاهية الجميلة ، ثم إرسال تلك الأضواء كلها مجتمعة غير مشتتة فتخرج منه باهرة يكاد يريقها يذهب بالبصر . وهى خاصة يشرك الألماس فيها الزجاج والبلور إلى حد ما ، ولكن لا يتلك الدرجة التى اختص بها الألماس والتى هى أساس تقدير الناس له.

فالألماس بهذه الخاصة الفريدة أشبه قلب الرافعى ، وأشبهه قلب الرافعى فيما يتناول ويجمع من مختلف الأحاسيس الكريمة والعواطف النبيلة فيهنئها وينظمها ويرسلها أشعة قلبية كريمة طاهرة باهرة تعرفها فى مقالاته وحمد الله فى الرسالة ، وتعرف قلبه بها فى القلوب كما يعرف ثمين الألماس بأشعته من مزور الألماس .

أرأيت دقة هذين التشبيهين وحسن التمثيل فيهما وشموله وكرم المعنى مع كرم اللفظ ؟ هذا هو الذى أخطأ سيد قطب فلم يفهم من ذلك اللفظ الواضح إلا ما تبادر إلى ذهنه من المعانى السطحية السوقية المتعلقة بالماديات وسوق "المجوهرات" ، فيزعم أن هذا هو مراد الرافعى ، ويحكم على الرافعى به وما حكم إلا على نفسه . ولو كان العقاد هو قائل هذين البيتين لأدرك قطب منهما هذا المعنى الذى وضحنا مع تمام التطابق فى أوجه التشبه بين طرفى التشبيه ، ولاتخذهما دليلاً على نبل العقاد وسموقه وتفردّه فقط كما يحب أن يقول ، لكن أيضاً على اتساع ثقافته وعلمية تفكيره . لكن اصطناع المعانى العلمية فى الأدب يحتاج فيما يظهر إلى شرط آخر حتى يعجب سيد قطب ، يحتاج بعد الفهم إلى أن يكون مصطنع ذلك فى الأدب هو العقاد .

على أن الرافعى رحمة الله عليه لم يكتف بما فى بيتى التشبيه من دلالة على ما يريد مما فصلناه ، بل أراد ألا يدع الأمر فى ذلك للفهم وقد يخطئ ، ولا للتأويل وقد يختلف ، إذ قد يكون القلب ما يكون ويزعم صاحبه أنه نبيل يخفق بكل نبيل من العاطفة والشعور . أراد الرافعى أن يرفع الشك من هذه الناحية بالتصريح عما يريد فيكون ذلك تلخيصاً لمراد البيتين وتفسيراً لهما وقطعاً للشك فى معناها فأردفهما رحمة الله عليه بقوله :

قلبي يحب وإنما أخلاقه فيه ودينه

فهو يتأثر بالجمال فى شتى مظاهره ومواطنه ، لكن تأثره بالجمال وإن عظم لا يخرج عما يرضى الخلق الكريم والدين القويم كما تخرج أكثر القلوب خصوصاً فى هذا الزمن الغريب الكنود الذى كأنما طابع أهله الجحود فيأبون إلا أن يجعلوا شكر الله على نعمة الجمال معصيتهم لله فيه . ولا كذلك الرافعى ، فقلبه رحمة الله كان يستجيب لدواعى الجمال فيخفق له خفياً ويهتز به اهتزازاً لكن من غير أن يخرج فى ذلك عما يعلم أن لله فيه رضا قلبه يجب وإنما أخلاقه فيه ودينه . وهنا عندنا من الفروق الأساسية بين المدرسة القرآنية التى ينتسب إليها الرافعى وبين المدرسة التى تتلقب بالجديدة وهى قديمة قلم الشهوة على وجه الأرض . وقد أشرنا إلى ذلك فى كلمتنا الأولى ونرجو أن تكون لنا إليه عودة قريبة إن شاء الله .

هذان موضعان أخطأ فيهما ناقد الراقعي غرض الراقعي برغم وضوح كلامه ، فأخطأ لب الموضوع واتخذ ذلك دليلاً على ما الراقعي منه برى .

وموضع ثالث أخطأ فيه جوهر الموضوع مرة أخرى واتهم الراقعي ، قول الراقعي فيما نقل الكاتب من رسائل الأحزان حين أراد أن يقص على صاحبه قصة حبه بغير ترتيب : " فان هذا مما يحسن في تاريخ صخرة المتدحرج ، أما أنا فسأقدم لك تاريخ لؤلؤة فريدة " هذا قول الراقعي الذي جعله سيد قطب مثالا لمادية الراقعي ومغالاته "بالمجوهرات" إذ لا فرق لدى الفنان الحى بين أن يقص تاريخ صخرة وتاريخ لؤلؤة إلا أن يكون "الثلث" هو الفارق بينهما . والفنان الحى الذى يستشعر الحياة فى أعماقها فى رأى قطب كان يقول فى هذا الموضوع إنه سيقص قصة بنية حبة يدخل فى تأليفها الحس والشعور "أو تاريخ نبتة تنمو من داخلها أكثر مما تنمو من خارجها" إلى آخر ما ظن أنه يدل على حياة الفنان . ولو جاء الراقعي بمثل ما قال صاحبنا ما سلم من قوارص كلمه وباطل تهمة . وإذا كان كتاب يضطرم بالحس ويتضرم بآثاره لا يدل عند مثل سيد قطب على حياة القلب الذى زاد به العذاب حتى فاض بالكتاب تنفيساً عن نفسه ، فهل كان يدل على حياة ذلك القلب عنده أن يمثل فى جملة عارضة بنبتة حبة أو بنية حبة ، أو ما شاء أن يختارها من عالم الأحياء ؟

على أن النبتة الحية أو البنية الحية التى يدخل أولاً يدخل فى تكوينها الشعور لا تغنى شيئاً فى التمثيل لما أراد الراقعي أن يمثل له . أن الراقعي أراد أن يقول إنه سيقص قصة حب قليل الشبيه عزيز النظير : حب نادر كاللؤلؤة الفريدة لاحب عادى كالصخرة المتدحرجة . فالنبتة الحية أو أى بنية حبة يقترحها قطب مما قرأ فى علم الأحياء ، هى والصخرة المتدحرجة سواء فى العادية والشروع ، من شاء يضع يده على مثلها وضع . ولو مثل الراقعي بها للحب القادر الذى يريد أن يقص قصته لما كان هو الراقعي فى لطف حسه وسلامة طبعه ونفوذه بصره وصدق تمثيله ، ولوقع فيما يصح أن يتهم من أجله بأنه شكلى ينظر إلى ظواهر الأشياء ولا يفقه بواطن الأمور . لا إما كان الراقعي فى مقام التمثيل للشئ الفريد النادر ليقع فيما كان يقع فيه صاحبنا الفنان الحى من التمثيل بنبتة حبة أو بنية حبة ، دخل فى تأليفها شئ غير الزمان والمكان أو لم يدخل . لكن الراقعي اختار للتمثيل شيئاً نادراً قابله بشئ عادى هو الصخرة المتدحرجة من السهل أن يراه الانسان فى مكانه المناسب .

ومن الغريب أن الراقعي اختار للتمثيل لحب النادر الذى كان ، شيئاً فريداً لا ينتج إلا من الحياة ، ومن الحياة عند ملتقى بحرين ، وإن كان هو فى ذاته غير حى . وكلها أوجه شبه بين

اللؤلؤة الفريدة وبين حب الراقى الذى كان . فهو حب فريد أنتجته الحياة عند ملتقى قلبين أو نفسين مختلفتين فى النوع اختلاف البحر والنهر وبينهما مع ذلك من الصلات الفطرية الوثيقة ما بين البحر والنهر . ثم هو حب كان وانقضى فهو كاللؤلؤة لا فى الانفراد فقط ولكن فى انقضاء النمو وفى عدم الحياة . ترى هل كان الراقى رحمة الله ينظر إلى كل ذلك حينما مثل لحبه باللؤلؤة الفريدة ولم يمثل بالماسة الفريدة مثلاً ، وهى والصخرة من قبيل واحد ؟ أكبر الظن أنه كان ينظر إلى كل ذلك فى مثله الذى اختار . ولئن لم يكن واختار بفطرته المثال الواحد الذى يشبه حبه من كل تلك الوجوه فلقد أقام من حيث لا يقصد الدليل الحسى الذى لا ينقض على أنه رجل الفطرة السليمة والطبع الذى لا يضل . ولا يضره بعد ذلك ألا يسمو إلى فهمه أناس يتهمونه اتهام البغضاء ، وهو بما يتهمونه براء .

وهناك أمثلة أخرى كثيرة أخطأ فيها سيد قطب جوهر الموضوع ، لكننا نقتصر الآن على ما هو من قبيل الأمثلة السابقة فى غير تفصيل إذ لاترى الآن إلى التفصيل من حاجة .

هناك قول الراقى عن الأعرابى الذى كانت الشمس تلوح له على حائط حبيته أحسن منها على حيطان جيرانها : "قد والله صدق وبرت يمينه فان فى كلماتها شعرية لأثرا من عينيه ، إذ يرى الشمس على حائطها كالشمس على البلور الصافى لا على الحجر والمدر" فظن سيد قطب أن الراقى اختار البلور لأنه أثمن من الحجر والمدر ، وليس كذلك ؛ إنما اختاره لفعله فى أشعة الشمس وتفريقها إلى الألوان المحببة التى يفرح بها الصغار إذا نظروا إلى الأشياء من خلال منشور من زجاج الشربات والتى تبدو للكبار إذا ترقق الندى فى ضوء الشمس فى الصباح ، وتبدو للكبار والصغار إذا انعكس الضوء المائل عن مرآة سمبكية من البلور . ولا شك أن الأعرابى فى سذاجته لو رأى الشمس ساطعة على "حائط" من البلور لراقت تلك الألوان وفضلها على الشمس على بقية الحيطان . لكن سيد قطب برغم قراءته فى علم الضوء فى الطبيعة لم يفهم عن الراقى ما أراد فاتهمه بما هو منه براء .

وهناك قول الراقى فى رسائل الأحزان : "ثم يجرى كلامه فيها شعراً خالداً مطرداً كنهر الكوثر فى رياض الجنة حافتاه من ذهب ومجرأه على الدر والياقوت" قال الراقى هذا فزعم صاحبنا أن الراقى لا يتشكك فى أن النهر الذى حافتاه من ذهب ومجرأه على الدر والياقوت "أجمل" من النهر الذى حافتاه من العشب الأخضر ومجرأه على الرمل والطين . ولاتدرى كيف استباح أن ينسب إلى الراقى كلاماً لم يقله ومعنى لم يقصده ، وهو على أى حال فيه بعد حتى عن الواقع . فالنهر لاتكون حافتاه دائماً من العشب الأخضر ، ولو كانتا فإن الراقى لم

يذكرهما بعشبهما ، ولو ذكرهما ما كان ذلك حكماً منه للذهب بأنه أجمل من العشب لأن المقام ليس مقام تمثيل للجمال ولكن مقام تمثيل للخلود والاطراد . وليس هناك من شك ، حتى عند مثل سيد قطب فيما نظن ، في أن الذهب أمكن في الخلود والاطراد من العشب ، بل ولا في أن العشب إنما يضرب به المثل على التغير والزوال لا في الاطراد والخلود ، مهما كان حظه من الجمال . فماذا يقول الإنسان فيمن يتصدى لنقد أديب أبا كان ، بله مثل الرافعي في أدبه ، فيقرأ له ولا يفهم عنه ، أو يفهم ولكن غير ما يريد أو عكس ما يريد مع وضوح اللفظ ووجود النص ، ويتقول على الأديب غير ما قال ، ويتجنى عليه غير ما يقصد ، ثم يسرف عليه ويطيل فيه القلم واللسان ، فاذا مانبه إلى غلظه مضى في التجنى والتجرم وزعم أن زلة الأديب المنقود زلة بألف ، ككذبة الذي يقول إنه رأى أسدا يسير في شوارع القاهرة ؟ ماذا يقول الإنسان في ناقد كهذا جديد أو قديم ؟ وماذا يظن في إنسان كهذا ؟

إن الرافعي هو المسكين لاشو بنهور !

٥- بين القديم والجديد *

للأستاذ محمد أحمد الغمراوي

لقد أخذنا على كاتب مقالات " بين العقاد والرافعي " أنواعاً من الأغلاط ذكرنا لكل منها أمثلة عدة دون استقصاء . فهناك أغلاط اضطراب في التفكير كالتى ذكرنا فى كلمتنا الثانية؛ وهناك أغلاط جور ومحاباة كالتى عددنا فى كلمتنا الثالثة ؛ ثم هناك أغلاط ضعف فى الفهم أخطأ بها الكاتب لب الموضوع كالتى فصلنا فى الكلمة الرابعة . وكلها تدل دلالة واضحة على أن كاتب تلك المقالات لم يكن فيها يفكر بعقله وإنما كان يفكر بهواه .

إلا أن أغلاط التفكير بالهوى ليست كلها فى الدلالة أو فى التبعة سواء . فإن ذا الهوى المتعصب لمذهب أو لكاتب قد يتأثر عقله بعصبيته وهواه من حيث لا يدري ، فيقع فى الخطأ من حيث لا يقصد ، وتكون آثار الهوى والعصبية ظاهرة فى كتاباته وأحكامه لكل إنسان سواء هو ومن لف لفه . مثل هذا لا يزيد الهوى والعصبية على أن يفسد عليه تفكيره فتصبح أفكاره وآراؤه وأحكامه غير ذات قيمة ، ولكن من غير أن يعمل فى ذلك تبعة خلقية تذكر .

أما إذا تأثر ذو العصبية والهوى بعصبيته وهواه إلى الحد الذى يشعر بأثرهما فى رأيه وحكمه ثم لا يقاومهما مقاومة مجدية ولكن يتابعهما ويطاوعهما فيما يروحان إليه من إخفاء مالا يوافقهما من الحق ، وتحريف ما يخالفهما من الواقع ، فإنه عندئذ يكون قد جمع على نفسه ضعفين : ضعف العقل وضعف الخلق ؛ وتحمل فى سبيل هواه تبعتين : تبعة الخطأ وتبعة سوء النية فيه .

وقد كان فيما نبهنا إليه بالفعل من أغلاط ذلك الكاتب غلطتان لا يمكن حملهما على مجرد الخطأ العقلى . وقع فى أولاهما حين أراد أن يعتذر عن تغيير رأى كان ارتآه ؛ فيه بعض مدح للرافعي ، ووقع فى أخراهما حين أراد أن يعتذر عن سوء فهم لبعض ما قال الرافعي نبهه إليه الفاضل الفلسطينى على كمال . وقد اعتذر فى كلا الموقفين بما يخالف الواقع ؛ إعتذر فى الموقف الأول بأنه لم يكن حدد نوع الذهن حين قال إن الرافعي أديب الذهن ، والواقع أنه كان حدده تحديداً واضحاً ، وحدده بنفس بعض الأقسام التى قسم إليها الذهن عند اعتذاره ذلك . واعتذر فى الموقف الثانى باضطراب وقع خطأ فى ترتيب الجمل التى عبر بها عن رأيه ،

والواقع أنه لم يكن فى ترتيب جملة تلك أى اضطراب ، ولم يكن له عذر فى مخالفته الواقع فى ذينك الموقفين ، لأنه كان يستطيع الاستيثاق مما قال أو كتب بالرجوع إلى ما كان قد خطه قلمه فى موضعه من كلامه إن كان ضعف الذاكرة هو الذى جعله ينسى حقيقة ما كان قد كتب ولم يكن قد مضى عليه أكثر من أسبوعين . لكن الذى به ليس هو ضعف الذاكرة ولكن صعوبة أو استحالة إيجادها فى الاعتراف بحق إذا كان عليه ، فاعتذر بما اعتذر به رغم مخالفة الواقع اعتماداً فيما نطن على أن القراء يقل فىهم من يكلف نفسه عناء مضاهاة ما زعم بما وقع منه بالفعل .

لكن هاتين السقطتين ليس لهما فوق دلالتها النفسية أية أهمية ذاتية إذ هما منه وإليه . هو أخطأ وهو يجتهد فى ستر خطئه عن الناس ولو بشئ من التوسع فى تحديد الصدق . فإذا كان قد فارق الصدق بهذا فالضرر لاحق به هو لاغيره . أما إذا كان ضرر ذلك يعود على غيره من قريب أو من بعيد فإن وجه المسألة يتغير بقدر ذلك . ويصبح وجه المسألة أشد تغييراً إذا كان الذى يتغير بقدر ذلك . ويصبح وجه المسألة أشد تغييراً إذا كان الذى يتناوله بالتحريف والتلفيق كلام غيره لا كلامه هو . أما إذا كان الكلام المحرف أو الملق هو كلام شخص يكرهه قد تصدى هو لنقده وكان التحريف والتلفيق من شأنه أن يؤذى الشخص المنقود كما وقع للرافعى ، فإننا عندئذ نصبح أمام مسألة جديدة تتعدى الإلتصاف فى النقد إلى الأمانة فى النقل ، وتتجاوز الخطأ فى الرأى إلى التدليس العمد وإلى محاولة النيل من الخصم فى النقد الأدبى عن طريق غير شريف .

ومقالات "بين العقاد والرافعى" لم تبرأ من هذا العيب . ولعلنا كنا نعفو فلا ننتبه إليه لولا غرور ومكابرة يبدوان فيما يكتب صاحبها ، ولو لا أن صاحبها جعل من الفروق الأساسية بين مدرستى "الرافعى والعقاد" امتياز الثانية على الأولى بما سماه "الصدق الجميل" من ناحية ، وتصحيح الأمزجة والنفوس بالأدب وللأدب من ناحية أخرى . فنحن مضطرون إلى تبيين ظاهرة كالتى أشرنا إليها ، لا لأنها من الواقع فحسب ، ولكن وفاء بحق النقد واختباراً لتينك الميزتين أمتحقتان هما فى الكاتب كنموذج للمدرسة التى ينتسب إليها أم غير متحققتين .

والزلات التى سقط بها الكاتب وجانب فيها الصدق يصح تقسيمها إلى قسمين : قسم يتعلق بتحريف ما كتب إخوان الرافعى عن الرافعى ، وقسم يتعلق بما كتب الرافعى نفسه ، وهو أهم الاثنين .

ونحن إذ نتعرض لتحريف الكاتب بعض ما قال الأستاذان سعيد العريان ومحمود شاكر لا نريد أن ننصفهما ، فهما قادران على الانتصاف حين يريدان ، ولكن نريد أن ننصف الرافعى الذى استعان الكاتب على الإساءة إليه بتحريفه قول صديقيه ، متخذاً من قولهما المحرف شاهداً عليه .

وأول ما يلقى الناقد من هذا النوع من سقطات ذلك الكاتب تزیده فيما قال العريان فى موضعين على الأقل فى مقاله الأول : أولهما يتعلق برغبة الرافعى عن شراء "وحى الأربعين" وهى نقطة تافهة لولا أن صاحبنا المحلل النفسى مولع باستخراج الخطير من التافه . وثانيهما يتعلق بالبواعث الى دعت الرافعى لنقد "وحى الأربعين" .

وقد قدم الكاتب بين يدى ما اقترف قوله : إنما يعنينى اليوم ما كتبه الأستاذ سعيد العريان! ففيما كتبه وهو أخص أصدقاء الرافعى مصداق لكثير مما تخيلته فيه" . ثم انتقل إلى تفصيل ما أجمل فى هذه العبارة فقال :

" فى إباء الرافعى أن يشتري كتاب وحى الأربعين مع حاجته لنقده ما يشير إلى ضيق الأفق النفسى الذى كان يعيش فيه ، وتصوير للون من الحقد الصغير قلما يعيش فى "نفس" رحبة الجوانب الخ" .

فأنت ترى كيف أجدت مطالعته فى مباحث علم النفس الحديثة هذه المقدرة على استنتاج الخطير من التافه . وسنسلم له أن كل ما استنتج من ضيق الأفق النفسى والحقد الصغير أو الكبير ينتج من إباء الرافعى شراء كتاب وحى الأربعين مع حاجته لنقده . سنسلم له تلك النتيجة من هذه المقدمة ! لكن بقى أن تثبت المقدمة حتى تصح النتيجة وإلا كان هذا الرجل يفتري على الناس مرتين : يفتري الشتم ويفتري الأسباب إليه . وقد اعتمد كما ترى فى ثبوت هذه المقدمة على ما كتب أخص أصدقاء الرافعى ، سعيد العريان . فإذا صح هذا فله بعد ذلك أن يستنتج منها ما شاء طبق وحى قراءته الحديثة فى علم النفس . وواضح أن مدار الاستشهاد فى تلك المقدمة ليس هو إباء الرافعى أن يشتري من كتب لعقاد - فما نحسب العقاد ولا قطباً يشتريان شيئاً من كتب الرافعى - ولكن موضع الاستشهاد هو إباء الرافعى شراء الكتاب "مع حاجته لنقده" فعبارة "مع حاجته لنقده" هى مدار الاستشهاد فى الواقع . وعمدة قطب فى إثبات هذه الحاجة عند الرافعى هو سعيد العريان .

لكن سعيد العريان لم يقل شيئاً من هذا بل أخبر بعكس هذا ، أخبر فى مقاله الخامس والعشرين (رسالة ٧٤٠) أنه هو حرض الرافعى على نقده "وحى الأربعين" انتصافاً لمخلف

ولدار العلوم ، وأن الرافعى أبى أولاً ثم أجاب على شرط ألا يكون هو مشتري الكتاب "لأن عليه قسماً من قبل ألا يدفع قرشاً من جيبه فى كتاب من كتب العقاد ..."

ولسنا ندرى متى أقسم الرافعى ذلك القسم ، وليس هنا بمهم الآن ، إنما المهم أولاً أن الرافعى لم ير حتى فى رغبته فى إرضاء صديق ما يبرز نكته بذلك القسم ، وهذا إن دل على شىء فهو يدل على أن الرافعى أقسم حين أقسم عن عقيدة ، واستمسك بذلك القسم حين استمسك عن عقيدة ، وهذا ضد ما ذهب إليه قطب فى أن الرافعى كان يصدر فى أدبه عن غير عقيدة . ثم المهم ثانياً أن الحاجة إلى نقد "وحى الأربعين" لم تكن بالرافعى ؛ ولكن بسعيد العريان . العريان حرض الرافعى على النقد كما ذكرنا ولرغبته فى رؤية الأدبيين الكبارين يتصاولان . لكن المسألة على هذا الوضع المتفق مع ما أخبر به صديق الرافعى ، ليس فيها شىء يشهد لقطب فى شىء مما يريد . فماذا يفعل سيد قطب وهو يريد أن يستشهد لنفسه بصديق الرافعى على الرافعى ؟ ينقل حاجة العريان إلى نقد "وحى الأربعين" فينسبها إلى الرافعى ، ويترك الخير بعد تحريفه منسوباً إلى العريان كما كان ، فيكون العريان بذلك هو الذى شهد على الرافعى ، ويتم لقطب ما يريد من الاستشهاد ولا بأس فى ذلك على ما يظهر عند المدرسة الجديدة التى يمثلها سيد قطب ، والتى يميزها عن المدرسة القديمة مذهب "الصدق الجميل" .

أما الموضع الثانى الذى تزيد فيه قطب ليستشهد بالعريان على الرافعى فقله من نفس المقال :

"وفى البواعث التى تدعوه لنقد "وحى الأربعين" كما صورها صديقه ما يصور نظرة الرجل إلى النقد والأدب والغاية منهما ومدى نظرته العامة للحياة واتساع مداها فى نفسه ، وهو لا يبعد كثيراً عن المدى الذى تصورته له "وليس فى هذه العبارة شىء حتى تأتى إلى آخرها فتقلب دلالتها عندك ويصبح الرافعى المسكين بين صديقه وعدوه قد اجتمعاً فى الجملة على تجريده وذمه وكاتبها لا يكلف نفسه بها شيئاً ، فهو يلقيها دعوى عريضة ثم يتحقق بعد ذلك من صحتها من شاء أو لينقضها من شاء ؛ أما هو فلا يكلف نفسه من إثباتها شيئاً ، ويكفيه أن ينتفع فيها بالإبحاء النفسى معتمداً على تصديق القارئ إياه فيما يلقى فى روعه عن تصوير صديق الرافعى لبواعث الرافعى على نقد وحى الأربعين . وأكثر القراء حتى من أنصار الرافعى لا يجشمون أنفسهم اختبار صدق دعوى سيد قطب هذه يعرضها على ما قال العريان

فى موضعه من فصوله فى تاريخ الرافعى ، فيمر أكثرهم وقد وقر فى نفوسهم شىء من هذا الاتفاق ولو فى الجملة بين صديق الرافعى وعدوه على تجريح الرافعى .

إنك نقرأ تاريخ نقد الرافعى وحى الأربعين فيما قصه العريان فى فصليه الخامس والعشرين والسادس والعشرين فلا ترى أساساً لهذا الذى يدعيه قطب ، بل ترى شيئاً ينقض فى صميمه دعواه هذه وينقض غيرها مما ادعاه يعرض الرافعى على العريان ومخلوف أن يختارا أجود ما فى الديوان لينظر فيه ثلاثتهم فما اتفقوا عليه فيه جعلوه حكمهم على الديوان كله . وليس وراء هذا فى إنصاف خصم لمخصمه فى الأدب مذهب . فلما استبطأهما فيما انتدبهما له قال أحسبكما لم تجدما ما تطلبان ولن تجدما .. إذن فلنقرأ الديوان معاً من فاتحته فما أحسب الشاعر يختار فاتحة الديوان إلا من أجود شعره ...^١ وآخر قوله هذا مظهر آخر لنفس الرغبة فى إنصاف العقاد وإن كان أولها يدل على عقيدته فى أدبه ويستشهد لها ضمناً بإبطاء أدبيين فى اتفاقهما على جيد فى الديوان ينتقيانه ، كأن الجيد الذى يتفق على جودته قليل فى ذلك الديوان . سيقال طبعاً إن هذا ليس بحكم يعتد به على الديوان ، فلو كان الأدبيان الناظران فيه من المدرسة الجديدة لأسرع إليهما الاتفاق على جيد كثير . حسن . ولسنا نريد بما قلنا حكماً على الديوان ولكن نريد حكماً على الروح التى نظر بها الرافعى وأخواه فيه ، وهى روح إنصاف ورغبة فى إنصاف من غير شك على نقيض الروح الذى نظر وينظر به سيد قطب مثل المدرسة الحديثة فى أدب عميد المدرسة التى يلقبها بالقديمة ولا يعجبه من أدبها ولا من روحها شىء .

نظر الرافعى وأخواه فى ديوان العقاد معاً ساعات طويلة بعدها ، وأشار الرافعى على مخلوف فكتب ، وهاج به العقاد ساخراً منه ومن دار العلوم ، ولام مخلوفاً إخوانه على تهيب العقاد بدار العلوم ، وألقى العريان تبعة ذلك اللوم على الرافعى يريد تحريكه لنقد الديوان ؛ وتحرك الرافعى للنقد بعد تردد ، ولكنه بعد إذ عزم مضى لا يبالي بما كان للعقاد يومئذ من سلطان مكنه له الأدب السياسى لدى القراء ، ولا يعتبر إلا مذهبه فى الأدب وطريقته ، وسواء عنده أكان رأيه هو رأى الجماعة أم لا يكون مادام ماضياً على طريقته ونهجه كما يصف العريان .

أى شىء فى هذا ياترى مما يمكن أن يؤخذ على الرافعى من قريب أو من بعيد ؟ لا شىء ! لا شىء يمكن أن يراه الناقد إلا ناقداً ينظر فى أعمال الرافعى بمجهر البغضاء ثم لا يرى إلا ما يصوره الخيال . إنها حكاية واقعية غير عادية تصور الرافعى أستاذاً فى مدرسته يلقى على تلميذين وزميلين له درساً عملياً فى النقد وفى ما ينبغى للناقد من نزاهة فى الحكم ، وتحرز من الهوى عند الخصومة ، وشجاعة فى المنازلة إذ لم يكن من المنازلة بد ، وتوضحية فى سبيل

الغاية ، واستمسك بما يعرف أنه الحق . أما ما ارتآه العريان من تحفز كان بالرافعى لعراك العقاد فالعبرة فيه بأن ذلك لم يسرع بالرافعى إلى تحريف العقاد وظلمه فى ديوانه أو هضمه . وفى رأينا أن هذا مظهر لفارق أساسى آخر بين المدرستين : مدرسة الأدب الأخلاقى ، ومدرسة الأدب غير الأخلاقى اللتين تتنازعان توجيه الأدب الآن ، وهو فارق نعرف أثره فى كتابة المنتسبين إلى كل من المدرستين ، نعرفه فى نزوع شاكر والعريان إلى الإنصاف حتى من أنفسهما وصاحبهما ، وقد يغفلان فى ذلك أحياناً كما يشهد المدرس على ابنه التلميذ فى فصله مبالغة فى العدل بين طلبته ، وتعرفه فى نزوع سيد قطب إلى التزيد والتحريف والإسراف .

أما شاكر فإنه أيضاً لم يسلم مما أصاب العريان من تحريف لقوله فى الرافعى . وقد مثل معه سيد قطب حكاية عمرو مع أبى موسى من جديد . لكن يكفيننا الآن ما كتبنا فى تبين القسم الأول من مغالطات قطب وتحريفاتها لننتقل إلى تحريفه أقوال الرافعى وهو أهم القسمين .

إن آخر مثال ضربناه فى المقال الماضى لسوء فهم قطب هو فى الواقع أول مثال لتحريفه كلام الرافعى ليستقيم له وجه الاستهزاء به والزبابة عليه . فقد ضرب الرافعى بنهر الكوثر بجرى بين شاطئين من ذهب على أرض من الدر والياقوت مثالا للشعر الخالد المطرد بقوله المحب فى حبيبته ، فجاء قطب وقال إن الرافعى لا يتشكك فى أن نهراً يجرى بين شاطئين من ذهب على الدر والياقوت "أجمل" من نهر يجرى بين شاطئين من العشب الأخضر على أرض من الرمال والطين . ومهما تكن نتيجة المفاضلة بين النهرين عند المدرسة الجديدة من ناحية الجمال ، فإن نتيجة المفاضلة بينهما من ناحية الخلود والاطراد ليست موضع شك عند أحد . ولو أخذ قطب الكلام على ظاهرة لم يكن فيه مغمز يغمز الرافعى به ، فلم يجد بأساً فى أن يضع الجمال بدلا من الخلود والاطراد فى كلام الرافعى ليصل إلى ما يريد . ولو غير مدرس للغة العربية فعل هذا لالتمسنا له العذر عن طريق جهله بمعانى الكلمات على وضوحها وبساطتها فى هذه الحالة ، لكن سيد قطب إخصائى فى اللغة العربية وأديب وشاعر فلا يمكن أن يلتجئ له العذر من هذه الناحية ، ولم يبق إلا أن يكون تعمد التحريف فى كلام الرافعى ليصل إلى ما يريد . فإذا ما أصر على ما فعل ، وعدها على الرافعى غلطة بغلطات كخبر "الأسد الذى يخرق شوارع القاهرة" فى مثل زائر القاهرة الذى ضربه ليخلص إلى أن الرافعى "لم يحس الاحساس بجمال الطبيعة بل .. لم يوهب الطبيعة التى تحس هذا الجمال" - إذا أصر قطب على زلته إمعاناً فى تشويه الرافعى عند القراء كما فعل فى مقاله الحادى عشر زاد ذلك فى شناعتها وسقط بها فى هاوية ماله من قرار .

وإلى مثل هذا عمد قطب حين أراد أن يتكلم عن حب الراقى ليثبت أنه لا يعرف ما الحب وأن ليس له قلب . يقول الراقى :

"تصيحى لكل من أبغض من أحب ألا يحتفل بأن صاحبتة "غاضته" وأن يكبر نفسه عن أن يغيظ امرأة . إنه متى أرخى هذه الطرفين سقطت هى بعيداً عن قلبه ، فإنها معلقة إلى قلبه فى هذين الخيطين من نفسه". وهى قطعة مقتبسة من كتاب "رسائل الأحزان" وهو تاريخ حب للراقى انقلب إلى بغض كما بين ذلك سعيد العريان فى فصوله لمن لم يكن قرأ ذلك الكتاب ، فالقطعة تدور كلها وتتوقف استقامة معناها على كلمة "أبغض" الواردة فى أولها . لكن سيد قطب لما لم يجد فيها كما هى موضعاً لتهكمه ولا دليلاً على مزاعمه عمد إليها فحرف معناها بأن أسقط منها ما يؤدى معنى البغض وراح يصيح "أرأيت ؟ - إن الحبيبة (بعد انقطاع الحب) (١) لا تتعلق بنفس من كان يحبها إلا بخيطين اثنين : غيظها له وغيظه لها ! ولا شىء وراء ذلك !" ثم طفق يعلق على ذلك ما شاء له الحق والبغض ، وانتهى به الأمر فى مقاله الحادى عشر إلى أن يقرر فى غرور وتوكيد وإصرار : "فحين يقول الراقى إن الحبيبة لا تتعلق بقلب حبيبها (بعد انتهاء الحب) (١) إلا بخيطين اثنين هما غيظها له وغيظه لها .. يدل على أنه لم يحس الحب يوماً ما ولم يحسن ملاحظته فى غيره ، بل لم يكن ذا طبيعة قابلة للحب ، ولا مستعدة لتلقى دفعاته وانفساحه ولو كتب بعد ذلك عن الحب ألف كتاب . وتستطيع أن تعين مبلغ إسرافه بهذا الكلام على الراقى إذا وضعت فيه بدلاً من "بعد انتهاء الحب" كلمات تؤدى معنى الراقى مثل "بعد انقلاب الحب إلى بغض" هناك يتضح مبلغ جنائية هذا الرجل على الراقى وعلى الحقيقة وعلى النقد بذلك التفسير الطفيف الذى أدخله على كلام الراقى جرياً فيما يظهر على قاعدة "الصدق الجميل" الذى يفرق عند هذا الناقد الجديد بين مدرسة الراقى ومدرسة العقاد .

بقى مثال واحد ثم نغلق هذا الباب . انتقد الراقى بيت العقاد :

فيك منى ومن الناس ومن كل موجود وموعود تسؤام

بما انتقده به وأخذ على العقاد ، وإن فى لفظ شديد ، أنه لم يحترس بما يدخل فى عموم "كل موجود" مما لا يليق أن يكون فى حبيبة محب ذى ذوق . وأراد قطب أن يسخف نقد الراقى فزعم أن الراقى قال إن "كل موجود هو البق والقمل والنمل .. الخ" ولو نسب إليه أنه

(١) الألواس من عندنا .

قال : "إن من كل موجود كذا وكذا .. الخ" لكان كلاماً ظاهر الصدق ليس فيه موضع للتسخيف الذى يريده صاحبنا والذى لا يتأتى إلا إذا سقطت "من" الدالة على البعضية . فلم ير صاحبنا مانعاً من إسقاطها ! وهل هى إلا حرف ذو حرفين يتحقق بإسقاطه شئ . من تصحيح الأمزجة والنفوس ؟

وقد رد أخونا محمود شاكر هذه الفلطة من سيد قطب إلى أنه لم يفهم الفرق بين "من" فى كلام الراقعى و"فى" كلام العقاد . ووددنا لو أن الأمر كان كذلك فإن عدم فهم الحرف أخف من تعمد إسقاطه ، لكن سيد قطب خريج دار العلوم وإخصائى فى اللغة العربية يعلم منها تلاميذه كل يوم مثل هذا الذى يعتذر عنه محمود شاكر بأنه يجهله . فلم يبق إلا الاحتمال الآخر على ما فيه تلك ثلاثة أمثلة حرف فيها صاحبنا كلام الراقعى تحريف الحاذق الماهر : تحريفاً طفيفاً من حيث اللفظ عميقاً من حيث المعنى ، ورتب على ذلك من النتائج الخطيرة ما لا ينتج من كلام الراقعى ، فهو قد تبنى على الراقعى مرتين : مرة بدمه ذماً بالغاً باطلاً ، ومرة بتحريف كلامه لتبرير ذلك الذم . فصّدق بذلك وبأغلاطه الأخرى مانبها إليه من قبل من انزلاق مخاصم الحق وتورطه فى أغلاط ومهار ما كان لولا معاداته الحق ليتردى فيها وينتقم بذلك من نفسه للحق أبلغ انتقام .

بين الاستاذين الغمراوي وقارىء*
كتب إلينا صديقنا الأستاذ الغمراوي ما يأتي :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد فقد قرأت مقال الأستاذ (قارىء) وأنا مريض ببورسعيد ، وقرأت عوده إلى الموضوع وأنا مريض بالقاهرة ؛ وهذا هو عذري إليك وإلى الأستاذ (قارىء) وإلى قراء الرسالة في تأخيرى الإجابة عن نقده . وكل الذى أستطيع أن أقوله الآن هو أن الذى انتقده الأستاذ (قارىء) شىء لم أرده بما كتبت ، مع علمى بأكثر الوقائع التى ذكرها الأستاذ فى نقده . أما تفصيل ذلك فموعده حين يأذن لى الطبيب فى الكتابة .

والسلام عليكم ورحمة الله ،

محمد أحمد الغمراوي

٦- بين القديم والجديد *

للأستاذ محمد أحمد الغمراوي

أستاذ الكيمياء بكلية الطب

لعل من الحير أن ننظر نظرة في الأمور التي تشبه أن تكون أصولاً في النقد عند صاحب مقالات "بين العقاد والرافعي" والتي يمكن استنباطها من كلامه .

ولعل من أبرز هذه الأصول ما يصح أن يسمى بالعلمية . ولسنا نريد بالعلمية هنا علمية التفكير ، فقد وزناه من ناحية علمية التفكير فلم نجده منها في شيء ؛ إنما نريد بها هنا علمية الأفكار . فصاحب تلك المقالات معجب جداً فيما يبدو بالعلم وما يمكن أن يدخله الأديب في أدبه من النظريات أو الحقائق العلمية عنده على الرافعي ، وتعرفه من تحشيمه نفسه قراءة ما قرأ من المباحث العلمية المنقولة إلى العربية كي يرقى كما يقول إلى معارلة استيعاب العقاد وهذه النزعة إلى العلم نزعة تشكر فيه لولا ما يفسدها عليه في الموضوع الذي هو بصده من تعصب للعقاد يجعله يتلقى كل ما يرد أو يتوهم أنه ورد على قلم العقاد من الأفكار العلمية كما يتلقى الوحي بالتسليم والإكبار المطلقين .

والمثال الأول الذي ضربه لاحتياج الناظر في أدب العقاد إلى ألوان من الثقافة كالتى استمدّها هو من قراءاته العلمية قطعة من "وحي الأربعين" عنوانها "سعادة في قحتم" وقد تساءل بعد أن ذكر أبياتها التسعة "هل فهم الرافعيون شيئاً من هذه القطعة مع وضوح كل لفظة فيها وكل عبارة ؟" وما نظن الرافعيين أو غير الرافعيين يفهمون من مرماها شيئاً حتى يبلغوا البيت السادس منها .

بسر على شفتى فاتن يباح إلى شفتى مغرم

وهو بيت رقيق ليس في القطعة كلها مظهر للشاعرية غيره ، إذا بلغه القارئ ظن أن القطعة كتبت في قبلة ، لأن السر الذي يباح إلى شفتين لا يمكن أن يكون غيرها . حتى إذا بلغ القارئ البيت الثامن .

وما أنا بالمشتهى قبلة ولا بالحريص على مقنم

زال عنه كل شك في المراد من القطعة كلها ، وإن بقي حيث كان من صعوبة توجيه القطعة إلى المعنى المراد كما يصعب أحياناً على قارئ اللغز حتى بعد عرفائه الحل أن يطبق لفظه على الشيء المقصود !

ولكى يشاركنا القارئ في تقدير القطعة نوردها له وإن شغلت مكاناً .

هنا قمقم سابح في الدم	أسائل عنه ولسم أعلم
جهلت خباياه حتى أتى	عرف الطلاس بالمعجم
نفبه كما قيل مسجونة	سعادة بعض بنى آدم
نجن جنوناً بنور الضحى	وتلهل في حبسها المظلم
وقد زعموا أن إطلاقها	رهين بهمة ذاك النسم

إلى هنا لانظن قارئاً مهما بلغت ثقافته من التنوع والعمق ، وبلغ هو من الاستعداد الطبيعي ، يستطيع أن يدرك من هذه الأبيات معنى واضحاً ، أو أن يقول إن المقصود بها هو قبلة حتى يقرأ عقب ذلك :

بسر على شفتى فاتن	يباح إلى شفتى مغرم
فهل أنت مطلقها منعماً	فديتك أم لست بالمنعم ؟
وما أنا بالمشتهى قبلة	ولا بالخريص على مغنم
ولكنما أنا أبكى أسى	لتلك الشهيدة في القمقم

فليس في القطعة كما ترى ما يدل على المراد منها غير البيتين اللذين ذكرنا ، والآن وقد عرفت المراد هل تستطيع ولو بشيء من التعسف أن تطبق القطعة على القبلة المطلوبة ؟ سيد قطب يقول إنك تستطيع بشرط أن تعرف نظرية فرويد في العقل الباطن ، وأن تكون على استعداد لأن تحس "بأن النوازع والرغبات المكبوتة في النفس ، والأشجان والبلابل والاضطرابات التي تعترىها إبان ضرام الحب ، تظل تعتلج في النفس وتقلقها وتهزها هذا كمواد البركان المكتوب حتى ينفص عنها ويتاج لها التعبير فإذا هي سعادة وهدوء وراحة " وكيف يكون التعبير ؟ يكون بقبلة على شفتى فاتن تبيح السر إلى شفتى مغرم ، وعندئذ تنطلق تلك الشهيدة في القمقم التي يبكى لها أسى " فهل تستطيع الآن بعد هذا التفسير الطويل المبني على نظرية فرويد في العقل الباطن أن تطبق أبيات القصيدة على القبلة

المقصودة فتقول مثلاً ما هو ذلك القمقم السابح فى الدم المسجونة فيه تلك الشهيدة ؟ أما نحن نحسب أحداً فى حاجة إلى نظرية فرويد أو غير فرويد فى العقل الباطن أو الظاهر ليعرف أن رغبات الحب التى يتلهم إليها تؤله قبل تحقيقها فإذا تحققت هدأ وإرتاح وسعد زمناً ما ، ولا نحسب معرفه ذلك تحتاج إلى استعداد خاص فى أحد ، فكل إنسان يدركه فى نفسه ، حتى الطفل لو نطق وأحسن التعبير لقال إن ذلك كذلك ، وفى دموعه قبل تحقق كل رغبة شديدة وابتسامة أو ضحكه بعد تحقيقها ولما تجف دموعه ما يغنى عن كل نطق وتعبير . لكن صاحبنا ذا الثقافات يزعم أنك لا تعرف ذلك إلا إذا كنت ذا استعداد خاص وتثقت بنظرية فرويد ! ليكون ذلك . فكيف يمكن فهم تلك الأبيات إذن فى ضوء نظرية فرويد ؟

إن أقل ما يطلب فى الشعر الجيد ذى المعانى العلمية المتراكبة أن يحتوى على إشارات واضحة تكون مفتاحاً إلى تلك المعانى لمن يعرفها بحيث إذا توجه الذهن إليها بدأ يدرك المعنى العميق المقصود ، ولا يزال ذلك المعنى يزداد وضوحاً وتفصيلاً بالإشارة بعد الإشارة ، والقرينة جنب القرينة ، حتى يرتفع كل شك فيه ، ويلبسه الكلام كأنما كان مقدراً عليه . ولكن هذه القطعة فيها إشارات تصرف الذهن عن معناها إذا كان معناها هو كل ما ذكر سيد قطب . وأول ما تلقى فيها من هذه الصور هو هذا القمقم السابح فى الدم ، فإنك تحاول جهدك أن تجد له تفسيراً حتى بعد معرفتك مرمى القطعة فلا تستطيع .

ثم ليكون ذلك القمقم ما يكون ، فعند أى طرفى الحب هو ؟ إن كان عند المحب فهو لاشك يعرف رغبة نفسه ويعرف طريق التعبير الذى يريد ، فلا حاجة إلى معجم عريف الطلاسم ليحل له اللغز . وإذا كان القمقم للحبيبة وكانت سعادته هو مسجونة فيه - كما هو الأقرب إلى المعقول - قام تفسير السيد قطب وتطبيقه نظرية فرويد حائلاً دون ذلك ، إذ تصبح النوازع والرغبات المكبوتة هى نوازع الحبيبة ورغباتها ، فكأنها هى التى تشتهى القبلة لاهو ، والشعر صريح فى أن عكس ذلك هو المقصود .

فالقطة كما ترى متخاذلة متضاربة إن حاولت أن تطبق عليها كل علم سيد قطب ، وأن تفهم منها بالعقل ما فهم هو منها بالوهم . أما إذا تركت النظرية العلمية جانباً وحاولت أن تفهم من القطعة مرادها فى بساطة بدليل البيتين اللذين ذكرنا لك ، أصبح للقطعة معنى مفهوم على غموض فيه وغيوب فيها . فما دام المطلوب هو قبلة من الحبيبة فيها سعادة المحب ، والحبيبة هى التى تملك منحها من قمها الشبيه إلى حد بالقمقم ، أمكن توجيه القطعة وتبرير الشاعر إلى حد كبير فى تخيله أن سعادته المتمثلة فى قبلة من حبيبة محبوسة فى فم

تلك الحبيبة حتى تطلقها هي . أما وصف القمقم بأنه سابع في الدم فيجب حمله على ضرورة الشعر والقافية ، أو على أنه وصف معيب لشدة احمرار الشفتين ، أو على أن الشاعر أراد أن يلغز في قبلة فجاء بهذا الوصف وبغيره ليعمى على القارىء بعض التعمية .

فأنت ترى أن القطعة لا تحتاج إلى علم فرويد أو علم سيد قطب لحلها ، بل هي تزداد تعقيداً وبعداً عن المعقول إن أنت حاولت إدخال العلم فيها . لكن العقاد لا يكون هو ما هو عند سيد قطب إلا إذا حشر العلم في شعره ، والإقليم يمتاز العقاد على الرافعى ويمتاز هو عن مثل شاكر والعريان ؟

هذا عن المثال الأول . أما المثال الثانى فقطعة مأخوذة عن "عابر سبيل" تحت عنوان "أبنا النور - الزهر يخاطب الجواهر" وهي في رأينا قطعة حسنة أوضح كثيراً من القطعة الأولى ، لكنها لا تحتاج من العلم لفهمها أكثر مما يعرف الطالب الثانوى عن انعكاس الضوء وانكساره وامتصاصه ، وعن التمثيل الخضرى فى النبات . وليس هناك بعد ذلك إلا خيال الشاعر فى التصوير بجاريه خيال القارىء فى التصور . وقد أحسن كل الإحسان حين لخص الموقف فى طول عمر الجواهر الجماد وقصر حياة الزهر بقوله على لسان الزهر يخاطب الجواهر :

ومعدن النور فيك حصى وفيك معنى الحياة فان

فيسا زماناً بلا حياة إني حياة بلا زمان

وإن كنت تلمح شيئاً من تقصير اللفظ عن المعنى فى قوله : "وفيك معنى الحياة فان" فإن "فان" فى الغالب لا تستعمل إلا للدلالة على الموت الذى سيكون بدلاً من الموت الواقع ، لكن الشاعر المقيّد بالقافية قلما يجتمع له فى الشعر كل ما يريد . على أن المهم فيما نحن بصددّه هو ما فى تقدير سيد قطب للثقافة اللازمة لفهم القطعة من الإسراف والتهويل .

أما المثال الثالث فهو قول العقاد :

بك خف الجناح يا أيها الطير — وما كنت بالجناح تخف

لطف روح أعار جنبيك ريشاً فمن الروح لامن الريش لطف

وهما بيتان ليس فيهما معنى كبير ، وليس فيها من الصنعة أكثر من عكس الترتيب الطبيعى وهو كثير فى الأدب العربى ؛ لكن سيد قطب الذى لا بد أن يجد كل قول للعقاد معنى علمياً ما أمكن ذلك يتمثل فى هذين البيتين نظرية علمية يحكيها فى قوله "فعلم وظائف الأعضاء يقول إن الوظيفة تخلق العضو" ويعبى به بقوله : "وظيفة الطيران هي

التي خلقت الريش وقبله الجناح" فجاء قوله هذا دليلاً واضحاً على أن الأديب إذا لم يترب تربية علمية ، وجمع آراءه وأفكاره العلمية من الكتب والمجلات ، يكون أميل إلى تصديق كل ما يساق إليه باسم العلم وإن خالف في ظاهره المعقول . وإلا فكيف يمكن أن تخلق وظيفة الطيران الريش والجناح قبل أن توجد الوظيفة نفسها ؟ إذ من الواضح أن لا طيران ولا وظيفة طيران في طائر قبل أن يوجد الريش والجناح . فلو قال قائل مثل هذا الكلام من غير أن ينسبه للعلم لكان موضعاً لتهكم صاحبنا واستهزائه . أما قد نسب هذا الكلام إلى العلم فيما قرأ فهو بقبله من غير نظر ولا تمحيص .

إن المعقول ليس هو خلق الوظيفة للعضو ، ولكن تنميتها إياه . فالعضو لابد أن يوجد لأداء الوظيفة ، واستعماله فيها بعد ذلك ينميه ويقويه ويرقيه . أما سبب إيجاد العضو فليس العلم يعرفه وإن حاول بعض العلماء أن يفسره بمثل هذا الغرض الذي لا يفسر شيئاً ، والذي لا يعبأ العلم به في الواقع لأنه لا يمكن أن يختبر صحته لا بالتجربة ولا بالملاحظة . والفروض العلمية لا حرج على العلماء في فرضها . فليفرض منهم ما شاء مادام ذلك يساعده على التفكير . لكن العلماء يعرفون أن لا قيمة لهذه الفروض مالم تساعد على إجراء تجارب ومشاهدات واختبارها ، وما لم تؤيدها هذه التجارب والمشاهدات بعد إجرائها ؛ لكن غير العلماء يكبرون كل ما ينسب إلى العلم وينزلونه من عقولهم منزلة واحدة ، فلا يفرقون بين حقائقه ونظرياته وفروضه . وعندنا أن مسارعة المشتغل بالأدب إلى قبول مثل هذا الفرض الذي يخالف المعقول تنازل من ذلك الأديب عن حرية التفكير التي يحرص عليها مثلاً وبغالي فيها إذا كان الموضوع لا يتصل بالعلم ولكن يتصل بالدين .

والمثال الرابع الذي ضربه سبد قطب لاتساع ثقافة العقاد وتفوقه بها على الرافعي يتصل بنظرية دروين ، وهو مقطوعة "الجيبون" أو "أمام قفص الجيبون" وأحسن ما في هذه المقطوعة خيالها ؛ أما اتصالها بالواقع وبحقيقة نظرية دروين فليست منه في شيء كبير . إنها تذكر النظرية كما يفهمها غير العلماء ، فتجعل "الجيبون" أبا العبقري أي الإنسان ، وتجعل الناس أبناء "الجيبون" . والناس في العادة ينسبون هذا الرأي لدروين ودروين منه برى ، فإن دروين لم يقل إن الإنسان أصله قرد كما يقول العقاد ، وإن صح أن يفهم من نظريته في أصل الأنواع بالانتخاب الطبيعي أن القرد والإنسان يرجعان في سلسلة النشوء إلى أصل واحد بعيد ليس بقرد ولا إنسان ، فترقى فرع عن هذا الأصل فصار إنساناً ، وسار فرع آخر مسيرة أخرى فصار قرداً . فقول العقاد للجيبون :

كيف يرضى لك البنون مقاماً مزيماً فى حديقة الحيوان

قول يدل على سوء فهم لنظرية دروين .

ثم إن النظرية لاتقول بأن الفرق بين الإنسان والقرد فرق زمنى فى صميمه ، ولا أن الانسان أقدم من القرد حتى يصح لأحد أن يظن أن القرد إذا استوفى زمنه ومرت عليه ملايين السنين صار إنساناً . إن القرد أقدم ظهوراً على الأرض من الإنسان فى حكم العلم إلى الآن ، فلو كان القرد يستطيع رقياً إلى الإنسانية لترقى . إن سنن الترقى قد حكمت حكمها بين الاثنين ، فلن يصير القرد إنساناً مهما عاش ، وإن جاز أن ينحط الإنسان قيصر قرداً أو شبه قرد إذا قصر فى استعمال ما وهبه الله على الوجه الذى اختاره الله له حقبة كافية من الزمن ؛ فإن هناك سنة انحطاط بالترك والإهمال والمعصية ، كما أن هناك سنة ارتقاء بالاستعمال والإحسان والطاعة .

والناس يعطون نظرية دروين فوق مالها من قوة عند العلماء فيظنون أنها تفسر خلق الأنواع ، ويضل منهم بهذا الظن من يضل إذ لم يبق عنده لوجود الإله من داع . لكن النظرية فى حقيقتها لاتفسر إلا حفظ الأنواع ، أما مجيء الأنواع وخلقها فإن النظرية لاتفسره هى - كما يقول دريتش فى محاضرات جيفورد التذكارية - سلبية الأثر لا إيجابية ؛ تفسر كيف انعدم المنعدم من الأنواع ، ولا تفسر كيف وجد الموجود .

على أن من المهم أن ننبه فى هذا المقام أن سنة التطور لا يشك فيها الآن أحد من العلماء ، لكن طريق التطور وعمله وأسبابه هى موضع الأخذ والرد والبحث بينهم . فأخونا على الطنطاوى كان على حق حين أنكر نظرية دروين كما يصورها العقاد فى مقطوعته ، والذى انتقده فى الرسالة على حق فى قوله : إن التطور يقول به كل العلماء المعتد برأيهم ، وعلى باطل إذا كان قصده بهذا أن هؤلاء العلماء يفهمون من التطور ما فهمه ووصفه العقاد فى مقطوعته .

فمقطوعة العقاد إذا أخذت بتفاصيلها العلمية مبنية على خطأ كبير ، وهى من الناحية العلمية لاتساوى أكثر مما يعتقده الناس عادة فى نظرية دروين ؛ وإذا أخذت من الناحية الشعرية الخيالية وحمل خطأها العلمى على أنه خيال شاعر كان لها شىء من القيمة ، ولكن شتان بين قيمتها هذه وبين ما يدعيه لها سيد قطب بضعفه العلمى وافتتانه بالعقاد .

فالعلمية التى يقيس بها سيد قطب تفوق العقاد على الرافعى علمية ضعيفة ناقصة فى بعض الأمثلة ، ومهولة هوّلها الوهم والافتتان فى بعض الأمثلة الأخرى . وهى فى الحالين

لاتزيد شيئاً عنها في الأمثلة التي جاء بها من كلام الرافعي واتخذ منها سبباً للزراية عليه ،
وإن سلمت أمثلة الرافعي من الخطأ الذي وقع في بعض أمثلة العقاد .

ومن أول ما تهكم به على الرافعي من هذا النوع قوله في حبيبته :

سيالة الاعطاف أين ترنحت تطلق لكهربية الهوى سيالها

وقوله فيها أيضاً :

يا نجمة أنا في أفلاكها قمر من جذبها قد أضللت أفلاكى

ولا يزيد قطب في نقد هذين البيتين على أن يقول مبالغاً في الإيحاء بتهكمه إلى القارىء :
"ولاشي وراء هذا العبث الذي لاتريد له نقاشاً" ، ويظهر أن عيب هذين البيتين وأمثالهما عنده
هو وضوح معناه ، فإن الرافعي عنده "سهل جداً لا يكلف مجهوداً ولا عناء" ، مع أننا
لنظنه يفهم كثيراً من "حديث القمر" لو أعاد قراءته الآن ، فصعوبة الكلام على فهمه مزية
يكبر بها الكلام عنده فيما يظهر ، ويسمى في العقاد سموا وسموقاً وإن كان يسميها في
الرافعي مداحلة ومعاظلة ؛ هذا هو المقياس عنده في الواقع لا العلمية ، وإلا فأى فرق في
العلمية بين المعنى العلمى الواضح والمعنى العلمى الغامض لو كان يتيسر قياساً صحيحاً ؟ بل
الوضوح في المعانى العلمية أحق بالتقدير في الأدب من الغموض .

إن السبيل في مثل هذا أن ينظر إلى دقة المعنى العلمى ودقة التطابق في الاستعارة بين
الحقيقة وبين المجاز . وليس أصدق في التعبير عما يعترى المحب من هزة ورجفة إذا اقترب منه
حبيبته من تشبيه ذلك بالهزة التي تعترى من يسرى فيه سيال كهريائى . ولا يقدح في التعبير
وحسنه ولا في البيت وصدقته أن المعنى العلمى المستعار معروف مألوف ، فذلك مما يزيد حسناً
عند من يريدون بالكلام الإيهام لا الإبهام . أما البيت الثانى فهو من باب الاستعارة التمثيلية
النادرة . وهو بيت بقصيدة وحده . ثم معناه ليس بالشائع المبتذل ، والقانون العلمى المشار إليه
فيه أعم وأهم من نظرية دروين . فذلك البيت الفريد ليس فيه عيب ولكن العيب في ناقد
الذى يكيل بمكيالين ويفكر بمنطقتين .

ومثل هذا البيت الثانى قول الرافعي لحبيبه الناسى له :

يا من على البعد ينسانا ونذكره لسوف تذكرنا يوماً وننساها

إن الظلام الذى يجلوك يا قمر له صباح متى ندركه أخفاها

وهذا البيت الثانى هو أيضاً من الاستعارة التمثيلية النادرة والمعنى المستعار ظاهرة طبيعية معروفة مألوفة ، لكن المطابقة بين حال الرافعى فى شقائه بحبه المنسى ورجائه الفرج بالنسيان ، وبين ظلام الليل يجلو القمر فإذا جاء الصباح أخفاه - هذه المطابقة فى الاستعارة مطابقة نادرة لا يكاد الإنسان يقضى حقها وحق أمثالها عجباً . لكن صاحبنا الذى يرمى الرافعى ومن معه بأنهم شكليون يخطئ ، جوهر الموضوع مرة أخرى فلا ترى من البيت إلا قثيل الحب بالظلام ، والحب عنده لا يكون ظلاماً أبداً فالرافعى لا يمكن أن يكون ذاق الحب أبداً ، وليس يشفع للرافعى أن الحب الذى شبهه بالظلام هو حب شقى به لنسيان حبيبه إياه ، فلا يصح فى إنصاف ولا فى أدب أن يقاس على حب آخر يسعد به صاحبه لاستجابة حبيبه له فيه . لا ، الحب أيا كان لا يمكن أن يكون ظلاماً عند سيد قطب ؛ فمن رآه ظلاماً فقد زل زلة بألف ، ودل دلالة قاطعة على أنه شكلى لم يذق الحب قط ، ليت شعر النقد - إن صح هذا - ماذا يكون الحكم فيمن شبه الحب بالجحيم وظلمتها ؟ ومن هو ؟ سيد قطب ؟ هو سيد قطب فى شعره الذى نشره بالرسالة (عدد ٢٢٠) بعنوان "ريحانتي الأولى أو الحرمان"

وإليك بعضه إن كان لابد أن نذكر لك منه مثالا :

ريحانتي الأولى وروح شبابى	أنذا دعوت سمعت رجع جوابى
أنا فى الجحيم هنا وأنت بجنة	من روح إعجاب وريق شباب
أنا فى الجحيم وأنت ناعمة المنى	خضراء ذات تطلع وطلاب
أما لا أريدك ها هنا فى عالمى	إنى أعيدك من لظى وعذاب

ولكيلا تظن أن سيد قطب يتفلسف حين يقول هذا اقرأ له من مقطوعة أخرى من نفس الشعر :

عيني رعتك وأنت نابذة فلم	تغفل ولم تفتري ولم تتألم
حتى إذا أينعت وانطلق الشذى	ألفيت نفسى فى صميم جهنم
ملقى هنالك لا أحس ولا أرى	إلا الشواظ وكل داج معتم

أفى نور هذا من حبه ياترى أم فى جب من جهنم ؟ هذا هو الذى لم يعجبه بيت الرافعى فتجنى عليه ما تجنى وأطال قلمه فيه بما أطال ، وأنساء تجنيه وهواه الواقع وما خطت يمينه قبلها ببضعة أشهر ليكون كلامه حجة عليه يفضحه الله به ، وليعلم الناس أجمعون أن مقالات "بين العقاد والرافعى" كتبها عابث يتجنى لا ناقد يتحقق ، ولا أديب يبتغى وجه الأدب .

٧- بين القديم والجديد*

للأستاذ محمد أحمد الغمراوي

أستاذ الكيمياء بكلية الطب

لقد آن لنا أن نختم هذه الكلمات بعد أن بلغنا من تزييف مقالات "بين العقاد والرافعي" أكثر ما نريد . لقد كانت حملة جائرة قامت على الإفك والباطل تلك التي قام بها صاحب تلك المقالات على الرافعي ورحمة الله عليه . وكان أمامنا لتبين إفكها وباطلها طريقان : طريق يهملها ويجلو للناس حقيقة أدب الرافعي بدراسة ذلك الأدب ونقده ، وطريق يدع أدب الرافعي حيث هو ، يعرفه من يعرفه ، ويجهله من يجهله ، ويعمد إلى تلك المقالات فيضرب بعضها ببعض وينسفها بعوامل نسفها المستكنة فيها . وكان الطريق الأول يحتاج إلى زمن وجهد أكثر مما يتيسر لنا فاضطررنا إلى الطريق الثاني . ونظن أن لم يبق بحمد الله من تلك المقالات الآن إلا ما يدع اللغم من البناء المنسوف .

غير أننا نحب مع ذلك ألا نختم الموضوع من غير أن نقول كلمة نبين بها ما نعتقد أنه الفارق الحقيقي بين المذهبين اللذين يمثلهما في الأدب كل من الرافعي والعقاد .

لقد جرى الناس على رد التفاصيل في الأدب إلى أصليين : اللفظ والمعنى ، وأبدأوا في ذلك وأعادوا وأسرفوا في الاختلاف بينهم : أي هذين الأصليين يقدمون على الآخر في تقديم أديب على أديب . واختلافهم هذا شيء عجيب ، فإن اللفظ والمعنى ركنان متلازمان لا ينبغي التقصير في أيهما للأديب المكتمل . فكان مثل اختلافهم ذلك لا تدعو إليه الحاجة إلا عند المفاضلة بين أدباء مقصرين . وإذا كان لابد من الإعراب في هذا الشأن عن رأي فالتعبير له المقام الأول وفي الأحوال التي تكون الفكرة المعبر عنها شائعة لا تكلف مجهوداً ؛ والتفكير له المقام الأول إذا كان الموضوع يستلزم إعمال الفكر لاستخراج الصواب " وعندئذ يكفى من التعبير الصحيح ما يجلى ذلك الصواب ، ويكون كل ما يعوق ذلك عيباً ولو كان زيادة تفنن في التعبير . فإن أمكن الجمع بين التفنن في التعبير والجلاء والدقة في المعنى المعبر عنه كان الأديب أمكن في الأدب من غير شك وكان أولى بالتقديم .

إن إمتلاك ناصية اللغة أمر لابد منه لكل أديب يريد أن يبلغ في الأدب مرتبة الخلود . وليس معنى هذا أن أمتلاك ناصية اللغة وحده كاف للخلود ، فليس في الأدب مكانة للخلود

صاحب المعنى الخسيس فى اللفظ الأثيق إلا إذا انحط الأدب . إنما الآداب الرفيعة آداب نبيل قبل كل شيء : نبيل فى المعنى ونبيل فى التعبير على السواء . ونبيل التعبير راجع إلى حد كبير لنبيل المعنى عند تمام الأداء . لكن لن يستطيع البلوغ فى الآداب حد التمام إلا من امتلك ناصية اللغة فلم يعجزه معنى مهما دق أو اتسع عن أن يجد له من التعبير ما يلبسه ويظهره ويستفرقه ، فلا يقصر عنه ولا يزيد عليه . فشرط امتلاك ناصية اللغة شرط أساسى فى كل أديب يطمع فى ذلك المجد الباقي الذى تسميه الخلود خلود . الذكر إذا صار الأديب حديثاً من الأحاديث . هو شرط أساسى لكنه وحده غير كاف ، كالماء أو الهواء أو الطعام كل منها ضرورى للحياة لاتقوم بدونه ، لكنه وحده لا يكفى للحياة .

وإذا تساءل متسائل أى الأدبين أدل على امتلاك ناصية اللغة واقتدار على التفنن والتصرف فى التعبير بها ؟ أدب الرافعى أم أدب العقاد ؟ كان الجواب الذى يسرع إلى الإنسان فى غير تكلف ولا تحيز : أدب الرافعى كان أملك لناصرية اللغة من غير شك وأكثر افتناناً فيها وتصرفاً بها . ولانظن العقاديين أنفسهم يمارون فى هذا ، فأكبر ما ادعاه للعقاد مفتونهم به هو أن الأسلوب الفخم والتعبير الجيد غير بعيدين عن شعر العقاد .

لكن التفوق من ناحية اللغة لا يبلغ أن يكون فارقاً بين مذهب ومذهب ، فأبناء المذهب الواحد فى الأدب كثيراً ما يتفاوتون فى المقدرة اللغوية تفاوتاً مذكوراً . لو كان العقاد ممن يثبطون عن اللغة أو يدعون إلى اتخاذ العامية لغة كتابة كما هى لغة حديث لكان ذلك فارقاً أساسياً بين الرجلين ينسبهما فى اللغة إلى مذهبين مختلفين . لكن العقاد لا يفعل شيئاً من هذا . إنه يرجو أحياناً أن يجد الشعر العربى طريقاً إلى أن يتحلل بعض التحلل من القافية ليتسع مثلاً لشعر الملاحم ، لكن هذا وحده ، مهما خالفه الرافعى فيه إن كان خالفه ، لا يكفى لأن يتعاديا فيه أو ينتسبا به إلى مدرستين أو مذهبين فى الأدب مختلفين .

بقيت ناحية المعنى . ولم نر أحداً ظلم فى معانيه مثل ما ظلم الرافعى . فكلام بعض أنصاره مثل أخينا على الطنطاوى لا يقدر ناحية المعنى حق قدرها فيظن خصوم الرافعى أن هذا هو مذهب الرافعى ، ويتخذونه فيما يتخذون دليلاً على تقصير الرافعى من ناحية المعنى . أخونا الطنطاوى يرى المعانى قريبة المتناول يأخذها الإنسان مما يسمع أو يقرأ أو يشاهد ، فلا فضل فيها لأحد على أحد ، ويكون التعبير عنها هو مظهر التفاضل بين أديب وأديب . لكن هذا إذا صدق على الشائع المألوف من المعانى فليس يصدق على النادر الطريف . ومعانى الرافعى أكثر من بينها الطريف كثرة تدعو إلى العجب : كثرة لانظن أحداً من المحدثين يفضلها أو

يزججه فالرأى الذى ذهب إليه أخوتنا الطنطاوى من شأنه - عرضاً - أن يهضم الرافعى من هذه الناحية التى تعد من أكبر مفاخره .

وطرافة معانى الرافعى يرجع جزء كبير منها إلى خياله . ومن رأينا أن ناحية الخيال من النواحي التى تفوق فيها الرافعى وامتاز فتم بها تفوقه فى التعبير والبيان . هذه الناحية فى الرافعى أدعى إلى الإعجاب حتى من قدرته اللغوية ، فالمقدرة اللغوية لا تحتاج بعد الاطلاع والإحاطة إلا إلى حسن الاستعمال ؛ لكن الخيال ملكة أخرى لعل قوتها ورقبتها أدل الدلائل على الشاعرية. ونحن فيما قرأنا للقديما أو المحدثين لم نرها بلغت من النمو والقوة والسمو ما بلغت فى الرافعى . وليس معنى هذا طبعاً أن أدب الرافعى هو خير أدب وجد ، لكن معناه أن ناحية الخيال أظهر فى أدب الرافعى وأسمى منها فى أدب أى أديب قرأنا له . وسواء أكان من قرأنا فى الأدب كثيرين أو قليلين ، فليس لدينا شك فى أن ناحية الخيال ناحية امتاز فيها الرافعى وتفوق على العقاد .

لكن ليست المعانى كلها تدور حول الخيال ، وإن كان الرافعى لقوة حاسة الخيال فيه يكاد يجد للخيال موضعاً فى كل معنى . إن روح المعنى بالطبع هو منزلته من الحق ومن الصواب ، والحق والصواب لهما معايير ليس الخيال أحدها قد ضلها المتأدبون هذا العصر حتى كاد الأمر يكون بينهم فوضى . فأما ما اتصل من المعانى بالعلم فمن السهل الرجوع فيه إلى أصل يحسم الخلاف أو يخفف من الخصومة فيه . لكن ما الخيلة فيما اتصل من المعانى بالفن ، والفن قد كثرت مذاهبه وتضاربت حتى لم يبق لترجيح رأى على رأى ولا مذهب على مذهب إلا الميل والهوى الذى يسمونه الذوق ؟ كيف يمكن تبين الحق والصواب فى ميدان الفن الذى منه ميدان الأدب . فيما لم يتصل بعلم وفيما لم يتصل بلغة ؟ إن الوصول إلى جواب صائب على هذا السؤال أمر حيوى لاغنى عنه ألبتة ، لا لأنه يعين النقد فى الحكم بين أديب وأديب ، أو بين مذهب ، فى الفن ومذهب حكماً يبقى على الورق لا يدرى من تأثيره ، ولكن ليتبين الناس به سبيلهم فى فوضى الفنون هذه فيأخذون من الفنون ويدعون طبق ما هو حق وطبق ما هو خير .

إن الفن ومنه الأدب له من الأثر فى حياة الفرد وفى حياة الجماعات أكثر مما للعلم ، لأنه متصل بدخيلة هذه الحياة فى حين يتصل العلم عند أكثر الناس بظاهرها ؛ وإذا اتصل عند أقلهم بباطن حياتهم النفسية فقد صار باباً من الفن عند ذلك القليل . إن الفن يعمل فى نفس الفرد ويكيف حياته الباطنة إن لم يكن كل التكييف فبعض التكييف ، لكنه على أى حال

تكييف بعيد الأثر في حاضر الإنسان ومستقبله . ولسنانغالى إذا قلنا إن مستقبل الإنسان فرداً أو جماعة يتوقف الآن على نوع هذا الأثر الذى يحدثه الفن فى النفوس .

ومن عجيب الأمر أن الناس يكتبون ويتكلمون عن الفن كأنه دائماً يوجه إلى الخير وكأنه دائماً على صواب . إنه ينبغي أن يكون دائماً كذلك من غير شك ، لكن هل هو دائماً كذلك؟ بل هل هو غالباً كذلك إنك لاتستطيع أن تحجب جواباً نافعاً حتى يكون لديك معيار صدق تعرف به الخير من الشر فى الفنون كما تستطيع أن تعرف الحق من الباطل فى العلوم . ولن تجده فى هذه الفوضى السائدة بين مذاهب الفلسفة والأخلاق والفنون وإنما تجده من غير شك فى الدين .

لكن أصحابنا المجددين أنصار مايسمونه الأدب الحديث يفرقون من ذكر الدين كأنما تلعثم من اسمه النار . كذلك فزع أحدهم بالعراق ، وكذلك يفرع هذا الآخر فى مصر وإن زعم أنه أفهم منا للدين . ليته كان كذلك حقاً فنغبط له ، فإن ذلك مما لا ينقصنا من ديننا شيئاً ولكن يزيده فى دينه . لكن المسألة فى الدين ليست مثلها فى الأدب الذى يكتبون كلاماً يرجع فيه إلى أصل ثابت ولا معيار . إن كل مايتصل بالدين ممكن الرجوع فيه إلى أصل لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه : القرآن . وماغمض علينا من القرآن يمكن تبين معناه المقصود من السنة سنة الرسول صلوات الله عليه . ونحن معشر المسلمين مأمورون بأن نرد كل ماختلف فيه إلى الله والرسول إن كنا نؤمن بالله واليوم الآخر : (ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلاً) فلعل صاحبنا إن كان أفهم منا للدين لايعيب كلامنا هذا بأنه من كلام خطباء المساجد ويقبل على تفهم وجه الحجة فيما نلقى عليه فإنما الحق والإصلاح نريد .

إن المسلم الذى يفقه دينه ويفقه الحياة أينما نظر لايجد مفراً من أن يصل هذه الحياة أديها وفنها وعلمها بالدين كما أنزله الله على رسوله محمد بن عبد الله ، أى كما يتبين من القرآن ومن عمل الرسول . إن الاسلام دين يشمل الحياة بحناقيرها ويحيط بها من جميع أطرافها . ومن أخص خصائصه أن يكون الإنسان فى خلجات نفسه مع الله ، وأن يخلص نوايا قلبه لله ، وهذا هو معنى إسلام الوجه لله ، ومنه اكتسب الدين اسمه الكريم : الإسلام . والمظهر العملى للإسلام هو طبعاً اتباع ماشرع الله للإنسان فى الحياة من نظم وأحكام ، لكنه لن يستطيع أن

يحقق هذا حتى يكون سره ونجواه ونيتته لله . وعن هذا الطريق طريق إسلام الوجه والنفس والقلب لله يكون تمام اتصال الانسان بربه خالق الكون وفاطر الفطرة الذى إليه المرجع ومنه الهدى وبه الحياة ..

فإذا كان ذلك كذلك ، وإنه كذلك ، فكيف يجوز فى غريزة أو عقل أو علم أن يجمع الإنسان بين الحياة الإسلامية والحياة الفنية أو الأدبية أو العلمية إن لم يكن بين الفن والأدب والعلم وبين الإسلام تمام التطابق والاتفاق ؟ والتطابق التام بين العلم والإسلام ثابت لا شك فيه^(١) ، فليس فى الثابت من العلم شيء ينقض شيئاً من الإسلام ، وليس فى الإسلام أصل ينقض حقيقة ثابتة فى العلم . وكل ما يثبت العلم فى المستقبل يقبله الإسلام مقدماً بنص القرآن ، ويؤول إليه النص إن خالفه فى الظاهر . وهذا دليل جديد لا ينقض على أن الإسلام هو حقاً من عند الله فاطر الفطرة ، وأنه حقاً دين الفطرة كما وصفه الله فى القرآن . أفلا ينبغى أن يشبه هذا فى الدين هؤلاء المتزلزلين من أهل "التجديد" الذين يريدون أن يلقوا الدين ويضعوه على الرف ويقطعوا باسم التقديس ما بينه وبين الحياة فى مظاهرها خارج المساجد فى الأدب والفنون والاجتماع ؟

إن الفطرة كلها منشئها واحد هو الله سبحانه وتعالى ، والعلم والدين كلاهما قد اجتمعا على استحالة التناقض فى الفطرة . فإذا كانت هذه الفنون من روح الفطرة كما يزعم أهلها وجب ألا تخالف أو تناقض دين الفطرة دين الإسلام فى شيء . فإذا خالفته فى أصوله ودعت صراحة أو ضمناً إلى رذيلة من أمهات الرذائل التى جاء الدين لمحاربتها ، وعاقبت الإنسان أن يعمل بالفضائل التى جاء الدين لإيجابها على الإنسان حتى يبلغ ما قدر له من الرقى فى النفس والروح - إذا خالفت الفنون الدين فى شيء من هذا أو فى شيء غير هذا فهى بالصورة التى تخالف بها الدين فنون باطلة ، فنون جانبية الحق ودابرت الخير وأخطأت الفطرة التى فطر الله عليها الناس والخلق ، والتى تريد الفنون أن تكون منها فى الصميم ، فإذا كان من شأن بعض ما يعمل أو يكتب باسم الفن أو الأدب أن يتجاوز فى تأثيره ماسبق على عظمه ، فيحول بين الإنسان وبين ربه ، ويدخل عليه الشك فى دينه بأى صورة من الصور ولأى حد من الحدود ، كان ذلك البعض المعمول أو المكتوب باسم الفن أو باسم الأدب زوراً وإفكاً فى الفن والأدب والفطرة والدين على السواء .

(١) انظر : مقال الإسلام والمدنية والعلم فى عدد الرسالة الممتاز والذى يليه لسنة ١٣٥٥ .

فنحن حين ندعو إلى وجوب نزول الفن والأدب على حكم الدين وروحه ، ونحريهما التطابق التام بينهما وبينه ، لسنا نعبث ولا نتجنى ولا نتحكم فى الأدب والفن بما لا ينبغي التحكم به فيهما .

إننا نوجد معياراً للحق والصواب والخير فى الفن والأدب حين لا معيار لذلك كله فيهما ؛ ونيسر للفن والأدب طريق التثبيت من انطباقهما على الفطرة التى فطر الله عليها الناس ، ونحقق لهما بذلك اتحادهما مع الفطرة فى الصميم . ونحن بذلك الذى ندعو إليه ونقول بوجوده نحقق بين الفن والأدب وبين الدين تلك الوحدة المتحققة بين الدين والعلم ، فتتحقق وحدة حياة الإنسان كلها بذلك وتبرأ حياته من ذلك الداء المستعصى والشر البالغ . شر وجود التناقض والتناقض بين ما يعشق من فن ويعتقد من دين . ثم نحن بعد هذا وراء هذا نترك الفن والأدب بما قلنا ودعونا إليه من وجوب سيرهما مع الدين بدأ بيد ، وجنباً لجنب ، وروحاً مع روح ، على الطريق التى يحققان منها رسالتهم فى الناس ، رسالة الصدق والحق والخير والفضيلة والعزة والسعادة والهدى والنور ، لا رسالة الكذب والباطل والشهوة والإثم والمجون والفجور .

فالمسألة فى الأدب - إذ لابد من الرجوع إلى ما كنا فيه - ليست مسألة لفظ ومعنى ولكنها فى صميمها مسألة روح . فريق يريد أن يجعل روح الأدب روحاً شهبانياً بحثاً يتمتع صاحبه بما حرم الله وما أحل ، لا يفرق بين معروف ومنكر ، ثم يصف مالمقى فى ذلك من لذة أو ألم أو غيرهما من ألوان الشعور ويخرج ذلك للناس على أنه هو الأدب ! وفريق يريد أن يحيا الحياة الفاضلة فى حدودها الراسعة التى حددها الله ، وعظاها المختلفة فى الفطرة كما طهرها الله ، لا كما دنسها أو يريد أن يدنسها الإنسان ، ويصف ما يتمتع به من تلك وما يلقى و يتجشم فى سبيل ذلك غير ناس لحظة أن الوجود كله من الله وأن الدين كله لله ، وما يصف ويحلل ويخرجه للناس على أنه هو الأدب . فأى الأديين ياترى أرحب وأسمى وأطهر ، وأيهما أولى بالحياة وأصلح للبقاء ؟ إنه لا شك عندى فيما تجيب به بفطرتك على هذا السؤال .

إن أدب الفريق الأول هو ما يسمونه بالأدب الجديد ويمثله العقاد ، وأدب الفريق الثانى هو ما يسمونه بالأدب القديم ويمثله الرافعى ، وقد عرفت الآن فيم يتفقان وفيم يفترقان . الرافعى كما قلنا يتفوق على العقاد فى التعبير وفى الخيال ؛ وكلاهما يحتفل بالمعنى أكبر احتفال ؛ غير أن الرافعى عنده نور يهتدى به ليس عند العقاد فكان لذلك أقل من العقاد عاباً وأكثر صواباً . لكن ذلك كله لا يكفى لأن بين أدبيهما تفريقاً يجعل منهما ممثلى مذهبين مختلفين فى الأدب إنما الخلاف الأساسى بينهما خلاف فى الروح ؛ هما من حيث الروح مختلفان كل

الاختلاف ، وعندك للحكم بين الروحين معيار صدق لا يخطئ . هو معيار الدين . وإذا أردت معياراً جزئياً يغنيك عند التقريب فمعيار الخلق الفاضل . وإذا قصت الأدبين بأحد هذين المعيارين لم يبق عندك شك في أيهما أولى بالإكبار وأصلح للبقاء ، لأنه أعون للإنسان على الارتقاء : الأدب الأخلاقي أم الأدب غير الأخلاقي ، على اللطف وأخف تعبير .

والمقياس الذي نبهنا إليه في الفن والأدب ليس من البعد عن الفن والأدب كما يصور العقاديون ، بل هو من روح الفن والأدب في الصميم . أليس روح الفن والأدب الجمال ؟ أليس الجمال النفسى روح الجمال الإنسانى ؟ ثم أليس روح الجمال النفسى إخباته وإخلاده وإسلامه لله ؟ من هذا الإخبات والإخلاد والالتقياد لله تأتى الفضيلة والسلامة والسعادة في الحياة ، ومن محبة الله سبحانه يشيع في النفس الهدى ويشع منها النور . فقل لى بربك كيف يمكن أن يكون لأدبهم المكشوف نصيب من روح الجمال الإنسانى يستهوى النفس التى فيها بقية من الفضيلة والخير ؟ إنا لا نشك فى أن ذلك الأدب المكشوف مثل سارة وما إليها يصدم أول ما يصدم مقر الفضيلة من النفس ويؤذى أول ما يؤذى جاسة الجمال النفسى فى الإنسان . فهو فى صميمه أدب غير جميل ، يلذه ويستمتع* به من مسخت نفسه فصارت تعاف الطيب وتستمرىء الخبيث . أما غير هذه النفوس بما لا يزال لها من الخير والفضيلة والدين نصيب فإنها تجد صعوبة فى أن تمضى فى قراءة مثل ذلك الكتاب إلى تمامه إلا أن تعطل من ذوقها أو تنيم من ضميرها أو تحتال عليه بالإقرار له أن الكتاب من الناحية الخلقية معيب قبيح لكنها تقرأه لتحيط بأدب العصر أو لتدرس من الكتاب أسلوبه أو ما شابه ذلك من معاذير . ويكون جزاؤها على ذلك أن تخرج من القراءة وقلبها أكثر مرضاً ، وذوقها الأدبى أقل تمييزاً ، وحسها الخلقى أكثر انشلاماً . ولا تلبث إذا تكررت ذلك منها أن تفقد أكبر مميزاتها ومزاياها فتتهبط من معارج الرقى النفسانى إلى مدارج الانحطاط ؛ ويكون الأدب المكشوف بذلك قد فعل فعله وأدى رسالته من مسح الطباع وإفساد النفوس والصد عن سبيل الله .

* هكذا فى الأصل والصواب ليستمتع على نحو ما يقتضى السياق . "المحرر"

١- الدين والأخلاق *

بين الجديد والقديم

لأحد أساطين الأدب الحديث

الظاهر أن الأستاذ الغمراوي رجل حسن النية صادق السريرة . وقلت الظاهر لأنى لا أعرفه؛ ولا أريد أن أتعرض لنقده مايسميه المذهب الجديد ، ولا النزاع الثائر بين أنصار الرافعى وبين أنصار العقاد . ولو كان الأستاذ قد اكتفى بالنقد الفنى وقصره على ذلك النزاع الفنى لسلم من بعض الهفوات التاريخية والاجتماعية ؛ فقد قال إن نزعة التجديد يرجع أولها إلى نحو ثلاثين سنة ، وقد ذكر فيما ذكر من التجديد أخذ الآراء الأوروبية ، ولم يكتف بذكر ما أخذ منها مما هو فى باب الآداب ، بل ذكر أيضاً ما اقتبس من النظم والمبادئ الاجتماعية . وهذا الوصف الشامل للتجديد لا ينطبق على نزعة بدأت منذ ثلاثين سنة ، وإنما ينطبق على النزعة بوجه عام منذ جاء نابليون إلى مصر ، ومنذ عهد محمد على باشا وإسماعيل باشا ، ومنذ أدخلت المطابع وأرسلت البعثات العلمية واقتبست القوانين المدنية ، ونظمت المحاكم الأهلية التى صارت تحكم بغير أحكام الشريعة الإسلامية ، وكثر نقل الكتب إلى العربية . والأستاذ الغمراوي يعيب على المجددين أنهم يريدون رفض بعض أحكام الشريعة ، ويذكر كيف أن بعض الكتاب يحبذ منع تعدد الزوجات ويقول الأستاذ إن للدين وحدة تامة فلا يجوز أخذ بعضه وترك بعضه . ويحبذا لو أن الأستاذ كان قد فصل هذه الناحية من التجديد فى مقال مستقل عن النزاع على التجديد فى معانى الشعر والنثر ، إذ ما صلة الذين قاموا بإنشاء المحاكم الأهلية وأحلوا أحكامها محل الشريعة الإسلامية ، وما صلة الذين يريدون منع تعدد الزوجات ومنع الطلاق ، بمعانى شكسبير والمتنبى وملتون وأبى المتاهية مثلاً ، ولعل أكثرهم كانوا لا يهمهم النزاع الفنى الأدبى مطلقاً . نعم إن الدين والأخلاق لها مظاهر فى الشعر والنثر فكان ينبغى للأستاذ الغمراوي وقد حكم للمذهب القديم أنه قوام الدين والأخلاق ، وحكم على المذهب الجديد أنه بؤرة الإلحاد والمجون ، أن يثبت هذا الزعم فينفى عن شعراء المذهب القديم كل كفر وإلحاد ومجون ، وينفى عن شعراء المذهب الجديد كل تدين وإيمان بالفضائل مستشهداً بأقوالهم من شعر ونثر فإن هذه هى الطريقة الفنية للمفاضلة بين المذهبين من حيث الدين

والأخلاق . وإن لم تخفى الذاكرة فإن الأستاذ قد خص المذهب الجديد فى الأدب بأنه نزعة تغليب دين على دين . وإذا كان لهذا القول معنى فمعناه أن أدباء المذهب الجديد يريدون تغليب الديانة المسيحية على الديانة الإسلامية . فإذا لم أكن مخطئاً فى هذا التفسير كان واجباً على الأستاذ أن يقيم الدليل على أن أدباء المذهب الجديد يريدون تغليب دين على دين ، وقد نسى الأستاذ أن كثيراً من مظاهر الحضارة الأوربية الحديثة لا علاقة له بالمسيحية التى هى دين أكثر الأوربيين ، أو لعل الأستاذ قد أراد أمراً آخر لم تفهمه .

ولو رجع الأستاذ إلى العصر الذى كانت فيه النزعة الدينية المسيحية متغلبة فى أوربا وهو عصر القرون الوسطى عصر التزهّد والرهينة والتقصّف لعلم أن المحافظين من رجال الدين والكتاب كانوا يخشون على الدين والأخلاق من غزل العرب ومجون شعرائهم وقصصهم ومن حرية أفكارهم فى المسائل الدينية والكونية ، وكانوا يرمون الأدب العربى بالإباحية فى الأخلاق ، وكانوا يلومون الأباء الذين كانوا يرسلون أبناءهم إلى مدارس البلاد العربية كالأندلس وصقلية ؛ فلم يكن عداؤهم للكتب العربية الدينية فحسب ، بل كان عداؤهم للكتب الأدبية العربية والفكرية أشد . وموقف هؤلاء المحافظين من الأدب والفكر العربى كان شبيهاً بموقفهم من الأدب والفكر الاغريقى القديم .

وهذه الحقيقة ينبغى أن تنبه الأستاذ إلى أن الدولة العربية الإسلامية لم تلبث على الفطرة السليمة وعلى حالها من الأدب كما كانت فى صدر الإسلام مثلاً بل دخلها العرف وتفتت فيها لذائد الحضارة وكثر المجنون فى أقوال الشعراء والكتاب وبقيت أصناف المجنون والالحاد مخطوطة إلى عهد أن دخلت المطابع البلاد العربية الإسلامية . ولا أحسب أن أهلها كانوا على فطرة يخشى عليها من تلك الكتب فإن حالة الأخلاق فى عهد دخولها لم تكن أرقى مما هو موصوف فى تلك الكتب إلا فى أوساط محدودة معروفة بالنزاهة والعفة والاستقامة وصدق القول والعمل ؛ وكان يضرب بها المثل ؛ وكانت كالشامة البيضاء تنعت نفسها لوضوحها فى الجلدة السوداء . ولاتنس أن البدو كانوا بطبيعتهم يكرهون الضوابط والروادع أية كانت ، فسرعان ما حثتهم الحضارة ولذائدها على التحلل من روادع الدين . وقد بدأ المجنون يعود إلى استفحاله بعد عهد قريب من صدر الإسلام ، وبلغ أشده فى الدولة العباسية ، وكان مصحوباً فى كثير من الأحوال بالكفر والزندقة والالحاد ، وكان كل منهما فى بعض الأحيان مستقلاً عن الآخر ، فقد كان بعض الملحدين من أشد الناس زهداً ومحافظة على الفضائل كما كان المعرى مثلاً .

يقول الأستاذ إن المذهب الجديد فى الأدب الذى يقول عنه الأستاذ إنه بدأ منذ ثلاثين سنة
خطر على الأخلاق والدين ، فهل يستطيع الأستاذ أن يأتى بأبيات من شعر هذا المذهب الجديد
فى شاعتها كأبيات ابن الرومى النونية التى يقول فيها :

صوت يد العجان فى العجين أو صوت رجلى عامل فى طين

وهى أبيات قد اختارها له السيد توفيق البكرى فى كتاب (صهاريج اللؤلؤ) الذى ألفه كى
يقرأه الناس رجالا ونساء وفتياناً وفتيات ، والبكرى كما يعلم الأستاذ الغمراوى كان شيخ
السادة البكرية ورجلاً من رجال الدين والفضل ومن أدباء المذهب القديم ، ولكنه لم يتحرج من
إطلاع سيدة أو فتاة فاضلة على مافى كتابه هذا من المجون الشنيع . ولأن يعطى الأديب من
أدباء المذهب القديم أى قول قاله شعراء وأدباء المذهب الجديد لأخته أو لفتاة من أقربائه لتقرأه ؛
لأصون لها ولأخلاقها من أن يعطيها كتاب صهاريج اللؤلؤ هذا إلا إذا طمس المجون قبل أن
يقدم إليها الكتاب . وقد طبع الشيخ شريف جزئين من ديوان ابن الرومى فى أحدهما أرجوزة
مطلعها : (رب غلام وجهه لا يفضحه) وفيها يصف طرق اللواط فى أوضاع وأشكال مختلفة .
وقد عنى الشيخ شريف بشرح لفظه ومعناه كما عنى السيد توفيق البكرى بشرح الأبيات
النونية . والشيخ شريف كان مفتش اللغة العربية وأديباً من أدباء المذهب القديم ، ولكنه لم
يتحرج كما لم يتحرج البكرى من شرح وطبع هذا المجون وإيضاح معناه كى يقرأه ويلهمه
الفتيان والفتيات . فأى أديب من أدباء المذهب القديم يرى أن يعطى أخته أو أخاه الصغير هذا
الكتاب ، أو أن يطلعهما على قصيدة ابن الرومى أيضاً فى (بوران) أو على ديوان أبى نواس
أو على مافى كتاب الأغاني أو كتاب يتيمة الدهر للثعالبى من مجون لا تسمح أية دولة
أوروبية بنشره ، بينما أدباء المذهب القديم يشرحونه ويطبعونونه ويستحلونه فى مجالس أنسهم
ويضحكون تفكهاً به ، حتى إذا جاء ذكر ما يسمى بالمذهب الجديد وأثر الأدب الأوروبى فيه
أخذتهم رعدة الغضب وأدعوا أن المذهب القديم عماد الأخلاق والدين ، وأن المذهب الجديد بؤرة
المجون والإباحية والإلحاد . إن المسألة بسيطة والأمريهين . نستطيع أن نطبع على الناحية
اليمنى من صفحات المجلة ما نحمده من مجون وإباحية شعراء المذهب القديم فى العصور
المختلفة حتى عصرنا هذا ، وعلى هؤلاء الأدباء أن يقدموا ما يستطيعون أن يعثروا به من
أقوال أدباء المذهب الجديد لتطبع فى الناحية اليسرى من المجلة . لا شك أن أدباء المذهب القديم
يتهربون من مثل هذه المقابلة كل التهرب . وما يقال فى كتب المذهب القديم الأدبية يقال أيضاً
فى كتب التاريخ . انظر بالله إلى الأبيات التى زعموا أن مسيلمة الكذاب بعث بها إلى سجاح

المتنبئة والتي فيها (وإن شئت .. وإن شئت) كيف يستطيع أديب من أدباء المذهب القديم أن يطلع أخته أو بنته أو قريبه له من الفتيات على هذا الشعر ؟

ثم انظر إلى ذكر الفحش وقصصه ونظم الهجاء فيه شعرا تجدد أن أدباء ما يسمى بالمذهب القديم في كل عصر حتى عصرنا هذا كانوا أكثر حفا منه . ولا أعنى جميعهم ، ولكنهم حتى الأفاضل منهم قد وجدوا هذا الأسلوب من القول عادة صقلها الدهر وهون أمرها فأصبحوا لا يجدون خطرا على الأخلاق في نظم الهجاء فحشا ولا في التحدث عنه ، ولكن الخطر كل الخطر هو تأثير الأدب العربي بنواحي القول كما وردت في كتب الأدب الأوروبي .

وبعد فأى أدب أوروبي يعنون ؟ لقد تقلبت على الدول الأوروبية عصور اتخذ الأدب في كل منها نزعة خاصة ، ولكنهم إذا تكلموا عن الأدب الأوروبي خيل للمقارىء أنهم يعدون جميع الأدب الأوروبي في عصوره المختلفة على طراز واحد وأنه مأوى المجون والإباحية والزندقة .

إن عصور الأدب الأوروبي تختلف اختلافا يجعل بعضها أقرب إلى بعض الأدب العربي منها إلى عصور أخرى من عصور الأدب الأوروبي ، فالأدب الإغريقي في سهولة معانيه وخيالاته أقرب إلى الأدب الجاهلي العربي منه إلى الأدب الرمزي الأوروبي الحديث . والأدب الأوروبي الحديث في حرية الفكر أقرب إلى الأدب العباسي العربي منه إلى الأدب الأوروبي في القرون الوسطى . فإذا كان بعض الأدب الأوروبي الحديث قد دعا بعض أدباء المذهب الجديد إلى إبهام الإيجاز والصور المتدخلة بعضها في بعض وإلى غموض الرمزية فقد ألف بعض أدباء المذهب القديم على هذه الطريقة في إبهام الإيجاز من غير أن يطلعوا على الأدب الأوروبي . انظر مثلا إلى إيجاز الرافعي في كتاب (حديث القمر) والكتب الأخرى التي كتبها ، وكأنه لم يكتبها إلا لكي يثبت أنه يستطيع أن يزيد على معاني وصور أدباء أوروبا والمذهب الجديد وأنه أغنى منهم بمعانية كما أنه أغنى منهم بأساليبه اللفظية الفصيحة العربية ؛ ولكن فصاحة لغته العربية لم تخف الحقيقة الفنية ، وهي أن الرافعي صاحب (حديث القمر) و(السحاب الأحمر) أقرب إلى أدباء الرمزية الأوروبيين منه إلى الرافعي صاحب كتاب (إعجاز القرآن) وإن بين أدباء المذهب الجديد من هم أقرب إلى الرافعي صاحب (إعجاز القرآن) وأقرب إلى أدباء العربية الأقدمين من الرافعي صاحب (حديث القمر) وأعنى القرب في أسلوب التخيل وأسلوب عرض الصور الفكرية وكل صورة مستقلة غير متدخلة في أختها . فإذا أراد إذا ناقد أن ينتقد المذهب الجديد أو الأدب الأوروبي كانت الطريقة المثلى أن ينتقد ما يعيبه فيه على طريقة النقاد الفنيين فيبين الغث من السمين ويوضح أسباب حكمه على كل قول وكل أديب .

أما أن يقول إن الأدب الأوروبي كأدب المذهب الجديد فاسد المعنى والخيال ينبو عنه الذوق العربى وتجه الفصاحة العربية ، وإنه مباءة المجون والإباحية والزندقة ، فقول من لا يريد أن ينقد ولا أن تُقدّر قيمة ما يقول قدراً صحيحاً ولا أعنى الأستاذ الغمراوى فإن هذه أحكام شائعة . نعم إن بعض الأدب الأوروبي ولاسيما الحديث منه يعث أدباء العربية على بعض ما يخالف العرف والتقاليد الإسلامية ، ولكن أليس فى أقوال شعراء العرب وأدبائهم فى كل عصر أشياء كثيرة تخالف العرف والتقاليد والآداب والأخلاق الإسلامية كما أوضحنا بالشواهد ؟ ونعترف أن بعض الأدب الأوروبي الحديث ما يحث على الإلحاد ، ولكن أليس فى أقوال زنادقة الدولة العباسية وفى لزوميات رجل فاضل كالمعري مالا تسمح الحكومة بنشره لو أن أحد شعراء المذهب الجديد كان هو قائله ؟ ولكن أقوال أدباء الدولة العباسية والمعري أقوال صقلها الدهر واعتادها الناس فلا بأس من أن يتفكه بها أدباء المذهب القديم فى مجالسهم ولا بأس من نشرها وإبداعها مكاتب المدارس .

وكما أن بعض الأدب الأوروبي أقرب إلى بعض الأدب العربى منه إلى عصور أخرى للأدب الأوروبي فكذلك بعض أدباء المذهب الجديد أقرب إلى أدباء المذهب القديم منهم إلى أدباء آخرين من أدباء المذهب الجديد ، فأدباء المذهب الجديد اليوم أكثر حرية فى القول وأكثر نصيباً من الرمزية من أدباء المذهب الجديد الذين ظهرت منذ ثلاثين سنة .

(قارىء)

٢- الدين والأخلاق

بين الجديد والقديم

لأحد أساطين الأدب الحديث *

لو أن الأستاذ الغمراوي قصر حديث الدين والأخلاق على الرافعي لكانت حجته أقوى ، ولكنه وقع في خطأ منطقي إذ حسب أن جميع أدباء المذهب القديم قد راعوا حرمة العرف والتقاليد وآداب الدين وأخلاقه كما راعاها الرافعي . فكان حجته مقسمة حسب التقسيم الذي يستشهد به في الخطأ المنطقي : هي أن الرافعي راعى حرمة أخلاق الدين ، والرافعي من أدباء المذهب القديم ، فنستنتج من ذلك أن المذهب القديم يراعى حرمة أخلاق الدين . وهذا الاستنتاج كاستنتاج من يقول : الفيل له خرطوم ، والفيل حيوان ، فكل حيوان إذا له خرطوم . وقد ظهر هذا البرهان المنطقي في أكثر من مكان في مقالات الأستاذ الغمراوي ولا سيما في المقال الأخير . انظر إلى قوله (فالمسألة في الأدب إذا ليست مسألة لفظ ومعنى ولكنها في صميمها مسألة روح . فريق يريد أن يجعل روح الأدب روحاً شهوانياً بحثاً يتمتع صاحبه بما حرم الله وما أحل ، ولا يفرق بين معروف ومنكر ، ثم يصف مالمقى في ذلك من لذة وألم أو غيرهما من ألوان الشعور ؛ وفريق يريد أن يحيا الحياة الفاضلة . إن أدب الفريق الأول هو مايسمونه الأدب الجديد .. وأدب الفريق الثاني هو مايسمونه بالأدب القديم ..)

ومن الغريب أن عدد الرسالة الذي كتب فيه الأستاذ الغمراوي هذه الجملة فيه مقال للأستاذ خلاف يشير إلى كتاب يتيمة الدهر للثعالبي وإلى غيرها من كتب الأدب القديم ، ونستشهد منه بالجملة الآتية : (ومنذ أن قال امرؤ القيس أقواله الفاحشة في المرأة ، ونظم الفززدق وجريير الشتائم والسباب ، وقال أبو نواس وبشار وأضرابهما في معاني الشذوذ والضعف الخلقى ، وامتلا العصر العباسي الثاني بالتفتن في تسجيل الصور الدنيئة من حياة الإنسان كما يتمثل في كتاب يتيمة الدهر (قاموس الأدب الداعر الواقع) ؛ منذ ذلك كله تحول ذوو الطبائع الجادة إلى وجهات أخرى في الحياة غير وجهة الأدب والاشتغال بمحصله)

فالأستاذ خلاف بثبت في مقاله أن الأدب الداعر بدأه أمير شعراء الجاهلية في مثل قوله (إذا ما بكى من خلفها .. الخ) واستمر في عصور الإسلام إلى أن استفحل كل الاستفحال في

عصر الأدب العباسي الثاني . فهل يعد الأستاذ الغمراوي أدباء هذه العصور الذين يعينهم الأستاذ خلاف من أدباء الأدب الجديد أم من أدباء الأدب القديم ؟ وهل قول الأستاذ الغمراوي (فريق يريد أن يجعل روح الأدب روحاً شهوانياً الخ الخ) ينطبق أولاً ينطبق على أدباء الأدب القديم الذين ذكرهم الأستاذ خلاف ؟ وهل ينكر الأستاذ الغمراوي أنه قلما يخلو كتاب من كتب الأدب القديمة من أشياء لا يليق بالفتيات والفتيان ولا بأى إنسان أن يقرأها ، وأن الأستاذ خلاف عندما ضرب الأمثلة لم يقصد أن يذكر كل ما وجد من هذا القبيل ؟ إن فى كتاب يتيمة الدهر أشياء لو قرئت على الأستاذ الغمراوي لوضع إصبعه فى أذنه وفر وهو يقول : مرحباً بالجديد . وما رأى الأستاذ الغمراوي فى شرح السيد توفيق البكرى شيخ السادة البكرية ، ورجل الفضل والدين لأبيات ابن الرومى التى ذكر فيها صوت يد العجان فى العجين (راجع صهاريج اللؤلؤ) ؟ فهل السيد توفيق البكرى من أدباء المذهب الجديد ؟ وما رأيه فى الشيخ شريف رجل الفضل والدين ومفتش اللغة العربية فى وزارة المعارف وقد شرح أرجوزة ابن الرومى التى أولها (رب غلام وجهه لا يفضحه) . وليس من موبقة إلا وفى كتب الأدب القديم وصفها والافتخار بها على شكل لم يبلغه الشبان المولعون بما يسمونه (الأدب المكشوف) ومن الغريب أن الذين ينهون الحكومة إلى سقطات هؤلاء الشبان لا ينبهونها إلى ما فى كتب الأدب القديم من مخاز لا تسمح أية دولة بنشرها . راجع فى الأغاني أمثال قصة اصبع بن أبى الأصبع ومطيع بن إياس ، على ما أذكر ، أو سل الأستاذ خلاف عما وجد فى كتاب يتيمة الدهر حتى سماه قاموس الأدب الداعر ، بل خذ أى كتاب أوديان ، خذ مثلاً ديوان أبى تمام وراجع القصيدة التى يخاطب فيها الحسن بن سهل فى قوله : (إن أنت لم تترك السير الحثيث الخ) ولا سيما البيت الذى أوله (سبحان) فى الطبعة غير المتقعة ، أو خذ ديوان البحتري وانظر كيف أفحش فى المجون فى حضرة أمير المؤمنين المتوكل فى القصيدة التى يمدحه بها وأولها : (سقانى القهوة السلسل) وانظر إلى البيت الذى أوله (وقطع) فهل هؤلاء من شعراء المذهب الجديد ؟ وهل أمير المؤمنين المتوكل من أدباء المذهب الجديد ؟ أو خذ ديوان أمير المؤمنين عبد الله ابن المعتز ففيه أيضاً مخاز يعجب لها الأستاذ الغمراوي . أو خذ ديوان الرجل التقى النقى العلوى صفى الدين الحلى وانظر إلى مجونه وعزله المؤنث والمذكر ، انظر مثلاً إلى سبب تضمينه الأبيات الآتية فى قصيدة له والأبيات أولها (أيا جلى نعمان بالله خليا الخ الخ) .

إن أدباء المذهب القديم وأدباء المذهب الجديد فى أيام شبابهم قد قرأوا كل هذه الكتب وقرأوا ما فيها مما لو رآه الأستاذ الغمراوي لطمسه . وقد تأثر كثير منهم بها إلى حد جعلهم

لا ينكرون وجودها وجعلها في نظرهم أشياء طبيعية مألوفة . وأدباء المذهب الجديد قد قرأوا الكتب العربية قبل قراءتهم كتب الأدب الأوربي التي يخشى الأستاذ الغمراوي قدوتها . فإذا كانت كتب الأدب الأوربي قد أثرت فيهم فإن كتب الأدباء والشعراء التي يستنكرها الأستاذ خلاف لابد أن تكون أثرا في نفوس الفريقين ؛ وهي أيضا بليغة الأثر في نفوس فتيات وفتيان المدارس لأن هذه الكتب يستعيرها التلاميذ والتلميذات بمدارس البنين والبنات ، فهي بمكتبات المدارس رِيْعَتْ التلاميذ والتلميذات على قراءتها . لو كان الأستاذ الغمراوي يعرف ما يكتبه الطلبة من الحواشي أحيانا على هامش هذه الكتب المستعارة لعرف مقدار أثر كتب الأدب القديم في نفوس النشء . إنني أتوسم في الأستاذ الغمراوي الإنصاف ؛ ومن أجل ذلك أعتقد أنه لو بحث هذه المسألة وفحص أثر هذه المؤلفات وأمثالها بعد أن يدرس مجونها ويهتدي إليه بهداية أهل العلم بأمكانه لا أعترف أنه إذا كان لأدب ما أثر في دفع الشبان إلى المجون والإباحية في الأخلاق فهو أثر الأدب القديم ، وأن هذا الأدب القديم غير مقصور الأثر على التلاميذ والتلميذات ، بل إن أثره يشمل أدباء المذهب القديم العصرين وأدباء المذهب الجديد على السواء . ولا يعجب الأستاذ الغمراوي إذا قيل إن الأدب الأوربي الحديث إنما يؤدي دينا عليه للعالم العربي ، فإن الأدب والشعر والفكر العربي كما كان في الحضارة العربية ولا سيما العباسية والدويلات التي أتت بعدها كان كثير الحرية إلى حد الإباحية في الخلق أحيانا ؛ وقد كان هو والأدب الإغريقي القديم من العوامل التي قضت على أدب التعفف والتقشف المسيحي في القرون الوسطى .

وما يقال في الأدب القديم عن الآداب والأخلاق يقال أيضا عن العقيدة نفسها ، فلو رجع الأستاذ الغمراوي إلى كتب الملل والنحل العربية لوجد أن بعضها لم يترك إلحادا إلا وصفة ولا كفرا إلا أطال القول في معانيه .

وأقول ملاحظة الدولة العباسية وغيرها من الدول لا تزال أمام القراء من شعر ونثر ، وماترك الأول للآخر شيئا .

إذا يحسن بالأستاذ الغمراوي أن يقصر قوله على الرافعي ، وأن يمجده ما شاء ، وأن يقدس مراعاته حرمة الآداب والأخلاق الإسلامية ، أما أن يقع في خطأ الاستنتاج فهو أعظم من ذلك منزلة .

وإذا كان الأستاذ الغمراوي يريد أن يقضى على سبب من أهم أسباب فساد الأخلاق فعليه أن يبحث وزارة المعارف وإدارة المطبوعات على تشكيل لجنة لفحص الكتب العربية وطمس ما هو

مفسد للأخلاق في الموجود من نسخها وتحريم طبعه في الطبقات الجديدة فإن ائتمان أمثال هذه الكتب وهؤلاء الأدباء على أخلاق النشء (ومحاربة الأدب الأوربي) يكون كمن يأمن لصا وطنيا على بيته وأمواله وأثاثه لأنه وطني ؛ وقد يكون هذا اللص الوطني أشد خطرا لأنه يؤمن ويمهد له السبيل ويعطى له مفتاح المنزل . أو كمن يأمن فاجرا داعرا على أبنائه لأنه كان صديق صباه وأليف أيام شبابه .

٣- الدين والأخلاق *

بين الجديد والقديم
لأحد أساطين الأدب الحديث

ليسمح الأستاذ الغمراوي أن نؤكد له أن حرية القول في الأدب الأوربي ولاسيما الحديث منه ما كانت لتؤثر في أدباء اللغة العربية بمقدار ما أثرت ، وما كانت تحتذى بمقدار ما احتذيت ، لولا أن أدباء اللغة العربية تأثروا قبل اطلاعهم على الأدب الأوربي بحرية القول في الأدب العربي ، ولاسيما العباسي وما يليه ؛ فالشباب الذي بحث على قراءة دواوين العرب وكتب الأدب واستوعبها لابد أن يحتذوها في صراحتها . ألا ترى أن السيد توفيق البكري والشيخ شريف رأيا أن الأبيات التي أشرنا إليها في المقالات الماضية أشياء غير مستنكر شرحها وطبعها ؟ فإذا كان شيوخ الدين والتربية يتأثرون هذا الأدب اللغوي المكشوف تأثرا لا يشعرون به ، ويجعله مألوفاً ألفه تمنع الاستنكار ، فكيف لا يتأثره الشبان الذين لم تكن لهم سابقة الاشتغال بأمور الدين أو التربية ، وربما اطلعوا عليه وهم في سن المراهقة كما يفعل الفتيان والفتيات الذين يستعصرون كتب هذا الأدب من مكتبات مدارسهم . والقارىء المسن يستطيع أن يتذكر فورة شبابه أيام المراهقة ، ويستطيع أن يحكم كيف تؤثر قصائد ابن الرومي التي شرحها البكري والشيخ شريف في شهوة المراهق ، وكيف تؤثر الدواوين والكتب القديمة المشحونة بأمثال تلك القصائد . وانظر كيف يتغير نظر الشاب المراهق إلى اللائق وغير اللائق بما ينبغي أولاً ينبغي الاطلاع عليه عندما يرى أن شيوخ الدين والتربية يعنون بشرح هذا الفحش ويطبعونه له ، وعندما يرى أن المدارس تحثه على قراءة الكتب التي طبع فيها وتؤنبه إذا لم يقرأها . ومعاذ الله أن نقول إن البكري أو الشيخ شريف أراد بالشبان والفتيات شراً ، إنهما فعلاً مافعلاً على قاعدة أن لا حياء في اللغة وأدب اللغة ، وأن الفن يراد للفن لا لما به من الفحش ، كمن يستجيد مثلاً صنعة أبي نواس البيانية في مجونه لا بسبب حبه للمجون بل لحبه للبيان والبديع . ولكن هل تلوم الشبان إذا تأثروا بهذا الأدب اللغوي المخالف للعرف والتقاليد والآداب والأخلاق الإسلامية وسن المراهقة له حوافز ودوافع ؟

وإذا قرأ الشاب بعد ذلك بعض مجون شاعر أوربي كمجون هنري هيني الشاعر الألماني (وهو كلا مجون إذا قيس بما في كتب العرب) ألا يرى أن العالم كله الشرقي والغربي يسجل هذا الأدب اللغوي ويعنى بشرحه وطبعه ، وأنه إذا لا ضير عليه من احتذائه ؟ وإذا قرأ بعد ذلك قصة عشيق الليدي شاترلي وجد مجوناً كمجون الفحش العربي ولو أنه كتب بطريقة تحليلية علمية أرقى بعض الرقى من فحش ماجنى الدولة العباسية . ألا يرى القارىء أن تأثير الشاب بالأدب العربي مثل شعر بشارين برد والحسن بن هاني وغيرهما يسهل قبوله للأدب الأوربي الذي يشكو منه الأستاذ الغمراوي ؟

لكن الأستاذ تجهل تاريخ الأدب العربي القديم والحديث لكى يستطيع أن يبرهن على أن الأدب القديم غير مخالف للفضائل والآداب والأخلاق ، وأن الأدب الجديد أو أدب المذهب الجديد مخالف للشهوات ومخالف للفضائل . والحقيقة أن هذا التقسيم غير حقيقى وغير منطقى ، فأدب المذهب القديم به مايراعى الفضائل والأخلاق وبه مالا يراعيها ، وأدب المذهب الجديد أيضاً به مايراعى الفضائل وبه مالا يراعيها سواء بسواء . فكان الأحجى بالأستاذ أن يقسم الأدب لا إلى مذهب قديم ومذهب جديد ، بل إلى أدب فاضل وأدب إباحى فى الأخلاق ، ثم ينتقد الأقوال لا الأدباء جملة ، لأن كل أديب أو شاعر قد يكون له ما يضعه الأستاذ فى القسم الأول ، وقد يكون له ما يضعه فى القسم الثانى . أو لو أراد قصر مقاله على الرافعى لاستطاع أن يقول إن كل أدبه من أدب الفضائل من غير أن يتجاهل تاريخ أدب اللغة كله ، ومن غير أن يحكم حكمين كل منهما جائز لما فيهما من التعميم الذى يخالف طبيعة العلماء أمثال الأستاذ ، فإن العلماء الباحثين ولاسيما علماء الكيمياء والطبيعة يتخرجون من إصدار أحكام عامة بسبب شواهد خاصة معدودة ، فلا يقولون إن أدب المذهب القديم هو أدب الفضائل، وإن أدب المذهب الجديد هو أدب الرذائل على وجه التعميم .

لكن الأستاذ الغمراوي عالم ، فلا بد أن فطنته وبحثه قد أوصلا إلى حقيقة أراد أن يفسرها فبالغ فى تفسيرها واشتط وأصدر هذه الأحكام العامة . ومن أجل أن نتتبع تفكير الأستاذ ينبغى أن ننظر إلى الفرق الحقيقى فى أدب المذهب القديم وأدب المذهب الجديد من حيث الروح . إن الأدب القديم وصل فى عهده الأخير إلى أدب احتذاء لا أدب اجتهد ، ونعنى بالاجتهاد الاصطلاح الفقهي لا المعنى اللغوي ، فإن نصيبه من الاجتهاد كبير إذا أريد المعنى اللغوي للاجتهاد . وهذا هو الفرق الحقيقى بين اجتهد أدباء المذهب القديم واجتهاد أدباء

المذهب الجديد ؛ فالمذهب الجديد يريد بحث النفس وعواطفها وشرائعها وسننها ، لا قصر البحث على شهواتها ، ولا رغبة في إطلاق هذه الشهوات من عقالها كما يقول الأستاذ . فبحث النفس يقتضى بحث جانب الإيمان منها كما يقتضى بحث جانب الشك ؛ ولكنه الشك الذى يبعثه الإيمان ، وهو الشك الذى يبحث عن أمل للإنسانية فى هذه الحياة وبعد هذه الحياة ، والذى يحاول أن يداوى شرور الحياة ما استطاع الإنسان ذلك . وهذا الشك لا يستقيم إن كان قلبه غير عامر بالإيمان ، والشاعر لا يكون شاعراً إلا بمثل هذا الإيمان الملح العنيف الذى يريد أن يزكى نفسه . وهذا أول أسباب سوء الظن بهذا المذهب . وثانيها أن الاجتهاد شبه الفقهى فى تفسير الحياة وعوامل النفس قد يشط أحياناً . وقد أقفل باب الاجتهاد فى الفقه ولكن باب الاجتهاد فى الفقه النفسى والفكرى لم يقفله المذهب الجديد فخصائص المذهب الجديد الروحية هذه أى الرغبة فى بحث جوانب النفس والحياة واستئناف اجتهاد الفقه الفكرى والروحى هى خصائص قد يشط معها الأديب فى بعض الأحيان ، ويكون شططه فى عهد الصبا أكثر ، إذ تكون خبرته قليلة واندفاعه عظيماً . ثم إن بعض الأدباء قد تشط بهم هذه الخصائص دائماً شططاً بعيداً ؛ ومن أجل ذلك ليس من الحق أن نسلك جميع الأدباء فى نظام واحد . ألا ترى أن الأدب الأوروبى الحديث يشمل نزعات مختلفة كل الاختلاف منها ما يحدث صلة بينه وبين الأدب الأوروبى فى العصور السابقة ، ومنها ما ينأى به عنها ؟ فحكم الأستاذ الفمراوى على المذهب الجديد كمن يحكم حكماً عاماً واحداً على الأدب الأوروبى الحديث على اختلاف نزعاته الذى يشبه اختلاف نزعات الأدب المصرى الجديد من أجل أن أساس تلك النزعات واحد وهو بحث التجارب النفسية والفكرية ؛ فمن الأدباء من يبحثها على طريقة المعرى ، ومنهم من يبحثها على طريقة شكسبير ، ومنهم من يبحثها على طريقة أدباء الرمزية .. الخ . وكما أنه ليس من الحق أن يحكم الأستاذ حكماً على أدباء المذهب القديم (وبينهم تفاوت فى الروح) ولا من الحق أن يحكم حكماً عاماً على أدباء الأدب الجديد ، فليس من الحق أن يحكم حكماً عاماً على الشاعر أو الأديب الواحد ، فإن الشاعر نفس وللنفس مظاهر مختلفة تقتضى تفصيل الحكم عليها مادام لا يحكم على قول أو عمل واحد ، أو عليها فى حالة أو زمن خاص . وليس من الحق أيضاً أن يغفل الأستاذ أثر حرية القول فى الأدب العربى الذى شرحناه فى أول هذا المقال ، ولا من الحق ألا يرى أن حرية القول الناشئة من إطلاق الشاعر نفسه من القيود أثناء البحث شططاً منه لم يأت بأشنع من الأمثلة التى ذكرناها للأستاذ من الأدب العربى ، بل لعلها أقل شناعة ؛ وهى على أى حال ليست من لوازم أى مذهب ، فمثلها فى آداب العصور والأمم موجود ، وواجب الناقد أن يميز بينها وبين الصالح من قول الأديب أو الشاعر .

ومما يدل الأستاذ على أن الأدب المصرى الحديث خليط من القديم والجديد أن أحدهما يلقى زميله فيسأله هل أنت من أنصار المذهب القديم أم من أنصار المذهب الجديد ؟ كأن الحكم ليس لما يؤلفه الأديب من شعر أو نثر وكأنما يصح أن يكتب الأديب على طريقة المذهب الجديد ويختار أن يعد من أنصار القديم أو العكس . لكن هذا السؤال له معنى وقيمة ؛ إذ هو دليل على الحيرة من أجل أن أدب كل أديب خليط من مؤثرات الأدب العربى فى عصوره المختلفة والأدب الأوربى أيضاً ؛ وإنما يختلف هذا الخليط عند كل واحد باختلاف مقادير عناصره . ومن الأسباب التى قد تدعو إلى سوء الظن بالأديب الجديد علاوة على ما ذكرنا ، ما يقرأ منه أحياناً من سخر وتشاؤم ، وقد يكون فيهما شطط ؛ وقد يحسبان من قلة الإيمان ، ولكنهما قد يكونان من الإيمان الحائر فى وجوه الكون والحياة الذى لم يوهب نعمة الاستقرار ، وهى حالة تعرض لكثير من النفوس فلا يستطيع تجنب وصفها كل التجنب .

وإذا نظر الأستاذ إلى ما ينشر فى الصحف والمجلات والكتب فى جميع الأقطار العربية من شعر ونثر وجد فى تباين أبواب القول الذى لم يترك جانباً من النفس والحياة لم يحاول نعته ، ما يدل الأستاذ على أن هذا التنوع هو خصيصة الأدب الحديث ، وهو يشمل ما يشكو منه الأستاذ ، ولكنه أعم مما يشكو منه ، وقد صار هذا التنوع فى الأدب وشموله بحث نزعات النفس وجوانب الحياة قاعدة عامة فى آداب العالم كله؛ ولا يمكن إعادة عقارب ساعة الزمن إلى ما كانت عليه فى الماضى للقضاء على ما يشكو منه الأستاذ . فإذا أراد أن يظفر بتطهير الأدب كان الأحبى به ألا يتعصب لقديم ولا لجديد ، وأن يأخذ من الجديد على تنوع أغراضه وأبوابه ما لا بد منه لإشباع مطالب النفس والفكر فى عصر تعددت فيه مطالبهما وأصبحت كمد النهر فى فيضانه ، وألا ينتقد هذا الأدب الجديد بالجملة كى يصيب سامعاً مجيباً إذا هو قصر نقده على مائى هذا الأدب الجديد من شطط ، وأن يتخذ فى نقده هذا الشطط طريقة التحليل النفسى والإلمام بأسبابه ونتائجه وشواهد على طريقة الطبيب الداوى بالتحليل النفسى ، وألا يقصر نقده على شطط الجديد من غير نظر إلى شطط القديم ، وقد أوضحنا أن حرية القول فى الأدب الجديد تمت بسبب إلى الأدب القديم سواء أ كان ذلك فى الغزل والأمور النفسية أم فى الأمور الفكرية، وليظهر كتب الأدب القديم وعاداته المألوفة من مجون وشطط فكرى كما بينا .

وإنى لأرى ببصيرة الأستاذ وعقله أن يظن كما يظن بعض الناس أن إسقاط أديب أو أكثر من أديب من أدباء المذهب الجديد يقتضى على هذا المذهب . ولو كان من المستطاع القضاء على كل ما قاله أدباء المذهب الجديد من شعر أو نثر - الجيد منهما وغير الجيد والمقبول ، وغير

المقبول - فإن هذا القضاء على ما قاله المعاصرون لا يقتضى على الأدب الجديد ، لأن أسبابه أعم وأكبر من أن تحسب من ابتكار أديب أو أكثر من أديب . وربما كان من الحكمة أيضاً ألا ينسى الأستاذ وهو الخبير بالنفس الإنسانية أن بعض العداء الذى لاقاه المذهب الجديد من غير المبرزين الفطاحل كان بسبب الإجابة المحسودة الماثورة المحسودة فى بعض هذا الأدب الجديد ، وإن كان عداء المبرزين الأفاضل أمثال الراقى بسبب اختلاف حقيقى فى الرأى والروح .

(قارىء)

سهر

ذكرت سهواً أن أبيات ابن الرومى فى (كتاب صهاريج اللؤلؤ) والحقيقة أنها فى كتاب (فحول البلاغة) للمؤلف نفسه أى البكرى ولا يوجد شرح ولكنه اختارها هى وقصيدة (هوران) ولم يكف عن اختيار المجون تخرجاً . وكذلك لا يوجد شرح فى الأرجوزة الأخرى ولكن عدم التخرج ملحوظ أيضاً .

" ق "

٤- الدين والأخلاق

بين الجديد والقديم

لأحد أساطين الأدب الحديث *

لو أن الأستاذ الفمراوى فحص عن أخلاق أمة من الأمم فى نفوس آحادها لوجد اتفاقاً أو شبه اتفاق فى خصائص تلك الأمة ولا تعنى بالخصائص أنها تفردت بأخلاق لا يوجد مثلها فى أمة أخرى ، فإن الأخلاق شائعة فى النفوس البشرية ، وإنما نعنى أن تلك الأخلاق أكثر شيوعاً فيها بالرغم من تفاوت نفوس آحادها فى خصال الحمد والذم والخير والشر ، ويستوى فى تلك الخصائص من يقرأ فلسفة هيرت سبنسر ومن يقرأ كتب الغزالى ، ومن يقرأ شعر شكسبير ومن يقرأ شعر المتنبى ، فإن تلك الخصائص المتوارثة لها عدوى تذيبها فى البيئة الواحدة وهى راسخة لا تغيرها أيام ولا سنوات قليلة ، وأسبابها حوادث وشرائع اجتماعية ظلت تؤثر فى الأمة زمناً طويلاً .

فإذا نظر إلى أخلاق البيئة المصرية وفحص عنها على ضوء هذه الحقيقة وجد أن الخصائص الخلقية شائعة يشترك فيها العظيم والحقير ، ويشترك فيها الشيخ والأفندى كما يشترك فيها الفلاح وساكن المدينة بالرغم من التفاوت الظاهرى فى الماديات وفى مقادير رسوخ هذه الخصائص أو المقادير التى تظهر بها وإن كان التشابه فى مقاديرها الكامنة أعظم . وأوجه الاختلاف الظاهرى تظل ملازمة للمرء ملازمة كبيرة وإن حاول أن يحول بعض خصائص نفسه إلى جانب المقادير المقهورة التى يخفيها فى النفس إذا انتقل من طائفة إلى طائفة أخرى من طوائف الأمة ؛ فالفلاح إذا ألبسته طربوشاً أو قبعة لا يخلع خصائصه ولا يستطيع خلعها ويبقى فلاحاً بخصائصه ، ولكنه ربما حاول أن يخفى بعض تلك الخصائص فى نفسه .

والمذهب الجديد فى الأدب هو إلى حد كبير كالطربوش أو القبعة التى يلبسها الفلاح ؛ والمذهب الجديد كما أوضحنا قد تأثر مباشرة بما أخذه عن المذهب القديم وبما أخذه بطريق غير مباشر بعد أن تأثر الأدب الأوروبى الذى هو وليد نزعة إحياء العلوم فى أوروبا فى القرنين الخامس والسادس عشر بالأدب والفكر العربى .

ولا بد أن الأستاذ الغمراوي قد عاشر طوائف مختلفة من طوائف الأمة وإن لم يكن قد درس حالة الأدباء الخلقية دراسة العشير الذي لا يخاتل لا دراسة القائل بما يسمع . ولا بد أن الأستاذ قد أيقن من اتفاق طوائف الأمة في الخصائص الخلقية . ولو أنه أتيح له أن يدرس أخلاق الأدباء لوجد أن الخصائص الخلقية متشابهة فيهم بالرغم من المذهب القديم والمذهب الجديد ، وأن التفاوت الفردي بين آحاد كل طائفة ربما كان أهم من تفاوت أدباء كل مذهب . فالاستقامة والصدق والعفة والنزاهة والسماحة في الخلق والوفاء الخ ليست ملكا لمذهب في النثر أو الشعر . وكذلك اللؤم والكذب والغدر والانصراف إلى الملذات والحقد ليست ملكا لمذهب في الشعر أو النثر . ولو أن الأستاذ بحث هذه الخصال لوجد أن خصال الحمد والذم لا بد أن توجد في المذهبين ، فإن هذه خصال وميول متوارثة تزيدها حوادث الحياة وحالاتها قوة أو ضعفا . أما غير هذا الرأي فلا يأخذ به إلا من يسهل أن يخدعه التعصب لجماعته ، فإن المذهب القديم أو الجديد ليس دينا له أخلاق معينة لا يتبعها ، وإلا فإن الأديب الذي يكتب على طريقة الأدب الجديد متأثرا بالأدب الأوربي ويطرى الاستقامة ، يعد في نظر الأستاذ كافرا بالأدب الحديث ؛ وإن الأديب الذي يطرى أبياتا فيها مجون من صنع شاعر من شعراء المذهب القديم يعد كافرا بالمذهب القديم .

وعلى هذه القاعة يكون أكثر شعراء العرب وأدبائهم من عهد امرئ القيس (كما ذكر الأستاذ خلاف) إلى عهدنا هذا كافرين بالمذهب القديم ؛ وإذا لا يكون هناك مذهب قديم في عالم الوجود ، ويكون السيد توفيق البكري متفرجنا عندما اختار لابن الرومي أرجوزته النونية في وصف الزنا ، ويكون الشيخ شريف مفتش اللغة العربية ورجل التربية متفرجنا عندما شرح أرجوزة اللواط لفظاً ومعنى ، أو يكون الأديب الواحد تارة من أنصار المذهب القديم إذا تمثل بأبيات من زهد أبي نواس أو أبي العتاهية ، وتارة من أنصار المذهب الجديد إذا تمثل بمجونهما . ويكون إذا حافظ إبراهيم من شعراء المذهب الجديد إذا قص قصص المجون في مجالسه أروى أشعار المجون ، ويكون حافظ إبراهيم نفسه من شعراء المذهب القديم إذا تناول مسبحة وروى أشعار الزهد والتقوى ، ويكون كل أديب أو شاعر من شعراء أو أدباء المذهب القديم كما يكون حافظ في حالتيه . ويكون الأديب منهم من أنصار المذهب الجديد إذا تمثل بأبيات من لزوميات المعري لا يرضى عنها الأستاذ الغمراوي ، ومن أنصار المذهب القديم إذا تمثل بأبيات أخرى من اللزوميات يرضى عنها الأستاذ . وفي اللزوميات ما يرضى وما لا يرضى الأستاذ ؛ ويستطيع الأستاذ أن يتخلص من هذه الورطة فيقرر أن الشاعر الذي يجهل اللغات الأوربية ولا يقرأ الأدب الأوربي المنقول إلى العربية هو من أدباء الفضيلة (والفضيلة كما قرر

الأستاذ هي المذهب القديم) حتى ولو قال النثر والشعر في المجون والزيف متأثراً بمجون وزيف شعراء (الفضيلة) القدماء ممن كتبوا باللغة العربية ، وأن الأديب الذي يعرف اللغات الأوربية والذي درس آداب اللغات الأوربية والذي يعد نفسه من أدباء المذهب الجديد هو في الحقيقة من أدباء (الرذيلة) حتى ولو أطرى الفضيلة كما أطراها شكسبير وفكتور هيجو . وإذا يكون من الواجب المحتوم أن الشاب الذي لاهو من أدباء المذهب القديم ولا الجديد ، لأنه ينقل عبارات أفرنجية نقلاً حرفياً كالضحكة الصفراء (وغيرها من العبارات المضحكة التي يدعى أدباء المذهب القديم أنها من خصائص المذهب الجديد) أقول إنه من الواجب المحتوم أن يعد هذا الشاب من أنصار المذهب القديم مادام يطرى الفضيلة حتى ولو أطراها كما أطراها فكتور هيجو إطراء صحيحاً ولكن بأسلوب عربى سقيم ، وأخشى أن هذا المنطق الغريب قد يسوقنا إلى أن نعد الأسلوب السقيم إذاً من خصائص المذهب القديم مادام صاحبه يطرى الفضيلة ، وأن نعهده من خصائص المذهب الجديد إذا كان صاحبه يطرى الرذيلة .

على أننا لو فرضنا أن الأستاذ قد أصاب في جعله المذهب القديم مرادفاً للفضيلة وأنه عقيدة دينية ، فكم من معتنق عقيدة يقول بلسانه مالا يتفق وأخلاقه وأعماله ؛ فكيف به وهو ليس عقيدة دينية حتى ولو كان كل أدبائه من عهد حسان بن ثابت إلى اليوم منزهين عن الفحش في قولهم وعملهم فكيف به وليسوا كلهم منزهين عن الفحش في قولهم وعملهم بل كان منهم من بلغ من الفحش في القول والعمل غاية ليست بعدها غاية . ألا يرى الأستاذ أن جعله المذهب القديم مرادفاً للفضيلة مع هذه الحقائق يؤدي إلى أن يناق من يناق فيدعى أنه حامى حمى الدين والفضيلة كي ينال مايرادف هذه الألقاب حسب اصطلاح الأستاذ فيلقب بزعيم النثر وسلطان الشعر ؛ إن بعض أدباء المذهب القديم قد نشروا هذا الاصطلاح بكل ما أوتوا من بيان ، كما كان كل فريق من الدول في الحرب العظمى يدعى أنه حزب الله المصطفى وأن الفريق الآخر حزب إبليس الخاسر عليه لعنة الله . فكان الانجليز يقولون إنهم يدافعون عن الفضيلة والحضارة والعدل والخير والحق ، وإن خصومهم خصوم هذه الصفات العليا ، وكان الألمان ينشرون مثل هذه الدعوة لأنفسهم حنوك النعل بالنعل . وكان كل فريق يضحك في سره من سذاجة من يصدق أقواله . وكذلك يفعل بعض الأدباء هنا وهم يخفون مايعرفون من أن الشطط في القول لم يكن مقصوداً على مذهب في الفنون والآداب ، وأن مناصرة الفضائل ليست مقصورة على مذهب ، وأن جعل الفضيلة مرادفة للمذهب القديم والرذيلة للمذهب الجديد شطط وظلم لايتفق وروح العدل الذي تأمر به الشرائع السماوية ، وأنه حتى على فرض أنهم يفعلون ذلك مناصرة للشرائع السماوية لا كسباً للرزق والشهرة والمكانة ، فإن مناصرة الشرائع

الساوية بما ينقض عدل الشرائع السماوية من تعميم هو غاية الظلم يجعل مناصرتهم للشرائع السماوية مهزلة لا يرضاها الله ، فإن مناصرة الشرائع السماوية لا تكون إلا بفضائلها ، فكيف بهم وهم يعلمون أن شطط القول أو الفعل لم يكن قديماً ولا حديثاً مما يلتصق بطائفة دون طائفة ، وأنه لم يخلق الله مذهباً من مذاهب الفنون من عهد آدم إلى اليوم يصح أن يعد مرادفاً للفضيلة في جميع مظاهره ؟

قال الأستاذ الغمراوي إن النزعة إلى التجديد بدأت منذ ثلاثين سنة . وقد أوضحنا أن التجديد بمعناه الأعم الذي شرحه الأستاذ بدأ منذ دخول نابليون مصر وذاع أيام محمد علي باشا واسماعيل باشا ، فليس له مبدأ واحد . أما التجديد بالمعنى الأخص وهو التجديد في أهراب الشعر والنثر ومعانيهما فهو أيضاً مما لا يعد بمبدأ واحد كما يعرف من يدرس حياة الأمم ونمو النزعات والأفكار فيها ، ولكن الذي يقرأ مقالات الأستاذ وأقوال بعض الكتاب يحسب أن النزعة إلى التجديد هذه نزعة متضامنة الأفراد متحدة العناصر متفقة الأهواء والمشارب والمبادئ بدأت بمؤامرة على الدين والأخلاق . والذي يدرس حياة الأمم ونمو الأفكار فيها يعرف أن هذا خيال في خيال . والذي يدرس النزعة إلى التجديد يرى أنها ليست ذات مبادئ واحدة وأنها نزعات مختلفة ، فإن من أدباء التجديد من يرى في المذهب الرمزي كل علوفنى ، ومنهم من لا يستلذه ولا يقنع عاطفته إلى الفن لإبهامه وسقوط الصلة بين الرموز والحقائق التي تشير إليها الرموز ، ولتكاثر الصور فيه بعضها فوق بعض . وقد أوضحنا أن الرافعى - وهو في رأى أصدقائه زعيم المذهب القديم - كان أقرب إلى المذهب الرمزي في بعض كتبه مثل حديث القمر . وليس من البعيد أن يأتى يوم يعد فيه الرافعى من زعماء المجددين في الأدب الرمزي أو زعيمه الأكبر . ولا أحسب أن الأستاذ الغمراوي كان منذ ثلاثين سنة متتبعاً تلك النزعات تتبع المعالج للبحث الاجتماعى ، فهو إذا يقول بالسماع . وقد أوضحنا في مقال سابق أن الأستاذ يصنع خيراً لو أنه اجتنب من المذهب الجديد ما يرتضيه وهو واجد الكثير المرتضى فإن نقده يكون أوقع وأنفذ ، وإصلاحه أقدر ، وحكمه أعدل . أما جعله مذهباً مرادفاً للفضيلة ومذهباً آخر مرادفاً للرديلة ، فليس ذلك من اعتدال أمثاله من العلماء .

٥ - الدين والأخلاق *

بين الجديد والقديم

لأحد أساطين الأدب الحديث

جاء فى كتاب الأغاني أن الأخطل الشاعر قال لرجل من شيان : (إن الرجل العالم بالشعر لا يبالي بحق الصليب إذا مر به البيت العائر السائر الجيد أمسلم قاله أم نصرانى) وكل نقاد العرب قديماً وحديثاً يقولون مثل هذا القول سواء أكان الناقد من أدباء المذهب الجديد أم من أدباء المذهب القديم . ولو أن محدث الأخطل سأل عن اليهود والبوذيين لأضافهم إلى النصرانى فى قوله . وأنت ترى أن الأخطل أراد أن يؤكد قوله فحلف بحق الصليب . وكان كثير من المسلمين يفضلون الأخطل على غيره من شعراء عصره بالرغم من النعرة الدينية فى قوله . وكان يحدث هذا فى صدر الإسلام ولم يكن الدين فى صدر الإسلام أقل أثراً فى نفوس المسلمين منه اليوم ، وإنما كان الأدباء وسامعو الشعر أعرف بتذوق الشعر وأكثر حظاً من نشوته وأريحيته من قراء اليوم . ولم يكن بين الأدباء فى صدر الإسلام من يحس خوفاً على منزلته بين الأدباء والشعراء فيدفعه إلى أن يقول إن النصرانية أسقطت شعر الأخطل . نعم إن جريراً يعير الأخطل بخضوعه لرجال دينه . ولم يبحث النقاد عن عقيدة أبى تمام كى يحكموا بها على شعره . ولم يقل أحد من أمراء الشعر والنثر فى عصور الأدب العربى إن الأخوة فى الشعر أخوة فى الله أو أن الأخوة فى الله أخوة فى الشعر . فهل كان أمراء البيان فى الشعر والنثر فى تلك العصور الطويلة على ضلال لا يفهمون الشعر ولا يجيدونه ولا يتبينون أصوله وشروطه وسننه ولا يعرفون كيف يتذوقونه ؟ أم أنهم أصابوا عند ما قصرُوا الأخوة فى الدين على شعر حواشى ومتون كتب الفقه الدينى ؟ أليس ادعاء بعض أدباء العصر إحلال الشعر عامة منزلة شعر حواشى الفقه الدينى دليلاً على فساد الذوق الشعرى فى هذا العصر ؟ ثم أليس فى اتخاذهم وسائل الدول السياسية بنشر الدعوة ضد منافسيهم واتهامهم أنهم أنصار إبليس والرذيلة ، ما يدل على جانب من الضعف ، وعلى أنهم إنما يريدون استغلال تعصب العامة وأشياء العامة فى عصر لا يدرك فيه رأى العام الشعر كما كان يدركه رأى العام فى عصر الأخطل ؟

وليت أن هذه الوسائل كانت تعين على عز وجاه في بلد للشعر فيه كل العز والجاه والمال ، ولكنها وبسبائل لا تغنى قليلا ولا تقرب من عز أو جاه أو مال ، لأن هذه أمور لا تنال بالشعر إلا التافه الحقير منها وما أكثر طلابه .

أما الأستاذ الغمراوي فليست له مطامع دنيوية ، وإنما هي العقيدة التي تقدمت به وبهذا المبدأ الذي يريد أن يستنه للشعراء ؛ ولكنه لو كشف له عن سريرة الأدباء جميعا حتى أشدهم تعصبا للقديم لوجد في سريرتهم أنهم يقولون كما قال الأخطل وأنها يعرفون من أدب اللغة العربية ما يقصر أخوة الدين على شعر الخواشي والمتون .

قال الأستاذ الغمراوي إن أدباء المذهب الجديد يأخلون عن الأوربيين ما يخالف التقاليد الإسلامية ، وإنهم إذا يريدون (تغلب دين على دين) أي دين الأوربيين على دين العرب المسلمين ، وإنهم يبيحون الشهوات ، وإنهم أنصار الرذيلة . وقد ناقض الأستاذ نفسه في هذا القول لأنهم لو كانوا يريدون تغليب المسيحية حقا ما أباحوا الشهوات ولا كانوا من أنصار الرذيلة . وإن إباحة الشهوات ليست مذهباً في الشعر أو النثر جديداً ، ففي الأدب العربي في كل عصر من هذه الإباحة ما ليس له مثيل في هذا العصر . وكان الأدباء المبيحون للشهوات أمثال بشار وغيره لا يدينون بدين . وإن أدباء المذهب القديم في عصرنا لا ينكرون أن بشاراً وأبا نواس وغيرهما من مذهبهم الذين يدافعون عنه ، أي المذهب القديم ، وإن الفضائل إذاً ليست عامة فيهم والرذائل ليست عامة في خصومهم ولا التدين أيضاً ، وإنما هم يعرفون أن سلبية الشعر فسدت في أكثر القراء والرأي العام عموماً في عصر عظمت فيه قوة الرأي العام ونفوذه ، فهم يريدون استغلال تعصب الرأي العام الذي فسدت فيه سلبية الشعر ولم يبق له أو لطائفة كبيرة منه غير النعرة الدينية التي يريدون أن تستبيح كل شيء حتى المجنون ابتغاء مرضات الله . فقد بلغ القراء خبر الحفلة التي أقيمت لإحياء ذكرى حافظ بك إبراهيم ، وقد نشرت الصحف القصائد التي قيلت فيها ، وكان بها من المجنون ما لو قاله أحد الأدباء الشبان من أنصار المذهب الجديد لقال أدباء المذهب القديم للناس : انظروا إلى خصائص المذهب الجديد كيف يستبيح المجنون في حضرة كبار رجال الدولة والذين ينوبون عن المقام السامي ؛ أما والذين نظموا لم يكونوا من أدباء المذهب الجديد فهو إذاً ورج وتقوى وغيره سامية على الفضائل في القول والعمل . هكذا ألف بعض الأدباء مجنون الشعر العربي القديم حتى صار يعدُّ من الأخلاق السامية . وما على الأديب في هذا العصر إلا أن يعلن على رؤوس الشهود أنه من أنصار المذهب القديم فيباح له كل شيء من أجل عدائه للجديد ، ويكون مثله مثل الرجل الذي إذا

عده العامة من أولياء الله الصالحين رفعوا عنه (الكلفة) وأباحوا له ما لا يبيحون لغيره من عباد الله . فإذا ارتكب أحد (أولياء) العامة أمراً (ينتقد) وحاول أحد النظارة أن يعيبه به تجمهر الناس حوله وكل يقول له : أتركه يا شيخ ولا تعب ، لأنه من أولياء الله وعباده الصالحين وقد رفعت عنه (الكلفة) فهو غير مسؤول عما يفعل . ومن الغريب أن بعض الأدباء أراد أن يفهم الحاضرين أن حافظ بك مات شهيد الحرب التي شنتها عليه أدباء المذهب الجديد ، ولم تكن هناك حرب وإنما انتقده الأستاذ المازنى نقداً بريئاً خالياً من الفحش والمجون . أما الحرب فقد كانت سجلاً بين أنصار حافظ وأنصار شوقي وكان الفريقان من أنصار المذهب القديم وكانا يستبجحان كل سلاح مهما كان ، وتشهد بذلك نسخ الجرائد الأسبوعية التي طبعت في ذلك العهد . وكان أشد الناس حرباً على حافظ بك أنصاره من المرتزقة وكانوا يصنعون صنع الجنود المرتزقة فيخذلونه في أثناء المعركة من أجل رشوة وأجر مطمع من خصمه .

فإذا كان حافظ بك قد هزم في بعض معاركه فالذنب ذنب الجنود المرتزقة الذين خانوه والمعركة قائمة ولم يقدر خيانتهم . ولم يكن للمذهب الجديد وقتل أنصار عديدون ، ولو قامت بينه وبينهم معركة ما استطاعوا لكثرة أنصاره أن ينالوا منه ، ولم يكن لهم حول حتى يذهبوا له الدسائس . فكل ما قيل من هذا القبيل في الحفلة من قبيل السمر بالقصص الخيالية ، وله منفعة أخرى وهي جلب العداء لأنصار المذهب الجديد بالطريقة التي بها يجلب لهم العداء إذا قيل إنهم أنصار إبليس اللعين . ولو أن حافظ بك إبراهيم كان اليوم حياً لضحك ضحكا كثيراً إذا سمع ما يقوله أدباء المذهب القديم من أن أدباء المذهب الجديد نالوا منه ودرسوا له . نعم إن الرجل كان محاطاً بالوشايات والسعايات من الأدباء ، ولا نعى أهل السياسة فهذه مسألة أخرى ، وهذه الوشايات كان يتقدم بها الأدباء إما نكاية من بعضهم لبعض واستعانة بحافظ بك في تلك النكاية ، وإما نكاية لشوقي مناقسه كما كان جلساء شوقي يسعون عنده بحافظ نكاية له .

ولو أنا رجعنا إلى ما ألف من المقالات والكتب منذ ثلاثين سنة ما وجدنا أثراً لهذا الاصطلاح : أعنى اصطلاح تقسيم الأدب إلى جديد وقديم ، وإنما كان الشعراء الذين يسمون الآن أدباء المذهب الجديد يدعون إلى نبذ شعر الغزل المتكلف الذي كان مقدمة لقصائد المدح والهجاء والسياسة ، ونظم الشعر فيما تحسه النفس من حب أو غير حب على طريقة شعراء الجاهلية وصدر الإسلام . وكانوا أيضاً يدعون إلى نبذ المغالاة في المحسنات اللفظية التي أولع بها شعراء الدولة العباسية والرجوع إلى طريقة شعراء الجاهلية وصدر الإسلام في تفضيل

صنعة العاطفة أو ذكرى العاطفة (وذكرى العاطفة عاطفة) وكانوا أيضاً يدعون إلى نبذ التضيق في أبواب الشعر ونبد المغالاة في تقييد حرية القول والرجوع إلى شيء من حرية القول التي كانت في كثير من عصور الشعر العربي القديم من غير دعوة خاصة إلى إباحة حرية القول من أجل الإباحية في الخلق .

هذه كانت مبادئهم : فهم إذا كانوا أخلق بأن يدعوا رجعيين ، فهم كانوا رجعيين في طلب احتذاء شعراء الجاهلية وصدر الإسلام في وصف أحاسيس النفس وخواطرها رجوعاً عن الغزل الصناعي وأبواب القول الصناعي التي أولع بها المتأخرون . وكانوا رجعيين في طلب احتذاء سهولة العبارة وأقربها دلالة على الإحساس والمعنى كما كان يفعل شعراء الجاهلية وصدر الإسلام رجوعاً عن المبالغة في الصناعة التي أولع بها العباسيون . وكانوا رجعيين في طلبهم ألا يقصر الشعر على معان متفق عليها كما كان المتأخرون يفعلون والرجوع إلى طريقة المتقدمين في إظهار كل شاعر خصائص نفسه وفكره وأن يباح له القول إذا أكثر مما كان يباح للمتأخرين .

فالنزعة إلى التجديد كانت في أول الأمر نزعة رجعية كما ترى ؛ واتفق أن أنصارها قرأوا الشعر الأوربي فرأوا أن مبادئ رجعتهم هي مبادئ الأدب الأوربي الصحيح السليم ، وأن الأدب الأوربي يعينهم على تحقيق تلك الرجعية ، وأنه إذا تقدم بهم الأدب الأوربي فيكون تقدماً كما كان يتقدم أدب الجاهلية وصدر الإسلام لو أنه لم تعترضه عوارض الجمود والقيود المصطنعة التي تغلبت على الأدب العربي بعد ذلك .

فإذا كانت هذه النزعة قد دخلتها المغالاة فهي أمر طبيعي يعترض الأمور في أول الأمر حتى تستقر ؛ وإذا كانت قد تفرعت منها فروع بعيدة فهذه سنة طبيعية ، فالقرامطة والحشاشون والباطنية فروع بعيدة تفرعت من الشيعة كما تفرعت الشيعة من الإسلام . وربما كان من تلك الطوائف البعيدة ما ينكرة الشيعة . كذلك تفرعت من نهضة التجديد الرجعية فروع بعيدة ولا تزال تتفرع ، ومن يحاسب نهضة التجديد عليها كمن يحاسب المسلمين عموماً على عقائد بعض الطوائف التي تفرعت من الإسلام .

تفرعت من شيعة التجديد طائفة لم تراع أنه إذا أريد الإقلال من صناعة العباسيين فلا بد من الإكثار من سلامة أسلوب كأسلوب شعراء صدر الإسلام مع تجنب حوشى الكلام ، فدعت هذه الطائفة إلى أن يكون أسلوب الشعر أقرب الأساليب إلى لغة الكلام ؛ وهذا لا عيب فيه إذا روعيت سلامة اللغة والعبارة . وتفرعت طائفة لم تراع أن وصف أحاسيس النفس وخواطرها

ينبغي ألا يبلغ حد الإباحية في الخلق إذا أريد أن يحل شرح الأحاسيس والخواطر وبعثها محل الغزل وأبواب القول المصطنعة التي أولع بها المتأخرون . ولا ننكر أن أشد الشعراء حيطة في وصف النفس الإنسانية وخواطرها على هذه الطريقة قد يشتط في بعض قوله ، ولكنه شطط محدود ولا يهدم فضيلة المذهب ، كما أن الغصة أو التخمة لا تقتضي على فضيلة الأكل والطعام . وتفرعت طائفة لم تراخ أن تجديد المعاني والأخيلة ينبغي ألا يتعدى المعاني والأخيلة التي يقرها ويفهمها العقل البشري سواء أكان مصرياً أو إنجليزياً أو صينياً . أما الأخيلة البعيدة وأوجه الشبه القصية والضئيلة والتي لا قيمة لها ليست من أوجه التشبيه في الشعر الراقي الذي يعد من الطراز الأول في أي مكان . وتفرعت طائفة ترى أن انقطاع الصلة بين الرموز والأمور التي يرمز إليها بالرموز ، وتدخل صور الرموز بعضها في بعض ، مما يروق بعض القراء لأنه يروج نفوسهم ، ونسوا أن طمس معالم الصور إذا راق فترة لجماعة ليس من وسائل الشعر الخالد الذي يروق العقل البشري العالمي في كل زمان ومكان . وتفرعت طائفة تريد أن تحكم الوعي الباطني (أو العقل الباطن) بدل تحكيم ملكات العقل الظاهر المألوف ، ورأوا أن هذه وسيلة للفصوص إلى أعماق النفس ونسوا أن الفصوص في أعماق النفس يقتضي يقظة الوعيين والعقلين الظاهر والباطن واتفاقهما وإلا كان ما يقوله القائل بالوعي الباطن وحده لاقية له .

إن أدباء المذهب القديم عندما يتحدثون عن نهضة التجديد يغفلون أسبابها والضرورة الاجتماعية التي دعت إليها ، وأنها في أولها كانت نزعة رجعية أو شبه رجعية ، وأن الأدب الأوروبي درس ليشد أزر هذه النزعة الرجعية المقبولة ، وأن الطوائف المتطرفة التي تفرعت من النهضة لا تمثل النهضة كلها ، وأن أدباء المذهب القديم هم أيضاً قد تأثروا هذه المبادئ الرجعية الحميدة التي تحث عليها نهضة التجديد .

٦- الدين والأخلاق *

بين الجديد والقديم

لأحد أساطين الأدب الحديث

لا يدهش أحد إذا عددنا ما يسمى نزعة التجديد نزعة رجعية في أولها ، فقد أوضحت أنها في مبادئها كانت رجوعاً إلى مبادئ الشعر العربي القديم من قلة تكلف الصناعة ، ومن نظم الشعر بالعاطفة أو ذكرى العاطفة بدل نظمته تعمداً بالصنعة ، ومن البحث في خواطر النفس وشجونها وأشجانها والتعبير عنها بدل تنميق المعاني المتفق عليها . فلا شك أن شعر الجاهليين وشعر شعراء صدر الإسلام كان أكثر نصيباً من هذه المبادئ من شعر الدولة العباسية ، وإن كان لشعر الدولة العباسية روعة وفيد قوة ، ولكن أروعه وأقواء ما قارب طريقة الأقدمين وكان أقل تعمداً في الصنعة ، أو ما كانت صنعته أشبه بالطبيعة .

ولا يدهش أحد إذا وجدنا أن هذه المبادئ يتفق فيها الشعر العربي القديم والشعر الأوربي الصحيح السليم ، وأن الصناعات الغربية في الشعر الأوربي ما ظهرت إلا في عصرنا هذا ؛ ولكن كثيراً من أديبائنا الذين لا يعرفون اللغات يحكمون على الشعر الأوربي بشعر شعراء الرمزية أو شعراء الوعي الباطني وأمثالهم ، وهي طوائف حديثة في أوروبا كما هي حديثة في مصر ، ويغفلون ما يقع فيه بعض المظلمين على الأدب الأوربي من النقل الحرفي لأساليب الكلام والمصطلحات ، ولكل لغة خصائص في المصطلحات وأساليب الكلام إذا نقلت نقلاً حرفياً إلى لغة أخرى عدت معاني سخيفة . ومن هنا نشأت فكرة من يقول إن معاني وأخيله الأدب الأوربي لا تتفق والذوق العربي .

ولكن مما لا شك فيه أنه بالرغم من اختلاف خصائص العربية والإقرنجية فإن الشعر الأوربي قبل أطواره الحديثة كان في مبادئه الأساسية قريباً من الشعر العربي القديم قبل غلبة الصناعة عليه غلبة قضت على تلك المبادئ .

ولا يدهش أحد إذا قلت إن كل نهضة تجديد دخلت الأدب والشعر العربي حديثاً كانت نزعة رجعية ؛ فنهضة البارودي وشوقي وحافظ وجفنى ناصف ومطران (في شعره الحديث) كانت

أيضاً نهضة رجعية بدأها الساعاتى وقواها البارودى ومن أتى بعده ؛ وهى كانت نهضة رجعية لأنهم رجعوا بالشعر عن طريقة البهاء زهير وابن الفارض والبيستى وابن نباتة المصرى وابن النحاس و خليل الصفدى ؛ طريقة الجناس الغالب والنكات ، إلى طريقة الصنعة العالية القوية صنعة مسلم بن الوليد وأبى تمام وأضرابهما . وترى هذه الرجعية ظاهرة فى شعر شوقى أعظم ظهور ، فقد بدأ يمدح البهاء زهير فى مقدمة الطبعة الأولى القديمة من الشوقيات وأسرف فى مدحه . وترى شعر شوقى فى صباه مما أثبتته فى الطبعة القديمة بعضه أشبه بشعر المتأخرين ، وأظن أنه حذفه ولم يثبتته فى الطبعة الحديثة " ثم صار شعره يقترب من نسق فطاحل الدولة العباسية أمثال مسلم وأبى تمام والبحترى .

وكان منتهى أرب الشاعر قبل نهضة البارودى وشوقى وحافظ أن يكثر من الجناس وأنواع البديع حتى ليقال إن أحدهم أفنى عمره فى صنع قصيدة بديعية كبيرة شحنها بما يقرأ طرداً وعكساً ، وما يقرأ من أسفل ومن أعلى ، وبالجناس وأنواعه ، وأشباهه من المحسنات ، فاحتمال عليه أصدقاؤه وسرقوها منه فمات كمدأ وراح ضحية الطرد والعكس وصريح الجناس . وكان الأدباء إذا أرادوا إن يستجيدوا بيتاً أنشدوا بيت ابن نباتة المصرى ، ولا أذكر كلماته بالضبط ، ولكنه يمدح سلطان مدينة حماه فى الشام فيقول : إن (حماه) (المدينة) علمتهم نعى المدوح حتى غدا كل منهم يحب (حماته) (أى أم زوجه) هذه هى (مفارقات) النكات العامية المصرية التى كانت تطرب الأدباء . أو قول البهاء زهير لمشوقته إنه دعاها (ست) أى سيدة لأنها ملكت جهاته (الست) .

فرجع البارودى وشوقى وحافظ إلى عصر أقدم من هذا العصر لا بد أن يسمى رجعية ، وليست كل رجعية ذميمة والنزعة الحديثة إلى التجديد هى فى الحقيقة تكملة النزعة الرجعية التى نشطها البارودى ، فكانت نزعة التجديد نزعة تفضيل (مبادئ) الشعر العربى الأقدم من العباسى ومن العباسى ما يقارب ذلك الشعر . وقد شرحنا تلك المبادئ . والذى غطى على هذه الحقيقة أثر الأدب الأوربى ، وفتح أبواباً جديدة من أبواب القول ، وشدة أزر الخيال والفكر . وغطى على الحقيقة أكثر من كل ذلك تشعب نزعة التجديد إلى فروع جديدة بعيدة كالرمزية وغيرها .

ولكننا إذا نظرنا إلى هذه الفروع وجدنا أن كلا منها مغالاة فى مبدأ من تلك المبادئ . كما فصلنا فى المقال السابق ؛ فالذين يريدون تغليب الوعى الباطن مثلاً إنما تفرعوا من مبدأ جعل الشعر بحثاً فى صفات النفس وخواطرها وشجوتها وأشجانها بدل ترديد معان متفق ومصطلح

عليها . ولا شك أن شعراء الجاهلية وصدر الإسلام كانوا ينظمون بالعاطفة أكثر من شعراء الدولة العباسية ومعنى النظم بالعاطفة البحث في شجون النفس وأشجاناتها ، فهذه الطائفة في نشأتها كانت رجوعاً إلى طريقة الشعر القديم ، وإن كانت قد غالت محاكاة للنزعات الحديثة في الأدب الأوروبي المعصرى . وبهذه الطريقة نستطيع أن نرد كل طائفة من طوائف وفروع نزعة التجديد إلى أصلين : أصل في الأدب العربي القديم غالت فيه ، وأصل من محاكاة النزعات الحديثة في الأدب الأوروبي المعصرى . فإذا تتبع الأستاذ الفمراوى الأسباب والعوامل التى أثرت في الأدب العربي الحديث وجد أنه لم تكن هناك مؤامرة على الدين والفضيلة نشأت عنها النزعة إلى التجديد ؛ فإن تتبع الحوادث يظهر كيف أن بعض أدباء المذهب القديم يقبلون (النتيجة) العارضة الثانوية المحدودة وهى الشذوذ والشطط فيجعلونها (سبب) نهضة التجديد كلها ؛ وقد أوضحنا أن الشذوذ والشطط موجودان في كل عصر ومذهب وذكرنا شواهد وأمثلة.

وإذا نظرنا في تاريخ النزعات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والأدبية وجدنا أنها كانت مصحوبة كلها أو أكثرها بشيء من الشطط ؛ وهذا الشطط إما أن يكون متعمداً لمحاربة الجمود أو الوقوف ، أو غير متعمد ، بل تندفع إليه بعض النفوس قهراً . وقد لا يعرف الشطط ولا يميز من غير الشطط إلا بعد عصور طويلة تمحص فيها الأمور . ولو أن كل نزعة من النزعات البشرية رفضت كلها بسبب ما يصحبها من الشطط ماتغيرات الإنسانية . ومن الحقائق الثابتة أن بعض الخاصة كانوا في كل نزعة تجديد يخلطون بين مبادئ النزعة ومظاهرها ؛ وبين ما يصحبها من الشطط ، حتى كانوا يحسبون أن الجنس البشرى مقضى عليه بسبب تلك النزعة. فالنزعة إلى الديمقراطية في أوروبا في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر كانت مصحوبة بشطط . وحسب بعض الخاصة أنه سيقضى على الإنسانية ، وأن القيود والشرائع الاجتماعية مقضى عليها بالاضمحلال ، فرفضوا النزعة بأجمعها بدل رفض الشطط وحده . وهذا هو ما حدث في نزعة الإصلاح الدينى في أوروبا في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، أو ما حدث في النزعة إلى تحرير الرقيق في أمريكا . ولعل الشطط الذى كان في رفض النزعة كلها كان يغفر الشطط الذى يصحبها ويهون أمره في نفوس أنصارها ويساعد على نجاحها .

وما يشاهد أيضاً في حياة الأمم أن الفساد الكثير المؤلف قد لا يشير من التسخط قدر ما يشير الفساد القليل غير المؤلف ، وإن كان الأول أَوْخَم عاقبة وأكثر ضرراً . والنوع الأول من

الفساد هو كما فى الأدب العربى من مجون وإباحية صقلهما الدهر واعتادهما القراء حتى صاروا لا يشيران تسخفاً بل يُنظرُ إليهما كما يُنظرُ الأب إلى ابنه الكثير الدعابة واللعب فىلومه ولكنه يحن إليه ويعطف عليه وتزیده دعابته ولعبه حياً له .

ومن المشاهد أيضاً أن الأديب أو المفكر قد يدافع عن مذهب وهو يعمل على هدمه من غير عمد ، أو يعمل على الأقل لإذاعة نقيضه بمؤلفاته وهو فى بعضها يعمل لنقيض هذا النقيض . فشوقي الذى أطرى البهاء زهير فى مقدمة الطبعة القديمة من الشوقيات ، هو شوقى الذى عمل بشعره المتين الأخير للقضاء على طريقة البهاء زهير وأضرابه . والرافعى الذى يروج أشد مذاهب الأدب الأوربى الحديث تطرفاً وهو مبدأ الرمزية من غير قصد بتأليف (حديث القمر) هو الرافعى الذى ينتقد الأدب الأوربى أشد انتقاد فى مقالاته . وكم من أديب قريب العهد بالأدب لولا بعض كتب الرافعى ما احتذى هذا المذهب فيما كتب .

فالعقل أو الوعى الباطن قد يُعوّ على العقل الظاهر الناقد أليس فى بعض شعر الصوفيين من شعراء اللغة العربية شهوة مكتومة ييوج بها العقل الباطن بالرغم من صرف العقل الظاهر معناها إلى الذات الإلهية ؟ وهذا مع أن أوصاف المحبوب لا تشير إلا إلى إنسان جميل وإن القول شهوة محض .

ولعل الأستاذ قد قرأ وصف النابغة الذبياني للمتجردة زوجة النعمان واطلع على ما فيها من وصف عورة المرأة وما هو أشد من أشد من وصف عورتها فى قوله (وإذا .. وإذا) نعم إن النابغة شاعر جاهلى ، ولكن استشهاد الأفاضل الأجلاء من شيوخ الأدب والعلم بهذا الوصف ونشره فى الكتب التى يعدونها للقراء ومنهم الفتيان والفتيات ، يدل على أن العقل الناقد فيهم قدسها عن أن هذا الوصف يخالف العرف والتقاليد والآداب الإسلامية .

وهؤلاء الأفاضل هم الذين يسخطون على وصف الغواني فى لباس البحر وصفاً لا يبلغ مبلغ وصف العورة والفجر كما فعل النابغة وكما فعل كثير من أدباء العرب فى العصور المختلفة احتذاءً للنابغة حتى فى عبارات وصفه .

على أن رجوع نزعة التجديد إلى طريقة النظم بالعاطفة أو بذكرى العاطفة ، ومحاولة الإقلال من المغالاة بالصنعة العباسية ليس من جهل بفضل الأدب العربى فى العصر العباسى ، ولا من جهل بفضائل شعرائه وأدبائه ، ولكن هؤلاء الشعراء شغلوا بمدح الخلفاء والأمراء ووضعوا لهذا المدح أوضاعاً . وإذا قرأت أجزاء مختارات البارودى هالك نصيب باب المديح من تلك الأجزاء الأربعة ، وهالك تردد المعانى فى ذلك الباب ؛ وهذا معنى ما أشير إليه من جمود

المعانى والموضوعات وغلبة الصنعة على العاطفة النفسية ، وذلك لا ينفى أن نصيب هذا العصر من التفكير وحرية القول كان عظيما . وما يؤسف له أن حرية القول كان أكثرها فى المجون إلا عند بعض المفكرين من الشعراء . ولا ينفى أن تلك الصنعة التى ما لبثت أن تحجرت فى أوضاع المديح كانت فى أول أمرها تجديديا ، ولكنها فى المتأخرين ضاع التجديد فيها وتدلّت إما إلى محاكاة عبارات ومعانى السابقين ، وإما إلى ما رأينا من النكات اللفظية والجناس وأشباهه من الأمور التى استغنى بها حتى عن روعة الأسلوب وفخامته ، إلى أن جاء البارودى وحافظ وشوقي فعادوا إلى محاكاة أفخم أساليب العصر العباسى الأول . ثم جاءت نزعة المذهب الجديد وحاولت إحداث شىء من التجديد فى أبواب القول ومعانيه وأخيلته ، وفى طريقة بحثه للموضوعات بالرجوع إلى خواطر النفس وأحاسيسها . فاذا كان بعض أدبائها قد وصف فى الأحايين خواطر لا يصح وصفها ، فإنه أمر عارض لا يصح أن يكون عنوانا للمذهب ، أو أن يفسر به المذهب ؛ وهو على أى حال أهون مما فى كتب الأدب القديم من وصف فجر ومن مجون يقرؤه الفتيات والفتيان فى مكتبات مدارسهم كل يوم حتى صفارهم الذين يكاد المرء يعدم من الأطفال . فبنشأ هؤلاء الأطفال على النفاق والتبجح إذا ما لقنهم الملقنون أن الأدب الأوربى من آداب الرذيلة ، وهم منغمسون فى حماة الرذيلة بسبب كتب الأدب العربى القديمة .

أما ما يأخذه بعض كتاب المذهب القديم على المذهب الجديد من الولوع بشعر التأمل فهو أعجب العجب . وهم إنما يخلطون بين شعر التأمل وبين شعر متون وحواشى كتب الفلسفة ، أو بين شعر التأمل وشعر تعليم الأولاد فشعر التأمل فى الحياة والنفس هو خلاصة النفس ؛ وهو لا يختلف عن الشعر الذى يقال فى وصف أحاسيس النفس فى موضوعه مادامت تحس فيه العاطفة الشعرية . ولا يجوز الخط منه إلا إذا خلا من كل أثر للعاطفة النفسية ؛ فليس شعر التأمل فى المرتبة الثانية ، وإلا أخرجنا أبا العلاء المعرى والمتنبى من عدة الشعراء وأخرجنا أجود ما فى شكسبير . وقد فرق الأدب الأوربى بين شعر التأمل وبين شعر متون الفلسفة ، كما فرق بين شعر التأمل وبين الشعر التعليمى فى الأسماء ؛ فلتراجع هذه الأسماء فى مصادرها .

القديم والجديد *

للأستاذ محمد أحمد الغمراوي

أحس أن على ديناً لقراء الرسالة يجب الوفاء به ، فقد كنت وعدت إذا زال الحائل الذي كان يحول بيني وبين الكتابة أن أعود فأفصل ما أجملت في خطابي الذي نشرته الرسالة وتقيدت فيه بذلك الوعد . وما أجملته هناك وأريد الآن تفصيلاً ، هو أن ما فهمه الأستاذ (قارىء) من بعض كلماتي ، وانتقده في مقالاته "الدين والأخلاق بين القديم والجديد" (١) شيء آخر غير ما أردته بما كتبت ، وأزيد الآن أنه شيء آخر غير ما تفيد تلك الكلمات .

وليس الذي يدعوني إلى الكرة بعد تلك الفترة مجرد حب الوفاء ، ولا مجرد الرغبة في أن أبين أنني أصبت ولم أخطئ ، فالإنسان بخطئ ويصيب ، ولا غضاضة على المخطئ ، مادام يخلص النية ويبتغي وجه الحق . إنما أكبر ما يجعلني أحرص على الرد هو الرغبة في تصفية مسألة القديم والجديد مرة أخرى - فقد صفيتها قبل ذلك في بعض فصول كتابي النقد التحليلي - ليتبين وجه الحق فيها عسى ألا يعود أحد ينخدع بما بين لفظي القديم والجديد من تفاوت ، فيؤثر في المعنويات الجديد لجذته على القديم لقدمه ، كما تعود أن يؤثر في الماديات الجديد على القديم في المأكل والمسكن واللباس .

والنقد الذي كتبه الأستاذ (قارىء) ، وصدر فيه عن أدب جم موجه إلى كلمتين اثنتين من كلماتي : إلى الكلمة الأولى التي قدمتها بين يدي ما كنت أريد من كتابة حول أدب الرافعي ، وإلى بعض الكلمة السابعة التي جعلتها خاتمة الكلمات . ويظهر أن الأستاذ حين بدأ يكتب ، كتب عفو الساعة من غير أن يرجع إلى الكلمة المنقودة وإلى أخواتها إن لزم ليستوثق من أن المعنى الذي في ذاكرته هو حقاً المعنى المقصود بالكلام المنقود ، فقد كان مر على الكلمة الأولى المنقودة بضعة أسابيع حين كتب الأستاذ .

ثم يظهر أن تلك الكلمة الأولى من كلماتي صورت مسألة القديم والجديد صورة غير مألوفة . فلم تقصرها على ميدان الأدب ولكن عدتها إلى ميدان الاجتماع ، ثم جعلت من

* الرسالة : ٢ يناير ١٩٣٩ ، ص ١٤ ومايلي .

(١) انظر الأعداد ١١٤٣ ، ١١٨٤ ، ١٢٩٧ ، ١٢٦٧ ، ١٢٢٨ ، ١٣٤١ ، ١٤٧٧ (من الرسالة)

الميدانين ميداناً واحداً ، ومن حركة النزوع إلى الجديد فى كل منهما حركة واحدة تشملهما جميعاً هى حركة الانصراف إلى جديد الغرب ولو استلزم ذلك الانصراف عن قديم القرآن .

لكن هذا التصوير أقرب إلى صميم الأمر وإن كان تصويراً غير مألوف . غير أن قربه من الحق لا يتبين حتى تتبين حدود تينك الحركتين الأدبية والاجتماعية اللتين ركبتا معاً فى حركة واحدة حين صورتنا ذلك التصوير .

وأول هذه الحدود وأوضحها أن تكون الحركة العلمية أو الصناعية غير داخلية فى تينك الحركتين ، فإن الأدب والاجتماع غير العلم والصناعة بالبداية . وإذن فلا محل للرجوع بحركة الجديد إلى عهد محمد على كما يريد الأستاذ (قارىء) لأن عهد محمد على فيما نعرف لم يأخذ عن الغرب إلا علمه وصناعته ، ولم يمس النظم الإسلامية الاجتماعية فى كثير ولا قليل .

وحد آخر من حدود حركة الجديد التى أردناها : أن روحها يخالف روح الإسلام فى الصميم . من أجل ذلك أخرجنا منها حركة التجديد التى قام بها الإمامان جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده كما هو صريح مقالنا الأول الذى نقده الأستاذ من الناكزة من غير رجوع إليه . وهذا الحد الثانى كاف وحده فى إخراج عهد محمد على مرة أخرى من نطاق البحث ، وإخراج كل حركة جديدة تتفق مع الدين .

وحد ثالث من حدود حركة الجديد التى أرخناها : أنها حركة أفراد لا حركة حكومات ، اللهم إلا أن تكون حركة الحكومة نتيجة من نتائج انتشار حركة الأفراد كما حمل أصحاب الحركة النسوية مثلاً الحكومة المصرية على تحديد سن الزواج . ولم يخطر ببالنا أن ننبه بهذا الفارق حين كتبنا ما كتبنا ، لأننا أولاً لم نكن بصدد التاريخ للجديد على إطلاقه ، ولكن كنا بصدد الكلام على حركة صارت بعد مذهبها اعتنقه أفراد دعوا إليه وثاروا على دعوتهم حتى انتشرت وصار لها من السلطان مالها اليوم - ثانياً - كان واضحاً من سياق ما كتبنا ومن الظرف الذى دعا إلى الكتابة ومن بعض عبارات فيها مثل : "ومسألة القديم والجديد عمرها لا يكاد يزيد على ثلاثين عاماً أثارها فى الناس نفر تشقفوا ثقافة غريبة من غير أن يكون لأكثرهم من الثقافة الإسلامية نصيب مذكور .

وهذا ، وغيره لا يدع مجالاً للشك فى أن المقصود هو مسألة القديم والجديد التى ثارت بين الناس والتى لا تزال موجودة بيننا فهذا الحد الثالث كاف هو أيضاً لأن يخرج من نطاق البحث كل حركة لم يقم بها فرد أو أفراد ولم يعتنقها جمهور من الناس . وإذن فالحركة التى قصدنا بالنقد والتى قدرنا عمرها بثلاثين عاماً هى حركة قائمة بيننا الآن لا ترجع إلى عهد نابليون فى

مصر ولا إلى عهد محمد على ولا إلى عهد اسماعيل ، ولكن ترجع في رأينا من الناحية الأدبية إلى العهد الذى كان هيكل وأمثاله يكتبون فيه فى "الجريدة" ، ومن الناحية الاجتماعية إلى العهد الذى كتب فيه قاسم أمين وأصدر فيه كتابيه "تحرير المرأة" و"المرأة الجديدة" .

والعهدان فى الحقيقة عهد واحد يظلهما زمن واحد هو زمن اشتداد الحركة الوطنية الأولى حوالى ١٩٠٨ أو قبلها بقليل . ومن هنا أمكن تقدير عمر واحد للحركتين اللتين بدأتا فى الأدب والاجتماع حوالى ذلك التاريخ ، واللّتين جعلنا منهما حركة جديدة واحدة عمرها بالطبع عمرهما ، وهو تقدير طبيعى كما ترى لا عوج ولا تكلف فيه .

والأستاذ قارىء لم يأخذ علينا مخالفة للواقع فيما يتعلق بالحركة الأدبية من تقديرنا ذلك فهو يوافقنا فيه وإن كان بعض ما كتب فى مقاله الخامس^(١) يدل على أنه يميل إلى جعل عمر حركة الجديد فى الآداب أقل من ثلاثين . أما من الناحية الاجتماعية فإن التاريخ لحركة الجديد فيها بظهور كتابى قاسم أمين أمر معقول . فقبل قاسم لم يدع مسلم فى عصرنا الحديث إلى جديد فى هذا الميدان ، ولم يحاول مسلم أن يدعوا الناس فى ميدان الاجتماع إلى مخالفة ما جرى عليه العمل فى زمن الرسول صلوات الله عليه فى مسألة الحجاب مثلاً والسفور . وإذا كان هناك من المسلمين أو غير المسلمين من سبق قاسماً إلى مثل ما دعا إليه فإنه لم يترك أثراً فى الناس فى مصر كما ترك قاسم ، ولم يستهزئوا نقرأ إلى مذهبه كما استهوى ، ولم يبدأ حركة كبرت بعده حتى جاوزت كل ما كان يدور له فى حسيان . فقاسم أولى الناس بأن يبدأ بكتبه تاريخ حركة الجديد بما يخالف الإسلام فى ميدان الاجتماع .

والحركة التى بدأها قاسم لم تكن لتبلغ ما بلغت وتستشرى كما استشرت لو لم تجد من الحركة الجديدة فى الأدب مؤيداً وظهيراً . فإنك إذا تتبعت الحركتين وجدتهما سائرتين جنباً لجنب تأخذ إحداهما بيد أختها تقيها العثرة وتثبتها فى المعترك ، وإليك لواجد أن الصحف

(١) نشير إلى قوله "ولو أنا رجعنا إلى ما ألف من المقالات والكتب منذ ثلاثين سنة ما وجدنا أثر لهذا

لاصطلاح : أعنى اصطلاح تقسيم الأدب إلى جديد وقديم ، وإنما كان الشعراء الذين يسمون الآن أدباء المذهب الجديد يدعون إلى نبذ شعر الغزل المتكلف الخ" .

التي ظهرت إحدى الحركتين هي نفس الصحف التي ظهرت الأخرى ، وأن أنصار الجديد في الأدب كانوا ولا يزالون هم أنفسهم أنصار السفور من قبل وأنصار الاختلاط وما إليه اليوم . كانت الجريدة في مبدأ الحركتين لسان الدفاع عن كليهما والدعوة إليهما ، ثم كانت جريدة "السفور" ثم "السياسة" ثم "السياسة الأسبوعية" وغزا أنصارهما الصحف الأخرى وخلا لهم الجور لما غاب "المؤيد" و "اللواء" وصارت الدعوى الجديدة هي البدع و "الموضة" فمن لم يقل بها عن نية واعتقاد قال بها كيلا يوصف بالرجعية والجمود . وليس بهم الآن تعليل ذلك ، إنما المهم توكيد ما كان بين الحركتين من اتصال وتلاقح وتعاون ، فالحركة الجديدة من ميدان الاجتماع أعقبت لونا جديداً من الأدب لم يكن موجوداً قبلها يصح أن يسمى بأدب السفور ، والحركة الجديدة في ميدان الأدب مهما يكن أصل نشأتها ، قد امتزجت بعد بالحركة الاجتماعية الجديدة المتفاقمة واستوحت منها أكثر وحيها لأن روح كل منهما مستمدة في صميمها من روح الغرب لا من روح الإسلام . ومن يكن في شك من هذا فليرجع مثلاً إلى مجلدات "السياسة" و "السياسة الأسبوعية" قبل ظهور كتاب "حياة محمد" ، فسيتجلى له المذهب الجديد في الأدب والمذهب الجديد في الاجتماع قد اتحدا في حركة واحدة شاملة تنبض بروح الخلاف للإسلام ، لأن أصحابها لجهل أكثرهم بالإسلام صدقوا مازعمه لهم الغرب من أن الإسلام هو سبب تأخر المسلمين .

وإذا كان من رجال الحركة الجديدة في الأدب من لم يناوئ الإسلام مع الغرب ومشايعيه من أهل الحركة الجديدة في الاجتماع فلم يتخذ من وحيها وحيه في كتاباته ، ولم يجر معها إلى آخر الشوط الذي جرت وتجري إليه ، فإن هؤلاء نفر جد قليل . والناظر إلى صميم الأمر لا يستطيع أن يحكم على حركة إلا بما يغلب عليها ، وسيجعل لذلك القليل مخرجاً إن أمكنه ولو بتقسيم آخر . ونظن أننا فعلنا ذلك بالحد الثاني من الحدود التي فصلناها آنفاً ، وبما سنبيته إن شاء الله في مقال تال .

بين القديم والجديد (لأحد أساطين الأدب الحديث)

يجمع الأستاذ الغمراوي في نفسه من صفات الخلق العظيم مالا يتفق إلا لقليل من المهذبين الأفاضل ؛ فهو يغار على الفضيلة والدين ، ويجمع إلى غيرته لطف المناظرة والإنصاف وآداب الحديث والمجادلة بالتى هي أحسن ؛ وهذه رعاية من الله ، نرجو أن يديم الله عليه نعمته . وقد ظهر عدل الأستاذ وإنصافه في اعترافه بأن في الأدب القديم أكثر مما يشكو منه بما في الأدب الحديث ، وفسر القديم بأنه ليس القدم الزمنى ، فالقديم والحديث في اصطلاح الأستاذ صفات لا تدل على الزمن ، وضرب مثلاً بشعر بن أبى ربيعة وقال : إنه لو كان في عهد عمر ابن الخطاب رضى الله عنه لنفاه بسبب غزله . فعمر بن أبى ربيعة إذاً على قدمه الزمنى ليس من المذهب القديم في الشعر والأدب على حد اصطلاح الأستاذ ، إذ أن القديم في اصطلاح الأستاذ من لم يقل غزلاً يثير شجون النفس وشهواتها وتعلقها بفتنة الحسن . وليعذرني الأستاذ إذا قلت إنه يصعب عليه أن يجد شاعراً واحداً يصح أن ينطبق عليه اصطلاح القديم في عرفه ، فهذا الرافعى على تقواه ودينه وفضله له في الغزل نثراً وشعراً أشياء (أشهى) من شعر عمر بن أبى ربيعة . ألم يقرأ الأستاذ الغمراوي للرافعى وصفه للراقصة ومحاسن جسمها وقصته معها ؛ ومع ذلك فالأستاذ الغمراوي يقول إن أدب الرافعى يمثل الأدب القديم في اصطلاحه ، مع أن الأستاذ الغمراوي لو كان خليفة وعرض عليه غزل عمر بن أبى ربيعة وبعض ما قاله الرافعى شعراً ونثراً في الغزل ووصف مفاتن الحسن ولذة التقييل ومحاسن جسم المرأة لأمر الأستاذ بنفى الشاعرين ؛ ابن أبى ربيعة والرافعى معاً . وإذا كان الأستاذ في شك من أن الرافعى له أشياء أشهى من أشياء عمر بن أبى ربيعة ذكرنا له طرفاً منها ورضينا بحكمه وهو أعدل الحاكمين من الناس ، بل نحن نترك للأستاذ الخيال فليختر أى شاعر ونحن نورد له ما يستحق به النفى لو وكل الأمر إلى الأستاذ الغمراوي في نفى الشعراء ونورد ما يستحق به النفى ونقارنه بما استحق به عمر بن أبى ربيعة النفى ونقبل حكم الأستاذ الغمراوي في المقارنة وهو خير الحاكمين .

إتنا ما أردنا أن نعذر شطط المتأخرين بشطط المتقدمين كما ذكر الأستاذ وإنما أردنا أن نبين أولاً أن النفس البشرية واحدة في كل زمان ومكان مهما اختلفت الفروق الظاهرة وبالرغم من شذوذ الأحاد بالنقاوة النادرة أو النجاسة البالغة النادرة . وأردنا أن نفسر أثر المتقدمين في أقوال المتأخرين وأن نقول إن الشطط في وصف المفاتن وفي شرح الشكوك النفسية لم يأتنا من ناحية الإفرنج وحدهم بل جاءتنا به مؤلفات العرب ولا سيما عندما أدخلت الطباعة وطبعت المخطوطات العربية القديمة والحديثة . على أن النفس الإنسانية ياسيدي الأستاذ ينبوع يفيض بكل ذلك من غير حاجة إلى كتب العرب أو كتب الأوربيين ؟ وإن شاء الأستاذ فليترد أماكن الناس الذين لم يتأثروا كثيراً بكتب العرب ولا بكتب الإفرنج وليسمع هواجس نفوسهم .

على أن في ذكر الأستاذ التجاء عمر بن الخطاب إلى النفي ما يدل على أن النفوس في عهد عمر رضى الله عنه لم تكن تمتنع عن التعلق بمفاتن الحسن ومحاسن الحياة ، ولعل الأستاذ قد أذكرته التجاء عمر إلى النفي قصة سماع عمر غناء التي تغنت بهذا البيت :

هل من سبيل إلى خمر فأشربها أم من سبيل إلى نصر بن حجاج

فنفى عمر رضى الله عنه نصراً هذا . ولو رجع الأستاذ إلى ما قبل سيدنا عمر وتدبر حكمة الآية الكريمة التي تنهى الناس عن قرب الصلاة وهم سكارى لرأى عبرة تسلك النفوس البشرية في كل عصر في صعيد واحد بالرغم من تفاوتها . وأستحلف الأستاذ أن يحكم على تلذذ كعب بن زهير بذكره كبر عجز حبيبته في قصيدة (بانت سعاد) عندما قال (هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة) وتلذذه بذكره كبر العجز في قصيدة يمدح بها النبي صلى الله عليه وسلم وهي قصيدة يتبرك بها بعض الناس ، وبعضهم يتخلها حجاباً وقيمة بما فيها من التلذذ بذكر كبر العجز من غير فطنة إلى ما فيها . ومع ذلك قد مر النبي صلى الله عليه وسلم بغزل كعب هذا من الكرام بما كان يدعو إليه من العقيدة السمحة وتآلف النفوس ومعرفته ضعف النفس وقصورها . فماذا كان يصنع الأستاذ الغمراوي لو أن شاعراً مدحه بقصيدة تغزل في أولها وتلذذ في غزله بذكر كبر عجز حبيبته ؟ هل كان يتغاضى كما تغاضى النبي صلى الله عليه وسلم أم كان ينفيه كما أراد أن ينفي عمر بن أبي ربيعة ؟ وماذا كان يقول الأستاذ لو أن شاعراً انجليزياً مدح ملك إنجلترا ومقام الملك دون مقام النبوة فقال الشاعر في قصيدته (إن حبيبتي ياكنج جورج لها عجز كبير) ؟ إتنا يا أستاذ نضرب هذه الأمثال لنبين أن الناس ناس في كل زمان ومكان ، وأن النفس البشرية واحدة مهما تباينت واختلفت صفاتها . ولو كان

الأستاذ فى شك من ذلك فليراجع ديوان حسان بن ثابت فيراه فى قصيدة يتهم أبا الوليد ابن المغيرة بحبة غلام رومى جميل كان مملوكاً له ، وبأنه علق صورة الغلام كى ينظر إليها إذا غاب عن نظره ، ويتهم أمه بحبة الغلام أيضاً . (صفحة ٣٢٩ طبعة السعادة شرح العبانى) ولو رجع الأستاذ إلى كتاب (العقد الفريد) لقرأ أن سائلاً سأل عبد الله بن العباس ابن عم النبى صلى الله عليه وسلم : هل قول المجنون ينقض الوضوء؟ فقال : لا . وأنشد بيتاً فيه مجنون وكانت قد حانت الصلاة فقام وصلى للدلالة على أن شعر المجنون لم ينقض وضوءه . وفى حالة أخرى سمع وهو يعدو بيت فيه مجنون . ولو تقصى الأستاذ أخبار سبى الرقيق من المدن الفارسية والرومية التى فتحت عنوة وأثر ورود هذا السبى إلى شبه جزيرة العرب ، وما كان يرد قبله من جلب تجارة الرقيق قبل الإسلام لعلم أن الولوع بمفاتن الحسن لم يكن مقصوراً على الشعراء المتقدمين أو المتأخرين . ونحن لا نريد أن نعذر حالة الناس فى عصرنا . فلعل التعلق بمفاتن الدنيا فى عصرنا أضر وأفسد إذ أن القوى الحيوية الخلقية العظيمة فى نفوس المتقدمين كانت تستطيع موازنة ضعف هذا التعلق ، وانعدام هذه القوى الخلقية الحيوية فى عصرنا يزيد ضرر التعلق بمفاتن الحسن وشهواته . نعلم ذلك ونوافق الأستاذ على ضرورة معالجة هذه المسألة ، ولكن لا يكون ذلك إلا بالتربية وتطهير الكتب ولا سيما القديمة .

أما أننا رجعنا إلى مبدأ نهضة التجديد فالأستاذ نفسه يعترف بأن التجديد فى الأدب روح لا قالب ، وأن هذه الروح مستمدة من نظام التعليم الحديث ، ومن الأنظمة التى اقتبست من الأنظمة والشرائع والسنن الأوروبية ، ومن البعثات العلمية إلى أوروبا وأثرها فى النفوس ، ومن الكتب التى ترجمت ؛ وما دامت المسألة مسألة روح لا قالب فلا يستطيع الأستاذ فصل التجديد فى العلوم والتعليم والنظم والشرائع عن التجديد فى الأدب وهو لم يحاول أن يفعل ذلك . أما أننا فسرنا قوله : (تغليب دين على دين) بغير ما أراد فعذرنا فى ذلك أنه كان يقارن بين الثقافة والحضارة والدين عند العرب وعند الأوروبيين فلم يخطر ببالنا أنه يعنى بالدين عند إطلاقه على الأوروبيين معنى الضلال والباطل وإنما ظننا أنه يعنى دينهم، ولنا العذر أو بعض العذر . وأما قول الأستاذ إن حافظ إبراهيم رجع بالغزل إلى طريقة الجاهلية وصدر الإسلام أى طريقة الغزل بالعاطفة كما فعل العنريون فهذا مالا يقول به حافظ نفسه ولم يقل به أديب قبل الأستاذ . والأصح وهو ما قلناه من أن البارودى وشوقى وحافظ أنقذوا الأدب من طريقة ابن حجة الحموى و خليل بن أيبك الصفدى وصفى الدين الخلى وأشباههم ورجعوا به

إلى طريقة مسلم بن الوليد وأبى تمام والبحتري وحسبهم هذا فخراً . وقد جعلنا أكثر قولنا فى التجديد فى الشعر لأن الباعث على مقالات الأستاذ كان شعر الرافعى والعقاد ، ولم نقصر التجديد على محاولة إدخال العاطفة كشرط أساسى فى الغزل بل قلنا إنها شرط أساسى فى كل شعر ، وإن الصنعة لازمة ، ولكن كخادمة للتعبير عن النفس والحياة وعواطف النفس وأحاسيسها فيها ، فتحجر الصنعة من غير بحث فى النفس قيد ، والتخلص من جمود ذلك التحجر حرية ، وهى الحرية التى أردناها فى قولنا . وقد فسرنا ذلك بإطالة وأوضحنا أن هذه الحرية ليس معناها التخلص من قيود العرف أو الدين ، فنرجو الأستاذ أن يرجع إلى ما فصلنا من الكلام عنها . وقد اعترفنا للأستاذ بما فى نزعة التجديد من عيوب وحبذا لو رجع الأستاذ إلى ذلك التفسير والتعليل ، وقلنا إنها عيوب عارضة وليست كل شىء . أما المسائل الاجتماعية التى ذكرها الأستاذ فهى أمور يختلف فيها الأدباء وغير الأدباء ويختلف فيها الناس فى كل عصر ؛ ولو شاء الأستاذ لذكرنا من أقوال كتاب العرب وشعرائهم ما هو أشد من أقوال طه حسين وهيكى وقاسم أمين . ومن الغريب أن الأستاذ لا يرى حرجاً فى الاقتباس من علوم أوربا ويرى حرجاً فى الاقتباس من ملاحبهم وأبواب أدبهم ، وإذا كان هناك حرج فالخرج فى الحالتين .

(قارىء)

٧- بين القديم والجديد *

لأحد أساطين الأدب الحديث

عاب الأستاذ الغمراوي على عميد كلية الآداب الدكتور طه أنه اختار في كتاب (حديث الأربعة) مجموعة من شعر المجنون العباسي ، ولا أريد أن أتعرض الآن لهذا الاختيار بنقد مطول وإن كنت أعتقد أنه جعل الكتاب غير لائق إلا لقراءة المؤرخ الباحث في آداب الشعوب في العصور المختلفة ، وأنه ليس للقراء عموماً ؛ وهذا لم يكن رأي مؤلفه عندما ألفه ، فإني أذكر أنه عاب على الشيخ الخضري حذفه المجنون من نسخة الأغاني التي هذبتها وقال : إن دارس الأدب لابد أن يقرأ هذا الشعر كيلا يخطئ في الحكم على عصره . وكان الدكتور يجد له طلالة خاصة يستحق من أجلها الصيانة . ولا أدري هل الدكتور لا يزال على هذا الرأي أم أن جلال المنصب قد حوره ؛ لكنني أريد أن أستخلص من ذكر الأستاذ الغمراوي كتاب (حديث الأربعة) حجة على الأستاذ الغمراوي ؛ فالشعر الذي اختاره المؤلف فيه شعر عربي ، والأستاذ الغمراوي يقول إن الأدب الأوربي هو الذي أفسد المذهب الجديد في الأدب بمجونه . فكأنما يريد الأستاذ الغمراوي أن يقول إن اطلاع الدكتور طه حسين بك على الأدب الأوربي هو الذي دعاه إلى اختيار شعر الحسين بن الضحاك وشعر أبي نواس وغيرهما . فإذا كان هذا قصده ومعناه فإن الأستاذ الغمراوي يكون على حد اصطلاح الأوروبيين كمن يضع العربة أمام الفرس بدل أن يضع الفرس أمام العربة وهو الترتيب الطبيعي ، لأن الدكتور طه قرأ الشعر العباسي قبل أن يقرأ الأدب الأوربي ، وتأثر بالشعر العربي قبل أن يتأثر بالشعر الأوربي . وإني واثق أنه قد اطلع في الأدب الأوربي على الوقور وغير الوقور من الشعر . اطلع على شعر سوفو كليز وبوريديس وإسكيليس . فهل يريد الأستاذ الغمراوي أن يقول إن اطلاع الدكتور طه حسين على شعر سوفوكليز مثلاً هو الذي أغراه باختيار شعر الحسين بن الضحاك ؛ إنه إن قال هذا القول دل على أنه لم يطلع على شعر سوفوكليز . وقس على ذلك غيره من الشعراء ولا أدري أي الشعراء الأوروبيين هم الذين أوعزوا إلى الدكتور باختيار شعر مجان العرب . هل قراءته لشعر بودليير أم قراءته لشعر فرلين ؟ إني لم أقرأ في شعر بودليير وفرلين (وقد قرأت بعضه)

ما يماثل بعض شعر أبى نواس والحسن بن هانى قى صراحته . ولا أظن أن الجمهور الأوربي كان يطيق من بودلير أو فرلين صراحة كصراحة أبى نواس والحسين بن الضحاك . إذاً يستحيل أن يكون بودلير أو فرلين هو الذى أغرى الدكتور باختيار شعر الحسين بن الضحاك أو شعر أبى نواس ، لأن الأشد صراحة فى المجون هو الذى يبيع ماهو أقل منه شدة . فأبو نواس هو الذى يبيع فرلين وبودلير ، وليس بودلير هو الذى يبيع أبى نواس . وإذا عرفنا أن الدكتور تأثر بالشعر العربى الأشد صراحة فى صباه ولم يطلع على الشعر الأوربي الأقل صراحة إلا بعد أن رسخ أثر الأول فى نفسه علمنا أن مازعمه الأستاذ من أثر الشعر الأوربي خاصة والأدب الأوربي عامة فى التأثير على المؤلف وفى تعيين اختياره لما اختار فى كتاب (حديث الأربعاء) زعم غير رجيح . وعلى هذا القياس يكون أيضاً زعمه غير رجيح فى تعليل اختيار الدكتور طه حسين بك للقصص الفرنسية التى كان ينقلها إلى العربية ، وكان ينشرها هيكل فى السياسة الأسبوعية ، وهى القصص التى يشكر منها الأستاذ الغمراوى^(١) فإنها مهما بلغت فى صراحته ، أقل صراحة مما قرأ الدكتور طه فى صباه من القصص العربية فى كتاب (مصارع العشاق) ، وغيره ؛ وإذا يكون مثل الأستاذ الغمراوى فى تعليله كمثله من يحسب السبب نتيجة والنتيجة سبباً ، أو كمن يقوم بتجربة كيميائية فى المعمل فيبدأ التجربة من آخر خطواتها سائراً إلى أولها . والحقيقة أن الأستاذ الغمراوى أحياناً فى مقالاته يتخلى عن التعليل الطبيعى ويفضل التعليل المصطنع ، ويتخلى عن ترتيب المؤثرات الطبيعى ويفضل الترتيب المصطنع . فهو مثلاً يقول إن فى المذهب الجديد شططاً ، وبدلاً من أن يعلل هذا الشطط التعليل الطبيعى القريب بما اكتسبته العقول والنفوس من شغف بتذوق التجارب النفسية والعقلية بسبب المخاوف الاجتماعية وغير الاجتماعية ، وهذا الشغف قد يؤدى إلى الشطط ؛ وبدلاً من أن يعلله بازدياد الحرية السياسية والقانونية وهى قد تؤدى إلى هذا الشطط ؛ وبدلاً من أن يعلله بأنه من أثر نشر الطباعة العربية الحديثة للكتب العربية التى فيها أمثال ما يشكو منه كما علل المؤرخون الأوربيون بعض الشهوات فى نزعة التجديد والإحياء فى القرن السادس عشر فى أوربا بطبع كتب الأدب الإغريقى القديمة - أقول بدل أن يأخذ بهذه الأسباب الطبيعية التى لها نظائر فى التاريخ - والتاريخ يفسر بعضه بعضاً - تراه

(١) يحسن بالأستاذ الغمراوى أن يضع موازنة بين قصص (الأغاني) و(فاكهة الخلفاء) و(مصارع

العشاق) وبين القصص التى نشرها طه حسين وهيكل ليفسر سبب إغفاله أثر كتب العربية .

يفغل كل هذه الأمور ويقول : إن أعداء الدين الإسلامى من الأوربيين رأوا أنهم لا يستطيعون النيل من الإسلام قدر ما ينالون منه بمؤلفات الدكتور طه حسين ومؤلفات هيكى باشا القديمة قبل كتاب "حياة محمد" و "منزل الوحى" وقد يسمى القارىء فهم تعليل الأستاذ الغمراوى ويتساءل : هل يعنى الأستاذ الغمراوى أن نزعة التجديد دسيطة مقصودة مدبرة ؟ أرجو ألا يجسم الوهم المسألة للأستاذ إلى هذه الحد ، فإنه عالم قد اختير للبحث العلمى ، وهو كالعلماء لابد أن يترك التعليل البعيد مادام هناك تعليل طبيعى له شواهد ونظائر فى التاريخ كما أوضحنا بذكر ما كان من الشطط فى نهضة إحياء العلوم فى أوربا فى القرن السادس عشر . فلو أن مؤرخاً زعم أن الوثنيين خفية راموا القضاء على المسيحية ببشهم الشهوات والمفاسد فى الكتب الإغريقية ما كان تعليله بعيداً عن طريقة الأستاذ الغمراوى فى تعليل شطط النزعة الحديثة إلى التجديد .

أو لو أن مؤرخاً زعم أن الفرس والروم فى صدر الإسلام أرادوا النيل من الإسلام ببشهم المفاسد والترف حسداً وحققاً ما كان تعليله بعيداً عن تعليل الأستاذ . أو لو أن مؤرخاً زعم أن مفكرى الإغريق حاولوا إفساد العقائد الإسلامية فى عصر الدولة العباسية ببشهم روح التفكير الحر المطلق من قيود الدين حنقاً وحققاً على الدين الإسلامى ما كان تعليله بعيداً عن تعليل الأستاذ . والحقيقة أننا ربما نكون قد فهمنا من كلامه عن أعداء الدين الإسلامى ومحاولاتهم القضاء على الدين الإسلامى بنزعة التجديد ومؤلفات المجددين المصريين أكثر مما يقصد الأستاذ ، لأننا لا نستطيع أن نتصور أن عالماً جليلاً كالأستاذ الغمراوى يريد أن يقول : إن بين الدكتور طه مثلاً وبين أعداء الدين من الأوربيين تفاهما واتفاقاً على الدين الإسلامى . إنما ينبغى ألا يترك الأستاذ لجمهور القراء موضع ليس ، لأن اللبس فى هذه الأمور قد تكون له عواقب خطيرة . ولا أدري لماذا اعترف الأستاذ الغمراوى بما فى الأدب القديم من مفاسد ولم يستطع أن يعترف بما لهذه المفاسد من أثر فى الأدب الجديد ، وما هذه إلا خطوة بعد تلك الخطوة ، وهى نتيجة لها : ولا يستطيع أن يخطو خطوة إلا وهو ينظر إلى خطوته الثانية : وقد خطونا خطوتين فاعترفنا أن الأدب الجديد به عيوب وأن بعضها يرجع إلى بعض المؤلفات الأوربية : فالخليق بالأستاذ أن يعترف بأن بعضها أيضاً أو أكثرها يرجع إلى قدوة المؤلفات العربية : والخليق به أن يعترف أن ليس كل الأدب الأوربى من نوع القصص التى كان يشكو من نشر السياسة الأسبوعية لها ، وأن يعترف أنه إذا كان بعضها صريحاً فى تصوير الشهوات

فإن بعضها جليل ؛ وأن الصريح منها أقل صراحة من بعض ما في كتب القصص العربية ؛ وأن يعترف أن شاعراً كشكسبير لا خطر منه على الإسلام ، فلا هو مبشر بالمسيحية ولا هو ملحد وداعية للإلحاد . وما يصدق في الكلام عن شكسبير يصدق في الكلام عن ألف شاعر وألف كاتب من شعراء الأوربيين وكتابهم . وخلق بالأستاذ أن يعترف أيضاً أن بين الكيميائيين وعلماء الطبيعة الأوربيين من هم أشد خطراً على الإسلام من كثير من أدبائهم ، لا لأنهم يحقدون على الإسلام ويريدون الكيد له ، بل لأن علمهم الطبيعي شط بهم عن الأديان . وأظن أن لنا بعض العذر إذا فهمنا بعض ما فهمنا من قول الأستاذ عن أعداء الدين الإسلامي من الأوربيين إذ قال إنهم أرادوا ألا يهاجموه مواجهة بل بحركة التفاف ، وأن حركة الالتفاف هذه هي نزعة بعض الكتاب المصريين إلى التجديد ، وذكر مؤلفات الدكتور طه حسين عميد كلية الآداب ومؤلفات هيكل القديمة ، فبالله كيف لا يكون للجمهور العذر إذا فهم من قول الأستاذ الغمراوي أن الدكتور طه حسين وهيكل من دعاة أعداء الدين الإسلامي ومن عمالهم السريين القائمين بحركة الالتفاف هذه بذل مهاجمة الدين الإسلامي مواجهة . وعلى فرض أن تأليف الدكتور طه كتاب (على هامش السيرة) وتأليف هيكل (حياة محمد) و (في منزل الوحي) لم يقنع الأستاذ الغمراوي بخطأ رأيه فيهما ألا يقنعه تأليفهما هذه الكتب أنهما لا يريدان معاونة الحاقدين على الدين الإسلامي من الأوربيين للقيام بحركة التفاف كما يقول الأستاذ وأنه إن كان في تأليفهما القديم أو الحديث شطط فأسبابه ما أوضحنا من الأسباب الاجتماعية ، ومن شغف جديد بالبحث قد يخطيء ، وقد يصيب ، لا لأنهما يريدان معاونة الحاقدين على الدين في القيام بحركة التفاف . ولو أن كاتباً في أوروبا في بدء نهضة الأحياء في القرنين الرابع عشر والخامس عشر اتهم رواد النهضة في أوروبا بأنهم يريدون القيام بحركة التفاف معاونة لمن يكره المسيحية من المسلمين لما تعدى قوله .

قول الأستاذ الغمراوي . ولا أظن أن الأدباء في أوروبا يسعون سعياً حثيثاً لمهاجمة الإسلام؛ وإن كان بعض الكتاب الأوربيين يفعل ذلك فإنه لا يفعله كأديب ولا كمفكر عالم ولكن كمبشر بدين آخر . وإذا كان بين أدباء المسلمين ومفكريهم وبين الأدباء والمفكرين في أوروبا صلة فهي ليست صلة عداة لدين بل صلة بحث وتفكير قد يخطيء وقد يصيب . وبالرغم من أن الأستاذ الغمراوي قد فسر قوله (إرادة تغليب دين على دين) تفسيراً جديداً فإنه يحوم ويخلق دائماً في جو المعنى الذي فهمناه من قوله .

إن المؤرخين المعاصرين في أوروبا يميل الكثير منهم إلى الاعتقاد أن النزعة إلى التجديد في أوروبا في القرن السادس عشر كانت لا بد واقعة بمحاسنها ومفاسدها لأسباب أصيلة في دول أوروبا حتى ولو لم يكن للعرب أثر فيها . وربما يدعوننا هذا الرأي إلى بحث رأي يقابله وإلى أن نتساءل إلى أي حد كان التغيير الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الحديث في مصر مؤدياً حتماً إلى النزعة إلى التجديد بمحاسنها ومفاسدها حتى ولو لم يكن للأدب الأوربي أثر فيها قل أو كثير . وإنني واثق أن الأستاذ لو بحث هذا الموضوع وجد في هذا الرأي من الحقائق ما يصح الاعتراف به حتى ولو لم يقره كله على علاته .

رد على رد

٨- بين القديم والجديد *

لأحد أساطين الأدب الحديث

كنت أقرأ مختارات الشعر التي جمعها محمود باشا سامي البارودي الذي يعد زعيم المذهب القديم في الأدب في العصر الحديث ؛ فوجدت أنه قد اختار في باب النسيب مجونا ليس بأقل من مجون الحسين بن الضحاك وأبي نواس الذي اختاره الدكتور طه بك في كتاب حديث الأربعاء بل بعضه أشد منه وبعضه مثله ، فاختار لأبي نواس قصيدة قالها يتغزل في شاب جميل كان كاتباً في ديوان الخراج بدليل قوله في القصيدة :

ومر يريد ديوان الـ خراج مضمخاً عطراً

وكانت عادة الشعراء في ذلك العهد التغزل في ملاح كتاب الدواوين . وفي هذه القصيدة يقسم أبو نواس أن مرقشاً الشاعر العذري النزعة لو كان حياً لما أحب امرأة بل لأحب ذلك الكاتب المليح ؛ وهذه هي القصيدة كما أوردها البارودي :

أما والله لا أشراً	حلفت به ولا بطراً
لو أن مرقشاً حَيٌّ	تعلق قلبه ذكراً
كان ثيابه أظلم	من من أزراره قمراً
بوجه سابري لو	تصوب مأواه قطراً
وقد خطت حواضنه	له من عنبر طرراً (١)
بعين خالط التفتير	في أجفانها حوراً (٢)
يزيد وجهه حسناً	إذا ما زدته نظراً

واختار البارودي لأبي تمام قطعة قالها في غلام مملوك أهداه إليه الحسن بن وهب فقال :

قد جاءنا الرشأ الذي أهديته خرقاً ولو شئتنا لقلنا (المركب)

* الرسالة : ٦ مارس ١٩٣٩ ، ص ٤٣٧ ومايلي .

(١) الحواضن أشبه (بالدادات) .

(٢) يعني بالتفتير نعمة العين .

والذى اختار هذا الشعر ليس الدكتور طه بك ولا هيكل باشا بل البارودى باشا :

وقد أوردنا قبل الآن اختيار البكرى أشياء من مجون ابن الرومى ونشر الشيخ شريف مجونه أيضاً . ولكن الأستاذ الغمراوى ترك البارودى وترك البكرى والشيخ شريف واختص الدكتور طه وهيكل . فإذا كان ذلك لأن البارودى عارض قصيدة البردة فقد ألف الدكتور طه على هامش السيرة وألف هيكل حياة محمد وفى منزل الوحي ، ولا أظن أن أحدهما نشر شيئاً يقارب مانشره البكرى والشيخ شريف والبارودى .

والفكرة التى يتبينها القارىء من كلام الأستاذ الغمراوى غير صحيحة ، وهى أن المجون يعصم منه المتدين فقد سمعنا فى بعض حفلات إحياء المولد النبوى الكريم من التغزل فى الذات النبوية من الشعر ما ينبغى أن ينزه عنه ذلك الحفل من ذكر الرضاب والريق والوصال الخ الخ على طريقة بعض الصوفيين .

وسمعنا بعض الأفاضل يختلفون فى أمور ثانوية تافهة من أمور الدين ، وكل منهم متدين ، فإذا أنصرف أحدهم ذكره مناظره بكل سوء وبالمجون واتهمه بالزندقة . بل رأينا أن أعظم سلاح شيرعاً فى الدفاع عن الدين والفضيلة أو عن عقيدة الوطنية أو عقيدة سياسية هو سلاح المجون فى القول وتهمه ، وتعدى هذا السلاح هذه الأحوال إلى الدفاع عن النظريات العلمية والرأى يرى فى البحث العلمى . والحقيقة أن المجون مزاج لادخل له بالمتدين أو عدم المتدين ؛ وقد كان من أثر انتشار مزاج المجون أنك تقول قولاً سليماً تقصد به معنى نظيفاً فيكون أول ما تصنع عقول السامعين أن تفتش فيه عن تخريج إلى المجون ، ولا فرق فى ذلك بين المتدينين وغير المتدينين ، ورأينا أناساً من المتدينين يدعوهم الحسد والحقد إلى اتهام كل من كان أغنى أو أعقل أو أنظف منهم بالمجون . ونعرف أن فى علم النفس قاعدة تدل على أن بعض الناس حتى المتدينين منهم يتمنون لأنفسهم أمانى المجون فيتلذذون بأمانيتهم بنسبة ذلك المجون إلى غيرهم . وهناك طائفة من المتدينين صاروا ينافسون بعض رجال الصحافة والسياسة فى سلاحهم السياسى ويحتجون باستعمال حسان بن ثابت هذا السلاح فى الدفاع عن الدين ، وقد فاتهم أن المسلمين كانوا فى عهد قوله هم المضطهدين المستومين وقد نالهم من أقوال خصومهم من السباب مثل ما نال المشركين من أقوال حسان بن ثابت . وفى يقينى أن النبى صلى الله عليه وسلم عند ما دعا له أن يزيد روح القدس وعند ما نصحه أن يلجأ إلى أبى بكر الصديق لم يكن يريد أن يزيد سيدنا أبو بكر من شدة الهجاء فقد كان الشاعر به أعرف ، ولكن النبى

صلى الله عليه وسلم تخرج من الرمي بالباطل بالرغم من أن شعراء الكفار ما كانوا يتخرجون من ذلك . وقد ذهبت أقوالهم بعد ما انتصر الإسلام وبقيت أقوال حسان بن ثابت . ولو بقيت أقوال شعراء الكفار لدلت على ما أردنا إثباته وهو أن شعراء الكفار كانوا هم البادئين بتلك الطريقة في الهجاء . ومع ذلك فإن ديوان حسان بن ثابت خليق بأن يسمى ديوان العبر لأن سادة المشركين الذين هجأهم صاروا بعد إسلامهم سادة المسلمين ، وفي هجائه بعض ما لا ينقضه الإسلام ولا يغيره . وهذا الديوان إذا أخذ على علاقه دل على حالة خلقية لا يتوقع القارىء أن يكون في ذلك الزمن . والسير على هذه الطريقة من غير رقيب أو وازع هو من الإخلال بروح الدين في عصرنا وهو عصر ينقاد فيه السذج لمن يريد أن يشفى حقه أو حسده ممن لا دين له ولا خلق وإن تظاهر بالدين والخلق ، وهذه حقيقة لا مبالغة في تعبيرنا عنها وقد لا يكون الأستاذ الغمراوي ممن يعرفها لبعده عن هذه الطوائف وبعده عن أحقادها وأقذارها ولكنها حقيقة يستطيع أن يراها في المجادلات السياسية وخصومات بعض المشتغلين بالسياسة والصحافة والأدب ؛ فليس من العسير أن يفهم المفكر وجودها في بعض النفوس التي تتخذ السذج من المتدينين قنطرة للوصول إلى غرض شخصي ، أو في نفوس بعض الذين لا يفهمون أن الدين ينبغي أن يترفع أنصاره عن المجون ؛ لكن كيف تفهم ذلك نفوس مزاجها ذلك المجون . والمزاج لا يستطيع تجنبه مهما كان المرء متديناً . فالخطأ الذي وقع فيه الأستاذ الغمراوي عند ما حسب أن شدة التدين تعصم من الانهماك في الشهوات ، أو أنها تعصم من لذة قول المجون إنما هو خطأ الذي يحكم على غيره بحالة نفسه . فإذا وجد نفسه متديناً يكره المجون ظن أن التدين يعصم من المجون وليسمح لى الأستاذ الغمراوي أن أقول بكل رعاية : إن هذا الظن يدل على أنه لم يدرس خصائص النفس الإنسانية عامة في نفوس الناس دراسة غير المتحيز وغير المتعصب لطائفة دون طائفة ، فإنه لو فعل ذلك لعلم أن مقدار ما في نفس المرء من مجون لا يعينه مقدار تدينه ، حتى ولو وجدنا أمثال الأستاذ الذين يعصم تدينهم من المجون . ونحن لا نريد التعرض لشواهد من شعر ونثر الأدباء القريبى العهد كرامة وصيانة ؛ وأما من عداهم من المتدينين وغير المتدينين فما على الأستاذ إلا أن يخالطهم وأن يدرسهم من غير أن يشعرهم أنه يدرسهم إلا إذا كانوا يهابونه كل الهيبة فلا يظهرون أمامه حقيقة نفوسهم . والخطأ الثانى الذى وقع فيه الأستاذ هو ظنه أن الشكوك الدينية تمنع الاعتقاد . والخطأ الثالث حسبانه أن عجز الكاتب عن منع إذاعة هواجس نفسه يدل على أنها أكثر تمكناً من نفسه ؛ ومثل الأستاذ كمثله الذى يرى صنوبر ماء لا يقلل تماماً فيحسب أن ماء أغزر من ماء غيره لأنه لا يستطيع

إحكام حبس الماء من التسرب منه . وهذه الهفوات الفكرية هي التي وطدت السبيل لأن يفهم الأستاذ في النزعة إلى التجديد ما ليس فيها ، ففهم أنها حركة التفاف يراد بها التعاون مع الحاقدين على الدين الاسلامي من الأوربيين . وقد أوضحنا للأستاذ بالشواهد التاريخية والأدلة المنطقية أن كل ما في هذه النزعة من محاسن ومفاسد كان من الممكن استنباطه من الآداب والعلوم العربية حتى ولو لم تتأثر النفوس بأدب اللغات الأوربية ، وإنما كانت تحتاج إلى زمن أطول لاستخراج كل هذه الأمور لو لم تتأثر بأدب اللغات الأوربية . ولا أدري لماذا لم يتهم الأستاذ الغمراوي أبا العلاء المعري بأنه كان يريد أن يقوم بحركة التفاف وتطويق معارضة لأعداء الإسلام من الأوربيين .

ومن رأيي أن الأستاذ الغمراوي يؤدي خدمة كبيرة للدين والفضيلة لو أنه ترك نزعة التجديد وحاول بغيرته الصادقة أن يظهر الشعور الديني من شوائب الأثرة والمجون في نفوس الناس الذين يعتقدون أن تدينهم صك يعفيهم من ضرورة تطهير أنفسهم من المجون ومن تهالك الأثرة وجشعها ورسائلها الحبيثة وأحقادها . وإذا كان شيخ الأدب القديم محمود باشا سامي البارودي لم يعصمه أخذه بالمذهب القديم من اختبار شعر أبي تمام في الغلام . فإن من الظلم بأستاذ أن تلوم الدكتور طه وهيكمل بعد ذلك على نشر قصص منقولة عن الفرنسية ، وهي مهما كانت لا يبلغ بها المجون هذا المبلغ ، وبعضها كان دراسات نفسية (سيكولوجية) ، وإذا كان شيخ المعرة أبو العلاء المعري لم يرد أن يقوم (بحركة التفاف لمعاونة أعداء الإسلام من الأوربيين عندما قال : (قالوا لنا خالق حكيم) إلى أن قال :

هذا كلام له خبيء معناه ليست لنا عقول

وعندما قال : (الموت نوم طويل لا انتهاء له) ، وانظر إلى قوله لا انتهاء له ، وعندما قال في إنكار البعث :

لو كان جسمك متروكاً بهيئته بعد التلاف طمعنا في تلاقيه

ومثل قوله في فناء الروح :

وجسمي شمع والروح نار إذا حان خمدت بأف

أقول بعد هذه الأقوال وأشباهاها التي يتخللها أقوال أخرى تختلف عنها : إذا كان شيخ المعرة جديراً بإحياء المسلمين ذكراً ، وطبع أقواله فمن الظلم أن يعد الأستاذ الغمراوي دراسة فولتير جريرة وحركة التفاف .

إن للدكتور طه آراء نخالفها كل المخالفة، ولكنها ليست حركة التفاف ؛ إنما هي نتيجة التفكير الذى قد يخطئ وقد يصيب . وكذلك ليست القصص التى نقلتها السياسة الأسبوعية حركة التفاف وإنما يصح أن ينتقد الناقد نشر بعضها ، ومادامت مكتبات مدارس البنين والبنات الدينية وغير الدينية مملوءة بمثل المجون وأشد من الفحش والمجون الذى سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه^(١) مسحيم عبد بنى المسحاس ينشده فى بنت سيده ويقول :

ولقد تحدر من كريمة بعضهم عرق على جنب الفراش وطيب

فمن العبث لوم السياسة الأسبوعية على تلك القصص .

(١) راجع كتاب طبقات الشعراء لابن قتيبة .

محتويات المجلد الثانى

صفحة

- ١ - لمحات من سير أدبية : خيول الشوق :
- ١- رأيى فى الشعر الحديث : المقتطف : مايو ١٩٣٩ ٤٧٥
- ٢- الشعر ، الثقافة : المقتطف : يونيو ١٩٣٩ ٤٨٤
- ٣- المثل العليا فى الشعر : المقتطف : أغسطس ١٩٣٩ ٥٠٠
- ٤- ذكريات سنى التعليم (١) : الرسالة : ٢٤ يوليو ١٩٣٩ ٥٠٨
- ٥- ذكريات سنى التعليم (٢) : الرسالة : ٧ أغسطس ١٩٣٩ ٥١١
- ٦- التفاؤل والتشاؤم فى الشعر : الرسالة : ١ مايو ١٩٣٩ ٥١٦
- ٧- التفاؤل والتشاؤم فى الشعر أيضا : الرسالة : ١ مايو ١٩٣٩ ٥٢٢
- ٨- عود إلى التفاؤل والتشاؤم : الرسالة : ١٥ مايو ١٩٣٩ ٥٢٧
- ٩- حول اعتزال عبد الرحمن شكرى الحياة لأدبية ٥٣٣
- لا أستاذ ولا تلميذ : الأهرام : ١٢ سبتمبر ١٩٣٤ ٥٣٣
- ١٠- الشهرة والخلود : المقطم : ١٤ سبتمبر ١٩٣٤ ٥٣٤
- ١١- شئون وشجون : البلاغ : ٢١ سبتمبر ١٩٣٤ ٥٣٦
- ١٢- شئون وشجون : البلاغ : ٢٣ سبتمبر ١٩٣٤ ٥٣٨
- ١٣- رسالة الأدب والشباب : البلاغ : ٢٩ سبتمبر ١٩٣٤ ٥٤٠
- ١٤- مادة جديدة لدراسة عبد الرحمن شكرى
- الأبحاث : يونيو / حزيران ١٩٦٠ ٥٤٣

٢ - قصص عبد الرحمن شكرى :

- ١ - سميحة : مجلة الـ ٢٠ قصة : ٢٢ يناير ١٩٣٨ م : ٥٧٥
- ٢ - هل أحب ؟ : مجلة الـ ٢٠ قصة : أول فبراير ١٩٣٨ م : ٥٨٢
- ٣ - النموذج : مجلة الـ ٢٠ قصة : أول فبراير ١٩٣٨ : ٥٩١
- ٤ - جريمة أم قصاص : المقتطف : مايو ١٩٤٧ : ٦٠٠
- ٥ - الخلاق المجنون : المساء : ٦ ديسمبر : ٦٠٧

٣ - فى المرأة (تأملات عبد الرحمن شكرى فى الطبيعة البشرية والحضارة) :

- ١ - إجلال العظيم : الجريدة : ٢٥ يونيو ١٩٠٨ : ٦١٥
- ٢ - مقالة فى الفصول : الجريدة : ٦ أغسطس ١٩١١ : ٦١٩
- ٣ - الحجاب والسفور : الجريدة : ٩ أغسطس ١٩١١ : ٦٢٣
- ٤ - طرف فلسفية : البيان : مايو ١٩١٢ : ٦٢٧
- أحلام اليقظة

- ٥ - العلوم والآداب : المؤيد : أول يوليو ١٩١٤ : ٦٣٠
- النقد الاجتماعى

- ٦ - قطعه من كتاب : البيان : ديسمبر ١٩١٥ : ٦٣٣
- رسائل الحب

- ٧ - عبقرية الفنون : الهلال : نوفمبر ١٩٣٥ : ٦٣٧
- ٨ - تركة التاريخ فى : المقتطف : مارس ١٩٣٦ : ٦٤٢

نفوس الشعوب الضعيفة

- ٩ - عظمة الهجرة : الرسالة : ٢٠ إبريل ١٩٣٦ : ٦٤٧
- ١٠ - حيل الضمير : الرسالة : ٢٧ إبريل ١٩٣٦ : ٦٥٠

- ١١ - عصور الركود وعصور التغير : المقتطف : إبريل ١٩٣٦ : ٦٥٣
- فى حياة الأمم

- ١٢ - الشباب والمشيب : الهلال : مايو ١٩٣٦ : : ٦٥٧
كالمطرقة والسندان
- ١٣ - عالم الإيحاء : الرسالة : ٢٥ مايو ١٩٣٦ : : ٦٦٠
- ١٤ - امتزاج الأحاسيس : الرسالة : أول يونيو ١٩٣٦ : : ٦٦٤
- ١٥ - المغالطة فى الرسائل والغايات : الرسالة : ٨ يونيو ١٩٣٦ : : ٦٦٧
- ١٦ - الصفات المحسودة : الرسالة : ١٥ يونيو ١٩٣٦ : : ٦٧١
- ١٧ - من مسرات الحياة : الرسالة : ٢٢ يونيو ١٩٣٦ : : ٦٧٥
- ١٨ - بين تلتوى وماكس نوردو : الرسالة : أول مارس : ١٩٣٧ : : ٦٧٩
- ١٩ - حدود الحق والواجب : الرسالة : ٢١ فبراير : ١٩٣٨ : : ٦٨٣
- ٢٠ - اختلاف حدود الحق والواجب : الرسالة : ٢٨ فبراير : ١٩٣٨ : : ٦٨٨
- ٢١ - التعليم
- بين المؤثرات التاريخية والأخطاء البورجوازية : المقتطف : مارس : ١٩٣٨ : ... : ٦٩٢
- ٢٢ - مظاهر داء الشعور بالحقارة : الرسالة : ٧ مارس ١٩٣٨ : : ٦٩٦
- ٢٣ - عود إلى داء الشعور بالحقارة : الرسالة : ١٤ مارس ١٩٣٨ : : ٧٩٩
- ٢٤ - مجد العرب والإسلام : الرسالة : ٢١ مارس : ١٩٣٨ : : ٧٠٢
- ٢٥ - داء الشعور بالحقارة أيضا : الرسالة : ٤ إبريل ١٩٣٨ : : ٧٠٧
- ٢٦ - مظاهر القسوة والرحمة : الرسالة : ٢٥ أبريل ١٩٣٨ : : ٧١٢
- فى الحضارات
- ٢٧ - مقياس الثقافة : الرسالة : ١٩ ديسمبر ١٩٣٨ : : ٧١٦
- ٢٨ - الأخلاق والحضارة : المقتطف : فبراير ١٩٣٩ : : ٧٢٠
- ٢٩ - هل تنجح الديكتاتورية عندنا ؟ الهلال : مارس : ١٩٣٩ : : ٧٢٤
- ٣٠ - صيانة العقيدة المحمدية : الرسالة : ١٣ مارس ١٩٣٩ : : ٧٢٨
- من احتيال النفوس
- ٣١ - عواقب النصيحة : الثقافة : ٤ إبريل ١٩٣٩ : : ٧٣٢

- ٣٢ - العقول بين الشرق والغرب : الثقافة : ٢٥ إبريل ١٩٣٩ : ٧٣٦
- ٣٣ - لعبة التخادع فى الحياة : الرسالة : ٢٤ إبريل ١٩٣٩ : ٧٤٣
- ٣٤ - الواشى والوشاية : الرسالة : ٢٩ مايو ١٩٣٩ : ٧٤٦
- ٣٥ - لاجاة الجدل : الرسالة : ٣ يوليو ١٩٣٩ : ٧٥٠
- ٣٦ - وسائل الاغتيال : الرسالة : ١٠ يوليو ١٩٣٩ : ٧٥٤
- ٣٧ - المفتاب : المجلة الجديدة الأسبوعية : ٢٢ أكتوبر ١٩٣٩ : ٧٥٧
- ٣٨ - مشكلة اليهود فى العالم : الرسالة : ٣١ يوليو ١٩٣٩ : ٧٥٨
- ٣٩ - الحق جاهد : الرسالة : ٢١ أغسطس ١٩٣٩ : ٧٦٢
- ٤٠ - الحضارة واختلاف الطبائع : المقتطف : مارس ١٩٤٧ : ٧٦٦
- ٤١ - السلم الدائم والحلف العام : المقتطف : إبريل ١٩٤٧ : ٧٧٠
- ٤٢ - الحرب تؤدى إلى الحرب : المقتطف : يونيو ١٩٤٧ : ٧٧٤

٤ - فى النقد :

- ١ - التمثيل : الجريدة : ١٨ يونيو ١٩٠٨ : ٧٨١
- ٢ - ضحائر الشعراء والشجاعة الأدبية : البيان : مايو ١٩١٢ : ٧٨٨
- ٣ - مقالات فى الأدب
- التخيل والتوهم : البيان : يونيو ١٩١٢ : ٧٩٠
- الجاحظ والصابى : ٧٩١
- ٤ - واجب أدبى وانتحال المعانى الشعرية : المقتطف : يناير ١٩١٧ : ٧٩٤
- ٥ - العاطفة فى الشعر : مقدمة الجزء الثالث "أناشيد الصبا" ط. الأولى ١٩١٥ : ٨٠١
- ٦ - فى الشعر : مقدمة الجزء الرابع "أزهار الربيع" ط. الأولى ١٩٤٦ : ٨٠٣
- ٧ - فى الشعر ومذاهبه : مقدمة الجزء الخامس "الخطوات" ط. الأولى ١٩١٦ : ٨٠٧
- ٨ - فصل فى أن الشعراء كماليون : مقدمة الجزء السادس "الأفتان" ط. ١٩١٨ : ٨١٩
- ٩ - مقدمة : الجزء السابع "أزهار الخريف" ط. الأولى ١٩١٩ : ٨٢١

- ١٠ - نقد الطريقة الرمزية وشرح أثرها في أساليب : ٨٢٣
السعر ومعانيه : مجلة أبولو : المجلد الأولى العدد العاشر ، يونيو ١٩٣٣ :
- ١١ - البؤساء : عكاظ : ٧ يناير ١٩٢٣ : ٨٣٢
- ١٢ - فن أبي نواس : الهلال : أغسطس ١٩٣٦ : ٨٣٤
مثال لطرب الفنان بقلته :
- ١٣ - الشريف الرضى وخصائص شعره : الرسالة : ٢ ، ٩ يناير ١٩٣٩ : ٨٣٨
- ١٤ - شعر مهيار : الرسالة : ١٦ يناير ١٩٣٩ : ٨٤٨
- ١٥ - المتنبي وسر عظمتة : الرسالة : ٢٣ يناير ١٩٣٩ : ٨٥٦
- ١٦ - ابن الرومي الشاعر المصور : الرسالة : ٦ فبراير ١٩٣٩ : ٨٦٨
- ١٧ - أبو تمام شيخ البيان : الرسالة : ٢٧ مارس ١٩٣٩ : ٨٨٣
و ٣ إبريل ١٩٣٩ :
- ١٨ - البحتري أمير الصناعة : الرسالة : ١٠ إبريل ١٩٣٩ : ٨٩٤
- ١٩ - رجعة إلى البحتري : الرسالة : ٢٢ مايو ١٩٣٩ : ٩٠٨
- ٢٠ - المعري هل كان سابقاً لعصره : الهلال : يونيو ١٩٣٨ : ٩١٤
- ٢١ - أبو العلا ونظيره إلى الحياة : المقتطف : يونيو ١٩٨٣ : ٩١٨
- ٢٢ - أنواع النسيب والتشبيب في الشعر العرب : المقتطف : إبريل ١٩٣٩ : ٩٢٣
- ٢٣ - الرثاء في شعر العرب : الثقافة ٩ مايو ١٩٣٨ : ٩٣٤
و ١٦ مايو ١٩٣٩ :
و ٢٣ مايو ١٩٣٩ :
- ٢٤ - الفكاهة في شعر العرب : البيان : أبريل ١٩١٢ : ٩٥٠

٥ - قضايا ومناقشات :

القديم والجديد

الجديد والقديم

- ٩٥٩ ١ - القديم والجديد : الرسالة : ٤ يوليو ١٩٣٨ :
 ٩٦٤ ٢ - بين القديم والجديد : الرسالة : ١١ يوليو ١٩٣٨ :
 ٩٧١ ٣ - بين القديم والجديد : الرسالة : ١٨ يوليو ١٩٣٨ :
 ٩٧٧ ٤ - بين القديم والجديد : الرسالة : ٢٥ يوليو ١٩٣٨ :
 ٩٨٥ ٥ - بين القديم والجديد : الرسالة : أول أغسطس ١٩٣٨ :
 * بين الأستاذين الغمراوي وقاري*
 ٩٩٣ الرسالة : ٥ سبتمبر ١٩٣٨ :
 ٩٩٤ ٦ - بين القديم والجديد : الرسالة : ٨ أغسطس ١٩٣٨ :
 ١٠٠٢ ٧ - بين القديم والجديد : الرسالة : ٨ أغسطس ١٩٣٨ :
 ١٠٠٩ ١- الدين والأخلاق بين الجديد والقديم :
 الرسالة : ٢٢ أغسطس ١٩٣٨ :
 ١٠١٤ ٢ - الدين والأخلاق بين الجديد والقديم : الرسالة : ٢٩ أغسطس ١٩٣٨ :
 ١٠١٨ ٣ - الدين والأخلاق بين الجديد والقديم : الرسالة : ٥ سبتمبر ١٩٣٨ :
 ١٠٢٣ ٤ - الدين والأخلاق بين الجديد والقديم : الرسالة : ١٢ سبتمبر ١٩٣٨ :
 ١٠٢٧ ٥ - الدين والأخلاق بين الجديد والقديم : الرسالة : ١٩ سبتمبر ١٩٣٨ :
 ١٠٣٢ ٦ - الدين والأخلاق بين الجديد والقديم : الرسالة : ٢٦ سبتمبر ١٩٣٨ :
 ١٠٣٧ * رد على نقد (القديم والجديد) الرسالة : ٢ يناير ١٩٣٩ :
 ١٠٤١ * رد على رد (بين القديم والجديد) الرسالة : ٢٠ فبراير ١٩٣٩ :
 ١٠٤٥ ٧ - بين القديم والجديد : الرسالة : ٢٧ فبراير ١٩٣٩ :
 ١٠٥٠ ٨ - بين القديم والجديد : الرسالة : ٦ مارس ١٩٣٩ :

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٠٤٥٥ / ١٩٩٨

الترقيم الدولي (9 - 045 - 305 - 977 - I. S. B. N)

عبد الرحمن شكري

عبد الرحمن شكري الشاعر والناقد الكبير، غواص في
بحار الثقافة والحياة، يتحلى ببصيرة نافذة، وفطنة في
فهم الطبيعة البشرية والسلوك الإنساني، رافع في أسلوبه،
ينشد الكلمة العذراء : «إن الكلمات والقوى النادرة لا قيمة لها في
نفسها، بل قيمتها في استخراجها واستعمالها وما ينشأ عنها من
المؤثرات، كما أنه الجواهر الكريمة أو المعادن النفيسة، لا قيمة لها ما
دامت في باطن الأرض، بل قيمتها إذا استخرجت وصادفت رغبة فيها.
أما إذا لم يوجد رغبة فيها فلم تكن لها قيمة..»
إن جدل الماضي والحاضر يندغم في عطاء «عبد الرحمن شكري»
بوصفه مبدعاً وناقداً في آن. ومن هذا المنظور نتعرف على خصوصية
التجربة الإبداعية وتفردها في التراث الإبداعي لشكري : شاعراً أو
ناشراً.

من هنا نضع أمام القارئ العربي هذه المؤلفات الكاملة في ثلاثة
مجلدات: لتستوعب كل ما وقعت عليه عين الباحث من آثار
الشاعر والناقد الكبير، ويطمح هذا المشروع الضخم نحو
توثيق نصوص الأدب والنقد الحديث، خطوة على طريق
طوله ألف ميل؛ لإرساء دعائم صناعة الثقافة
الثقيلة، وبناء العقل النقدي والعربي؛ مؤكدة
استمرارية قضايا التنوير الأدبي
والنهضة العلمية الرصينة.